

الزمان والمكان في القرآن في قصص القرآن والأحاديث والأخبار

دراسة تناول تعريف القصص والأحاديث والأخبار
وبیان مقاصدها وحقیقة الزمن ودلالات الفاظه فيها

د. عبد القادر محمد المعمر

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر



تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

النَّبَأُ وَالْمُتَوَاتِرُ
فِي قِصَصِ الْقُرْآنِ
وَالْأَحَادِيثِ وَالْأَخْبَارِ



جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول علي إذن خطي من المؤلف والناشر

الطبعة الأولى : ١٤٤٥ هـ الموافق ٢٠٢٤ م

رقم الإيداع : ٢٤١٣٥٢٢

الترقم الدولي : 8-817-997-977-978

دار العلوم للنشر والتوزيع



@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979



الفرمان والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار

دراسة لتناول تعريف القصص والأحاديث والأخبار
وبيان مقاصدها وحقيقة الزمن ودلالات الفاظه فيها

و. عبد القدوس محمد المقصود هـ

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
الرياض - مصر

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهَدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ :

الحمدُ لله الذي جعلَ كلامه ذكرى لكلِّ مدكر، وجعلَ من مقاصدِ الذِّكرِ الحكيم، ما يهدي إلى صراطِهِ المستقيم، وقَصَّ في كتابه المبين، من قَصَصِ الغَابِرِينَ، ومصارِعِ الطُّغَاةِ المتجَبِّرِينَ، وهلاكِ العتاةِ الظَّالِمِينَ، ما يكون على مَرِّ الأيامِ والسنين، عبرةً لكلِّ معتبر، وهدايةً لكلِّ متعظٍ مُزْدَجِرٍ، وما يُبَيِّنُ مآلَ كُلِّ كَذَابٍ أَشْرٍ، وعاقبةَ كُلِّ مُسْتَكْبِرٍ بَطَرٍ، تَوَالَتْ عليه الشَّدَائِدُ، وهو في يومٍ عَسِرٍ، قد حَآبَ فيه سَعْيُهُ، ولأخراه حَسِرٍ، وقد نجا من سوءِ عاقبةِ كُلِّ تَقِيٍّ حَذِرٍ، قد خالفَ النَّفْسَ والهوى، وهو من كُلِّ معصيةٍ يَفِرُّ.

وقد شرعتُ في هذا الكتاب في برهة من زمان، قد بات الفجر فيه أسير ليل، والحليم في فتن تموج فيه حيران، وفي تبدُّلٍ لأحوالٍ جُلِّ الأنام، وتقلُّبٍ لأيام، وانصرامٍ لأعوام، وهرج واختلافٍ أمر، وتقاربٍ للزمان، ودنوٍ لأجلٍ، وضعفٍ لبنيان، وفي كُلِّ حينٍ منه، تعصف بي رياحٌ، وتقربني من كُلِّ أمرٍ خَطِرٍ، كريشةٍ في مهبِّ ريحٍ مستمر، في غربةٍ تقاذفني في بحارٍ لا ضفافَ لها، ومُحَدِّقٍ بكلِّ شرٍّ مستطِر، من بغيٍ وظلمٍ وجهلٍ منتشر، فأجوز بشقِ النفسِ كُلِّ أمرٍ عَسِرٍ، قد أحاط بي من كل ناحية، وطَوَّقني فما كدت منه أفر، فأحيد بعونِ كريمٍ عن ضنكٍ هاوية، والحال ليس بمستقر، في دنيا ابتلاءٍ وبغيٍ مستعر، وظلالُ اللُّطفِ تحوطني في كُلِّ نازلة، وتنجيني من مكرِ كُلِّ شيطانٍ أَشْرٍ، قد بدا قوياً فيما ظهر، مستعلياً على خلق، وقابضاً على صولجان، وغيرِ فَنِ ولا مُحْتَقِرٍ، فمهما غاب عدلٌ واستتر، وبغى ظالمٌ على ضعيفٍ وانتصر، ومهما ظلامٌ طال في ليلٍ وانتشر، وأرخبى على الصابرين سدوله، وامتدَّ في زمنِ البغي رواقه، فإنه من الأفول قريبٌ ومحتضر، وإن اليسر بلا ريب قريبٌ منتظر، فلا يغلب عسر يسرين، كما في أصدق الخبر، والبشر وعدُّ صدقٍ

لكلِّ صبورٍ منتظرٍ، فما بعد ظلام ليلٍ معتكرٍ، إلَّا إشراقة فجر يومٍ مزدهرٍ، وما عند الله عزَّجَلَّ باقٍ، والخير منه منهمرٍ، وما عند العبد يفنى ويندثر.

فكم لله من لُطفٍ خفيٍّ يدقُّ خفاهُ عن فهمٍ ذكيٍّ
وكم يُسرُّ أتى من بعدِ عُسرٍ وفرَّجَ لوعةَ القلبِ الشَّجيٍّ
وكم همَّ نساءٌ به صباحا فتعقبُهُ المَسْرَةُ بالعشي

وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ أحسنَ الحديثِ كلامُ الله عزَّجَلَّ، وخيرَ الهدي هديُّ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرُّ الأمور مُحدثاتها، وكلُّ مُحدثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة.

إنَّ القرآنَ الكريمَ هو كلامُ الله عزَّجَلَّ المنزل على خير خلقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو الهادي إلى صراطٍ مستقيمٍ، وهو جبلُ الله عزَّجَلَّ المتين، وإن القصص فيه هي أصدق القصص، وأنفعها للمكلف، وهي من أعظم أسباب الهداية، وقد وقع الإخبار فيها عن أحوال الأمم، والنبؤات السَّالِفة، بأسلوب مشوق، باعث على التأمل والتفكير فيما تتضمنه من حقائق وعبرٍ؛ يقصد منها: الهداية والإرشاد إلى طريق الحقِّ، والاعتبار بالعواقب لكلِّ عملٍ يقدم عليه الإنسان في حياته الدنيا، فهو ينظر بعين البصيرة إلى عاقبة من عمل صالحاً فأثمر ذلك العمل استقامة وصلاحاً، وراحة واطمئناناً، وحياة طيبة، وحسن جزاء في الآخرة، وإلى مآل من ضلَّ وانحرف، فبغى وظلم، فنزل به عقاب الله عزَّجَلَّ، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وقد كان هذا البحث الذي يتناول: (قصص القرآن، والأحاديث، والأخبار) من ضمن الموضوعات التي ذكرتها مجملتها في الجزء الثاني، من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، ثم رأيت إفرادها بالبحث في هذا المصنف مع زيادة إيضاح، وسميته: (الزَّمان

والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار)، لبيان تميز القصص، والأحاديث، والأخبار في القرآن الكريم، من حيث إن الكلام فيها هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ومثل ذلك من حيث الأخبار: ما حدث به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المرائي والأمور الواقعة في المستقبل، أو عن غيباتٍ لا تخضع للقانون الذي جعله الله عَزَّوَجَلَّ مطردًا في هذا الكون؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ خالق الزمان، وهو جَلَّوَعَلَا فوقه، وهو المتصرف فيه كيف شاء، فلا يحده زمن؛ ولأن هذا الغيب خارج عن حدود العقل، فلا يستقل بإدراكه، فيقتصر في ذلك على ما جاء في صحيح النقل، فمن الغيب ما هو خارج عن النظام الكوني المألوف والمطرد إلى غيب لا يعلم كنهه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فهو جَلَّوَعَلَا خالق الكون، وخالق الزمان والمكان.

وقد ذكر الأستاذ عباس العقاد رَحِمَهُ اللَّهُ: "أن عقيدة المسلم من جملة الغيبات، وأنها شيء يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعلمه الإنسان، ولكنها لا تناقض العقل ولا تلغيه، فليست هي ضد العقل لو عرفها وانكشف له الغطاء عنها، ولكنها فوق عقل الإنسان؛ لأنه محدود، وعالم الغيب مطلق غير محدود.

ومن قال: إنه يرفض الإيمان بغير المحدود، فكأنما يقول: إنه يرفض الإيمان بما يستحق الإيمان؛ إذ لا إيمان على الهدى بمعبود ناقص دون مرتبة الكمال الذي لا تحصره الحدود. إلا أن الفارق عظيم بين ما هو ضد العقل، وما هو فوقه، وفوق ما يدرك بالعقول المحدودة. فما هو ضد العقل يلغيه ويعطله، ويمنعه أن يفكر فيه وفي سواه، وما هو فوق العقل يطلق له المدى إلى غاية ذرعه، ثم يقف حيث ينبغي له الوقوف، وينبغي له الوقوف وهو

يفكر ويتدبر، إذا كان من العقل أن يفهم ما يدركه وما ليس يدركه إلا بالإيمان. وحيثما بلغ الإنسان هذا المبلغ فقد انتهى بالعقل والإيمان على وفاق" (١).

وعندنا أكثر من قاعدة في الحكم على الغيبات، منها: أن (عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود؛ إذ الموجودات أعم من المشاهدات)، و(عدم العلم بشيء ليس علمًا بعدمه)، أو (ما يحكم العقل باستحالته غير ما يعجز عن دركه)، والعقل إنما يقرأ النقل، وينظر في قيام الدلائل والشواهد على صدق القائل. وقد جعل الله عَزَّجَلَّ المنزل لقوم يعقلون، وجعل العقل مناط التكليف - كما هو معروف ومقرر-، وجعل العلم والنظر، والتفكير في الخلق، طريقًا موصلاً إلى الحقائق، ودالاً على الخالق جَلَّوَعَلَا؛ ولذلك لا يتصور وجود نص من مشرع حكيم يتناقض مع المسلمات والمبادئ العقلية، أو الحقائق العلمية. ونقول باستحالة وجود تعارض بين الآيات القرآنية، والحقائق العلمية، ومن قال بذلك فهو إما جاهل بالآية، أو جاهل بالحقبة العلمية. وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية).

والإيمان بالغيب يدخل فيه: كل ما أخبر الله عَزَّجَلَّ به، وكذا ما أخبر به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صح عنه.

ومن ذلك: الإيمان بالملائكة، والجن، والعرش، والكرسي، والجنة والنار، ونعيم القبر وعذابه، والصراط والميزان.. إلى غير ذلك.

والإيمان بالغيب من أعظم الأركان التي تقوم عليها عقيدة المسلم؛ ولذلك جعله الله عَزَّجَلَّ أول صفات المتقين، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ۝﴾ [البقرة: ٢-٣].

(١) انظر: التفكير فريضة إسلامية، لعباس العقاد (ص: ٨٥-٨٦).

وقد وردت أحاديث لا يلتفت فيها إلى الزمن بمقدار ما ينظر إلى القصد والفائدة منها، وفيها: الحثُّ على ما ينبغي فعله من الطاعات، والاحتراز عن ذنوب؛ لسوء مآل أصحابها، من نحو: مرآئي المعراج، وكما في حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحْيٍ الْخَزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»^(١)، أي: وضع تحريم السَّوَائِبِ، وهي جمع سائبة، وهي المذكورة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

قال المفسرون: إن عمرو بن لحي الخزاعي كان قد ملك مكة، وكان أول من غير دين إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاتخذ الأصنام، ونصب الأوثان، وشرع البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. و«قصبه» بضم القاف وإسكان الصاد، يعني: أمعائه؛ لأنه كان أول من أدخل الشرك على العرب.

وعن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (البحيرة): التي يمنح دُرُّها للطواغيت. و(السائبة): الإبل، كانوا يسيبونها لطواغيتهم. و(الوصيلة): من الإبل، كانت الناقة تبتكر بأنثى، ثم تنثى بأنثى، فيسمونها: (الوصيلة)، يقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدها لطواغيتهم، أو: يذبحونها.

(١) صحيح البخاري [٤٦٢٣، ٤٦٢٤]، مسلم [٢٨٥٦].

و(الحام): الفحل من الإبل، كان يضربُ. الضرابُ المعدودة، فإذا بلغ ذلك قالوا: هذا حام، قد حمى ظهره، فترك، فسموه: (الحام) قال معمر قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: إذا ضرب عشرة^(١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، بحروا أذنّها، أي: شقوها وحرّموا ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المعبي لم يركبها^(٢)، واسمها: البحيرة.

وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها.."^(٣).

فإن قيل: السوائب هي المسيية، فكيف يقال: سيب السوائب؟ قالوا في الجواب: معناه: سيب النوق التي تسمى: بالسوائب، فهو من قبيل قوله جَلَّوَعًا: ﴿أَعْصِرْ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، أي: أعصر عنبًا يؤول أمره إلى خمر؛ لأنه حال عصره لا يكون خمرًا، فالعلاقة هنا: اعتبار ما يؤول إليه.

وحديث: جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «يا أيها الناس: إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس - وقال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لموت بشرٍ - فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فصلوا حتى تنجلي. ما من شيء توعده إن لا قد رأيته في صلاتي هذه، لقد جيء بالنار، وذلكم حين رأيتموني تأخرت؛ مخافة أن يصيبني من لفحها، وحتى رأيت فيها صاحب المِخْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/١٣١)، تفسير عبد الرزاق (٢/٣٠)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم

(٤/١٢٢١)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٥٥٥).

(٢) الْمُعْبِي هو الذي ينقطع عن السير، أي: لا يركبها تخرجًا.

(٣) انظر: الكشاف (١/٦٨٤-٦٨٥).

في النار، كان يسرق الحاجِّ بِمَحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمَحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهَرَّةِ الَّتِي رَبَطْتُهَا فَلَمْ تَطْعَمَهَا، وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ ^(١)، حَتَّى مَاتَتْ جَوْعًا» الحديث ^(٢).

ذلك: ما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرَّمِيصَاءِ، امْرَأَةٌ أَبِي طَلْحَةَ، وَسَمِعْتُ خَشْفَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا بِلَالٌ، وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِفَنَائِهِ جَارِيَةً، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لِعِمْرٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ»، فَقَالَ عِمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعَلَيْكَ أَغَارٌ؟ ^(٣).

(١) «خشاش» - بفتح الخاء المعجمة - : حشرات وهوام الأرض. وقيل: صغار الطير. وحكى القاضي: فتح الخاء وكسرهما وضمها والفتح هو المشهور. وقال الجوهري: هو الحية ونحوها مما في الأرض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٧/٦)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/٣٤٢-٣٤٤)، الصحاح، للجوهري، مادة: (خشش) (٣/١٠٠٤).

(٢) صحيح مسلم [٩٠٤]. وقوله: و«لفحها»: - بفتح فسكون - . و«مخافة» منصوب على العلة، أي: خشية إصابة لفحها إياي. وفي (النهاية): لفح النار - بالفاء والحاء - : وهجها وحرها. «صاحب المحجن»: - بكسر الميم وسكون الحاء المهملة وفتح جيم - : عصا في رأسه اعوجاج اعوجاج كالصولجان، والميم زائدة. وقيل: خشب طويل على رأسه حديدة معوجة. «يجر قصبه»: - بضم فسكون - ، أي: يسحبه. «في النار»: و(الْقُصْبُ): الْمَعَى، وجمعه أقصاب. وقيل: الْقُصْبُ: اسم للأمعاء كلها. وقيل: أمعاء أسفل البطن. «وكان يسرق الحاج»: أي: متاعه. «بمحجنه، فإن فطن له» أي: علم به. «قال: إنما تعلق»، أي: الشيء المسروق «بمحجني، وإن غفل عنه»، أي: ذهل وجهه به ذهب به. انظر: مرقاة المفاتيح (١٩٧١-١٩٧٢)، شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢٠٩)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (لفح) (٤/٢٦٠).

(٣) صحيح البخاري [٣٦٧٩]، مسلم [٢٤٥٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمَلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»، قَالَ: مَا عَمَلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا، فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كَتَبَ لِي أَنْ أَصْلِي. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «دَفَّ نَعْلَيْكَ»، يَعْنِي: تَحْرِيكَ ^(١).

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قَالَ: أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِدْعَا بِلَالًا فَقَالَ: «يَا بِلَالُ بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ مَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ قَطُّ إِلَّا سَمِعْتَ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي، دَخَلْتَ الْبَارِحَةَ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتَ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي، فَأَتَيْتَ عَلَى قَصْرِ مَرْبَعٍ مَشْرَفٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقُلْتَ: لِمَنْ هَذَا الْقَصْرِ؟ فَقَالُوا: لِرَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ، فَقُلْتَ: أَنَا عَرَبِي، لِمَنْ هَذَا الْقَصْرِ؟ قَالُوا لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقُلْتَ: أَنَا قُرَشِي، لِمَنْ هَذَا الْقَصْرِ؟ قَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتَ: أَنَا مُحَمَّدٌ لِمَنْ هَذَا الْقَصْرِ؟ قَالُوا: لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ. فَقَالَ بِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَذْنْتُ قَطُّ إِلَّا صَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ، وَمَا أَصَابَنِي حَدَثٌ قَطُّ إِلَّا تَوَضَّأْتُ عِنْدَهَا، وَرَأَيْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّ رَكَعَتَيْنِ» ^(٢). ونحو ذلك من الأحاديث.

(١) صحيح البخاري [١١٤٩]، مسلم [٢٤٥٨]. وعند مسلم: «فإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ» الحديث.
(٢) أخرجه أحمد [٢٣٠٤٠]، والترمذي [٣٦٨٩]، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح غريب. قال: ومعنى هذا الحديث: «أني دخلت البارحة الجنة» يعني: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة، هكذا روي في بعض الحديث، ويروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «رَوَى الْأَنْبِيَاءُ وَحْيًا» "اهـ. والحديث أخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٢٠٩]، وابن حبان [٧٠٨٦]، والحاكم [١١٧٩]، [٥٢٤٥]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

فما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مألوفاً كان أو غير مألوف فإنه واقع لا محالة؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤]، وإن كان لا يلتفت فيه في مواضع كثيرة إلى الزمن بمقدار ما ينظر إلى القصد والفائدة، وهو الاعتبار والهداية، وإن كان في النصوص اعتبار للزمن فلنكتة ظاهرة، لا تخفى على متأمل من أولي البصائر. وذكرت في العنوان: ركيزتي القصد من القصص، والأحاديث، والأخبار في الكتاب والسنة، وهما: الهداية والاعتبار، مع بيان مصطلحات البحث والألفاظ المرادفة؛ لما بينها من صلة، ولجريانها في الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، وتنوع التعبير فيها، وسموها عن محددات الزمان، والمكان، والأشخاص، والمسافات؛ إذ إن الآيات إنما تُعنى في أهم ما تعنى بالهداية والاعتبار، فهما المقصد الأساس الذي ينبغي أن يلتفت إليه، دون التفات في الغالب إلى الزمان والأشخاص والمسافات في الغالب. وإن ذكر شيء من ذلك في غير الغالب من الاستعمال فإنما يأتي لحكمة ظاهرة، ونكتة بالغة.

وقد مهدت لذلك بذكر مصطلحات البحث، والألفاظ ذات الصلة والمقاصد والدلالات. ثم بسطت القول في بيان مفهوم الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع، ثم التجوز في الأفعال في قصص القرآن، ثم بيان دلالات ومقاصد القسم بالزمن في القرآن الكريم، ثم بيان مقاصد القصص والأخبار، وأنها من وحي الله عَزَّجَلَّ، فهي فوق الزمان، وهي أعم من أن تكون مقيدة بمحددات الزمن المألوف في النظام الكوني. ثم بيان الأزمنة الفاضلة، وقد ذكرت في خاتمة الكتاب بعض ألفاظ الزمان الأكثر تداولاً في الكتاب والسنة ودلالاتها في اللغة والتفسير والفقه. وأسأل الله عَزَّجَلَّ أن يكون عملاً نافعاً ومثمراً، وهادياً لكل باحث عن الحق، طالب للهداية.

أَسْأَلُ اللَّهَ جَلَّ فِي عِلَّاهُ حَسَنَ الْخَاتَمَةِ، وَأَنْ يَكْرِمَنِي وَمَنْ انْتَفَعَ بِهَذَا الْمُصَنَّفِ بِأَعَالِي الْجَنَانِ.

وَلَا أُبْرِئُ نَفْسِي مِنَ التَّقْصِيرِ وَالْخَطَا وَالنَّقْصِ فِي كُلِّ مَا طَغَى بِهِ الْقَلَمُ، مِمَّا زَلَّتْ فِيهِ الْقَدَمُ، مُعْتَذِرًا بِنَحْوِ مَا قَالَ الْإِمَامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وُظُنُّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِحٌ نَسِيحُهُ بِالْأَغْضَاءِ وَالْحَسَنِ وَإِنْ كَانَ هَلْهَلًا

وَسَلَّمَ لِأَحَدٍ الْحَسَنِينَ إِصَابَةً وَالْأُخْرَى اجْتِهَادَ رَامٍ صَوْبًا فَأَمَحَلًا

وَإِنْ كَانَ خَرَقَ فَادْرَكَهُ بِفَضْلَةٍ مِنَ الْحَلَمِ وَلِيَصْلَحَهُ مِنْ جَادٍ مَقُولًا^(١)

وَمَا قَالَ آخِرُ: "وَالْمَأْمُولُ مِنَ الْأَحْبَاءِ الْمُتَحَلِّينَ بِحُلِيِّ الْإِنْصَافِ، الْمُتَخَلِّينَ عَنْ رَذِيلَتِي:

الْبَغْيِ وَالْإِعْتِسَافِ، إِذَا عَثَرُوا عَلَى شَيْءٍ فِيهِ زَلَّتِ الْقَدَمُ، أَوْ طَغَى بِهِ الْقَلَمُ، أَنْ يَصْلَحُوهُ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْمَحَلُّ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَنْشَأَ النِّسْيَانِ وَالزَّلَلِ، مَتَمَنِّيًّا مِنَ النَّاضِرِينَ أَنْ يَنْظُرُوا بَعِينَ الْإِنْصَافِ؛ فَإِنَّ الْإِنْصَافَ خَيْرُ الْأَوْصَافِ"^(٢).

وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي هَذَا الْمُصَنَّفِ:

١ - تَعْرِيفُ مُصْطَلَحَاتِ الْبَحْثِ، وَالْأَلْفَاظِ ذَاتِ الصَّلَةِ، وَبَيَانُ الْمَقَاصِدِ وَالدَّلَالَاتِ.

٢ - بَسْطُ الْقَوْلِ فِي الزَّمَانِ فِي الْإِصْطِلَاحِ وَاعْتِبَارِ الشَّارِعِ، وَبَيَانُ قِيَمَةِ الزَّمَنِ فِي الْكِتَابِ السَّنَةِ.

٣ - بَيَانُ التَّجَوُّزِ فِي الْأَفْعَالِ فِي قِصَصِ الْقُرْآنِ وَكَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

٤ - بَيَانُ أَهْمِيَّةِ وَدَلَالَاتِ الْقِسْمِ بِالزَّمَنِ.

٥ - بَيَانُ الْمَقَاصِدِ وَالدَّلَالَاتِ لِلْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ.

(١) مَتْنُ الشَّاطِبِيِّ (ص: ٧).

(٢) مَغْنِي الطَّلَابِ، لِمُحَمَّدٍ حَسَنِ الْمَغْنِيسِيِّ شَرْحُ مَتْنِ إِيسَاغُوجِي، لِأَثِيرِ الدِّينِ الْأَبْهَرِيِّ (ص: ٤٨-٤٩).

٦ - بيان الأزمنة الفاضلة.

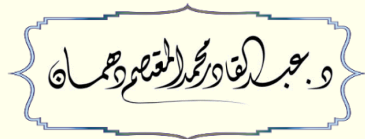
٧ - معاني ودلالات بعض الألفاظ الزمان في اللغة، والتفسير، والفقه، والحديث. وقد أوليت عناية لما ورد من أحاديث وأقوال من حيث التخريج، والتوثيق، والتحرير. أما تخريج الأحاديث فيأتي على النحو التالي: إذا كان الحديث في الصحيحين، فإنني أقتصر عليهما في التخريج، وإن كان في أحدهما دون الآخر، فإنني أخرجه منه وأكتفي. وأما إذا لم يكن الحديث موجوداً في الصحيحين أو أحدهما فإنني أسعى جاهداً إلى تخرجه من المسانيد والسنن، وقد اعتمدت الترتيب على حسب تاريخ الوفاة، وذكر رقم الحديث فقط بالنسبة لكتب الحديث المرقمة بين مقفين [**]، وذكر الجزء والصفحة بالنسبة للأحاديث غير المرقمة بين قوسين (**)، وإذا كثرت الطرق أكتفي بذكر أحدها. وإذا ذكر في غير موضع فإنني أكتفي بالتوثيق باعتبار أول ورود له فيما عدا الصحيحين.

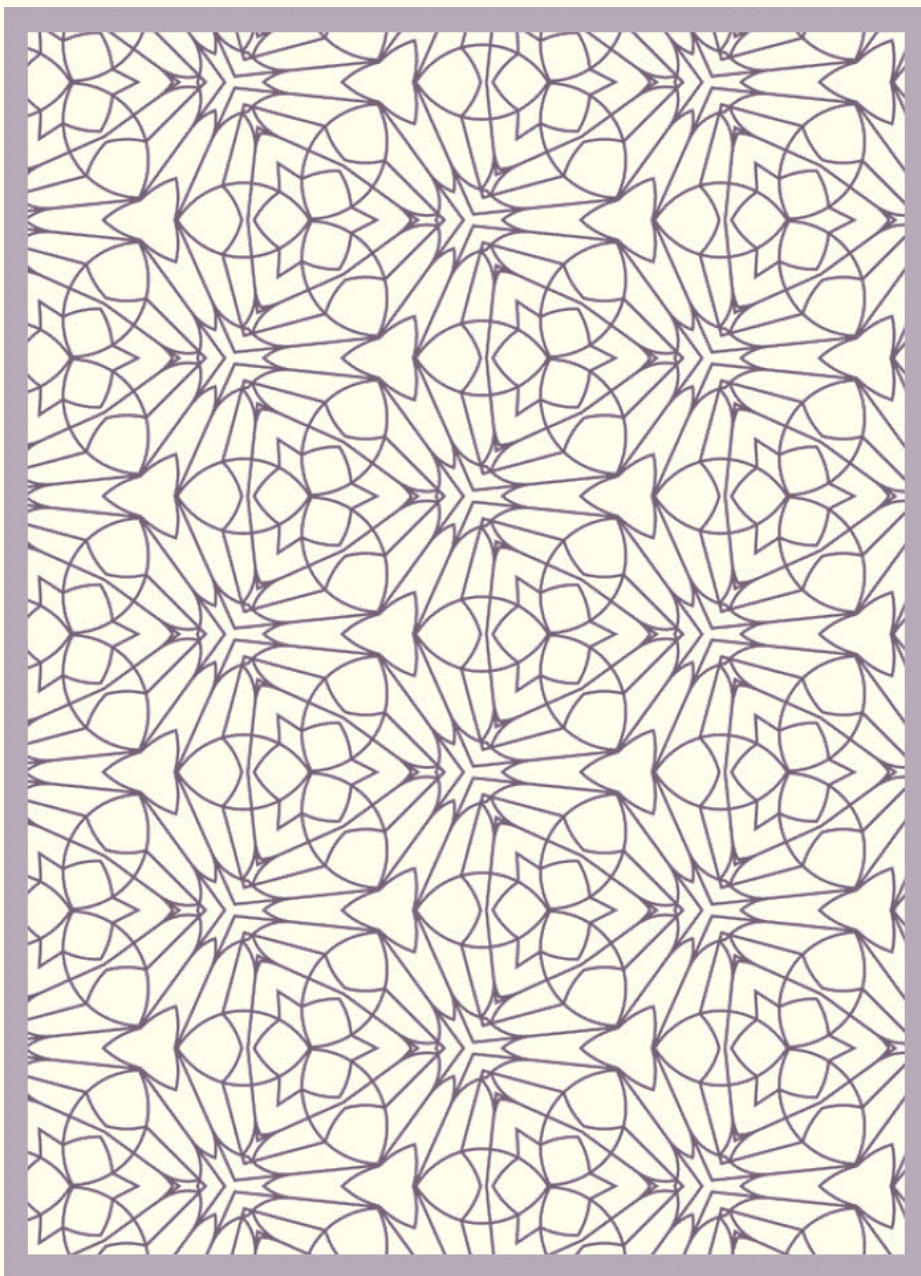
وفي حالة الزيادة على أول ورود فلنكتة لا تخفى على أولي البصائر. أما الحكم على الحديث فإنني أذكر درجة الحديث إن لم يكن في الصحيحين. وإذا تكرر ذكر الحديث الشريف في مواطنٍ لاحقة، فإنني أكتفي بالإشارة لتقدمه، وكذلك إذا تكرر ذكر الأثر أو القول فإنني أكتفي بالإشارة إلى تقدمه.

وقد التزمت توثيق الأشعار، والأمثال، والأقوال من مصادرها الأصلية، مع تحرير نسبة القول إلى صاحبه، وأن يختتم الاقتباس بذكر المرجع الذي قد اقتبس منه في الحاشية. وذكر مادة كل لفظ عند الرجوع إلى المعاجم مع ذكر الجزء ورقم الصفحة.

والقوسان المقفيان [**] للإدراج والأرقام.

والقوسان الهالريان (***) للجزء والصفحة، ولل كلمات التي قد تحتاج إلى بيان.





البحث الأول:

مصطلحات البحث والألفاظ ذات الصلة

أولاً: بيان معنى القصة في اللغة والاصطلاح:

١ - تحرير معنى القصة في اللغة وما يتصل بمادة اللفظ من المعاني:

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "قَصَّ أثره، أي: تتبَّعه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]. وكذلك اُقْتَصَّ أثره، وتَقَصَّصَ أثره. و(القِصَّة): الأمرُ والحديث. وقد اُقْتَصَصْتُ الحديث: رويته على وجهه. وقد قَصَّ عليه الخبرَ قَصَصًا. والاسمُ أيضًا: القَصَصُ - بالفتح -، وُضِعَ موضع المصدر حتى صار أغلب عليه.

و(القِصَصُ) - بكسر القاف - : جمع القصة التي تكتب.

و(القصاص): القَوْدُ. وقد أَقَصَّ الأميرُ فلانًا من فلان: إذا اُقْتَصَّ له منه فجرحه مثل جرحه، أو قَتَلَهُ قَوْدًا. واستَقَصَّهُ: سأله أن يُقَصِّه منه. وتَقَاصَّ القومُ: إذا قاصَّ كلُّ واحدٍ منهم صاحبه في حسابٍ أو غيره. ويقال: ضربه حتى أَقَصَّهُ من الموت، أي: أدناه منه....." (١).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قصص) (٣/١٠٥١-١٠٥٢).

و(الْقَصَصُ): مصدر قولهم: قَصَّ فلانٌ الحديثَ، يَقْصُهُ قَصًّا، وَقَصَصًا. وأصله: اتِّبَاعُ الأثر، يقال: خرج فلانٌ قَصَصًا في أثر فلان، و(قَصًّا)، وذلك إذا اقتَصَّ أثره، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ قُصِيَّهٖ﴾ [الفصص: ١١]. وقيل للقاص: يقصُّ لأتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلامَ سوقًا. فمعنى الْقَصَصُ: الخبر الذي تَتَابَعُ فيه المعاني (١).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الْقَصُّ: تتبَّع الأثر، يقال: قَصَصْتُ أثره، وَالْقَصَصُ: الأثر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَازْتَدَا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ قُصِيَّهٖ﴾ [الفصص: ١١]. ومنه قيل لما يبقى من الكلا فَيَتَّبَع أثره: قَصِيصٌ، وَقَصَصْتُ ظُفْرَهُ، وَالْقَصَصُ: الأخبار المتتبَّعة، قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [الفصص: ٢٥]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]، ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والْقِصَاصُ: تتبُّع الدَّم بالقود. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، ويقال: قَصَّ فلان فلانا، وضربه ضربا فَأَقْصَهُ، أي: أدناه من الموت، وَالْقَصُّ: الجِصُّ، و«نهي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تَقْصِيصِ القبور» (٢).

(١) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٣٢٥/٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (قصص) (ص: ٦٧١-٦٧٢). والحديث: في (صحيح مسلم) [٩٧٠]: عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «نُهي عن تَقْصِيصِ القبور». ويروى: «عن تَقْصِيصِ القبور» يريد: تلبسها بالجِص. و(التقصيص) بالقاف وصادين مهملتين هو التَّجْصِيس. و(الْقَصَّة) بفتح القاف وتشديد الصاد هي: الجِصُّ، وفيه: كراهة تَجْصِيسِ القبر، والبناء عليه... انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢٧/٧)، الاستذكار (٣٢٥/١).

قال جاز الله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ [يوسف: ٣]: "الْقَصَصِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أ. يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص، تقول: قصَّ الحديث يقصه قصصًا، كقولك: شله يشله شللاً: إذا طرده.

ب. ويكون (فعلاً) بمعنى: (مفعول) كالنفض والحسب^(١). ونحوه: النبأ والخبر في معنى: المنبأ به والمخبر به.

ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر، كالخلق والصيد^(٢).

وإن أريد المصدر، فمعناه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون ﴿أَحْسَنَ﴾ منصوبًا نصب

(١) بمعنى: المنفوض، والحسب بمعنى: المحسوب، وكالخبط بمعنى: المخبوط، وكالرتق بمعنى: المرتوق.

(٢) أي: بمعنى: المخلوق، والصيد في الأصل مصدر: صَادَ يَصِيدُ وَيُصَادُ، ويطلق على: الْمَصِيدِ. وتسمية المفعول بالمصدر كثير، ومنه تسمية المكتوب: كتابًا، وسمي المقروء قرآنًا كما سمي المكتوب كتابًا. ومن ذلك: ﴿فَقَبِضْتُ قَبْضَةً﴾ [طه: ٩٦] فالقبضة هي المرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر. ومن ذلك: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبا: ٦] فالمهد والمهاد: الشيء الممهد، سمو المفعول بالمصدر، كقوله في الدرهم: ضرب الأمير، أي: مضروبه، ومنه حديث: «يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ»، أي: المبعوث إليها من أهلها. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقد تقدم في الجزء الأول: أن التنزيل في الأصل: مصدر، سمي به الكلام المنزل من عند الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتسميته به من قبيل تسمية المفعول بالمصدر، ونظير ذلك: تسمية المقروء بالقرآن.. إلى غير ذلك.

المصدر، لإضافته إليه، ويكون المقصوص محذوفاً^(١)؛ لأنَّ قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ مغن عنه.

ويموز أن ينتصب ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بـ: ﴿نَقُصُّ﴾، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيجائنا إليك. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصَّ على أبداع طريقة، وأعجب أسلوب. ألا ترى أنَّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين، وفي كتب التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن.

وإن أريد بالقصص: المقصوص، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه؛ لما يتضمن من العبر والنكت، والحكم والعجائب التي ليست في غيرها.

والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، يراد: في فنه.

فإن قلت: مم اشتقاق القصص؟^(٢) قلت: من قصَّ أثره: إذا اتبعه؛ لأنَّ الذي يقصُّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال: تلا القرآن، إذا قرأه؛ لأنه يتلو أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية.. " (٣).

ويتحصل مما تقدم أن (القصص) على وجهين:

أحدهما: يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص.

(١) قوله: (ويكون المقصوص محذوفاً)، أي: مفعول ﴿نَقُصُّ﴾ محذوف لدلالة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، التقدير: نقص الموحى أحسن القصص. حاشية الطيبي على الكشاف (٢٤٠/٨).

(٢) قوله: (مم اشتقاق القصص؟)، أي: من أي معنى اشتق (القصص)، وما المنقول منه؟ وإلا فقد بين اشتقاقه فيما سبق حيث قال: قصَّ الحديث يقصه قصصاً" حاشية الطيبي على الكشاف (٢٤٢/٨).

(٣) الكشاف (٤٤٠/٤-٤٤١).

وثانيهما: يكون (فعلاً) بمعنى: (مفعول).

واشتقاقه من (قصَّ أثره): إذا اتبعه؛ لأن الذي يقصُّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، فالقصص أصله في اللغة من المتابعة، أي: من إتباع الخبر بعضه بعضاً. فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَحْسَنَ﴾ مفعول مطلق إذا كان القصص مصدرًا غير مراد به المفعول، ومفعول به إذا كان القصص مصدرًا بمعنى: المفعول.

ففي انتصاب ﴿أَحْسَنَ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون منصوبًا على المفعول به، فإذا جَعَلْتَ ﴿الْقَصَصَ﴾ مصدرًا واقعًا موقع المفعول، كاخْتَلَقَ بمعنى: المخلوق، أو جَعَلْتَهُ فَعَلًا بمعنى: مفعول كَالْقَبْضِ وَالنَّقْصِ بمعنى: المنقوص والمقبوض، أي: نُقِصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْأَشْيَاءِ الْمُقْتَصَّةِ.

والثاني: أن يكون منصوبًا على المصدرِ المَبْيَّنِ، إذا جَعَلْتَ ﴿الْقَصَصَ﴾ مصدرًا غير مرادٍ به المفعول، ويكون المقصودُ على هذا محذوفًا، أي: نُقِصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الاقتصاص.

فنصبه على المصدرية إما لإضافته إلى المصدر، أو لكونه في الأصل صفة مصدر، أي: قصصًا أحسن القصص.

وفيه مع بيان الواقع تعريض بما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل بسبب التحريف والتبديل.

و﴿أَحْسَنَ﴾ يجوز أن تكونَ أَفْعَلُ تفضيلٍ على بابها، وأن تكونَ لِمَجَرَّدِ الوصفِ بالحُسْنِ، وتكون من بابِ إضافة الصفة لموصوفها، أي: القصص الحسن.

قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ الباءُ سببيةٌ، وهي متعلقةٌ بـ: ﴿نُقْصُ﴾ و(ما) مصدريةٌ، أي: بسبب إيجائنا.

قوله: ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: وهو الظاهر أن ينتصب على المفعول به بـ: ﴿أَوْحَيْنَا﴾.

والثاني: أن تكون المسألة من باب التنازع، أعني: بين ﴿نَقُصُّ﴾ وبين ﴿أَوْحَيْنَا﴾، فإنَّ كلاً منهما يطلب ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾، وتكون المسألة من إعمال الثاني، وهذا إنما يتأتى على جعلنا ﴿أَحْسَنَ﴾ منصوباً على المصدر، ولم نُقَدِّرْ لـ: ﴿نَقُصُّ﴾ مفعولاً محذوفاً. كذا في (الدر المصون) وغيره.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن حملناه على المصدر كان المعنى: نقص عليك أحسن الاختصاص، وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان، لا إلى القصة. والمراد من هذا الحسن: كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حدِّ الإعجاز، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة.

وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص؛ لما فيه من العبر والنكت، والحكم والعجائب التي ليست في غيرها - كما تقدم في كلام الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ -" (١).

٢ - تحرير معنى القصة في الاصطلاح:

يستفاد معنى القصة في الاصطلاح مما تقدم من بيان معنى القصة في اللغة وما يتصل بمادة اللفظ من المعاني، وهي ترجع إلى أن القصة هي المعاني المتتابعة والمتراطة التي لم تكن تعلم للمخاطب قبل ذكرها.

(١) مفاتيح الغيب (٤١٧/١٨)، وانظر: الدر المصون (٤٣٠/٦)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي

(١٥١/٥)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٢٤٧/١٠).

ومن الأئمة من ذكر ما ينبئ عن معالم القصة، ومن ذلك: قول الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "القصص الخبر المشتمل على المعاني المتتابعة" ^(١). وقول القاضي ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "(قص الأثر): اتباعه وتطلبه في موضع خفائه" ^(٢).

وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "القاصُّ: الذي يأتي بالقصة على حقيقتها" ^(٣). أقول: وبناء على ما تقدم فإن القصة في القرآن الكريم تعرف بأنها: (عبارة عن حكاية حلقات متتابعة ومتراصة من المعاني، يكمل بعضها بعضاً حتى تتكامل تلك المعاني إلى قضية واحدة متحدت عنها على حقيقتها، لم تكن تعلم للمخاطب قبل ذكرها، قد قامت الدلائل والشواهد على صدقها، وهي تنبئ عن مقصد يستفاد من جملتها).

والقصص التي أخبر بها الله عَزَّجَلَّ في القرآن الكريم متنوعة، فمنها: القصص الدالة على حرص الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على دعوة أقوامهم إلى الهداية، ومكابدتهم المشاق في سبيل الدعوة والتبليغ، وذكر إيمان من آمن معهم، وإعراض من أعرض. وفي القرآن الكريم قصة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، وذكر وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر إيمان امرأة فرعون، وكفر امرأة نوح، وامرأة لوط.

وذكر أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار والآثار، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وصاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين، وذكر

(١) مفاتيح الغيب (٨/٢٥٠).

(٢) المحرر الوجيز (٣/٥٢٩).

(٣) معاني القرآن وإعراجه (٣/٨٨)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣/٣٩٦).

فرعون قارون وهامان، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وذكر أبي لهب وامراته، وذكر أهل الأعراف، وأحوال أهل الحنة والنار... إلى غير ذلك.

ثانياً: بيان معنى الخبر في اللغة والاصطلاح:

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "(الخَبْرُ) بالتحريك: واحد الأخبارِ. وَأَخْبَرْتُهُ بكذا وَخَبَّرْتُهُ، بمعنى. و(الاستِخْبَارُ): السؤال عن الخبر. يقال: خَبَرَ الموضع - بالكسر -، فهو خَبْرٌ. ويقال أيضاً: مِنْ أَيْنَ خَبَرْتَ هذا الأمر؟ أي: مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ. والاسم: (الخُبْرُ) - بالضم - وهو العلم بالشيء. و(الخبير): العالم. والخبير: الْأَكْبَارُ، ومنه: المخابرة، وهي المزارعة ببعض ما يَخْرُج من الأرض.." (١).

وفي (العين): "الخَبْرُ: النَّبَأُ، وَيَجْمَعُ عَلَى أَخْبَارٍ. والخبيرُ: العالمُ بالأمر. والخُبْرُ: مَخْبَرَةٌ الإنسان إذا خُبِرَ، أي: جُرِّبَ فبَدَتْ أَخْبَارُهُ أي: أخلاقه. والخبرة: الاختبار، تقول: أنت أبطن به خِبرَةً، وأطولُ به عشرةً. والخابِرُ: الْمُخْتَبَرُ الْمُجَرَّبُ، والخُبْرُ: علمك بالشيء، تقول: (ليس لي به خُبْرٌ)" (٢).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ [الزلزلة: ٤]، أي: تخبر بما عمل عليها من حسن أو سيء (٣).

وقد روي عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قرأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ [الزلزلة: ٤]، قال: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنْ

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (خبر) (٦٤١/٢). و(المخابرة): أن يُعْطِيَ الْمَالِكُ الْفَلَّاحَ أرضاً يزرعها على بعض ما يخرج منها كالثلث أو الربع.

(٢) العين، مادة: (خبر) (٢٥٨/٤)، وانظر: تهذيب اللغة (١٥٧/٧).

(٣) معاني القرآن، للفراء (٢٨٣/٣)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٥١/٥).

أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا»، قال: «فهذه أخبارها»^(١).

قال جابر الله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قلت: ما معنى تحديث الأرض والإحياء لها؟ قلت: هو مجاز عن إحداث الله عَزَّجَلَّ فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال، فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات؟ وأنَّ هذا ما كانت الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ينذرونه، ويحذرون منه.

وقيل: ينطقها الله عَزَّجَلَّ على الحقيقة، وتخبر بما عمل عليها من خير وشر"^(٢).
والشَّأن في المبتدأ أن يكون معلومًا؛ لأن الحكم على المجهول غير مُتَّصِرٍ فضلاً عن أن يفيد، فإذا كنت لا تعرف المجهول فكيف تعرف الحكم عليه؟
فعندما تقول لشخص: محمد في الدار، وهو لا يعرف محمداً، فإنه يقول: من محمد؟
فينبغي الاستفسار عنه، ثم الحكم عليه.

وفي قولنا: (محمد قائم) فإن هذه الجملة الخبرية يجب أن يتحقق فيها أمران:

أ. أن يكون المبتدأ (المحكوم) معلومًا.

ب. أن يكون الخبر (المحكوم به) مجهولًا.

فلو كان معلومًا لكانت الجملة غير مفيدة.

(١) أخرجه أحمد [٨٨٦٧]، والترمذي [٢٤٢٩]، وقال: "حسن صحيح غريب". كما أخرجه البزار [٨٥٤٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٦٢٩]، وابن حبان [٧٣٦٠]، والحاكم [٣٠١٢]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٩١٥]، والبعوي في (شرح السنة) [٤٣٠٨]، وقال: "هذا حديث حسن غريب". والحديث في إسناده: يحيى بن أبي سليمان.

(٢) الكشف (٤/ ٧٨٤).

فعندما تقول لشخص: أبوك فلان، أو السماء فوقنا، أو الأرض تحتنا، أو الكل أعظم من الجزء... فإن كلامك لا يفيد.

فالمحكوم به عندما يكون معلومًا فإن كلامك يكون غير مفيد.

فعند إخبارك بأمر من الأمور يجب أن يتحقق أمران:

أ. فائدة الخبر، يعني: إعلام المخاطب بحكم يجمله، فإن كان المخاطب عالماً بالحكم فلم يبق إلا لازم الفائدة.

ب. لازم الفائدة بأن تعرفه أنك أيها المتكلم عالم بالحكم.

فعندما نفترض أن إنساناً لا تريد أن تقول له اسم صديقك، فقال لك: اسم صديقك فلان، فهو لا يعرفك اسم صديقك، ففائدة الخبر هنا لم تتحقق؛ لأن المخاطب عالم بالحكم.

وإنما الغرض لازم الفائدة، وهي إعلام المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم.

فعندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١] فهل يريد إعلام المخاطبين بالحكم؟ لا؛ لأن المخاطبين لمجرد أن يعلموا أن هذه سورة فهم يعلمون أن القرآن الكريم لا بد أن يكون وحياً؛ فإنه من المعلوم بالدين بالضرورة بالنسبة للمسلمين جميعاً فضلاً عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين يحضرون الوحي، ويشهدون وقائع التنزيل.

فإذا لم يصلح ذلك فهل يصلح لازم الفائدة، وهو إعلام المخاطبين أن المتكلم عالم بالحكم؟ بالتأكيد لا يصلح؛ لأن المخاطبين قاطعون بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يخبر بشيء أو يحكم به ولا يكون عالماً به، فهم قاطعون بعلم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قال العلامة أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن سورة لا يصح أن تكون مبتدأ؛ لأن المبتدأ يجب أن يكون معلوماً، وسورة بالنسبة لهم أمر مجهول.

والأمر المجهول المفروض أنه الخبر، ولكنه هنا معلوم، فلا يصح إعلامهم بعلم الله عَزَّوَجَلَّ به فهم قاطعون بذلك" (١).

وقد أجاب العلماء عن هذا وقالوا: نحن مسلمون أن هذا التركيب الخبري لا ينفع فيه الفائدة، ولا لازم الفائدة، لكن الغرض ليس منحصرًا في هذا. فأنت تتكلم عن الغرضين الأصليين، لكن هناك أغراض أخرى فرعية كثيرة، منها: المدح، والتحسر، والامتنان..... الخ.

فعندما تقول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]. فهي لا تريد أن تفيد الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّ الَّتِي وَضَعْتُهَا أُنْثَى، كما أنها لا تريد أن تعلم الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّهَا عَالِمَةٌ بِكُونَ الموضوعَةِ أُنْثَى، وهذا أمر بديهي. وإنما غرضها من الخبر إنشاء (التحسر)، فهي كانت تريد المولود ذَكَرًا لكي تهبه (لبيت المقدس)، وقد كانوا لا يحزرون (لبيت المقدس) إلا الذكور، فخاطبت ربَّها عَزَّوَجَلَّ على سبيل التَّحَسُّرِ على ما فاتها من رجائها، وخلاف ما قَدَّرَتْ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرْجُو أَنْ تُلِدَ ذَكَرًا يَصْلَحُ لِلْخِدْمَةِ.

فكذلك عندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: فيما أوحينا إليك سورة، أو مما يتلى عليكم سورة، فليس المقصود هنا: فائدة الخبر، ولا لازم الفائدة، وإنما المراد: مدح السورة، أو الامتنان عليهم بهذه السورة.

فأنت إذا أعطيت إنساناً عطية ولم يشكر عطيتك أو قابلك بالجحود، فأنت تقول له: إني أعطيتك كذا وكذا، تمتن عليه بما فعلت، فأنت لا تقصد إخباره بفائدة الخبر ولا بلازم الفائدة، وإنما المقصود الامتنان، فالله عَزَّوَجَلَّ يمتن على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بأنه

(١) انظر: تفسير أبي السعود (١٥٥/٦).

أنزل السورة العظيمة البالغة من العظم كذا وكذا، فالمقام مقام مدح، وهو مصحح لكون السورة مبتدأ^(١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ في تعريف الخبر:

والخبر: الجزء المتم الفائدة كالله بر والأيادي شاهده

وقد تعقب ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ ابن مالك بأن التعريف يجب أن يكون جامعاً مانعاً، أي: جامعاً وشاملاً لكل أفراد المعرّف، ومانعاً من أن يدخل أي فرد غريب وخارج عن أفراد المعرّف في التعريف مبيّناً أن التعريف بالأعم لا يكون مانعاً، كتعريف الإنسان بأنه: حيوان يمشي على رجلين، فإن عددًا كبيراً من الحيوانات يمشي على رجلين. وأما التعريف بالأخص فلا يكون جامعاً، كتعريف الإنسان بأنه حيوان يقرأ ويكتب، فإنه غير جامع لجميع أفراد المعرّف، وهو الإنسان؛ إذ من الإنسان ما لا يقرأ ولا يكتب، ولم يشملته التعريف.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ: "عرف المصنف الخبر بأنه: (الجزء المكمل للفائدة)، ويرد عليه: الفاعل، نحو: قام زيد؛ فإنه يصدق على زيد أنه الجزء المتم للفائدة. وقيل في تعريفه: إنه الجزء المنتظم منه مع المبتدأ جملة. ولا يرد الفاعل على هذا التعريف؛ لأنه لا ينتظم منه مع المبتدأ جملة، بل ينتظم منه مع الفعل جملة. وخلاصة هذا: أنه عرّف الخبر بما يوجد فيه وفي غيره، والتعريف ينبغي أن يكون مختصاً بالمعرف دون غيره" انتهى^(٢).

(١) انظر: أوجه الإعراب بالتفصيل في (تفسير سورة النور)، للعلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة (ص: ٢٣-٢٥)، من مطبوعات كلية أصول الدين، القاهرة، بتصرف عن الطبعة القديمة.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢٠١/١-٢٠٢).

وإنما يرد هذا إن كان هو قصد ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ، ولكن المرادي رَحِمَهُ اللهُ قد تعقب ابن عقيل فقال: "ليس مراده بالجزء: جزء الكلام مطلقاً فيلزمه ما ذكرت، وإنما المراد: جزء الجملة الاسمية.

ويدل على ذلك أمران:

أحدهما: أن الباب موضوع لها.

والثاني: تمثيله بقوله:

*** كالله بر والأيادي شاهده.

فلم يدخل تحت كلامه: الفعل والفاعل، ولا الحرف أيضاً؛ لأنه لا يكون أحد جزئي الجملة الاسمية.

فإن قلت: إخراج المبتدأ بقوله: (التم الفائدة) غير واضح؛ لأن المبتدأ أيضاً يتم الفائدة، فإن الفائدة بهما حصلت.

قلت: الخبر هو ثاني الجزئين، ولا إشكال في أن ثانيهما هو الذي به تتم الفائدة. وأيضاً: فإن الخبر هو المستفاد من الجملة؛ ولذلك كان أصله: أن يكون نكرة، ولهذا قال أبو موسى رَحِمَهُ اللهُ^(١): المبتدأ معتمد البيان، والخبر معتمد الفائدة^(٢). والفرق بين الخبر والعلم: أن "الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها، ففيه معنى زائد على العلم" قاله العسكري رَحِمَهُ اللهُ^(٣).

(١) انظر ذلك في: المقدمة الجزولية في النحو، لأبي موسى الجزولي المراكشي، المتوفى سنة [٦٠٧هـ] (ص: ٣٨)، وانظر: شرح التسهيل، لابن مالك (٥١/٢)، وانظر الفرق بين البيان والفائدة في (معجم الفروق اللغوية)، لأبي هلال العسكري (ص: ٦٢).

(٢) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لأبي محمد المرادي (٤٧٤/١).

(٣) الفروق اللغوية (ص: ٩٣).

وفي علم في (علم المعاني) من علوم البلاغة: الكلام إمّا خبرٌ، أو طلبٌ، أو إنشاءٌ. وقد خص أصحاب هذا القول الطَّلَب بما سمَّاه غيرهم (الإنشاء الطَّلبي)، والإنشاء لما عداه، ك: (ألفاظ العقود)، نحو: (بعت) و(اشتريت).

فيدخل في (الإنشاء الطَّلبي): الأمرُ، والنَّهي، والاستفهامُ، والتَّمني، والنِّداء^(١). ويدخل في الإنشاء غير الطَّلبي: أفعال المدح والذَّم، وفعلا التَّعجب، والقَسَم^(٢).

(١) وقد يقال: إنّ النِّداء منه ما هو خبر لا إنشاء، وهو النِّداء بصفة نحو: (يا فاسق) و(يا فاضل)؛ لاحتمال التصديق والتكذيب في تلك الصِّفة.

(٢) أمّا (الإنشاء غير الطَّلبي) فهو كالقَسَم، فإذا قلت: (والله لأفعلن)، فهو إنشاءٌ، وليس فيه طلب، فكونك تقسم يعني أن يكون في نفسك القَسَم، فإنَّ صيغة القَسَم واضحة، لكن هل تُقسِم حقيقةً أو لا؟ هل قَصْدُكَ في نفسك القَسَم أو لا؟ هذا شيء لا نعرفه. والحاصل أن الأحكام الشرعية إمّا تؤخذ من الإنشاء، أو ما كان في معناه، وذلك أن الجملة الخبرية إذا خرجت عن الغرضين الأصليين - (فائدة الخبر)، و(لازم الفائدة) - فقد تحوَّلت الجملة إلى الإنشاء. ومن ذلك قول الحارث بن وغلَّة من (البحر الكامل): (قومي هم قتلوا أميم أخي*** فإذا رميت أصابني سهمي). والدِّلالة على هذا المعنى الإنشائي هل يكون بالحقيقة أم بالمجاز؟ إنّ الأغراض التي تخرج إليها الجملة الخبرية هي معانٍ نفسية لا نسبة مدلولها في الخارج، فمن يقول مثلاً: (ما أجمل السماء) يتعجب، فكلُّ ما في الخارج كون السماء جميلة أو غير جميلة، أمّا كون التَّعجب قائماً بنفسه، أو ليس كذلك - فقد يتظاهر بذلك أو يمثِّل علينا مثلاً - فهذه معانٍ نفسية لا نسبة مدلولها في الخارج، بخلاف قولنا: (محمد قائم)، فإنَّ كان قائماً بالفعل فهو صدق، وإن كان ليس قائماً فهو كذب، فلهذا القول نسبة في الخارج. أمّا إذا كانت المسألة نفسية، فلا اطلاع لنا على دخيلة الأنفس، فلا نسبة مدلولها في الخارج. أمّا عندما تقول للمخاطب: (قم) فهل طلب القيام قائم في نفسك، أو ليس قائماً؟.. لا نعرف، وكذلك خروج الخبر من الخبرية إلى إرادة (المدح) مثلاً، أو (الذَّم) أو الامتنان، أو التَّحسر، أو التَّعجب، أو الرثاء... لا نسبة مدلول ذلك في الخارج؛ لأنَّها معانٍ نفسية. وإذا كانت قد صارت إنشائية، فهل دلَّت على الإنشائية على سبيل الحقيقة أم على سبيل المجاز أو الكناية؟ إنّ الجملة الخبرية في أساس وضعها للإخبار الذي يحتمل التصديق والتكذيب، فإذا خرجت عمّا يحتمل التصديق والتكذيب إلى ما لا يحتمل التصديق والتكذيب تكون بذلك قد خرجت عن الإخبار إلى الإنشاء، واستعملت في غير ما وضعت له على سبيل المجاز أو الكناية. أمّا الإنشاء لفظاً فلا يتصوَّر إلا في الطَّلَب.

قال العلامة السعد رَحِمَهُ اللهُ فِي (المَطْوَل): "وغير طلبِ كأفعالِ المقاربة، وأفعالِ المدح والذَّم، وصيغِ العقود، والقَسَم، ولعلَّ ورُبَّ، و(كم) الخبريَّة، ونحو ذلك" (١).

قال فِي (السلم):

ما احتَمَلَ الصِّدْقُ لذاته جَرَى بينهمُ قَضِيَّةٌ وَحَبَرًا (٢)

فالقضية هي القول الذي يحتمل التصديق والتكذيب لذاته، وقوله: (يحتمل التصديق والتكذيب) مخرج للإنشاء.

وقوله: (لذاته) يُدْخِلُ فِي التعريف: القضية المقطوع بصدقها؛ لأمر خارج عنها، كخبر الله عَزَّجَلَّ، والقضية المقطوع بكذبها، كأخبار مسيلمة، وكقولنا: الواحد نصف الثلاثة، فالقضية فِي (علم المنطق) مرادفة للخبر فِي (علم البلاغة).

وإنما قلنا: يحتمل التصديق والتكذيب؛ لأن كل قضية بذاتها لا تحتمل إلا أن تكون صادقة أو كاذبة بحسب مطابقتها للواقع أو عدم مطابقتها.

وإنما يسمى قضية؛ لأنه مشتق من القضاء، والقضاء هو الحكم فلاشتمالها على الحكم سميت قضية.

وعند المنطقيين مصطلح: (الموضوع والمحمول)، ويعبَّرُ عنه عند البلاغيين بـ: (المسند والمسند إليه)، وفي الفقه والأصول بـ: (المحكوم به والمحكوم عليه)، وعند التَّحْوِيين: الموضوع هو المبتدأ أو الفاعل أو نائبُ الفاعل وأسماء النواسخ، والمحمول هو الخبرُ أو الفعل التام، واسم الفعل، والمبتدأ الوصف المستغنى بمرفوعه عن الخبر، وأخبار النواسخ، والمصدر النائب عن الفعل. أما الخبر فِي (اصطلاح المحدثين) فسيأتي بيانه.

(١) المَطْوَل فِي شرح تلخيص المفتاح (ص: ٢٢٤).

(٢) السلم المنورق، لعبد الرحمن الأخضرِي (ص: ٨)، المكتبة الهاشمية، إستنبول [٢٠١٤].

ثالثًا: بيان معنى الحديث في اللغة والاصطلاح:

١ - تعريف الحديث في اللغة:

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحديث: نقيض القديم. يقال: أخذني ما قدم وما حدث لا يضم حدث في شيء من الكلام إلا في هذا الموضع، وذلك لمكان قدم، على الازدواج. والحديث: الخبر، يأتي على القليل والكثير، ويُجمَعُ على أحاديثٍ على غير قياس. قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: نُرَى أَنَّ وَاحِدَ الْأَحَادِيثِ: أُحْدُوْثَةٌ، ثم جعلوه جمعًا للحديث. والحدوث: كون شيء لم يكن. وأحدثه الله فحدث. وَحَدَّثَ أَمْرًا، أي: وقع. وَالحَدَّثُ والحَدَثُ والحادثَةُ والحَدَثَانُ، كُلُّهَا بمعنى. وأحدث الرجل، من الحدث. واستحدثت خبرًا، أي وجدت خبرًا جديدًا" (١).

وقال ابن خروف رَحِمَهُ اللَّهُ: إن (أحدوثة) إنما يستعمل في المصائب والدواهي، لا في معنى الحديث الذي يتحدث به (٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦] الأحاديث هنا: "الرؤيا؛ لأنَّ الرؤيا إمَّا حديث نفس، أو ملك، أو شيطان. وتأويلها: عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أعبر الناس للرؤيا، وأصحهم عبارة لها.

ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث: معاني كتب الله عَزَّجَلَّ، وسنن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها.

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (حدث) (١/٢٧٨).

(٢) انظر: شرح التصريح على التوضيح (٢/٥٦٤)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٣/١٤٢٥).

وسميت أحاديث؛ لأنه يحدث بها عن الله عَزَّوَجَلَّ ورسله عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقال: قال الله عَزَّوَجَلَّ وقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا وكذا. ألا ترى إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو اسم جمع للحديث، وليس بجمع أحدىثة" (١).

وفي (البحر): ليس الأحاديث باسم جمع، بل هو جمع تكسير ل: (حديث) على غير القياس ك: (أباطيل)، واسم الجمع لم يأت على هذا الوزن. ونقل ذلك عن أبي حيان رَحِمَهُ اللَّهُ غير واحد، وفي المسألة بحث (٢).

وقد ذكر الشهاب الخفاجي رَحِمَهُ اللَّهُ أن مقصد الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ من اصطلاحه: أن يطلق اسم الجمع على الجمع الذي ليس بقياسي، كاسم المصدر للمصدر غير القياسي، لا على ما اصطلاح عليه النحاة من أنه ما دلَّ على الجمعية، ولم يكن على شيء من أوزانها، وليس اسم جنس جمعي، فلا يرد عليه ما قاله أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ من تخطئته بأنَّ (أفاعيل) ليس من أبنية اسم الجمع، فالصواب أنه جمع حديث على غير القياس، وأنَّ كون الأحدىثة أمراً مستغرباً يحدث به للتلهي والإضحاك هو الأكثر، وقد ذكر بعض أئمة اللغة أنه ورد بمعنى: الحديث.... " (٣).

وإنما سميت هذه الكلمات والعبارات: أحاديث، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤].

فالحديث في الأصل: ضد القديم، وقد استعمل في قليل الخبر وكثيره؛ لأنه يحدث شيئاً فشيئاً.

(١) الكشف (٢/٤٤٤-٤٤٥).

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير (٧/٥٦٤)، الدر المصون (٨/٣٤٦-٣٤٧)، الكليات (ص: ٣٧٠).

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٦/٣٣٢).

وذكر الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ أن السبب في هذه التسمية:

- أ. أن هذه الكلمات إنما تتركب من الحروف المتعاقبة المتوالية، فكل واحد من تلك الحروف يحدث عقيب صاحبه؛ فلهذا السبب سميت بالحديث.
- ب. ويمكن أيضاً أن يكون السبب في هذه التسمية أن سماعها يحدث في القلوب: العلوم والمعاني - والله أعلم -^(١).

٢ - تعريف الحديث في الاصطلاح:

الحديث في اصطلاح جُمُهور المُحدثين يُطلق على قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفعله، وتقريره.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "المراد بالحديث في عرف الشرع: ما يضاف إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكأنه أريد به مقابلة القرآن؛ لأنه قديم"^(٢).

وقال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: الحديث أعم من أن يكون قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابي، والتابعي، وفعلهم وتقريرهم.

والحديث يرادفه: الخبر على الصحيح، وهو ما أضيف إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو إلى الصحابي، أو إلى من دونه، قولاً، أو فعلاً، أو تقريراً، أو صفة.

وقيل: الحديث ما جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخبر ما أضيف إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى غيره؛ فيكون أعم من الحديث وأشمل.

ويعبر عن هذا: بعلم الحديث رواية. ويحد بأنه: علم يشتمل على نقل ذلك.

وموضوعه: ذات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حيث كونه نبياً.

(١) مفاتيح الغيب (٣٥/١).

(٢) فتح الباري (١٩٣/١).

وغايته: الفوز بسعادة الدارين. وأما علم الحديث دراية، وهو المراد عند الإطلاق فهو علم يعرف به حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: الخبر عند علماء الفن مرادف للحديث، فيطلقان على المرفوع، وعلى الموقوف والمقطوع.

وقيل: الحديث ما جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخبر: ما جاء عن غيره، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة: محدث، وقيل لمن يشتغل بالتواريخ وما شاكلها: إخباري.

وقيل: بينهما عموم وخصوص مطلق، فكل حديث خبر ولا عكس.

وقيل: لا يطلق الحديث على غير المرفوع إلا بشرط التقييد.

وقد ذكر المصنف في النوع السابع: أن المحدثين يسمون المرفوع والموقوف بالأثر، وأن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر والمرفوع بالخبر. ويقال: أثرت الحديث بمعنى: رويته، ويسمى المحدث أثرياً نسبة للأثر^(١).

أما الأثر فهو ما أضيف إلى الصحابي أو التابعي، وقد يراد به ما أضيف إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقيداً فيقال: وفي الأثر عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والحديث القدسي: ما رواه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه جَلَّ وَعَلَا، ويسمى أيضاً: (الحديث الرباني) و(الحديث الإلهي)، وقد تقدم تعريفه في الجزء الأول.

(١) انظر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (ص: ٤١)، تدريب الراوي، للسيوطي (٢٩/١)، شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، لعلي بن سلطان الهروي القاري (ص: ١٥٥)، اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر (٢٣٠/١).

رابعاً: الكلام:

ومن الألفاظ ذات الصلة: الكلام، ويطلق على الكثير والقليل.

١ - تعريف الكلام لغة:

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الكَلَامُ: اسم جنس يقع على القليل والكثير. والكَلِمُ لا يكون أقل من ثلاث كلمات، لأنه جمع كَلِمَةٍ، مثل نَبَقَةٍ وَنَبَقٍ" (١).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: "الكلام: هو ما يدل على نطق مفهم. تقول: كَلَّمْتُهُ أَكَلَّمْتُهُ تَكَلِّمًا، وهو كَلِيمِي: إذا كَلَّمْتَكَ أو كَلَّمْتَهُ. ثم يَتَسَعُّونَ فَيُسَمُّونَ اللَّفْظَةَ الْوَاحِدَةَ الْمُفْهِمَةَ: كَلِمَةً، والقَصَّةَ: كَلِمَةً، وَالْقَصِيدَةَ بِطُولِهَا: كلمة. وَيَجْمَعُونَ الْكَلِمَةَ: كَلِمَاتٍ وَكَلِمًا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُخَرِّقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]" (٢).

فالكلام لا يكون كلامًا إلا بنطق، سواء أكان في اللغة أم في اصطلاح النحاة، وهو اسم مصدر من كَلَّمَ يُكَلِّمُ تَكَلِّمًا وَكَلَامًا، وهو اسم جنس؛ لأنه يقع على القليل والكثير.

٢ - الكلام في الاصطلاح:

أ. الكلام في اصطلاح النحويين: (لفظٌ دالٌّ على معنى مُفِيدٍ يَحْسُنُ السُّكُوتُ عليه، مقصود لذاته).

(١) الصحاح، مادة: (كلم) (٢٠٢٣/٥).

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة: (كَلَّمَ) (١٣١/٥).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحدة كلمة والقول عم وكلمة بها كلام قد يؤم^(١)
وقال ابن معطي رَحِمَهُ اللهُ من قبله:
الَلْفُظُ إِن يُفِيدُ هُوَ الْكَلَامُ نَحْوُ مَضَى الْقَوْمِ وَهُمْ كَرَامُ^(٢)

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ في (شرحه): "الكلام المصطلح عليه عند النحاة: (عبارة عن اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها) فاللفظ جنس يشمل: الكلام، والكلمة، والكلم، ويشمل: المهمل ك: (دين)^(٣)، والمستعمل ك: (عمرو). ومفيد أخرج: المهمل. وفائدة يحسن السكوت عليها أخرج: الكلمة، وبعض الكلم، وهو ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر، ولم يحسن السكوت عليه نحو: (إن قام زيد)، ولا يتركب الكلام إلا من اسمين، نحو: (زيد قائم)، أو من فعل واسم ك: (قام زيد) وكقول المصنف: (استقم)؛ فإنه كلام مركب من فعل أمر وفاعل مستتر، والتقدير: استقم أنت، فاستغنى بالمثال عن أن يقول: فائدة يحسن السكوت عليها فكأنه قال الكلام: هو اللفظ المفيد فائدة كفاءة: (استقم).

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٩).

(٢) الدرة الألفية في علم العربية (ألفية ابن معطي)، ليحيى بن عبد المعطي الزواوي المغربي (ص: ١٧).

(٣) قال ابن هشام في (شذور الذهب) (ص: ٣٣): "والكلام قول مفيد مقصود" اهـ. وعبرة: (اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها) تساوي تقريباً: (القول المفيد)، إلا أن القول لا يطلق على المهمل - وإن لم يكن مقيداً - بخلاف اللفظ فلا بد من تقييده. قال ابن هشام: والمراد بالقول: اللفظ الدال على معنى كرجل وفسر بخلاف الخط مثلاً؛ فإنه وإن دل على معنى لكنه ليس بلفظ، وبخلاف المهمل نحو: (دين) مقلوب زيد؛ فإنه وإن كان لفظاً لكنه لا يدل على معنى، فلا يسمى شيء من ذلك ونحوه قولاً. ونقول: التعريفان وإن كانا متساويين، فإن التعبير بالقول أولى، كما قال المصنف؛ فإنه تعريف بالجنس الأقرب، وهو أدق.

وإنما قال المصنف: (كلامنا)؛ ليعلم أن التعريف إنما هو للكلام في اصطلاح النحويين لا في اصطلاح اللغويين، وهو في اللغة اسم لكل ما يتكلم به، مفيداً كان أو غير مفيد.

والكلم: اسم جنس، واحده: (كلمة)، وهي إما اسم، وإما فعل، وإما حرف؛ لأنها إن دلت على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان فهي الاسم، وإن اقترنت بزمان فهي الفعل، وإن لم تدل على معنى في نفسها بل في غيرها فهي الحرف. والكلم: ما تركيب من ثلاث كلمات فأكثر، كقولك: (إن قام زيد).

والكلمة: هي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد، فقولنا الموضوع لمعنى أخرج: المهمل ك: (ديز)، وقولنا: مفرد أخرج: الكلام؛ فإنه موضوع لمعنى غير مفرد.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ: أن القول يعم الجميع، والمراد أنه يقع على الكلام أنه: قول، ويقع أيضاً على الكلم والكلمة أنه قول. وزعم بعضهم أن الأصل استعماله في المفرد.

ثم ذكر المصنف أن الكلمة قد يقصد بها الكلام كقولهم في (لا إله إلا الله): كلمة الإخلاص. وقد يجتمع الكلام والكلم في الصدق، وقد ينفرد أحدهما فمثال اجتماعهما: قد قام زيد؛ فإنه كلام؛ لإفادته معنى يحسن السكوت عليه، وكلم؛ لأنه مركب من ثلاث كلمات. ومثال انفرد الكلم: إن قام زيد، ومثال انفرد الكلام: زيد قائم^(١).

وقال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: "(الكلام) حذّه: (قَوْلٌ)، أي: لفظٌ دالٌّ على معنى (مُفيدٌ)، أي: مُفهِمٌ معنى يَحْسُنُ السُّكُوتُ عَلَيْهِ، (مَقْصُودٌ) أي: لذاته.

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١٣/١-١٦).

فخرج بالقول - والتعبير به ^(١) أحسن من اللفظ؛ لإطلاقه ^(٢) على المهمل -: ما لا يدل من الألفاظ ^(٣)، أو يدل من غيره كالإشارة والكتابة ^(٤).

وب: المفيد: الكلمة، وبعض الكلم نحو: إن قام زيد، وب: المقصود: ما ينطق به النائم والساهي ونحوهما، فلا يسمى شيء من ذلك كلامًا، وكذا المقصود لغيره كجملة الشرط والجزاء والصلة.

و(الكلمة) حدُّها: (قَوْلٌ)، وتقدّم تفسّيره وما يخرج به.
(مُفْرَدٌ) هو ما لا يدلُّ جُزْؤُهُ على جُزْءٍ معناه، ك: زَيْدٌ ^(٥)، وغلّام زيد - عَلَمًا - بخلافه غير عَلَمٍ، والكلام والكلم ^(٦)؛.....

(١) أي: القول.

(٢) أي: اللفظ.

(٣) أي: فخرج بالقول ما لا يدل من الألفاظ على معنى كالمهمل.

(٤) لأن (اللفظ) صوت المشتمل على بعض الحروف الهجائية، بخلاف الإشارة، والكتابة، وعقد الأصابع، ونحو ذلك، فلا يسمى كلامًا عند النحاة. والنطق هو أساس دراسة النحو، فلا شأن للنحو بالكلام النفسي الذي يدور في خواطر الإنسان دون أن تنطقه الشفاه فعلاً، كما قال الأخطل: (إن الكلام لفي الفؤاد*** وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً). فالنحو لا شأن له بكلام الفؤاد، وإنما يوجه همه لما نطقه اللسان فقط. انظر: شذور الذهب (ص: ٣٥).

(٥) فلا تدل الزاي فيه على جزء زيد.

(٦) أي: وبخلافه الكلام والكلم. المفرد: يقع صفة اللفظ والمعنى، ولكن اللفظ المفرد هو اللفظ الذي لا يدل جزؤه على جزء معناه، والمعنى المفرد هو المعنى الذي لا يدل جزء لفظه على جزئه. والمشهور أن الأفراد صفة اللفظ بالذات عند النحاة، لكن كلام نجم الأئمة فاضل الأمة الشيخ الرضي الاسترآبادي رحمه الله تعالى ينادي بأن الأفراد صفة اللفظ عند المنطقيين، وصفة المعنى عند النحاة - والمفرد عند أهل الحساب في المركب. واعلم أن المفرد بالمعنى الذي ذكرنا أعني اللفظ الذي لا يدل جزؤه إلى آخره هو المفرد المقابل للمركب. وقد يطلق المفرد ويراد به ما يقابل المضاف فيقال: هذا مفرد، أي: ليس بمضاف. وقد يطلق ويراد به ما يقابل الجملة فيقال: هذا مفرد، أي: ليس بجملة - إلى غير ذلك. انظر: دستور العلماء

... فإن أجزاء كلِّ مما ذكر يُدُلُّ على جزء معناه (١).

والحاصل أن الكلام في الاصطلاح: ما اجتمع فيه أربعة أمور:

الأول أن يكون لفظاً.

والثاني: أن يكون مركباً:

ويُقصدُ به ما تألَّف من كلمتين فأكثر، ويدخل فيه: اللفظ المفرد المركب تقديرًا،

كأن يقول القائل: مَنْ ضَرَبَكَ؟ فتقول: (زَيْدٌ)، تقديره: ضَرَبَنِي زَيْدٌ، وكقولك: (اسْتَقِمَّ) - كما تقدم -.

والثالث: أن يكون مفيداً.

والرابع: أن يكونَ الكلامُ مِنَ الألفاظِ التي وضَعَتْها العَرَبُ للدَّلالةِ على معنى من

المعاني.

ب. الكلام عند أهل الكلام: ما يضاد السكوت سواء كان مركباً أو لا، مفيداً

فائدة تامة أو لا.

(٣/٢١١)، وانظر: الكليات (ص: ٨٢٩)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١/٢٢)، قطر الندى

(ص: ١١)، همع الهوامع (١/٣٢)، وينظر: إرشاد الفحول (١/٥٢)، البحر المحيط في أصول الفقه

(١/٤٢٥). قال الأخضري: (مستعمل الألفاظ حيث يوجد*** إما مركب وإما مفرد)، (فأول ما دل

جزؤه على*** جزء معناه بعكس ما تلا)، (وهو على قسمين أعني المفردا**كلي او جزئي حيث وجدا)،

(فمفهم اشتراك الكلي*** كأسد وعكسه الجزئي).

(١) انظر: تحقيقنا لإتمام الدراية (١/٥٣٣-٥٣٥).

ج. الكلام عند أهل العروض: ما تضمن كلمتين أو أكثر سواء حسن السكوت عليه أو لا، مع الدلالة على معنى صحيح^(١).

د. القرآن الكريم كلام الله عَزَّوَجَلَّ:

إنَّ القرآن الكريم هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو أشرف الكلام، فهو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

والعلوم المتصلة به هي أشرف العلوم؛ لشرف موضوعها.

والقرآن الكريم هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ:

يُعَرَّفُ كَعَلِمٍ على كلام الله عَزَّوَجَلَّ المنزل على خاتم الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وباعتباره ألفاظاً منطوقةً بأنَّه: (كلام الله عَزَّوَجَلَّ، المنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز ولو بسورة منه، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس).

قال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأنت ترى أن هذا التعريف جمع بين الإعجاز، والتنزيل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والكتابة في المصاحف، والنقل بالتواتر، والتعبد بالتلاوة. وهي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم - وإن كان قد امتاز بكثير سواها - ولا يخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفي فيه ذكر بعض تلك الأوصاف، ويكون جامعاً

(١) انظر: الكليات (ص: ٧٥٨).

مانعاً، غير أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان، فيناسبه الإطناب؛ لغرض زيادة ذلك والبيان؛ لذلك استباحوا لأنفسهم أن يزيدوا فيه ويسهبوا" (١).

وقولنا: (كلام الله عَزَّجَلَّ): هذه العبارة فيها إبعاد كل كلام لغير الله عَزَّجَلَّ - مهما كان عظيماً - عن أن يسمَّى قرآنًا، وسواء في ذلك حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) أو غيره من الإنس والجن والملائكة، فكل ذلك لا يسمى قرآنًا.

(١) انظر: الموسوعة القرآنية المتخصصة (ص: ١٠١)، مقدمة كتاب: منة المنان (٢/هـ، ح)، وانظر ذلك مفصلاً في (منة المنان) (١/٤١-٧٥).

(٢) فيخرج بهذا القيد جميع أحاديثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لكونها ألفاظاً من قبله هو، غير منزلة عليه، وإن كانت معاني بعض تلك الأحاديث منزلة؛ فإنَّ العبرة هنا بالألفاظ لا بالمعاني. كما يخرج بهذا القيد أيضاً الأحاديث القدسيَّة على القول بأنَّ ألفاظها ليست منزلة من عند الله عَزَّجَلَّ، بل هي من عند محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما المنزل معانيها فحسب. وهو ما اختاره الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه: (النَّبأ العظيم) (ص: ٤٤-٤٥)، حيث قال: "أما الأحاديث النبوية فإنها بحسب ما حوته من المعاني تنقسم إلى قسمين: (قسم توقيفي) استنبطه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفهمه في كلام الله عَزَّجَلَّ، أو بتأمله في حقائق الكون، وهذا القسم ليس كلام الله عَزَّجَلَّ قطعاً. و(قسم توقيفي) تلقى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه. وهذا القسم وإن كان ما فيه من العلوم منسوبة إلى معلمه وملهمه سبحانه، لكنه - من حيث هو كلام - حري بأن ينسب إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ الكلام إنما ينسب إلى واضعه وقائله الذي ألفه على نحو خاص ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه الخواطر وتلقاه الآخر عن الأول. فالحديث النبوي إذاً خارج بقسميه من القيد الأول في هذا التعريف. وكذلك الحديث القدسي إن قلنا: إنه منزل بمعناه فقط، وهذا هو أظهر القولين فيه عندنا؛ لأنه لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني؛ إذ لا وجه للترقية بين لفظين منزلين من عند الله عَزَّجَلَّ. فكان من لوازم ذلك: وجوب المحافظة على نصوصه، وعدم جواز روايته بالمعنى إجمالاً، وحرمة مس المحدث لصحيفته. ولا قائل بذلك كله. وأيضاً فإن القرآن لما كان مقصوداً منه مع العمل بمضمونه شيء آخر وهو التحدي بأسلوبه، والتعبد بتلاوته، احتيج لإنزال لفظه، والحديث القدسي لم ينزل للتحدي، ولا للتعبد، بل لمجرد العمل بما فيه، وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه".

وقد فصلت القول في (تعريف القرآن في اللغة والاصطلاح) في الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

خامساً: فروق مميّزة بين الاصطلاحات:

١ - الفرق بين المثل والقصة:

يجتمع المثل مع القصة في التنبيه إلى الاعتبار من حيث قياس حال على حال. ويفترقان من حيث إن الأمثال لا يشترط في صحتها أن تكون واقعة تاريخية ثابتة، وإنما يشترط فقط: إمكان وقوعها حتى يتسنى للذهن تصورها كما لو أنها وقعت فعلاً.

٢ - الفرق بين القصة والحديث:

قال العسكري رَحِمَهُ اللهُ: "إن القصص ما كان طويلاً من الأحاديث، متحدثاً به عن سلف، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ [هود: ١٢٠].

ولا يقال: الله عَزَّوَجَلَّ قاص؛ لأن الوصف بذلك قد صار علماً لمن يتخذ القصص صناعة. وأصل القصص في العربية: إتباع الشيء الشيء ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه﴾ [القصص: ١١].

وسمي الخبر الطويل: قصصاً؛ لأن بعضه يتبع بعضاً حتى يطول، وإذا استطال السامع الحديث قال: هذا قصص.

والحديث يكون عمن سلف وعمن حضر، ويكون طويلاً وقصيراً.

ويجوز أن يقال: القصص هو الخبر عن الأمور التي تلو بعضها بعضاً، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره.

والقص: قطع يستطيل ويتبع بعضه بعضاً، مثل: قص الثوب بالمقص، وقص الجناح وما أشبه ذلك.

وهذه قصة الرجل يعني: الخبر عن مجموع أمره، وسميت قصة؛ لأنها يتبع بعضها بعضاً حتى تحتوي على جميع أمره^(١).

ولنا على قول أبي العسكري رَحِمَهُ اللهُ أكثر من تعليق:
فمن ذلك: أن قوله: (متحدثاً به عن سلف) كان من المناسب الاستدلال بقوله جَلَّوَعَلَا:
﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩].

ولكن هل يختص كلام الله عَزَّوَجَلَّ -قصة كان أم حديثاً أم خبراً- بما سلف من الزمن أم أنه أعم من ذلك؟

والجواب: أن القصص في كلام الله عَزَّوَجَلَّ لا تختص بما سلف من الزمن، وكذا الخبر، - كما سيأتيك -.

والحاصل أن الخبر الفرد لا يقال عنه: قصة، ولكن يشترط في القصة تكون حلقات متصلة يتلو بعضها بعضاً، ويكمل بعضها بعضاً، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره. ويشترط في القصة أن يكون موضوعها واحداً تظهر فيه معالم القصة. وقيل: لا بدّ تتكون القصة من أركان ثلاثة: بداية، ووسط، ونهاية. كما يشترط أن الغاية من تلك الأخبار المتعاقبة في القصة واحدة، وهي -أعني: الغاية- بمثابة النتيجة والثمرة لتلك القصة.

ويراد من الحديث في القرآن الكريم ما يراد من القصة، من حيث ما يحدثه كل منهما في القلوب من العلوم والمعاني -على ما تقدم-، فيكشف خفاء المتحدث عنه، ويظهره على حقيقته، كما يشتركان في الغاية والقصد من الاعتبار والادكار، كما دلّ على ذلك قوله جَلَّوَعَلَا:

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص: ٤١-٤٢).

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبا: ١٩].

وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ① فَدَعَا رَبُّهُوَ آتَى مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرَ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ⑤ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ ⑥ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ⑦ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ⑧ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ⑨﴾ [القمر: ٩-١٧].

وفي الرويات ما يدل على ما تقدم، ومن ذلك: ما جاء عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ①﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١-٣] الآية.

قال: «نزل القرآن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله عَزَّجَلَّ علينا: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ①﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ② الآية. فتلاه عليهم زماناً، قالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية. قال خلاد: وزاد فيه غيره: قالوا: يا رسول الله، لو ذكّرنا، فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]» ①.

(١) أخرجه البزار [١١٥٣]، وابن جرير (٥٥٣/١٠)، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١١٥٧]، وابن أبي حاتم في (التفسير) [١١٣٢٣]، وأبو يعلى [٧٤٠]، وابن حبان [٦٢٠٩]، والحاكم [٣٣١٩]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه: الضياء [١٠٦٩]، وقال: "إسناده حسن"، وحسنه الحافظ ابن حجر في (المطالب العالية) [٣٦٣٤]. قال الهيثمي (٢١٩/١٠): "رواه أبو يعلى، والبزار نحوه، وفيه: =

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ في (فضائل القرآن)، وابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في (التفسير)، وأبو نعيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (الحلية): عن المسعودي، عن عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: ملَّ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله حدثنا! فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]. ثم ملوا مَلَّةً أخرى فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث، ودون القرآن، يعنون: القصص، فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ① إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ③﴾ [يوسف: ١-٣]، فأرادوا الحديث فدَّهَمَ على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدَّهَمَ على أحسن القصص ④.



=الحسين بن عمرو العنقري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقيّة رجاله رجال الصحيح، وهو غير خلاد، هذا أقدم"، وانظر: الدر المنثور، للسيوطي (٤/٩٦٤).

(١) فضائل القرآن، للقاسم بن سلام (ص: ٥٣)، تفسير الطبري (٥٥٢/١٥)، حلية الأولياء، لأبي نعيم (٢٤٨/٤)، وانظر: أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن الواحدي (ص: ٢٧٠)، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١٠٠٣/٢). وفي إسناده: المسعودي، قيل: اختلط في آخر عمره، وقد ورد ما يوافق معناه.

الرهبت الثاني:

الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع

أولاً: الزمان من مخلوقات الله عَزَّجَلَّ:

إن كل مخلوق في هذا الكون ممكن الوجود، وهو خاضع للقانون الذي أوجده الله عَزَّجَلَّ في هذا الكون، فهو يعيش زمنًا مكوَّنًا من (الماضي، والحاضر، والمستقبل). وهذا هو من النظام الذي أوجده الله عَزَّجَلَّ في هذا الكون، وهو يجري على جميع الخلق إلا في صور قد يتخلف فيها فلا يعمل؛ ليعلم أن الزمن وعلاماته الدالة عليه من الشمس والقمر والأفلاك، وتقلب الليل والنهار، وانقضاء الأيام، وانصرام الأعمار، كل ذلك من خلق الله عَزَّجَلَّ، وهو يخضع لحكمه وتديره، والله عَزَّجَلَّ قادر على إيقاف عمله، متى شاء، وعلى أي أحد شاء، فالكل من الزمان والمكان وسائر المخلوقات مؤتمر بأمره، وخاضع لإرادته.

فما لم تتعلق قدرة الله عَزَّجَلَّ وإرادته وعلمه بوجود هذا المخلوق لم يوجد. فكل إنسان هو موجود، وقد كان قبل الوجود معدومًا، وقد نفذت القدرة، وتعلقت الإرادة بوجود هذا المخلوق في اللحظة الفلانية فوجد، فصار هذا الوجود واجبًا بالغير. وفي (صحيح البخاري رَحِمَهُ اللهُ) من حديث: عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»^(١).

(١) صحيح البخاري [٣١٩١].

و«كان الله ولم يكن شيء قبله»^(١).

فجاء في كتاب: (بدء الخلق) برواية: «ولم يكن شيء غيره». وفي كتاب: (التوحيد): «ولم يكن شيء قبله». قال شيخنا الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ اللهُ: والإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ كان دقيقاً جداً في اختياره في كتاب التوحيد رواية: «قَبْلَهُ»؛ لأنه لو كان شيء قبله لكان الإله حادثاً، وليس قديماً، وهو ما ينافي التوحيد. وفي بدء الخلق: «ولم يكن شيء غيره»، فوجود شيء غيره ينافي بدء الخلق، فالله عَزَّجَلَّ كان وحده الموجود، فلا يوجد أي خلق معه أبداً؛ لأن الموجود إما خالق وإما مخلوق، فالخالق جَلَّوَعَلَا واجب الوجود لذاته، والمخلوق ممكن الوجود، وهو بعد الوجود واجب الوجود بالغير.

فالله عَزَّجَلَّ كان وحده، ولم يكن شيء غيره، وخلق الخلق لا من شيء، وعندما أراد أن يخلق ابتداء الخلق. قال الله عَزَّجَلَّ مخبراً عن بدئه للخلق: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وأخبر جَلَّوَعَلَا أنه هو (المبدئ) و(المعيد).

و(المبدئ) هو الموجد من عدم على غير مثال سبق، بتقدير، وتدبير، وإبداع. ولم يرد الاسمان الجليلان في القرآن، ولا في السنة الصحيحة إلا بصيغة الفعل، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤]، ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤]، ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [النمل: ٦٤]، ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ١١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣].

(١) صحيح البخاري [٧٤١٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال الله عَزَّجَلَّ: كذِبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقولُه: لن يعيدني، كما بدأي، وليس أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقولُه: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئًا أحد»^(١).
أما حديث: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»^(٢)، فمعناه: أن القبلية تنافي الأولية.

ولا يقال: (فليس غيرك شيء)؛ لعدم صلة ذلك بالأولية.
فإن قيل: إن صفة الخالقية على هذا كانت معطلة؟ فيجواب أن صفة الخلق هي صفة فعل، لا صفة ذات، مثل الرزق؛ ولذلك يقال: ثم خلق الله عَزَّجَلَّ.
فهناك (أزل، ولا يزال) فالأزل عندما كان الله عَزَّجَلَّ، وليس هناك شيء على الإطلاق، فأول ما يخلق فقد ذهب: الأزل، ووجد: ما لا يزال.

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» الحديث. تضمن هذا الدعاء من أسماء الله عَزَّجَلَّ ما تضمنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.

وقد اختلفت عبارات العلماء في ذلك، وأرشق عباراتهم في ذلك قول من قال: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب. وقيل: الأول بالإبداء، والآخر بالإفناء، والظاهر بالآيات، والباطن عن الإدراكات. وقيل: الأول:

(١) صحيح البخاري [٣١٩٣، ٤٩٧٤].

(٢) صحيح مسلم [٢٧١٣].

القديم، والآخر: الباقي، والظاهر: الغالب، والباطن: الخفي اللطيف، الرفيق بالخلق. وهذا القول يناسب الحديث، وهو بمعناه..^(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وأما معنى الظاهر من أسماء الله عَزَّجَلَّ فقيل هو من الظهور بمعنى: القهر والغلبة وكمال القدرة، ومنه: ظهر فلان على فلان. وقيل: الظاهر بالدلائل القطعية، والباطن المحتجب عن خلقه. وقيل: العالم بالخفيات. وأما تسميته جَلَّوَعَلَا بالآخر فقال الإمام أبو بكر بن الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ معناه الباقي: بصفاته من العلم والقدرة وغيرها التي كان عليها في الأزل، ويكون كذلك بعد موت الخلائق، وذهاب علومهم، وقدرهم، وحواسهم، وتفرق أجسامهم"^(٢).

وقد دلَّ عليه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، قال إمام الحرمين رَحِمَهُ اللهُ: "وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ﴾ فلا وجه لحمل الوجه على صفة؛ إذ لا تختص بالبقاء بعد فناء الخلق صفة لله عَزَّجَلَّ، بل هو الباقي بصفاته الواجبة، فالأظهر حمل الوجه على الوجود.."^(٣).

ولأن الزمن من خلق الله عَزَّجَلَّ فإن الله جَلَّوَعَلَا فوقه، فلا يحيط به جَلَّوَعَلَا زمن، وهو جَلَّوَعَلَا مستغن عن الخلق، وما سواه فإنه فقير إليه، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۝﴾ [الحديد: ٣]، ﴿يَنَاءِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾ [فاطر: ١٥-١٦].

فهو ﴿الْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء بلا ابتداء، وهو جَلَّوَعَلَا موجد الأشياء ومحدثها. ﴿وَالْآخِرُ﴾ بعد فناء كل شيء بلا انتهاء.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤٢/٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣٦/١٧-٣٧).

(٣) الإرشاد الى قواطع الأدلة (ص: ١٧٧).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء بغير حدٍّ. ﴿وَالْآخِرُ﴾ بعد كل شيء بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولا شيء موجود سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] ... " (١).

وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾: "تأويله هو ﴿الْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء. ﴿وَالْآخِرُ﴾ بعد كل شيء، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾: العالم بما ظهر. ﴿وَالْبَاطِنُ﴾: العالم بما بطن" (٢).

قال أبو بكر الورَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ: هُوَ ﴿الْأَوَّلُ﴾: بالأزلية ﴿وَالْآخِرُ﴾: بالأبدية (٣). وقيل: ﴿وَالظَّاهِرُ﴾: معناه بالأدلة ونظر العقول في صناعته، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾: بلفظه وغوامض حكمته، وباهر صفاته التي لا تصل إلى معرفتها على ما هي عليه الأوهام (٤). ولقد تخبط كثير من الفلاسفة في الحديث عن الزمن، فظهرت طوائف ومذاهب فكرية باطلة، وقد تأثر بضلالهم وانحرفهم كثير من الخلق - قديماً وحديثاً - ومن ذلك قول الدهرية: إن الزمن ليس له بداية ولا نهاية، وظهرت طوائف تقول بتناسخ الأرواح. قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والقائلون بالتناسخ قوم ينكرون البعث على ما أثبتته الشريعة، ويزعمون أن الأرواح تنتقل إلى الأجسام على التأييد" (٥)، وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

(١) تفسير الطبري (١٦٨/٢٣).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٢٢/٥).

(٣) انظر: الكشف والبيان (٢٢٨/٩)، المحرر الوجيز (٢٥٧/٥)، البحر المحيط، لأبي حيان (١٠٠/١٠).

(٤) انظر: المحرر الوجيز (٢٥٧/٥).

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (نسخ) (ص: ٨٠٢).

"التناسخ: عبارة عن تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر، من غير تخلل زمان بين التعلقين، للتعشق الذاتي بين الروح والجسد" (١).

والدهريّة هي طائفة ظهرت قبل الإسلام، وسميت بهذا الاسم؛ لاعتقادها أن الزمان أو الدهر هو السبب الأول للوجود، وأنه غير مخلوق ولا نهائي، وتعتبر الدهريّة أن المادّة لا فناء لها.

وقد حكى الله عزَّجَلَّ عن قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، حيث قال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۚ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ [الجاثية: ٢٤-٢٥].

قال القاضي البيضاوي رحمه الله: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، أي: إلا مرور الزمان، وهو في الأصل مدة بقاء العالم من دهره إذا غلبه" (٢).

وقال الراغب رحمه الله: "الدهر في الأصل: اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، وعلى ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ١]. ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة، وهو خلاف الزمان؛ فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة، ودهر فلان: مدة حياته، واستعير للعادة الباقية مدة الحياة، فقليل: ما دهري بكذا.. ويقال: دهر فلاناً نائبة دهرًا، أي: نزلت به حكاة الخليل رحمه الله، فالدهر هاهنا مصدر" (٣)، وقولهم: (لا آتيك أبَدَ الدَّهرِ)، أي: لا آتيك أبَدًا، وقولهم: (إلى دَهرِ الدَّاهِرِينَ): إلى الأبد، وقولهم: (ما دهري بكذا!)، أي: ما هَيَّي، ما غايَتي.

(١) التعريفات (ص: ٦٨).

(٢) تفسير البيضاوي (١٠٨/٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (دهر) (ص: ٣١٩)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٦٨).

وقال العسكري رَحِمَهُ اللهُ في الفرق بين الدهر والمدة: إن الدهر جمع أوقات متوالية مختلفة كانت أو غير مختلفة، ولهذا يقال: الشتاء مدة، ولا يقال: دهر؛ لتساوي أوقاته في برد الهواء وغير ذلك من صفاته ويقال للسنين: دهر؛ لأن أوقاتها مختلفة في الحر والبرد وغير ذلك، وأيضاً من المدة ما يكون أطول من الدهر، ألا تراهم يقولون: هذه الدنيا دهور، ولا يقال الدنيا: مدد. والمدة والأجل متقاربان، فكما أن من الأجل ما يكون دهوراً فكذلك المدة" (١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الدَّهْرُ: الزمان. ويجمع على دهور. ويقال: الدهر: الأبد. وقولهم: دهرًا داهر (٢)، كقولهم: أبدًا أبيد. وقولهم: دَهْرٌ دَهَارِيٌّ، أي: شديد، كقولهم: لَيْلَةٌ لَيْلَاءٌ، وَهَارٌ أَهْرٌ، وَيَوْمٌ أَيُّومٌ، وساعةٌ سَوَاعَاءٌ" (٣).

وقيل: يسمى الدهر مُتُونًا؛ لأنه يذهب بِمَنَّةِ الإنسان، أي: قُوَّتِهِ، ويقال: حَبْلٌ مَنِينٌ، أي: ضعيف، وقد مَنَّه السَّيْرُ بِمَنَّةٍ مَنًّا: إذا أضعفه (٤).

وقيل: لأنه يقطع يقطع الأجل.

فالمنون يكون بمعنى: الدهر، ويكون بمعنى: المنية.

(١) الفروق اللغوية (ص: ٢٧٠).

(٢) دَهْرٌ دَاهِرٌ، أي: طويلٌ جدًّا، والدَّاهِرُ: الشديد.

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (دهر) (٢/٦٦١).

(٤) انظر: المخصص (٢/٧٢)، الفروق اللغوية (ص: ١٩٧).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمُنُونُ: الدهرُ. والمُنُونُ: المنيَّةُ، لأنَّها تقطع المدد، وتنقص العدد. قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: والمُنُونُ تذكر وتؤنث، فمن ذكره أراد بها الدهر، ومن أنث أراد بها المنيَّة، وتكون واحدةً وجمعاً" (١).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، أراد: حوادث الدهر.

وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨].
 قيل: أي: لا يُمنَّ عليهم؛ لأنَّ المَنَّ يَكدر الإحسان.
 وقيل: غير مقطوع، من قولك، مننت الحبل: إذا قطعتَه، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣] لا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ
 وقيل: غير منقوص، من قولهم: جبلٌ مَنِينٌ: إذا كان ضَعِيفًا.
 وقيل: غير محصور.
 وقيل: غير محسوب.

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليس فيه منٌّ، ويجوز: غير مقطوع" (٢).
 والحاصل أن الدهر أخص من الزمان على ما قُرر من أن الدهر هو طول الزمان، وهو الذي ارتضاه العلامة السعد رَحِمَهُ اللَّهُ.

وذكر بعض الأجلة أن الدهر بالمعنى السابق منقول من المصدر، وأنه يقال: دهره دهرًا، أي: غلبه، وإسنادهم الإهلاك إلى الدهر إنكار منهم لملك الموت، وقبضه الأرواح بأمر الله عَزَّجَلَّ، وكانوا يسندون الحوادث مطلقًا إليه؛ لجهلهم أنها مقدرة من عند الله عَزَّجَلَّ،

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (منن) (٢٢٠٧/٦-٢٢٠٨)، وانظر: تهذيب اللغة (٣٤٠/١٥)، الفروق اللغوية (ص: ١٩٧).

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٣٠٣/٢).

وأشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر. وهؤلاء معترفون بوجود الله عَزَّجَلَّ، فهم غير الدهرية؛ فإنهم مع إسنادهم الحوادث إلى الدهر لا يقولون بوجوده ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣]، والكل يقول باستقلال الدهر بالتأثير، ولا يبعد أن يكون الزمان عندهم: مقدار حركة الفلك، كما ذهب إليه معظم الفلاسفة، كذا في (روح المعاني) (١).

وقال الشهرستاني رَحِمَهُ اللهُ في بيان أصناف معطلة العرب: "فصنف منهم أنكروا الخالق جَلَّ وَعَلَا، والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع الحبي، والدهر المفني. وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾"، فاستدل عليهم بضرورات فكرية، وآيات فطرية، في آيات كثيرة تثبت الدلالة الضرورية على القدرة والكمال على الإبداء والإعادة (٢).

وقد أثبت علماء الفيزياء القول بنسبية الزمن، وأن الزمن الذي تعيشه المخلوقات على الأرض هو بالنسبة لها زماناً ومكاناً، وأن الوقت يتأثر بكلٍّ من الجاذبية والسرعة. فالزمن مرتبط بحركة الفلك، ودوران الكواكب حول شمسها، وقربها أو بعدها منها، ومتأثر بكلٍّ من الجاذبية والسرعة، فالיום على الأرض غير اليوم الذي على المريخ -مثلاً-.

وقد أخبر الله عَزَّجَلَّ عن نسبية الزمن، وأنه مخلوق مؤتمر بأمر خالقه جَلَّ وَعَلَا، يعمل به أو يوقفه، ويزيده أو ينقصه وفق مشيئته، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾

(١) روح المعاني (١٣/١٥١).

(٢) الملل والنحل، للشهرستاني (٣/٧٩-٨٠) باختصار.

﴿[السجدة: ٥٠]﴾ وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

والقصص والأخبار في القرآن لا تسير على ذلك النسق المعهود من الزمن في النظام الكوني في الحياة الدنيا، حيث إن الزمن فيها ينقسم إلى ماضٍ ومضارع وأمر، والله عَزَّوَجَلَّ هو خالق الزمان والمكان، وعالم بما كان وبما هو كائن، ولا يجري عليه ما نعرفه من وقت وزمن، ولا يُعنى القرآن الكريم بذكر الزمن غالباً، وإنما يُعنى بمحل الفائدة من الهداية والإرشاد والاعتبار، وكثيراً ما يتجاوز الإخبارُ الزمن؛ ولذلك وقع الإخبار في صور متنوعة - كما سيأتي بيانه -.

ثانياً: توقف الزمن وعمله بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته:

ولما كان الزمن من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، مؤتمراً بأمره، وخاضعاً لإرادته وحكمه، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يتصرف فيه كما يشاء، فقد يعمل في حقِّ أشخاص، ولا يعمل في حقِّ آخرين بأعيانهم، فيتوقف الزمن في حقهم مع جريانه في غيرهم؛ لحكمة أَرادها الله عَزَّوَجَلَّ، كما حكى الله عَزَّوَجَلَّ عن الرجل الذي أَماته الله عَزَّوَجَلَّ مائة عام ثم بعثه فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ كَأَلَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ فالمعنى: ثم أحياه، ويوم القيامة يسمى: يوم البعث؛ لأنهم يبعثون من قبورهم، وأصله من (بعثت الناقة): إذا أقمتها من مكانها، وإنما قال: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ ولم يقل: (ثم أحياه)؛ لأن قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ يدل

على أنه عاد كما كان أولاً حياً عاقلاً فهماً مستعداً للنظر والاستدلال في المعارف الإلهية، ولو قال: (ثم أحياء) لم تحصل هذه الفوائد^(١).

فهذا قد توقف عمل الزمن في حقه، وعمل الزمن في حماره، فلما بعثه الله عز وجل ابتداء عمل زمنه مرة أخرى من اليوم الذي مات فيه، وهذا من عجائب قدرة الله عز وجل وآياته.

وقال الله عز وجل عن أصحاب الكهف: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝﴾ [الكهف: ١١-١٢].

وقال: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۝﴾ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۝﴾ [الكهف: ١٨-١٩].

وقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝﴾ [الكهف: ٢٥-٢٦].

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبيني بها؟ ولما بين بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خِلْفَاتٍ وهو ينتظر ولادها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت يعني: النار لتأكلها، فلم تطعمها فقال: إن فيكم غلولاً،

(١) مفاتيح الغيب (٧/٣٠).

فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار، فأكلتها ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا، وعجزنا فأحلها لنا»^(١).

وعند أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ الشَّمْسُ لَمْ تَحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لِيَالِي سَارٍ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ»^(٢). فلا يقدر على حبس الزمن وإيقاف عمل الشمس، أو اختلاف مطلعها وغروبها وعملها في أماكن مخصوصة دون أخرى إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد أخبر أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الدجال يُكْنَى في الأرض أربعين يومًا، يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِهِ كَسَنَةٌ، وَيَوْمٌ كَشْهَرٌ، وَيَوْمٌ كَجَمْعَةٍ، وسائر أيامه كأيامكم. وقد سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ الطَّوِيلَةِ: أَتَكْفِي فِي الْوَاحِدِ مِنْهَا صَلَاةٌ يَوْمٌ، فَقَالَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»^(٣).

وفي حديث الدجال كذلك إرشاد إلى ما ينبغي أن يفعله الناس في البلاد التي يطول فيها النهار أيامًا، ويطول فيها الليل أيامًا، فينبغي أن يقدرُوا لهذه الصلوات قدرها جريًا على الغالب من تلقب الليل والنهار في بقاع الأرض. وفي القرآن الكريم يأتي ذكر الغالب، وغير الغالب جاء بيانه في السنة حيث يقدر له في الوقت قياسًا على الغالب.

(١) أخرجه البخاري [٣١٢٤]، واللفظ له، ومسلم [١٧٤٧].

(٢) أخرجه أحمد [٨٣١٥]، بسند صحيح.

(٣) صحيح مسلم [٢٩٣٧].

والحاصل أن النظام المطرد في هذا الكون إنما يجري بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وإراداته، وهو مختلف عن الزمان في الدار الآخرة، كما أن هذا النظام يتغير مع الإيذان بانصرام أيام الحياة الدنيا، فيتقارب الزمان، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج - وهو القتل - حتى يكثر فيكم المال فيفيض»^(١).

وفي لفظ: «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج» الحديث^(٢).

وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج» الحديث^(٣).

واللفظ عند مسلم: «يتقاربُ الزَّمانُ، ويُقبَضُ العلم، وتظهرُ الفتنُ، ويُلقى الشُّحُّ، ويكثُرُ الهرجُ»^(٤).

ومما يدل تغير النظام الكوني المطرد في آخر أيام الحياة: حديث الدجال الآنف الذكر، حيث إنه يُمَكَّنُ في الأرض أربعين يوماً، يَوْمٌ من أيامه كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.

(١) صحيح البخاري [١٠٣٦].

(٢) صحيح البخاري [٦٠٣٧، ٧٠٦١].

(٣) صحيح البخاري [٧١٢١].

(٤) مسلم [١٥٧].

ومما يدل تغير النظام الكوني المطرد في آخر أيام الحياة: طلوع الشمس من المغرب - كما سيأتي -، كل ذلك يدل على شأن الزمان كشأن سائر المخلوقات من حيث الخضوع لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته.

ثالثاً: القوانين المطردة في هذا الكون:

ومن القوانين المطردة في هذا الكون: طلوع الشمس من المغرب، وأفولها من المغرب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فأخبر الحق جَلَّوَعَلَا أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام انتقل مع ذلك الطاغية الذي سلك مسلك التلبس والتمويه على الرعاع من الحجة الصحيحة إلى أخرى، أوضح منها - لا لخلل في الحجة - ولكن لقصور في فهم الكافر، فليس هذا بانتقال من حجة إلى حجة؛ لأن الحجة الأولى كانت لازمة، ولكنه انتقل إلى حجة أخرى لا يتيسر لذلك الطاغية الخروج عنها؛ مبالغة في الإلزام، وقطعاً للشغب، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، أي: تحير، ودهش، وغلب بالحجة، لما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ أي: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً. بل ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى: ١٦].

ومن علامات الساعة الكبرى: طلوع الشمس من المغرب مخالفة ذلك النظام المعهود في الحياة الدنيا، ومؤذنة بنهاية العالم، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حفظت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يقول: «إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على إثرها قريبًا»^(١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "طلوع الشمس من مغربها أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، فكل ذلك أمور مألوفة؛ لأن أمر مشاهدته ومشاهدة أمثاله مألوف، فأما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عاداتها المألوفة أول الآيات السماوية"^(٢).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومذهب أهل السنة: حمل طلوع الشمس من مغربها وغيرها من الآيات على ظاهرها؛ إذ لا إحالة فيها، وهي أمور مُمكنة في نفسها، وقد تظاهرت الأخبار الصحيحة بها مع كثرتها وشهرتها، فيجب التصديق بها، ولا يلتفت لشيء من تأويلات المبتدعة لها"^(٣).

وقال: "وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى» يعني -والله أعلم-: أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة، والطبع على كل قلب بما فيه؛ لأنَّ ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر يصح فيه..^(٤)"

(١) صحيح مسلم [٢٩٤١].

(٢) النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير (٢١٤/١).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٧٣/١).

(٤) المصدر السابق (٢٤٢/٧).

وذكر ما يدل على ذلك من الحديث، ومن ذلك: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مِنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينٌ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]»^(١).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢)، أي: إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنَ الْعَاصِي فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَتْ مِنْهُ، لَيْلًا وَنَهَارًا، مَا لَمْ يَحْضُرْهُ الْمَوْتُ، أَوْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا. وفيه: تنبيه على سعة رحمة الله عَزَّجَلَّ، وكثرة تجاوزه عن الذنوب، ولا يزال كذلك جَلَّ وَعَلَا.

ويتبين مما تقدّم أن طلوع الشمس من المغرب هي أول الآيات التي ليست مألوفة، وأول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة. ومن حكمة الله عَزَّجَلَّ وفضله على عباده: أَنْ صَرَّفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالْأَيَّامَ، وَقَلَّبَ الشُّهُورَ وَالْفُصُولَ وَالْأَعْوَامَ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحٍ عَظِيمَةٍ، وَحَكَمٍ بِالِغَةِ. فمن منافع هذه الآيات الكونية: حسابُ الزمن، وضبطُ الأيام والشهور، والفصول والأعوام.

فعندما تشرق الشمس يبدأ النهار، وعندما تغرب يبدأ الليل، ويهل القمر؛ ليبدأ الشهر، ويضمحل؛ لينتهي الشهر، وبالنجوم تعرف الفصول ابتداءً وانتهاءً، وبها يهتدي المسافرون، ويزرع الزارعون، وكل ذلك من خلق الله عَزَّجَلَّ وتديره.

(١) صحيح البخاري [٤٦٣٥، ٤٦٣٦، ٦٥٠٦، ٧١٢١]، مسلم [١٥٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٧٥٩].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقد نصب هذه الآيات الكونية؛ ليستدل بها على عظمة صنع الله عَزَّوَجَلَّ، وبديع خلقه، وحسن تدبيره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٦].
أَلَيْسَ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ [يونس: ٥-٦].
قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾، أي: وقدر مسير القمر ﴿مَنَازِلَ﴾، فوحدته، وقد ذكر الشمس والقمر، قالوا: وفي ذلك وجهان:

أحدهما: أن تكون (الهاء) في قوله: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ للقمر خاصة؛ لأن بالأهلة يُعرف انقضاء الشهور والسنين، لا بالشمس.

والآخر: أن يكون اكتفي بذكر أحدهما عن الآخر، كما قال في موضع آخر: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾، أي: دخول ما يدخل منها، أو انقضاء ما يستقبل منها.

﴿وَالْحِسَابَ﴾، أي: وحساب أوقات السنين، وعدد أيامها، وحساب ساعات أيامها (١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذه المنازل هي مواقع النجوم" (٢).
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَنَهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ٤ ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٥ [الحج: ٣-٥].

وقد جعل الله عَزَّجَلَّ الأهلة مواقيت للناس والحج، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وجعل رؤية الهلال إيداناً ببداية كل شهر، وترتب على ذلك العلم بدخول وقت فرائض جليلة، ومشاعر فاضلة، أو انتهاء وقتها.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/١٥-٢٤).

(٢) الكشف (١٦/٤).

أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» [البقرة: ١٨٥] "فافترض عليهم الصوم، ثم بيّن أنه شهر، والشهر عندهم ما بين الهلالين، وقد يكون ثلاثين، وتسعًا وعشرين" (١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أو قال: قال أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فَإِنْ غُبِيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمَلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ» (٢).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر رمضان فقال: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدَرُوا لَهُ» (٣).
وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تَقْدَمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلَا يَوْمَيْنِ إِلَّا رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمًا، فَلْيَصُمْهُ» (٤).

وفي الحديث رد على الذين يرون تقديم الصوم على الرؤية؛ لأن (رمضان) اسم لما بين الهلالين. فإذا صام قبله بيوم فقد تقدم عليه.

(١) الرسالة، للإمام الشافعي (ص: ٢٦).

(٢) أخرجه البخاري [١٩٠٩]، واللفظ له، ومسلم [١٠٨١]، واللفظ عند مسلم: «فَإِنْ غُبِيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمَلُوا الْعِدَّةَ». وقوله: «غبي» من الغباوة، وهي عدم الفطنة. يقال: غبي علي: إذا لم تعرفه، وهي هنا استعارة لخفاء الهلال. وقال ابن الأثير: "وروي: «غبي» بضم الغين المعجمة وتشديد الموحدة المكسورة لما لم يسم فاعله. قال: غبي: بالفتح والتخفيف، وغبي بالضم والتشديد، من الغباء شبه الغبرة في السماء" النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غبا) (٣/٣٤٢). وقال القاضي عياض: "«غبي» بالفتح والتخفيف رواية أبي ذر، وبالضم والتشديد رواية القاسبي. وكذا قيده الأصيلي، والأول أبين، ومعناه: خفي عليكم" مشارق الأنوار على صحاح الآثار (١٢٨/٢). وسيأتي بيان معنى: (العدة) مفصلاً.

(٣) أخرجه البخاري [١٩٠٦]، ومسلم [١٠٨٠].

(٤) أخرجه البخاري [١٩١٤]، ومسلم [١٠٨٢]، واللفظ له.

وفيه تبين لمعنى الحديث الآخر، الذي في «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»^(١)، وبيان أن اللام للتأقيت، لا للتعليل. ولو كانت للتعليل لم يلزم تقديم الصوم على الرؤية أيضاً، كما تقول: (أكرم زيداً لدخوله). فلا يقتضي تقديم الإكرام على الدخول. ونظائره كثيرة. وحمله على التأقيت لا بد فيه من احتمال تجوز، وخروج عن الحقيقة؛ لأن وقت الرؤية - وهو الليل - لا يكون محلاً للصوم، كذا في (إحكام الأحكام)^(٢). وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه علق معرفة السنين والحساب على تقدير القمر منازل.

وقيل: بل على جعل الشمس ضياء والقمر نوراً؛ لأن حساب السنة، والشهر يعرف بالقمر، واليوم والأسبوع يعرف بالشمس، وبهما يتم الحساب. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]: لما كان الشهر الهلالي لا يحتاج إلى عد لتوفيته بما بين الهلالين، لم يقل: لتعلموا عدد الشهور؛ فإن الشهر لا يحتاج إلى عده إلا إذا غم آخره، فيكمل عدده بالاتفاق، إلا في شهر شعبان إذا غم آخره بالنسبة إلى صوم رمضان خاصة، فإن فيه اختلافاً مشهوراً. وأما السنة فلا بد من عددها؛ إذ ليس لها حد ظاهر في السماء، فيحتاج إلى عددها بالشهور، ولا سيما مع تطاول السنين وتعدددها.

وجعل الله عَزَّوَجَلَّ السنة اثني عشر شهراً، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦]، وذلك بعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها السنة الشمسية، فإذا دار القمر فيها كلها كملت دورته السنوية، وإنما جعل الله عَزَّوَجَلَّ الاعتبار بدور القمر؛ لأن ظهوره في السماء لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب، بل هو أمر

(١) تقدم.

(٢) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد (٧/٢).



ظاهر يشاهد بالبصر، بخلاف سير الشمس؛ فإنه تحتاج معرفته إلى حساب وكتاب، فلم يوجبنا إلى ذلك، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا»، وأشار بأصابعه العشر، وَخَنَسَ إِبْهَامَهُ فِي الثَّالِثَةِ (١).

(١) صحيح البخاري [١٩٠٨، ١٩١٣]، مسلم [١٠٨٠]. قوله: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ»، أي: لا تحتاج في فهمها وتعرف أوامرها ونواهيها إلى التغلغل في العلوم الكونية والرياضيات وما إلى ذلك. وأما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا»، يعني: مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين. وعندما يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ» فهو يصف واقعاً، ولا يشرع لتأييد الجهل بالكتابة والحساب؛ لأن القرآن الكريم قد بدأ بفريضة القراءة، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾ [العلق: ١]؛ ولأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وصف واقع الأمة في ذلك الوقت هو الذي غير هذا الواقع، بتحويل البدو الأميين إلى قراء وعلماء وفقهاء، وذلك امتثالاً لأمر ربه عَزَّ وَجَلَّ في القرآن الكريم، الذي علمنا أن من وظائف جعل الله عَزَّ وَجَلَّ القمر منازل: أن نتعلم عدد السنين والحساب. فوصف الواقع - كما نقول الآن مثلاً: (نحن مجتمعات متخلفة) -، فلا يعني شرعنة هذا الواقع، ولا تأييده، فضلاً عن تأييده، بأي حال من الأحوال. ويقال أيضاً: إن حكم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث على الأمة الإسلامية بالأمية تبعاً لنبيها الأمي: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فألحق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمة بنبيها من حيث إنه وصفها بأنها أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، وإن كانت في واقعها في كثير من عصورها ليست أمية. وفي (النبا العظيم): "فترى مثلاً في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً. وفي (سفر التكوين) من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة. وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، وهذه السنوات التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية. قاله الزجاج. يعني: بتكميل الكسر. فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب" النبا العظيم، للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز (ص: ٦٦)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٧٩/٣). وقوله: «وخنس إبهامه» أي: قبضها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا العدة»^(١) إنما علق الله عَزَّجَلَّ على الشمس أحكام اليوم من الصلاة والصيام، حيث كان ذلك أيضاً مشاهداً بالبصر لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب، فالصلاة تتعلق بطلوع الفجر، وطلوع الشمس، وزوالها وغروبها، ومصير ظل الشيء مثله. وغروب الشفق، والصيام يتوقت بمدة النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْحِسَابُ﴾ [يونس: ٥]، يعني بالحساب: حساب ما يحتاج إليه الناس من مصالح دينهم ودنياهم، كصيامهم، وفطرمهم، وحجهم، وزكاتهم ونذورهم، وكفاراتهم، وعدد نسائهم، ومدد إيلائهم، ومدد إيجاراتهم.

وحلول آجال ديونهم، وغير ذلك مما يتوقت بالشهور والسنين.

وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فأخبر أن الأهلة مواقيت للناس عموماً، وخص الحج من بين ما يوقت به؛ للاهتمام به، وجعل الله عَزَّجَلَّ في كل يوم وليلة لعباده المؤمنين وظائف موظفة عليهم من وظائف طاعته، فمنها: ما هو مفترض كالصلوات الخمس. ومنها: ما يندبون إليه من غير افتراض، كنوافل الصلاة، والذكر، وغير ذلك.

وجعل في شهور الأهلة وظائف موظفة أيضاً على عباده، كالصيام، والزكاة، والحج، ومنه فرض مفروض عليهم، كصيام رمضان، وحجة الإسلام، ومنه ما هو مندوب، كصيام شعبان، وشوال، والأشهر الحرم.

(١) صحيح البخاري [١٩٠٩]، مسلم [١٠٨١]، وقد تقدم. وسيأتي بيان معنى: (العدة) مفصلاً.

وجعل الله عَزَّوَجَلَّ لبعض الشهور فضلاً على بعض، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥].
كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيراً من ألف شهر.

وأقسم بالعشر، وهو عشر ذي الحجة على الصحيح.
وما من هذه المواسم الفاضلة موسم إلا والله عَزَّوَجَلَّ فيه وظيفة من وظائف طاعاته، يتقرب بها إليه، والله عَزَّوَجَلَّ فيه لطيفة من لطائف نفحاته، يصيب بها من يعود بفضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار، وما فيه من اللفحات... " (١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۖ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦].
واختلفوا في هذا الظل، فالأكثر على أنه الظل من وقت طلوع الصبح إلى وقت طلوع الشمس.

والقول الثاني: أنه من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوعها.
والظل هو ظل الأرض يقبل عند غروب الشمس، ويدبر عند طلوعها.
وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً.

(١) لطائف المعارف، لابن رجب (ص: ٣٨-٤٠).

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾ أي: ثم جعلنا الشمس دليلًا على الظل؛ فإن الظل يعرف بالشمس، والنور يعرف بالظلمة، والليل بالنهار، وكذلك كل الأشياء تعرف بأضدادها (١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعنى مد الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: لاصقًا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة، غير منبسط فلم ينتفع به أحد. سمي انبساط الظل وامتداده: تحركًا منه، وعدم ذلك: سكونًا (٢). ومعنى كون الشمس دليلًا: أنَّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل، من كونه ثابتًا في مكان، زائلًا ومتسعًا ومتقلصًا، فينبون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. وقبضه إليه: أنه ينسخه بضح الشمس (٣). ﴿يَسِيرًا ۝٤٦﴾ أي: على مهل. وفي هذا القبض اليسير شيئًا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا" (٤).

والآيات الكونية تدل على عظمة الخالق جَلَّ وَعَلَا، وبديع صنعه - كما تقدم - وهي مسخرة لمصالح العباد، وهذا التسخير يستوجب من العباد الشكر. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٢﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالتَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

(١) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٢/٤).

(٢) "ومقابل السكون الحركة، فيكون إطلاق مد ظل وبسطه على الحركة من باب تسمية الشيء باسم ملابسه

أو سببه" حاشية الطيبي على الكشاف (٢٤٥/١١).

(٣) و(الضح) - بالكسر - : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض، وهو كالقمراء للقمر. هكذا هو أصل الحديث.

ومعناه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ضح) (٧٥ / ٣)، العين (١٣ / ٣)، تهذيب اللغة

(٢٥٧/٣).

(٤) الكشاف (٢٨٣/٣).

﴿١٢﴾ [النحل: ١٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿١١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٢﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿١١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ تَبْصُرُونَ ﴿١٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وهذا النظام الكوني له أمد معلوم، قدره خالق الكون جَلَّوَعَلَا، حتى إذا بلغ ذلك الأجل توقف جريان الزمن فيه، بتوقف عمل علاماته الدالة عليه:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۚ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ۚ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۚ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ۚ كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۚ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۚ﴾ [القيامة: ٥-١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ [المرسلات: ٨-١٣].

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ "معناه: أُدْهِبَتْ وَغُطِّيَتْ" (١).

قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذهب ضوءها" (٢)، أي: "كما يُطْمَسُ الأثر حتى يذهب" (٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "محيت ومحقت، وقيل: ذهب بنورها ومحق ذواتها"، موافق لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَنْتَثَرْتُ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ٢]، و﴿أَنْكَدَرْتُ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٢]. ويجوز أن يحق نورها ثم تنتشر محوقة النور. ﴿فُجِرَتْ ﴿٩﴾﴾ [المرسلات: ٩]: فتحت فكانت أبواباً" (٥).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ [المرسلات: ٩]، أي: شَقِقت وصَدَّعت، فهذا كله يدل على نهاية ذلك النظام الكوني الذي كان معهوداً قبل ذلك اليوم.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ أَنْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١-١٤].

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢٦٦/٥).

(٢) معاني القرآن، للفراء (٢٢٢/٣).

(٣) غريب القرآن، لابن قتيبة (٥٠٥/١).

(٤) قوله: (ومُحَقَّ ذَوَاتُهَا)، قال الراغب: "(المحق): النقصان، ومنه: المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال، يقال:

(محقه) إذا نقصه وأذهب بركته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال:

﴿وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤١] "المفردات، مادة: (محق) (ص: ٧٦١)، حاشية الطبي

(٢٢٣/١٦).

(٥) الكشف (٦٧٨/٤).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اُنْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝﴾ [الانفطار: ١-٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ اُنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾ [الانشقاق: ١-٥].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الشمس والقمر مُكَوَّرَانِ يوم القيامة»^(١).

قيل: يذهب نورهما، وقيل: يُلْقَانِ كما يُلْفُ الثوب.

ومعنى التكوير في الشيء البسيط: لف بعضه، على بعض كالثوب، ونحوه، وهكذا قال أهل التفسير في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾ [التكوير: ١].

قال أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كُوِّرَتْ مثل تكوير العمامة، تلفُ فتمحى" ^(٢).

وقال الفراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾: ذهب ضوءها" ^(٣).

وقال أبو إسحاق الزجاج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "معنى: ﴿كُوِّرَتْ ۝﴾: جمع ضوءها، ولُفَّتْ كما تلف العمامة، يقال: كَرْتُ العِمَامَةَ: كَرْتُ رَأْسِي أَكُوِّرُهَا، وَكُوِّرَتْ أَكُوِّرُهَا: إِذَا لَفَفْتُهَا. ﴿وَإِذَا التُّجُومُ اُنْكَدَرَتْ ۝﴾ [التكوير: ٢]، ﴿اُنْكَدَرَتْ ۝﴾: تَهافتت وتناثرت. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝﴾ [التكوير: ٣]: صارت سراباً" ^(٤).

(١) صحيح البخاري [٣٢٠٠].

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٧/٢)، وانظر: أعلام الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١٤٧٥/٢).

(٣) معاني القرآن (٢٣٩/٣)، وانظر: تهذيب اللغة (١٨٩/١٠).

(٤) معاني القرآن وإعراجه (٢٨٩/٥).

ومرور الزمن في الحياة الدنيا ينقل الإنسان من قوة إلى ضعف، ويؤذن بانصرام العمر، كما قال جلّ وعلا: ﴿* اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ﴾ [الروم: ٥٤]، وتلك سنة الله عزّ وجلّ في عبادته.

فينبغي على طالب العلم والهداية أن يحذر الاغترار بالدنيا بما فيها، ويتعد عن الأسباب المؤدية للانهماك فيها، أو الزيادة على الحاجة؛ فإنها عرض زائل، وحال حائل، وما فيها من النعيم أو من السرور محفوف بالأحزان والتأكيد، فما من فرح في الدنيا إلا ويتلوّه ترح وحن.

فهذا نعيم الدنيا الذي يُرى ويُحسّ، ولكِنَّه لا يدوم، فهو في وشك الزوال، ومظنة الترحال، وما عند الله عزّ وجلّ أعظم وأبقى. ﴿قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

قال الشاعر:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا^(١)

يعني: أن السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه هو أشد الغم؛ لأنه يراعي وقت زواله، ولا يطيب له ذلك السرور، وهذا من أبلغ الكلام وأوعظه.

وإنما يُعنى العاقل بسرور لا ينقطع، فيعمل في الدنيا صالحاً؛ ليحيا حياة طيبة، ثم يوفى الأجر والثواب في الآخرة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد خلق الله عزّ وجلّ العباد ضعفاء، وكتب عليهم الموت والفناء، فمنهم من اهتدى إلى الحق قبل الفوت، فاعتنم المهلة قبل الرّحيل والموت، فكان في أخراه من السّعداء،

(١) ديوان المتنبي (ص: ١٤٠).

ومنهم من سَلَكَ طريق الغواية، فسقط في أودية الضَّلال، وتشعُّبات الظُّنون والأوهام، وغفل عن حقيقة ضعفه وحاجته، وعن عاقبته ومآله، فأنحرف عن الصراط، فكان من أهل الشقاء. وإن جريانُ الزمان في حياة الإنسان، يسرع بهم إلى الموت، وتلك هي سنة الله عَزَّجَلَّ في عباده. والإنسان مهما كان حاله فهو منقلب إلى ضعف وشيية، وذائق الموت، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومن كمال نعيم في الجنة: توقف عمل الزمن، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فذلك قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»^(٢).

وينبغي أن يعلم أنه لا يقاس شيء من أحوال الآخرة على الدنيا. ولكن ذكر لمحات عن الجنة وصفتها يدل على ذلك النعيم المرجو، وما أعدَّه الله عَزَّجَلَّ لعباده الصالحين، وأنه لا يقاس على نعيم الدنيا، فيبلغ المنعمون في الجنة غاية النعيم الذي لا ينقطع، وكمال السعادة. فلا يصلح القياس على نعيم الدنيا لا من حيث تركيب البدن، حيث يختلف عن الدنيا بما يتلاءم مع المنعم به، ولا من حيث ذات النعيم. وهذا معنى قول الله عَزَّجَلَّ في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت،

(١) صحيح مسلم [٢٨٣٦].

(٢) صحيح مسلم [٢٨٣٧].

ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بله، ما أطلعتم عليه، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] (١).

وقال الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]. قال عكرمة رحمه الله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب (٢).

وعن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء»، وفي رواية: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»، رواه ابن جرير، من رواية الثوري، وابن أبي حاتم من حديث: أبي معاوية كلاهما عن الأعمش، عن أبي ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهما (٣).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله: في قوله جل وعلا: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهًا، يعرفونه وليس هو مثله في الطعم (٤).

(١) صحيح البخاري [٤٧٨٠]، مسلم [٢٨٢٤]. «بله ما أطلعتم عليه» أي: دعوا ما أطلعتم عليه من نعيم الجنة وعرفتموه من لذاتها؛ فإنه سهل يسير في جانب ما ادّخرته لكم.

(٢) تفسير الطبري (٣٩١/١)، تفسير ابن كثير (٢٠٥/١).

(٣) أخرجه هناد في (الزهد) [٣]، وابن جرير في (التفسير) (٣٩١/١-٣٩٢)، وابن أبي حاتم في (التفسير) (٦٦/١)، وأبو نعيم في (صفة الجنة) [١٢٤]، والبيهقي في (البعث) [٣٣٢]، وابن عساكر في (معجمه) [١١٩٤]. والضياء في (المختارة) [٨، ٦]، قال المنذري (٤/٣١٦): "رواه البيهقي موقوفًا بإسناد جيد". قال في (الدر): "أخرجه مسدد، وهناد في (الزهد)، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في (البعث): عن ابن عباس "الدر المنثور (٩٦/١).

(٤) تفسير الطبري (٣٩٢/١)، تفسير ابن كثير (٢٠٥/١).

فحقيقة النعيم في الآخرة غير معلومة، فثمار الجنة وإن شابهت في الشكل ثمار الدنيا، ولكنها في الحقيقة مباينة لها.

كما أن الزمان في الجنة والنار ليس كالزمان في الحياة الدنيا.

أما قوله جَلَّوَعَلَا عن الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، فقد قيل: "ليس ثمَّ بكرة ولا عشيٌّ، ولكنهم خوطبوا بما يَعْقِلُونَ في الدنيا. فالمعنى: لهم رزقهم في مقدار ما بين الغداة والعشيّ."

وقد جاء في التفسير أيضاً أن معناه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾ كل ساعة. وإذا قيل في مقدار الغداة والعشيّ فالذي يقسم في ذلك الوقت يكون مقدار ما يريدون في كل ساعة إلى أن يأتي الوقت الذي يتلوه - كذا قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ - " (١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، أي: في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً أو نهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيتها بأضواء وأنوار" (٢).

والزمان الذي أوجده الله عَزَّوَجَلَّ في الحياة الدنيا على وفق النظام المطرد فيه، له حكم كثيرة - كما تقرر في غير موضع - فمن ذلك: معرفة الحساب الذي تستقيم به حياة الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، وليعلم من ذلك ابتداء وقت كل حدث أو عمل أو عبادة، وانتهاء ذلك الوقت، فتتميز بذلك الأوقات، وتعلم البدايات والنهايات. وأما في الآخرة فلا تكليف وإنما يلهم أهل الجنة التسبيح إلهاماً.

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٣٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/٢٤٧).

والقرآن إنما يعنى بالمقاصد الشريفة والغايات النبيلة، ونحن بالنسبة للغيبيات إنما نقرأ النقل بالعقل لكن ضمن ضوابط فهم النصوص من حيث عدم الخروج عن حدود اللغة أو التفسير فما دامت المقاصد متحققة فكفى.

أما الخوض فيما وراء ذلك فلا يثمر؛ لأننا لم نخط علمًا بمقومات السعادة في الآخرة، فما هو مطويٌّ أعظم في حقيقته مما لوحت به النصوص من الوصف، والنصوص تقرب ذلك، وفي الوقت نفسه تذكر أنه فوق كل تصور.

والمؤمن في حياته -على قصرها، وسرعة انقضائها- متقلب ما بين سرورٍ وهمٍ وأحزان، وسعة وفقر وحرمان، وخيانة من قريب وخذلان، ووصل وصددٍ ونكران، وجحود وإيذاء وهجران، ولكنه يركن في كلِّ ما يعتريه من النوازل إلى ركن ركين، فيجد السكينة والأمان، ولا يخذل على مرِّ الزَّمان، فهو في تقلب أحواله مطمئن بذكر ربه عزَّجَل، واثق بوعده، من فرج ونصر وإكرام.

وإذا ما حان الأجل، وأزف الرَّحيل عن دنيا المظالم والأحزان، استبشر بلقاء ربه وعدله، ورحمته وفضله، فاليوم عنده هو يوم الانعتاق وإطلاق السراح، وطى ما مضى وراح، والتحرر من قفص الحياة، إلى فضاء رحب، لا يبقى فيه أسير الجسد، حيث ينقلب إلى خير جوار، وإلى ساحة عدل إحسان، حيث لا ظلم، ولا بغي، ولا طغيان.

وقال الله عزَّجَل في بيان حال كثيرٍ من النَّاس الذين يقدِّمون الحياة الدُّنيا على الآخرة، ويؤثرون متاعها العاجل على ما فيه نفعهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۗ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، أي: ثواب الله عزَّجَل في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى؛ فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريبًا، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!!

رابعاً: النهي عن سبِّ الزمن:

وقد جاء النَّهْيُ عن سَبِّ الدَّهْرِ. والتَّحْرِيمُ يتناولُ من سَبَّ الدهر، وكذلك الألفاظ المرادفة للدهر، كالزمن، واليوم، والوقت.

والمراد من اليوم والوقت: الزمان الذي عُيِّنَ للشيء، فهما أخص من الزمان.

وقد جاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ)، (باب: لا تسبوا الدهر): عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله عزَّ وجلَّ: يَسُبُّ بنو آدم الدَّهْرَ، وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار»^(١).

وعند (مسلم) رَحِمَهُ اللهُ: «يُؤْذِينِي ابن آدم يقول: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أنا الدَّهْرُ، أَقْلِبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا»^(٢).

قوله: «يُؤْذِينِي ابن آدم» "فمعناه: يعاملني معاملة توجب الأذى في حَقِّكُمْ. «وأنا الدهر»، قال العلماء: وهو مجاز. وسببه: أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موت أو هرم أو تلف مال أو غير ذلك، فيقولون: (يا خيبة الدهر) ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تسبوا الدهر»؛ فإن الله عزَّ وجلَّ هو الدهر، أي: لا تسبوا فاعل النوازل؛ فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله عزَّ وجلَّ، ومعنى: «فإن الله هو الدهر»، أي: فاعل النوازل والحوادث، وخالق الكائنات -والله أعلم-^(٣).

(١) صحيح البخاري [٦١٨١].

(٢) صحيح مسلم [٢٢٤٦].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/١٥). ونحوه: قول ابن بطال في (شرحه لصحيح البخاري) (٣٣٧/٩)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٥٦٥/١٠).

وقال الإمام الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِنَّمَا تَأْوِيلُهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْعَرَبَ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَسُبَّ الدَّهْرَ وَتَذُمَّهُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهِمْ: مِنْ مَوْتٍ، أَوْ هَدْمٍ، أَوْ تَلَفٍ مَالٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَتَسْبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - وَهُمَا: الْفِتْنَتَانِ وَالْجُدِيدَانِ، وَيَقُولُونَ: أَصَابَتْهُمُ قَوَارِعُ الدَّهْرِ، وَأَبَادَهُمُ الدَّهْرُ، وَأَتَى عَلَيْهِمْ؛ فَيَجْعَلُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ اللَّذِينَ يَفْعَلَانِ ذَلِكَ، فَيَذْمُونَ الدَّهْرَ فَنَّهُ الَّذِي يُفْنِينَا وَيَفْعَلُ بِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ» الْحَدِيثُ. عَلَى أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُ بِكُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ سَبَبْتُمْ فَاعِلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَإِنَّمَا تَسْبُونَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّوَعَلَا فَاعِلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ" (١).

وذكر ابن القيم عليه رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ سَبَّ الدَّهْرِ فِيهِ ثَلَاثُ مَفَاسِدَ:

"أَحَدَاهَا: سَبُّهُ مِنْ لَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَبَّ؛ فَإِنَّ الدَّهْرَ خَلْقٌ مُسَخَّرٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، مُنْقَادٌ لِأَمْرِهِ، مُذَلَّلٌ لِتَسْخِيرِهِ، فَسَابُّهُ أَوْلَى بِالذَّمِّ وَالسَّبِّ مِنْهُ.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ سَبَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلشَّرْكِ، فَإِنَّهُ سَبَّهُ لظَنِّهِ أَنَّهُ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ...

الثَّالِثَةُ: أَنَّ السَّبَّ مِنْهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَى مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ فِيهَا أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَإِذَا وَقَعَتْ أَهْوَاؤُهُمْ حَمَدُوا الدَّهْرَ وَأَثَنُوا عَلَيْهِ. وَفِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، قَرَّبُ الدَّهْرِ جَلَّوَعَلَا هُوَ الْمَعْطِيُّ الْمَانِعُ، الْخَافِضُ الرَّافِعُ، الْمَعَزُّ الْمَذِلُّ، وَالِدُ الدَّهْرِ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَمَسَبَّتُهُمْ لِلدَّهْرِ مَسَبَّةٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ" (٢).

(١) السنن الكبرى، للبيهقي [٦٤٩١]، معرفة السنن والآثار [٧٢٩٠]، وانظر: الاستذكار، لابن عبد البر (٥٥٣/٨)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٥٥/١٨)، تفسير البغوي (١٨٨/٤)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (٦٠٠/٣)، غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (١٤٦/٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (دهر) (١٤٤/٢).

(٢) انظر ذلك مفصلاً في (زاد المعاد) (٣٢٣/٢-٣٢٤).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «أنا الدهر»، معناه: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي تنسبونها إلى الدهر، فإذا سب ابن آدم الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور، عاد سبه إلي؛ لأني فاعلها، وإنما الدهر زمان ووقت جعلت ظرفاً لمواقع الأمور. وكان من عادة أهل الجاهلية إذا أصابهم شدة من الزمان أو مكروه من الأمر أضافوه إلى الدهر وسبوه فقالوا: يؤساً للدهر، وتباً للدهر، ونحو ذلك من القول؛ إذ كانوا لا يثبتون لله عَزَّوَجَلَّ ربوبية، ولا يعرفون للدهر خالقاً، وقد حكى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك من قولهم حين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ ولذلك سمو: الدهرية، وكانوا يرون الدهر أزلياً قديماً لا أول له، فأعلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن الدهر محدث يقبله بين ليل ونهار، لا فعل له في شيء من خير أو شر، لكنه ظرف للحوادث، ومحل لوقوعها وأن الأمور كلها بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومن قبله يكون حدوثها، وهو محدثها ومنشئها جَلَّ وَعَلَا، لا شريك له" (١).

خامساً: القرآن لا يعنى غالباً بتحديد الزمن:

إن القرآن الكريم لا يعنى غالباً بذكر أشخاص ولا أماكن ولا تحديد أزمنة، ولا ذكر مسافات؛ لأن ذلك لا علاقة له بالحدث، وإنما يعنى بموضع العبرة. فعندما يذكر فرعون -مثلاً- وهو لقب لملوك مصر في تلك الحقبة من الزمن لا يذكر من هو على وجه التحديد.

وإذا نصَّ القرآن الكريم في القليل النَّادر على ذلك فإنما يكون لقصد عظيم. وقد ذكر القرآن الكريم حكام مصر القدامى بلقب: (فرعون)، إلا في سورة يوسف فقد ذكر فيها حاكم مصر بلقب (ملك) في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ

(١) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١٩٠٤/٣).

سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴿يوسف: ٤٣﴾، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ؟﴾ [يوسف: ٥٠]، وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤].

وقد ذكر المؤرخون أن ملك مصر في عهد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس). قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتعريف في ﴿الْمَلِكُ﴾ للعهد، أي: ملك مصر. وسماه القرآن هنا: ملكا ولم يسمه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكا لمصر أيام حكمها (الهكسوس)، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي: البدو. وقد ملكوا بمصر من عام [١٩٠٠] إلى عام [١٥٢٥] قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ" ^(١). فالتعبير في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالملك من دقائق إعجاز القرآن.

وسياأتيك مزيد بيان في الحديث عن التنويه بالإعجاز في قصص القرآن الكريم.

سادساً: الزَّمان في الحياة الدنيا لا يثبت على حال:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أَنَّ الزَّمان لا يثبت على حال، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي. فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال، وهو تقوى الله عَزَّجَلَّ؛ فإنه إن استغنى، زانته، وإن افتقر، فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي، تمت النعمة عليه، وإن ابتلي، جملته. ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه، أو أشبعه، أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة،

(١) التحرير والتنوير (٢٨٠/١٢)، وانظر: تفسير المنار (٢٦١/١٢).

حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويواقف على الحدود. والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى، فإنها ستحول، وتخليه خاسراً.

ولازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل، والآجل معلوم^(١).

وللتقوى ثمرات عظيمة في حياة الإنسان، فهي تثمر صلاحاً، واستقامة، واستقراراً، وسلامة من آفات كثيرة؛ فإن تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، ومراقبته في السر والعلن، وتحقيق العبودية له، وإخلاص العبادة له من أهم الأسباب التي تحصِّن المسلم من الشرور والآفات، وهي سبب لتفريج الكروب عند النوازل والخطوب.

فمن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ تولى الله جَلَّوَعَلَا حفظه، ولم يكله إلى غيره، ووفقه للخير، وجعل له فرجاً ومخرجاً، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۖ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۚ﴾ [الطلاق: ٤]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا ۖ وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ [الأعراف: ٩٦]. فالتقوى من أعظم أسباب التمكين والعزة في الدين والدنيا، والبركة في الرزق والوقت والعمل، وتنزل الرحمات، وعموم الفضل والبركات، ولا سيما عند الشدائد والملمات، كما قال جَلَّوَعَلَا في آية أخرى: ﴿وَكَتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ومن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ كان الله معه وفي عونته، ولن يخذله، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۖ﴾ [النحل: ١٢٨]. فمن اتقى الله تولى حفظه، ولم يكله إلى

(١) صيد الخاطر (ص: ١٣٧).

غيره، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ»^(١). فمن حفظ الله عَزَّجَلَّ حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجهه، ومن كان الله عَزَّجَلَّ حافظه وأمامه فممن يخاف، وممن يحذر؟

فالتقوى ترفع عنهم الخوف والحزن يوم القيامة، فلا يمسه السوء، ولهم البشرى في الدنيا، كما أخبر الله عَزَّجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^(٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٤) [يونس: ٦٢-٦٤]. يقول تعالى ذكره: ألا إن أولياء الله عَزَّجَلَّ لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله عَزَّجَلَّ؛ لأن الله رضي عنهم، فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾^(٥) [الأعراف: ١٩٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٦) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^(٧) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٨) [يونس: ٦٢-٦٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٩) [الجاثية: ١٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِئُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٩٧].

ومن يتقي الله عَزَّجَلَّ يجعل له نورًا يفرق به بين الحق والباطل، وينور قلبه، ويشرح صدره، ويوفقه للحق، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَنَاطِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١٠) [الأنفال: ٢٩]. قال

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث: عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

ابن جزري رحمه الله: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: تفرقة بين الحق والباطل، وذلك دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة" (١). وقد قال الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال الله عز وجل مرشدًا أهل الكتاب الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل إلى تقوى الله عز وجل، والإيمان برسوله الخاتم، محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي: نصيبين. ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾؛ لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وإيمانكم بمن قبله، فيكون لهم ذلك النور الذي يسعى بين أيديكم يوم القيامة، أو يكون لكم الهدى والرشاد، ويؤيد الأول: أنه مذكور في هذه السورة، ويؤيد الثاني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والتقوى من أسباب التذكر والتبصر، وطرد وساوس الشيطان، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وقال مبيِّنًا حسن عاقبة التقوى في الدنيا والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وقال: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

(١) تفسير ابن جزري (٣٢٥/١).

والتقوى هي خير ضمان لصلاح الأولاد وبرهم، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وقد جاء ذكر (ثمرات التقوى) مفصلاً في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

سابعاً: قيمة الزمن في الكتاب السنة:

إن الوقت هو أنفس ما يملكه الإنسان في حياته، فهو الذي يحوي ما قدَّم كل عبد في زمن التكليف من عمل ينفعه في مآله؛ ولذلك فإن ضياعه إتلاف لأعظم الثروات التي يملكها الإنسان.

وإن من أنفع ما يشغل به العبد وقته: الإكثار من نوافل الطاعات، والاشتغال بما ينفع المكلف في دنياه وآخرته من العلم والعمل.

والعاقل هو الذي يغتنم فرصة الصحة، وفرصة الفراغ، وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١).

قال العلماء، معناه أن الإنسان لا يتفرَّغ للطاعة إلا إذا كان مكفياً صحيح البدن، فقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، وقد يكون صحيحاً ولا يكون مستغنياً، فلا يكون متفرِّغاً للعلم والعمل لشغله بالكسب، فمن حصل له الأمران وكسل عن الطاعة، فهو المغبون، أي: الخاسر في التجارة، مأخوذ من الغبن في البيع.

(١) صحيح البخاري [٦٤١٢].

فكثير من العباد مقصرون في شكر هاتين النعمتين، ولا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

قال الإمام فخر الدين الرازي رَحِمَهُ اللهُ: "النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "العَبْنُ - بالتسكين - في البيع، والعَبْنُ - بالتحريك - في الرأي. يقال: غبنته في البيع - بالفتح -، أي: خدعته، وقد غُبِنَ فهو مَغْبُونٌ. وَغَيْنَ رأيه - بالكسر -: إذا نقصه فهو غَبِينٌ، أي: ضعيف الرأي" (٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب مثلاً للمكلف بالتاجر الذي له رأس مال، وهو يبيع ويشترى ويطلب من تجارته سلامة رأس المال والربح، فطريقه في ذلك: أن يتحرى فيمن يعامله، ويلزم الصدق، والحَذَقُ (٣)؛ لئلا يغبن. فنعمتا: (الفرغ، والصحة) رأس مال المكلف، فينبغي له أن يعامل الله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمجاهدة مع النفس وأعداء الدين؛ لئلا يغبن، وحتى يريح في الدنيا والآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تَوْفُونَهُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١٠-١١] الآيات (٤)، وعليه أن يجتنب: مطاوعة النفس، ومعاملة الشيطان؛ لئلا يغبن، فيضيع رأس ماله مع الربح.

(١) مفاتيح الغيب (١/٢٢٠).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (غبن) (٦/٢١٧٢)، وانظر: العين (٤/٤٢٥).

(٣) يقال: (حَذَقَ) الصبي القرآن والعمل به إذا مهر، وبابه ضرب، و(حَذَقًا) و(حَذَاقًا) بكسر أولهما، و(حَذَاقَةً) أيضًا بالفتح. و(حَذَقَ) بالكسر (حَذَقًا) لغة فيه. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (حذق) (٤/١٤٥٦). وفي (العين): "(الحَذَقُ) و(الحَذَاقَةُ): مهارة في كل شيء. و(الحَذَقُ) مصدر: حَذَقَ وحَذَقَ معًا في عمله فهو حاذق" العين، مادة: (حذق) (٣/٤٢).

(٤) من (١٠) إلى (١٣).

فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]..^(١) وفي مقابلة القليل في قوله جَلَّوَعَلَا حكاية عن قيل داود عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بأنه أمة في قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٣) وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ^(٤) ثُمَّ أُوحِيَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا^(٥) [النحل: ١٢٠-١٢٣].

فلا ينبغي لطالب الحق والهداية أن يستوحش من قلة السالكين.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا، كفعل العلماء المفتونين، خلافًا لمن كثر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين. وفي الحديث: عدم الاغترار بكثرة أهل الباطل الذين يقضون أوقاتهم في الشهوات والملذات؛ فإن من أسباب الضلال والانحراف: موافقة ما عليه العامة من غير نظر ولا تبصر.

قال بعض أهل العلم: اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين^(٦).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٧١/١٠-٣٢٧٢)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٢٣٠/١١).

(٢) هذا القول عزاه الإمام النووي وغيره إلى الفضيل بن عياض. انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص: ١٦٠)،

(ص: ٢٦٨)، المجموع شرح المذهب (٢٧٥/٨)، التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ١١٦)، الاعتصام،

للشاطبي (ص: ١١٢)، الحوادث والبدع، لأبي شامة (ص: ٢٢).

وقد ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ موافقة الأكثرين في ضلالهم في غير موضع، ومن ذلك قوله
جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقد ورد ذمُّ الكثرة التي ضلَّت وأضلَّت آيات كثيرة، وفيها دلالة على مدح القلة
التي خالفتهم، ومن ذلك: الآيات التالية:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ
مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَّهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٤].

إلى غير ذلك.

وفي الحديث: «ما أنتم في الناس إلا كالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَبْيَضٍ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَسْوَدَ» ^(١).

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» ^(٢).
فلا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا تدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك؛ فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا، الأعظمون -عند الله عَزَّوَجَلَّ- قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه كما أن العدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم. وقد فصَّلْتُ القول في (خطورة الاغترار بكثرة أهل الباطل) في كتاب: (عقبات في طريق الهداية).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "وشكر العباد لله عَزَّوَجَلَّ: اعترافهم بنعمه، وثناؤهم عليه، وتما ذلك: مواظبتهم على طاعته" ^(٣).

(١) صحيح البخاري [٣٣٤٨].

(٢) صحيح مسلم [١٩٢٠]، ونحوه في (صحيح البخاري) [٧٣١١]، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ» يقاتلون وهم أهل العلم: عن المغيرة بن شعبة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»، وفي (مسلم) [١٠٣٧] عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلِهِمْ أَوْ خَالَفِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

(٣) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٥٥/٨).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "وفي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ» الحديث: تنبيه أمته على مقدار عظيم نعمة الله عَزَّجَلَّ على عباده في الصحة والكفاية؛ لأن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكيفاً مؤنة العيش في الدنيا، فمن أنعم الله عَزَّجَلَّ عليه بهما فليحذر أن يغبنهما.

ومما يستعان به على دفع الغبن: أن يعلم العبد أن الله عَزَّجَلَّ خلق الخلق من غير ضرورة إليهم، وبدأهم بالنعم الجليلة من غير استحقاق منهم لها، فمنَّ عليهم بصحة الأجسام، وسلامة العقول، وتضمن أرزاقهم، وضاعف لهم الحسنات، ولم يضاعف عليهم السيئات، وأمرهم أن يعبدوه، ويعتبروا بما ابتدأهم به من النعم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأحرفٍ يسيرة، وجعل مدة طاعتهم في الدنيا منقضية بانقضاء أعمارهم، وجعل جزاءهم على ذلك خلوداً دائماً في جنات لا انقضاء لها، مع ما دخر لمن أطاعه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أنعم النظر في هذا كان حريّاً ألا يذهب عنه وقت من صحته وفراغه إلا وينفقه في طاعة ربه جَلَّوَعَلَا، ويشكره على عظيم مواهبه، والاعتراف بالتقصير عن بلوغ كنه تأدية ذلك، فمن لم يكن هكذا، وغفل وسها عن التزام ما ذكرنا، ومرت أيامه عنه في سهو وهو وعجز عن القيام بما لزمه لربه عَزَّجَلَّ فقد غبن أيامه، وسوف يندم حيث لا ينفعه الندم" (١).

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ» (٢).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٤٦-١٤٧).

(٢) صحيح البخاري [٢٩٦١، ٣٧٩٥، ٣٧٩٦، ٣٧٩٧، ٤٠٩٨، ٦٤١٣، ٦٤١٤]، مسلم [١٨٠٤،

قال ابن بطلال رَحِمَهُ اللهُ: "نَبَّهَ بِذَلِكَ أُمَّتَهُ عَلَى تَصْغِيرِ شَأْنِ الدُّنْيَا وَتَقْلِيلِهَا، وَكَدَرِ لَذَاتِهَا وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا، وَمَا كَانَ هَكَذَا فَلَا مَعْنَى لِلشَّغْلِ بِهِ عَنِ الْعَيْشِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا كَدَرَ فِي لَذَاتِهِ، بَلْ فِيهِ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ" (١).

ومن هدي القرآن الكريم: إرشاد العباد إلى الانتفاع بالوقت، والبعد عن الشواغل والملهيات، ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠﴾ [المنافقون: ٩-١٠]. فمن يلهه ماله وولده عن ذكر الله عَزَّجَلَّ، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٩﴾ أي: هم المغبونون، الذين خسروا حظوظهم من كرامة الله عَزَّجَلَّ ورحمته. فمن اشتغل بالقيام على ماله وولده وشغله ذلك عن طاعة الله عَزَّجَلَّ كما شغل المنافقين فهو خاسر مغبون. وذكر الله عَزَّجَلَّ هنا المراد به عموم العبادات. وقيل: يعني: عن الصلاة المكتوبة، والعموم أولى. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٩﴾ في تجارتهم حيث باعوا الباقي بالفاني.

وقد قالوا: ويل لمن غلبت آحاده عشراته؛ لأن الحسنه بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة واحدة.

وقال الله عَزَّجَلَّ في وصف المؤمنين الذين سلكوا طريق النجاة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِهُمْ تِجْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ٣٨﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (١٤٧/١٠).

وقال جَلَّوَعَلَا في وصف الذين ينتفعون في استثمار أوقاتهم في التأمل والذكر: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال جَلَّوَعَلَا مرشدًا العباد إلى ما فيه صلاح حالهم ومآلهم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ] وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ] أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وسياقي بيان ألفاظ: المسارعة، والمسابقة، والمنافسة، والمبادرة، والسعي؛ لما فيها من إرشاد إلى اغتنام الوقت، والانتفاع من الزمن.

فمن الواجب على من كل من أراد السلامة والصلاح والنجاة: أن يحرص على الانتفاع من وقته؛ فإن ما يذهب منه فإنه لن يعود، وإن من أعظم سبل الخير الأعمال الباقية، فمن ترك أثرًا طيبًا، فإنه يكتب له الأجر، ويجري عليه عمله ما بقي ذلك الأثر، كما جاء في الحديث: عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرٌ مِنْ عَمَلِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ

يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمِنْ سَنٍّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةٌ سَيِّئَةٌ، كَانَ عَلَيْهِ وَزَرُهَا وَوَزَرَ مِنْ
عَمَلٍ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

وفي المقابل جاء في الحديث: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَاحِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ
الْقَتْلَ»^(٢).

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ
بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي
إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، أي: نَسْجِلُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمَلُوهَا فِي الدُّنْيَا، وَنَسْجِلُ لَهُمْ
آثَارَهُمُ الَّتِي تَرَكُوهَا بَعْدَ مَوْتِهِمْ، سَوَاءً أَكَانَتْ صَالِحَةً أَمْ غَيْرَ صَالِحَةٍ.

فمن الواجب على كل مسلم: أَنْ يَحْرَصَ عَلَى تَنْظِيمِ وَقْتِهِ، وَعَلَى الْإِخْلَاصِ فِي
الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَأَنْ يَغْتَنِمَ أَوْقَاتَ الْفَرَاغِ، وَأَنْ يَشْتَغَلَ بِالْعَمَلِ الَّذِي يَنْفَعُهُ، وَيَنْفَعُ غَيْرَهُ مِنْ
أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ وَأَرْحَامِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَمَجْتَمَعِهِ، وَأَنْ يَحْرَصَ عَلَى الصَّحْبَةِ الصَّالِحَةِ، وَعَلَى حُضُورِ
مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ، وَعَلَى مِطَالَعَةِ سِيرِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومن تأمل أحوال العباد وجد أن الكثير منهم تضيع أوقاتهم من غير فائدة، بل إن
منهم من يبحث عن مجالس اللهو ويطلبها، وهذا من الغبن العظيم، وإنما يدرك الغافل
حقيقة ذلك إذا حضره الموت، كما أنه يندم يوم القيامة على فاتته من وقت قضاؤه في
غفلة وهو وعصيان، ومن غير عمل نافع له في مآله، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

(٢) صحيح البخاري [٣٣٣٥، ٧٣٢١]، مسلم [١٦٧٧].

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١١﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المنافقون: ١٠-١١].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله عَزَّجَلَّ، والبدن مركب، فمن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله عَزَّجَلَّ الذي هو السلوك" (١).
وإن الناظر في أحوال المسلمين اليوم يملكه الحزن الشديد لما يرى من تضييع الأوقات في سفاسف الأمور ومُحَقَّرَاتِهَا.

فتأمل حال المواطن في البلاد العربية كم يقضي من الوقت وهو عاكف على مشاهدة مواقع الإنترنت ووسائل التواصل والإعلام؟! وكم تترك تلك المواقع وتلك الوسائل من أثرٍ على الناس من حيث توجيه الأخبار على حسب المصالح، وتشويه الحقائق وتزييفها، والتشكيك في الثوابت، والترويج للفساد الأخلاقي؟
قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا زمانُ الصَّبْرِ مَنْ لَكَ بِالَّتِي كَقَبْضٍ عَلَى جَمْرِ فتنجو من البَلَا
ولو أَنَّ عَيْنًا سَاعَدَتْ لَتَوَكَّفَتْ سَحَائِبُهَا بِالْدَّمَعِ دَيْمًا وَهُطَلَا
ولكنَّهَا عن قسوة القلب فَحَطُّهَا فَيَا ضَيْعَةَ الْأَعْمَارِ تَمْشِي سَبْهَلَا (٢)

قال ذلك وهو يصف الحال في زمانه، فكيف به لو كان في زماننا؟

(١) جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي (ص: ٣٢).

(٢) من الشاطبية (حز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع) (ص: ٧) [٨١-٨٣].

وقوله (ولو أنَّ عَيْنًا سَاعَدَتْ.. أي: ولو ساعدت عين صاحبها لكثير بكاؤها دائماً على التقصير في الطَّاعة، وقَلَّة البضاعة، ومعنى: (توكفت): قطرت وتصببت وسالت، فيا ضيعة الأعمار تمر وتذهب ضائعة من غير فائدة!

وقد جاء في ترجمة الإمام أبي محمد الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا تَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ، وَلَا يَجْلِسُ لِلإِقْرَاءِ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ، وَفِي هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ، وَخُضُوعٍ وَاسْتِكَانَةٍ، وَيَمْنَعُ جُلُوسَهُ مِنَ الْخَوْضِ إِلَّا فِي الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ. وَكَانَ يَعْتَلِ الْعِلَّةَ الشَّدِيدَةَ وَلَا يَشْتَكِي، وَلَا يَتَأَوَّهُ؛ وَإِذَا سُئِلَ عَنْ حَالِهِ قَالَ: الْعَافِيَةُ؛ لَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ ^(١).

وفي وصية الإمام الموفق ابن قدامة طيب الله روحه ما لفظه: "فاغتنم رحمك الله حياتك النفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة، واعلم أن مدة حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فكل نفس ينقص به جزء منك، والعمر كله قصير، والباقي منه هو اليسير، وكل جزء منه جوهرة نفيسة لا عدل لها ^(٢).

وقد كان السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ مِنَ الْخَلْفِ، أَحْرَصَ النَّاسُ عَلَى كَسْبِ الزَّمَنِ، فَكَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي الطَّاعَاتِ، وَيَتَسَابِقُونَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَالْقُرْبَاتِ. ومطالعة سير السَّلَفِ الصَّالِحِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ تَبَعَتْ فِي النَّفْسِ الْهَمَّةُ لِلسَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَاقْتِفَاءُ أَثَرِهِمْ فِي اغْتِنَامِ مَا أَمَكَّنَ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَفِي ذِكْرِ سَيْرِهِمْ خَيْرٌ عَظِيمٌ، وَهَدَايَةٌ وَإِرْشَادٌ.

(١) انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣/٣٥٣-٣٥٤)، شذرات الذهب (٦/٤٩٤-٤٩٥)، إنباه الرواة على أنباه النحاة (٤/١٦١)، وفيات الأعيان (٤/٧١-٧٢)، السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٢/٥٤٨-٥٥٠)، نكت الهميان في نكت العميان (ص: ٢١٣-٢١٤)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/٢٣-٢٥).

(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/٤٤٧).

وإن الوقت أغلى وأثمن شيء يملكه الإنسان في حياته الدنيا، وأسهل شيء في الضياع، فهو ينقضي بسرعة، مهما كان حال الإنسان فيه، سواء كان زمنه زمن يسر ومسرة وسعة، أم كان زمن فقر وهم وضيق، كما قيل:

والوقت أنفس ما عُنيَتْ بِحِفْظِهِ وأراه أسهل ما عليك يضيع

فالزمن وعاء العمل سواء كان العمل صالحًا ومثمرًا للخير، أم كان غير صالح، ومورثًا للشر، فهو ينقضي سريعًا ثم يجازي كلُّ على عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

واغتنام الوقت في صالح العمل هو دأب الفطناء، وأرباب القلوب، وأصحاب البصائر، فهم على دراية وتبصُّرٍ لآثار ذلك في صلاح الحال والمآل، كما أنهم يعلمون أن الغفلة عن اغتنام الوقت في صالح العمل، والتفريط في طلب الهداية، وسلوك طريق الضلال والغواية مفضٍ إلى التَّحسر والندم في وقت لا ينفع فيه الندم، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتُنِي عَلَى مَا قَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

فالفرصة في الدنيا سانحة، ووسائل الهدى حاضرة، وباب التوبة مفتوح لكل مقصِّر أو غافل.

ولكن المقصر أو الغافل إذا دهم الموت فإنه يتحسر على التفريط في الطاعة، وفقد الهداية، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فات، فيأتيه الجواب: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَكَ عَائِيَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر: ٥٩]، أي: إنه لا فائدة من ذلك، فقد جاءتك آياتي في الدنيا على لسان رسولي الذي أرسلته إليك، وفي كتابي الذي يتلوه عليك، ويذكرك بما فيه من وعدٍ ووعد، وتبشير وإنذار، فكذبت بها، واستكبرت عن قبولها، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين، ويستنُّ بسنتهم، ويتَّبِع مناهجهم.

وإنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا يعلم طبيعتهم، ويعلم إصرارهم على باطلهم، ويعلم أن رجفة الموقف المفزع، ووقوفهم على النار هو الذي أنطق ألسنتهم بهذه الأمانى، وهذه الوعود، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

والإنسان لا يعلم متى أجله، فقد يقترب حسابه وهو في غفلة يلهو ويلعب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ١ ما يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣]، أي: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، وعلى النعم التي أنعمها عليهم ربهم في أجسامهم وعقولهم ومطاعمهم ومشاربهم، ماذا عملوا فيها؟ هل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيهِ؟ أو عصوه فخالفوا أمره فيها، وهم في هذه الحياة في غفلة عمّا يفعل الله عَزَّوَجَلَّ بهم يوم القيامة، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم، والتأهب له.

والإنسان سيقف يوم القيامة موقفًا يسأل فيه عمره، وعن علمه، وعن ماله، وعن جسمه، كما جاء في الحديث: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» ١.

وأرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طالب الهداية والتوفيق والنجاة إلى اغتنام ما ينفعه من الوقت قبل تعدُّر ذلك عليه فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل

(١) أخرجه الترمذي [٢٤١٧]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه أبو يعلى [٧٤٣٤]، وأبو نعيم في (الحلية)

(١٠/٢٣٢) عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك»^(١)، أي: اعمل خمسة أشياء قبل حصول خمسة أشياء: «حياتك قبل موتك»، يعني: اغتنم من حياتك ما تلقى نفعه بعد موتك؛ فإن من مات انقطع عمله، والحياة الدنيا هي ميدان العمل، فاعمل لنفسك خيراً ينفعك قبل انقضاء أجلك، وحتى لا تكون من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، فيُتَوَاتَرُ أَمَلُكَ، وَيَحْقُقَ ندمك.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وصحتك قبل سقمك» أي: اغتنم العمل حال الصحة، فقد يمنع مانع، كمرض فتقدم المعاد بغير زاد. والصحة نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ، وهي غنيمة رابحة لمن استعملها في طاعة الله جَلَّوَعَلَا ومرضاته. «وفراغك قبل شغلك» أي: اغتنم فراغك بما ينفعك قبل انشغالك بما يلهيك.

فينبغي على العبد المؤمن أن يقضي فراغه في طاعة ربه جَلَّوَعَلَا، وفي سائر أعمال الخير التي تقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يكون من الذين يقضون أوقاتهم في الشهوات والملذات

(١) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن عمرو بن ميمون مرسلًا. حديث ابن عباس: أخرجه الحاكم [٧٨٤٦] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٦٧] وقال البيهقي: "هكذا وجدته في كتاب: (قصر الأمل)، وكذلك رواه غيره عن ابن أبي الدنيا، وهو غلط، وإنما المعروف بهذا الإسناد ما أخبرنا... فذكر حديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس..» الحديث. قال البيهقي: وأما المتن الأول، يعني: حديث: (اغتنم خمسًا) فعبد الله بن المبارك إنما رواه في كتاب عن جعفر بن برقان، عن زياد بن الجراح، عن عمرو بن ميمون الأودي مرسلًا. حديث عمرو بن ميمون المرسل: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٢]، وابن أبي شيبة [٣٤٣١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٨٣٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٤٨/٤)، والقضاعي [٧٢٩]. والبيهقي في (الآداب) [٨٠٩]، قال الحافظ في (الفتح) (٢٣٥/١١): "أخرجه ابن المبارك في (الزهد) بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون". وقال العراقي: "إسناده حسن". وعزاه العجلوني (١٦٧/١) لأحمد في (الزهد) والبيهقي عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

وسائر الملهيات؛ فإن هؤلاء قد خسروا وقتهم، وضيعوه فيما لا ينفعهم في دينهم ودنياهم، بل إنهم مع ضياعهم لأوقاتهم الثمينة ارتكبوا آثامًا عظيمة، وسيئات تعود عليهم بالندامة والحسرات. وقد قال رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وشبابك قبل هرمك» أي: اغتنم الطاعة حال قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك، فتندم على ما فرطت في جنب الله عَزَّوَجَلَّ. فعلى المؤمن أن يُقبل على الله جَلَّوَعَلَا في شبابه وقوته، فيطيع ربه جَلَّوَعَلَا فيما أمر، ويتعد عما نهي عنه وزجر، وذلك في سلوكه ومعاملاته، وسائر أحواله، مقتديًا بهدي سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد خص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرحلة الشباب؛ لأنها زمن القوة والنشاط، ولأن الشباب عماد المجتمع، فالشباب يقوم بما لا يقوم به الصغير في السن، ولا الكبير الهرم من عمل وإنتاج، ورعاية لنفسه وللآخرين من حوله، وربما يتعذر عليه العمل والتدارك لما فاتته بسبب المرض، والكبر والعجز، ووقوع البلاء.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وغناك قبل فقرك» أي: اغتنم التصدق بفضول مالك قبل أن تنزل بك جائحة^(٢) تفقر، فتصير فقيرًا في الدنيا والآخرة^(٣)، فهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها^(٤).

(١) صحيح البخاري [٦٤١٢]، وقد تقدم.

(٢) (الجائحة): المصيبة تل بالرجل في ماله فتجتاحه كله. و(في اصطلاح الفقهاء): ما أذهب الثمر أو بعضه من آفة سماوية. ويقال: سنة جائحة: جدبة، جمع: جوائح.

(٣) وقد تقدم أن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل المال من أعظم أنواع الابتلاء؛ وذلك لما يحقق من المصالح، فهو وسيلة وليس غاية.

(٤) انظر: فيض القدير (١٦/٢).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» (١).

والفراغ هو أعظم سبب من أسباب البطالة، والضياع، والانحراف؛ فإن الفراغ يجعل الإنسان كالريشة في مهبِّ الريح، تتجاذبه الأهواء والشهوات، وتتقاذفه أمواج الشبهات، فيميل عن الحق، ويقع في شرك المضلين.

ومن آثار البطالة: ضعف الاقتصاد، وانتشار الجهل والتخلف في شتى الميادين، حيث يقل الجادون في العمل، ويكثر أهل البطالة الذين لا ينتجون، ويستهلكون ويستنزفون الثروات، ويفسدون في الأرض.

ومن وسائل الوقاية من الفراغ الذي تنشأ عنه البطالة وما يترتب عليها من المخاطر على النفس والغير: السعي في طلب الرزق، واغتنام الوقت في العمل الصالح، وطلب العلم النافع.

وقد أمر الله عَزَّجَلَّ بطلب الرزق والاكتساب، ونهى عن العجز والتكاسل وتعطيل الأسباب، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا﴾ [الملك: ١٥]، أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذلّلها لكم، فجعلها قارة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأوجد فيها من العيون؛ لسقيكم وسقي أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا

(١) أخرجه البخاري [٦٤١٦].

في أرجائها، لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضلته من واسع الأرزاق.

وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً، فيسأله أعطاه أو منعه»^(١).

إنَّ الإسلام لا يعرف المؤمن إلَّا كادحًا عاملاً مؤديًا دوره في الحياة، آخذًا منها، معطيًا لها، مستجيبًا لما أَرَادَهُ اللهُ عَزَّجَلَّ من بني آدم حين جعلهم خلفاء في الأرض. يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].. فلم يقل: إنه عَمَّرَ الأرض لكم، ولكنه خلق هذا الكون، وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، وحثَّهم على عمارة الأرض، واكتشاف ما فيها من الخيرات، بإصلاحها وإحيائها، وإشاعة الحياة والنماء فيها، وذلك لا يكون إلَّا بالتقدم العلمي، والعمل الدؤوب، والتعاون بأن يقوم كل فرد بما يمكنه من جهد^(٢). فلا يجوز أن يعمل البعض، ويظل آخرون كلاً عليهم، فيأخذون ولا يعطون، ويستهلكون ولا ينتجون، فليس هذا من العدل.

فالمتعطل عن الكسب والكدح^(٣) في الحياة عالة على غيره، ولو اقتدى به المسلمون لفسدت الأرض، وأمسوا عبيدًا لغيرهم من الأقوياء العاملين.

وينبغي أن تكون الريادة لهذه الأمة في مجالات العمل والتقدم العلمي؛ فإن تقليد الآخرين هو عين التقهقر والانحطاط.

ولكن عمارة الأرض لا تعني: الركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، ولكن المسلم يقف موقف الموازنة بين المتطلبات الدنيوية -وما تقتضيه من الوفاء بالحقوق تجاه نفسه

(١) صحيح البخاري [١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٨٠، ٢٠٧٤، ٢٣٧٤]، مسلم [١٠٤٢].

(٢) (الجهد) - بفتح الجيم وضمها -: الطاقة.

(٣) (الكَدْح): العمل والسعي والكد والكسب.

وتجاه الآخرين - وبين العمل للآخرة، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الفصص: ٧٧].

ومن هنا نجد أن الإسلام دعا إلى استثمار الوقت فيما يعود بالنفع والفائدة على
الفرد والمجتمع، وربط الإنسان بغاياتٍ ومقاصد سامية، وهو يحقق توازناً بين الروحية
والمادية، وهو وسط بينهما، بين الدين والدنيا، بين القيم والحاجات، بين الغريزة والعقل.
والإنسان كما أراده الله عَزَّجَلَّ ليس الذي ينقطع عن العالم، وينسحب من الحياة،
ويتفرغ للعبادة، ويتعطل فلا يعمل، ويتكشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا
يفتر..

إن العمل هو روح الحياة يعالج الاكتئاب والأمراض النفسية التي تنشأ عن الفراغ،
كما أنه من وسائل الحفاظ على الصحة والنشاط من خلال الحركة.

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ونحن نستعيد بالله عَزَّجَلَّ من أن نُغْبَرَ بفضل نعمته علينا،
ونجهل نفع إحسانه إلينا. وقد قيل في منشور الحكم: من الفراغ تكون الصَّبْوَةُ^(١).

وقال بعض البلغاء: من أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد
أَثَلَهُ^(٢)، أو حمد حَصَلَهُ، أو خير أَسَسَهُ، أو علم اقتبسَه، فقد عَقَّ يومه، وظلم نفسه.

وقال بعض الشعراء:

لقد أهاج الفراغ عليك شغلا وأسباب البلاء من الفراغ^(٣)

(١) أي: الميل إلى الهوى والجهل، وهو من (صبا يصبو صبوا وصبوة)، أي: مال.

(٢) المؤثِّل: الأصيل الشريف. والتأثِّل: التأصيل، يقال: مجد مؤثِّلٌ وأثِّل. و(أثِّل يَأْثِلُ أَثُولًا، وتَأَثَّلَ): تَأَصَّلَ. ومنه:
مجد مؤثِّلٌ، قال امرؤ القيس: (ولكنما أسعى لمجد مؤثِّلٌ*** وقد يدرك المجد المؤثِّل أمثالي). وقيل: المجد
المؤثِّل: هو القديم.

(٣) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص: ٥٥)، وانظر: فيض القدير (٦/٢٨٨).

والحاصل أن وسائل الوقاية من آفات الفراغ والبطالة: شغل الوقت بما ينفع العبد من العلم والعمل، والسعي في طلب الرزق - كما تقدم-، وتعلم حِرْفَةٍ، وإِتْقَانُ مهنةٍ يتكسَّب منها.

يقول الراغب رَحِمَهُ اللهُ في بيان خطر البطالة: "من تعَطَّل وتَبَطَّل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية، وصار من جنس الموتى، وذلك أنه إنما خص الإنسان بالقوى الثلاث؛ ليسعى في فضيلتها، فإن فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنميها، وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدات التي تحميها، وفضيلة القوة الفكرية تطالبه بالعلوم التي تهديه، فحقه أن يتأمل قوته، ويسير قدر ما يطيقه، فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة، ويتحقق أن اضطرابه سبب وصوله من الذل إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الضعة إلى الرفعة، ومن الخمول إلى النباهة. وأن من تعود الكسل ومال إلى الراحة فَقَدَ الراحة، فحب الهوينا يكسب النَّصَب. وقد قيل: إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلا تتعب، وقيل: إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقًا، وإن ضجرت لم تصبر على الحق" (١).

والمسلم مسؤول عن علمه في فقه حرفته ومهنته، فكلٌّ من الحدادِ والنَّجارِ والفلاحِ والتَّاجرِ وغيرهم من أصحاب الحِرَف مطالبٌ بتعلُّم الأحكام الشرعية المتعلقة بمهنته، من بيعٍ أو شراءٍ أو استصناعٍ أو وكالةٍ أو إجارةٍ أو مُزارعةٍ.. الخ؛ ليكون عمُّه صالحًا، وماله حلالًا. والطبيبُ مطالب بإتقان مهنته، ويلزمه كذلك تعلم فقهها وآدابها الشرعية، من بدء الكشف عن المرضى، وصولًا إلى العلاج والدواء، وموقف الشرع من المسائل الطبية كالإجهاض، أو زرع الأعضاء إلى غير ذلك، وكذلك المهندس والمحامي والإعلامي وغيرهم

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: ٢٦٩-٢٧٠)، وانظر: فيض القدير (١/٢١٥).

يلزمهم الفقه في المهنة؛ ليكونوا لسان حق وعدل، ويد أمانة على حقوق الوطن والناس. وفي الحديث: «**مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يَعْلَمْ مِنْهُ طَبٌّ فَهُوَ ضَامِنٌ**»^(١).

ومن أسباب الوقاية من الفراغ: نشر الوعي بين أفراد المجتمع، ولا سيما الشباب، والتبصر بآثار البطالة الهدامة على الفرد والمجتمع.

ومن وسائل الوقاية من البطالة: أن يبادر في أيام شبابه، وأوقات عمره إلى التحصيل، ولا يغترَّ بخدع التسويف والتأجيل؛ فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها.

ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة، والعوائق المانعة عن تمام الطلب، وبذل الاجتهاد، وقوة الجِدِّ في التحصيل؛ فإنها كقواطع الطريق^(٢).

وينبغي على من أراد السلامة والعافية والنجاة: أن يبادر إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **حَاتُّ أُمَّتِهِ عَلَى الْمُبَادَرَةِ وَالْمَسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ، يَصْبَحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمْسِي كَافِرًا، أَوْ يَمْسِي مُؤْمِنًا وَيَصْبَحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بَعْرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»**^(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه [٣٤٦٦]، وأبو داود [٤٥٨٦]، والنسائي [٤٨٣٠]، والدارقطني [٣٤٣٨]، والحاكم [٧٤٨٤]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي في (السنن الكبرى) [١٦٥٣٠].

(٢) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة (ص: ٨٧).

(٣) صحيح مسلم [١١٨].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر..." (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بادرُوا بالأعمال سَنًا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة» (٢).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (المفهم): "قوله: قوله: «خاصة أحدكم» يعني: الموانع التي تخصه مما يمنع العمل، كالمرض، والكِبَر، والفقر المنسي، والغنى المطغي، والعيال والأولاد، والهموم والأنكاد، والفتن والمحن.. إلى غير ذلك مما لا يتمكن الإنسان مع شيء منه من عمل صالح، ولا يسلم له، وهذا المعنى هو الذي فصله في حديث آخر، حيث قال: وفي الحديث: «اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك» (٣). قوله: «أمر العامة»: يعني: الاشتغال بهم فيما لا يتوجه على الإنسان فرضه؛ فإنهم يفسدون من يقصد إصلاحهم، ويهلكون من يريد حياتهم، لا سيما في مثل هذه الأزمان التي قد مرجت فيها عهودهم، وخانت أماناتهم، وغلبت عليهم الجهالات والأهواء، وأعانهم الظلمة والسفهاء" (٤).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٣/٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

(٣) تقدم.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٠٨/٧-٣٠٩).

فإذا كانت الفتن واقعة لا محالة فإن الاستعداد لها يكون بالعلم والعمل، والعلم يبصر المسلم بصور الفتن وأنواعها، فلا يسقط فيها، بل يبادر إلى الأعمال الصالحة، ويسأل الله عَزَّجَلَّ السلامة والعافية.

والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال، فبعضها يشغل عنه، إما في خاصة الإنسان، كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام، كقيام الساعة، وخروج الدجال، وكذلك الفتن المزعجة كما جاء في حديث: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم»^(١).

عن الحسن رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: "إِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ؛ فَإِنَّكَ بَيِّزُومِكِ وَلَسْتَ بِغَدِكَ.." ^(٢).
وأوصى بعض الحكماء ابنه، فقال له: يا بني! إِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ لما تهم به من فعل الخير؛ فإن وقته إذا زال لم يعد إليك، واحذر طول الأمل؛ فإنه هلاك الأمم ^(٣).
ولقد فرط الكثير من الناس في اغتنام أوقاتهم؛ لغفلتهم عن قيمة الوقت، وعن العاقبة، وبسبب التكاسل، والتسويق، والبيئة الفاسدة، والتربية السيئة، ورفقاء السوء، والقذوة السيئة، وبسبب الجهل، والإعلام المضلل، والفراغ والبطالة، وسوء التبليغ، والمفاهيم الخاطئة، والافتتان ببعض علوم الفلسفة المضلة، وحب الدنيا والتنازع على حطامها، إلى غير ذلك من العقبات التي تحول دون الهداية، والتي قد تصل بالإنسان إلى الضياع والانحراف، وقد أفردتها بالبحث في كتاب مستقل بعنوان: (عقبات في طريق الهداية).

(١) جامع العلوم والحكم (٣٨٨/٢).

(٢) الزهد والرقائق، لابن المبارك [٨] (٤/١)، الزهد، لهناد [٥٠٢] (٢٨٩/١)، قصر الأمل، لابن أبي الدنيا [٢١٩] (١٤٤/١).

(٣) المجالسة وجواهر العلم (١٦٦/٥)، قصر الأمل، لابن أبي الدنيا [٢١٨] (١٤٤/١).

وقد بينت آفات البطالة والتسويق وما يدعو إلى التقاعس عن فعل الخير والإصلاح في كلّ من كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، وكتاب: (الإفساد في الأرض - صورته وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة-)، وكتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعده عليه بالنار)، وكتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة) في موضع متفرقة. ومن أسباب الوقاية من آفات الفراغ: تنظيم الوقت ما بين علم نافع، وعمل صالح، والاهتمام بالقراءة الهادفة، والرياضة المفيدة.

ومما يعين على تنظيم الوقت: أداء الصلوات في أوقاتها، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

ومن أسباب الوقاية من آفات الفراغ والشroud: تقوية الوازع الديني بحضور المحاضرات والندوات التربوية الهادفة، ومطالعة سير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين لهم بإحسان، وملازمة العلماء الربانيين.

وإن من أعظم الأسباب التي تقي العبد من الشroud عن نهج الصالحين: تحقق التقوى في المكلف بالتزام أمر الله عزَّ وجلَّ، واجتناب نهيه، وملازمة ذكره، وقراءة كتابه، والبحث عن حال مطمعه، وأداء حقوق الخلق، والتنوع في العبادات، والإكثار من النوافل. والاشتغال بالعبادات الظاهرة والباطنة، والإكثار من النوافل، والذكر، والاستغفار، والدعاء، واللجوء إلى الله عزَّ وجلَّ، والاستعانة به، كل ذلك مما يقي السالك آفات الشroud، وينمي فيه شعور المراقبة.

والعبادات والتكاليف الشرعية لها مقاصد سامية، وهي تحقق في العبد معنى: التكليف، وهو الإذعان لشرعة الله عزَّ وجلَّ، ذلك الإذعان الذي يخرج المكلف إلى حدِّ الإنسانية، وإلى مقام العبودية، فالصلاة ليست مجرد حركات يؤديها الإنسان دون أن يكون لها الأثر النَّاجِع في المكلف، فقد بيّن الحقُّ عزَّ وجلَّ أنها تنمي في العبد شعور المراقبة

لله عَزَّوَجَلَّ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي، فتزكو نفس العبد، وتعلو همته، ويبتعد عما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ من قول أو فعل؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله عَزَّوَجَلَّ، مراقب له في أفعاله وأقواله وأحواله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

"فالصلاة تطهر الروح، وتزكي النفس؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي في المصلي ملكة مراقبة الله جَلَّوَعَلَا، وخشيته لدى الإساءة، وحبه والرجاء فيه عند الإحسان، وتذكره دائماً بكماله المطلق، فتوجه همته دائماً إلى طلب الكمال" (١).

و"النفوس في حاجة إلى مذكّر يرقى بها إلى العالم الروحي، ويخلعها من عالم الحس، ويوجهها إلى مراقبة من برأها وفطرها حتى تطهر من تلك الأرجاس والأدران، وترفع عن البغي والعدوان، وتميل إلى العدل والإحسان، ذلك المذكر هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتنفي الجزع والهلع عند المصايب، وتعلم البخيل الكرم والجود" (٢).
والصلاة من أسباب الاستقامة في القول والعمل، وهي تعين على تنظيم الوقت، وترتيب العمل، فالصلوات الخمس لها أوقات محددة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي: مُوقَّتًا وَقَّتَهُ عَلَيْهِمْ. قاله الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ (٣).

وصيام رمضان كذلك في شهر محدد معلوم، ويوم الصوم يبدأ بوقت محدد، وينتهي بوقت محدد، وكذلك الحج له وقت محدد، والزكاة لها وقت محدد... إلى غير ذلك من العبادات التي تعود المكلف على تنظيم الوقت، وترتيب الأوقات.

(١) انظر: تفسير المنار (٦/٢١٤).

(٢) انظر: تفسير المراغي (٢/٢٠١).

(٣) صحيح البخاري (١/١١٠).

والصيام كذلك يعزز شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فهو جُنَّةٌ ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد سامية ترتقي بالمكلف، وتصلح أحواله. والنوافل تمنع السالكين من الشرود عن نهج الصالحين، وتصون اللسان عن كل قول ذميم؛ لأنها تُورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، وتُقَرِّب من الله جَلَّوَعَلَا، كما جاء في الحديث: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلِئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١)، يعني: إساءته بفعل ما يكره. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "المراد بهذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالفرائض، ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله عَزَّوَجَلَّ على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبه وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة"^(٢). وذلك من أعظم أسباب الأمن والهداية.

ومن أسباب الوقاية من آفات الفراغ والشرود: الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الدعاء والاستغفار؛ فإن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب الحفظ من المعصية؛ لأن الذِّكْرَ يُذَكِّرُ الْعَبْدَ بِاللَّهِ جَلَّوَعَلَا وصفاته، وعظمته، فيكون حاضرًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومستحضرًا

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢]، قوله: «ما تَرَدَّدْتُ»: كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه.

و«مساءته»: إساءته بفعل ما يكره.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص: ٣٤٥ - ٣٤٦).



لما يعتقد عن الله، فيحجزه ذلك عن المعصية. وبذكر الله عزَّجَلَّ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، كما الله جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. وبالبداء يكون العبد قريباً من الله عزَّجَلَّ، كما الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقل مثل ذلك في الاستغفار؛ فإنه يمد العبد بالقوة، ويفتح له أبواب الخير، كما قال الله جَلَّوَعَلَا على لسان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وللاستغفار ثمرات كثيرة، وقد فصلت القول في ذكر تلك الثمرات في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

ومن أسباب الوقاية من آفات الفراغ والشرود: الإكثار من قراءة القرآن، وتدبر آياته، ومجالسة الصالحين وأرباب العزائم والهمم، ومنافستهم في الأعمال الصالحة؛ فإن صحبتهم تبعث في النفس الهمة، وتولد الحرارة والشوق؛ لتقليدهم والتشبه بهم في أخلاقهم وسلوكهم، وهي من أسباب النجاة والرفعة، كما أن صحبة أهل الباطل تؤثر في الصّدِّ عن الحقِّ، وتورد صاحبها المهالك.

والحاصل أن الزمن له قيمة عظيمة، وهو أثمن ما يملك الإنسان؛ ولذلك غني الشارع ببيان قيمة الزمن، وعده من النعم الجليلة التي من الله عزَّجَلَّ بها على العبد في مدة حياته، ليرجع إلى ربه جَلَّوَعَلَا، ويتدارك التقصير، ويتزود من دنياه لآخرته، وليعمل على نفع نفسه، ونفع غيره من المخلوقات.

وقد أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالزمن؛ لبيان أهميته، واختص بعض الأزمنة بالفضل - كما سيأتيك -؛ لينمي العبد علمه في هذه الأوقات الفاضلة، ويتدارك ما كان منه من غفلة أو تقصير.

ثامناً: التوبة واجبة على الفور:

التوبة من جميع المعاصي واجبة على الفور، ولا يجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة بالاتفاق؛ لما في تأخيرها من الإصرار المحرم، ولأن العاصي لا يضمن أجلاً، فقد يعاجله الموت قبل التوبة، فإن أخرها عصى بالتأخير فيحتاج إلى توبتين، أو إلى توبة عامة مما علم ومما لم يعلم، كما حرّر ذلك كلٌّ من الإمام عز الدين بن عبد السلام، وابن القيم رَحِمَهُمَا اللهُ.

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: "والتوبة واجبة على الفور، فمن أخرها زماناً صار عاصياً بتأخيرها، وكذلك يتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة المتسعة لها، فيحتاج إلى توبة من تأخيرها، وهذا جارٍ في تأخير كل ما يجب تقديمه من الطاعات"^(١). وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٢٢١).

في عدم المؤاخذه بها جهله إذا كان متمكنا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد" (١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله عَزَّجَلَّ بنور الإيمان صدره"، وقال: "التوبة على الفور، أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، والعلم بضرر الذنوب إنما أريد؛ ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» (٢)؛ وذلك لكون الزنا مبعداً عن الله عَزَّجَلَّ، موجباً للمقت، كسائر المعاصي؛ لأنها للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فكما أنها تغير مزاج الإنسان، ولا تزال تجتمع حتى تفسده، فيموت دفعة، كذلك تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين..» (٣).

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة واجبة على الفور عند عامة العلماء؛ أما الوجوب؛ فلقلوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]. وأما الفورية؛ فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم، والإنابة قريبة من التوبة لغةً وشرعاً" (٤).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة من أصول الإسلام المهمة، وقواعد الدين، وأول منازل السالكين، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]. فالتوبة من

(١) مدارج السالكين (٢٨٣/١).

(٢) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٧٨٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٧-٧).

(٤) التعريفات (ص: ٧٠).

المعصية واجبة على الفور بالاتفاق" ^(١). و"أصلها: الندم، وهو ركنها الأعظم. واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء، كانت المعصية صغيرة أو كبيرة" ^(٢).

وقال الألوسي رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة واجبة في نفسها على الفور، ومن آخرها تكرر عصيانه بتكرر الأزمنة، كما صرح به الشيخ عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ" ^(٣).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة فرض لازم على كل من علم من نفسه مخالفة لله عَزَّجَلَّ، صغرت أو كبرت، وهي من جملة أمهات الفرائض اللازمة. ووجوبها عند أهل السنة شرعاً لا عقلاً، خلافاً للمعتزلة، وليس بواجب قبولها على الله عَزَّجَلَّ عقلاً، وإنما علمنا ذلك بالشرع والإجماع، خلافاً للمعتزلة في حتمهم ذلك على الله عَزَّجَلَّ عقلاً، على أصلهم الفاسد في التحسين والتقبيح، وإيجاب العقل ما يوجب من ذلك.

والتوبة نعمة أنعم الله عَزَّجَلَّ بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم، قاله سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ: وكانت توبة بني إسرائيل قتل أنفسهم، كما نص الله عَزَّجَلَّ عليه" ^(٤).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "التوبة من مهمات الإسلام، وقواعده المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل. ولا يجب على الله عَزَّجَلَّ قبولها إذا وجدت بشروطها عقلاً عند أهل السنة، لكنه جَلَّوَعَلَا يقبلها كرمًا وفضلاً. وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع، خلافاً لهم" ^(٥).

(١) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٢٤٩-٢٥٠).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥٩/١٧)، وانظر: حاشية البجيرمي على الخطيب (٢/٢٣٦).

(٣) روح المعاني (٦/٣٥٣).

(٤) إكمال المعلم (٨/٢٤٢).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (٥٩/١٧).

وإذا تقرّر أن التوبة واجبة على الفور فإن تسويف التوبة وتأخيرها يعد مذموماً، ويترتب عليه آثار خطيرة، وقد لا يدرك العبد التوبة؛ إذ إنه لا يضمن أجلاً - كما تقدم - . قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: الإصرار: التسويف، أي: يقول: أتوب غداً، وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غداً وغداً لا يملكه؟! ^(١).

وقد بين الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ علاج تسويف التوبة، حيث قال: "وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف؛ لأن المسوف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً، كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة؟! والشهوة ليست تفارقه غداً، بل تتضاعف؛ إذ تتأكد بالاعتiad، فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها، وعن هذا هلك المسوفون؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق، وما مثال المسوف إلا كمثل من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته؛ إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف، فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه، وقوي الضعيف" ^(٢).

(١) انظر: الفتوحات الربانية، لابن علان (٢٧٣/٧)، وانظر: الرسالة القشيرية (٢١١/١).

(٢) إحياء علوم الدين (٥٨/٤).

تاسعاً: بيان زمن التوبة:

والتوبة تكون من العبد في زمن الإمكان، فلا تصح بعد فوات الأوان:
وفوات الأوان خاص وعام، فالخاص: حضور الموت، والعام: طلوع الشمس من مغربها.

وإن وقت التوبة ممتد طوال العمر، يبدأ من بداية التكليف، وينتهي عند رفعه وحضور الموت، أو عند طلوع الشمس من المغرب - كما سيأتي -.

قال الله عَزَّوَجَلَّ مبيناً وقت التوبة النافعة: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

﴿٧﴾ [النساء: ١٧].

وأخبر المولى جَلَّوَعَلَا عن الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ آلَتَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

﴿٨﴾ [النساء: ١٨].

وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا

﴿٩﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والعبد بحاجة في كل يوم إلى أن يجدد التوبة؛ لأنه لا يدري متى يأتيه الأجل.
فمن أنفع الأسباب التي تقي الإنسان الذي ينشد النجاة والعافية من سوء العاقبة:
أن يجدد التوبة في كل وقت مما عسى أن يكون قد اجترح من الذنوب والهفوات؛ فإن
«كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين: التوابون»^(١)، وأن يعقد العزم على ترك المعاصي،

(١) حديث: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين: التوابون» أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٢١٦]، وأحمد [٣٠٤٩]، وعبد بن حميد [١١٩٧]، والدارمي [٢٧٢٧]، وابن ماجه [٤٢٥١]، والترمذي [٢٤٩٩]، وقال: =

وأن يمسي على نية صالحة، وأن يصبح على نية صالحة، وأن يقف المرء في كلِّ يوم مع نفسه وقفة محاسبة، ولا سيما عندما يريد النوم، يستحضر ما مضى منه من قول أو فعل، فيتدراك ما قصر، ويعزم بنية صادقة على الوفاء لمن كان له عليه حق، ويستغفر ويسامح، وينقي قلبه من أدران الحقد والحسد، والصفات الذميمة، مجدداً توبةً بينه وبين الله عَزَّجَلَّ، فينام على تلك التوبة، ويعزم أن لا يعاود الذَّنْبَ إذا استيقظ، ويفعل هذا كلَّ ليلة، فإذا مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استقبل يومه بنية صالحة. وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا أكثر من ذكر الله عَزَّجَلَّ، واستعمل السنن الواردة قبل النوم، فمن أراد الله عَزَّجَلَّ به خيراً وفقه لذلك.

وفي المأثور عن قتادة رَحِمَهُ اللهُ قال: "أعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضَيْعَمٍ أو ضَمْضَمٍ - شك ابن عبيد-، كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تَصَدَّقْتُ بعرضي على عبادك" (١).

= "غريب"، كما أخرجه: البزار [٧٢٣٦]، وأبو يعلى [٢٩٢٢]، والرويانى [١٣٦٦]، والحاكم [٧٦١٧]، وقال: "صحيح الإسناد" قال الذهبي: "علي بن مسعدة لين" وأخرجه أيضاً: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٢٥]. والحديث: قيل: سنده قوي، وقال: ابن الغرس وابن القطان: صحيح. وقيل: ضعيف. انظر: كشف الخفاء (١٤١/٢)، قال ابن القطان في (الوهم والإيهام) (٤١٤/٤): "هو عندي صحيح؛ قال: وعلي بن مسعدة صالح الحديث، قاله: ابن معين، وغبته هي أن علي بن مسعدة، ينفرد به عن قتادة -انتهى-". وقد تعقبه الذهبي بقوله: "بل ضعيف، وعلي بن مسعدة فيه نظر" الرد على ابن القطان في كتابه بيان الوهم والإيهام (ص: ٥٨-٥٩).

(١) أخرجه أبو داود [٤٨٨٦] بسند صحيح مقطوع إلى قتادة، وقد روي مرفوعاً بسند ضعيف. انظر: نتائج الأفكار، لابن حجر (٤١٦/٢-٤١٧)، الإصابة في تمييز الصحابة (١٩١/٧-١٩٢)، المغني عن حمل الأسفار (ص: ١٠٤٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية" (١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَزِينِي الزَّانِي حِينَ يَزِينِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وأما قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ» فظاهر، وقد أجمع العلماء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَى قبول التوبة ما لم يغرر، كما جاء في الحديث (٣): عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُرْ» (٤). وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ» هذا منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرشاد لمن وقع في كبيرة، أو كبائر، إلى الطريق التي بها يتخلص، وهي: التوبة. ومعنى كونها معروضة، أي: عرضها الله عَزَّجَلَّ عَلَى الْعِبَادِ، حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِهَا، وَأَوْجَبَهَا عَلَيْهِمْ، وَأَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّ جَلَّوَعًا يَقْبَلُهَا؛ كُلُّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلُطْفٌ بِالْعَبْدِ؛ لِمَا عَلَّمَ اللَّهُ جَلَّوَعًا مِنْ ضَعْفِهِ عَنْ مَقَاوِمِ الْحَوَائِلِ عَلَى الْمَخَالَفَاتِ، الَّتِي هِيَ: النَّفْسُ وَالْهَوَى، وَالشَّيْطَانُ الْإِنْسِيُّ وَالْجِنِّيُّ، فَلَمَّا عَلَّمَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ يَقَعُ فِي الْمَخَالَفَاتِ، رَحِمَهُ بِأَنْ أَرْشَدَهُ إِلَى التَّوْبَةِ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ وَأَوْجَبَهَا، وَأَخْبَرَ بِقَبُولِهَا. وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى النُّصَحَاءِ

(١) مدارج السالكين (١/٤٣٠).

(٢) صحيح البخاري [٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٤٥).

(٤) أخرجه ابن الجعد في (مسنده) [٣٤٠٤]، وأحمد [٦١٦٠]، وعبد بن حميد [٨٤٧]، وابن ماجه [٤٢٥٣]،

والترمذي [٣٥٣٧]، وحسنه، كما أخرجه: أبو يعلى [٥٦٠٩]، وابن حبان [٦٢٨]، والطبراني

[١٤١٠٧]، والحاكم [٧٦٥٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في

(الحلية) (١٩٠/٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٦١]، والضياء [٢٤٠].

أن يعرضوها على أهل المعاصي ويُعرفوهم بها، ويوجبوها عليهم، وبعقوبة الله عز وجل لمن تركها، وذلك كله لطفٌ مُتَّصِلٌ إلى طلوع الشمس من مغربها، أو إلى أن يُعْرِغَرَ العبدُ. و(بعدُ): ظرفٌ مبنيٌّ على الضمِّ؛ لقطعِهِ عن الإضافة لفظاً، وإرادة المضافِ ضمناً، ويقابلها (قبلُ)، كما قال الله عز وجل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]^(١).

وحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث^(٢). قال الإمام النووي رحمه الله: "هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء، ويراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة. وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث: أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق»^(٣)، وحديث: عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحيح المشهور أنهم بايعوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن لا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يعصوا.. إلى آخره. ثم قال: لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن فعل شيئاً من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه»^(٤)، فهذان الحديثان مع نظائهما في (الصحيح) مع قوله الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، مع إجماع

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٢٤٨).

(٢) أخرجه البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢]، ومسلم [٥٧].

(٣) صحيح البخاري [٥٨٢٧]، مسلم [٩٤]. وفي لفظ: «من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»،

قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» وهو في (الصحيحين).

(٤) حديث عبادة أخرجه البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، ومسلم

[١٧٠٩]. و«وفي»: ثبت على العهد.

أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عَزَّوَجَلَّ عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولاً، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة" (١).

ونحوه: قول ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ فِي (التمهيد) أنه يريد من قوله: «وهو مؤمن»: "مستكمل الإيمان، ولم يرد به نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك، بدليل الإجماع على توريت الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا للقبلة، وانتحلوا دعوة الإسلام من قرابتهم المؤمنين الذين آمنوا بتلك الأحوال. وفي إجماعهم على ذلك مع إجماعهم على أن الكافر لا يرث المسلم أوضح الدلائل على صحة قولنا: إن مرتكب الذنوب ناقص الإيمان بفعله ذلك، وليس بكافر كما زعمت الخوارج في تكفيرهم المذنبين. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ فِي ارتكاب الكبائر حدوداً جعلها كفارة وتطهيراً" (٢).

وقال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "وأولى الأقوال بالصواب في تفسير قوله جَدَّوَعًا: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]: قول من قال: تأويله: ثم يتوبون قبل مماتهم، في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ونهيهِ، وقبل أن يُغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحشرجة وغم الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيهِ، ولا يعقلوا التوبة؛ لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم منه على ترك المعادة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعادة: فأما إذا كان بكرب الموت مشغولاً وبغم الحشرجة مغموراً، فلا إخاله إلا عن الندم على

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٤١/٢-٤٢)، وانظر: فتح الباري (٦٠/١٢)، عمدة القاري (٢٧/١٣)، طرح التثريب (٢٦٠/٧).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٩/٢٤٣-٢٤٤).

ذنبه مغلوبًا. ولذلك قال من قال: إن التوبة مقبولة، ما لم يغرغر العبد بنفسه^(١)، فإن كان المرء في تلك الحال يعقل عقلَ الصحيح، ويفهم فهم العاقل الأريب، فأحدث إنابة من ذنبه، ورجعةً من شروده عن ربه جَلَّوَعًا إلى طاعته، كان إن شاء الله عزَّجَلَّ ممن دخل في وعد الله عزَّجَلَّ، الذي وعد التائبين إليه من إجرامهم ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ بقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ و"سماه: قريبًا؛ لأن أمد الحياة قريب؛ لقوله جَلَّوَعًا: ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبه، فيطبع عليها، فيتعذر عليهم الرجوع.

و﴿مِنْ﴾ للتبعض، أي: ﴿يَتُوبُونَ﴾ في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به، وكتب على نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة. ﴿حَكِيمًا ۝١٧﴾ والحكيم لا يعاقب التائب^(٢).

وعد الله عزَّجَلَّ المخلصين في التوبة والإنابة إليه بأنه سيتوب عليهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر لهم ما قد سلف من ذنوبهم، فقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]، وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

فهؤلاء ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ يتوب الله عزَّجَلَّ عليهم، دون من لم يتب حتى غلب على عقله، وغمرته حشرة ميتته، فقال وهو لا يفقه ما يقول: ﴿إِنِّي تُبْتُ الْكُنْ﴾ [النساء: ١٨]، خداعًا لربه جَلَّوَعًا، ونفاقًا في دينه. فليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله عزَّجَلَّ ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ

(١) تقدم حديث: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ».

(٢) تفسير البيضاوي (٦٥/٢).

أَلَمَوْتُ، يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاین ملائكة ربه جَلَّوَعَلَا قد أقبلوا إليه لقبض روحه، ﴿قَالَ﴾ وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغرتة: ﴿إِنِّي تُبْتُ أَلَّنَّ﴾، يقول: فليس لهذا عند الله عَزَّوَجَلَّ توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة" (١).

فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة، فبقي ما وراء ذلك في حكم القريب.. (٢). فلا يقبل من كافر إيمان، ولا من عاص توبة، إذا تيقن الموت، وذلك حين تساق روحه (٣).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] عطف على الذين ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن المراد بهم الذين قرب موتهم، فبين بهذا أن الإيمان لا يقبل من الكافر عند حضور الموت.

والثاني: أن يكون المراد أن الكفار إذا ماتوا على الكفر لا تقبل توبتهم.

﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨) الإشارة بـ: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى الفريقين.

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "وحضور الموت: معاينة ملك الموت. بين الله عَزَّوَجَلَّ أن التوبة تفوت إذا أُجِّرت إلى ذلك؛ ولذلك لم ينفع إيمان من آمن عند رؤية العذاب" (٤).

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: واختلف المتأولون في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ فقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا والسدي رَحِمَهُ اللهُ: معنى ذلك: قبل المرض والموت.

(١) تفسير الطبري (٩٦/٨-٩٩).

(٢) انظر: الكشف (٤٨٩/١)، تفسير أبي السعود (١٥٦/٢)،

(٣) انظر: معالم التنزيل (١٨٥/٢)، المفاتيح في شرح المصايح (١٨٧/٣-١٨٨).

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (١١٤٨/٢-١١٤٩).

وقال أبو مجلز، ومحمد بن قيس، والضحاك، وعكرمة، وابن زيد رَحِمَهُمُ اللَّهُ وغيرهم: معنى ذلك: قبل المعاينة للملائكة والسَّوْق، و[قبل] أن يُغْلَبَ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ.

وروى أبو قلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الله عَزَّجَلَّ لما خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فرآه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى ولعن وأنظر، قال: وعزتك لا برحت من قلبه ما دام فيه الروح، فقال الله عَزَّجَلَّ: وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح.

قال القاضي أبو محمد: فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذكر أحسن أوقات التوبة، والجمهور حددوا آخر وقتها.

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ: كان يقال: التوبة مبسوبة لأحدكم ما لم يؤخذ بكظمه.

وروى بشير بن كعب والحسن رَحِمَهُمَا اللَّهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ويغلب على عقله»^(١).

قال القاضي أبو محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غلب تعذرت التوبة؛ لعدم الندم والعزم على الترك، وقوله جَلَّ وَعَلَا: «مِنْ قَرِيبٍ» إنما معناه: «مِنْ قَرِيبٍ» إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها قريب، والمبادر في الصحة أفضل، وألحق لأمله من العمل الصالح، والبعد كل البعد الموت^(٢).

ومنه قول مالك بن الريب: [الطويل]:

(١) تقدم حديث: «إِنَّ اللَّهَ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

(٢) فالعمر كله قريب، والدنيا كلها قريب، فمن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومن مات ولم يتب فقد بعد كل البعد.. كذا قال غير واحد من المفسرين. انظر: لطائف المعارف، لابن رجب (ص: ٣٣٥).



*** وأين مكان البعد إلا مكانيا (١).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ أي: بمن يتوب وييسره هو للتوبة، ﴿حَكِيمًا ۝﴾ فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يؤخر حتى يهلك. ثم نفى بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ﴾ الآية: أن يدخل في حكم التائبين من حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو غاية قربه، كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن زيد رَضِمَهُ اللَّهُ، وجماعة المفسرين.. " (٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝﴾ ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]، أي: فلم يفدهم إيمانهم وتصديقهم عند معاينة عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، وحين نزل بهم العذاب؛ لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصدقًا، وقد مضى حكم الله عَزَّوَجَلَّ فيهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوءَ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ ﴿آلَتْنِ وَقَدْ عصيتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾ ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ۝﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

(١) هذا عجز بيت لمالك بن الرّيب المازني. وصدره: (يقولون لا تبعد وهم يدفنونني ***). ديوان مالك بن الرّيب [٣٨]، (ص: ٩٣)، مستل من (مجلة معهد المخطوطات العربية). وانظر: شرح شواهد المغني، للسيوطي (٢/٦٣٠)، الحماسة البصرية (١/٢٨٠)، التذكرة الحمدونية (٨/١٢٩)، جمهرة أشعار العرب (ص: ٦١٢).

(٢) المحرر الوجيز (٢/٢٤-٢٥)، وانظر: تفسير القرطبي (٥/٩٢-٩٣).

وقال جَلَّوَعًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ٩٠﴾ [آل عمران: ٩٠]، أي: إيمانهم عند إشرافهم على الهلاك؛ لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عَزَّجَلَّ وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة منه؛ ولهذا قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧﴾ [النساء: ١٧]، فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاین الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم - فلا توبة متقبلة حينئذ" (١).

فلا تقبل عند حضور الموت من العاصين توبة، وليس للكفار رجوع إلى الدنيا، وقد أخبر الله عَزَّجَلَّ عن تحسرهم على التفریط وفوات التوبة، فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ٩٦ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٩٧﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ٥٤ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٥ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٨﴾ [الزمر: ٥٤-٥٨].

وقال الله عَزَّجَلَّ مخبرًا عن حال المجرمين الذين كانوا يستعجلون العذاب: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ٥٩ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ؕ ءَاَلَمْ تَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ٦٠﴾ [يونس: ٥٩-٥٠]، فقد كانوا يطلبون في الدنيا: تعجيل

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٨).

العذاب؛ استهزاء، وإمعاناً في العناد؛ إذ إن العذاب الذي يستعجلونه أمر مكروه، لا يلائم الاستعجال، ومحدور لا يطلب إلا على سبيل العناد، ولكنه إذا حلَّ بهم، وعاینوه، آمنوا، وندموا، وتحسروا، في وقت لا ينفع فيه الإيمان، ولا الندم، ولا تقبل فيه التوبة.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مریم: ٣٨-٣٩]، أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر، فأخبر جَلَّوَعَلَا أنهم سمعوا حين لم ينفعهم السمع، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَّا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: ٤-٥]، أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: «ما هلك قوم حتى يُعَذِّروا من أنفسهم»^(١).

(١) تفسير الطبري (١٢/٣٠٤). والحديث: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٢٨]، وابن الجعد في (مسنده) [١٢٨]، وأحمد [١٨٢٨٩] بإسناد حسن، وأبو داود [٤٣٤٧]، والشهاب القضاعي [٨٨٦]. وقوله: «حتى يعذروا». قيل إنه من (أعذر فلان): إذا كثر ذنبه، فكأنه سلب عذره بكثرة اقتراف الذنوب، أو من (أعذر غيره) إذا جعله معذوراً، فكأنهم أعذروا من يعاقبهم بكثرة ذنوبهم، أو من (أعذر) أي: صار ذا عذر. والمعنى: حتى يذنبوا فيعذرون أنفسهم بتأويلات زائغة، وأعذار فاسدة من قبل أنفسهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا. قال العلامة الطيبي: والوجه الثالث أنسب بباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كأن الناهي ينكر عليه ذنبه، وهو يتبرأ من الذنب، ويعذر لنفسه ولإقدامه عليه. شرح الطيبي على مشكاة=

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ١١ ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ١٢ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ ١٣ ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ١٤ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَلِيدِينَ﴾ ١٥ ﴿[الأنبياء: ١١-١٥]﴾. قوله جَلَّوَعًا: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ﴾، أي: فما زالوا يرددون تلك الكلمة، وهي قولهم: ﴿يَتَوَلَّوْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ١٤.

﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: حتى أخذتهم السيوف وحصدتهم كما يحصد الزرع بالمنجل، فصاورا ﴿خَلِيدِينَ﴾ ١٥، أي: ميتين، فخدمت حركاتهم وأصواتهم، فلم يك ينفعهم ذلك مع مجيء وعيد الله عَزَّجَلَّ، ومعاينتهم العذاب.

وقال جَلَّوَعًا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ٣ ﴿[ص: ٣]﴾، أي: كم أهلك الله عَزَّجَلَّ من أمم كانوا ينادون عند معاينة العذاب، ولكن ذلك الوقت ليس وقت توبة، فلا ينفع فيه النداء، فلا ملجأ لهم فيه، ولا مفر، ولا مناص من وقوع أمر الله عَزَّجَلَّ بهم، كما حكم الله عَزَّجَلَّ بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها، فقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ ٤ ﴿يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ ٥ ﴿[الأنعام: ١٥٨]﴾.

=المصايح (٣٢٦٧/١٠). وقال ابن الملك: "هو من (أعذر الرجل): إذا صار ذا ذنب كثير، أي: حتى تكثر ذنوبهم وغيوبهم، فيستوجبوا العقوبة، وقيموا لمن عاقبهم العذر في ذلك..". مرقاة المفاتيح (٣٢١٩/٨)، وانظر: فيض القدير (٣٠٤/٥).



وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِيَوْمِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئًا، ولو كان هذا في الحياة الدنيا قبل معاينة العذاب، لكان نافعًا لهم ومنقذًا من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وتبشر الملائكة في وقت الاحتضار، المجرمين والفجار، بغضب الجبار، وبعذاب النار، كما جاء في تفسير قوله جَلَّوَعًا: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]، أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشري يومئذ لهم. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم. فتأبى الخروج وتتفرق في البدن، فيضربونه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالضرب، ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٣٠] نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةُ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢] (١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجي أَيْتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح، وريحان، ورب غير غضبان»، قال: «فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح، وريحان، ورب غير غضبان»، قال: «فلا يزال يقال لها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أَيْتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر» (٢).

(١) تفسير ابن كثير (١٠١/٦-١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد [٨٧٦٩]، وابن ماجه [٤٢٦٢]، وفي (الزوائد) (٢٥٠/٤): "إسناده صحيح رجاله ثقات"، كما أخرجه: البزار [٨٢١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٣٧٨]. وقد روى ما يقرب منه: الطيالسي [٧٨٩] بسنده، قال: حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، قال أبو داود: وحدثناه: عمرو بن ثابت، سمعه من المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، وحديث: أبي عوانة، أتمهما قال البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنازة رجل من الأنصار... الحديث. وقد أخرجه أيضًا: الروياني [٣٩٢]، والحاكم [١٠٧].

"وقال آخرون: بل المراد جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضحاك رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وغيرهما.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم؛ فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين" (١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقد جاء في الحديث: عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه» (٢).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا حد للتوبة جعله الله عَزَّوَجَلَّ، ولها باب يسد عند هذه الآية، كما جاء في الحديث (٣)، وقد جاء في (التفسير) أنه معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]" (٤).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» (٥).

(١) تفسير ابن كثير (١٠٢/٦).

(٢) صحيح مسلم [٢٧٠٣].

(٣) انظر: ما جاء في باب: (بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) من شرحه ل: (صحيح مسلم).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٩٨/٨).

(٥) صحيح مسلم [٢٧٥٩]، وقد تقدم.

وعن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلِ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ» (١).

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوْ الدَّخَانُ، أَوْ الدَّجَالُ، أَوْ الدَّابَّةُ، أَوْ خَاصَّةٌ أَحَدَكُمْ أَوْ أَمْرُ الْعَامَةِ» (٢).

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَطْلَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ، فَقَالَ: «مَا تَذَاكُرُونَ؟»، قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: «إِنَّمَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرُونَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ» - فذكر - : «الدَّخَانُ، وَالدَّجَالُ، وَالدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنَزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَثَلَاثَةٌ خَسُوفٌ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مُحْشَرِهِمْ» (٣).

وفي (الصحيحين): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مِنْ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]» (٤).

وقد دلت الأحاديث أن المراد ببعض آيات الله عَزَّجَلَّ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْهَا آمَنُوا، فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ، وَيُغْلَقُ حِينَئِذٍ بَابُ التَّوْبَةِ.

(١) صحيح مسلم [١٥٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٩٠١].

(٤) صحيح البخاري [٤٦٣٥، ٤٦٣٦، ٦٥٠٦، ٧١٢١]، مسلم [١٥٧].

وقيل: إنها إحدى ثلاث: إما طلوع الشمس من مغربها، وإما خروج الدابة، وإما خروج يأجوج ومأجوج.

قال القاضي أبو محمد بن عطية رَحِمَهُ اللهُ: "وهذا فيه نظر؛ لأن الأحاديث تردده، وتخصص الشمس" ^(١)، يعني: باعتبار أنها أول الآيات المؤذنة برفع التوبة، والدالة على قيام الساعة، وتغير نظام العالم، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: حفظت من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثاً لم أُنْسُهُ بَعْدُ، سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحًى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على إثرها قريباً» ^(٢).

والآيات إما أمارات دالة على قرب الساعة، فأولها: بعث نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أمارات متوالية دالة على وقوعها، والكلام هنا فيها؛ فإن الكفار يؤمنون في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، ويأجوج قبلها؛ لأنها أمور مألوفة؛ إذ هم مثلهم بشر، مشاهدتهم وأمثالهم معروفة مألوفة، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان والكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية؛ فإنها تطلع على خلاف عادتها المألوفة" ^(٣).

(١) المحرر الوجيز (٣٦٧/٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٤١].

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير (٢٥٤/١٩).

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قيل: طلوع الشمس ليس بأول الآيات: لأن الدخان، والدجال قبله؟

أجيب: بأن الآيات إما أمارات دالة على قرب قيام الساعة، وإما أمارات دالة على وجود قيام الساعة وحصولها.

ومن الأول: الدخان، وخروج الدجال، ونحوهما.

ومن الثاني: ما نحن فيه من طلوع الشمس من مغربها، والرجفة، وبس الجبال، وخروج النار وطردها الناس إلى المحشر. وإنما سمي أولًا؛ لأنه مبدأ القسم الثاني، ويؤيده حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعده: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها» حيث جعل طلوع الشمس من مغربها غاية لعدم قيام الساعة. قال: وذلك أن الكفار يسلمون في زمان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى تكون الدعوة واحدة، ولو كان طلوع الشمس من مغربها قبل خروج الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم ينفع الكفار إيمانهم أيام عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحدًا^(١).

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «إن أول الآيات خروجا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى» يعني -والله أعلم-: أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كل قلب بما فيه؛ لأنَّ ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر يصح فيه

قال: وإنما كان طلوع الشمس مخصوصًا بذلك؛ لأنَّه أول تغيير هذا العالم العلوي الذي لم يشاهد فيه تغيير منذ خلقه الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى ذلك الوقت، وأما ما قبله من الآيات فقد شوهدها ما يقرب من نوعه، فإذا كان ذلك وطبع على كل قلب بما فيه من كفر أو

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١١/٣٤٤٩).

إيمان، أخرج الله عَزَّوَجَلَّ الدابة معرفة لما في بواطن الناس من إيمان أو كفر، فتكلمهم بذلك. أي: تعرف المؤمن من الكافر بالكلام، وتسم وجوه الفريقين بالنفح، فينتقش وصفه في جبهته مؤمن أو كافر، حتى يتعارف الناس بذلك، فيقول المؤمن للكافر: بكم سلعتك يا كافر؟ ويقول الكافر: بكذا يا مؤمن، ثم يبقى الناس على ذلك ما شاء الله، ثم يرسل الله عَزَّوَجَلَّ ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته.. " (١).

قيل: وحكمة جعل طلوعها من مغربها آية مقارنة لقيام الساعة: الإيماء إلى قرب طلوع جميع الأرواح من الأبدان. ذكره الحَرَّالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، فقد قال في تفسير قوله جَزَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: إن الله عَزَّوَجَلَّ بما له من صفات العظمة، والجلال باستجماع صفات الكمال. ﴿يَأْتِي بِالشَّمْسِ﴾، أي: وهو الذي أوجدها ﴿مِنَ الْمَشْرِقِ﴾، أي: في كل يوم من قبل أن توجد أنت بدهور. ﴿فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ولو يومًا واحدًا. قال الحَرَّالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: إظهارًا لمرجع العالم بكليته إلى واحد، وأن قيوم الإنسان في الإحياء والإماتة هو قيوم الآفاق في طلوع الشمس وغروبها، وفي لحنه إشعار بأن الله عَزَّوَجَلَّ، لا بدَّ وأن يأتي بالشمس من المغرب؛ ليكون في ذلك إظهار تصريحه لها حيث شاء، حتى يطلعها من حيث غربت، كما يطلع الروح من حيث قبضت؛ ليكون طلوع الشمس من مغربها آية مقارنة قيام الساعة وطلوع الأرواح من أبدانها " (٢).

ولا ينبغي للعبد المذنب أن يؤخر التوبة؛ فإنه لا يأمن صحة ولا أجلاً، فإذا أخرها فإن كان يؤمل حياة فإن توبته مقبولة - وإن كان قريبًا من الموت - عند جمهور الفقهاء.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٤٢/٧-٢٤٣).

(٢) تراث أبي الحسن الحَرَّالِيُّ المراكشي في التفسير (ص: ٤٤٨-٤٤٩)، وانظر: فيض القدير (٢/٤٤٢)، نظم

الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/٥١-٥٢).

وإن كان في حالة يأس من الحياة، قد قطع الأمل عند حضور الموت، وظهور دلائله فقد اختلف في حاله:

وفي المسألة خلاف فقد قيل: إن توبة اليأس مقبولة دون إيمانه، وهو المختار عند الحنفية؛ لأن الرجاء باق ويصح معه الندم، والعزم على الترك^(١).
وأيضًا: التوبة تحديد عهد مع الرب جَلَّوَعَلَا، والإيمان إنشاء عهد لم يكن وفرق بين الأمرين. وفي (البرازية): أن الصحيح أنها تقبل بخلاف إيمان اليأس، وإذا قبلت الشفاعة في القيامة وهي حالة يأس، فهذا أولى^(٢).

وقالوا: المختار قبول توبة اليأس دون إيمانه؛ لإطلاق قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، بخلاف الكافر؛ لعدم الإيمان بالغيب؛ لأنه قد شاهد ملائكة العذاب، فيكون الإيمان منه قهريًا بسبب المعاينة^(٣).

قال في (جامع الفتاوى): وذكر في بعض كتب الكلام أن توبة اليأس هل تعتبر؟ اختلف فيه، والأصح أنها تعتبر، حتى إن من تاب عن شيء لا يقدر عليه، كالمحبوب يتوب عن الزنا؛ فإنه يعتبر، فليتأمل فيها^(٤).

(١) المحرر الوجيز (٢/٢٥)، وقد تقدم قول القاضي ابن عطية، وانظر: روح المعاني (٢/٤٤٩)، تفسير القرطبي (٥/٩٢)، وانظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٨/٢٠٥)، لسان الحكام في معرفة الأحكام (ص: ٤١٤).

(٢) روح المعاني (٢/٤٤٩). قال الشهاب الخفاجي: "لكن هذه الآية صريحة في خلافه" حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٣/١١٦). إلا أن ذلك باعتبار ما قيل في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٨]، فقد قيل: ما لم يعاين الملك، أو أيس من الحياة - كما تقرر -.

(٣) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح (١/٥٦٠).

(٤) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (١/٩٥-٩٦).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: لا تقبل؛ فإن الآية دالة على أن من حضره الموت، وشاهد أهواله فإن توبته غير مقبولة، واستدل على ذلك من وجوه.

إلا أنه قال عقب ذلك: قال المحققون: قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة، بل المانع من قبول التوبة مشاهدة الأحوال التي عندها يحصل العلم بالله عَزَّوَجَلَّ على سبيل الاضطرار، واستدل على ذلك من وجوه^(١).

وقد ذهب الحنفية في المختار - كما تقدم - والحنابلة في المذهب، وبعض المالكية إلى أن المؤمن العاصي تقبل توبته - ولو في حال الغرغرة -، بخلاف إيمان اليائس؛ فإنه لا يقبل لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]. وقال الحنابلة في قول آخر: تقبل توبته ما دام مكلفاً.

قال في (الفروع): ولنا خلاف هل تقبل التوبة ما لم يعاين الملك أو ما دام مكلفاً أو ما لم يغرغر، أي تبلغ روحه حلقومه؟ قال في (تصحيح الفروع): والأقوال الثلاثة متقاربة، والصواب: تقبل ما دام عقله ثابتاً^(٢).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»^(٣).

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٠/٨-٩).

(٢) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٤/٤٤٣)، الفروع ومعه تصحيح الفروع (٧/٤٢٩)، دقائق أولي النهى (٢/٤٥٣-٤٥٤)، منار السبيل في شرح الدليل (٢/٣٥).

(٣) صحيح البخاري [١٤١٩]، مسلم [١٠٣٢].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "ومعنى: «بلغت الحلقوم»: بلغت الروح، والمراد: قاربت بلوغ الحلقوم؛ إذ لو بلغت حقيقة لم تصح وصيته، ولا صدقته ولا شيء من تصرفاته باتفاق الفقهاء" (١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "فمن تاب قبل أن يغرغر قبلت توبته؛ لأن الروح تفارق القلب عند الغرغرة، فلا يبقى له نية ولا قصد" (٢).

قال: وأفضل أوقات التوبة: أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به؛ حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح؛ ولذلك قرن الله عَزَّجَلَّ التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

وأيضًا فالتوبة في الصَّحَّة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة، ورجاء البقاء. والتوبة في المرض عند حضور إمارات الموت يشبه الصدقة بالمال عند الموت، فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه، ولذة دنياه، فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ، وترك ما كان عليه، فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب، وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي فيتركها؛ خوفًا من الله عَزَّجَلَّ، ورجاء لثوابه، وإيثارًا لطاعته على معصيته؟! (٣).

قال في (التصحيح): "والقول الثاني: تقبل التوبة ما لم يعاين الملك، وهو قول الحسن ومجاهد رَحِمَهُمَا اللهُ وغيرهما" (٤).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢٣/٧).

(٢) كذا في (التصحيح).

(٣) لطائف المعارف، لابن رجب (٣٣٥-٣٣٦)، وانظر: كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع (٤٢٩/٧)، الآداب الشرعية والمنح المرعية (١١١/١)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٥٨٦/٢).

(٤) تصحيح الفروع (٤٢٩/٧).

وعن صفوان بن عسال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ اللَّهُ عَزَّجَلَّ جَعَلَ بِالْمَغْرِبِ بَابًا عَرْضُهُ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ، لَا يَغْلِقُ مَا لَمْ تَطْلُعْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْ قَبْلِهِ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]» (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المعنى أن باب التوبة مفتوح على الناس، وهم في فسحة وسعة منها، ما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت انسدت عليهم، فلم يقبل منهم إيمان ولا توبة؛ لأنهم إذا عاينوا ذلك، واضطروا إلى الإيمان والتوبة، فلا ينفعهم ذلك، كما لا ينفع المحتضر. ولعله لما رأى أن سد الباب إنما هو من قبل المغرب، جعل فتح الباب أيضًا من ذلك الجانب. وقوله: «مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا» مبالغة في التوسعة، أو تقدير لعرض الباب بمقدار ما يسده من جرم الشمس الطالع من الغرب" (٢).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا حد للتوبة جعله الله عَزَّجَلَّ، ولها باب يسد عند هذه الآية، كما جاء في الحديث (٣)، وقد جاء في (التفسير) أنه معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]" (٤).

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٧٩٣]، والحميدي في (مسنده) [٩٠٥]، وسعيد بن منصور في (التفسير) [٩٤٠]، وأحمد [١٨٠٩٣]، والترمذي [٣٥٣٦]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: ابن خزيمة [١٩٣]، وابن الأعرابي [١٤٠٧]، وابن حبان [١٣٢١]، والطبراني في (الكبير) [٧٣٥٢]، و(الأوسط) [٣٤٤٦]، والدارقطني [٧٦١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٨٥/٦)، والبيهقي في (الكبرى) [١٣٤١]، والضياء في (المختارة) [٢٤] بإسناده حسن.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٨٥٠/٦).

(٣) انظر: ما جاء في باب: (بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) من شرحه ل: (صحيح مسلم).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٩٨/٨).

و"ليس معنى هذا الدعوة إلى التسويف بالتوبة، بل هو إخبار عن الواقع في شأن العباد، وأن باب التوبة مفتوح حتى تظهر هذه العلامة التي لا ندري متى تظهر" (١).
فباب التوبة مفتوح لكل استيقظ ضميره، وراجع نفسه، فاستلها من تيه الضلال، بعد الزيغ والشroud، فعمل صالحاً، وندم على ما فات، وعقد مع الله عَزَّجَلَّ عهداً أن لا يحيد عن صراطه المستقيم، وهذا إن كان لا يزال في فسحة الحياة قبل يأتي يوم: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].
فمتى آيس من الحياة، وعاین ملك الموت، وحشرجت الروح في الحلق، فقد فات أوان التوبة...

وقد فصلت القول في (التوبة) في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

عاشراً: ألفاظ المسارعة والمسابقة والمنافسة والمبادرة والسعي:

وقد وردت هذه الألفاظ في الكتاب والسنة في مقام الحث على اغتنام الوقت، والانتفاع من الزمن:

١ - المسارعة:

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وأما المسارعة فهي من السُرْعَة، وهي نقيض البطء. تقول منه: سَرَعَ سَرْعاً، مثال: صَغُرَ صِغَرًا فهو سريع.

(١) مكفريات الذنوب وموجبات الجنة (ص: ٢٣).

والمسارعةُ إلى الشيء: المبادرة إليه. وتسرع إلى الشرِّ. سَرَعَانَ ذَا خُرُوجًا، مُثَلَّثَةً السَّيْنِ، أي سَرَعَ ذَا خُرُوجًا، نقلت فتحة العين إلى النون؛ لأنه معدول من سَرَعَ فبني عليه. ولسرعان ما صنعت كذا! أي: ما أَسْرَعَ! ^(١).

٢ - المسابقة:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].
وقال جلَّ وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُتَجَرِّبِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].
وقال جلَّ وعلا: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].
وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ [يس: ٦٦].
وقال جلَّ وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ١٠١ ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ١١١ [الواقعة: ١٠-١١].
وقال جلَّ وعلا: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقد اختلف في التشبيه بالعرض في قوله جَدَّوَلَا: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، هل هو على حقيقته، أم أنه من قبيل المجاز؟
ف قيل: هو على سبيل الحقيقة. والمعنى: لو بسطت السماوات كل واحدة بجانب الأخرى وكذلك الأرض، لكان ما ذكر مماثلاً ل عرض الجنة، وأما طولها فلا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل: هو من قبيل المجاز، فيكون كناية عن عظم سعتها.

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سرع) (١٢٢٨/٣-١٢٢٩)، المخصص (١/٢٦٣)، (٤/٢٩٢).

قالوا: وفي العرض وجهان:

الأول: أنه على حقيقته، وتخصيصه بالذكر؛ تنبيهاً على اتساع طولها؛ فإن العرض في العادة أدنى من الطول.

والثاني: أنه مجاز عن السعة والبسطة:

ولم يرد العرض الذي هو خلاف الطول. والعرب تقول: بلاد عريضة، ويقال: هذه دعوى عريضة، أي: واسعة عظيمة. والأصل فيه: أن ما اتَّسع عرضه لم يضق، وما ضاق عرضه دقَّ، فجعل العرض كناية عن السَّعة^(١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "المراد: وصفها بالسعة والبسطة، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه جَلَّ وَعَلَا وأبسطة"^(٢).

قال الشهاب الخفاجي رَحِمَهُ اللهُ: "العرض أقصر الامتدادين، وفي ذكره دون ذكر الطول؛ مبالغة، وزاد في المبالغة بحذف أداة التشبيه، وتقدير المضاف، فليس المقصود تحديد عرضها، حتى يمتنع كونها في السماء، بل الكلام كناية عن غاية السعة بما هو في تصور السامعين، والعرب كثيراً ما تصف الشيء بالعرض إذا أرادوا وصفه بالسعة..^(٣) والمسابقة كناية عن المنافسة.

والمسابقة هي المسارعة إلى الشيء. يقال: سابق إلى الشيء مسابقةً وسباقاً، أي: أسرع إليه.

(١) انظر: غريب القرآن، لابن قتيبة (ص: ١١١-١١٢)، بحر العلوم (١/٢٤٦)، مفاتيح الغيب (٩/٣٦٦)،

المحرر الوجيز (١/٥٠٩)، التفسير البسيط (٥/٥٩٢-٥٩٣).

(٢) الكشف (١/٤١٥).

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٣/٦٢)، روح المعاني (٢/٢٧١).

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها كانت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: «هذه بتلك السبقة»^(١).

وسابق بين الخيل، أي: أجزاها؛ ليرى أيهم يسبق والسابق، والسبق الاسم. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبَقْتُ رَحْمَتِي غَضَبِي»^(٢)، أي: غلبت آثار رحمتي على آثار غضبي. قال العلامة الثوري شَيْتِي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المراد من هذا الكلام: بيان سعة الرحمة، وشمولها على الخلق، حتى كأنها السابق والغالب، وهو جار مجرى الاستعارة على مجاز كلام العرب في المبالغة، يقال: غلب فلان المنع، وغلب على فلان العطاء، أي: أن الشيء الموصوف بالغلبة: أكثر أفعاله، وأظهر خصاله، وإنما أولنا الحديث على هذا؛ لأن غضب الله عَزَّجَلَّ ورحمته صفتان من صفاته راجعتان إلى إرادته الثواب والعقاب، وصفاته لا توصف إحداها بالسبق والغلبة على الأخرى"^(٣)، فهو إشارة إلى مزيد العناية بعبده، والإنعام عليهم بغايات الفضل، ونهاية الرفق والمسامحة، وإلى أن مقام الفضل أوسع من مقام العدل^(٤). قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد من الغضب لازمه، وهو إرادة إيصال العذاب إلى من يقع عليه الغضب؛ لأن السابق والغلبة باعتبار التعلق، أي: تعلق الرحمة غالب

(١) أخرجه الحميدي [٢٦٣]، وابن أبي شيبة [٣٣٥٨٨]، وأحمد [٢٦٢٧٧]، وابن ماجه [١٩٧٩]، وأبو داود [٢٥٧٨]، واللفظ له، والنسائي في (الكبرى) [٨٨٩٤]، وابن ماجه، وصححه ابن حبان [٤٦٩١]، كما أخرجه الطبراني [١٢٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/١٤٠)، والبيهقي في (الكبرى) [١٩٧٥٨]. قال العراقي: "رواه أبو داود، والنسائي في (الكبرى)، وابن ماجه، من حديث: عائشة بسند صحيح".

(٢) صحيح البخاري [٧٥٥٣]، مسلم [٢٧٥١].

(٣) الميسر في شرح مصابيح السنة (٥٤٨/٢)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦٨/١٧).

(٤) انظر: فيض القدير (٤٨١/٤).

سابق على تعلق الغضب؛ لأن الرحمة مقتضى ذاته المقدسة، وأما الغضب فإنه متوقف على سابقة عمل من العبد الحادث" (١).

وقال الدماميني رَحِمَهُ اللهُ: "الغضب: إرادة العقاب، والرحمة: إرادة الثواب، والصفات لا توصف بالغلبة، ولا يسبق بعضها بعضاً، لكن جاء هذا على الاستعارة. ولا يمتنع أن تجعل الرحمة والغضب من صفات الفعل لا الذات، فالرحمة: هي الثواب والإحسان، والغضب: هو الانتقام والعقاب، فتكون الغلبة على بابها؛ أي: إن رحمتي أكثر من غضبي، فتأمل" (٢).

وفي (المُعَلِّم): "قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: غضبُ الله عَزَّجَلَّ ورضاه يرجعان إلى إرادته لا ثابته المطيع ومنفعة العبد، أو عقاب العاصي، فالأول منهما يسمى: رحمة. والثاني يسمى: غضباً، وإرادة الله عَزَّجَلَّ قديمة أزلية بها يريد سائر المرادات، فتستحيل فيها الغلبة والسبق، وإنما المراد هاهنا: متعلق الإرادة من النفع والضرر، فكان رفقه بالخلق، ونعمه عندهم أغلب من نقمه وسابقة لها، فإلى هذا يرجع معنى الحديث" (٣).

وقوله في ماء الرجل والمرأة: «فَمِنْ أَيَّهِمَا عَلَا، أَوْ سَبَقَ، يَكُونُ مِنْهُ الشَّبَهُ» (٤). قال العلماء: يجوز أن يكون المراد بالعلو هنا: السبق. ويجوز أن يكون المراد: الكثرة والقوة بحسب كثرة الشهوة" (٥).

(١) فتح الباري (٢٩٢/٦).

(٢) مصابيح الجامع، لبدر الدين الدماميني (٩٨-٣٨/٧).

(٣) المُعَلِّمُ بفوائد مسلم، لأبي عبد الله المازري المالكي (٣٣٣-٣٣٤)، وانظر: إكمال المعلم (٨/ ٢٥٢).

(٤) صحيح مسلم [٣١١].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٣/٣).

وفي (المفهم): "ويحتمل: أن يقال: إن (من) زائدة على قول بعض الكوفيين: إنها تزداد في الواجب بتقدير: أيهما. ويحتمل أن يكون (أو) شكاً من أحد الرواة. ويحتمل أن يكون تنويحاً؛ أي: أي نوع كان منهما، كان منه الشبه.

وسبق أي: بادر بالخروج. ويحتمل أن يكون بمعنى: غلب، من قولهم: سابقني فلان فسبقته؛ أي: غلبته، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠]، أي: مغلوبين، فيكون معناه: يكثر". وينظر في هذا التفصيل الذي ذكره الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (المفهم) (١).

و(استبقوا إلى كذا)، أي: سابق بعضهم بعضاً.

و(تسابقوا): استبقوا وتخطأوا وتناضلوا

و(السابق): المتقدم في الخير، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ العباد بالمسارعة إلى فعل الخيرات، واتقاء المحظورات؛ لنيل القربات، وإدراك جنته التي عرضها الأرض والسموات، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿* وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿* وَسَارِعُوا﴾ أي: بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إلى ما يستحق به العبد المغفرة، كالإسلام، والطاعة، والتوبة، والإخلاص. وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ صفات أولئك الذين يستحقون هذه المغفرة، وهذا الإكرام عقب هذه الآية، حيث قال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٥٧٠-٥٧٢)، وانظر: مشارق الأنوار، للقاضي عياض، مادة:

(سبق) (٢/٢٠٦)، وانظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص: ٢٦٩).

يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٦]، وقال جَلَّوَعًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]، وقال جَلَّوَعًا: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال جَلَّوَعًا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ١٠-١٢]، والسابقون هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا.

٣ - المنافسة:

وصلتها بالزمن كصلة المبادرة والمسارة والتسابق من إنها قد وردت في مقام الحث على اغتنام الوقت، والانتفاع من الزمن، وقد وردت كذلك في السنة في مقام الذم، والتنازع على حطام الدنيا.

ومن دأب الصالحين وأصحاب الهمم أنهم يغتنمون الأوقات، ويتنافسون بكثرة الأعمال الصالحة؛ لعلو همتهم، وطهارة نفوسهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

وأصل التنافس: التغالب في الشيء النفيس، أي: المرغوب كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به، وأصله من النفس؛ لعزتها^(١).

وشيء نفيس، أي: يُتَنَافَسُ فيه ويُرَغَّبُ. وهذا أَنَفْسُ مالي، أي: أَحْبُهُ وَأَكْرُمُهُ عندي. وَأَنَفَسَنِي فلانٌ في كذا، أي: رَغَّبَنِي فيه. وَنَفَسَ الشيء - بالضم - نَفَاسَةً، أي: صار نفيسًا مرغوبًا فيه. ونافست في الشيء منافسة ونفاسًا - بالكسر -: إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه، أي: رَغَبُوا^(٢).

قال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "نَفَسْتُ عليه الشيء أَنَفَسَهُ نَفَاسَهُ: إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه نفست الشيء أَنَفَسَهُ نَفَاسَةً، والتنافس تفاعل منه كأن واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به"^(٣).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتنافس: أن يَنَفِسَ الرجل على الرجل بالشيء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه، وهو مأخوذ من الشيء النفيس، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس، وتطلبه وتشتهيه..^(٤)"

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن مبالغته جَلَّوَعًا في الترغيب فيه تدل على علو شأنه. وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء"^(٥).

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٩٥/٥).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (نفس) (٩٨٥/٣).

(٣) انظر: التفسير البسيط، للواحدى (٣٤١/٢٣)، تفسير أبي السعود (١٢٨/٩)، روح المعاني (٢٨٣/١٥).

(٤) تفسير الطبري (٢٩٩/٢٤).

(٥) مفاتيح الغيب (٩٣/٣١).

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "المنافسة: مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل، والالحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وهذا كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]" (١).

وفسرت المنافسة بالمبادرة إلى كمال تشاهده من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه، أو تجاوزه فتكون أنفـس منه، أو مثله، وهو من شرف النفس، وعلوِّ الهمة، والفرق بينه وبين الحسد ظاهر (٢).

وقد قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، [المائدة: ٤٨].

و"الاستباق: التسابق، وهو هنا مجاز في المنافسة؛ لأن الفاعل للخير لا يمنع غيره من أن يفعل مثل فعله أو أكثر، فشابه التسابق. ولتضمن فعل (استبقوا) معنى: خذوا، أو ابتدروا، عدي الفعل إلى الخيرات بنفسه وحقه أن يعدى بإلى، كقوله: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]" (٣).

والمنافسة في الخير محمودة، وهي تقابل الحسد المذموم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وبين المنافسة والغبطة جمع وفرق، وبينهما وبين الحسد أيضاً جمع وفرق. فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهاداً وحرصاً. والحسد: يدل على مهانة الحاسد وعجزه، وإلا فنافس من حسدته. فذلك أنفع لك من حسده، والغبطة تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله" (٤).

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٨١٨).

(٢) انظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٣٧/٨)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على

البيضاوي (١٥٦/٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢٤-٢٢٥/٦).

(٤) مدارج السالكين (٤٨/٣).



ونحوه قول الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الذي ينال الإنسان بسبب خير يصل إلى غيره على سبيل التمني أن يكون له مثله فهو غبطة، وإذا كان مع ذلك سعي منه أن يبلغ هو مثل ذلك من الخير أو ما هو فوقه فمنافسة، وكلاهما محمودان" (١).

والغبطة والمنافسة في الخير كلاهما محمود. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله عزَّ وجلَّ على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان: إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى: حسداً، فالحسد حُده: كراهة النِّعمة وحبُّ زوالها عن المنعم عليه.

الحالة الثانية: أن لا تحبَّ زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تسمى: غبطة، وقد تختص باسم المنافسة، وقد تسمى المنافسة: حسداً، والحسد: منافسة، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني" (٢).

قال أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللهُ: "فيستحب الغبط في الخير؛ وهو المراد بقوله: صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا حسد إلا في اثنتين» (٣).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "حكم الحسد بحسب حقيقته، وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازاً، وهي أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى: منافسة، فإن كان في الطاعة فهو

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: ٢٤٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٨٩).

(٣) أحكام القرآن (١/ ٥٢٦).

محمود، ومنه: ﴿فَلْيَتَنَافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وإن كان في المعصية فهو مذموم. ومنه: «ولا تنافسوا»^(١)، وإن كان في الجائزات فهو مباح»^(٢).

وقد قُيِّدَ التباري والتنافس بكونه في صالح الأعمال وفي العلوم النافعة التي يخلص فيها المكلف النية والعمل؛ لأنه كما يكون التنافس في أعمال البر والطاعات، وهو التنافس المحمود، كذلك يكون في الرِّغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظها، وهو التَّنَافَس المذموم. والمسابقة إلى الأعمال المحصلة للدرجات العالية مطلوبة، وهي تشمل العلم إذا كان خالصاً لله عَزَّجَلَّ، والاجتهاد في الطاعات، وأعمال البر والخير، وهذه المنافسة ترتقي بالإنسان في العلم والعمل، كما ترتقي بالأُمم في مجالات العلوم، والصناعات، والتقدم الحضاري.

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: "أما المنافسة فليست بحرام، وهي مشتقة من النفاسة، والذي يدل على أنها ليست بحرام وجوه:

أولها: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وثانيها: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. وإنما المسابقة عند خوف الفوت، وهو كالعبدین يتسابقان إلى خدمة مولاهما؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه، فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها.

(١) جاء في الحديث: «وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦]. وفي رواية: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا..» الحديث. صحيح مسلم [٢٥٦٣].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٧).



وثالثها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فأنفقه في سبيل الله، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به، ويعلمه الناس». وهذا الحديث يدل على أن لفظ: (الحسد) قد يطلق على المنافسة.

ثم نقول: المنافسة قد تكون واجبة، ومندوبة، ومباحة، أما الواجبة فكما إذا كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة، كالإيمان، والصلاة، والزكاة، فهنا يجب عليه أن يحب له مثل ذلك؛ لأنه إن لم يحب ذلك كان راضيا بالمعصية، وذلك حرام.

وأما إن كانت تلك النعمة من الفضائل المندوبة، كالإنفاق في سبيل الله عَزَّجَلَّ، والتشجيع لتعليم الناس كانت المنافسة فيها مندوبة.

وأما إن كانت تلك النعمة من المباحات كانت المنافسة فيها من المباحات، وبالجملة فالمذموم أن يحب زوالها عن الغير، فأما أن يحب حصولها له وزوال النقصان عنه فهذا غير مذموم، لكن هاهنا دقيقة وهي أن زوال النقصان عنه بالنسبة إلى الغير له طريقان: أحدهما: أن يحصل له مثل ما حصل للغير.

والثاني: أن يزول عن الغير ما لم يحصل له، فإذا حصل اليأس عن أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر، فهنا إن وجد قلبه بحيث لو قدر على إزالة تلك الفضيلة عن تلك الشخص لأزالها، فهو صاحب الحسد المذموم، وإن كان يجد قلبه بحيث تردعه التقوى عن إزالة تلك النعمة عن الغير فالمرجو من الله عَزَّجَلَّ أن يعفو عن ذلك، وقد فصل القول في ذلك الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الإحياء) ^(١).

(١) وقد أوجز كلامه الفخر الرازي في (ال تفسير). انظر: مفاتيح الغيب (٣/٦٤٦-٦٤٧)، وانظر: إحياء علوم الدين (٣/١٨٩-١٩٢)، وانظر: عقبات في طريق الهداية، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، العقبة الثامنة والعشرون: عقبة الحسد.

وإنَّ من صور الفساد: التنازع على حطام الدنيا، وما فيها من ملك ومتاع؛ فإن التكالب على الدنيا: سعي إلى غايات دنيوية مهما كانت الوسائل الموصلة إليها دنية، وهو من أسباب التقاتل، وشيوع الفساد، وضياع الحقوق؛ ولذلك حذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وأمتَه من التنافس المذموم، وبيَّن عاقبته ومآله، كما في الحديث: عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا، فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أَحَدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انصَرَفَ إِلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا»^(١).

وحين أقبل أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتْ الْأَنْصَارُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَوَافَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الْفَجْرَ انصَرَفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَوْهُمْ، وَقَالَ: «أَبْشُرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسْرُكُمْ، فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَبْسُطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بَسَطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتَهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا فَتَحْتَ عَلَيْكُمْ فَارِسَ وَالرُّومَ، أَيْ قَوْمَ أَنْتُمْ؟»، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ

(١) صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦].

(٢) صحيح البخاري [٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥].

تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»^(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فتنافسوها» -بفتح المثناة فيها-، والأصل: فتنافسوا، فحذفت إحدى التائين.

والتنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء، ومحبة الانفراد به، والمغالبة عليه، وأصلها من الشيء النفيس في نوعه. يقال: نَافَسْتُ في الشيء مُنَافَسَةً وَنَفَاسَةً وَنَفَاسًا، وَنَفَسَ الشيء -بالضم- نَفَاسَةً صار مرغوبًا فيه، وَنَفَسْتُ به -بالكسر-: بخلت، وَنَفَسْتُ عليه: لم أره أهلًا لذلك. قوله «فتهلككم» أي: لأن المال مرغوب فيه، فترتاح النفس لطلبه، فتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك»^(٢).

إن الناس كلما انفتحت عليهم الدنيا، وصاروا ينظرون إليها، فإنهم يخسرون من الآخرة بِقَدَرِ ما ربحوا من الدنيا؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ»، يعني: ما أخاف عليكم الفقر، فالدنيا ستفتح. «وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتَهُمْ»^(٣). وصدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي أهلك الناس اليوم: التنافس في الدنيا، وكونهم كأهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له.

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٢].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٢٤٥/١١).

(٣) صحيح البخاري [٤٠١٥، ٦٤٢٥]، مسلم [٢٩٦١].



وقد جاء في الحديث: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسلَّطَهُ على هلكته في الحقِّ، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها» ^(١).

وفي رواية: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار» ^(٢).

قال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللهُ: "قال الأصمعي رَحِمَهُ اللهُ: يقال في أمثالهم: (لن يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساوا هلكوا).

قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللهُ: وأحسب قولهم: (إذا تساوا هلكوا) لن الغالب على الناس الشر، وإنما يكون الخير في النادر من الرجال؛ لعزته، فإذا كان التساوي فإنما هو في السوء" ^(٣).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ في بيان: «لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساوا هلكوا». معناه: أنهم إنما يتساوون إذا رضوا بالنقص، وتركوا التنافس في طلب الفضائل ودرك المعالي، وقد يكون ذلك خاصا في ترك طلب العلم بالجهل، وذلك أن الناس لا يتساوون في العلم؛ لأن درج العلم يتفاوت.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦]، وإنما يتساوون إذا كانوا جهالاً.

(١) صحيح البخاري [٧٣، ١٤٠٩، ٧١٤١]، مسلم [٨١٦].

(٢) صحيح البخاري [٧٥٢٩]، مسلم [٨١٥].

(٣) الأمثال، لأبي عبيد (ص: ١٣٢).

وفيه وجه آخر: وهو أن يكون أراد بالتساوي التحزب والتفرق، وألا يجتمعوا على إمام، ولا ينقادوا لرئيس، لكن كل واحد منهم يدعي الحق لنفسه، وينفرد برأيه، فإذا فعلوا ذلك هلكوا" (١).

وقد قال بعض أهل العلم: اصحب من ينهضك حاله إلى الكمال، ويدلك على الله عزَّجَلَّ مقالاه، واحذر من صحبة من يرضى عن نفسه، ويتبع هواه؛ لأنَّ الصاحب صاحب، والمرء على دين خليله.

قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ اللهُ: "أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها. ولأنَّ تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأبي علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟ اه" (٢)؛ لأنَّ الجاهل الذي لا يرضى عن حاله لا يبقى جاهلاً، بل يبحث وينقب ويجتهد إلى أن يتحرر من الجهل. والعالم الذي يرضى عن نفسه لا يبقى عالماً.

وقال: "الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، وعدم الرضا عنها أصل الصفات الحمودة، وقد اتفق على هذا جميع العارفين، وأرباب القلوب؛ وذلك لأنَّ الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساوئها، ويصير قبيحها حسناً، كما قيل:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ *** (٣)

(١) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (٢١٢/٣)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٣/١٠)، فتح الباري، لابن حجر (١٦/١٣)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٠١/٣٢)، تهذيب اللغة (٨٤/١٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٢٧/٢).

(٢) انظر: تفسير الثعالبي (٣٢٩/٥)، شرح ابن عباد على الحكم (ص: ١٧٣)، البحر المديد (٥١٢/١).

(٣) البيت ينسب لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: ديوان عبد الله بن معاوية (ص: ٩٠)، الحيوان (٢٣٦/٣)، عيون الأخبار (١٦/٣)، العقد الفريد (١٩٤/٢)، الأمثال المولدة (ص: ٤٠٤)، الحماسة =

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا؛ لأنَّ العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد، كما قيل في الشطر الأخير:

*** كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تبدي المساويا ^(١)

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها، وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه، وسكن إليها استولت عليه الغفلة، وبالعفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها ويقهرها، فتصير الشهوة غالبية له بسبب ذلك. ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة. وأصل ذلك رضاه عن نفسه، ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها" ^(٢). وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (عقبات في طريق الهداية).

٤ - المبادرة:

وهي من الألفاظ المرادفة للمسارعة - كما تقرّر ذلك في غير موضع -. قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "بدرت إلى الشيء أبدر بُدُورًا: أسرعَ إليه، وكذلك بادَرْتُ إليه. وتبادَرَ القَوْمُ: تسارعوا. وابْتَدَرُوا السلاحَ: تسارعوا إلى أخذه..." ^(٣). وقد تقدم ذكر الأحاديث التي تحت على المبادرة إلى العمل الصالح قبل تعذره.

=المغربية (١٢٤٠/٢-١٢٤١)، الحماسة البصرية (٥٥/٢)، الأغاني (٢١٤/١٢، ٢٣٣). ونسب في

(التمثيل والمحاضرة) (ص: ٣١٠) إلى المتنبي.

(١) والشطر الأول منه: "وعين الرضا عن كل عيب كليله" كما تقدم.

(٢) شرح ابن عباد على الحكم (ص: ١٧٣-١٧٤).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (بدر) (٥٨٦/٢-٥٨٧).

٥ - السعي:

"السَّعْيُ: عَدُوٌّ لَيْسَ بِشَدِيدٍ، وَكُلُّ عَمَلٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَهُوَ السَّعْيُ. يَقُولُونَ: السَّعْيُ الْعَمَلُ، أَيْ: الْكَسْبُ. وَالْمُسْتَعَاةُ فِي الْكَرَمِ وَالْجُودِ. وَالسَّاعِي: الَّذِي يُؤَلِّي قَبْضَ الصَّدَقَاتِ. وَالْجَمْعُ: سَعَاءٌ"^(١). وَسَعَى الرَّجُلُ يَسْعَى سَعْيًا، أَيْ: عَدَا، وَكَذَلِكَ إِذَا عَمَلَ وَكَسَبَ. وَكُلٌّ مِنْ وَلِيٍّ شَيْئًا عَلَى قَوْمٍ فَهُوَ سَاعٍ عَلَيْهِمْ.

وسعى إلى المسجد، وهو يسعى إلى الغاية، وتساعوا إليها، وساعيته: سعيت معه. ومن المجاز: هو يسعى على عياله: يكسب لهم ويقوم بمصالحهم^(٢).

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: "السَّعْيُ: الْإِسْرَاعُ فِي الْمَشْيِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [الفصل: ٢٠]، أَيْ: يَسْرِعُ فِي مَشْيِهِ، وَهُوَ الْعَدُوُّ أَيْضًا.

والسعي: المشي، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصفات: ١٠٢]، يَعْنِي: الْمَشْيَ، وَيُقَالُ: الْمَعَاوَنَةُ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ.

وقال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أَيْ: امشوا. وقرأ بعض السلف: (فامضوا إلى ذكر الله).

وقال: ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أَيْ: مَشْيًا، كَذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ.

والسَّعْيُ: الْعَمَلُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَتْ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩] أَيْ: عَمَلَ لَهَا عَمَلَهَا.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ [الحج: ٥١]، أَيْ: جَدُّوا فِي ذَلِكَ.

(١) العين، مادة: (سعى) (٢٠٢/٢).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سعى) (٢٣٧٧/٦). أساس البلاغة (٤٥٦/١).



وقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]، أي: عملكم لشتّى، أي: مختلف. وأصل هذا كله: المشي والإسراع فيه ^(١).

والسَّعْيُ: الْقَصْدُ، وبذلك فُسِّرَ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وليس من السَّعْيِ الذي هو العدو

وقرأ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فامضوا إلى ذكر الله) ^(٢). قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمضي والسعي والذهاب في معنى واحد؛ لأنك تقول للرجل: هو يسعى في الأرض يبتغي من فضل الله عَزَّوَجَلَّ، وليس هذا باشتداد" ^(٣).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ معناه: فاقصدوا إلى ذكر الله، وليس معناه العدو.

وقرأ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فامضوا إلى ذكر الله)، وقال: لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي.

وكذلك قرأ أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فامضوا).

وقد رويت عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن اتباع المصحف أولى، ولو كانت عند عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فامضوا) لا غير، لغيرها في المصحف.

(١) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص: ٢٧٤ - ٢٧٥).

(٢) قالوا: وهذا تفسير للسعي، وهو بخلاف السعي في قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا نودي للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون» - كما سيأتي -.

(٣) معاني القرآن، للفراء (١٥٦/٣).



والدليل على أن معنى السعي: التصرف في كل عمل: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤٠]، فلا اختلاف في أن معناه: وأن ليس للإنسان إلا ما عمل" (١).

وقد قيل: لعل من قرأ: (فامضوا) أراد التفسير، ومن سمعه ظنَّ أنه قرآن (٢). وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ معناه: أجيئوا، وليس من العدو" (٣).

قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد يكون السعي بمعنى: العدو في كلام العرب، ومنه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعُونَ، وَلَكِنْ ائْتُوهَا تَمْشُونَ، وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتَمُّوا» (٤) فالسعي في هذا الحديث العدو" (٥).

والسعي - كما تقدم -: التصرف في كل عمل السعي، فهو لفظ عام يتناول السعي في الخير، والسعي في الشر:

أ. وقد جاء لفظ: السعي على العموم في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٦﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٧١/٥-١٧٢).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١١٣٦/٣).

(٣) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٥٨/٢).

(٤) صحيح البخاري [٩٠٨]، مسلم [٦٠٢].

(٥) تهذيب اللغة (٥٨/٣).

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [النازعات: ٣٤-٣٥].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل: ٤].

ب. مجيء لفظ: (السعي) مقيدًا بالإفساد والشر:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

ج. مجيء لفظ: (السعي) مقيدًا بالخير والصلاح:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء: ٩٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية: ٨-٩].

البحث الثالث:

التجوز في الأفعال في قصص القرآن وكلام الله عز وجل

أولاً: وقوع الماضي موقع المستقبل في كلام الله عز وجل:

خصَّ كثير من الباحثين تعريف القصة في القرآن بما يقع في الزمن الماضي . ولا يستقيم هذا في كلام الله عز وجل؛ قصة كان أم خبراً أم حديثاً؛ فإن الله عز وجل هو خالق الزمان والمكان، والعالم بما كان وبما هو كائن، فيخبر في كتابه عما وقع للأمم السالفة من الهلاك وخراب الديار جزاء كفرهم بنعم الله عز وجل، وإعراضهم عن آياته . وفي القرآن الكريم يقع الماضي موقع المستقبل في مواضع كثيرة، ومن الآيات ما يذكر فيها أكثر من خبر مع اتصال تلك الأخبار، وورودها في سياق واحد، ودلالاتها على معنى مشترك . ومن ذلك: ذكر أحوال أهل الجنة النار والأعراف متعاقبة، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ

تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ [الأعراف: ٤٣-٥١].

فلا ريب أن الآيات السابقة تضمنت أكثر من خبر، وهي أخبار متصلة - كما

هو بين -.

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبا: ٣١-٣٣].

ففي الآيات: ذكر عدم إيمان أولئك، ثم الإرداف ببيان سبب ذلك الكفر من

خلال ذلك الحوار، ثم ذكر العقوبة.

ومن ذلك: قوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٦٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٦٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٦٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

ومن الإخبار الذي وقع فيه الماضي موقع المستقبل: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ مُغْنُونَ عَنْكُمْ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢١].

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنما جيء به بلفظ الماضي؛ لأنَّ ما أخبر به جَلَّوَعَلَا لصدقه كأنه قد كان ووجد" (١).

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تُنْكِرًا﴾ [الطلاق: ٨]، فالمراد: حساب الآخرة وعذابها ما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وجيء به على لفظ الماضي، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ونحو ذلك؛ لأنَّ المنتظر من وعد الله عَزَّوَجَلَّ ووعيده مُلْقَى في الحقيقة، وما هو كائن فكأنَّ قد" (٢).

(١) الكشف (٥٤٨/٢).

(٢) الكشف (٥٦٠/٤). وفي نسخة: (فكأن قد كان)، قال العلامة الطيبي: "وفي بعض النسخ: (فكأن قد) بلا (كان). قال: بلغ الوليد بن عبد الملك أن سليمان بن عبد الملك تمنى موته لما له من بعده العهدة، فكتب الوليد إليه يعاتبه على ما بلغه، وكتب في آخر الكتاب: (تمنى رجال أن أموت وإن أمت *** فتلك سبيل لست فيها بأوحد)، (وقد علموا لو ينفع العلم عندهم *** لمن مت ما الداعي علي بمخلد)، (فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى *** فهمي لأخرى مثلها فكأن قد)" حاشية الطيبي على الكشف (٤٨٣/١٥)، مع اختلاف في نسبة هذه الأبيات. انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري (١٣١/٣)، الاختيارين، للأخفش الصغير (ص: ١٦١-١٦٢)، الجليس الصالح، للنهرواني (ص: ٦٧٣)، البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي (٦٤/٨)، حياة الحيوان الكبرى، للدميري (٤٦/١)، زهر الأكم في الأمثال والحكم، لليوسي (١٧٥/١-١٧٦).

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي؛ لأنه لتحقيق أمره وظهور برهانه كأنه قد وقع، وإخبار الله عَزَّجَلَّ في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آت لا محالة" (١).

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ جاء بلفظ الماضي وهو مستقبل؛ لتحقيق وقوعه في المستقبل، حتى عبر عنه بما يعبر به عن الواقع.

قال الخطيب القزويني رَحِمَهُ اللهُ في (تلخيص المفتاح): "(ومنه) أي: من خلاف مقتضى الظاهر: (التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي؛ تنبيهاً على تحقق وقوعه، نحو: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]. ومثله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦]، ونحوه: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣]" (٢).

(١) تفسير القرطبي (٣٧٥/٦)، (٦٥/١٠).

(٢) انظر: تلخيص المفتاح (ص: ٩٩)، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، الإيضاح (٩٦/٢-٩٧)، مختصر المعاني (ص: ٨١).

ثانيًا: أوجه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه:

يعبر عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه، ويتحصل من ذلك الأوجه التالية:

١ - التعبير عن المستقبل بالماضي مرادًا به الماضي على التحقيق أو المستقبل على القول المرجوح.

٢ - التعبير عن المستقبل بالماضي مرادًا به المستقبل.

٣ - التعبير عن المستقبل باسم الفاعل واسم المفعول.

٤ - التعبير عن الماضي بلفظ المضارع.

٥ - وقد يعبر عن الحاضر بالمستقبل مرادًا به: الحاضر؛ تنزيلاً لما سيقع منزلة ما وقع - كما سيأتي -.

قال الزركشي رَحِمَهُ اللهُ: في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي: "ويغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعدة بها، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريرًا وتحقيقًا؛ لوقوعه كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]" (١).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "فإنه إنما قال: ﴿فَفَزِعَ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿يُنْفَخُ﴾ وهو للمستقبل؛ للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السماوات والأرض؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل، وكونه مقطوعًا به.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/٣٧٢).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ف: ﴿وَبَرَزُوا﴾ بمعنى: يبرزون يوم القيامة، وإنما جيء بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به؛ لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد" (١).

ومن ذلك: قوله ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧]، أي: نحشرهم.

وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ [الأعراف: ٤٨].

ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع فيؤتى بصيغة الماضي مراداً به الماضي؛ تنزيلاً للمتوقع منزلة ما وقع، فلا يكون تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضي، بل جعل المستقبل ماضياً؛ مبالغة. ومنه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ونحوه" (٢).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: ﴿أَتَى﴾ هاهنا بمعنى: (يأتي)، وإنما حسن فيه لفظ الماضي؛ لصدق إتيان الأمر ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه، فصار (يأتي) بمنزلة: قد أتى ومضى.

وكذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧]؛ فإنه إنما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ ماضياً بعد: ﴿نُسَيِّرُ﴾، ﴿وَتَرَى﴾ وهما مستقبلا؛ للدلالة على

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٦/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص: ١٠٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/٣٧٢).

أن حشرهم قبل التسيير والبروز؛ ليعانوا تلك الأحوال، كافة، قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ قبل ذلك" (١).

وقد يعبر عن المستقبل بالماضي مراداً به المستقبل فهو مجاز لفظي، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧]، فإنه لا يمكن أن يراد به الماضي لمنافاة ﴿يُنْفَخُ﴾ الذي هو مستقبل في الواقع.

وفائدة التعبير عنه بالماضي: الإشارة إلى استحضار التحقق، وأن من شأنه؛ لتحقيقه: أن يعبر عن بالماضي وإن لم يرد معناه.

والفرق بينهما: أن الأول مجاز، والثاني لا مجاز فيه إلا من جهة اللفظ فقط" (٢).
وقد أبان القول في ذلك ووضحه الشيخ بهاء الدين السبكي رَحِمَهُ اللهُ حيث قال:
"واعلم أن ما ورد من ذلك على قسمين:

١ - تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع، فيؤتى بالأمر المستقبل بصيغة الفعل الماضي مراداً به الماضي؛ تنزيلاً للمتوقع منزلة ما وقع فلا يكون تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضي، بل يكون فيه جعل المستقبل ماضياً، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ونحوه.

فإما أن يريد بـ: ﴿أَتَى﴾: أتت مقدماته، فيكون التجوز حصل في الفعل باعتبار الحدث لا باعتبار الزمان، وإما أن يريد بالادعاء أن الإتيان المستقبل وقع في الماضي، وهو أبلغ من الأول.

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٦/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص: ١٠٤-١٠٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/٣٧٢-٣٧٣).

٢ - وتارة يعبر عن المستقبل بالماضي مرادًا به المستقبل فهو مجاز لفظي. وحصل التجوز في هيئة الفعل من غير أن تكون أردت وقوعه في الماضي، وذلك احتمال مرجوح في نحو: ﴿وَنَادَى﴾ وإن كان مشهورًا؛ فإن المعنى على الأول أمكن وأنصح. ويتعين للقسم الثاني نحو: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧] لا يمكن أن يراد به المضى لمنافاة ﴿يُنْفَخُ﴾ الذي هو مستقبل في الواقع في الإرادة، ويحتمل أن يراد أنهم لمبادرتهم النفخ بالصعق كأن صعقهم ماض عن زمن النفخ على سبيل المبالغة، ونظير الآية الكريمة قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ﴾ [الشورى: ٤٤] وفي مثل هذا النوع يكون فائدة التعبير بالماضي: الإشارة إلى استحضر التحقق، وأنه من شأنه لتحقيقه أن تعبر عنه بالماضي، وإن لم ترد معناه، والقسم الأول مجاز، وهذا القسم ليس فيه مجاز إلا من جهة اللفظ فقط.

ثالثًا: التعبير عن المستقبل باسم الفاعل واسم المفعول:

وقال الشيخ ضياء الدين بن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "ومما ينخرط في هذا السلك: الإخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع، فمن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]؛ فإنه إنما أثر اسم المفعول هاهنا على الفعل المضارع؛ لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم؛ فإنه لا بد من أن يكون ميعادًا مضروبًا يجمع الناس، وأنه موصوف بهذه الصفة، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، فإنك تعثر على صحة ما قلت" (١).

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٦/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص: ١٠٥).

وأصل هذا كله مأخوذ من (الكشاف). وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى في (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ).

وقال الشيخ بهاء الدين السبكي رَحِمَهُ اللهُ: "ومثل التعبير عن المستقبل بغير لفظه: اسم الفاعل واسم المفعول باعتبار المستقبل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَقَّعُ﴾ [الذاريات: ٦]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]؛ فإن اسم الفاعل ليس حقيقة للاستقبال فهو من خلاف المقتضى (قلت): وهذا ليس مثل ما سبق فإن فيه التعبير عن المستقبل بما يدل على الحال لا بما هو للمضي، فيحمل كلام المصنف على أنه مثله في التعبير عن المستقبل بغيره لا بالمضي؛ فإن اسم الفاعل حقيقة في الحال اتفاقاً، مجاز في المضي على الصحيح، والقسمان السابقان في الفعل يأتيان في اسم الفاعل، قد يقصد به الاستقبال، وقد يقصد به وقوع الفعل في الحال أو في الماضي" (١).

رابعاً: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع:

فهذا بيان من تقدم من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وقد يكون عكس هذا فيعبر عن المعنى الماضي بلفظ المضارع؛ إحضاراً للصورة العجيبة، وإشارة لتجدده شيئاً فشيئاً، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: ٩]، أي: فأثارت، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، كذا في (مواهب الفتاح) (٢).

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٨٧-٢٨٨).

(٢) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٩٨).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "اعلم أن الفعل المضارع إذا أتى به في حال الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي، فمما جاء: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، فإنه إنما قيل: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ مضارعًا، وما قبله وبعده ماضٍ، لذلك المعنى الذي أشرنا إليه، وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة، الدالة على القدرة الباهرة، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهم المخاطب، أو غير ذلك". وقد فصل ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ في (المثل السائر) ما أجمله من القول في (الجامع الكبير) (١).

١ - ثم إن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه يحتمل أن يكون من المجاز المرسل والعلاقة: ما بينهما من التضاد؛ لأن الضد أقرب خطوًّا بالبال عند ذكر ضده، فبينهما شبه المجاورة؛ لتقارنهما غالبًا في الخيال.

لكن هذا الاحتمال لا يفيد المبالغة المقصودة، وهي الإشعار بتحقيق الوقوع، وأن هذا المستقبل كالماضي؛ لأن المجاز المرسل لما كانت الدلالة فيه انتقالية لم يكن فيه أبلغية، وإنما هو كدعوى الشيء بينة على ما سيأتي.

٢ - ويحتمل أن يكون من مجاز التشبيه، ووجه الشبه: تحقق الوقوع في كل منهما، بالنسبة للتعبير عن المعنى الاستقبالي بالماضي.

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٢/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص: ١٠٢).

وأما وجه الشبه في عكسه فهو كون كل نصب العين مشاهدًا، وهو في الماضي أظهر؛ لبروزه إلى الوجود، وهذا الاحتمال يفيد المبالغة السابقة.

فقول الخطيب القزويني رَحِمَهُ اللهُ: (التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي؛ تنبيهًا على تحقق وقوعه...) يشير إلى أن التعبير عن المستقبل بالماضي على وجه الاستعارة بسبب تشبيه المستقبل بالماضي في تحقق الوقوع، وهذا وإن كان من وظيفة البيان، لكن من حيث إن الداعي إليه التنبيه المذكور من وظيفة علم المعاني، ولا يخفى أن الاستعارة في الفعل بتبعية استعارة المصدر، كما هو مشهور إن قلت: إن مصدر الماضي والمستقبل واحد، فكون الاستعارة تبعية يؤدي إلى تشبيه الشيء بنفسه قلنا: يختلف المصدر بالتقيد بالماضي والاستقبال، لكن لا يخفى أن هذا استعارة في المشتق باعتبار الهيئة، ولم يذكره القوم في مباحث الاستعارة - كما ذكر الشيخ السيالكوتي رَحِمَهُ اللهُ - لكن قواعدهم لا تأباه - كما ذكر الشيخ الدسوقي رَحِمَهُ اللهُ في (حاشيته على مختصر المعاني) ^(١).

خامسًا: التعبير عن الحاضر بالمستقبل:

التعبير عن الحاضر بالمستقبل مرادًا به: الحاضر؛ تنزيلاً لما سيقع منزلة ما وقع، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، "أي: إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان" قاله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ ^(٢).

ونحوه: قول ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ في (شرح التسهيل): "المعنى على قراءة الجماعة: وإنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان،

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١/٧٤٥-٧٤٦)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٩٨-٢٩٩)، وانظر: حاشية السيالكوتي على كتاب المطول (ص: ٢٣٨).

(٢) الكشف (٤/١٢٧).

وهذا شبيهه بـ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] ^(١)، أي: تنزيلاً لمتحقق الوقوع منزلة ما وقع؛ مبالغة وتأكيذاً. وقوله: (وهذا شبيهه)، أي: يشبهه من حيث التعبير عن المستقبل بغير لفظه، والفرق بينهما: أن أحدهما للحاضر، والآخر للماضي.

و"عن قتادة: نعى إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه، ونعى إليكم أنفسكم. وقرئ: مائت ومائتون. والفرق بين الميت والمائت: أن الميت صفة لازمة، كالسيد.

وأما المائت، فصفة حادثة. تقول: زيد مائت غداً، كما تقول: سائد غداً، أي: سيموت وسيسود.

وإذا قلت: زيد ميت، فكما تقول: حي في نقيضه، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت" اهـ.

فتبين أن ﴿مَيِّتٌ﴾: صفة مشبهة، وهي تدل على الثبوت، ففيها: إشعار بأن حياتهم عين الموت، وأن الموت طوق في العنق لازم.

و(مائت): اسم فاعل، وهو يدل على الحدوث، فلا يفيد هنا مع القرينة أكثر من أنهم سيحدث لهم الموت، كما أفاده العلامة الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٢).

قال ابن المنير رَحِمَهُ اللَّهُ: "فاستعمال (ميت) مجاز؛ إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال (مائت) حقيقة؛ إذ لا يعطي اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب. ونظيره قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، يعنى: توفي الموت. ﴿وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، أي: يتوفاها حين المنام؛ تشبيهاً للنوم بالموت، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. ﴿فَيُمْسِكُ﴾ [الزمر: ٤٢]: الأنفس التي قضى عليها الموت

(١) شرح تسهيل الفوائد (١٠٣/٣).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٥٢/١٢).

الحقيقي، أي: لا يردّها في وقتها حية. ﴿وَيُرْسَلُ الْأُخْرَى﴾ [الزمر: ٤٢] أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي: قدره لموتها الحقيقي. هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية..^(١)

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن اسم الفاعل حقيقة عند بقاء ما اشتق منه اسم الفاعل، والمختار أن استعماله فيما مضى مجاز، وأما استعماله في المستقبل عند الأصوليين فمجاز بلا خلاف"^(٢).

والحاصل أن التقسيم الآنف الذكر يجرر المسألة في الحكم على القصة في القرآن الكريم واختلاف القول فيها عن القصة في غير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ. كما أن التقسيم الآنف الذكر يبرز نكتة الاستعمال في كل موضع.

سادساً: اعتبار مجيء التجوز بالأفعال مقيداً بالشرط، أو غير مقيد:

وقد أورد تلك الأفعال بهذا الاعتبار الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وقد آثرت ذكر الأقسام التي أوردّها؛ لاستقلالها وتميزها من حيث اعتبار كونها مقيدة بالشرط أو غير مقيدة، فقد فصل في كتابه: (الإشارة إلى الإيجاز)، القول في التجوز في الأفعال، مع ملاحظة مجيء تلك الأفعال مقيدة بالشرط، وما يجيء في غيره. وقد نقل ذلك التقسيم عنه ابن النقيب رَحِمَهُ اللَّهُ في (مقدمة تفسيره).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الأفعال فالتجوز فيها أنواع:

أحدها: التجوز بالماضي عن المستقبل؛ تشبيهاً له في التحقق، وذلك في الشرط

وجوابه، وفي غيرهما.

(١) الكشف مع حاشية ابن المنير (٤/١٢٧).

(٢) حاشية الطيبي على الكشف (١٣/٣٨١)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٧/٣٣٧)،

حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١٦/٥٢٣).

وأكثر ما يكون هذا في الشروط وأجوبتها، وقد يجيء في غيرها.

١ - مثاله في غير الشرط: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨]، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠].. وأمثاله في القرآن كثير.

٢ - وأما مثاله في الشرط: فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، معناه: وإن تكونوا في ريب. وكقوله: ﴿فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهَوْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٣]، معناه: وإن تتوبوا فهو خير لكم. وكقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، معناه: فإن شك في شك. وكذلك قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، معناه: إن تكونوا مؤمنين بالله عَزَّوَجَلَّ فعليه توكّلوا.

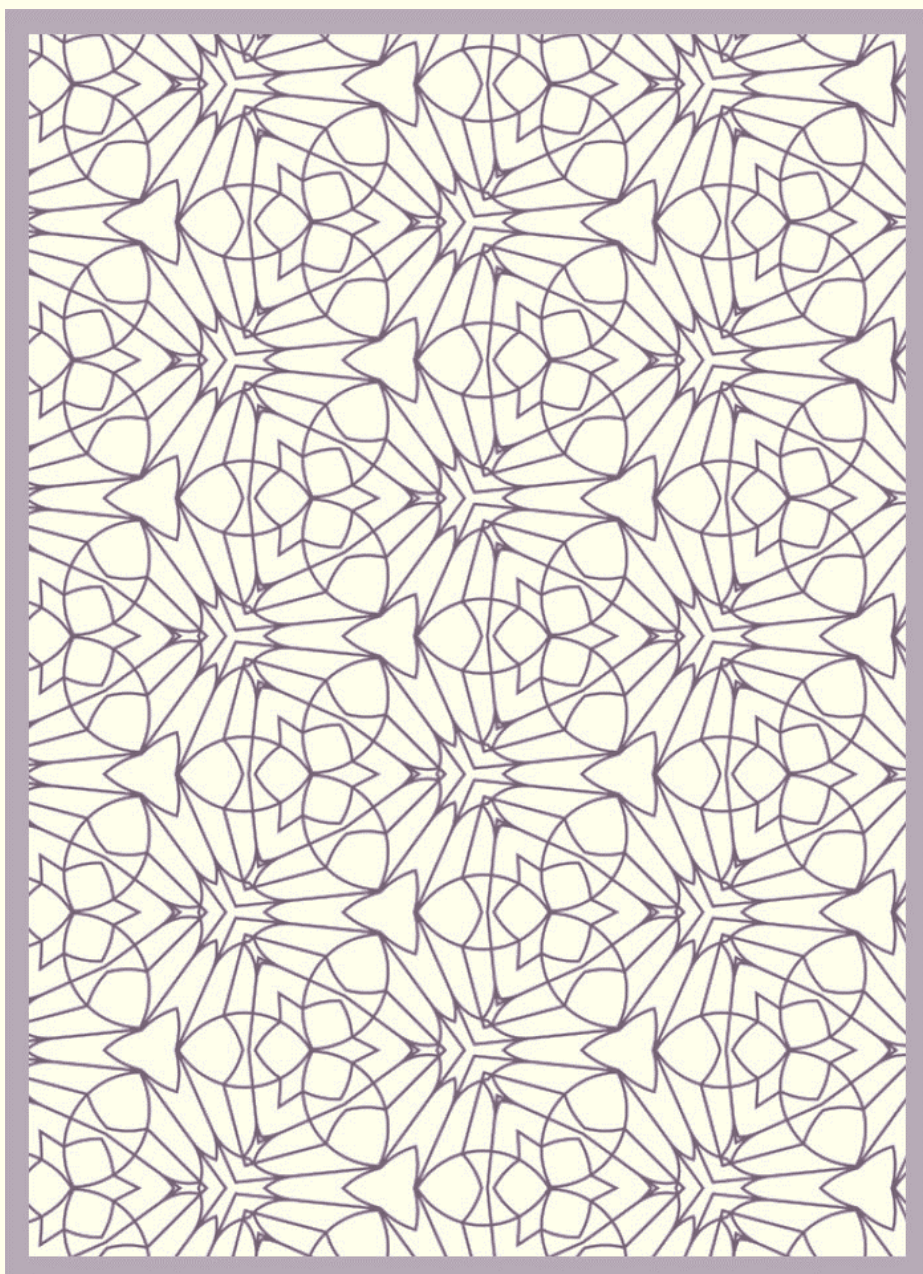
٣ - وأما في جواب الشرط: فكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: ٤١]، وكقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدَّتَ﴾ [الإسراء: ٨]، معناه: وإن تعودوا إلى قتال محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعد إلى نصره؛ لأن الشرط لا يكون إلا بمستقبل، والمرتب على المستقبل مستقبل لا محالة، وهذا من مجاز التشبيه، شبه المستقبل في تحقّقه وثبوته بالماضي الذي دخل في الوجود بحيث لا يمكن رفعه.

الثاني: التعبير بالمستقبل عن الماضي: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: واتبعوا ما تلتته الشياطين، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، معناه: وفريقًا قتلتم. ويجوز أن يكون القول في هاتين الآيتين حكاية حال ماضية. مثله في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [هود: ١٠٩]، وكذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَاُنُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦]، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [الفلم: ٤٣]، وكذلك قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، معناه: وإذ قلت، أو تكون حكاية حال ماضية، وكذلك قوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، معناه: أني رأيت، أو تكون حكاية حال ماضية، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢].. ونحو هذه الآيات.

والتعبير بالمستقبل عن الماضي في القرآن كثير.

[الثالث:] التعبير بالمضارع عن الحال المستمرة: قال: وهو مجاز أيضاً؛ لأنه وضع للحال والاستقبال، فكان استعماله في الأزمان الثلاثة استعمالاً له في غير ما وضع له، وهذا كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].. " (١).

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (ص: ٢٦-٢٧).



المبحث الرابع:

القسم بالزمن

أولاً: دلالات القسم بالزمن:

أَقْسَمَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بالزمن؛ لبيان أهمية الزمن، وعظيم خلق الله عَزَّجَلَّ، وخضوع الخلق من الزمان وغيره، للقدرة الله عَزَّجَلَّ وإرادته.

وقد فصَّلْتُ القولَ في بيان القسم في المبحث الثامن من الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، تحت عنوان: (الأقسام في القرآن الكريم بين تحقيق الخبر وتوجيه النظر).

وإن الله جَلَّوَعَلَا يُقْسِمُ بأمر على أمور، وإنما يُقْسِمُ بذاته المقدسة الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته. وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته. و(المقسَّم عليه) يُراد بالقَسَم: توكيده وتحقيقه، فلا بدَّ أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفية إذا أُقْسِمَ على ثبوتها.

فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، فهذه يُقْسَمُ بها، ولا يُقْسَمُ عليها.

وما أَقْسَمَ عليه الرب جَلَّوَعَلَا فهو من آياته، فكل من الشمس والقمر والسماء والأرض ونفس الإنسان من أعظم مخلوقات الله ذاتاً ومعنى، وهي دالة على بديع حكمته وخلقهِ، وقويِّ قدرته.

وفي (تفسير الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ): "اعلم أن هذه الأشياء التي أقسم الله عَزَّجَلَّ بها لا بد وأن يكون فيها إما فائدة دينية، مثل: كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو فائدة دنيوية توجب بَعَثًا على الشكر، أو مجموعهما" (١).

والقسم يراد منه شرف المقسم به، كما قال ابن النقيب رَحِمَهُ اللهُ: "القسم، وهو أن يُقسم في كلامه بشيء لم يُرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه، وإنما يريد به بيان شرف المقسم به وعلو قدره عنده، ومنه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِفُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكِتَابِ مَسْطُورٍ ٢﴾ [الطور: ١-٢]، وقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ٣﴾ [النجم: ١]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ٤﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ٥﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٦﴾ [الشمس: ٥-٧]، وقوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧﴾ [الحجر: ٧٢]. أقسم بهذه الأشياء كلها؛ لعظم خلقها، ولشرفها عنده. وأقسم بحياة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليعرف الناس عظمته عنده، ومكانته لديه" (٢).

وفي القسم: إشعار بأن المقسم به أمر عظيم؛ إذ لا يقسم العظيم إلا بأمر عظيم، ففي القسم: بيان لشرف المقسم به، وعلو قدره، حتى يعرف الناس مكانته ورفعة منزلته. فمما يدل على عظيم أهمية الزمن في القرآن الكريم: قسمُ الله عَزَّجَلَّ به، في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾ [العصر: ١-٣]، ومن ذلك: القسم بجزء من أجزاء الزمن، كالقسم بالليل والنهار، والصبح، والعمر، ويوم القيامة، والشفق، والفجر، والليالي العشر، والضحى.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ قسم من الله عَزَّجَلَّ، وجوابه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ

لَفِي خُسْرٍ ٢﴾ [العصر: ٢].

(١) مفاتيح الغيب (١٤٨/٣١).

(٢) مقدمة تفسير ابن النقيب (ص: ٢٣٨).

وقد أخبر الله عَزَّجَلَّ أن الإنسان لفي خسر، وأكد ذلك بمؤكدات، أعظمها: أنه جَلَّوَعَلَا هو المخبر، وهذا من أوكد المؤكدات، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؛ لأن الله عَزَّجَلَّ إذا تكلم بشيء فهو حقٌّ وصدق، فكيف إذا كان هذا الأمر مؤكدًا بالقسم؟

ثم جاء بمؤكد آخر، وهو دخول: ﴿إِنَّ﴾، وهي تفيد التوكيد.

وقال: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، ولم يقل: (في خسر)، فاللام هنا أيضًا مؤكدة.

وأكد ذلك أيضًا بدخول اللام في قوله: ﴿الْإِنْسَنَ﴾ يريد: الجنس، وأكد ذلك العموم بالاستثناء الذي يفيد نفي طائفة عن ذلك العموم، وهم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

ومن معاني العصر: الدهر، وقد أقسم الله عَزَّجَلَّ بالدهر؛ لأنه الشاهد على ما أقسم عليه. ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ والدهر أعظم شاهد على ذلك خسارة الإنسان إلا من استثناهم، ولا شك أن الدهر والزمن والتاريخ أكبر شاهد على ما أصاب الإنسان غير المؤمن، ومن المعاني كذلك صلاة العصر، وفي ذلك إشارة على أن الوقت الممتد من الفجر العصر هو وقت كاف ليعرف الإنسان حقيقة عمله.

فكل إنسان في خسر قليل أو كثير إلا من اتصف بأربع صفات، فمن نقص من ذلك أصابه من الخسر بمقدار ما نقص. وفي يوم الحساب يلوم الإنسان نفسه على ما خسر، حيث كان من الممكن أن يستزيد من الشيء، ولم يفعل.

وقد استعمل القرآن الكريم الخسار للزيادة في الخسارة، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]، ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنِّي



لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ [نوح: ٢١]. والخسران هو أكبر الخسارة وأعظمها، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]، ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥]. وبين الخسر والخسار في اللغة زيادة الألف، وفي الخسران زيادة ألف ونون، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

وذكر بعد ذلك المنجيات من الخسران، وهي أربعة:

١ - رسوخ الإيمان.

٢ - العمل الصالح:

وهو ثمرة رسوخ الإيمان في القلب، ودليل صدق الدعوى؛ ولذلك ورد الإيمان في القرآن الكريم مقترناً بالعمل الصالح في مواضع كثيرة تدلُّ على التلازم بينهما، فلا يصح أحدهما دون الآخر.

٣ - لا يكفي أن يكون العبد صالحاً في نفسه دون أن يكون مصلحاً، أمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر؛ ولذلك قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾. وهذا يدل على مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد ومحاربتة، والصالح والإصلاح طريق العزة، وعنوان الفلاح، وسبيل إلى النجاة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٧-١١٨]. ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلْ



صَلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ مبيِّناً مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخطر إغفال هذا الواجب: "إِنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله عَزَّجَلَّ له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد" (١).

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَنَاءً لَّيْلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّابِّحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي (٣٠٦/٢).

بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوًا عَنِ الْمُنْكَرِ [الحج: ٤١]. وقال لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

وقد أخرج الحاكم: عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، قال: «علموا أنفسكم وأهليكم الخير»^(١)، وقد دلَّ على أن العبد يبدأ بإصلاح نفسه، ثم الأقرب فالأقرب.

قال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله عَزَّجَلَّ: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: "أي: فقهوهم، وأدبهم، وادعوهم إلى طاعة الله عَزَّجَلَّ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم. ودلت الآية: على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب. وقيل: أظهروا من أنفسكم العبادات؛ ليتعلموا منكم، ويعتادوا كعادتكم. ويقال: دلوهم على السُّنَّة والجماعة. ويقال: علِّموهم الأخلاق الحسان. ويقال: مروهم بقبول النصيحة"^(٢).

وفي معنى هذه الآية قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع»^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرک) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

قال الحافظ في (الفتح) (٦٥٩/٨): "رواته ثقات". وأخرجه كذلك البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٣٣١].

(٢) لطائف الإشارات (٦٠٧/٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق)

[٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٦/١٠)، والبيهقي في (السنن

الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين)

(ص: ١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

قال الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمريناً لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر^(١).
والصيام يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّةٌ ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد سامية ترتقي بالملكف، وتصلح أحواله.
قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم"^(٢).

فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، فيجب على كل مسلم أن يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، حتى وإن لم يكن عاملاً بكل يأمر به أو ينهى عنه؛ لأن الإنسان معرض للخطأ وللزلل.
إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد ومحاربتة، والصلاح والإصلاح طريق العزة، وعنوان الفلاح، وسبيل إلى النجاة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦-١١٧]، "يقول: لم يكن من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا يسيراً، فإنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله عَزَّجَلَّ من عذابه، حين أخذ من كان مقيماً على الكفر بالله عذابه، وهم اتباع الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ"^(٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٨٩/٨).

(٢) الاستذكار (٧٢/٣).

(٣) تفسير الطبري (٥٢٧/١٥).

ومن سُنَّةِ الله عَزَّجَلَّ في الأمم أَنَّهُ لَا يَهْلِكُ الْقَرْىَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْىَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، يعني: مصلحون في أعمالهم، وأحكامهم، وسياساتهم، وهذا هو الأساس الأعظم لعلم الاجتماع في حياة الأمم وموتها وعزتها وذلها. ولكنه يهلكها وأهلها مفسدون في الأرض كما ثبت في آيات كثيرة.

فكان لزاماً على المصلحين من أولي الألباب والبصائر: التَّبْصِيرُ والتَّوْبِيرُ، والتَّحْذِيرُ من إفساد المفسدين، وكشف شبهات المبطلين، وشرِّهم المستطير، وخطرهم الكبير. ونحن معشر المسلمين إذا لم يُؤَسَّسْ نَحْوُضُنَا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خيرَ لنا فيه، ونحن قوم أعزنا الله عَزَّجَلَّ بالإسلام، فمهما نبتغي العزة بغير ما أعزنا الله عَزَّجَلَّ به أصابنا الذل والصغار، وصرنا أتباعاً وذيولاً للأمم الأخرى.

ومنذ أكرم الله عَزَّجَلَّ هذه الأمة ببعثة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأفواج الدعاة المصلحين يتعاقبون فيها، علماء ربانيون، ودعاة مصلحون، داعين إلى الحق، ومرشدين للخلق، حاكمين بالقسط، آمرين بالمعروف، وناهين عن المنكر، وصابرين على ما أصابهم في سبيل الدعوة وإظهار الحق.

والناس إن خلو من العلماء الربانيين تَخَطَّفَتْهُمْ شياطين الإنس والجن، وتقاذفتهم الضلالات والفتن.

وفي الحديث: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(١).

(١) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبخاري [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص: ٩٧)، الأذكار (ص: ٣٣١).



وفي رواية: «إذا رأوا المنكر»^(١).

وفي رواية: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرّون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»^(٢).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»^(٣). قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا الفقه عظيم، وهو أن الذنوب منها: ما يُعَجِّلُ الله عَزَّجَلَّ عقوبته، ومنها: ما يمهّل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من الظلمة للخلق..."^(٤).

وقد جاء في الحديث: عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها فرغاً يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثْلُ هذه»، وحَلَّقَ بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت يا رسول الله: أهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثرت الحَبَثُ»^(٥).

٤ - التواصي بالصبر: قال الله عَزَّجَلَّ في بيان رابع المنجيات من الخسران:

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(٦).

(١) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى

[١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٢١٦٩]، وأحمد [٢٩]، والترمذي [٢١٦٩]، وقال: "هذا حديث حسن".

(٤) عارضة الأحوذى (١٥/٩).

(٥) صحيح البخاري [٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥]، مسلم [٢٨٨٠].

وقال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ﴾ [البعد: ١٧-١٨].

والمراد من الصبر هنا: مطلق الصبر الذي يشمل الصبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والصبر عن معصيته، والصبر عند النوائب والمصائب التي تصيب الإنسان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، فلا يتحقق الإيمان إلا بالصبر.

ومن سنة الله عَزَّوَجَلَّ: أن أصحاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيلقون من الشدة والإيذاء ألواناً كثيرة، وهذه سنة الله عَزَّوَجَلَّ مع خيرة خلقه من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومن سار على نهجهم من أهل الصلاح والإصلاح، فقد أودوا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ فصبروا على ما كذبوا به، وعلى ما أصابهم من الإيذاء حتى أتاهم النصر من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قصصهم؛ ليكونوا قدوة لكل مؤمن يريد النجاة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَايْنِ مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۖ﴾ [١٦٦] وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۖ﴾ [١٦٧] فَكَاتَبَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وفي الحديث: عن حَبَّابِ بْنِ الْأَرْثَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله، فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى

يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله عَزَّوَجَلَّ، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» (١).

فالفطنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. والمؤمن مكلف بتحقيق شرعة الإسلام في نفسه، والنظام الإسلامي في مجتمعه على أن يتحمل في سبيل ذلك الكثير من الشدائد؛ حتى يتحقق فيه معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۖ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ولذلك قالوا: من لم يصبه البلاء والإيذاء في سبيل الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهداية العباد وإرشادهم إلى طريق الهداية فليتهم نفسه؛ فإن سنة الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق البلاء؛ لتمحيص الصادق عن الكاذب.

وأشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَام، ثم الأمثل فالأمثل، وقد صبر الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَام والمصلحون في زمن مضى على ما أصابهم من البلاء، وأخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ في العبادة والدعاء، ففرج الله عَزَّوَجَلَّ عنهم ما أصابهم، فكانوا على العهد، صابرين على ما أصابهم، وشاكرين لله عَزَّوَجَلَّ في كل حال، والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَام هم خيرة عباده الذين هداهم الله عَزَّوَجَلَّ، فكانوا قدوة لكل من اقتفى أثرهم، وسار على هديهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتُهُمْ أَقْتَدَهُ ۖ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن صبرهم وإخلاصهم في الدعاء، فقال عن نوح عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَتَّحْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۖ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٍ سَوِيًّا فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧]. وقال عن أيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وزكريا عَلَيْهِمُ السَّلَام:

(١) صحيح البخاري [٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣].



﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَلَمْ يَكُنْ مِن مَّسْنُونٍ ۚ﴾ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ۖ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ۖ وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضَبًا ۖ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ۖ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ۖ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ ۖ يَحْيَىٰ ۖ وَأَصْلَحْنَا لَهُ ۖ زَوْجَهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَدِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٣-٩٠]. فهؤلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وصفهم الله عَزَّجَلَّ بالصبر، ووصفهم كذلك بالصلاح، وهو يشمل: صلاح القلب، بمعرفة الله عَزَّجَلَّ ومحبه، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطبًا من ذكر الله عَزَّجَلَّ، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله جَلَّ وَعَلَا، وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله في رحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ونوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، فكفى بذلك شرفًا وفضلاً.

وقال الله عَزَّجَلَّ عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الشَّيْطَانِ بُنْصَبٍ وَعَذَابٍ ۚ﴾ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٩١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ ۖ أَهْلَهُ ۖ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا ۖ وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٩٢﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ ۖ وَلَا تَحْنُتْ ۖ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۖ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ ۖ أَوَّابٌ ﴿٩٣﴾ [ص: ٤١-٤٤]، "يذكر الله عَزَّجَلَّ عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما كان أصابه من البلاء، في ماله، وولده، وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكرهما الله عَزَّجَلَّ، حتى عافه الجليس، وأُفِرِدَ في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد

يَحْنُو عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتِهِ، كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ. وَيُقَالُ: إِنَّهَا احْتَأَجَّتْ فَصَارَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ، وَقَدْ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَايَةً فِي الصَّبْرِ، وَبِهِ يَضْرِبُ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ" (١).

وَفِي الْحَدِيثِ: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ»، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيَتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاءُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرَكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» (٢).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدَيَّ عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللَّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ قَالَ: «إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعِبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرِّخَاءِ» (٣).

(١) تفسير ابن كثير (٣٥٩/٥).

(٢) أخرجه الطيالسي [٢١٢]، وأحمد [١٤٨١]، وعبد بن حميد [١٤٦]، والدارمي [٢٢٥]، وابن ماجه [٤٠٢٣]، والترمذي [٢٣٩٨]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه: البزار [١١٥٤]، والنسائي في (الكبرى) [٧٤٣٩]، وأبو يعلى [٨٣٠]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٢٢٠٢]، والشاشي [٦٧]، وابن حبان [٢٩٠٠]، والحاكم [١٢١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٦٨/١)، والبيهقي في (الكبرى) [٦٥٣٤]، وفي (شعب الإيمان) [٩٣١٨]، والبعوي في (شرح السنة) [١٤٣٤]، والضياء [١٠٥٦]، وقال: "إسناده صحيح".

(٣) أخرجه ابن سعد (٢٠٨/٢)، ابن ماجه [٤٠٢٤]، واللفظ له، قال في (الزوائد) (١٨٨/٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وله شاهد من حديث: مصعب بن سعد عن أبيه، رواه الترمذي، وقال: حسن =

وفي (الصحيحين): عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فَقُلْتُ: يا رسول الله، إِنَّكَ لَتَوَعَّكُ وَغَكَّا شَدِيدًا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»، فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَلْ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَدَى، مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقُهَا»^(١).

وعن أبي عبيدة بن حذيفة، عن عمته فاطمة أنها قالت: أتينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُوذُهُ فِي نِسَاءٍ، فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَائُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ: بَلَاءُ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(٢).

وقد ذكروا في تفسير العصر أقوالاً، منها: أنه الدهر، ووجه قسمه بالدهر، أنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، ونحو ذلك، ولأن العمر لا يقاوم بشيء، فلو ضيعت ألف سنة فيما لا يعني، ثم ثبتت السعادة في اللحظة الأخيرة، بقيت في الجنة أبد الآباد، فكان أشرف الأشياء في حياتك في تلك اللحظة، ولأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم؛ فلذلك أقسم به، ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها

= صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [١٠٤٥]، والحاكم [١١٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"،

قال الذهبي: "على شرط مسلم، وله شواهد كثيرة"، كما أخرجه: أبو نعيم في الحلية (١/٣٧٠).

(١) صحيح البخاري [٥٦٤٨، ٥٦٦٠، ٥٦٦٧]، مسلم [٢٥٧١].

(٢) أخرجه أحمد [٢٧٠٧٩]، واللفظ له، والنسائي في (الكبرى) [٧٤٥٤]، والحاكم [٨٢٣١]، والبيهقي في

(شعب الإيمان) [٩٣١٩]. قال الهيثمي (٢/٢٩٢): "رواه أحمد، والطبراني في (الكبير) بنحوه، وقال فيه:

«إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء»، وإسناده أحمد حسن".

المكلف، وإليه الإشارة بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] (١).

وقد قيل: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالدَّهْرِ؛ لأن فيه عبرة للناظرين من جهة مرور الليل والنَّهَارِ على تقدير الأدوار؛ فإن في ذلك دلالة بينة على الصَّانِعِ جَلَّوَعَلَا وعلى توحيده (٢).

وقيل: المراد به عصر النبوة، وكأنه عنى به وقت حياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كأنه أشرف الأعصار؛ لتشريف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقيل: هو زمان حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما بعده إلى يوم القيامة ومقداره فيما مضى من الزمان مقدار وقت العصر من النهار ويؤذن بذلك ما رواه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَن سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ» (٣).

وشرفه لكونه زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأُمته التي هي خير أمة أخرجت للناس، كذا في (روح المعاني) (٤).

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢٧٧/٣٢)، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٣٣١/٤).

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي (٥٥١/٤)، التفسير البسيط (٢٩٥/٢٤) - (٢٩٦)، فتح القدير، للشوكاني (٦٠١/٥).

(٣) صحيح البخاري [٥٥٧، ٣٤٥٩، ٥٠٢١، ٧٤٦٧، ٧٥٣٣].

(٤) روح المعاني (٤٥٨/١٥).

قال الزجاج جَلَّوَعَلَا: "قال بعضهم: معناه: وربَّ العصر، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٣]" ^(١). قال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويدخل فيه كلُّ ما يسمى بالعصر؛ لأنه لم يقع اختصاص تقوم به حجة" ^(٢).
وقال مقاتل: "أقسم الله عَزَّجَلَّ بصلاة العصر" ^(٣)، وهي الصلاة الوسطى.
والحاصل أن العصر يطلق على الدهر، ويقال لليل: عصر، وللنهار: عصر، ويقال لليل: عصر، وللنهار: عصر، ومنه قول حميد بن ثور:
ولن يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكََا مَا تَمَنَّيَا ^(٤)
قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فيشبهه أن يكون إنما قيل لهاتين الصلاتين العصران؛ لأنهما تقعان في طرفي العصرين، وهما: الليل والنهار" ^(٥).
وقال ابن السكيت رَحِمَهُ اللَّهُ: في باب ما جاء مثني: الليل والنهار يقال لهما: العصران.
قال: ويقال: العصران: الغداة والعشي. وأنشد:
وَأَمْطُلُهُ الْعَصْرَيْنِ حَتَّى يَمْلَنِي وَيَرْضَى بِنَصْفِ الدِّينِ وَالْأَنْفُ رَاغِمٌ ^(٦)

(١) معاني القرآن وإعرابه (٣٦٠/٥).

(٢) إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس (١٧٩/٥).

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٨٢٩/٤)، الوسيط (٥٥١/٤)، البسيط (٢٩٦/٢٤).

(٤) ديوان حميد بن ثور الهلالي (ص: ٨). وانظر: إصلاح المنطق، لابن السكيت (ص: ٢٧٧)، الكامل في اللغة

والأدب، للمبرد (١٧٦/١)، معاني القرآن وإعرابه (٣٥٩/٥)، الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي

(٤٤٠/٦). و(يوم وليلة) بالرفع على البدلية - كما أثبتناه - ويروى: (يوما وليلة) بالنصب - كما في

الديوان، طبعة دار الكتب المصرية [١٣٧١هـ].

(٥) معالم السنن، لأبي سليمان الخطابي (١٣٤/١).

(٦) إصلاح المنطق (ص: ٢٧٧)، تهذيب اللغة (١١/٢)، الصحاح، للجوهري، مادة: (عصر) (٧٤٨/٢-٧٤٩)،

الحيوان (١٢١/٣).

ومنه سَمَّيت صلاة العَصْرِ. قيل: وهما: الإبرادان، وعليه وعلى ما قبله يكون القسم بواحد من الأمرين غير معين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر.

وقال مالك رَحِمَهُ اللهُ، عن زيد بن أسلم رَحِمَهُ اللهُ: هو العشي، والمشهور الأول^(١). وبناء على ما تقدم فإن المولى جَلَّوَعَلَا قد أَقَسَمَ بالزمن؛ لبيان أهمية الزمن، وعظيم خلق الله عَزَّجَلَّ، وخضوع الخلق من الزمان وغيره، للقدرة الله عَزَّجَلَّ وإرادته. وإن القصد من القسم هو أهم موضوعات الأقسام؛ لأنه يحقق أمرين هما غاية هذا المبحث، وهذان الأمران هما:

١ - تأكيد الخبر وتحقيقه.

٢ - توجيه النظر.

فالقسم من وسائل الإقناع؛ لأن الإقناع يكون بتوكيد الخبر، وطريقه القسم. ولا ريب أن تأكيد الخبر بالقسم أو بغيره من المؤكدات مما يلفت النظر إلى أهمية الأمر المؤكد؛ والتوكيد هو أحد الأساليب اللغوية التي تُستخدم من أجل تأكيد وتثبيت معنى أو أمرٍ مُعين عند القارئ أو السامع، والمقصد من ذلك: دفع التردد، وإزالة الشك، وتقدير الأمر. وللتأكيد طرق كثيرة، والقسم من أقوى هذه الطرق.

وبيان ذلك أن يقال: إن المخاطب لا يخلو من حالات ثلاث:

الأولى: أن يكون خالي الذَّهن من الحكم، وفي هذه الحال يُلقَى إليه الخبر خاليًا من أدوات التوكيد.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٨٠).

الثانية: أن يكون مُتَرَدِّدًا في ثبوت الحكم طالبًا أن يصل إلى اليقين في معرفته، وفي هذه الحال يُحْسُنُ توكيده له بمؤكد؛ ليزيل تردده.

الثالثة: أن يكون مُنْكَرًا للحكم، وفي هذه الحال يجب أن يُؤَكِّد بمؤكدٍ أو أكثر على حسب إنكاره قوَّة وضعفًا.

"فأما المؤمن فإن توكيد الكلام بالقسم يزيده طمأنينة واستيقانًا، وينزل الكلام من نفسه المنزل الأسنى.

وأما المرتاب فإن القسم يزيل ريبه، ويطرح الشك الذي في نفسه، فلا يبقى عنده تردد في ثبوت الخبر أو عدمه.

وأما الجاحد فإن القسم زيادة في تحقيق البينة، وإقامة الحجة عليه، فلا حجة بعد أن يقول: إن ما سمعته كان خيرًا من جملة ما نسمعه من الأخبار التي تطرق مسامعنا على الدوام، ولم يؤكد لي هذا الخبر أو ذاك بيمين أو قسم أحترمه وأعظمه، فورود القسم دفع لهذه الحجة الداحضة" (١).

وقد افتتح القرآن الكريم كثيرًا من السور القرآنية بالقسم، وأورد أقسامًا في ثنايا عدد غير قليل منها. وأسلوب القسم في اللغة العربية من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، فلا ريب أن أهم مقاصد القسم: توجيه النظر إلى الأمر المقسم به، وتأکید إهميته؛ إذ إن الله عَزَّجَلَّ لا يقسم إلا بعظيم من خلقه، دال ببدیع صنعہ على عظمة الخالق جَلَّوَعَلَا. ففي القسم: بيان لشرف المقسم به، وعلو قدره، حتى يعرف الناس مكانته، وبدیع خلقه، ورفعته منزلته.

(١) التبيان في أيمان القرآن، لابن القيم (١/١٣).

وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم: الشاك، ومنهم: المنكر، ومنهم: الخصم الألد، فجاء القسم في كتاب الله عَزَّجَلَّ؛ لإزالة الشكوك، وإحباط الشبهات، وإقامة الحجة، وتوكيد الأخبار؛ لتطمئن نفس المخاطب إلى الخبر، ولا سيما في الأمور العظيمة التي أقسم عليها، فيقرر الحكم في أكمل صورة.

"والقسم نوع من أنواع التوكيد عند العرب، بل هو أجملها وأعظمها؛ لأنه غاية ما يبذله المتكلم من الجهد؛ لتقوية كلامه وتثبيتته في نفس سامعه" (١).

فإن قيل: ما معنى القسم من الله عَزَّجَلَّ، فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيد؟

أجيب: بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتها: القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً.

وأجاب أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ اللهُ بِأن الله عَزَّجَلَّ ذكر القسم؛ لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر الله عَزَّجَلَّ في كتابه النوعين؛ حتى لا يبقى لهم حجة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّ إِنَّهُوَ لَحَقُّ﴾ [يونس: ٥٣]. وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُوَ لَحَقُّ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، صرخ وقال: من ذا الذي أغضب الجليل؛ حتى ألجأه إلى اليمين؟! (٢).

فأما المؤمن - كما تقدم - فإن توكيد الكلام بالقسم يزيد طمأنينة واستيقاناً، وينزل الكلام من نفسه المنزل الأسنى.

(١) المصدر السابق (١١/١).

(٢) الإتيقان (١٠٤٨/٢)، معترك الأقران (٤٥٠/١)، البرهان، للزركشي (١٢٢/٣)، مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده (٥٤٠/٢)، سبل الهدى والرشاد (٢٣/٣)، كشاف اصطلاحات الفنون (١٣١٦/٢).

وأما المرتاب فإن القسم يزيل ريبتَه، ويطرح الشك الذي في نفسه، فلا يبقى عنده تردد في ثبوت الخبر أو عدمه.

وأما الجاحد فإن القسم زيادة في تحقيق البينة، وإقامة الحجة عليه، فلا حجة بعد أن يقول: إن ما سمعته كان خبراً من جملة ما نسمعه من الأخبار التي تطرق مسامعنا على الدوام، ولم يؤكد لي هذا الخبر أو ذاك بيمين أو قسم أحترمه وأعظمه، فورود القسم دفع لهذه الحجة الداحضة.

والمقسم به في الذكر الحكيم إما أن يكون بالفاعل الحقيقي، كالقسم بذات الله عَزَّجَلَّ، وإما بالفعل، وإما بالمفعول - كما جاء ذلك مبيناً في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن) -.

وقسم الخالق جَلَّوَعَلَا بال مخلوق؛ للدلالة على عظيم قدرة الخالق جَلَّوَعَلَا، وبديع صنعه، فيستدل ببديع الصنع على عظمة الصانع، وفيه دلالة على أن المخلوق طوع إرادة الخالق جَلَّوَعَلَا.

ثانياً: قسم الله عَزَّجَلَّ بالخلق مع نهي العباد عن القسم بغير الله عَزَّجَلَّ:

فإن قيل: كيف أقسم الله عَزَّجَلَّ بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغيره؟
أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف، أي: ورب التين، ورب الشمس، وكذا الباقي.
قال قطرب رَحِمَهُ اللهُ: جائز أن يكون معناها: ورب الشمس وضحاها، ورب التين والزيتون، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝﴾ [البروج: ١].

الثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء، وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون.

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يحله وهو فوقه، والله عَزَّجَلَّ ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه، وتارة بمصنوعاته؛ لأنها تدل على باري وصانع.

وقال ابن أبي الإصبع في (أسرار الفواتح) ^(١): القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع؛ لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل؛ إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

ولله عَزَّجَلَّ أن يحلف بما شاء، أما حلف العباد بغير الله عَزَّجَلَّ فهو ضرب من الشرك، ففي الحديث: «من حلف بغير الله عَزَّجَلَّ فقد كفر أو أشرك» ^(٢).

وفي (الصحيحين): «ألا إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله، وإلا فليصم» ^(٣).

وأخرج ابن أبي حاتم: عن الحسن رَحِمَهُ اللهُ قال: إنَّ الله عَزَّجَلَّ يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله ^(٤).

(١) يعني: (الخواطر السوانح في أسرار الفواتح)، أي: في فواتح السور، لابن أبي الإصبع، المتوفى سنة [٦٥٤هـ].

(٢) أخرجه الطيالسي [١٨٩٦]، وأحمد [٦٠٧٢]، وأبو داود [٣٢٥١]، والترمذي [١٥٣٥]، وقال: "حسن"، كما أخرجه أبو عوانة [٥٩٦٧]، وابن حبان [٤٣٥٨]، والحاكم [٤٥، ١٦٩، ٧٨١٤]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي [١٩٦١٤]، والضياء [٢٠٥].

(٣) صحيح البخاري [٢٦٧٩، ٦١٠٨، ٦٦٤٦، ٧٤٠١]، مسلم [١٦٤٦].

(٤) في (تفسير ابن أبي حاتم) (٣١٨٨/١٠): "عن الحسن في قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١-٢] قال: يقسم الله عَزَّجَلَّ بما يشاء". قال ابن كثير: "الخالق يقس بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق" تفسير ابن كثير (٢٦١/٦). وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي [٣٨٧٧، ٣٨٧٧] عن سعيد بن جبيرة قال: سألت ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ١]، قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه" تفسير الطبري (٤٨/٢٤)، الدر المنثور (١٣٥/١٤).

وقال العلماء: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢]؛ لتعرف الناس عظمتَه عند الله، ومكانته لديه ^(١).

وقال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ اللهُ: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين؛ إما لفضيلة، أو لمنفعة، فالفضيلة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ ^(٢) وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينِ ^(٣) [التين: ٢-٣]، والمنفعة نحو: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ^(٤) [التين: ١] ^(٥).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قال القائل: فما مجاز القسم في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ^(٦) [الليل: ١]، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ^(٧) [البروج: ١]، ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ^(٨)، وما أشبه هذه الأشياء التي ذكرها الله جَلَّوَعَلَا في كتابه؟

(١) قال القاضي أبو بكر بن العربي: "قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ هنا بحياة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تشريفاً له، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون". أحكام القرآن (٣/١٠٥)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٩/١٠). وقال في موضع آخر: "أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿يَسَّ﴾ ^(٩) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ^(١٠). وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ^(١١) [الحجر: ٧٢]. وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها وقذح حوافرها النار من الحجر فقال: ﴿وَالْعَدِيدِ ضَبْحًا﴾ ^(١٢) [العاديات: ١] الآيات الخمس. والمقسم عليه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ^(١٣) [العاديات: ٦]، ﴿وَإِنَّهُ لَحَبِيبٌ لَشَدِيدٍ﴾ ^(١٤) [العاديات: ٨] وهو المال. وقد تبين فيما تقدم حال المال في الخير والشر، والنفع والضرر، والفائدة والخيبة" أحكام القرآن (٤/٤٤١)، وانظر: تفسير القرطبي (٢٠/١٥٤).

(٢) الإتيان (٣٥٢/٢). ونص ما قاله القشيري: "أقسم بالتين؛ لما به من عظيم المنّة على الخلق حيث لم يجعل فيه التوى، وخلصه من شائب التنغيص، وجعله على مقدار اللقمة؛ لتكمله به اللذة. وجعل في (الزَّيْتُونِ) من المنافع مثل: الاستصباح والتأدّم والاصطباغ به. ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ ^(١٥) الجبل الذي كلم الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَام عليه. ولموضع قدم الأحباب حرمة. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ^(١٦) يعني: مكة؛ ولهذا البلد شرف كبير، فهي بلد الحبيب، وفيها البيت، ولبيت الحبيب وبلد الحبيب قدر ومنزلة" لطائف الإشارات (٣/٧٤٥).



ففيها أوجه كلها قد ذكرها البصريون، فقالوا: جائز أن يكون الله عَزَّجَلَّ أقسم بها؛ لأن فيها كلها دليلاً عليه، وآيات بينات، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤].

وقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [الجاثية: ٤].

فكان القسم بهذا يدل على عظمة الله عَزَّجَلَّ.

وقال قطرب رَحِمَهُ اللهُ: جائز أن يكون معناها: ورب الشمس وضحاها، ورب التين

والزيتون، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

وقال: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا﴾ [الشمس: ٦].

وقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣].

وقالوا أيضاً: جائز أن يكون وخلق السموات والأرض، وخلق التين والزيتون.

وقالوا: يجوز أن يكون لما كان معنى القسم معنى التحقيق، وأن هذه الأشياء التي

أقسم الله عَزَّجَلَّ بها حق كلها، وكذلك ما أقسم عليه حق، فالمعنى كما أن التين والزيتون حق، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.

وأجود هذه الأقوال ما بدأنا به في أولها^(١).

والحاصل أن الله عَزَّجَلَّ يقسم بما شاء على ما شاء، وهو العالم بخصائص مخلوقاته،

فلا يقسم إلا بعظيم من خلقه، فيقسم جَلَّوَعَلَا بالملائكة، كما قيل في قوله جَلَّوَعَلَا:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، ويقسم بخلق من خلقه - جماداً كان أو نباتاً، ولم يقسم

ب حياة إنسان إلا بحياة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليعرف الناس عظمته عنده، ومكانته لديه. ولا

يقسم بذاته فحسب، وإنما بفعله ومفعولاته - كما تقدم -.

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٢٦/٣-١٢٧).

والحاصل أن الزمان هو من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه جَلَّوَعَلَا خالق كل شيء، فهو جَلَّوَعَلَا يقسم بعظيم من مخلوقاته؛ للدلالة على عظمة الخالق جَلَّوَعَلَا، وللدلالة على أهمية الزمن بالنسبة للإنسان حيث إنه الوعاء الذي يحوي عمر الإنسان، ومنه مدة التكليف، فالزمن محدود بالنسبة للإنسان في الحياة الدنيا، ينقضي بانقضاء حياته حيث لا ينفعه عمل إذا حضره الموت، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، فهو في فسحة من الأجل يختبر فيها ويمحنت، ويسجل عليه عمله في مدة التكليف، ولذلك

فالفرصة في الدنيا سانحة، ووسائل الهدى حاضرة، وباب التوبة مفتوح لكل مقصِّر أو غافل.

ولكن المقصر أو الغافل إذا دهمه الموت فإنه يتحسر على التفريط في الطاعة، وفقد الهداية، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فات، فيأتيه الجواب: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآءٌ يُدْعَىٰ فِيهَا لِكُذِّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩]، أي: إنه لا فائدة من ذلك، فقد جاءتك آياتي في الدنيا على لسان رسولي الذي أرسلته إليك، وفي كتابي الذي يتلوه عليك، ويذكرك بما فيه من وعدٍ ووعيد، وتبشير وإنذار فكذبت بها واستكبرت عن قبولها، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويستنُّ بسنتهم، ويتَّبِع مناهجهم.

وإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعلم طبيعتهم، ويعلم إصرارهم على باطلهم، ويعلم أن رجفة الموقف المفزع، ووقوفهم على النار هو الذي أنطق ألسنتهم بهذه الأمانى، وهذه الوعود، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]،



وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

والإنسان لا يعلم متى أجله، فقد يقترب حسابه وهو في غفلة يرتع ويلعب، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ① مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ③ [الأنبياء: ١-٣]، أي: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، وعلى النعم التي أنعمها عليهم ربهم في أجسامهم وعقولهم ومطاعمهم ومشاربهم، ماذا عملوا فيها؟ هل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيهِ؟ أو عصوه فخالفوا أمره فيها، وهم في هذه الحياة في غفلة عمّا يفعل الله عَزَّجَلَّ بهم يوم القيامة، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم، والتأهب له، جهلاً منهم بما هم لاقوه حينئذ من عظيم البلاء، وشديد الأهوال.

ويقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْتِلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ④ [الأنبياء: ٩٧]. وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة فيذهل، ويشخص بصره فلا يطرف، ويدعو بالويل والهلاك، ويعترف ويندم، ولكن بعد فوات الأوان.

ويقول الله عَزَّجَلَّ في بيان عاقبة الغفلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ ⑤ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑥ [يونس: ٧-٨]. فهذا نصٌّ في أَنَّ النَّارَ مأوى الغافلين عن هذه الآيات، أي: عن آياته الكونية في الآفاق، وهي حُجج الله عَزَّجَلَّ، وأدلته الدالة على وجوده وتوحيده ووحيه وشرعه، غافلون عنها، لا ينظرون فيها، ولا يفكرون فيما تدل؛ لانهماكهم في الدنيا حيث أقبلوا عليها، وأعطوها قلوبهم، وأخضعوا لها جوارحهم.

والزمان في الحياة الدنيا يفنى وينقضي، وكل من على الأرض من المخلوقات فإنه سيفنى، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وأما الزمان في الدار الآخرة فإنه باق، والحياة دائمة لا تنقطع، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿١٦٨-١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١]، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [التغابن: ٩]، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٣٣﴾﴾ [الجن: ٢٣]... إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فَيَشْرَبُونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشربون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، ثم قرأ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩]، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩] ^(١).

(١) صحيح البخاري [٤٧٣٠]، مسلم [٢٨٤٩].

ثالثًا: مواضع ودلالات القسم بالزمن في القرآن الكريم:

١ - القسم بالعصر:

وقد تقدم.

٢ - القسم بالعمر:

إن من القسم ما يكون صريحًا، ومنه ما هو غير صريح:

فالقسم الصريح: ما يعلم بمجرد لفظه كون الناطق به مقسمًا، كأحلف بالله، وأنا حالف بالله، ولعمر الله، وإيمان الله^(١).

فقولك: (لعمرك الله لأنصركن المظلوم)، ف: (اللام) للابتداء، و(عمر الله) مبتدأ ومضاف إليه، والخبر محذوف وجوبًا، تقديره: قسمي.

ومن ذلك قوله **جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** [الحجر: ٧٢]، أي: لعمرك يميني، أو قسمي.

وغير الصريح: ما ليس كذلك، نحو: علم الله، وعاهدت، وواثقت، وعليَّ عهد الله، وفي ذمتي ميثاق.

(١) قال الجوهري: "و(إيمان الله): اسم وضع للقسم، هكذا بضم الميم والنون، وهو جمع: يمين، وألفه ألف وصل عند أكثر النحويين، ولم يجر في الأسماء ألف الوصل مفتوحة غيرها، وربما حذفوا منه النون فقالوا: (أَيْمُ الله) بفتح الهمزة وكسرها. وربما أبقوا الميم وحدها فقالوا: (ثم الله)، و(م الله) - بضم الميم وكسرها -. وربما قالوا: (مُنُ الله) بضم الميم والنون، و(مَنْ الله) بفتحهما، و(من الله) بكسرها. ويقولون: (يمين) الله لا أفعل".
الصحاح، للجوهري، مادة: (يمن) (٦/٢٢٢).

فقولك: عهد الله يستعمل في القسم وفي غير القسم، تقول في القسم: عهد الله لأفعلن، وفي غيره: عهد الله يجب الوفاء به؛ فذلك يجوز ذكر الخبر، تقول: علي عهد الله^(١).

ويجب حذف الخبر بعد القسم الصريح، نحو: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، أي: لعمرك يميني، أو قسمي - كما تقدم -.

قال العلماء: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بمدة حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢]؛ لبيان مكانته ورفعة منزلته عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الآية آية عظيمة في تفضيل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، - أعني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ - جاء في التفسير أنه قسم بحياة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك أكثر التفسير، وقد جاء في بعض التفسير: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ كلمة من كلام العرب، ولست أحب هذا التفسير؛ لأن قوله: كلمة من كلام العرب لا فائدة فيه؛ لأن القرآن كله عربي مبين، وَكَلِمُهُ من كلام العرب، فلا بد من أن يقال ما مَعْنَاهَا.

وقال سيبويه والخليل رَحِمَهُمَا اللَّهُ^(٢): وَجَمِيعُ أَهْلِ اللُّغَةِ: الْعَمْرُ وَالْعُمْرُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. فإذا استعمل في القسم فتح أوله لا غير، لا تقول العربُ إلا لَعَمْرُكَ، وإنما آثروا الفتح في القسم؛ لأن الفتح أخف عليهم، وهم يكثرُونَ الْقَسَمَ بِلَعْمَرِي، وَلَعَمْرُكَ، فلما كثر استعمالهم إياه لزموا الْأَخْفَ عليهم.

وقال النحويون: ارتفع ﴿لَعَمْرُكَ﴾ بالابتداء والخبر محذوف، والمعنى: لَعَمْرُكَ قَسَمِي، وَلَعَمْرُكَ ما أَقْسَمَ بِهِ. وحذف الْخَبَرُ؛ لَأَنَّ فِي الْكَلَامِ دَلِيلًا عَلَيْهِ.

(١) انظر: شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام (١/١٢٦).

(٢) انظر: الكتاب، لسيبويه (١/٢١٠).



والمعنى: أقسم إنهم لفي سكرتهم **﴿يَعْمَهُونَ﴾** [الحجر: ٧٢]، ومعنى: **﴿يَعْمَهُونَ﴾** **﴿٧٢﴾**: يتحيرّون.

وباب القسم قد يحذف معه الفعل، تقول: والله لأفعلنّ، وتالله لأفعلنّ، والمعنى: أحلف بالله، وأحلف والله، فيحذف أحلف لعلم المخاطب بأنك حالف، وكذلك يحذف خبر الابتداء - كما ذكرنا- ^(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جَلَّ وَعَلَا بمدة حياة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" ^(٢).

وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: "قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله عَزَّجَلَّ هنا بحياة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تشريقاً له، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون" ^(٣).

وقال: قوله جَلَّ وَعَلَا: **﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** [الحجر: ٧٢] أراد به: الحياة والعيش، يقال: عُمُرٌ وَعَمُرٌ - بضم العين وفتحها - لغتان، وقالوا: إن أصلها الضم، ولكنها فتحت في القسم خاصة؛ لكثرة الاستعمال؛ والاستعمال إنما هو في غير القسم، فأما القسم فهو بعض الاستعمال؛ فلذلك صاروا لغتين. فتدبروا هذا" ^(٤). قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: **﴿لَعَمْرُكَ﴾**: «لِعِشِكَ» ^(٥).

(١) معاني القرآن وإعرابه (٣/١٨٣-١٨٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/٨٦).

(٣) أحكام القرآن (٣/١٠٥)، وانظر: تفسير القرطبي (١٠/٣٩).

(٤) أحكام القرآن، لابن العربي (٣/١٠٥).

(٥) انظر: صحيح البخاري (٦/٨٠)، (٨/١٣٥)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (٢٢/٥٠٨).

وقال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ في (القانون): "فأما الربَّ جَلَّ وَعَلَا فله أن يعظّم ما شاء من مخلوقاته، ومن تعظيمها عنده أن يقسم بها، ألا ترى أنه أقسم بحياة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إكرامًا له وتشريفًا فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾" (١).

وأخرج ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: ما حلف الله عَزَّجَلَّ بحياة أحد إلا بحياة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢). وسيأتي بيان معنى: العُمر مفصلاً في (ألفاظ الزمن).

٣ - القسم بيوم القيامة:

أ. دلالة القسم بيوم القيامة:

أقسم الله عَزَّجَلَّ بيوم القيامة؛ للتنبيه على عظيم هوله، وأنه يوم الفصل والعدل، وإفاضة فضله، وأنه يوم ينبغي أن يتهيأ له العباد بصالح بالأعمال الصالحة، فهو لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا نسب إلا من أتى الله عَزَّجَلَّ بقلب سليم، فقدم بين يديه عملاً وترك أثراً طيباً باقياً.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٣) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٤) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٥) [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

(١) قانون التأويل، لأبي بكر بن العربي (ص: ٤٩١).

(٢) تفسير الطبري (١١٨/١٧).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

ب. مواضع القسم بيوم القيامة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

* القسم بيوم القيامة في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ [القيامة: ١].

وقد أدخلت (لا) النافية على فعل القسم في بعض المواضع، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾ [القيامة: ١-٢].
وقد قيل: إن (لا) في الموضعين نافية لمحدوف يناسب المقام، والتقدير مثلاً: لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب، ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، أنكم ستبعثون.

وقيل: (لا) لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسم، أتحسب أننا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم.

وقيل: (لا) زائدة، وجواب القسم في الآية المذكورة محدوف دل عليه قوله بعد:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ [القيامة: ٣]... الخ، والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن^(٢).

(١) صحيح مسلم [١٦٣١].

(٢) قال الزمخشري: "وجواب القسم ما دل عليه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۖ﴾

[القيامة: ٣]، وهو: (لتبعثن)" الكشف (٤/٦٥٩). وقيل: الجواب: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾. وقيل: هو ﴿بَلَىٰ

قَدَرِينَ﴾ [القيامة: ٤]، وقيل: المعنى على نفي القسم، والمعنى: إني لا أقسم على شيء، ولكن أسألك: =

والتحقيق أن القسم المسبوق بالنفي هو عبارة من عبارات القسم وليست (لا) نافية - كما ادعى البعض -؛ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق؛ إذ إنه مردود بتعين المقسم به بقوله عَزَّجَلَّ: ﴿* فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]. فقد صرح بالقسم هنا، وليس بعد بيان الله عَزَّجَلَّ بيان. وتوكيد الأمر عن طريق النفي مألوف في لغة العرب، فإنك إذا قلت لصاحبك: (لا أوصيك بفلان)، فإنما تريد تأكيد الوصية، وتبالغ في الاهتمام به، فتبلغ بالنفي ما لا تبلغه من غيره، فإن نفي القسم استعمل في القسم في موضعه من طريق أكد وأبلغ.

* ومن القسم بيوم القيامة قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢] بعد قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، فاليوم الموعود هو يوم القيامة الذي وعد الله عَزَّجَلَّ عباده؛ لفصل القضاء بينهم فيه.

وقوله جَلَّوَعَلَا في الآية التالية: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]. قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشاهد: يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: يوم عرفة.

وقيل: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يعني به: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم القيامة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] ^(١).

وقيل: المراد بالشاهد: من يشهد فيه من الخلائق كلهم، وبالمشهود: ما في ذلك اليوم من عجائبه، وتنكرهما؛ للإيهام في الوصف، أي: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، أو للمبالغة. قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد اضطربت أقاويل المفسرين فيهما" ^(٢).

= يحسب الإنسان. وهذه الأقوال شاذة منكرة لا تصح. انظر: البحر المحيط في التفسير (٣٤٤/١٠)،

الدر المصون (٥٦٥/١٠)، مفاتيح الغيب (٧٢١/٣٠).

(١) معاني القرآن وإعرابه (٣٠٧/٥).

(٢) انظر: الكشف (٧٢٩/٤)، تفسير أبي السعود (١٣٥/٩).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ اللهُ: "يَحْتَمِلُ الشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ عَلَى الْأَمْرِ، أَوْ يَكُونَ مِنْ مَعْنَى الْحُضُورِ، وَحُذِفَ الْمَعْمُولُ وَتَقْدِيرُهُ: مَشْهُودٌ عَلَيْهِ أَوْ مَشْهُودٌ بِهِ أَوْ مَشْهُودٌ فِيهِ.

وقد اضطرب الناس في تفسير الشاهد والمشهود اضطراباً عظيماً، ويتلخص من أقوالهم في الشاهد ستة عشر قولاً، يقابلها في المشهود اثنان وثلاثون قولاً...^(١).

وقد روى الترمذي رَحِمَهُ اللهُ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْيَوْمَ الْمَوْعُودُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْيَوْمُ الْمَشْهُودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْهُ، فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللَّهَ بَخِيرٌ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، وَلَا يَسْتَعِيدُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْهُ»^(٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة، من طرق عن موسى بن عبيدة الربذي-وهو ضعيف الحديث-وقد روي موقوفاً على أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو أشبه"^(٣).

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٤٦٧/٢).

(٢) أخرجه الترمذي [٣٣٣٩]، وقال: "هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث: موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه. وقد روى شعبة، وسفيان الثوري، وغير واحد من الأئمة عن موسى بن عبيدة. حدثنا علي بن حجر قال: حدثنا قران بن تمام الأسدي، عن موسى بن عبيدة، بهذا الإسناد نحوه. وموسى بن عبيدة الربذي يكتفى: أبا عبد العزيز، وقد تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان وغيره من قبل حفظه".

(٣) تفسير ابن كثير (٣٦٤/٨).



والموقوف رواه أحمد رَحِمَهُ اللهُ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال في هذه الآية: ﴿وَشَهِدِ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]، قال: «الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، والموعود: يوم القيامة»^(١).

وفي (المرقاة): "تقديم اليوم المشهود في حديث: «اليوم المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة» الأنف الذكر. مع أن في القرآن: ﴿وَشَهِدِ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]، إشارة إلى أعظمية يوم عرفة وأفضليته، أو إلى أكثرية جمعيته فتشابه القيامة بالجمعية والهيئة الإحرامية، فكأنها قيامة صغرى، وهم معروضون على ربهم كالعرضة الكبرى" ^(٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "يعني: أنه جَلَّ وَعَلَا عظم شأنه في سورة البروج، حيث أقسم به، وأوقعه واسطة العقد لقلادة اليومين العظيمين، ونكره لضرب من التفخيم، وأسند إليه الشهادة على سبيل المجاز؛ لأنه مشهود فيه، نحو: نهاره صائم، وليله قائم، يعني: وشاهد في ذلك اليوم الشريف الخلائق؛ لتحصيل السعادة الكبرى" ^(٣).

قال القاري رَحِمَهُ اللهُ: "والأظهر أنه يشهد لمن حضره من المصلين، والذاكرين، والداعين، وسيأتي أنه مشهود تشهده الملائكة فهو شاهد ومشهود، كما قيل في حقه تعالى: هو الحامد وهو المحمود" ^(٤).

والحاصل أن القسم بيوم القيامة للتنبيه على عظيم هوله، وأنه يوم الفصل والعدل، وإفاضة فضله.

(١) أخرجه أحمد [٧٩٧٣].

(٢) مرقاة المفاتيح (١٠١٧/٣-١٠١٨).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٢٦٧/٤).

(٤) مرقاة المفاتيح (١٠١٨/٣).

٤ - القسم بالصبح:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر: ٣٤].

﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٨].

وسياقي تفسير كلٍّ من: (الصبح)، و(الإسفار)، و(تنفس الصبح) في بيان ألفاظ الزمن.

٥ - القسم بالفجر:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر: ١-٣].

قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: "قسم أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به، وهو انفجار الصبح من أفق المشرق. وفي قسم الله عَزَّوَجَلَّ بالفجر أربعة أقاويل: أحدها: أنه عني به النهار، وعبر عنه بالفجر؛ لأنه أوله. الثاني: أن الفجر الصبح الذي يبدأ به النهار من كل يوم. الثالث: أنه عني به صلاة الصبح. الرابع: أنه أراد به فجر يوم النحر خاصة" (١).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "الفجر: انفجار الصبح من الليل، وجواب القسم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ١٤]" (٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر: ٣٤]، ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٨]. وقيل: بصلاة الفجر" (٣). وسياقي بيان معنى: (الفجر) مفصلاً في (ألفاظ الزمن).

(١) النكت والعيون (٦/٢٦٤-٢٦٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٢١).

(٣) الكشاف (٤/٧٤٦).



وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْفَجْرِ ۝﴾ [الفجر: ١] (الواو) حرف قسم وجر، و(الفجر) مجرور بواو القسم، والجار والمجرور متعلقان بأقسم.

وجواب القسم في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْفَجْرِ ۝﴾ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾ [الفجر: ١٤] ^(١). قاله الزجاج ^(٢) - كما تقدم - وابن الأنباري، والعكبري ^(٣)، والفيروزآبادي ^(٤)، والكرماني ^(٥)، وأبي عمرو الداني رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٦)، وينسب للخليل بن أحمد الفراهيدي رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٧).

وعند الحاكم: عن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ: «﴿وَالْفَجْرِ ۝﴾ قَالَ: قَسَمُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾» ^(٨)، والمعنى: أن هذا جواب القسم ^(٩).

وفي (تفسير الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ): "واعلم أن في جواب القسم وجهين:

الأول: أن جواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾ وما بين الموضعين معترض بينهما.

(١) فالجملة لا محل لها؛ لأنها تعليل لما قبلها، و(إن) واسمها، و(اللام المرحلة) و(المرصاد) متعلقان بمحذوف خبر (إن).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٣٢١/٥).

(٣) انظر: التبيان في إعراب القرآن (١٢٨٥/٢).

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز (١١٦/١)، البحر المحيط في التفسير (٤٧١/١٠)، الدر المصون (٧٧٧/١٠)، الجواهر الحسان (٥٨٦/٥)، تفسير القرطبي (٤٣/٢٠).

(٥) انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة الكرماني (١٣٣٨/٢).

(٦) انظر: المكتفى في الوقف والابتداء (ص: ٢٣٤).

(٧) انظر: الجمل في النحو، المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي (ص: ٢٠٩).

(٨) أخرجه الحاكم في (مستدركه) [٣٩٣٠]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات) [٩١٤].

(٩) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٥٠٧/٢٣).

الثاني: قال صاحب (الكشاف) رَحِمَهُ اللَّهُ: والمقسم عليه محذوف، وهو (لِيُعَذَّبَنَّ)، يدل عليه: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفجر: ٦] إلى قوله: ﴿قَصَبَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣] ^(١).

وهذا أولى من الوجه الأول؛ لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك" ^(٢).

وقدره أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ بما دَلَّتْ عليه خاتمة السورة قبله. قال: "والذي يظهر أن الجواب محذوف يدل عليه ما قبله من آخر (سورة الغاشية)، وهو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ^(٣) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]. وتقديره: لإيابهم إلينا، وحسابهم علينا" ^(٣).

والوجه في القول الأول: كونه محتملاً، ودلالة ما جاء عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليه؛ ولأن عدم التقدير أولى من التقدير، لكن قد يقال هذا عند عدم وجود نكتة على القول بحذف الجواب، وما ذكره جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ يتقوى لبلاغته؛ من حيث كونه أدخل في التخويف - كما تقدم -.

ويترجح قول الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ على قول أبي حيان رَحِمَهُ اللَّهُ من حيث عموم التقدير المستنبط من آيات السورة نفسها، والذي يقويه التناسب بين خاتمة السابقة والآيات في مطلع السورة اللاحقة.

(١) الكشاف (٤/٧٤٧).

(٢) تفسير الرازي (٣١/١٥٢).

(٣) البحر المحيط في التفسير (١٠/٤٧١)، وانظر: الدر المصون (١٠/٧٧٧).



والقول بالمناسبة بناء على ذلك قول حسن يبرز روعة التناسق بين سور القرآن الكريم.

وقد ضَعَفَ ابنُ القيم رَحْمَهُ اللهُ أَنْ يكون جواب القسم قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، قال: "وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام، والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

والثاني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ذكر لتقرير عقوبة الله عَزَّجَلَّ الأمم المذكورة، وهي: عاد، وثمود، وفرعون، فذكر عقوبتهم، ثم قال مقررًا ومحددًا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ فلا ترى تعلقه بذلك دون القسم.

وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله عَزَّجَلَّ المتضمنة خضوع العبد لربه جَلَّ وَعَلَا؛ فإن الحج والنسك عبودية محضة لله عَزَّجَلَّ، وذل وخضوع لعظمته، وذلك ضد ما وصف به عادًا، وثمود، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر؛ فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله عَزَّجَلَّ وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم.

قال: فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عَزَّجَلَّ به ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ١٦ إن أريد به جنس الفجر، فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح التي هي أول الصلوات، فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ ١٧ المتضمن لآخر الصلوات، وإن أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر وليلته التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام.



قال: وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله عَزَّجَلَّ، والخضوع له، والتواضع لعظمته، بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله عَزَّجَلَّ وحده، بل يشركون به ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة. وذكر جَلَّوَعَلَا من جملة هذه الأقسام: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ۚ﴾، إذ هذه الشعائر المعظمة منها: شفع، ومنها: وتر في الأمكنة والأزمنة والأعمال فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر. وأما الأعمال فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل؛ فإن الله عَزَّجَلَّ وتر يحب الوتر، والصلاة منها: شفع، ومنها: وتر.. الخ.

إلى أن قال: فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كان في ذلك ما دل على المقسم عليه؛ ولهذا اعتبر القسم بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝﴾ [الفجر: ه]؛ فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة، وذلك يحتاج إلى حجر بحجر صاحبه عن الغفلة، واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كعاد وفرعون وثمود.. إلى آخر ما ذكره^(١).

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٧-٣٣).

حاصل ما قيل في الجواب، والتعقيب على أورده ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وحاصل ما قيل في الجواب:

١ - قيل إن الجواب المذكور، وهو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ١٤ قاله غير واحد.

٢ - قيل جواب القسم محذوف؛ لدلالة المعنى عليه، أي: ليجازي كل واحد بما عمل، بدليل ما فعل بالقرون الخالية.

وقدَّره الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: (لِيُعَذِّبَنَّ)، قال: يدل عليه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفجر: ٦] إلى قوله: ﴿فَصَبَّ﴾ [الفجر: ١٣].

وقدَّره أبو حيَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: بما دلت عليه خاتمة السورة قبله، أي: لإياهم إلينا، وحسابهم علينا.

٣ - قال مقاتل: ﴿هَلْ﴾ [الفجر: ٥] هنا: في موضع: (إِنَّ) تقديره: إِنَّ في ذلك قسمًا لذي حجر، فـ: ﴿هَلْ﴾ على هذا في موضع جواب القسم. انتهى ^(١). وفي (البحر): "قول مقاتل لم يصدر عن تأمل، لأن المقسم عليه على تقدير أن يكون التركيب: (إن في ذلك قسمًا لذي حجر) لم يذكر، فيبقى قسم بلا مقسم عليه؛ لأن الذي قدره من (أن في ذلك قسمًا لذي حجر) لا يصح أن يكون مقسمًا عليه" ^(٢).

وقال الشيخ شهاب الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا قول باطل؛ لأنه لا يصلح أن يكون مقسمًا عليه تقدير تسليم أنَّ التركيب هكذا، وإنما ذكرناه؛ للتنبيه على سقوطه" ^(٣).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤٣/٢٠).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٤٧١/١٠).

(٣) الدر المصون (٧٧٧/١٠).

أما كون الجواب محذوفاً ومقدراً فلا يرد عليه اعتراض ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ من التقابل بين ما تضمن القسم من المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، والخضوع له، والتواضع لعظمته، وبين حال المشركين المتكبرين المشابه لحال من ذكر في هذه السورة، وهو لا ينهض؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقسم بالشيء وما يقابله، فيقع القسم بالليل والنهار، وبالفجر والليالي، ونحو ذلك؛ لأن الشيء يذكر بذكر ضده.

وهل في الكلام دلالة على ذلك الكلام المقدر؟

ذكر الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ -مثلاً- أن في الكلام دلالة على ذلك الكلام المقدر؛ إذ إن قوله: إن الجواب: (لَيُعَذَّبَنَّ)، وهو مستفاد من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفجر: ٦] إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]، فالدلالة على الجواب بينة، ثم إن قدر بأن يجازى كلُّ على ما عمل، فيعذب من يعذب، ويثاب من يثاب، فيه دلالة كذلك من ذلك حال الكفار ويفهم مما يقابله حال ما أطاع واتقى، كما يتقوى بذكر التناسب الأنف الذكر، وقد تقدم أن القول بالمناسبة بين سور القرآن الكريم قول حسن يبرز روعة التناسق. ولا يرد الاعتراض إلا إذا كانت النكتة غير ظاهرة على القول بأن الجواب محذوف ومقدر، وقد ذكرنا من قبل النكتة في ذلك التقدير، وبأنه إذا لم يذكر المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك.

كما لا ينهض تضعيفه للقول الأول، وقد تقدم ذكر الوجه فيه؛ إذ إن تأخر الجواب في الآيات لا يضر، وهو كثير في كلام العرب، ولا سيما مع ترابط المعنى، ووجود نكتة مسوغة من نحو: التشويق إلى الجواب.. إلى غير ذلك مما تقدم بيانه.

ومحصل الكلام إن قلنا: إن جواب القسم مذكور فلذلك وجه قد بيناه، وإن قلنا: إنه محذوف مقدر، فله وجه قد بيناه، ويبقى النظر في ترجيح أحد القولين على الآخر - كما تقدم-.

٦ - القسم بالليالي العشر:

وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾ [الفجر: ٢]. فقليل هو قسم ثانٍ معطوف على الأول؛ أي: أقسم بليال عشر من أول شهر ذي الحجة، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وتنكيرها للتعظيم؛ لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها.

قال: وفيه أربعة أقاويل:

أحدها: هي عشر ذي الحجة.

الثاني: هي عشر من أول المحرم، حكاه الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثالث: هي العشر الأواخر من شهر رمضان.

الرابع: هي عشر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي أتمها الله عَزَّجَلَّ له ^(١).

وهي عشر ذي الحجة في قول جمهور المفسرين ^(٢)، وتنكيرها للتعظيم ^(٣).

(١) انظر: النكت والعيون (٢٦٥/٦)، تفسير الطبري (٣٩٦/٢٤)، أحكام القرآن، لابن العربي (٣٨٦/٤).

(٢) انظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (ص: ٤٩)، تفسير عبد الرزاق (٤٢٢/٣)، معاني القرآن وإعرابه (٣٢١/٥)، تفسير الطبري (٣٩٦/٢٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣٤٢٣/١٠)، التفسير البسيط (٤٨٥/٢٣)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤٧٨/٤-٤٧٩)، الدر المنثور (٥٠٠-٥٠٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (٤٧٨/٢)، روح المعاني (٣٣٤/١٥).

(٣) انظر: الكشف (٧٤٦/٤)، تفسير البيضاوي (٣٠٩/٥).

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَالْفَجْرِ ۝﴾ [الفجر: ١] قال: «فجر النهار»،
﴿وَلَيْالٍ عَشْرٍ ۝﴾ [الفجر: ٢]، قال: «عشر الأضحى»^(١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن العشر: عشر الأضحى،
والوتر: يوم عرفة، والشفع: يوم النحر»^(٢).

وروى الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: عن الأسود بن يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْفَجْرِ ۝﴾ قال:
هو فجركم هذا. ﴿وَلَيْالٍ عَشْرٍ ۝﴾ قال: عشر الأضحى^(٣).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الليالي العشر فهي عشر ذي الحجة، هذا
الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين من السلف وغيرهم، وهو الصحيح عن ابن عباس
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا روي عنه من غير وجه" ^(٤).

(١) أخرجه الحاكم [٣٩٢٧]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان)
[٣٤٧٢].

(٢) أخرجه أحمد [١٤٥١١]، النسائي في (الكبرى) [١١٦٠٨]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٢٢٨٦]،
قال الهيثمي (١٣٧/٧): "رواه البزار، وأحمد، ورجاهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة"،
وأخرجه أيضاً: الحاكم [٧٥١٧]، وقال: "صحيح على شرط"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في
(شعب الإيمان) [٣٤٦٨]. وقد أعل البعض الحديث بعننة أبي الزبير، حيث لم يصرح بسماعه من جابر.
قال ابن كثير في (التفسير) (٣٩١/٨): "هذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة
-والله أعلم-".

(٣) معاني القرآن، للفراء (٢٥٩/٣).

(٤) لطائف المعارف (٢٦٨/١).



وفي السنة بيان فضيلة عشر ذي الحجة، وعشر رمضان كما هو معلوم؛ فإن جعل
الفجر خاصاً بيوم النحر، كان عشر ذي الحجة أقرب للسياق ^(١)، وسيأتي بيان فضل
عشر ذي الحجة، والعشر الآخر من شهر رمضان في (الأزمة الفاضلة).

*** **

٧ - القسم بالشفع والوتر:

وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ۚ﴾ [الفجر: ٣] فهذا قسم ثالث، حكى الماوردي
رَحِمَهُ اللَّهُ في معناه تسعة أقاويل ^(٢):

ف قيل: إن المراد من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالشَّفْعَ﴾: الصلاة؛ فإن فيها: شفعاً، ووترًا.

وقيل: المراد: صلاة المغرب شفعها ركعتان، ووترها الثالثة.

وقيل: الشفع: يوم بالنحر، ﴿وَالْوَتْرَ﴾: يوم عرفة.

وقيل: الشفع: يوما منى، ﴿وَالْوَتْرَ﴾: ثالثهما.

وقيل: الشفع عشر ذي الحجة ﴿وَالْوَتْرَ﴾: أيام التشريق.

وقيل: الشفع: جميع الخلق: كالأرض، والسماء، والحيوان، والنبات؛ للازدواج فيه

للازدواج فيه، كما روي عن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا

زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاء والسعادة، والهدى والضلالة، والليل

والنهار، والسماء والأرض، والجن والإنس، والبر والبحر، والشمس والقمر، وبكرة وعشية،

(١) انظر: تنمة أضواء البيان (٥٢١/٨).

(٢) انظر: النكت والعيون (٢٦٥-٢٦٦).

ونحو هذا كله، والوتر: الله عَزَّوَجَلَّ^(١)؛ لأنه لا مثيل له، فهو بمعنى: الواحد الأحد. فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بذاته وخلقه.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "وهو الذي ذكره البخاري رَحِمَهُ اللهُ في (صحيحه)^(٢)؛ فإنه يعتمد قول مجاهد رَحِمَهُ اللهُ؛ لأنه أصح التفسير، قال الثوري رَحِمَهُ اللهُ: إذا جاءك التفسير عن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ فحسبك به، واختاره الشيخ مجد الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ"^(٣).

وقيل: الخلق كله شفع ووتر. فجميع الموجودات من الذوات والمعاني؛ لأنها لا تخلو من شفع ووتر.

وقيل: الشفع آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَام؛ لأنه كان وترًا فشفع بها فصار شفعا بعد وتر. وقيل: العدد لأن جميعه شفع ووتر.

فهذه أقوال تسعة.

أما الترجيح بين هذه الأقوال فقد تقدم أن الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ قد رجَّح قول مجاهد رَحِمَهُ اللهُ الآنف الذكر.

وفي (العين): "الشَّفْع: ما كان من العدد أزواجًا. تقول: كان وترًا فشفعته بالآخر حتى صار شفعا، وفي القرآن: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾^(٤)، الشفع: يوم النحر، ﴿وَالْوَتْرَ﴾^(٥): يوم عرفة.

ويقال: الشفع الحصى، يعني: كثرة الخلق، والوتر الله عَزَّوَجَلَّ^(٦).

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٩٨/٢٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٨٣٤٢٤/١٠)، تفسير ابن كثير (٣٩٢/٨)، الدر المنثور (٦٢٣/٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري (١٣١/٤).

(٣) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٥٤٩/٢).

(٤) العين، مادة: (شفع) (٢٦٠/١)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه (٣٢١/٥).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر، ولم يخص نوعاً من الشفع، ولا من الوتر دون نوع بخبر ولا عقل، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل: إنه داخل في قسمه هذا؛ لعموم قسمه بذلك" (١).

وقال محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "تنكير: ليال، وتعريف الشفع والوتر مشير إلى أن الليالي العشر ليال معينة، وهي عشر ليال في كل عام، وتعريف الشفع والوتر يؤذن بأتهما معروفان، وبأتهما الشفع والوتر من الليالي العشر. وفي تفسير الشفع والوتر أقوال ثمانية عشر (٢)، وبعضها متداخل، استقصاها القرطبي رَحِمَهُ اللهُ، وأكثرها لا يحسن حمل الآية عليه؛ إذ ليست فيها مناسبة للعطف على ليال عشر" (٣).

وهو الأقرب إلى الصواب؛ لدلالة السياق والروايات عليه، كما جاء مبيناً في المعنى المراد من الليالي العشر - الآنف الذكر -.

*** **

٨ - القسم بالليل إذا يسر:

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ [الفجر: ٤] قَسَمَ رابع، وقد حكى الماوردي رَحِمَهُ اللهُ في معناه ثلاثة أوجه:

أحدها: هي ليلة القدر؛ لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها.

الثاني: هي ليلة المزدلفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

(١) تفسير الطبري (٤٠٠/٢٤).

(٢) وقد تقدم أنها تسعة أقوال.

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٣١٤-٣١٥).



الثالث: أنه أراد عموم الليل كله.

وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا يَسِرُّ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: إذا أظلم.

الثاني: إذا سار؛ لأن الليل يسير بمسير الشمس والفلك، فينتقل من أفق إلى أفق.

ومنه قولهم: جاء الليل وذهب النهار.

الثالث: إذا سار فيه أهله؛ لأن السرى سير الليل (١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ أي: والليل إذا سار فذهب،

يقال منه: سرى فلان ليلاً يَسِرُّ: إذا سار. وقال بعضهم: غُيِّيَ بقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾

﴿١﴾: ليلة جَمَعَ، وهي ليلة المزدلفة" (٢).

وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ بالياء في الوصل،

وأثبتها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في الوقف؛ لأن الياء لام الفعل من سرى يسري، مثل: قضى

يقضي، فوقف على الأصل.

ومن أثبت الياء في الوصل وحذف في الوقف تبع المصحف في الوقف، والأصل

في الوصل، وحذفها أهل الشام والكوفة، والكسرة تنوب عن الياء (٣).

قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد قرأ القراء: ﴿يَسِرُّ﴾ بإثبات الياء، و﴿يَسِرُّ﴾ بحذفها،

وحذفها أحب إلي لمشاكلتها رؤوس الآيات، ولأن العرب قد تحذف الياء، وتكتفي بكسر

ما قبلها منها" (٤).

(١) انظر: النكت والعيون (٦/٢٦٦-٢٦٧).

(٢) تفسير الطبري (٤٠١/٢٤).

(٣) حجة القراءات، لأبي زرعة بن زنجلة (١/٧٦١).

(٤) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٦٠).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأما ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾^(١) فحذفت الياء؛ لأنها رأسُ آية، ورؤوس الآي الحذف جائز فيها كما يجوز في آخر الأبيات.

و﴿إِذَا يَسْرِ﴾^(٢): إذا مَضَى. وقد قرئت: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِي﴾ بإثبات الياء. واتباع المصحف وحذف الياء أَحَبُّ إِلَيَّ؛ لأن القراءة بذلك أكثر. ورؤوس الآي فَوَاصِلُ تحذف معها الياءات، وتدل عليه الكسرات"^(٣).

قال الثعالبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "العرب تزيد وتحذف؛ حفظاً للتوازن، وإيثاراً له، أما الزيادة فكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾^(٤) [الأحزاب: ١٠]، وكما قال: ﴿فَأَصْلُونَا السَّبِيلَا﴾^(٥) [الأحزاب: ٦٧].

وأما الحذف فكما قال جَلَّ اسمُه: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾^(٦) [الفجر: ٤]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(٧) [الرعد: ٩]، وقال: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾^(٨) [غافر: ٣٢]، و﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾^(٩) [غافر: ١٥]"^(٢). وقال جَارُ اللَّهِ الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم ﴿إِذَا يَسْرِ﴾^(١٠): إذا مَضَى، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾^(١١) [المدثر: ٣٣]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾^(١٢) [التكوير: ١٧]"^(٣).

وسياقي بيان معنى: (السُّرَى) -مفصلاً- في ألفاظ الزمن.

(١) معاني القرآن وإعرابه (١٢٥/٢)، (٣٢١/٥).

(٢) فقه اللغة وسر العربية (ص: ٢٣١).

(٣) الكشف (٧٤٦/٤).

وجه الحكمة من القسم بهذه الأزمان:

وقد ذكر الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ وجه الحكمة من القسم بهذه الأزمان، حيث قال: "القسم بهذه الأزمان من حيث إن بعضها دلائل بديع صنع الله عَزَّوَجَلَّ، وسعة قدرته فيما أوجد من نظام يظهر بعضه بعضاً، من ذلك: وقت الفجر الجامع بين انتهاء ظلمة الليل وابتداء نور النهار، ووقت الليل الذي تمحضت فيه الظلمة. وهي مع ذلك أوقات لأفعال من البر وعبادة الله عَزَّوَجَلَّ وحده، مثل: الليالي العشر، والليالي الشفع، والليالي الوتر.

والمقصود من هذا القسم: تحقيق المقسم عليه؛ لأن القسم في الكلام من طرق تأكيد الخبر إذ القسم إشهاد المقسم ربه جَلَّوَعَلَا على ما تضمنه كلامه. وقسم الله عَزَّوَجَلَّ متمحض لقصد التأكيد" (١).

*** **

٩ - تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ۖ﴾ [الفجر: ٥]:

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ۖ﴾ [الفجر: ٥]، أي: لذي عقل ولبٍّ، ومعنى الاستفهام في الآية: التفخيم والتعظيم للأمور المقسم بها (٢).

وقد حكى الماوردي رَحِمَهُ اللهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِذِي حِجْرِ ۖ﴾ خمسة أقاويل: أحدها: لذي عقل. الثاني: لذي حلم. الثالث: لذي دين. الرابع: لذي ستر. الخامس: لذي علم.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣١٢).

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٧٣/٢)، إصلاح المنطق (ص: ٢٠)، الصحاح، للجوهري، مادة: (حجر)

(٢/٦٢٣)، معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٢١).

والحجر: المنع، ومنه اشتق اسم الحجر؛ لامتناعه بصلابته؛ ولذلك سميت الحجرة؛ لامتناع ما فيها بها، ومنه سمي حجر المولى عليه لما فيه من منعه عن التصرف، فجاز أن يحمل معناه على كل واحد من هذه التأويلات؛ لما يضمنه من المنع.

وقال مقاتل (هل) ها هنا في موضع إنَّ، وتقدير الكلام: إن في ذلك القسم كفاية لذي اللب، يعني: ذا عقل^(١).

وقيل: "هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه" قاله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ^(٢). قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "أي: في ذكر مثله أيضاً تعظيم، لأنه نحو قولك: مثلك يجود، والمعنى: قسم عظيم مكف ومقنع في القسم"^(٣). قال في (التفسير الكبير): "المراد منه: التأكيد كمن ذكر حجة باهرة، ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ والمعنى: أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله عَزَّجَلَّ به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به؛ لدلالته على خالقه جَلَّوَعَلَا"^(٤).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "الحجر: العقل؛ لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي، كما سمي عقلاً ونهى؛ لأنه يعقل وينهى. وحصة: من الإحصاء، وهو الضبط"^(٥).

وقال الفراء رَحِمَهُ اللهُ: "يقال: (إنه ل ذو حجر): إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، كأنه أخذ من قولك: حجرت على الرجل"^(٦).

(١) انظر: النكت والعيون (٢٦٧/٦)، تفسير مقاتل (٦٨٧/٤).

(٢) الكشف (٧٤٧/٤)

(٣) حاشية الطيبي على الكشف (٤٢١/١٦).

(٤) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) (١٥١/٣١).

(٥) الكشف (٧٤٧/٤).

(٦) معاني القرآن، للفراء (٢٦٠/٣).

وعلى هذا سمي العقل حجراً؛ لأنه يمنع من القبيح، من الحجر، وهو المنع من الشيء بالتضييق فيه.

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: "يقول تعالى ذكره: هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حجر، وإنما عُني بذلك: إن في هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه جَلَّوَعَلَا، مما هو أغلظ منه في الإقسام. فأما معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِذِي حِجْرٍ ۝﴾ [الفجر: ٥]: فإنه لذي حِجْرٍ وذو عقل؛ يقال للرجل إذا كان مالكا نفسه قاهراً لها ضابطاً: إنه لذو حِجْرٍ، ومنه قولهم: حَجَرَ الحاكم على فلان" (١).

*** **

١٠ - الْقَسَمُ بِالْشَّفَقِ:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝﴾ [الانشقاق: ١٦].
وسياقي ذكر المعنى مفصلاً في بيان معنى: (الشفق) من ألفاظ الزمن.

*** **

١١ - الْقَسَمُ بِالضُّحَى:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝﴾ [الشمس: ١].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالضُّحَى ۝﴾ [الضحى: ١].
وقد تقدم القول في المقسم به في القرآن الكريم.
وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝﴾ قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: "هذان قسمان: قَسَمٌ بالشمس، وقَسَمَ بضحائها.

(١) تفسير الطبري (٤٠٢/٢٤).



وفي ضحاها أربعة أوجه: أحدها: هو إشراقها. الثاني: هو انبساطها. الثالث: حرها. الرابع: هذا النهار. ويحتمل خامساً: أنه ما ظهر بها من كل مخلوق، فيكون القسم بها وبالمخلوقات كلها" (١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: "أقسم ربنا تعالى ذكره بالشمس وضحاها؛ ومعنى الكلام: أقسم بالشمس، وبضحى الشمس.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَضُحَاهَا ۝١﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: والشمس والنهار، وكان يقول: الضحى: هو النهار كله. وقال آخرون: معنى ذلك: وضوئها.

قال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: أقسم جلَّ ثناؤه بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهرة هو النهار" (٢).

وقد قيل: إنما أقسم الله عَزَّجَلَّ بالشمس وضحاها؛ لكثرة ما تعلق بها من المصالح؛ فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها (٣).

وسياقي ذكر معنى: (الضحى) مفصلاً في ألفاظ الزمن.

*** **

(١) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٢٨١/٦).

(٢) تفسير الطبري (٤٥١/٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١٧٤/٣١).



١٢ - القسم بالليل والنهار:

أ. القسم بالليل:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر: ٣٣].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾ [التكوير: ١٧].

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ [الانشقاق: ١٧].

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ٢].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ۝٤﴾ [الفجر: ٤].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ [الشمس: ٤].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ [الليل: ١].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ٢].

*** **

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر: ٣٣]،

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وابن عامر، والكسائي رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ ۝٣٣﴾ بفتح الدال (١).

وقال الفراء والزجاج رَحِمَهُمَا اللَّهُ هما لغتان: دبر النهار، وأدبر. ودبر الصيف وأدبر،

وكذلك قِيلَ وأقبل.

(١) انظر: معاني القراءات للأزهري (١٠٣/٣)، الحجة للقراء السبعة (٣٣٨/٦-٣٣٩)، السبعة في القراءات

(ص: ٦٥٩)، تهذيب اللغة (٧٩/١٤).

قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: وهما لغتان: دبر النهار، وأدبر ودبر الصيف وأدبر، وكذلك قبل وأقبل، فإذا قالوا: أقبل الراكب أو أدبر، لم يقولوا إلا بالألف. قال: وإنهما عندي في المعنى لواحد لا أبعد أن يأتي في الرجال ما أتى في الأزمنة.

وقيل: معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَّرَ﴾ (٣٣): جاء بعد النهار كما تقول حَلَفَ، يقال: خلفني فلان ودبرني أي: جاء بعدي، ومن قرأ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَّرَ﴾ (٣٣) فمعناه: ولَّى ليذهب (١).

وقال الأخفش رَحِمَهُ اللَّهُ: "دَبَّرَ في معنى: أدبر، يقولون: (قَبَّحَ اللَّهُ ما قَبَلَ مِنْهُ وما دَبَّرَ)" (٢).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكلاهما جَيِّدٌ في العربية. قال: وقد قرئت أيضاً بإثبات الألف فيهما" (٣).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "والصواب من القول في ذلك عندي أنهما لغتان بمعنى، وذلك أنه محكي عن العرب: (قَبَّحَ اللَّهُ ما قَبَلَ مِنْهُ وما دَبَّرَ). وأخرى أن أهل التفسير لم يميزوا في تفسيرهم بين القراءتين، وذلك دليل على أنهم فعلوا ذلك كذلك؛ لأنهما بمعنى واحد" (٤).

والحاصل أن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَّرَ﴾ (٣٣) فيه وجهان: أحدهما: إذ ولَّى. والثاني: إذ أقبل عند إدبار النهار.

(١) انظر: تهذيب اللغة (٧٩/١٤)، معاني القرآن، للفراء (٢٠٤/٣).

(٢) معاني القرآن، للأخفش (٥٥٥/٢).

(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٤٨/٥).

(٤) تفسير الطبري (٣٢/٢٤ - ٣٣).

واختلف في (أدبر) و(دبر) على قولين: أحدهما: أنهما لغتان ومعناها واحد، قاله الأخفش وغيره. الثاني: أن معناه مختلفان، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه دبر: إذا خلفته خلفك، دبرني، أي: جاء خلفي، ودبر الليل، أي: جاء بعد النهار، قال قطرب رَحِمَهُ اللَّهُ: فعلى هذا معنى إذا دبر: إذا أقبل بعد مضي النهار. وأدبر: إذا ولى أمامك، قاله أبو عبيدة وابن قتيبة رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

الثاني: أنه دبر: إذا جاء بعد غيره وعلى دبر، وأدبر: إذا ولى مدبراً، قاله ابن بحر رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

*** **

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير: ١٧] فإن فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أظلم، والثاني: إذا ولى، والثالث: إذا أقبل.

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال عَسَّسَ الليل: إذا أَقْبَلَ، وَعَسَّسَ: إذا أَدْبَرَ، والمُعْنِيَانِ يرجعان إلى شيءٍ واحدٍ، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره"^(٢). فهو من الأضداد. قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ﴾ [٧] قال بعضهم: إذا أقبلت ظلماته، وقال بعضهم: إذا ولى ألا تراه قال: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]..^(٣)

وقال قطرب رَحِمَهُ اللَّهُ: "قالوا: عَسَّسَ الليلُ عَسَّسَةً. وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ﴾ [٧] أي: أظلم. وقال بعضهم: عَسَّسَ: وَلَّى، وهذا من الأضداد"^(٤).

(١) انظر: النكت والعيون (١٤٦/٦)، مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٧٥-٢٧٦)، الكشاف (٦٥٣/٤)، مفاتيح الغيب (٧١٣/٣٠)، غريب القرآن، لابن قتيبة (ص: ٤٩٧)، التحرير والتنوير (٣٢٢-٣٢٣).
 (٢) معاني القرآن وإعرايه (٢٩٢/٥).
 (٣) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٧/٢).
 (٤) الأزمنة وتلبية الجاهلية (٥١/١).

*** **

وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ [الانشقاق: ١٧]. فسيأتي في بيان معنى: (الشفق والوسق) في ألفاظ الزمن.

*** **

وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ عَشْرِ ٢﴾ [الفجر: ٢]. فقد تقدم بيانه.

*** **

* وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ٥﴾ [الفجر: ٤-٥] فقد تقدم بيانه.

*** **

ومن القسم بالليل: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٤﴾ [الشمس: ٤].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ٥﴾ [الليل: ١].

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٤﴾ من الغشاوة، أي: والليل إذا يغشي الشمس، حتى تغيب فَتُظْلِمُ الْآفَاقُ^(١). قال مقاتل: يعني: تغشى ظلمته ضوء النهار^(٢).

وضمير المفعول للشمس، وضمير الفاعل لليل على الأصح. قال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

"الضمير في ﴿يَغْشَاهَا ٤﴾ للشمس بلا خلاف، كذلك في ﴿جَلَّوَعَلَا ٣﴾ يجب أن يكون للشمس، فيكون الضمير في الفواصل من أول السورة إلى هنا للشمس"^(٣).

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٥٣/٢٤)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٣٥/٥)، الكشاف (٧٥٨/٤)، التسهيل (٤٨٦/٢).

(٢) تفسير مقاتل (٧١١/٤)،

(٣) التفسير البسيط، للواحدي (٥٣/٢٤)، مفاتيح الغيب (١٧٥/٣١)، حاشية الطيبي على الكشاف (٤٥٦-٤٥٥/١٦).

وحكى الماوردي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وجهان: أحدهما: أظلمها، يعني: الشمس.

الثاني: يستر الشمس^(١). ذكره الواحدي رَحْمَةُ اللَّهِ^(٢).

وقال جار الله الزمخشري رَحْمَةُ اللَّهِ: "المغشى: إما الشمس من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤]، وإما النهار من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفرقان: ٣]"^(٣).
وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى [الليل: ١-٢]، قال الزجاج رَحْمَةُ اللَّهِ: "هذا قسم جوابه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]، أي: إن سَعْيِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ لِمُخْتَلِفٍ، وبينهما بُعْدٌ"^(٤).

وقال ابن جرير رَحْمَةُ اللَّهِ: "يقول تعالى ذكره مقسمًا بالليل إذا غشى النهار بظلمته، فأذهب ضوءه، وجاءت ظلمته: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ النهار، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ وهذا أيضا قسم، أقسم بالنهار إذا هو أضاء فأنار، وظهر للأبصار. ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عيانًا، وكان قتادة رَحْمَةُ اللَّهِ يذهب فيما أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به من الأشياء أنه إنما أقسم به؛ لِعِظَمِ شَأْنِهِ عِنْدَهُ. كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى قال: آيتان عظيمتان يَكُورُهُمَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْخَلَائِقِ"^(٥).

(١) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٢٨٢/٦).

(٢) انظر: الوجيز، للواحدي (ص: ١٢٠٦).

(٣) الكشاف (٧٦١/٤).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٣٣٥/٥).

(٥) تفسير الطبري (٤٦٥/٢٤).

وفي الآيات ملمح آخر، حيث إننا نلاحظ في آيات (سورة الليل) أن الله عَزَّجَلَّ قد عرض قضية كونية لا يختلف فيها أحد، وهي قضية الليل والنهار، ثم أعقب ذلك بما يمكن أن يكون مثار اختلاف، وهي قضية الرجل والمرأة، حيث قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝﴾ [الليل: ١-٤]، فالرجل والمرأة موضوعان لجنس واحد هو الإنسان، لهما مهمات مشتركة من حيث كونهما جنسًا واحد، ولهما مهمات مختلفة من حيث كونهما نوعين مختلفين؛ ولذلك قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝﴾، أي: متخلف ومتنوع. فعندما يأتي الحقُّ جَلَّوَعَلَا بقضية كونية ليست محل اختلاف، وهي من المسلمات، ثم يأتي عقب ذلك على ذكر قضية الذكر والأنثى، فكأنه يقول: كما أن ليل مهمة تختلف عن مهمة النهار، كذلك فإن للرجل مهمة تختلف عن مهمة المرأة، وكل واحدة منهما تكمل الأخرى، فلا يتمنى الرجل أن يكون في مكان المرأة، ولا المرأة أن تكون في مكان الرجل، ولا أن يتشبه أحدهما بالآخر بما يخرج عن خصائصه وطباعه؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»^(١)، أي: بما يخرج عن النوعية التي فُطِرَ كُلُّ واحدٍ منهما عليها؛ لأن في الخروج عن فطرة الخلق: شيوع الفساد، واضطراب الأحوال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقسم بالليل في جميع أحواله؛ إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع؛ لأنه يغشى شيئًا بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلَّى وهلة واحدة؛ ولهذا قال في سورة: (الشمس وضحاها): ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّلَهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝﴾ [الشمس: ٣-٤]، وأقسم به وقت سريانه

(١) صحيح البخاري [٥٨٨٥].

كما تقدم، وأقسم به وقت إدباره، وأقسم به إذا عسعس، فقليل معناه: أدبر، فيكون مطابقاً لقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ ۚ﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤]، وقيل معناه: أقبل، فيكون كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۚ﴾ [الليل: ١-٢]، فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار، وعلى الأول يكون القسم واقعاً على انصرام الليل، ومجيء النهار عقيبته، وكلاهما من آيات ربوبيته

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الأقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه - ذكره وأنثاه -، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار وكل ذلك من آيات ربوبيته؛ فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى.. " (١).

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص: ٥٥-٥٦) طبعة دار المعرفة، وطبعة دار الفوائد: (التبيان في أيمان

القرآن) (١/٨٦-٨٨).

ب. القسم بالنهار:

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝﴾ [الشمس: ٣].

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ [الليل: ٢].

أصل الجَلَوُ: "الكشف الظاهر، يقال: السماء جَلُوءاً، أي: مصحية، ورجل أَجْلَى: انكشف بعض رأسه عن الشعر، والتَّجَلَّى قد يكون بالذات نحو: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ [الليل: ٢]، وقد يكون بالأمر والفعل، نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]" (١).

قوله جَلَّوَعَا: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝﴾ قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "جَلَّى الظلمة، فجاز الكناية عن الظلمة ولم تُذكر؛ لأنَّ معناها معروف، ألا ترى أنك تقول: أصبحت باردة (٢)، وأمست باردة، وهبت شمالاً، فكفى عن مؤنثات لم يجر لهن ذكر؛ لأن معروف" (٣). وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقيل: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝﴾: إذا بين الشمس؛ لأنها تبين إذا انبسط النهار" (٤).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿إِذَا جَلَّهَا ۝﴾ عند انتفاخ النهار وانبساطه؛ لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء. وقيل: الضمير للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض، وإن لم يجر لها ذكر، كقولهم: أصبحت باردة؛ يريدون: الغداة، وأرسلت: يريدون: السماء. ﴿إِذَا يَغْشَاهَا ۝﴾ فتغيب وتظلم الآفاق" (٥).

(١) المفردات، مادة: (جلو) (ص: ٢٠٠).

(٢) تريد: أصبحت غداً باردة.

(٣) معاني القرآن، للفراء (٢٦٦/٣).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٣٢/٥).

(٥) الكشاف (٧٥٨/٤).

وقال في "قوله جَلَّوَعًا: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝﴾ [الشمس: ٣]، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ [الليل: ٢]، أي: ظهر وتبين والنهار من طلوع الشمس، واليوم من طلوع الفجر. و﴿تَجَلَّى ۝﴾: ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين وتكشف بطلوع الشمس.. " (١).

وحكى الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعًا: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝﴾ وجهان: أحدهما: أضاءها، يعني: الشمس؛ لأن ضوءها بالنهار يجلي ظلمة الليل. والثاني: أظهرها؛ لأن ظهور الشمس بالنهار.

قال: ويحتمل وجهًا ثالثًا: أن النهار جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر؛ لاستتاره ليلاً، وانتشاره نهارًا" (٢).

وقد أورد ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ من المأثور: ما جاء عن ابن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ، في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَلَهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝٢﴾ [الشمس: ١-٢] قوله: هذا قسم، والقمر يتلو الشمس نصف الشهر الأول، وتتلوه النصف الآخر، فأما النصف الأول فهو يتلوها، وتكون أمامه، وهو وراءها، فإذا كان النصف الآخر كان هو أمامها يقدمها، وتليه هي. وقوله جَلَّوَعًا: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝﴾ يقول: والنهار إذا جَلَّاهَا، قال: إذا أضاء.

وروى عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعًا: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝﴾ قال: إذا أضاء. وروى عنه كذلك أنه قال: إذا غشيها النهار.

ثم قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة، ويجعل الهاء والألف من جلاها كناية عن الظلمة، ويقول: إنما جاز الكناية عنها، ولم يجز لها ذكر قبل، لأن معناها معروف... الخ.

(١) الكشف (٤/٧٦١).

(٢) انظر: النكت والعيون (٦/٢٨٢).

قال: والصواب عندنا في ذلك: ما قاله أهل العلم الذين حكينا قولهم؛ لأنهم أعلم بذلك، وإن كان للذي قاله من ذكرنا قوله من أهل العربية وَجْهٌ" (١).

وفي الآيات إشارة إلى تعظيم قدر النعمة، ولفت للأنظار إلى آيات الله عَزَّجَلَّ الكبرى في الكون؛ ليتفكروا في بديع خلقه، وواسع مَنِّه وكرمه، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وجاء في (التفسير الكبير): "ومن تأمل قليلاً في عظمة الشمس، ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهي، والتركب من الأجزاء انتقل منه إلى عظمة خالقها جَلَّوَعَلَا، فسبحانه ما أعظم شأنه.

وسائر السماويات قدرها بحسب مشيئته، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا بَدَّلَهَا شَيْئًا﴾ [الشمس: ٥] كالتنبيه على هذه الدقيقة الدالة على حدوث الشمس، وسائر السماويات" (٢).
و"قيد القسم بالنهار بقيد وقت التجلية إدماجاً للمنة في القسم.

وابتدئ القسم بالشمس وأضوائها الثلاثة الأصلية والمنعكسة؛ لأن الشمس أعظم النيرات التي يصل نور شديد منها للأرض، ولما في حالها وحال أضوائها من الإيمان إلى أنها مثل لظهور الإيمان بعد الكفر، وبث التقوى بعد الفجور؛ فإن الكفر والمعاصي تمثل بالظلمة والإيمان والطاعات تمثل بالضياء قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة: ١٦].

وأعقب القسم بالنهار بالقسم بالليل؛ لأن الليل مقابل وقت النهار فهو وقت الإظلام.

(١) تفسير الطبري (٤٥٢/٢٤-٤٥٣).

(٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) (١٧٥/٣١-١٧٦).

والغشي: التغطية، وليس الليل بمغط للشمس على الحقيقة، ولكنه مسبب عن غشي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداء من وقت الغروب، وهو زمن لذلك الغشي. فإسناد الغشي إلى الليل مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى زمنه أو إلى مسببه (بفتح الباء) ".. قاله الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ" (١).

وقد تقدم ذكر من قيل من بيان وجه الحكمة من القسم بالليل والنهار.

١٣ - مسألة: تكرار الواو في القسم:

إذا تكررت الواو في القسم، فإن الأولى فقط هي للقسم على الصحيح، وما بعدها للعطف.

قال صاحب (الكتاب) رَحِمَهُ اللَّهُ: "والواو الأولى في نحو: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③﴾ [الليل: ١-٣] للقسم، وما بعدها للعطف، كما تقول: بالله فאלله، وبحياتك ثم حياتك لأفعلن (٢). وجواب القسم قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٦٧-٣٦٨).

(٢) انظر: الكتاب، لسيبويه (٥٠١/٣). ونص ما جاء في (الكتاب): "قال الخليل في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③﴾: الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمنزلة الباء والتاء. ألا ترى أنك تقول: والله لأفعلن ووالله لأفعلن، فتدخل واو العطف عليها كما تدخلها على الباء والتاء. قلت للخليل: فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء واحد، ولو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلاما آخر فيكون، كقولك: بالله لأفعلن، بالله لأخرجن اليوم، ولا ييقوى أن تقول: وحقك وحق زيد لأفعلن، والواو الآخرة واو قسم، لا يجوز إلا مستكرها؛ لأنه لا يجوز هذا في محلوف عليه إلا أن تضم الآخر إلى الأول وتحلف بهما على المحلوف عليه".



﴿[الليل:٤]﴾ ولو كانت الواوات جمع هنا للقسم لاحتاج كل واحد إلى جواب؛ لأنها أقسام منفصلة لم يشارك أحدها الآخر..^(١)

وفي (شرح الرضي على الكافية): "وإذا تكررت الواو بعد واو القسم، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ [الليل:١-٢]، فمذهب سيبويه والخليل رَحِمَهُمَا اللَّهُ، أن المتكررة واو العطف. وقال بعضهم: هي واو القسم، والأول أقوى؛ وذلك لأنها لو كانت واو القسم لكانت بدلاً من الباء، ولم تفد العطف وربط المقسم به الثاني وما بعده بالأول، بل يكون التقدير: أقسم بالليل، أقسم بالنهار: أقسم بما خلق، فهذه ثلاثة أيمان كل واحد منها مستقل، وكل قسم لا بد له من جواب، فتطلب ثلاثة أجوبة، فإن قلنا حذف جوابان استغناء بما بقي بعد الحذف، فالحذف خلاف الأصل، وإن جعلنا هذا الواحد جواباً للمجموع، مع أن كل واحد منها؛ لاستقلاله، يطلب جواباً مستقلاً، فهو أيضاً خلاف الأصل، فلم يبق إلا أن نقول: القسم شيء واحد، والمقسم به ثلاثة، والقسم هو الطالب للجواب، لا المقسم به، فيكفيه جواب واحد، فكأنه قال: أقسم بالليل والنهار وما خلق: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝﴾ [الليل:٤]، أي: أقسم بهذه الثلاثة: أن الأمر كذا، وأيضاً، فإنك تقول مصرحاً بالعطف: بالله فالله لأفعلن، وبحياتك ثم حياتك لأفعلن، ولا تقول: أقسم بالله، أقسم بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأفعلن، والحمل على ما ثبت في كلامهم أولى... الخ"^(٢).

وقال المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝﴾ [الليل:١-٣] الواو الأولى واو قسم وما بعدها من الواوات للعطف لا

(١) شرح المفصل، لابن يعيش (٢٦٣/٥-٢٦٤).

(٢) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣٠٦/٤-٣٠٧)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٥٠١/٣).



للقسم، ولو كانت للقسم لكان بعض هذا الكلام منقطعاً من بعض، وكان الأول إلى آخر القسم على غير محلوف عليه، فكان التقدير: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ①﴾، ثم ترك هذا وابتدأ: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَافَىٰ ②﴾، ولكنه بمنزلة قولك: والله ثم الله لأفعلن، وإنما مثلت لك بـ: (ثم)؛ لأنها ليست من حروف القسم" (١).

ومن التطبيقات على هذه المسألة في كتاب الله عزَّ وجلَّ: قوله جلَّ وعلا: ﴿وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ②﴾ [الطور: ١-٢]، فالواو الأولى للقسم، وما بعدها للعطف. وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ③ فَالْعَصْفِ عَصْفًا ④ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ⑤ فَالْفَرْقَتِ ⑥ فَارْقًا ⑦ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ⑧ عَذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑨ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعُ ⑩﴾ [المرسلات: ١-٧]، فالواو الأولى للقسم، وما بعدها للعطف؛ ولذلك جاءت الفاء (٢).

١٤ - العطف يقتضي التغير في الذوات، والاشتراك في الحكم:

تقرر أن الصحيح عند تكرار الواو في القسم أن الواو الأولى فقط، وما بعدها للعطف، والعطف وإن كان يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه في الذوات، ولكن الواو العاطفة تقتضي مشاركة المعطوف للمعطوف عليه بالحكم؛ ولذلك قالوا: (العطف يقتضي التغير في الذوات، والاشتراك في الحكم)، ومعناه: أن حكم المعطوف هو نفسه حكم المعطوف عليه، كما لو قلت: (أعط زيداً وعمراً) فهذا تشريك بين زيد وعمرو في الإعطاء، والمغايرة في الذوات.

(١) المقتضب، للميرد (٢/٣٣٥-٣٣٧).

(٢) انظر: التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/١١٨٣)، (٢/١٢٦٢).

فالأصل في باب العطف: أن لا يعطف الشيء على نفسه، وإنما يعطف على غيره، وعلة ذلك: أن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل، وتكرار العامل يلزم معه تكرير المعمول.

فلا يجوز عطف الشيء على نفسه، فإذا كان العطف يقتضي التغاير، فعطف الشيء على نفسه لا يجوز؛ لأن الشيء لا يغير نفسه. ومحل هذه القاعدة: حصول التساوي من كل وجه، وأما لو حصل التغاير ولو بشيء ما فإنه مسوغ للعطف ولو كانا ذاتاً واحدة، ومع وجود نكته كان ذلك من البلاغة التي تقوي الكلام وتزيده حسناً.

وقد أجاز بعضهم عطف الشيء على مرادفه إذا اختلف اللفظان لغرض بلاغي، أو لقصد التفسير والتوضيح. قيل: منه قول الشاعر:

*** وألفى قولها كذباً وميناً^(١)

والمين هو الكذب.

قيل: الغرض البلاغي هنا هو تقوية معنى المعطوف عليه وتأكيده.

وقيل: هو من قبيل التطويل والحشو؛ إذ مقام هذا الكلام ليس مقتضياً للتأكيد، فأحدهما زائد بلا فائدة، وليس المزيد متعيناً؛ لأن المعنى يصح بكل منهما، فزيادة أحدهما تطويل.

(١) هو من الوافر وصدره: (وقد دت الأديم لراشيه***) وقائله عدي بن زيد العبادي من قصيدة طويلة أولها: (أبدلت المنازل أم عنينا*** بقادم عهدهن فقد بلينا) والشاهد فيه: التطويل، وهو أن يكون اللفظ زائداً على أصل المراد لا لفائدة، واللفظ الزائد غير متعين إذ جمعه بين الكذب والمين في البيت لا فائدة فيه؛ لأنهما بمعنى واحد "معاهد التنصيص (١/٣١٠-٣١٥).

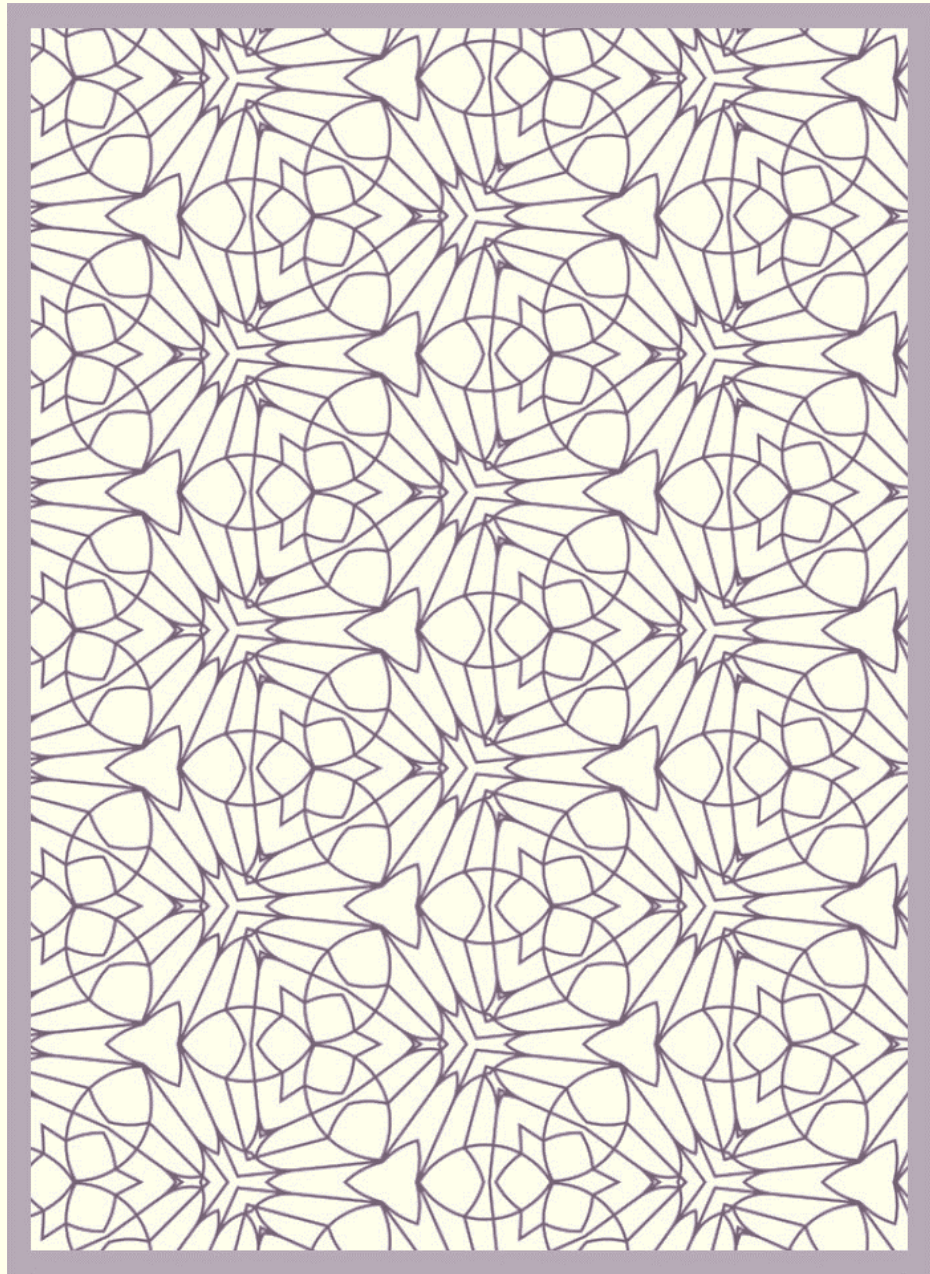
وقيل: المين أخص من الكذب، قال ابن الشجري رَحِمَهُ اللَّهُ: "هو أكثر من الكذب. يقال: كذب ومان، وكاذب مائن" (١).
 قال ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ: "وزعم بعضهم أن الرواية: كذبًا مبيِّنًا، فلا عطف، ولا تأكيد" (٢). وبسط المسألة في مظانها.
 لكن إذا كان القصد البلاغي ظاهرًا؛ لفائدة بينة، فلا خلاف في جواز عطف الشيء على مرادفه.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: نحو: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ونحو: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، ونحو: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]. وبسط المعنى والقصد في مظانه من كتب التفسير، وما يعيننا هنا في باب القسم أن العطف يقتضي التشريك في الحكم، فيكون المعطوف على القسم في حكم المقسم به.



(١) مختارات شعراء العرب، لابن الشجري (٣٩/٢)، وانظر: حاشية ياسين على التصريح (٤٩/٢).

(٢) انظر: مغني اللبيب (ص: ٤٦٧)، مغني اللبيب، بتحقيق: د. عبداللطيف الخطيب (٣٦٦/٤-٣٦٧).



المبحث الخامس:

مقاصد ودلالات القصص

في كلام الله عز وجل وكلام النبي صلى الله عليه وسلم

وهناك بيان المقاصد والدلالات للقصص والأخبار في كلام الله عز وجل وكلام النبي صلى الله عليه وسلم:

١ - ربانية المصدر والغاية:

والقصص والأخبار ربانية المصدر بمعنى: أنها منسوبة إلى الرب جل وعلا، فمصدرها رباني. و(رباني) مصدر صناعي منسوب إلى الرب، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس.

قال سيبويه رحمه الله: "زادوا ألفاً ونوناً في (الرَّبَّاني)، إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الرب، دون غيره من العلوم، وهذا كما قالوا: (شُعْراني)، و(لَحْياني)، و(رَقَباني): إذا حُصَّ بكثرة الشعر، وطول اللحية، وغُلِظ الرقبة. فإذا نسبوا إلى الشعر، قالوا: (شُعْري)، وإلى الرقبة: (رَقْبي)، وإلى اللحية: (لَحْيي).

وقال ابن الأعرابي رحمه الله: الرباني: العالم المُعَلِّم، الذي يَغْدُوا الناسَ بصغار العلوم قبل كبارها.

وقال المبرد رحمه الله: الربانيون: أرباب العلم، وأحدهما: رَبَّاني، وهو: الذي يَرْبُّ العلم، ويربُّ الناسَ؛ أي: يعلمهم ويصلحهم، ويقوم بأمرهم.

والألف والنون: للمبالغة؛ كما قالوا: (رَيَّان)، و(عطشان)، و(شبعان)، ثم ضُمَّت إليه ياء النسبة، فقليل: (لحياني)، و(رقباني).

فعلى قول سيبويه رَحِمَهُ اللهُ: الرَّبَّانِي: منسوب إلى الرَّبِّ؛ على معنى التخصيص بعلم الرَّبِّ، أي: يَعْلَمُ الشريعة، وصفات الرب جَلَّوَعَلَا. وعلى قول ابن الأعرابي، والمبرد: الرَّبَّانِي: من الرَّبِّ، الذي هو بمعنى: التربية^(١).

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ: "لم يعرفوا ربانيين^(٢)، وأحسب الكلمة ليست بعربية إنما هي عبرانية أو سريانية. وذلك أن أبا عبيدة رَحِمَهُ اللهُ زعم أن العرب لا تعرف: (الربانيين)، وإنما عرفها الفقهاء وأهل العلم"^(٣).

والحاصل أن أصل الرباني يرجع إلى قولين:

أحدها: أنه الذي يربُّ أمور الناس بتدبيره.

والثاني: منسوب إلى الرَّبِّ؛ لأن النسب إلى الشيء إنما يكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه، فقليل لصاحب العلم الذي أمر به الرب: ربَّاني.

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "وفيه: أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله عَزَّوَجَلَّ في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه جَلَّوَعَلَا منقطع، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته"^(٤).

(١) انظر: التفسير البسيط (٣٨١/٥-٣٨٣)، الكتاب، لسيبويه (٣/٣٨٠)، وانظر: المقتضب، للمبرد (١٤٤/٣).

(٢) مجاز القرآن (٩٧/١).

(٣) تهذيب اللغة (١٣٠/١٥).

(٤) الكشف (٣٧٨/١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: (وفيه أن من علم) يعني: أدمج فيه هذا المعنى وأشير إليه؛ لأن المعنى الذي سيقَّت له الآيات هو ما يقال: لا يصح ولا يستقيم للبشر أن يمنح الكتاب، ويرزق الحكم والنبوة، ثم يقول للناس: اعبُدوني من دون الله عَزَّجَلَّ، ولكن الواجب عليه أن يقول: كونوا عباد الله عَزَّجَلَّ وحده، فعدل عنه إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾؛ ليستقيم ترتب الحكم على تلك الصفة؛ لأن الرباني، أي: المتمسك بالدين والطاعة المعتصم بحبل الله عَزَّجَلَّ المتين، لا يكون إلا عالماً عاملاً معلماً، فالمعنى المدمج: إيجاب طلب العلم على كل أحد من عباد الله عَزَّجَلَّ، ثم العمل به، ثم إرشاد الناس إلى الطريق المستقيم" (١).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ في (التفسير): "وقيل: كونوا متخصصين بالله عَزَّجَلَّ تخصصاً تُنسبون إليه، وتوصفون بعامة أوصافه، نحو: الجواد، والودود، والرحيم. وقيل: كونوا من المتخصصين بالله عَزَّجَلَّ الذين وُصفوا بقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» الحديث (٢).

وقيل: كونوا متخصصين بالله عَزَّجَلَّ غير ملتفتين إلى الوسائط، كأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال حين موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واضطربت أسرار عامة الناس: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت» (٣)، وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤] (٤).

(١) حاشية الطيبي على الكشف (١٥٨/٤).

(٢) صحيح البخاري [٦٥٠٢].

(٣) صحيح البخاري [١٢٤١، ٣٦٦٨، ٤٤٥٤].

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (٦٧٢/٢-٦٧٣).

وقال بعضهم في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِيَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]: معناه: كونوا حكماء علماء. وقيل: حكماء أتقياء. وقيل: كونوا فقهاء علماء. وقيل: علماء حلماء. وقيل: فقهاء معلِّمون.

والرَّبَّانِيُونَ المعروفون بالعلم والتَّقْوَى هم عماد النَّاس في الفقه والعلم وأمور الدِّين والدُّنْيَا؛ ولذلك قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: وهم فوق الأَحْبَار؛ لأنَّ الأَحْبَارَ هم العلماء. و(الرَّبَّانِيُّ): الجامعُ إلى العلم والفقه: البَصِيرُ^(١) بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنْيَاهُمْ ودينهم^(٢).

وقيل: سموا بذلك؛ لعلمهم بالربِّ جَلَّوَعَلَا^(٣).

وقال ابن عباس رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِمَا في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُونُوا رَبَّنِيَّيْنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]: حلماء فقهاء، ويقال: الرَّبَّانِيُّ الذي يُرِي النَّاسَ بِصَغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ^(٤)، أي: بالتدريج، وقيل غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد بصغار العلم: ما وضع من مسائله، وبكباره ما دَقَّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده.

وقال ابن الأعرابي رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يقال للعالم: رباني حتى يكون عالماً معلماً عاملاً"^(٥).

(١) في المطبوع من (البحر) (٢٣٢/٣): "النظر".

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٤٤/٦).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٢١/١).

(٤) انظر: صحيح البخاري (٢٤/١)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٥١/١).

(٥) فتح الباري، لابن حجر (١٦٢/١).

فالعالم الرباني قائم على أمور الناس، مصلح لأحوالهم، ومرشد لهم إلى ما فيه صلاحهم.

والعالم المتصف بهذه الصفة ينعكس ذلك على عمله وسلوكه وأخلاقه.

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الرباني: منسوب إلى (الرب) بزيادة الألف والنون؛ للمبالغة وهو العالم الراسخ في العلم والدين الذي أمر به الله عَزَّجَلَّ، والذي يطلب بعلمه وجه الله عَزَّجَلَّ. قال بعضهم: الشارع الرباني العالم العامل المعلم" (١).

وقيل: هو من الرب بمعنى: التربية، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها - كما تقدم -.

والقصص والأحاديث في القرآن الكريم وصحيح السنة مصدرها رباني، وهي ربانية الغاية والوجهة؛ لاتصال الغاية بما يرضي الرب جَلَّوَعَلَا، من حيث ما تحققه تلك القصص في المكلفين من صلة بالله عَزَّجَلَّ، فهي تورث الهداية والاعتبار، وتعزز الصلة بالله عَزَّجَلَّ، وتؤثر في سلوك المكلف، وفي استقامة سيره إلى مولاه جَلَّوَعَلَا، حيث تكون غاية كدحه في الحياة: ما يرضي الله عَزَّجَلَّ، فيسير وفق ما شرع من عبادات ومعاملات وأخلاق، فيستقيم حاله، ويثمر عمله، مدرِّكًا الغاية من الوجود في الحياة الدنيا، ومؤمِّنًا بالبعث والانتقال إلى الآخرة.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۚ﴾ [الانشقاق: ٦].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۚ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۚ﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر (٢/٢٩)، وانظر: الكشف (١/٣٧٨).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠٠].

وللربانية ثمرات عظيمة، فهي من أسباب التبصر بحقيقة الحياة الدنيا، ومعرفة الغاية الوجود، والاهتداء إلى الفطرة التي فطر الله عَزَّجَلَّ الإنسان عليها، والسلامة من الضلال والانحراف والتخبط، والتحرر من عبودية غير الله عَزَّجَلَّ، ومن الهوى والشهوات، ونزغات الشياطين، ومن الخضوع والاستسلام لمطالب النفس المادية، ورغباتها الشخصية، دون تشوف إلى المعاني السامية التي تضيفها صفة الربانية، من المحبة والإيثار، والتطلع إلى حسن الثواب في الآخرة، فهذه صفة العالم الرباني، العامل بما علم.

والمنهج الرباني يتميز بأنه ليس من صنع بشر تحكمه الأهواء والأعراف، والأزمان والبلدان، والبيئة المحيطة، وطبيعة النشأة، وليس نتيجة لإرادة حزب أو فئة، فهو لا يخضع لوجهة جهة من الناس تتفاوت آرائهم من زمن لآخر، ومن بلد لآخر، ومن اعتبار لآخر، بل هو منهج الله عَزَّجَلَّ الذي شرعه لعباده، وهو أعلم بما فيه صلاح حالهم في حياتهم الدنيا وفي مآلهم، ولا تبديل لكلماته.

ولا ريب أن ذلك المنهج الرباني ينعكس على سلوك الإنسان وسلوكه، فالأخلاق الإسلامية قد حدد المنهج الرباني أصولها التي تُكَوِّنُ معالم الشخصية الإسلامية التي لا تزال ترتقي في مدارج الكمال، ومعالي الأخلاق والآداب إذا سارت على ذلك النهج الرباني.

٢ - إثبات الوجدانية لله عَزَّجَلَّ، والتحرر من العبودية لغيره:

إن من أعظم مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة: تحرير الإنسان من العبودية لغير الله عَزَّجَلَّ، وإثبات الوجدانية لله جَلَّوَعَلَا، قال الله عَزَّجَلَّ مبيناً المقصد الأعظم

من بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد دلت الآية على أن تجريد العبادة لله عَزَّوَجَلَّ وحده هو المقصد المشترك والأعظم الذي دعا إليه جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأن النظر والاعتبار سبيل إلى الهداية.

وقد قال كل رسول لقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فقد تكررت هذه الآية في سياق القصص في القرآن الكريم؛ لبيان القاسم الأهم والمشارك من بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وإن من أصول العقيدة، وأعظم أسباب النجاة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، واعتقاد أن كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنه وبلاء إنما هو بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره. فلا بُدَّ من تجريد التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن كل شيء لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ ۖ إِلَّا هُوَ ۚ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك»^(١)، فإذا جرَّد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل يفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالمخافة، ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه، وخوفه منه، واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرَّد

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضاً: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث: عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا"، وأخرجه أيضاً: الضياء [١٣].

توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله عَزَّجَلَّ يتولَّى حفظه، والدفع عنه؛ فإن الله عَزَّجَلَّ يدافع عن الذين آمنوا.

فالتوحيد حصن الله عَزَّجَلَّ الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف الله عَزَّجَلَّ خافه كل شيء، ومن لم يخف الله عَزَّجَلَّ أخافه الله عَزَّجَلَّ من كل شيء.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "الشرك بالله عَزَّجَلَّ هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله عَزَّجَلَّ، ومخالفة أمره. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، قال عطية (١) في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله عَزَّجَلَّ المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجذبت الأرض، وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله عَزَّجَلَّ وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله عَزَّجَلَّ وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، فإن الله عَزَّجَلَّ أصلح الأرض برسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فساده بالشرك به، ومخالفة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه: توحيد الله عَزَّجَلَّ، وعبادته، وطاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكل شرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو

(١) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٤/٢٤٠)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحيدي (٢/٣٧٧)، تفسير

البغوي (٢/١٩٩)، الخازن (٢/٢١١).

وغير ذلك؛ فسببه: مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدعوة إلى غير الله عَزَّجَلَّ. ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا - ولا حول ولا قوة إلا بالله-^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر: "والشرك أعظم الفساد، كما أن التوحيد أعظم الصلاح، فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر"^(٢). والإيمان: قول وعمل ونية، فلا بدَّ من الإيمان بالله عَزَّجَلَّ، ولا بدَّ من العمل بما أمر، ومن البعد عما نهى، ومن النية والاحتساب والاستقامة والثبات.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان: قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلية في مسمى: (الإيمان)"^(٣).

وأعظم أسباب النجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّجَلَّ، الذي هو حَقُّ الله عَزَّجَلَّ على العبيد، والبعد عن البدع والضلالات، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما جاء في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ لى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: أَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس هو كما تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لابنه: ﴿يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/١٥-٢٥)، وانظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (١٤/٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/١٦٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١٠٤/١)، وانظر: الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرمانى (١/٧٦)، الكشف والبيان، للتعلي (٣/٢١٣)، تفسير سفیان الثوري (ص: ١٥)، الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط (١/٩٥)، الحاوي الكبير، لأبي الحسن الماوردي (١٥/٣١٤).

(٤) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].



وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ؛ لَمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ» ^(١).

وقد عبد ناس الشجر والحجر، وعبد آخرون الشمس والقمر... إلى غير ذلك. فإذا خلا القلب من الإيمان بالله عَزَّجَلَّ، اشتغل بالإيمان بسواه من العبودية للمخلوق أو الهوى؛ فَإِنَّ الهوى إِلَهٌ يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وما ترك الطريق المستقيم من تركه إِلَّا لِأَنَّهُ قَدْ اتَّبَعَ هَوَاهُ، فالعقل البشري لا يمكن أَنْ يَخْلُو مِنَ الشَّيْءِ وَضْدَهُ، فإذا خلا من الإيمان بالله عَزَّجَلَّ اشتغل تلقائيًا بالإيمان بسواه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]. ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميسة» ^(٢).

والقرآن يشير إلى هذا المعنى في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، أي: أَنَّهُ لَا فَرَاغَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْتَفَعَ النِّقِیْضَانُ. إما إيمان بالله عَزَّجَلَّ أو إيمان بسواه. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُؤَبِّقُهَا» ^(٣).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (النونية):

هربوا من الرِّقِّ الذي خلقوا له	فبلو برِّقَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ
لا ترض ما اختاروه هم لنفوسهم	فقد ارتضوا بالذل والحرمان

(١) أخرجه البخاري [٩٩، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧]، مسلم [١٢٤].

(٢) صحيح البخاري [٢٨٨٦، ٢٨٨٧].

(٣) صحيح مسلم [٥٥٦].

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة لم يسق منها الرب ذا الكفران ^(١) إنَّ الإنسان إن لم يكن مستجيباً لله عَزَّجَلَّ ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو متبع للهوى، وليس هناك منزلة بين المنزلتين، ولا طريق بين الطريقين. فإمّا أن تتبع الحقَّ، أو تتبع الهوى، فقد جعل الله عَزَّجَلَّ الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين. وأحد الأمرين يرفع صاحبه، والآخر يهوي به - كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

إنَّ اتباع الهوى يتناقض مع سلوك طريق الحق والعدل؛ فإن أساس العدل: اتباع الحق، وهو سببُ محبة الله عَزَّجَلَّ؛ فإنه جَلَّوَعَا يحبُّ المقسطين. وفي المقابل فإنَّ اتباع الهوى سببٌ للضلال عن سبيل الله عَزَّجَلَّ، والضلالُ سببٌ في العذاب الشديد يوم القيامة. يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

٣ - إثبات الوحي والرسالة وقيام الدلائل والشواهد على صدق الأخبار:

إن القصص والأخبار فيها دلالة بينة على إثبات الوحي والرسالة، ويستدل على ذلك بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم من أحد من البشر، وكان في أمية، وذلك من أعظم دلائل نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه أتى بالعلوم الجمة، من الإخبار عن المغيبات، وقصص الغابرين، وغير ذلك، من غير قراءة ولا كتابة، وقد دلت الآثار، وقامت الدلائل والشواهد على صدق تلك الأخبار.

(١) متن القصيدة النونية (ص: ٣٠٨).

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿[العنكبوت: ٤٨-٤٩]، أي: ما كنت قرأت الكتب، ولا كُنت كاتبًا، وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، والحال أنك أُمي ما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، بل ذلك الإنزال معجزة خارقة للعادة، وهي كونها في نفسها آيات بينات؛ لبلاغتها وفصاحتها، وكونه اختص بأن حوِّظ عليه في صدور العلماء دون سائر الكتب. وكذلك صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندهم في التوراة والإنجيل، كما أخبر الله عزَّ وجلَّ عن ذلك بقوله جلَّ وعلا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢) [الجمعة: ٢]، وقد تقدم بيان قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ».

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ): عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التوراة؟ قال: «أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾» [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنت عبيد ورسولي، سَمِّيتُكَ: الْمُتَوَكِّلَ، ليس بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيْئَةِ السَّيْئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَن يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا» (١).

(١) صحيح البخاري [٢١٢٥، ٤٨٣٨].

وقال جَلَّوَعًا في بيان ما يفيد تحقيق النبوة، وإقامة الحجة عليهم لما يأتيهم به مما أخفوا منه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: الأخبار التي قصصناها عليك في زكريا ويحيى ومريم وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أنباء الغيب، أي: من أخبار ما غاب عنك، وفي هذا دليل على تثبيت نبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه أنبأ بما لا يعلم إلا من كتاب أو وحي، وقد أجمعوا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أميًا، فإنباؤه إياهم بالأخبار التي في كتبهم على حقيقتها من غير قراءة الكتب دليل على أنه نبي، وأن الله عَزَّوَجَلَّ أوحى إليه بها" (١).

وقال جابر الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟ وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلومًا عندهم علمًا يقينًا أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف: ١٠٢].. (٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وخلاصة الجواب: أن المراد من نفي المشاهدة: إثبات الحجة والاحتجاج على أهل الكتاب بطريق التقسيم الحاصر، ولا شك أن عدم السماع والقراءة محقق عند اليهود، وقد علموا ذلك علمًا يقينًا لا شك فيه، وإنما كانوا ينكرون الوحي فأريد إثبات المطلوب بطريق برهاني، فقيل: طريق العلم فيما أنبئكم به، إما السماع

(١) معاني القرآن وإعرابه (١/٤١٠).

(٢) الكشف (١/٣٦٢).



والقراءة، وإما الوحي والإلهام، وإما الحضور والمشاهدة، فالأولان منفيان عنكم، بقي الثالث، فنفي تهكمًا بهم، وإنما خص هذه دون الأولى؛ لتهكم؛ لأنه لو نفى الأولى لم يكن من التهكم في شيء؛ لمجال الوهم فيه دونه" (١).

ونحوه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ [البقرة: ١٣٣]، فهو من باب التقسيم الحاصر (٢).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]. وفي ذلك أيضًا احتجاج على صحة نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإخباره بالغيوب؛ فإن قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٢] الخطاب فيه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لتأكيد حجته.

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا خطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المعنى: الذي قصصنا عليك من أمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عنك. فأنزلت عليه؛ دلالة على إثبات نبوته، وإنذارًا وتيسيرًا بتفصيل قصص الأمم السالفة" (٣). وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "المعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاءهم أخاهم في البئر، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحدًا، ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به، وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه، وأنه من جهة

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (١٠٦/٤-١٠٧).

(٢) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١٠٦/٣)، الكشاف (٥٠٧/٢).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (١٣٠/٣).

الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم. وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية" (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: (وهذا تهكم بقريش)، يعني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٢] الآية، وذلك أنه صلوات الله عليه أخبرهم بهذه القصة العجيبة التي عجزت عنها رواته من غير أن يخرم منها حرفاً، فصدقوه في ذلك، مع استمرارهم على إنكار الوحي، فخطب به صلوات الله عليه معرضاً بهم على سبيل التهكم، استركاً كما لعقولهم، وإليه الإشارة بقوله: (يا مكابرة)، يعني: أيها المكابرون، إنه لم يخف عليكم أنه لم يكن من حملة هذا الحديث، ولا لقي فيها أحداً، ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، ولم يكن مشاهداً لذلك أيضاً، فلم يبق إلا الوحي، فإذا أنكرتم الوحي لزم أنكم لم تصدقوه فيما صدقتموه، وإليه الإشارة بقوله: (فإذا أنكروه)، أي: الوحي، (تهكم بهم)؛ لأنه لزمهم نفي ما أثبتوه؛ فإن التهكم ينتزع من نفس التضاد.

وأحسن منه قول القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، والخطاب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مبتدأ، وقوله: ﴿مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران له، ﴿وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ الآية: كالدليل عليهم، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي؛ لأنك لم تحضر إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب، وهم يمكرون به، وبأبيه؛ ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك، فتعلمه منه، وإنما

حذف هذا الشق؛ استغناء بذكره في غير هذه القصة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩] " (١).

ويقال في قصص القرآن الكريم ما قيل في عموم آياته، من حيث بلاغة الألفاظ، ودقة المعاني، وقد قامت الدلائل والشواهد على صدق الأخبار في القرآن الكريم، وصحيح السنة، ومطابقتها للواقع، فالسنة من وحي الله عَزَّجَلَّ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ [النجم: ٤-٥].

والقرآن الكريم محكم التنزيل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما قال المولى جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

فما أخبر الله عَزَّجَلَّ به من القصص وغيرها في كتابه المنزل فهي حق لا مزية في ذلك، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٤٤٣/٨)، تفسير البضاوي (١٧٧/٣-١٧٨).

وقال جَلَّوَعًا: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا

﴿٩٩﴾ [طه: ٩٩].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

فما كان هذا القرآن حديثًا مختلفًا، ولكنه تصديق للكتب السماوية التي قبله، وفيه تفصيل لكل ما يحتاج إليه المكلفون، من حيث إنه مصدر التشريع الأول، والقانون الذي يستند إليه في التشريع، من أمور الدين من الحلال والحرام، والحجاج، والاعتبار؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يفرط في الكتاب من شيء من الأحكام، والحدود، والقصص، والمواعظ والأمثال، وغير ذلك.

وقيل: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من واقعة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه وإخوته. قال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): وعلى التفسيرين فهو ليس على عمومته؛ لأن المراد به الأصول والقوانين وما يقول إليها.

﴿وَهُدًى﴾ في الدنيا. ﴿وَرَحْمَةً﴾ في الآخرة. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بذلك.

ويستدل بالآثار على صحيح القصص والأخبار.

و(علم الآثار) من العلوم الهامة التي أغفلها المسلمون في عصرنا الحاضر، حتى تفوق غيرهم عليهم في هذا المجال، مع أن الاستدلال بالآثار على صحيح ما جاء من الأخبار مما يوثق المسموع منها بالدليل الحسي المشاهد.

(١) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (١٢/٢٧٥ - ٢٧٦)، غرائب القرآن (٤/١٣٣ - ١٣٤).

والاستقراء في التواريخ، والكتب المدونة، والمخطوطات، والآثار كل ذلك مما يوثق الأخبار، ويقوي الإيمان، ويزيد اليقين.

وما شاع في العصور المتأخرة من هدم الآثار بدعوى التقديس فهو من الجهل والتخلف؛ إذ إن رفع شوائب الشرك إنما يكون بالفكر والتوعية والتبصير، ومحاربة الجهل والتخلف، وليس بهدم الآثار التي هي من العلامات والأدلة على صدق الأخبار، وهي أيضاً من البواعث على التأمل والاعتبار لكل ذي بصيرة، وليس في الأمم المتحضرة من يهدم الآثار التي تدل على التاريخ والهوية.

٤ - إثبات البعث والجزاء:

ومن مقاصد القصص في القرآن والسنة إثبات البعث والجزاء في الآخرة؛ ليتحقق الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان، ومبانيه العظام، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. وفي الحديث: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسوله، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره» رواه الشيخان. وفي لفظ عندهما: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ولقائه، ورسوله، وتؤمن بالبعث الآخر».

وروى الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره حديث: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(١).

(١) أخرجه الترمذي عن جابر [٢١٤٤]، وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث: عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث. كما أخرجه ابن جرير: عن جابر". ولكن الحديث قد ورد مفروقاً في أحاديث.

وعن رُبَيْعِ بْنِ حِرَاشٍ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ بِعَثْنِي بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ، وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ»^(١).

ومن قصص القرآن الكريم التي وردت في سياق إثبات البعث والجزاء: قوله جَلَّ وَعَلَا في قصة بقرة بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت: ﴿* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا مخبراً عن استدلال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام على إثبات المعاد، وإقامة الحجة على منكبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٥٨] أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ

(١) أخرجه الطيالسي [١٠٨]، وأحمد [٧٥٨]، وعبد بن حميد [٧٥]، وابن ماجه [٨١]، والترمذي [٢١٤٥]، وقال: "حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا النضر بن شميل، عن شعبة، نحوه، إلا أنه قال: ربعي، عن رجل، عن علي. حديث أبي داود، عن شعبة عندي أصح من حديث النضر، وهكذا روى غير واحد، عن منصور، عن ربعي، عن علي، حدثنا الجارود، قال: سمعت وكيعاً، يقول: بلغنا أن ربعياً لم يكذب في الإسلام كذبة" اهـ. وأخرجه أيضاً: ابن أبي عاصم في (السنن) [١٣٠]، والبخاري [٩٠٤]، وأبو يعلى [٥٨٣]، وابن حبان [١٧٨]، والحاكم [٩٠] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه: تمام [١٤٤٢]، والبيهقي في (القضاء والقدر) [١٨٩]، والضياء [٤٤٠].

كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ [البقرة: ٢٥٨-٢٥٩].

وقال جَلَّوَعًا في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩].

٥ - تثبيت فؤاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمته:

إن من أهم مقاصد القصص والأخبار: تثبيت فؤاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتسليته، وحمله على الصبر على مشاق الدعوة، كما صبر أولو العزم من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وتثبيت قلوب المؤمنين على سلوك طريق الدعوة، وتحمل المشاق، والصبر على الابتلاء، كما قال جَلَّوَعًا: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

ومن المواصلة المتجددة: ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، حيث صبروا على مشاق الدعوة والتبليغ، وما كانوا يلقونه من الإيذاء.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي: على تكذيب قومهم لهم. والمراد بأولى العزم: ما ذكر في كل من سورتي: الأحزاب، والشورى. وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

ولتثبيت قلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صور متعددة ذكرتها مفصلة في الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

٦ - الاقتداء بأئمة الهدى والاعتبار بحال أهل الضلال ومآلهم:

إنَّ للقدوة أثرًا في تحديد وجهة الإنسان في فكره وسلوكه؛ ولذلك فإن القدوة الحسنة تهدي إلى الحقِّ، وإلى البرِّ والتقوى، والصَّلاح والإصلاح، كما أنَّ للقدوة السيئة من الأثر في الشرِّ والإفسادِ والضَّلال والإضلال ما لا يخفى على أولي البصائر. ويوصف الإمام بأنه أسوة وقدوة للمؤمنين، فإذا كان إمامًا في الخير والصَّلاح أثر في أتباعه، فأثر الاقتداء والتأسي: قيمًا وأخلاقًا واستقامة، وإذا كان إمامًا في الشرِّ أثر فيهم، فأورث انحرافًا وضلالًا عن الحقِّ.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وفي المقابل: قال الله عَزَّجَلَّ في بيان حال أهل الضلال ومآلهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِكِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [٥١] وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [٤٢] [القصص: ٤١-٤٢]. فهم يقودون أتباعهم إلى النار، ويضلونهم عن سواء السبيل.

ولذلك فإن من أهم مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة الاقتداء بأئمة الهدى. وخير أسوة للناس في الخير والاستقامة هم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما بيَّن الحق جَلَّوَعَلَا

في الآيات التالية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلُهُمْ أَقْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فهؤلاء هم القدوة النافعة التي تهدي إلى سواء السبيل، إلى صراط العزيز الحميد.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [المتحنة: ٤]، أي: قد كان لكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الْآخِرَ﴾ [المتحنة: ٦].

وخير الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخير سيرة هي سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخير الهدي هديه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ ولذلك فإن أعظم مقصد من مقاصد القصص والأحاديث والأخبار والسير: تحقيق الاقتداء بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أخلاقه، وآدابه، ونوافله وتطوعاته، وأكله وشربه، ولباسه، وحسن معاشرته للناس، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، إلى غير ذلك.

وقد قيدت الأسوة في الآيات السابقة بكونها حسنة؛ احترازًا عن القدوة السيئة التي هي من أهم أسباب الضلال، ومعوقات الهداية، ومن أسباب التطرف في الفكر والسلوك.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٣٤]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: من خبرهم كيف نصرروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة، وبهم قدوة" (١).

(١) تفسير ابن كثير (٢٥٢/٣).

وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَتَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٨٩-٩٠].

وقد ضلَّ كثيرون بسبب اقتفائهم لآثار فلاسفة قد حادوا عن الحق، فكثرت أقوالهم، وتباينت مناهجهم، وتأثر أتباعهم، فعاشوا في تخبط وضلال، وأعرضوا عن منهج الله عَزَّجَلَّ، وصراطه المستقيم، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّلَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد جاء في القرآن الكريم بيان عاقبة أهل ومن تبعهم وسار على نهجهم: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

والأمة بأمرٍ الحاجة إلى القدوة الحسنة. وأعظم قدوة للناس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما تقدم -، ثم وُزَّاتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصالح، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم، ودعا إلى هذا الدين، وهو على بصيرة وبينة من العلماء الصالحين، والقادة المخلصين.. فهم بناة الأجيال الحقيقيون، والهداة إلى سواء السبيل.

وقد جاء في قصص القرآن الكريم بيان عاقبة المكذبين ممن ضلَّ وأعرض عن الهداية، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦].



وقال جَلَّوَعًا: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاثِبٍ ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأففال: ٥٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿* وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكُهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالَسَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصاص: ٣٨-٤٢].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصاص: ٤٣].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦].



وقال جَلَّوَعًا: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٦-١٣٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَلَمَّا عَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٥-٥٦].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ ظَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦-١٤].

والآيات في ذلك كثيرة، وقد بينت أن سبب هلاكهم هو تكذيبهم للرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإعراضهم عن الهداية، ومن أعظم أسباب الهلاك: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، والظُّلْم والطُّغْيَان، والتَّقليد الأعمى.. إلى غير ذلك.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالنظر في الأدلة، والاعتبار بحال الأمم الغابرة، فقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

قالوا: والاعتبار ردُّ الشيء إلى نظيره بأن يحكم عليه بحكمه؛ ولذا سمي الأصل الذي تردُّ إليه النظائر عبرة، وهذا يشمل: الاتعاض، والقياس العقلي والشرعي، وسوق الآية للاتعاض، فتدل عليه عبارة وعلى القياس إشارة فلا ينافي كونه دليلاً على حجية

القياس" ^(١)؛ لأنَّ الاتِّعَاضَ يكون ثابتًا بطريق المنطوق مع أنَّ سياق الكلام له، والقياس بطريق المنطوق من غير أن يكون سياق الكلام له. سلمنا أنَّ الاعتبار هو الاتِّعَاضُ لكن يثبت القياس دلالة، و(العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السَّبَب).

قال ابن عابدين رَحِمَهُ اللهُ: "فسِّر الاعتبار بالتَّأَمُّل، وإن كان المراد منه -والله أعلم-: رَدُّ أنفسنا إلى أنفسهم في استحقاق العقوبات عند مباشرة تلك الأسباب؛ لأنَّ هذا الرَّدُّ إنما يتحقَّق بالتَّأَمُّل في أحوالهم، ولما كان التَّأَمُّل هو المؤدي إلى هذا الرَّدِّ جعل التَّأَمُّل نفسه إقامة للسَّبَب لمقام المسبَّب" ^(٢).

وتمام الكلام على ذلك في الكتب الأصولية.

ومن الآيات الدالة على الاعتبار وعلى بيان جريان سُنَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ في المستقبل لكلِّ من عصى وفعل سوءًا كما كانت جارية في الماضي: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَسْتَكْبَرًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿٤٤﴾ [فاطر: ٤٣-٤٤]، وسيأتي ذكر آيات كثيرة دالة على الاعتبار في بيان (معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون).

(١) انظر: التوضيح في حل عوامض التنقيح (١١٦/٢)، تيسير التحرير (١٠٨/٤)، التقرير والتحبير (٢٤٤/٣)، شرح التلويح على التوضيح، للسعد التفتازاني (١٠٨/٢)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١٧٥/٨).

(٢) انظر: حاشية نسمات الأسحار على شرح إفاضة الأنوار على متن أصول المنار (ص: ١٤٦-١٤٧).

فتبين مما سبق أن من مقاصد القصص والأخبار: الاعتبار والاتعاظ بما حاق بالأمم السابقة من الظالمين ومن المكذبين الضالين، وأن العاقبة للمتقين، مهما طال ليل الظلم وأرخی سدوله، وامتدَّ رواقه.

٧ - بيان أن ما جاء به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يخرج من مشكاة واحدة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُلُونَا نَزْلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣-٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا

مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿* إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا

دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ

الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

﴿١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ

إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ﴾ [فاطر: ٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿* شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا

بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ

الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال لقومه: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُوَ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

٨ - معرفة سنن الله عَزَّجَلَّ في هذا الكون:

ومن مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة: معرفة سنن الله عَزَّجَلَّ في هذا

الكون، ومن هذه السنن: نصر المؤمنين الصادقين ولو بعد حين، ونهاية الظالمين مهما

امتد أمد الظلم، وطال ليله، فلا بدَّ للحقِّ في النهاية أن يعلو وينتصر، وللباطل من أن

يضمحل ويندثر.



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿[الشورى: ٢٤].﴾

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالاعتبار بقصص السابقين، وما مضى فيهم من أمر الله عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقد تقدم بيان الأمر بالاعتبار وآيات كثيرة دالة عليه.

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بالنصر والتمكين، وبين في غير آية أن العاقبة للمتقين فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [١٣] ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿[يونس: ١٣-١٤].﴾

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [١٢] ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[يونس: ١٠٢-١٠٣].﴾

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [١٧] ﴿[الأعراف: ١٣٧].﴾

وبشر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بحسن العاقبة أيضاً في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧] ﴿[الروم: ٤٧].﴾

وقال جَلَّوَعًا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٣] وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَكَذَلِكَ نُجِّى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [١٠] وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: ٥-٦].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [٧١] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [٧٢] وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلْأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].. إلى غير ذلك من الآيات.



وقال في فرعون وقومه مما بغى وظلم: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٧) [الأعراف: ١٣٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴿[الإسراء: ١٦-١٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ [الحج: ٤٢-٤٥].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨) [الحج: ٤٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ (٣١) وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَزْجُونَ نَشُورًا ﴿٤٠﴾ [الفرقان: ٣٦-٤٠].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ [الشعراء: ١٧٢-١٧٣].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴿[النمل: ٥١-٥٢].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[الصافات: ١٣٦-١٣٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٥-١٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٠].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٢١﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٢٢﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٢٣﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكِثُ بِالْحَاطِئَةِ ﴿٢٤﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة: ٥-١٠]....

إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدم ذكر كثير منها.

فمن سلك طريق المتقين فقد وعده الله عَزَّوَجَلَّ بالحياة الطيبة وحسن العاقبة، ومن بغى وتكبر وسلك سبيل فرعون وهامان وقارون وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وغيرهم مما أعرض وظلم وتكبر فإن سنة الله عَزَّوَجَلَّ جارية فيهم كما جرت فيمن قبلهم، كما قال جَلَّوَعًا: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ﴿٢٦﴾﴾ [محمد: ١٠].

وأصحاب البصائر يعتبرون بأحوال السابقين، ويهتدون بآيات الله عَزَّوَجَلَّ، وينظرون في سنته الماضية في هذا الكون، والتي لا تبدل لها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

﴿٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ

لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣].

وفي النهاية سيجازي كل على ما كسب إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وقد أفلح

من اعتبر فسلك طريق النجاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

والسنن الإلهية في هذا الكون تتسم بالاطراد، فلا تتخلف مع وجود مسبباتها، ومع

انتفاء ما يمنعها، ويتحقق ذلك على وفق ما قرر في الشرع.

وقد جاء في الحديث: «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»^(١)، أي:

بالجذب والقحط.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال: أقبل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يا

معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتكم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة

في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في

أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المثونة،

وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٤٥٧٧]. قال الهيثمي (٦٦/٣): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات".

وأخرجه أيضًا: تمام في (الفوائد) [٩٤٠].

البهائم لم يمتطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١).

وفي رواية: عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما نقض قوم العهد قط، إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط، إلا سلط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر»^(٢).
فمن سنن الله عَزَّجَلَّ أن البلاء يقع بسبب المجاهرة بالمعاصي، وبسبب الظلم وسفك الدماء، ونقض العهود والمواثيق.

وما أصاب الأمة ما أصابها من البلاء إلا بسبب المجاهرة بالمعاصي، والإقرار بها، وترك الإنكار، فلما كثرت المظالم، ولم يُنكر على الظالم، وانتشرت الرشوة، وشاع شراء الذمم، وفسد القضاء، وأهدرت الحقوق، وبغى الناس بعضهم على بعض، أصاب الأمة ما أصابها من البلاء والفقر والتخلف. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣].

(١) أخرجه ابن ماجه واللفظ له [٤٠١٩]، والبزار [٦١٧٥]، والحاكم [٨٦٢٣]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضاً: أبو نعيم (٣٣٣/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٤٢]، وابن عساكر (٢٦٠/٣٥). قال الهيثمي (٣١٧/٥): "رواه البزار ورجاله ثقات".

(٢) أخرجه البزار [٤٤٦٣]، والحاكم [٢٥٧٧]، واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً: البيهقي في (السنن) [٦٣٩٧]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٤٠]. قال الهيثمي (٢٦٩/٧): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير رجاء بن محمد وهو ثقة".

وقد جاء في الحديث: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»^(١).

وفي رواية: «إذا رأوا المنكر»^(٢).

وفي رواية: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرن على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»^(٣).

وإنَّ الله جَلَّوَعًا يمهِّل الظالم ولا يمهله، كما جاء في الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ^(٤).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي» أي: ليمهل، و(الإملاء): الإمهال والتأخير، وإطالة العمر، «للظالم»؛ زيادة في استدراجه؛ ليطول عمره، ويكثر ظلمه، فيزداد عقابه: ﴿إِنَّمَا تُمْلَى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ووقوع العفو عن بعض أفراد الظلمة يكون مع تعويض المظلوم فهو نصر أيضاً، وفيه: تحذير شديد من الظلم، وأن مراتعه وخيمته، ومصائبه عظيمة^(٥).

(١) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبخاري [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص: ٩٧)، الأذكار (ص: ٣٣١).

(٢) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى [١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٣) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

(٤) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].

(٥) انظر: فيض القدير (١/١٤١)، (٢/٢٦٤).



فمن سنن الله عَزَّجَلَّ: استدراج الظالم، وابتلاء المظلوم، "فمن الاستدراج: أن يملأ للإنسان في ظلمه، فلا يعاقب سريعاً؛ حتى تتكسد عليه المظالم، فإذا أخذه الله عَزَّجَلَّ لم يفلته، أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ومن سنن الله عَزَّجَلَّ: أن المكر السيء يحيق بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَسْتَكْبَرًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾ [فاطر: ٤٣]، أي: لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره، كما قيل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

قال بعض السلف: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر والبغي والنكث. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠].

وقال مكحول رَحِمَهُ اللهُ: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فالأربع اللاتي له: فالشكر، والإيمان، والدعاء، والاستغفار، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]^(١).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤٢٦/٥-٤٢٧)، حلية الأولياء (١٨١/٥)، تاريخ دمشق (٢٢٥/٦٠-٢٢٦).



وقليل من عباد الله عَزَّجَلَّ شكور لنعمه الوافرة، يقابل ذلك الإحسان والفضل بالاجتهاد فيما يرضي ربه جَلَّوَعَلَا، ويصبر على ما أصابه من البلاء، شاكرًا لله عَزَّجَلَّ في السراء والضراء، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا: ١٣]، وقال عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وإن من سنن الله عَزَّجَلَّ الكويَّة التي لا تتبدل ولا تتغير: أَنَّ العصيان يجلب الانتقام، وَأَنَّ الطَّاعة تجلب الرَّحمة والرضوان، وَأَنَّ من أكبر أسباب زوال النعمة: كفرانها، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثُكْرًا﴾ [٨] فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ [الطلاق: ٨-٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال في بيان عاقبة من كفر نعمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [٢٨] جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

وقال الله عَزَّجَلَّ في بيان عاقبة الإعراض عن طاعته وكفران نعمه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [١٥] فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّنَ

سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ [سبا: ١٥-١٧]. وقد جاء بيان ذلك مفصلاً في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

٩ - القرآن الكريم إنما يعنى بالمهمات:

يتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وغيرهم، ولا يُعنى غالباً بتحديد زمان ولا مكان، ولا ذكر أشخاص، ولا تسجيل مجرد للحوادث والأشخاص، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس... الخ. فمثلاً: أين كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وأين كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ لا يقول؛ لأنه ليس المكان الذي يشكّل الحدث، وليس الزَّمان هو الذي يشكّل الحدث، وليس اسم الشخص يشكّل الحدث؛ ولذلك لا يصرّح حتى بذكر اسم الشخص، فيقول: (فرعون) مثلاً، وهو لقبٌ لكلِّ ملوك (مصر) القدماء، و(تُبَّع) لكلِّ ملوك (اليمن) -مثلاً-، فالقرآن لا يُعنى إلا بالمهمّات، فتحديد المكان فضلاً عن المسافة الدّقيقة لا دخل له في تشكيل الحدث. فعندما أتصوّر -مثلاً- أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سينادي الكفّار كما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ له: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، صحيح أن مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جسم محسوس، والكفّار أجسام محسوسة، ولكن ما قيمة أن يقال: إِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ينادي كان بينه وبين الكفّار الذين يناديهم مسافة كذا؟ فما قيمة هذا حتى يُعنى به القرآن؟ فلمّا كان ملاحظة المكان الحسّي شيء يسقط من قصد القرآن؛ لأنّه لا صلة له بتشكيل الأحداث، والقرآن إنما يعنى بموطن العبرة والحكمة، وكذلك في النّداءات التي بين المخلوق والمخلوق لا يلاحظ المسافة الحسّيّة.

والأصل في أكثر الألفاظ الموضوعية لمعانٍ أنّها جاءت موضوعة أصلاً لمحسّ مشاهد، وأنّها لا تصرف إلى ما ليس حسّيّاً مشاهداً إلا بنوعٍ من الإطلاق بعد التقييد؛ لأنّ الأصل

أنَّ الواضع عندما يضع اللفظ إنما يضعه؛ ليكون وسيلة تفاهم بينه وبين مخاطبه، ولا بُدَّ من اللفظ؛ لأنَّ الإشارة وحدها لا تكفي فقد يكون الشخص بعيداً لا يرى الإشارة .. القرآن لا يُعنى إلا بالمهمَّات أصلاً، والمكان والمسافة ليس من المهمَّات؛ ولذلك نجد القرآن الكريم عندما يسوق القصص لا يأتي بالمكان المحدد بالضبط. والاعتبار والهداية هما ركيزتا القصد من القصص، والأحاديث، والأخبار في الكتاب والسنة - كما تقرَّر في غير موضع -، فهما المقصد الأساس الذي ينبغي أن يلتفت إليه، دون التفات في الغالب إلى الزمان والأشخاص والمسافات، وإن كان في النصوص اعتبار للزمن فلنكتة ظاهرة، لا تخفى على متأمل من أولى البصائر.

١٠ - إبراز كثير مما أخفاه أهل الكتاب:

وفي ذلك إشارة إلى التبدل والتغيير والتحريف الذي وقع في الكتب السابقة؛ لأنها كانت محلّية ومرحليّة، وعندما يتطور الواقع فتنسخ شريعة، يأتي رسول جديد بشريعة جديدة، كما قال عيسى عليه السّلام لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِإِجْلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

ولكن أماً وقد بلغت الإنسانية سنَّ الرشد، وشاء الله عزَّ وجلَّ ختم رسالات السماء جاءت الشريعة المحمدية لتقف عند الثوابت والأطر والقواعد والكليات، وتترك التجديد والتطوير ومواكبة العصور للفقهاء الإسلامي الذي هو علم الفروع، فكان اهتمام العلماء بعلم المقاصد التي تعطي آفاقاً واسعة لفهم النّص بما يفي بمقتضيات عصر تجدد.

وجاء به الرسل عليهم السّلام يخرج من مشكاة واحدة - كما تقدم -، فالأصول واحدة؛ ولذلك كانت الرسالة الخاتمة لرد الناس إلى تلك الأصول بعد أن عبث بها يد التحريف،

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَتَاهُلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥]، أي: من نحو بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبشارة عيسى عَلَيْهِ السَّلَام به، وكثيراً من تلك الأحكام التي بدلت، أو حذفت؛ ولذلك تميز القرآن الكريم بالحفظ من التبديل أو التغيير إلى قيام الساعة، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]؛ لأنه آخر الكتب السماوية، والنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم النبيين، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقد كان الناس الحال قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فترة انقطاع من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَام حيث إن الرسائل السابقة وبسبب ما حدث فيها من التبديل والاختلاف لم يعد لها أي أثر في الواقع، فكثرت النسخ عن تلك الكتب واختلفت وتناقضت، بل إن العهد الجديد لم يعد فيه أي تكليف.

وقد قال الله عَزَّجَلَّ عن تلك الفترة من الانقطاع: ﴿يَتَاهُلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِّن الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، والمراد من الفترة: انقطاع ما بين الرسولين - كما سيأتي في ألفاظ الزمن-؛ "لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بعد انقطاع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَام؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَام كانت إلى وقت رفع الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَام تَتَرَى، أي: متواترة، يجيء بعضها في إثر بعض.



وقد جاء في القرآن الكريم ذكر بعض ما أخفاه أهل الكتاب، ومن ذلك قوله
جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَزَزَهُ فَأَسْتَعْلَظَ فَاَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ يَعْجِبُ الزُّرَّاعُ
لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقال الله عَزَّجَلَّ في وصف حالهم من إخفاء الحق وكتمانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

١١ - تنبيه الإنسان من الغفلة:

إِنَّ أخطر شيءٍ في حياة الإنسان هو الغفلة، والغفلة عن ماذا؟ الغفلة عن أعظم
شيءٍ في الوجود، ألا وهو الصِّلة بالله عَزَّجَلَّ، وطاعته والتقرب إليه، فالغفلة عن الله عَزَّجَلَّ
مُهْلِكَةٌ للإنسان، فكم من غافلٍ عن مولاه لم يستفك إلا وهو صريعٌ بين الأموات، فما
ينفعه وقتها الندم، ولا تنفعه الحسرات!



إن الغفلة تورث صاحبها المهالك، فإذا دهم الغافل الموت فإنه يتحسر على التفريط في الطاعة، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاتته، فيأتيه الجواب: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقد جعل الله عزَّ وجلَّ في هذا الكون آيات جليلة دالة على عظمته ووحدانيته غفل عنها كثير من الناس، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، فكم من آية بينة في نفسها يغفل الناس عنها؟! كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَكَايِن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]. وحقيقة المرور: الاجتياز، ويستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء، كقوله جلَّ وعلا: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّةٍ﴾ [يونس: ١٢]، أي: نسي دعاءنا، وأعرض عن شكرنا؛ لأن المار بالشيء لا يقف عنده، ولا يسأله، أي: لا يستعلم عنه.

وقال الله عزَّ وجلَّ حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق القمر: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

ثم أعقب ذلك ببيان سبب الغفلة، وأنه متابعة أهواءهم الباطلة، وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره فقال جلَّ وعلا: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القمر: ٣].

وقصص القرآن الكريم توجه الأنظار إلى التأمل والاعتبار من خلال النظر إلى آثار الأمم الغابرة، وما حلَّ بهم من عقاب الله عزَّ وجلَّ بسبب الإعراض والغفلة عن آيات الله عزَّ وجلَّ، كما جاء في قصة غرق فرعون وجنوده في قوله جلَّ وعلا: ﴿* وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٩٠] ءَالَقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

فَقُولِهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَفِلُونَ﴾ ٩٢، أي: لا يتفكرون، ولا يتعظون بها.

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال بعضهم: ﴿نُنَجِّيكَ﴾، أي: نرفعك على نجوة من الأرض فَنُظْهِرُكَ؛ لأنه قال: ﴿يَبْدِنِكَ﴾، ولم يقل: بروحك" (١).
والمراد: اليوم نجعلك على نُجْوَةٍ من الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكا من كَذَبٍ بهلاكك.

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنما كان ذلك آية؛ لأنه كان يدعي أنه إله وكان يعبد قومه، فبين الله عَزَّجَلَّ أمره وأنه عبد.

وفيه من الآية أنه غرق القوم وأخرج هو من بينهم، فكان في ذلك آية" (٢).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِتَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، أي: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك،، فينزعرون عن معصية الله عَزَّجَلَّ، والكفر به، والسعي في أرضه بالفساد" (٣).

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، يعني: عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة والألوهة خالصة لله عَزَّجَلَّ وحده.

وأخبر الله عَزَّجَلَّ في آيات أخرى عن غفلة فرعون وجنوده عن الآيات البينات التي جاءهم بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِءَايَتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُون لَّهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّهَا أَلَمَلًا مَا

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (نجا) (١/٦/٢٥٠).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٣/٣٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/١٩٤-١٩٨).



عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاْنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِكِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص: ٣٦-٤٢].

١٢ - الإرشاد إلى آداب المناظرة والحوار، وإقامة الحجة على المخالف:

إن قصص القرآن فيها إرشاد إلى آداب المناظرة والحوار، ودروس في الأخلاق والسلوك.

ومن ذلك ما قصه الله عَزَّجَلَّ من قوله جَلَّوَعَلَا لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مرشدًا لهما، ومعلِّمًا للعباد أرفع أسلوب في الدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ من خلال الحوار: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيًّا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿١٤﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

ومن ذلك ما قصه الله عَزَّجَلَّ من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وحوارهم مع أقوامهم، وإقامة الحجة عليهم في دحض ما يعبدون من دون الله عَزَّجَلَّ، والآيات في ذلك كثيرة، وهاك ذكر أنموذج من حوار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه:

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٢﴾ يَتَابَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١٤﴾ يَتَابَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَلَيْهَا عَذَابًا ﴿٢١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٢٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٢٣﴾﴾



قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ
الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي
وَيَسْقِينِي ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي
خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٢].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿٨٣﴾ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٤﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٥﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٦﴾ أَفَبِكَا عَالِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٧﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿٨٨﴾ [الصافات: ٨٣-٨٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٩٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ ﴿٩١﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٩٢﴾ قَالَ لَقَدْ
كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٣﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٩٤﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنْ الشَّاهِدِينَ ﴿٩٥﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٩٦﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا
مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩٨﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٩٩﴾ قَالُوا
فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠١﴾ قَالَ
بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿١٠٢﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ
الظَّالِمُونَ ﴿١٠٣﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٠٤﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٠٥﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿١٠٦﴾ [الأنبياء: ٥١-٦٧].

وفي القرآن الكريم تعليم لكل باحث عن الحق لنصب الأدلة والبراهين، وإبانة الحق
دون شائبة، وإلزام الخصم، ومن ذلك: ما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عن اليهود والنصارى من قولهم:
﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨].

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "وعطف: ﴿وَأَحْبَبُّهُ﴾ على ﴿أَبْتَوْا﴾
اللهُ ﴿أَنْهُمْ قَصَدُوا أَنْهُمْ أَبْنَاءُ مَحْبُوبِينَ؛ إِذْ قَدْ يَكُونُ الْإِبْنُ مَغْضُوبًا عَلَيْهِ.

وقد علم الله عَزَّجَلَّ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ يَبْطُلُ قَوْلُهُمْ بِنَقْضِينَ:

أولهما: من الشريعة، وهو قوله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ يعني: أأنهم
قائلون بأن نصيبًا من العذاب ينالهم بذنوبهم، فلو كانوا أبناء الله عَزَّجَلَّ وأحباءه لما عذبهم
بذنوبهم، وشأن المحب أن لا يعذب حبيبه، وشأن الأب أن لا يعذب أبنائه. روي أن
الشبلي رَحِمَهُ اللهُ سأل أبا بكر بن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: أين تجد في القرآن أن المحب لا يعذب
حبيبه؟ فلم يهتد ابن مجاهد، فقال له الشبلي في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ
بِذُنُوبِكُمْ﴾^(١).

وليس المقصود من هذا: أن يرد عليهم بوقوع العذاب عليهم في نفس الأمر، من
تقدير العذاب لهم في الآخرة على كفرهم؛ لأن ذلك لا يعترفون به فلا يصلح للرد به؛ إذ
يصير الرد مصادرة^(٢)، بل المقصود: الرد عليهم بحصول عذاب يعتقدون حصوله في

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد من السنة. وله شاهد في (المسند) للإمام أحمد: عن
أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: مرَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم
خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول
الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فخفضهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «لا، والله ما يلقي حبيبه
في النار» تفسير ابن كثير (٦٩/٣). والحديث أخرجه أحمد [١٢٠١٨، ١٣٤٦٧]، والبزار [٦٥٧٩]،
قال الهيثمي (٢١٣/١٠): "رواه أحمد، والبزار، ورجاهما رجال الصحيح"، وأخرجه أيضًا: أبو يعلى =
[٣٧٤٧]، والحاكم [١٩٤]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي
في (شعب الإيمان) [٦٧٣١]، وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (الحبة صورها وأحكامها).

(٢) يعني: مصادرة على المطلوب. هي عبارة عن أقوال، أو مبادئ، أو قضايا يفترض الباحث صحتها في أول
بحثه، وهي قضايا ليست يقينية بنفسها، كما لا يمكن أن يُبرهن عليها، ولكن يصادر عليها، أي: يطالب =

عقائد دينهم، سواء كان عذاب الآخرة أم عذاب الدنيا. فأما اليهود فكتبهم طافحة بذكر العذاب في الدنيا والآخرة^(١)، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. وأما النصارى فلم أر في الأناجيل ذكراً لعذاب الآخرة إلا أنهم قائلون في عقائدهم بأن بني آدم كلهم استحقوا العذاب الأخروي بخطيئة أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاء عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ مُخْلِصًا وَشَافِعًا، وعرض نفسه للصلب؛ ليكفر عن البشر خطيئتهم الموروثة، وهذا يلزمهم الاعتراف بأن العذاب كان مكتوباً على الجميع لولا كفارة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحصل الرد عليهم باعتقادهم به بله اعتقادنا.

ثم أخذت النتيجة من البرهان بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾، أي: ينالكم ما ينال سائر البشر. وفي هذا تعريض أيضاً بأن المسيح بشر؛ لأنه ناله ما ينال البشر من الأعراض والخوف، وزعموا أنه ناله الصلب والقتل^(٢).

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا الْمَسِيحُ أَبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فهو كناية عن قضاء الحاجة؛ لأن الذي يأكل الطعام يحتاج إلى قضاء الحاجة، فهو محتاج من ناحيتين، ومن كان هكذا حاله لا يصلح أن يكون رباً، وهو ما ينفي بأبلغ عبارة الألوهية عن الرسول المحتاج إلى الطعام وإلى دفعه، وفيه دلالة على البون الشاسع بين (مقام الألوهية) و(مقام النبوة).

= بالتسليم بها؛ لأن من الممكن أن نستنتج منها نتائج لا حصر لها دون الوقوع في إحاله، فصحتُها إذن لتبين من نتائجها، أما مصطلح: (المصادرة على المطلوب) عند المناطقة والأصوليين، فالمراد به أن تجعل النتيجة جزء القياس أو تلزم النتيجة من جزء القياس نحو: الإنسان بشر، وكل بشر ضحاك فينتج أن: الإنسان ضحاك.

(١) وقد ذكرت جملة من هذه النصوص في كتاب: (الحجة صورها وأحكامها).

(٢) التحرير والتنوير (٦/١٥٥-١٥٦).

وفي الآية: اختصار بليغ؛ إذ يصح أن يراد المعنى المجازي، كما يصح أن يراد المعنى الحقيقي معه؛ إذ إن دلالة كل منهما واحدة، وهي العجز والافتقار؛ والآية تدل على ذلك عليهما معاً؛ إذ إن أحدهما مسبب عن الآخر، ولا ينفك عنه، وفيها: عدم التصريح بما يستقبح ذكره، والإشارة إليه بما هو مسبب عنه.

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ هذا من الاختصار والكناية، وإنما نَبَّهَ بأكل الطعام على عاقبته، وعلى ما يصير إليه، وهو الحدث؛ لأن مَنْ أَكَلَ الطَّعَامَ فلا بدَّ له من أن يُحْدِثَ. ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَتَى يُؤَفِّكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وهذا من ألطف ما يكون من الكناية" (١).

أما من قال: ليس في هذا كناية فقد اعترض على هذا بالاستدلال بصريح الآية، وهو يدل على المعنى، وهو أنهما يعيشان بالغذاء، كما يعيش سائر آدميين، فكيف يكون إلهًا من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟! وقد فصلت القول في ذلك مع تحرير القول فيه في كتاب (مجاري الكناية).

١٣ - القصة تكشف خفاء تلك الواقعة ذات الحلقات المتتابعة:

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَثْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

(١) غريب القرآن، لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، وانظر: الوسيط، للواحدي (٢/٢١٣)، تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢/٥٦)، المحرر الوجيز (٤/٧٥)، غرائب التفسير، للكرماني (١/٣٣٦)، تفسير البغوي (٣/٨٣).

١٤ - صحة النقل:

تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ هذا الدين، وحفظ كتابه المبين، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقد كان القرآن ولا يزال محفوظاً في الصدور، وقد نقل نقلاً متواتراً، ولم يتبدل أو يتغير منه شيء على مرِّ السنين؛ لأنه الكتاب الخاتم، فأني لأأيدي العبيد أن تغير أو تبدل ما تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظه؟! ولم يحفظ كتاب في الصدور كما حفظ القرآن على مرِّ التاريخ.

وقد تبدلت الكتب من قبله؛ لأنها كانت محلّية ومرحليّة؛ - كما تقرّر في غير موضع -.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وفي قصص البشر قد تكون القصة صادقة، وقد تكون كاذبة، والأصل أن تكون القصة صادقة؛ لما يحتف بها من القرائن والآثار، ولأن المؤمن لا يكذب، ولا ينقل القصص والأخبار عن الكذابين، فإذا ذكر قصة لا تصح بيّن ما يعتريها من الضعف أو الوضع؛ لأجل التحذير منها.

وقد دعا القرآن الكريم إلى التثبت في النقل، وإلى نصب الأدلة والبراهين على صحة الخبر، وصدق المخبر، من نحو: النظر في الدلائل والقرائن، ومن ذلك: مشاهدة الآثار التي خلفها أهلها في الأرض، والتي تعبر بلسان حالها عن تلك الأمم، وما كانوا عليه من قوة، وما نزل بهم من عقاب حتى أصبحت بيوتهم خاوية، وتركوا الملك والقصور والأموال. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥١] فَمَكَرْتُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمْتُمْ﴾ [النمل: ٥١-٥٢].. إلى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها.

وينبغي على طالب العلم أن لا يتعجل بالنقل أو التحديث دون تثبت، وأن لا يروي عن الضعفاء والمتهمين. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كفى بالمرء كذباً أن يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»^(١). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن كذباً علي ليس ككذب علي أحد، من كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع^(٣). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سيكون في آخر أمتي أناس يُحَدِّثُونَكُمْ ما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم»^(٤).

وعن سفيان بن حسين، قال: سألتني إياس بن معاوية رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: إني أراك قد كلفت بعلم القرآن، فاقراً علي سورة، وفسر حتى أنظر فيما علمت، قال: ففعلت، فقال لي: احفظ علي ما أقول لك: إياك وَالشَّنَاعَةَ في الحديث، فإنه قلما حملها أحد إلا ذلَّ في نفسه، وكُذِّبَ في حديثه^(٥).

والشَّنَاعَةُ: القبح. ومعنى كلامه: أنه حذره أن يحدث بالأحاديث المنكرة التي يشنع على صاحبها، وينكر وَيَقْبُحُ حال صاحبها، فيكذب، أو يستراب في رواياته، فتسقط منزلته، ويذل في نفسه - والله أعلم -^(٦).

(١) صحيح مسلم (١٠/١) [٤].

(٢) صحيح البخاري [١٢٩١]، مسلم [٤].

(٣) ونحوه عن عبد الله. صحيح مسلم [٥].

(٤) صحيح مسلم [٦].

(٥) مقدمة صحيح مسلم (١١/١).

(٦) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/٧٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم، ولا يفتنونكم»^(١).

قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا العلم دين، فانظروا عَمَّنْ تأخذون دينكم^(٢).
وعنه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سَمَوْا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم^(٣).

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ عن مسعر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سمعت سعد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لا يحدث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا الثقات^(٤).

فينبغي تحرير الأخبار وتوثيقها، والتَّشَبُّثُ من صحتها وسلامتها، والإعراض عن سماع الشائعات، والتحذير منها، وعدم الإصغاء إلى الشائعات من أسباب الوقاية من آفاتهما، وهي خير من العلاج؛ لأن الداء إذا تفشى عَسُرَ علاجه، وقد ذمَّ الله عَزَّجَلَّ اليهود ونعاهم بأنهم: «سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ»^ط [المائدة: ٤١].

فيلزم الناقل التَّبَيُّنُ والتَّبَصُّرُ لكلِّ أمرٍ مشتبهِ وملتبسٍ، واجتنابُ التَّحْدِيثِ والإخبار لمجرد السَّماع من غير تبين. قال الله عَزَّجَلَّ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» [الحجرات: ٦].

(١) صحيح مسلم [٧].

(٢) مقدمة صحيح مسلم (١/١٤).

(٣) المصدر السابق (١/١٥).

(٤) المصدر السابق (١/١٥).

وينبغي زجر من يحدث بكل ما سمع دون تبين ولا تثبت، أو يشيع شائعة، والتحذير منه، ومطالبته بالدليل. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

فكل كلمة تقال دون تثبت وتبصر فهي شائعة وزعم مدموم، كما جاء في الحديث: «بئسَ مطيئةُ الرجل زعموا»^(١).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصل هذا: أن الرجل إذا أراد الظعن في حاجة، والمسير إلى بلد ركب مطيته، وسار حتى يبلغ حاجته، فشبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقدمُ الرجل أمام كلامه، ويتوصل به إلى حاجته من قولهم: «زعموا» بالمطية التي يتوصل بها إلى الموضع الذي يؤمه ويقصده. وإنما يُقال: زعموا في حديث لا سند له، ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء يحكى عن الألسن على سبيل البلاغ، فذمَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحديث ما كان هذا سبيله، وأمر بالثبوت فيه، والتوثيق لما يحكيه من ذلك، فلا يرويه حتى يكون معزوًّا إلى ثبت، ومرويًا عن ثقة"^(٢).

وقد أرشد القرآن الكريم من وردت على سمعه شائعة إلى أن يصون لسانه عن نقلها، وأن يُعرض عن قائلها وينهاه، ويقول له: ما يكون لي أن أتكلّم بهذا، سبحانك ربي هذا بهتان عظيم. قال الله عَزَّجَلَّ لمن خاض فيما أشيع عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

(١) أخرجه أبو داود [٤٩٧٢]، قال الإمام النووي: "أخرجه أبو داود بإسناد صحيح" انظر: الأذكار (ص: ٣٧٩-٣٨٠).

(٣٨٠)، وانظر: (المقاصد الحسنة) (ص: ٢٤٣).

(٢) معالم السنن (٤/١٣٠)، وانظر: الأذكار، للنووي (ص: ٣٧٩-٣٨٠).

والمسلم يعلم أن الإنسان مؤاخذ بما يقول، فلا يقول إلا حقاً، ولا ينطق إلا صدقاً، فهو يوقن بقول الله عَزَّجَلَّ بأنه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [١٨: ١٨].

١٥ - الأهداف التربوية للقصة (قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْوُذَجًا):

إن من مقاصد القصة في القرآن الكريم: الهداية، والموعظة الحسنة، ومن مقاصدها: التربية على بناء العقيدة على أسس راسخة من الإيمان، والثبات، والاستقامة في الفكر والسلوك، والصبر على الابتلاء، وعلى مشاق الدعوة. وفي القصص القرآنية: حثٌّ على مكارم الأخلاق، والصفات الفاضلة، وبيان للقدوة الحسنة التي يُقتدى بها، وفيها: التحذير من القدوة السيئة التي تضل الناس عن سواء السبيل.

وإن من قصص القرآن الهادفة والنبيلة: ما جاء في القرآن الكريم من ذكرٍ لوصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجامعة والنافعة.

فقد كان لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مربيًا حكيمًا وناصحًا، آتاه الله عَزَّجَلَّ الحكمة، وأثنى عليه، وأمره أن يشكر الله عَزَّجَلَّ على هذه النعمة العظيمة؛ فإن الحكمة من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ومن الدروس المستفادة من وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: الوصية بالشكر لله عَزَّجَلَّ على نعمه الوافرة، والشكر للوالدين، وذكر فائدة الشكر، وأنها تعود على العبد، وأن الله جَلَّوَعَلَا غنيٌّ عن العباد، وهم الفقراء إليه، وحاجتهم الدنيوية، وكذلك الأخروية هي التي تحتاجهم إلى هذه الدينونة له بالعبادة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].



وقال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقد سجّل القرآن الكريم نصيحة لقمان عَلَيْهِ السَّلَام لابنه؛ لما تتضمن من الهداية والإرشاد والنصح.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فنادى لقمان عَلَيْهِ السَّلَام ابنه ناصحاً ومرشداً، نصيحة محبٍ، ومشفق، وحريص على سلامة ابنه ونجاته وعافيته في دنياه وفي آخرته، ناداه باللفظ المحب، والذي يحرك العاطفة فقال: ﴿يَبْنَى﴾، فكانت هذه الدروس العظيمة الفائدة.

فناداه بهذه الصيغة التي تحرك العاطفة، والتي فيها: الموعظة، والنصح والتوجيه والإرشاد، والتحبب، والشفقة، فماذا يريد الوالد لولده إلا الخير؟

ومن الدروس المستفادة من وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَام: بناء العقيدة على التوحيد الخالص لله عَزَّجَلَّ، والنهي عن الشرك، وبيان أن الإيمان قول، وعمل.

وقد تقدم أن إثبات الوجدانية لله عَزَّجَلَّ، والتحرر من العبودية لغيره من أعظم مقاصد القصص والأخبار في القرآن الكريم.

كما تقدم أن أعظم أسباب النجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّجَلَّ، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والمراد بالظلم هنا: الشرك؛ لما جاء في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقالوا: أئنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

﴿١٣﴾ [لقمان: ١٣] «^(١). فبين لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه قبح الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وسوء عاقبته، فالشرك أعظم ذنبٍ عُصِيَ الله عَزَّوَجَلَّ به، وهو أعظم ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، وأقبح السيئات وأشنعها عند الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

ثم جاء في الآيات: ذكر الوصية بالوالدين، والحثُّ على برِّهما، وشكر الله عَزَّوَجَلَّ والوالدين، فقرن الله عَزَّوَجَلَّ شكره بشكرهما، وأمر بمصاحبتهما في الدنيا بالمعروف. وخصَّ الإحسان إلى الوالدين من بين أوجه الإحسان الأخرى؛ لبيان مكانة الوالدين، ولا سيَّما الأم التي حملت ابنها وهي تزداد ضعفًا على ضعف؛ إذ الحمل يُضعفها، ويزيدها الحمل والولادة والإرضاع ضعفًا، فصوَّر القرآن الكريم ما تعانيه الأم في حملها، وفي ولادتها، وفي إرضاعها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أهلك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أهلك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أهلك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»^(٢).

وقد أكَّد القرآن الكريم على ضرورة الإحسان إلى الوالدين تأكيدًا لا تجد نظيرًا له في الديانات الأخرى، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وتوحيده، وجعل برَّ الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكره بشكرهما. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، أي: وصيَّناه بشكرنا وبشُكْر والديه، وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقِّهما، ووجوب برِّهما، والإحسان

(١) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].

(٢) صحيح البخاري [٥٩٧١]، مسلم [٢٥٤٨].

إليهما. فأوجب الله عزَّ وجلَّ شكر نفسه، وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يكتفى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما علم أنَّ شكر الحق لا يكفي فيه مجرَّد القول ما لم تكن فيه موافقه العمل، وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة ^(١).

وقد خصَّ الحق جلَّ وعلا حالة الكبر والشيخوخة بالذكر في قوله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره أكثر من ذي قبل؛ لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر. فالزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنه قد يظنُّ أنَّهما صارا كلاً عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليهما منه؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. وأيضاً: فطول المكث للمرء يوجب الاستئصال عادة، ويحصل الملل، ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه.

وإنَّ الوالدين أحق الناس بحسن الصحبة، وجميل البر والإحسان؛ لعظيم فضلتهما، وشدة عنايتهما، وحرصهما على راحتك وسعادتك في جميع أطوار حياتك. وقد اهتمَّ الإسلام بالوالدين اهتماماً بالغاً، وجعل طاعتهما والبر بهما من أفضل القربات. ونهى عن عقوقهما، وشدَّد في ذلك غاية التشديد.

وقد جعل الشارع برَّ الوالدين من أعظم الأعمال وأحبها إليه، فقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قيل: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قيل: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» ^(٢).

(١) انظر: لطائف الإشارات (٣/١٣١)، مفاتيح الغيب (١٠/٧٦).

(٢) صحيح البخاري [٥٢٧، ٥٩٧٠]، مسلم [٨٥].

وقدم في الحديث: برَّ الوالدين على الجهاد؛ إشارةً إلى أن حقوق العباد اللازمة (التي هي من فروض الأعيان) تقدم على التطوع بالجهاد^(١)، يعني: من باب تقديم فرض العين على فرض الكفاية. ويدل عليه حديث: عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أَحْيِي وَالِدَاكَ؟»، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»^(٢).

وبرَّ الوالدين واجب على كل مسلم ومسلمة. ويطلق البر على الإحسان بالقول اللين اللطيف الدال على الرفق والمحبة، وتجنب غليظ القول الموجب للنفرة، واقتران ذلك بالشفقة والعطف والتودد والإحسان بالمال وغيره من الأفعال الصالحات.

ويكون بر الوالدين بالإحسان إليهما بالقول اللين الدال على الرفق بهما والمحبة لهما - كما تقدم -، وبمناداتهما بأحب الألفاظ إليهما، كيا أمي ويا أبي، وليقل لهما ما ينفعهما في أمر دينهما ودنياهما، ويعلمهما ما يحتاجان إليه من أمور دينهما، وليعاشرهما بالمعروف. أي: بكل ما عرف من الشرع جوازه، فيطيععهما في فعل جميع ما يأمرانه به، من واجب أو مندوب، وفي ترك ما لا ضرر عليه في تركه، ولا يحاذيهما في المشي، فضلاً عن التقدم عليهما، إلا لضرورة نحو ظلام، وإذا دخل عليهما لا يجلس إلا بإذنهما، وإذا قعد لا يقوم إلا بإذنهما، ولا يستقبح منهما نحو البول عند كبرهما أو مرضهما؛ لما في ذلك من أذيتهما. قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وبر الوالدين فرض لازم، وهو أمر يسير على من يسره الله له. وبرهما: خفض الجناح، ولين الكلام، وألا ينظر إليهما إلا بعين المحبة والإجلال، ولا يعلو عليهما في مقال، إلا أن يريد إسماعهما، ويبسط أيديهما في نعمته، ولا يستأثر عليهما في مطعمه ولا مشربه.

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٤/٢١٦).

(٢) صحيح البخاري [٣٠٠٤، ٥٩٧٢]، مسلم [٢٥٤٩].

ولا يتقدم أحد أباه إذا مشى معه، ولا يتقدمه في القول في مجلسه، فيما يعلم أنه أولى به منه. ويتوقى سخطهما بجهد، ويسعى في مسرتكما بمبلغ طاقته. وإدخال الفرح عليهما من أفضل أعمال البر. وعليه أن يسرع إجابتهما إذا دعواه، أو أحدهما، فإن كان في الصلاة النافلة خففها وتجاوز فيها، وأسرع إجابتهما. ولا يقل لهما إلا قولاً كريماً.

وبرُّ الوالدين فرض عين، ولا يختص بكوئهما مسلمين، بل حتى لو كانا فاسقين أو كافرين يجب برُّهما والإحسان إليهما ما لم يأمرًا بشرك أو معصية. قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ جَهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وقال جل وعلا: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

وفي (الصحيح): عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة^(١) أفأصلها؟ قال: «نعم صليها»^(٢).

ومن الدروس المستفادة من قصة لقمان عليه السلام: التربية بالقدوة: المتمثلة في شخص الواعظ، العامل، الصالح، الناصح.

(١) قولها: «وهي راغبة» جملة حالية: أي: راغبة عن الإسلام وكراهة له. وقيل معناه: طامعة فيما أعطيها من الإحسان وحريصة عليه.

(٢) صحيح البخاري [٣١٨٣، ٥٩٧٩].

ثم جاء عقب الوصية بالوالدين: الأمر باتباع سبيل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين، والسير على نهجهم، كما في قوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فرضي الله عَزَّوَجَلَّ عمن اتبع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم القيامة، فدل ذلك على أن من تابعهم فهو عامل بما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، وسائر في طريق الهداية والنجاة، وفيه دلالة على أن مخالفة نهجهم مفض إلى الضلال والكفر، وقد قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقد فصل الله عَزَّوَجَلَّ الآيات، وبيَّنَها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيما بيان، فاستبان طريق المؤمنين الصالحين من طريق المجرمين المفسدين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وقال موسى لأخيه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وينبئ لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه على عدم استصغار الذنوب والاستهانة بالمعاصي، فمعظم النار من مستصغر الشرر، فالمعصية تبدأ صغيرة، ثم ما تلبث أن تصبح كبيرة، وتنتهي بصاحبها إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، فيذكر ابنه بالآخرة، وبما ينجيه من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، وبقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبسعة علمه وإحاطته بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، فيقول له: ﴿يَبْنَئُ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

﴿١٦﴾ [لقمان: ١٦]. وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦] دلالة على عظيم قدرة الله عزَّوَجَلَّ، وواسع علمه، فهو جَلَّوَعَلَا يعلم تلك الحبة ويأتي بها إذا شاء، ويأتي بجزء ما يَرُهَا من خيرٍ أو شرٍّ فيجازي عليه. قال الله عزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد حدَّثنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاستهانة بصغائر الذنوب، فقال: «إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، ثم حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ متى يُؤْخَذَ بها صَاحِبُهَا تَهْلِكُ»^(١).

(١) الحديث مروي عن سهل بن سعد، وعن عبد الله بن مسعود بالفاظ متقاربة. حديث سهل: أخرجه أحمد [٢٢٨٠٨]، والرويان [١٠٦٥]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٧٢]، و(الأوسط) [٧٣٢٣]، و(الصغير) [٩٠٤]، والرامهرمزي في (أمثال الحديث) (ص: ١٠٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٨١]. قال الهيثمي: (١٩٠/١٠): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة". حديث ابن مسعود: أخرجه الطيالسي [٤٠٠]، وأحمد [٣٨١٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٥٠٠]، وفي (الأوسط) [٢٥٢٩]، وأبو الشيخ [٣١٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٢٠٧٦٢]، و(شعب الإيمان) [٢٨١]. وقال المناوي: "قال الحافظ العراقي: إسناده جيد، وقال العلائي: حديث جيد على شرط الشيخين" فيض القدير (١٢٨/٣)، قال الهيثمي (١٨٩/١٠): "رواه أحمد، والطبراني في (الأوسط)، ورجاهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان، وقد وثق". وقال ابن حجر: التعبير بالمحقرات وقع في حديث: سهل بن سعد رفعه. وقد أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود. وعند النسائي وابن ماجه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ إِيَّاكَ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا». وصححه ابن حبان "فتح الباري، لابن حجر (٣٢٩/١١).



فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ»، "أي: صغائرها؛ لأن صغارها أسباب تؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها، فالصغائر إذا اجتمعت ولم تُكْفَر - بأن لم يوجد لها مكفراً- أهلكت؛ لمصيرها كبائر بالإصرار" (١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى تفوت أهل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة" (٢).

وفي (الصحيح): عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَوْبِقَاتِ». قال أبو عبد الله: "يعني بذلك: المهلكات" (٣).

وقد قيل:

وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى	حَلَّ الذُّنُوبِ صَغِيرَهَا
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْضِ الشُّوكِ	يَحْذِرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً	إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَا

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "كثيرٌ من الناس يتساحون في أمور يظنونها قريبة، كإطلاق البصر؛ هواناً بتلك الخطيئة، وكفتوى من لا يعلم؛ لئلاً يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظنه صغيراً، وهو عظيم" (٤).

(١) انظر: فيض القدير (١٢٧/٣)، التيسير بشرح الجامع الصغير (٤٠٥/١).

(٢) إحياء علوم الدين (٦٠/٣).

(٣) صحيح البخاري [٦٤٩٢].

(٤) صيد الخاطر (ص: ١٤٩) بتصرف. وقد حدَّث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذنوبٍ يظنُّ البعض أنها هينة، ولكنها ليست كذلك، فقد مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يعذبان، وما يعذبان في كبير»، ثم قال: «بلى، كان أحدهما =

وفي قوله جَلَّوَعًا: ﴿يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] دلالة على علم الله عَزَّجَلَّ بدقائق الأمور وجزئياتها، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أي: ﴿لَطِيفٌ﴾ باستخراج الحبة من موضعها حيث كانت ﴿خَبِيرٌ﴾ بموضعها ومستقرها.

وقد روى: "أَنَّ ابْنَ لَقْمَانَ سَأَلَ لَقْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ الْحَبَّةَ تَكُونُ فِي مَقْلٍ الْبَحْرِ، أَيْ: فِي مَغَاصِ الْبَحْرِ أَيْلَعْمَهَا اللَّهُ؟ - يُقَالُ: مَقْلٌ يَمْتَلُ: إِذَا غَاصَ -، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَعْلَمُ الْحَبَّةَ حَيْثُ كَانَتْ، وَفِي أَخْفَى الْمَوَاضِعِ؛ لِأَنَّ الْحَبَّةَ فِي الصَّخْرَةِ أَخْفَى مِنَ الْمَاءِ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ أَنَّهَا حَيْثُ كَانَتْ يَعْلَمُهَا بِلُطْفِهِ عَزَّجَلَّ وَخَبْرَتِهِ. وَهَذَا مِثْلُ لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَأْتِي بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (١).

وقد قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿آل عمران: ٦٠-٦١﴾. وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وفي قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ دلالة على أن الدنيا دار ابتلاء، وأن حقيقة الإيمان لا تكون إلا بالصبر على المكروه، والتزام أمر الله عَزَّجَلَّ من نحو: إقام الصلاة، والأمر

= لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة» صحيح البخاري [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥]، مسلم [٢٩٢]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما يعذبان في كبير» ذكر العلماء فيه تأويلين أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما، والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكى القاضي عياض تأويلاً ثالثاً، أي: ليس بأكبر الكبائر. شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠١/٣)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٦٤/٢). (١) معاني القرآن وإعرابه (١٩٧/٤).



بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فإن ﴿ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ١٧، أي: مما أمر الله عَزَّجَلَّ به على وجه العزم والإيجاب، أو من مكارم الأخلاق التي يعزم عليها أهلُ الحزم والجد، السَّالكون طريق النجاة.

وقد قال الله عَزَّجَلَّ في آية أخرى: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، أي: ستقع عليكم المحن، فيعلم المؤمن من غيره، والميزان الذي يميز المؤمن الصادق عن المدعي الكاذب هو ميزان التقوى والصبر.

وفي قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَام: دلالة على أن الحياة الدنيا هي ميدان العمل، وأن الدار الآخرة هي الدار الباقية، وتذكير بالحساب والجزاء، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]، أي: فأجازي من شكر، وأعاقب من كفر. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

ثم أوصى لقمان عَلَيْهِ السَّلَام ابنه بالاستقامة على طاعة الله عَزَّجَلَّ، والنزاهة أمره، وخصَّ الصلاة بالذكر من بين سائر الطاعات؛ لأنها عمود الدين، والصلة الدائمة بين العبد وربّه جَلَّوَعَلَا، وهي دليلٌ على محبة العبدٍ لربه عَزَّجَلَّ، وتقديره لنعمه التي لا تُحصى.

فالصلاة هي سنام الطاعات، والمحافظة عليها من أسباب التوفيق في الدنيا، كما أنها من أعظم المنجيات من العذاب في الآخرة، كما دلَّت النصوص على ذلك.

وهي تنمي في العبد شعور المراقبة لله عَزَّجَلَّ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، كما أخبر الحق عَزَّجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لأنها تجعل العبد مراقباً لله عَزَّجَلَّ في سائر أعماله وأقواله وأحواله.

والمواظبة على الصلاة عنوان فلاح المؤمن في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله عَزَّجَلَّ عباده الأخيار بأنهم ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ووصفهم بأنهم: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ



دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ [المعارج: ٢٣]، وبأنهم مهتمون بالصلاة، وحريصون على أدائها في أوقاتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، فالصلاة تعلم العبد التواضع والشكر، وتملأ قلبه بالرحمة، وفيها تدريب على النظام، والانتفاع من الزمن. والصلاة تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على تحمل الشدائد والمكاره، فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن خير ما يستعان به على ذلك: الصبر والصلاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ ولذلك أوصى لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه بالصلاة والصبر على ما أصابه. وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة ^(١).

وكان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما في حديث: صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما حكاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نبي من الأنبياء السابقين: «فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة» ^(٢).

والصلاة هي الغذاء الروحي الذي يعين على مقاومة الجزع إذا مسَّ الإنسان الضُّرُّ، والمنع والإمساك إذا مسَّه الخير. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿* إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۚ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣]، أي: إلا الذين يطيعون الله عَزَّوَجَلَّ بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئًا.

(١) جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر، صَلَّى» أخرجه أحمد [٢٣٢٩٩]، وأبو داود [١٣١٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٩١٢]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٧٢/٣): "أخرجه أبو داود بإسناد حسن".

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٨٠]، وأحمد بإسناد صحيح [١٨٩٣٧]، والبزار [٢٠٨٩]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٥]، وابن حبان [١٩٧٥]، والضياء [٥٢]، وقال: "إسناده صحيح".

ثم أوصى لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو القطب الأعظم في الدين، وهو الْمُهِمُّ الذي ابتعث الله عَزَّجَلَّ له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، كما قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ^(١). وكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد ومحاربتة، والصلاح والإصلاح طريق العزة، وعنوان الفلاح، وهو سبيل النجاة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا. وقد تقدم بيان مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم أوصاه بالصبر والثبات؛ لأن من استقام على طاعة الله عَزَّجَلَّ، وسار على نهج النبيين عَلَيْهِ السَّلَامُ والمصلحين فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإنه سيتعرض للإيذاء والشدة كما تعرض من قبله من خيرة الخلق؛ فلذلك أمره بالصبر. وقد تقدم بيان مكانة الصبر. **فمن الدروس المستفادة من قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ:** أنه أوصى ابنه بالصبر وبالشكر - كما تقدم -، وبين الشكر والصبر تلازم.

فقد ذكر غير واحد من الأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ وجه التلازم بين الصبر والشكر، فمن ذلك: قول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشكر واجب، وترك الواجب حرام، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر على فعل الحرام، والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه: الشكر والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه: الصبر والشكر، أما الصبر

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/٣٠٦).

فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء" (١).

ومن ذلك: قول الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر؛ لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة؛ لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله عَزَّوَجَلَّ إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين، فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى: (صبراً) بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى: (شكراً) بالإضافة إلى باعث الدين؛ إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة، وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه؟! (٢).

ومن ذلك: قول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن العبد لا يخلو قط من أن يكون في نعمة أو بلية، فإن كان في نعمة ففرضها: الشكر والصبر. أما الشكر فهو قيدها وثباتها، والكفيل بمزيدتها، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى. ومن هنا يعلم سر مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر، وأن كلاً منهما محتاج إلى الشكر والصبر، وأنه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير. كما قد يكون شر الفقير أكمل، فأفضلهما: أعظمهما شكراً وصبراً، فإن فضل أحدهما في ذلك فضل صاحبه.

فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به. فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر، وإن كان في بلية ففرضها

(١) فتح الباري، لابن حجر (٣٠٥/١١)، وانظر: الكواكب الدراري (٢٢٨/٢٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١٣٩/٤).



الصبر والشكر أيضاً: أما الصبر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحق الله عَزَّجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء، وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا. فعلم أنه لا انفكاك له عن الصبر، ما دام سائراً إلى الله عَزَّجَلَّ" (١).

وأخبر الله عَزَّجَلَّ أن الصبر والشكر من أسباب التدبر والاعتبار، والإجابة إلى الواحد القهار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢]، يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣].

وقد قسم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الصبر باعتبار محله، وبحسب اختلاف قوته وضعفه، وباعتبار متعلقه، وباعتبار تعلق الأحكام الخمسة به.

فقال: الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٦٥).

وهذه الثلاثة قد وقعت الإشارة إليها بآية: ﴿يَبْنِي أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] ^(١).

وقد فصلت القول في ذلك في الجزء الثاني من كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة). وإن من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة: صبر المؤمن على ما يقع عليه من البلاء في الحياة الدنيا.

فيحتاج المؤمن إلى الصبر في جميع أحواله، ولا سيما إذا نزل به ضرر، من نحو: فقر، أو مرض، أو محنة، أو بلية.

وفي الحديث: عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لَأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» ^(٢).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ» أي: خير له في المال وإن كان بعضه شرًا صوريًا في الحال.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المؤمن هنا هو العالم بالله عَزَّجَلَّ، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك أن المؤمن المذكور إما أن يبتلى بما يضره، أو بما يسره، فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني، عرف نعمة الله عَزَّجَلَّ عليه، ومنَّته فيها، فشكرها وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: «وليس ذلك إلا للمؤمن» أي: المؤمن الموصوف بما ذكرته؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة، ولم يحتسبها، بل يتضرع ويتسخط، فينضاف إلى مصيبتها

(١) انظر ذلك مفصلاً في (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) (ص: ٢٢-٣٣).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٩٩]، وقد تقدم.

الدينية مصيبيته في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها، ولا يشكرها، فتقلب النعمة نعمة والحسنة سيئة - نعوذ بالله من ذلك -" (١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما حُضِرَتْ بِنْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَغِيرَةٌ، فأخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضَمَّها إلى صدره، ثم وضع يده عليها، فقضت وهي بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبكت أم أيمن، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أم أيمن، أتبكين ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندك»، فقالت: ما لي لا أبكي ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبكي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لست أبكي، ولكنها رحمة»، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ يَخِيرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ تُنَزَعُ نَفْسُهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ» (٢)، يعني: أن أحوال المؤمن كلها خير له، سواء كانت سرًّا، أم ضراء؛ إذ يُثَاب على كلِّ أحواله، ففي السرِّاء يُثَاب على شكره، وفي الضراء يُثَاب على صبره.

وقوله: «تُنَزَعُ نَفْسُهُ» بناء الفعل للمفعول، أي: تخرج روحه. «من بين جَنْبَيْهِ، وهو يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ»، أي: فهو في هذه الحالة في ثواب عظيم، حيث رضي بقضاء ربِّه، ولم يَجْزَعْ، بل حمده على ما أصابه، فوفَّاه أجره، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّادِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والمصائب التي يُبْتَلَى بها المؤمن في الدنيا من أسباب تكفير السيئات، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما سمعا رسول الله

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٣٠).

(٢) أخرجه أحمد [٢٧٠٤]، وهناد [١٣٢٨]، وعبد بن حميد [٥٩٣]، والنسائي [١٨٤٣]، واللفظ له. وأخرجه أيضاً: ابن حبان [٢٩١٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٦٨٢]، والضياء [١٨١]، ورمز السيوطي في (جامعه) لحسنه.



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «ما يصيب المؤمن من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ حَتَّى اهُمَّ يُهُمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»^(١).

وفي قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: النَّهْيُ عَنِ الْكِبَرِ، وَالْحَثُّ عَلَى التَّوَاضُّعِ وَالْإِعْتِدَالِ فِي الْقَوْلِ وَالسُّلُوكِ، وقد عبر عن ذلك بأسلوب بليغ، حيث قال لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ^(١٩) [لقمان: ١٨-١٩]، فنهى ابنه عن تصغير الخد، وعن المشي في الأرض مرحًا، أي: لا تول الناس خدك وتعرض عنهم تكبرًا عليهم، ولا تمش في الأرض مُخْتَالًا، واعتدل في مشيك ولا تتسرع فيه إسرعًا يدل على الطيش والخفة، ولا تبطئ إبطاء يدل على الفخر والكبر.

وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١٨)، أي: المختال في هيئته، والفخور بلسانه وقوله، فهو بهيئته مختال؛ في ثيابه، في ملابسه، في مظهره، في مشيته، فخور بقوله ولسانه، والله عَزَّجَلَّ لا يحب هذا، وإنما يحب المتواضع الخفي التقي.

وفي الحديث: «بينما رجل يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ، خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٣).

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٣].

(٢) صحيح البخاري [٣٤٨٥].

(٣) صحيح مسلم [٩١]. و«بطر الحق»: دفعه وإنكاره؛ ترفعًا وتجبرًا، و«غمط الناس»: احتقارهم.

فمن الصفات المذمومة التي لا يحبها الله عَزَّجَلَّ: ما جاء في الحديث من بيان صفات أهل النار: «إن أهل النار: كل جَعْظَرِيٍّ جَوَّازٍ مستكبرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، وأهل الجنة: الضعفاء المغلوبون»^(١). ويقابلها صفات أهل الجنة التي يحبها الله عَزَّجَلَّ من نحو: الصبر، والتقوى، والتواضع.

و(الجعظري): -بفتح الجيم والظاء المعجمة بينهما عين مهملة وآخره راء مكسورة ثم تحتانية ثقيلة-. قيل: هو الفظ الغليظ المتكبر. وقيل: الجسيم الغليظ الأكل الشروب، أو السمين الثقيل من الشره والتنعم. وقيل: الذي يتمدح بما ليس فيه أو عنده^(٢). و(الجواز) -بفتح جيم وتشديد واو وظاء معجمة-: الضخم المختال في مشيته^(٣). و(الجواز) فيه تفاسير متعددة^(٤). قيل: إنه الجموع المنوع، يعني: الذي يجمع المال ويمنع ما يجب فيه.

(١) الحديث مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعن سراقه بن مالك. حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أخرجه أحمد [٧٠١٠]، قال الهيثمي (٣٩٣/١٠): "رجاله رجال الصحيح"، وأخرجه أيضاً: الحاكم [٣٨٤٤]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي. حديث سراقه بن مالك: أخرجه أحمد [١٧٥٨٥]، والطبراني في (الكبير) [١٧٥٨٥]، و(الأوسط) [٣١٥٧]، والحاكم [٦٥٩٧]، والبيهقي في (الشعب) [٧٨٢٠]. قال الهيثمي (٢٦٥/١٠): "إسناده حسن". وفي (الصحيحين): «ألا أخبركم = بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل، جواز مستكبر» صحيح البخاري [٤٩١٨، ٦٠٧١]، مسلم [٢٨٥٣].

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٦٦٣/٨)، فيض القدير (١٠١/٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (جعظ) (٢٧٦/١)، معالم السنن (١١٠/٤)، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٨٨/١٧).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (جوظ) (١١٧١/٣).

(٤) انظر ما قيل في ذلك مفصلاً في (مرقاة المفاتيح) (٣١٧٦/٨).

والظاهر أن الجواظ هو الرجل الذي لا يصبر، وهو دائماً في أنينٍ وحزنٍ وهمٍّ وغمٍّ، معترضاً على القضاء والقدر، لا يخضع له، ولا يرضى بالله عزَّ وجلَّ ربّاً. فجواظ يعني: جزوع لا يصبر على شيء، ويرى أنه في قمة أعلى من أن يمسه شيء. و(الجماع) -بالتشديد-، أي: كثير الجمع للمال. و(المنوع) أي: كثير المنع له والشح والتهافت على كنزه.

ثم بين لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه الصفة الحمودة، وهي التواضع وحسن الخلق، والتي تقابل تلك الصفة المذمومة، وهي التكبر وسوء الخلق، فبين له هيئة التواضع المحببة، وأنها تكون بالقول والفعل، فقال: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، وهي مشية المتواضع لربه جَلَّ وَعَلَا، وللناس، وهي الحال والهيئة المتوسطة التي يحبها الله عزَّ وجلَّ. ويكره ما يقابلها من مشية أهل الخيلاء، وأمره أَنْ يَغْضُضَ من صوته، وأن يرفعه قدر الحاجة؛ إذ رفعه بلا حاجة يُؤذي السامع، وخفضه أوقر للمتكلم؛ إذ إن أقبح الأصوات، وأشنعها صوت الحمار، فنهاه عن رفع الصوت؛ مبيناً له أن من يفعل ذلك فإنما يتشبه بأقبح الصفات التي تنكرها النفوس، وتنفر منها. قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نفاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرداً وتفاديهم من اسمه: أنهم يكونون عنه، ويرغبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقدرة: وقد عدَّ في مساوي الآداب: أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار؛ استنكافاً وإن بلغت منه الرحلة ^(١)، فتشبيهه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، تم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه،

(١) قوله: (منه الرحلة) أي: المشي برجله، يعني: وإن أتعبه المشي وعدم الركوب. وفي (الصحاح): (الرجل) -بالتحريك-: مصدر قولك: رجل -بالكسر- أي: بقي راجلاً. الانتصاف (٤٩٨/٣)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (رجل) (١٧٠٥/٤).

وإخراجه مخرج الاستعارة، وأن جعلوا حميراً وصوتهم نفاقاً؛ ومبالغة شديدة في الذم والتهجين، وإفراط في التشبُّط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله عَزَّجَلَّ بمكان" (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] تعليل للأمر بغض الصوت على الاستئناف، كأنه قيل: لم أغض الصوت؟ فأجيب: لأنك إذا رفعت صوتك كنت بمنزلة الحمار في أخس أحواله. ثم ترك المشبه وأداة التشبيه ووجهه، وأخرج المشبه به مخرج الاستعارة المصروفة العقلية، أو التمثيلية" (٢). والحاصل أنه يستفاد من قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: أهمية غرس الإيمان بالله عَزَّجَلَّ في نفوس الإبناء من أول النشأة، وأهمية تعليمهم ونصحهم وإرشادهم، وهي أهم صفات المرَبِّ في بناء الشخصية المتكاملة لأبنائه ومريديه بما يصلح حالهم ومآلهم. وقد جمعت وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه خير الدُّنيا والآخرة، من صلاح حال العبد فيما بينه وبين ربه جَلَّوَعَلَا، وبينه وبين الخلق.

١٦ - الأسلوب التأثري للقصة:

تتنوع أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الهدى والرشاد، وهذا التنوع يتلاءم مع العقول المتفاوتة بما ينسجم مع اختلاف أحوال الإنسان، وهي طرق ترشد الدعاة إلى مناهج الدعوة التي تنير العقول، وتؤثر في الوجدان.

(١) الكشف (٣/٤٩٨).

(٢) حاشية الطيبي على الكشف (١٢/٢٩٩).

ومن هذه الأساليب: سرد القصص، وهو أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، وإلى جذب انتباهه، وأكثر العوامل النفسية تأثيراً فيه؛ وذلك لما فيها التشويق من حيث التدرج في حلقاتها المترابطة، والتي تتكامل ببلوغ الخاتمة.

وإن مما يدل على أهمية القصة في القرآن الكريم: أنها توضح سير الدعوة الدينية في الحياة منذ فجر الخليفة، والعقبات التي اعترضتها، ويذكر فيها الجوانب الهامة في حياة أشرف الخلق، وهم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ودعوتهم إلى الله عَزَّجَلَّ، ومواقف الأمم السابقة من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفي ذلك ما فيه من العبرة والعظة، والتثبيت والتسرية لكل مرسل وداعية، ولا سيما تثبيت فؤاد النبي الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من طريق إيراد سوابق تاريخية من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وما تعرَّضوا له من الصَّد والإيذاء والإعراض، وحرصهم على الدعوة والإرشاد، بما أتوا به من يبلغ الحجة، وصدق البيان.

وفيها نصب المثال الأعلى، والقدوة الحسنة في الاتباع - كما تقدم -.

كما أن القصة في القرآن توضح الصراع القديم بين الحق والباطل، ويقتبس كل داعية من حياة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ما يشد عضده، ويقوي عزيمته، ويوضح له طريق الحق من بين سبل متفرقة، وفلسفات متناقضة يهدم بعضها بعضاً؛ فإن تضافر الأدلة يرشد إلى إِبْصَارِ الحق، ويريح النفس التي تتشوف دائماً إلى الحقيقة، وتتطلع إلى معرفة المستقبل وما يصيبها من خير أو شر.

كما أن النظر إلى حياة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى خاتم الأنبياء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما سجَّل القرآن الكريم من وصاياهم ونصائحهم وإرشادهم لأممهم ينصب أمام كل داعية المثال الأعلى، والقدوة الحسنة حيث يجد كلاماً متناسقاً، وهدفاً منسجماً، ووحدة في الغاية والهدف.

كذلك فإن النظر إلى ما سجله القرآن على الأمم السابقة يعين كل متبصر على التمييز بين مآلات مخزية، وبين من كتب الله عَزَّجَلَّ له النجاة، وأورثه السعادة والحياة الباقية.

وإن سرد القصص له تأثير في نفس المخاطب يجعله أقرب إلى تأمل الخطاب، والعمل بمقتضاه.. الخ؛ فإن فيها -على سبيل المثال- بياناً لسنة من سنن الله عَزَّجَلَّ في الطُّغَاة والظُّلْمَة، بأنَّ مصيرهم إلى الهلاك مهما تحصَّنوا، ومهما بلغت قوتهم، وتنبيهاً وتحفيزاً على الاتِّعَاض والاعتبار، وأنَّ الجزاء من جنس العمل، ففرعون -مثلاً- كما كان في الدنيا إماماً من أئمة الظُّلْم والطُّغْيَان فإنه سيكون يوم القيامة هو وجنوده من أئمة النَّار، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾ [القصص: ٣٩-٤٢].

فكان فرعون وملؤه أسوة في الشرِّ والضلال والجبروت، يقتدي بهم أهل العتو والكفر بالله عَزَّجَلَّ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التي تلقي بفاعلها في النار.

وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل دأبوا على إضلال سواهم، وتحسين العصيان لهم، وبذلك فإنهم قد ارتكبوا جريمتين، فباؤوا بجزاءين: جزاء الضلال، وجزاء الإضلال.

وكما كانوا في الدنيا أئمة في الشر والجبروت والضلال، فإنهم سيكونون كذلك في الآخرة أئمة وقادة، لكن إلى النَّار، فكانوا عبرة لكل معتبر، فقد نزل بهم عقاب الله عَزَّجَلَّ في الحياة الدنيا، فلم يدفع عنهم ملكهم ولا أحد ممن تبعهم ما حلَّ بهم، فباؤوا بالخزي في

الحياة الدنيا، قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبتهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٥٦﴾.

وقد جاء في الحديث الشريف: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

وجاء في كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل -عظيم الروم- يدعوه إلى الإسلام: «سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين...» الحديث^(٢). ومن الأحاديث الواردة في ذمّ (القدوة السيئة) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومُطْلَب دم امرئ بغير حق؛ لِيَهْرِيْقَ دَمَهُ»^(٣). فقولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية»، أي: ما كان عليه أهلها من الاعتقادات والأعمال الباطلة.

ومن الأحاديث الواردة في ذمّ (القدوة السيئة): ما جاء عن كعب بن عُجْرَةَ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعِيدُكَ بِاللَّهِ يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ مِنْ أَمْراءِ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمِنْ غَشِي أَبْوَاهِمُ فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَا يَرُدُّ عَلَيَّ الْخَوْضُ، وَمِنْ غَشِي أَبْوَاهِمُ أَوْ لَمْ يَغْشَ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

(٢) صحيح البخاري [٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣]، مسلم [١٧٧٣].

(٣) صحيح البخاري [٦٨٨٢].



كذبهم، ولم يُعْنِهِمْ عَلَى ظَلَمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَسِيرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ..»
الحديث (١).

ويقول الله عَزَّجَلَّ عَنْ عَاقِبَةِ أُمَّةِ الضَّلَالِ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَآلَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيْسَ لُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

والقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم؛ للوصول إلى العلم والهدى في الدين، وألا يجمدوا على ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم؛ فإن الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ. يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٥]. فدلَّت الآيات على أنهم آثروا القدوة السيئة على الحسنة فضلوا، فاستحقوا العذاب.

والأمة بأمسِّ الحاجة إلى القدوة الحسنة. وأعظم قدوة للناس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم وُزَّاتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ والسَّلَفِ الصَّالِحِ، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم، ودعا إلى هذا الدين، وهو على بصيرة وبينة من العلماء الصالحين، والقادة المخلصين.. فهم بناة الأجيال الحقيقيون، والهداة إلى سواء السبيل.

(١) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضاً: الطبراني في (الكبير) [٢١٢].

ويوصف الإمام بأنه أُسوةٌ وقدوةٌ للمؤمنين، فإذا كان إمامًا في الخير والصلاح أثر في أتباعه، فأثمر ذلك الاقتداء والتأسي: قيمًا وأخلاقًا واستقامة، وإذا كان إمامًا في الشر أثر فيهم، فأورث انحرافًا وضلالًا عن الحق.

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّذِينَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَأَدَاءِ مَا وَجِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَمِنْ حَقِّ الْعِبَادِ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبْدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. ودلَّت الآيات على أَنَّ التَّارِيخَ لَا يَذْكُرُ الظَّالِمِينَ إِلَّا بِسُوءٍ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]. ودلَّت الآيات كذلك على سَنَةِ مَنْ سَنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي إِرسَالِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَكَلَّمَا تَنْقُضِي فِتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ، وَيَصْبِحُ النَّاسُ بِحَاجَةٍ إِلَى هِدَايَةٍ يَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَسُولًا؛ لِيُعِيدَ النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ.

من أجل هذا كانت القصة في القرآن الكريم ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية، القائمة على الإقناع العقلي، بما تدعو إليه من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكتبه، واليوم الآخر، وما تحمل من مُثُلٍ في مجال الجهاد، والكفاح، والبذل، والتضحية والفداء في سبيل الدعوة إلى الحق، والتوجيه إلى الخير والهدى، والتنكر للباطل والضلال، والصمود في وجه الظلم والطغيان.

فانظر إلى عظيم ما يستفاد من القصص التي تتضمن: (الاعتِظَافَ والاعتِبَارَ)، وأنَّ ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فيه الاعتبار والموعظة التي يَتَعَطَّ بِهَا الْعَبْدُ، وفيه بيان ما ينفعه وما يضره في حاله ومآله، فمن اتبع هدي القرآن الكريم فإنه يغتنم ما فيه الخير والنفع، ويجتنب ما فيه الشر والضرر. يقال: (وعظته فاتَّعَظَ)، أي: انتفع، وترك ما فيه مضرته إلى ما فيه مصلحته.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].
وتأمل في قول كلِّ رسولٍ لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١]،
وكذلك ما كان في معناه، وكم كُرِّر في خطاب الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ فإن دَلَّ ذلك فإنما يدلُّ
على أهمِّية الموضوع.

ولكن من أعرض عن التبصر فأنى له الذِّكْرَى؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ
فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ
وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]، فأنى يكون له الذِّكْرَى في هذا اليوم الذي رأى
فيه ما أخبر عنه يقينًا؟! وأنى له الاتِّعَاضُ وقد فات الأوان؟!!

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ
السَّخِرِينَ﴾ [٥٦] أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [٥٧] أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ
أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [٥٨] بَلَى قَدْ جَاءَ تَكَءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ
الْكَافِرِينَ [٥٩]﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿طه ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ٣﴾ [طه: ١-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَفِتْنَةً لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣]، ﴿لِنَجْعَلَهَا
لَكُمْ تَذَكُّرًا وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ
إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الزلزل: ١٩]، أي: عظةٌ للخلق يجب الاتِّعَاضُ بها، والعمل بموجبها.

وفي ذلك من الاتِّعَاضِ والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القَهَّار. فانظر إلى لطف الله عَزَّجَلَّ بهذه الملة المحمديَّة؛ إذ جعل توبتها في الإقلاع عن الذَّنْب، والنَّدَم عليه، والعزم على عدم المعاودة إليه.

ودراسة (علم التاريخ) توسع آفاق الباحث عن الحق، وتطلعه على أحوال الأمم وسير الرجال، وتقلب الأيام، ويرى الباحث سنن الله عَزَّجَلَّ الكونية، وعاقبة الأمم والمجتمعات والحضارات، وانتصار أو انهزام الدعوات، فالتاريخ مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى، ونهاية الكفر والفجور، فهو أصدق شاهد على دعوة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأتباعهم.

ولا شك أن القصص من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفوس المدعوين، وتنبه القلوب والأذهان؛ فإن الداعية إذا أحسن دراسة التاريخ والإفادة منه كان أعون له في تثبيت المعاني والقيم التي يدعو إليها، ولا سيما إذا تماثلت الظروف، وتشابهت الدوافع أو الوقائع.

ومن هذه أساليب التأثير في قصص وأخبار القرآن الكريم: الاعتناء بفن التصوير، فقد حكى القرآن أحوال الأمم السابقة في صورة ناطقة تتضمن الحوار والإقناع، والموعظة الحسنة، والاعتبار، فكان لقصص القرآن الكريم أبلغ تأثير في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وإن الإبداع في التصوير يحدث أثرًا في النفس يحمله على التأمل والإعجاب، فيؤثر في المتلقي الرضا النفسي والإقناع؛ فإن مبنى الطبائع على أن الشيء إذا ظهر من موضع لم يعهد ظهوره منه كان ميل النفوس إليه أكثر، وهي بالشغف به أجدر.



١٧ - الدَّعوة إلى الخير والإصلاح، والنهي عن الفساد في الأرض:

ومن ذلك ما جاء في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ - على سبيل المثال - من قوله لقومه: ﴿يَقُومُوا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۖ﴾ [الأعراف: ٨٥] إلى قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ۖ﴾ [٩٢] فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ [الأعراف: ٩٢-٩٣].

وقال لهم: ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

ومن ذلك ما جاء في قصة ابني آدم عَلَيْهِ السَّلَام من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]، إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] الآية، ثم جاء بعدها بيان عاقبة الذين يحاربون الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسعون في الأرض فسادًا.

إلى غير ذلك من القصص التي نصَّت أو دلَّت على الأمر بالصالح والإصلاح، وهي كثيرة.

١٨ - محاربة اليأس القنوط:

إن النصوص التي تبث الأمل في النفوس، وتحارب: الاكتئاب والانطواء على النفس؛ انتظارًا للموت، أو هربًا من الواقع كثيرة.

وخير مثال على ذلك: ما جاء في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام وما فيها من الفرج بعد الضيق.

ودونكم سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فما هي عنكم بعيد، وكيف فرج الله عَزَّجَلَّ عنهم الكرب الشديد، فبينما هم مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، إذ جاءهم نصر الله عَزَّجَلَّ وفتحهم فتدثروا من العزة والتمكين بأزهى اللباس، فمن طائفة مستضعفة إلى خلفاء وملوك و فاتحين، وصلوا لكافة أصقاع الدنيا، ونشروا بمبادئهم وسيرتهم العطرة: العدل والمحبة والسلام، فدخل الناس في دين الله عَزَّجَلَّ أفواجا.

ولقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا في التفاؤل، والثقة بوعد الله عَزَّجَلَّ، وكان يحارب اليأس والتشاؤم، ويصنع الحياة، ويزرع الأمل.

وقد علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته التفاؤل بسلوكه وقوله، ففي قصة الهجرة -مثلاً- عندما أهدقت الأخطار بالغار، وأحاط المشركون به، وعلى الرغم من هذه الشدائد والأخطار كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمناً مطمئناً، متوكلاً على ربه عَزَّجَلَّ، واثقاً بنصره وحفظه. يقول أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه وأنا، قال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١). يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

إنَّ المؤمن مهما تفاقم الشر، وتعاظم الضرر فإنه يعلم أن ما قضى الله عَزَّجَلَّ كائن، وما لم يشأ لم يكن، ولا يحكم به يحق، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا معطي لما

(١) صحيح البخاري [٤٦٦٣]، مسلم [٢٣٨١].



منع، ولا مضل لمن هدى، فلا جزع ولا هلع، وإنما صبر وشكر، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ خير وأبقى.

وَرُبَّ مَخْنَةٍ أَوْرَثَتْ مَنَحَةً، وَرُبَّ نَوْرٍ يَشِيعُ مِنْ كَبِدِ الظَّلَامِ؛ فَإِنَّ النِّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَإِنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، فَمَا بَعْدَ دِيَاجِيرِ الظَّلَامِ إِلَّا فَلَقُ الصُّبْحِ الْمَشْرِقِ.

فَمَنْ الْيَقِينِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالثَّقَةِ بِوَعْدَةِ يَنْبُتِ الْفَجْرِ، وَتَنْجَلِي سُحُبِ الظَّلَامِ وَالْيَاسِ. يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠].

وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الصَّابِرِينَ أَنَّهُ مَعَهُمْ بِعَنَائِهِ وَرِعَائِهِ، كَمَا قَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، وَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاطْبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

وَيَبَيِّنُ أَنَّ الصَّبْرَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النِّصْرِ، فَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلَىٰ ۚ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [ال عمران: ١٢٥-١٢٦].

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَقَاصِدَ الْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ: مَعْرِفَةُ سُنَنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذَا الْكُونِ، وَمِنْ هَذِهِ السَّنَنِ: نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.



وفي قصص القرآن نماذج كثيرة للفرج بعد الضيق، وللنصر بعد الصبر، ما يبعث في النفوس الأمل بأن فرج الله عَزَّجَلَّ قريب، وأن العاقبة للمتقين، مهما طال ليل الظلم والبغي، فلا بد للحق أن يعلو وينتصر.

ومن هذه القصص التي تتجلى فيها حقائق الفرج بعد الضيق: ما جاء في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨].

وقد كانت عناية الله عَزَّجَلَّ مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَام فنجاه من كل ما أهدق به من المخاطر، كما أخبر الله عَزَّجَلَّ عن ذلك في نحو قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

وقد كان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام على بصيرة وثقة من فرج الله عَزَّجَلَّ، حيث قال لأبنائه: ﴿يَبْنَئِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

فلم ينقطع الأمل عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، وبقي واثقاً بالله عَزَّجَلَّ، مطمئناً بأنه لن يخذله وإن طال الزمن، وقد تحقق ما كان ما كان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام على ثقة منه، من

الفرج عنه وعن يوسف عَلَيْهِمَا السَّلَام، كما أخبر المولى جَلَّوَعَلَا عن ذلك في قوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٤-٩٨].



وكما جاء في خاتمة قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝﴾ * رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝﴾ [يوسف: ١٠٠-١٠١].

وهذا خليل الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبعد أن أحكمت الشدة عليه قبضتها أمر الله عَزَّوَجَلَّ النار أن تكون عليه بردًا وسلامًا، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۝ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٢].

وهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي دعا قومه ليلاً ونهاراً، فما زادهم ذلك إلا فراراً، ولبث في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولم ييأس، ولم يفتر، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، إلى قوله: ﴿قِيلَ يَنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ تِلْكَ مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [هود: ٤٨-٤٩].

وقال الله جَلَّوَعَلَا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وهذا نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر على ما أصابه، وشكر الله عَزَّجَلَّ، فكشف الله عَزَّجَلَّ عنه الضر والكروب، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي مَسْنَى الْضُرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ٨٣ فَاَسْتَجَبْنَا لَهُو فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَالِدِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وذا النون عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كان من المسبحين، اجتباه الله عَزَّجَلَّ، وجعله من الصالحين، ونجاه من الكرب العظيم، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٨٧ فَاَسْتَجَبْنَا لَهُو وَخَرَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وقال الله عَزَّجَلَّ عن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ٨٩ فَاَسْتَجَبْنَا لَهُو وَوَهَبْنَا لَهُو يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُو زَوْجَهُو إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاو كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

وقد جعل الله عَزَّجَلَّ العاقبة للمتقين، كما جاء في غير موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك: ما جاء في قصة قارون من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦].. إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاو الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٨٣ [القصص: ٨٣].

ومن ذلك: ما جاء في نبأ الإفك والزور الذي رميت به المتدثرة بثوب العفة والطهور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فإن فرج شدتها مسطر في سورة النور، في آيات بينة تتلى إلى يوم القيامة. وذكر تفاصيل قصص من جعل الله عَزَّجَلَّ له بعد عسر يسراً فيها إطالة، فنكتفي بما سبق من الإشارة إلى ذلك والإحالة.

والحاصل أن في قصص القرآن دروس وعبر، وأن المسلم لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله عَزَّجَلَّ، فهو يوقن بأن ما يقع في الأرض إنما يقع بقدرة الله عَزَّجَلَّ، ووفق إرادته، وهو

خير في جانب من جوانبه، والله عَزَّوَجَلَّ فيه حِكْمٌ. ويعلمُ كذلك أن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. والمسلم يتفائل بوعده الله عَزَّوَجَلَّ، ويسعى لتحقيق النصر، ودفع الظلم، وإزالة الباطل.

فعليك أيها المسلم أن تحسنَ الظنَّ بخالقك، وأن يمتلئ قلبك بالفأل الصادق، والأمل المشرق الذي يوسِّع ما ضيَّقته الخطوب والنَّوازل، فبالأمل تذوق طعم السَّعادة، وبالتفائل تحسُّ ببهجة الحياة. فالتفائل سُنَّة نبويَّة، وصفة إيجابيّة للنفس السويَّة، يترك أثره على تصرفات الإنسان ومواقفه، ويمنحه سلامة النفس، والهمة العالية، ويزرع فيه الأمل، ويحفزه على الانبعاث إلى العمل.

والتفائل ما هو إلا تعبير صادق عن الرؤية الطيبة والإيجابية للحياة.

قال الشاعر:

أَعْلَلِ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقَبَهَا ما أَضِيقُ الْعَيْشَ لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَلِ^(١)
فالأمل يبعث الحياة في الناس، واليأس يقتلهم.

واليأس يوقع الناس صرعى كالأموات، ويقتل النبوغ والخصال الحميدة، ويصرف عن التأمل والتبصر في العاقبة، والأمل يعزز الثقة بالنفس، وينهض بها من بين الأموات، وهو يحتاج إلى رعاية مستمرة، وتنمية متواصلة، ومراقبة دائمة؛ حتى لا ينحرف إلى إفراط يقع بالإنسان في طول الأمل، والركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، أو ينحرف إلى تفريط يقع بالإنسان في اليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

والدعاة بوصفهم الدالين على طريق الله عَزَّوَجَلَّ، الآخذين بأيدي السالكين إلى صراطه المستقيم، ولكونهم أكثر الفئات احتكاكاً مع مشاكل الناس وحاجاتهم اليومية

(١) البيت يعزى للوزير مؤيد الدين الطغرائي. انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١٤٢/٢)، خزنة

الأدب وغاية الأرب (١٨٧/١)، الكشكول (٣٠٢/١).

والاجتماعية، فهم مطالبون بالوقوف على مسؤوليتهم الدعوية والدينية والاجتماعية في نشر ثقافة الأمل في عالم ساده الإحباط، وعمّه اليأس، وغلبه القنوط، بسبب كثرة الإخفاقات والهزائم والانكسارات..

والداعية الفطن يجب أن يبتّ رسائل الأمل في قلوب المدعويين، وأن يكون خطابه الدعوي في أوقات الأزمات، واشتداد الخطوب، وكثرة الإحباطات، قائماً على محاربة اليأس والقنوط.

وإن التفاؤل يقوي العزائم، ويبعث على الجد، ويعين على الظفر، وينتشل السالكين من دروب الضياع، وبراثن الضلال، ويقاوم المرض، فقد ثبت طبيّاً أن الذين يعيشون تفاؤلاً هم أسرع من غيرهم على تجاوز الأمراض أو الامتثال للشفاء.

والتفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفّزه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس، وراحة القلب، وهو السلوك الذي يصنع به الرجال مجدهم، ويرفعون به رؤوسهم، فهو نور وقت شدة الظلمات، ومخرج وقت اشتداد الأزمات، ومتنفس وقت ضيق الكربات، وهو منبثق من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل عليه، والثقة بوعده.

فمن اليقين بالله عَزَّوَجَلَّ والثقة بوعده ينبثق الفجر، وتنجلي سحب الظلام واليأس. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

والمتفائل لا يبيني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنَّهُ يتطلَّع للفرج الذي يعقب كل ضيق، وليس الذي يتَّبِع كل عسر.

١٩ - بيان قدرة الله عَزَّجَلَّ، وإحاطته بكل شيء علمًا:

وفي قصص القرآن ما يدل على قدرة الله عَزَّجَلَّ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلى سعة علمه، فلا تخفى عليه خافية، وهو يعلم ما تُكِنُّ صدور الناس وما يعلنون، ويدل على ذلك ما قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَام، حيث قال لابنه: ﴿يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. - وقد تقدم بيان ذلك في ذكر (وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَام) -.

ومن ذلك: ما جاء في قصَّة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩-٢٥٨].

وقال الله عَزَّجَلَّ في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت: ﴿* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وقال جَلَّوَعَلَا مخبرًا عن استدلال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام على إثبات المعاد، وإقامة الحجة على منكبيه: ﴿* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ [البقرة: ٢٥٨-٢٥٩].

وقال جَلَّوَعًا في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩].

وقد تقدم بيان ذلك.

ومن ذلك: ما جاء في خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جاء في ولادة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جاء في تحوُّل عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى حية تلقف ما يأفكون، وما جاء في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع العبد الصَّالح.... إلى غير ذلك.

٢٠ - التحذير من المهلكات:

جاء في كثير من قصص القرآن الكريم التحذير من المهلكات، ولا سيما في قصص الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم لأقوامهم، فكان كل رسول يحذر قومه من المعاصي المهلكات، ولا سيما ما فشا في زمنه، ويذكرهم بالله عَزَّوَجَلَّ وبما ينجيهم من العذاب. وقد دعا الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أقوامهم إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ونبذ الشرك، وكانوا حريصين على تقويم سلوك الناس، وتصحيح معاملاتهم وأخلاقهم. ولقد أمروهم بكل معروف فيه صلاح أحوالهم في الدارين، ونهواهم عن كل منكر يضرهم في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك: ما جاء في إنكار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على قوم فرعون تزويرهم للحقائق، وإضلالهم للناس، فقال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]، وقال لهم: ﴿وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦١].

وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر على قومه الشرك، كما أنكر عليهم اغترارهم بقوتهم، ومفاخرتهم بعمرائهم، وتباهيهم بأموالهم، وهم القائلون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَتْنًا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فبين لهم أن الله عَزَّجَلَّ أقوى منهم، وحذرهم من مغبة كبرهم وعبتهم وبطشهم، وقال منكرًا عليهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

وأنكر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه الشرك، والسرف في العمران والمفاخرة به بطرًا، وأنكر عليهم الفساد في الأرض، وطاعة المفسدين، مبينًا لهم مقومات الصلاح والإصلاح، فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُزَكُّونَ فِي مَا هُمْ ظَالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٣-١٥٢].

وقال لهم: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وأما قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد انتشرت فيهم الفواحش، وكانوا يجاهرون بها، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ويقطعون الطريق، ويرتكبون المنكرات، فأنكر عليهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وأرشدهم إلى ما هو أطهر لهم، وأصلح لحالهم ومآلهم، فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ

الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ
بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ
النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٨١﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ
قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ [النمل: ٥٤-٥٦].

وقال لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨].

وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ أَيْنَكُمْ
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿٨١﴾ [العنكبوت: ٢٨-٢٩].

ومن ذلك: تحذير شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، حيث حذرهم من الشرك بالله عَزَّجَلَّ، كما
حذرهم من التطفيف في الكيل والبخس في الميزان، وأنكر عليهم قطع الطريق، والإفساد
في الأرض، والصدَّ عن سبيل الله عَزَّجَلَّ، مع دعوته إياهم إلى توحيد الله عَزَّجَلَّ، وإلى
الإصلاح، محذراً لهم من أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم ممكن بغى وكذب
وأفسد في الأرض، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ
صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِءٍ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا
فَكَثَرْتُكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿* وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بَخِيرٌ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ ﴿٨٥﴾ وَيَقُومُ
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال لهم: ﴿وَيَقَوْمَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٩-٩٠].

وقال لهم: ﴿وَيَقَوْمَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: ٩٣].

وقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦]... إلى غير ذلك من القصص التي نصت على التحذير من المهلكات. ومن هذه القصص: ما جاء من التحذير من اتباع خطوات الشيطان، وإبراز عداوته القديمة لبني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث كان أسلوب القصة في جميع ما تقدم أوقع أثراً في النفس، وأكثر تنبيهاً للعاطفة، وفيها إيقاظ لكل ذي لبٍّ من أصحاب البصائر، وهداية لكل مسترشد.

٢١ - التنويه بجوانب الإعجاز في قصص القرآن الكريم:

وجوانب الإعجاز في قصص القرآن متعددة، منها ما يتصل بجوانب البلاغة والفصاحة، ومنها: ما هو من قبيل الإخبار عن المغيبات، ومنها: ما هو من قبيل حكاية ما أتى به كل رسول من معجزة بينة من جنس ما برع به قومه، تحداهم بها؛ ليدلل على صدق ما أتى به.

وقد قالوا: إن الله عَزَّجَلَّ قد جعل معجزة كل نبي فيما كان أغلب على الذين بعث فيهم، وفيما كانوا يتباهون به، وكانت عوامهم تعظم به خواصهم، قالوا: إنما لما كان السحر

الغالب على قوم فرعون، ولم يكن قد استحكم في زمان استحكامه في زمانه، جعل جَلَّوَعًا معجزة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في إبطاله وتوهينه، ولما كان الغالب على زمان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الطب، جعل الله جَلَّوَعًا معجزته في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، والبلاغة الفصاحة في مدة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأراهم الله عَزَّجَلَّ المعجزة من جنس ما برع به قومه، وكان ذلك دليلًا على صدقه (١).

و"مراتب الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ متفاوتة، وذلك لأنه جَلَّوَعًا اتخذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليلًا، وأعطى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ الملك والنبوة، وسخر لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجن والإنس والطير والريح. وخصَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبعث إلى الثقلين، وكونه خاتم النبيين إلى سائر خصائصه. هذا إذا حملنا الدرجات على المناصب والمراتب.

أما إذا حملناها على المعجزات ففيه أيضًا وجه وذلك أن كل واحد من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أوتي نوعًا آخر من المعجزة لائقًا بزمانه، فمعجزات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي قلب العصا حية، واليد البيضاء، كانت شبيهة بما عليه أهل زمانه من السحر، ومعجزات عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، كانت شبيهة بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه، وهو الطب، ومعجزة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي القرآن كانت من جنس البلاغة، والفصاحة، والخطب، والأشعار، وبالجملة فالمعجزات متفاوتة بالقلة والكثرة، وبالبقاء وعدم البقاء، وبالقوة وعدم القوة، وفيه وجه ثالث، وهو أن يكون المراد بتفاوت الدرجات ما يتعلق بالدنيا، وهو كثرة الأمة والصحابة وقوة الدولة، فإذا تأملت الوجوه الثلاثة علمت أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مستجمعًا لكل، فمنصبه أعلى، ومعجزاته أبقى وأقوى، وقومه أكثر، ودولته أعظم وأوفر (٢).

(١) انظر: دلائل الإعجاز (١/٤٧٥)، المحرر الوجيز (١/٥٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٦/٥٢٧)، غرائب القرآن (٢/٧-٨).

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

ومن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم: أنه قد اشتمل على أخبار كثيرة لا سبيل لبشر أن يعلمها أو يتعلمها، كيف والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ؟! قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْثَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿[العنكبوت: ٤٨-٤٩]، فصدور الذين أوتوا العلم تعي أَنَّ القرآن الكريم كلام لا يصدر مثله عن بشر، مع تظافر الأدلة على أنه كلام الله عَزَّجَلَّ. والإعجاز الغيبي ثلاثة أقسام: (الأول: غيب الماضي، الثاني: غيب الحاضر. الثالث: غيب المستقبل).

أ. غيب الماضي:

فأما غيب الماضي فالمراد به: إنباء القرآن عن أخبار الماضين، وقصص السابقين، كقصة آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وذكر تفصيلات تلك القصص يدلُّ على أَنَّ القرآن كلام الله عَزَّجَلَّ، وليس كلام رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه من المتفق عليه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيٌّ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِأَخْبَارِ السَّابِقِينَ.

(١) صحيح البخاري [٤٩٨١، ٧٢٧٤]، مسلم [١٥٢].



والقرآن يذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه لم يحضر هذه الحوادث، وفي ذلك تنبيه على أن القرآن الكريم كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ كيف يخبر أميُّ بأخبار غيب لم يشهدها..

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمْهُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٣٢﴾ [يوسف: ١٣٢]، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٤٤﴾ [وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: ٤٤-٤٦]، ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وما أتى به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يتضمن من عالم الغيب ما لا يُعْلَمُ إلا من طريق الوحي، ولا يظهره الله عَزَّوَجَلَّ إلا لمن ارتضى من رسول، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ٦٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦-٢٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود: ٤٩].

فقله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾، أي: هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها فتعلمها. ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الوحي الذي نوحيه إليك. ﴿فَاصْبِرْ﴾ على القيام بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وتبليغ رسالته، وما تلقى من مشركي قومك، كما صبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.



﴿إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٩)، أي: لمن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ، فأدَّى فرائضه، واجتنب معاصيه، فهم الفائزون بما يؤملون من النعيم في الآخرة، والظفر في الدنيا بالطلبة، كما كانت عاقبة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ صبر لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، أَنْ نَجَّاهُ مِنَ الْهَلَكَةِ مَعَ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَأَعْطَاهُ فِي الْآخِرَةِ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْكِرَامَةِ، وَغَرَّقَ الْمَكْذِبِينَ بِهِ فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعَهُمْ (١).

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، فقد تقدم بيانه، وكذلك الآيات ذات الصلة.

وقد أعلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ خَزَائِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَيْهِ مِنْهُ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذِي يُعْطِي وَيُمْنَعُ، وَيَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَأَنَّهُ جَلَّوَعَلَا عَلَامَ الْغُيُوبِ، كَمَا قَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ومعلوم من حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَقْرَأَ، وَكَذَلِكَ كَانَ مَعْرُوفًا مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَقَاصِيصِهِمْ وَأَنْبَاءِهِمْ وَسِيرِهِمْ، ثُمَّ أَتَى بِجَمَلِ مَا وَقَعَ وَحْدَثَ مِنْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ، وَمَهْمَاتِ السَّيْرِ مِنْ حِينَ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى حِينَ مَبْعَثِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُعْجَزَةً لَهُ: قِصَّةَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَابْتِدَاءَ خَلْقِهِ، وَمَا صَارَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ جَمَلًا مِنْ أَمْرِ وَلَدِهِ وَأَحْوَالِهِ وَتَوْبَتِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ، وَمَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ، وَكَذَلِكَ أَمْرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ذِكْرِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الْمَذْكُورِينَ فِي الْقُرْآنِ وَالْمُلُوكِ وَالْفِرَاعِنَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي أَيَّامِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/٣٥٦).

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم. وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملائساً لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم ويشغل بملاسه أهل صنعة لم يخف على الناس أمره، ولم يشتبه عندهم مذهبه، وقد كان يُعرف من يحسن هذا العلم - وإن كان نادراً - وكذلك كان يُعرف فيهم من يختلف إليه للتعلم، وليس يخفي في العرف عالم كلِّ صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره" (١).

وقد تقدم أن (علم الآثار) من العلوم الهامة التي أغفلها المسلمون في عصرنا الحاضر، حتى تفوق غيرهم عليهم في هذا المجال، مع أن الاستدلال بالآثار على صحيح ما جاء من الأخبار مما يوثق المسموع منها بالدليل الحسي المشاهد. والاستقراء في التواريخ، والكتب المدونة، والمخطوطات، والآثار كل ذلك مما يوثق الأخبار، ويقوي الإيمان، ويزيد اليقين.

ب. غيب الحاضر:

وأما غيب الحاضر فإن المراد به: الإخبار القرآن عن عوالم الغيب الموجودة وقت نزوله.

(١) إعجاز القرآن، للإمام الباقلائي (ص: ٣٤-٣٥).

وهو قسمان:

الأول: كلام القرآن عن عوالم الغيب الموجودة، والتي لم يرها الناس بأبصارهم ولم يتعاطوا معها بحواسهم، كالحديث عن أسماء الله عَزَّجَلَّ وصفاته وأفعاله، وكالحديث عن الملائكة والجن ومشاهد الموت والاحتضار... الخ.

الثاني: كشف القرآن لأسرار ومكائد المنافقين الذين كانوا يكيدون في الخفاء للإسلام وأهله، وينسجون المؤامرات للقضاء عليه.

ومع ذلك: كانت الآيات القرآنية تنزل بكشف عوارهم، وإظهار ما يبتغون من النفاق والمكر. كالكشف عن حقيقة قصد المنافقين من مسجد الضرار، وسورة التوبة فيها من هذا الضرب شيء كثير، فقد توعدهم الله عَزَّجَلَّ فيها بقوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤]، فإنه يعني: أن الله عَزَّجَلَّ مظهر عليكم أيها المنافقون ما كنتم تحذرون أن تظهروه، فأظهر الله عَزَّجَلَّ ذلك عليهم وفضحهم، وكانت تسمى هذه السورة: (الْفَاضِحَةُ)، فاضحة المنافقين.

ج. غيب المستقبل:

وأما غيب المستقبل فقد مثل له الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ اللهُ فِي (المناهل) بأمثلة عشرة^(١).

منها: إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين -وسياقي- إلى غير ذلك.

(١) انظر: مناهل العرفان (٢/٣٦٩).



ومن غيب المستقبل: ما وعد الله عَزَّجَلَّ به نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] ففعل ذلك.

ويعلم ذلك الظهور من حيث الأثر والتمكن من النفس، وذلك بأن يصبح هيئة راسخة في النفس، فتأمل حال المسلمين بالمقارنة مع حال غيرهم، فمن الذي يحملهم على تحمل مشاق التكليف من الصلاة والصوم والحج والعبادات الأخرى؟ وما الذي يلزمهم بالمعاملات الإسلامية؟ وهل حال المساجد كحال الكنائس -مثلاً- من حيث الصلاة فيها والتردد إليها؟

وقد ذكر الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ وغيره على أن معنى الظهور ما يسر الله عَزَّجَلَّ له ولخلفائه من الفتوحات، ومن الإظهار على الجبابة والأكاسرة، فقال: "كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا أغزى جيوشه عَرَفَهُمْ ما وعدهم الله عَزَّجَلَّ من إظهار دينه؛ ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يفعل كذلك في أيامه، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه فكان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لأصحابه، ويحرضهم به، ويوثق لهم، وكانوا يلقون الظفر في مواجهاهم حتى فتح إلى آخر أيام عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى بلخ وبلاد الهند، وفتح في أيامه مرو الشاهجان، ومرو الروذ، ومنعهم من العبور إلى جيحون. وكذلك فتح في أيامه فارس إلى إصطخر، وكرمان ومكران وسجستان، وجميع ما كان من مملكة كسرى، وكل ما كان يملكه ملوك فارس بين البحرين من الفرات إلى جيحون. وأزال ملك ملوك الفرس فلم يعد إلى اليوم، ولا يعود أبداً إن شاء الله جَلَّوَعَلَا، ثم إلى حدود إرمينية، وإلى باب الأبواب. وفتح أيضاً ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر. وأزال ملك قيصر عنها، وذلك من الفرات إلى بحر مصر، وهو ملك قيصر. وغزت الخيول في أيامه إلى عمورية، فأخذ

الضواحي كلها ولم يبق منها إلا ما حجز دونه بحر أو حال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة" (١).

والمراد أن الفتح الإسلامي أخذ في الامتداد والتمكن، فهو الأظهر والأكثر إقناعاً. ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] فصدق فيه.

وقال في أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، ووفي لهم بما وعد.

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّعْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وفي الحديث: ما يدل على أن الإسلام سيظهر وينتشر في الأسقاع، كما جاء في (صحيح البخاري) من قول خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله، فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بيمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله عَزَّوَجَلَّ، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» (٢).

(١) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص: ٣٣-٣٤).

(٢) صحيح البخاري [٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣]، وقد تقدم.

وقال عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بينا أنا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟»، قلت: لم أرها، وقد أنبتت عليها، قال: «فإن طالت بك الحياة لَتَرَيْنَ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله»، قلت: فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَاؤُ طَبِئِ الَّذِينَ قَدْ سَعَوْا فِي الْبِلَادِ؟! «ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنَّ كنوز كسرى». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَتَرَيْنَ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالا وولداً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم». قال عَدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اتقوا النار ولو بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فمن لم يجد شِقَّةَ تَمْرَةٍ فبكلمة طَيِّبَةٍ». قال عَدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم الحياة لَتَرَوْنَهَا قال أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ»^(١).

ومن الآيات القرآنية التي بشرت المسلمين المستضعفين في مكة أنهم سينتصرون على عدوهم، وستقوم دولتهم: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ﴾ [الفر: ٤٥].

(١) صحيح البخاري [٣٥٩٥]. و«الفاقة»: الفقر. و«الحيرة» بكسر الحاء المهملة وسكون الباء آخر الحروف وفتح الراء: بلد معروف قديماً مجاور للكوفة. و«الظعينة» هو في الأصل اسم للهودج، ثم قيل للمرأة في الهودج، وقد تقال للمرأة مطلقاً. و«دعار» ضم الدال المهملة وتشديد العين المهملة جمع: داعر، وهو الخبيث المفسد الفاسق، والمراد بهم: قطاع الطرق. و«سعروا البلاد»: أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها. انظر: فتح الباري (٦/٦١٣)، أعلام الحديث، للخطابي (٣/١٥٩٩)، عمدة القاري (١٦/١٣٥).



ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، والمخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأراد مكة؛ فإن معاد الرجل بلده.

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ ١ ﴿فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ٢ ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ٣ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ [الروم: ١-٥]. وجاء في التفسير: "عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ ١ ﴿فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ٢ ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب. وفي ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ٣ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤-٥]، فكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصيح في نواحي مكة: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ ١ ﴿فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ٢ ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بينا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارسًا في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى - وذلك قبل تحريم الرهان -، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطًا تنتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾. قال: وأسلم عند ذلك

ناس كثير. قال: هذا حديث صحيح حسن غريب من حديث: نيار بن مكرم لا نعرفه إلا من حديث: عبد الرحمن بن أبي الزناد^(١).

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ﴾ [المدر: ١١]، إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ﴾ [المدر: ٢٦]، يعني: الوليد بن المغيرة المخزومي، وإنما خصه بالذكر - وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه -؛ لاختصاصه بكفر النعمة بإيذاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا عن أبي لهب وامرأته: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ﴾ [المسد: ١-٥].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تَبَّتْ يَدَا﴾ تعليم للمخاطبين بإنشاء الدُّعاء عليه، أي: قولوا ذلك، فهو مصروفٌ إلى الخلق؛ لإعلامهم بأنه أهل لأن يدعى عليه. أو هو من قبيل الإخبار بما يؤول إليه حاله. والفائدة عدم اقتفاء أثر من كان حاله كذلك، والتَّحذير من سلوك طريقه، وفي ذكر المال والعاقبة عبرة للمعتبر.

والقرآن إنما يعنى بالمقاصد العامة، فليس الأمر مجرد إنشاء للدُّعاء على فلان من الناس؛ فلذلك فإنَّ القرآن لا يعنى بذكر غالبًا بذكر أشخاص ولا أماكن ولا أزمنة ولا مسافات؛ لأن ذلك لا علاقة له بالحدث، وإنما يعنى بموضع العبرة. فعندما يذكر فرعون -مثلاً- وهو لقب لملوك مصر في تلك الحِقْبَةُ من الزمن لا يذكر من هو على وجه التحديد. وإذا نصَّ القرآن الكريم في القليل النَّادر على ذلك فإنما يكون لقصد عظيم. وقد ذكر القرآن الكريم حكام مصر القدماء بلقب: (فرعون)، إلا في سورة يوسف فقد ذكر فيها حاكم مصر بلقب (ملك) في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ

(١) أخرجه الترمذي في (السنن) [٣١٩٤] وحسنه.

سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ [يوسف: ٤٣]، وقوله جَلَّوَعًا: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ؟﴾ [يوسف: ٥٠]، وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤].

وقد ذكر المؤرخون أن ملك مصر في عهد يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس). قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتعريف في ﴿الْمَلِكُ﴾ للعهد، أي: ملك مصر. وسماه القرآن هنا: ملكا ولم يسمه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكا لمصر أيام حكمها (الهكسوس)، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي: البدو. وقد ملكوا بمصر من عام [١٩٠٠] إلى عام [١٥٢٥] قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَام" ^(١). فالتعبير في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بالملك من دقائق إعجاز القرآن.

والملاحظ هنا أنه جرى ذكر أبي لهب لفائدة، وهي أن الآية تتضمن الإعجاز والتَّحدي، فمن الَّذي يملك أن يطلق هذا التَّهديد على صفحات الدَّهر، والقطع بأنه لن يتوب في حياته، فلو أنَّ أبا لهب قال: آمنت ولو كذبا؛ ليثبت أنَّه قد محى أسباب شقائه، أو بقصد تشكيك النَّاس بصحَّة هذا الإخبار لكان نسحا للخبر، والنسخ لا يكون في الأخبار؛ لأنه يدل على كذب الخبر.

ومن جانب آخر جرى ذكره كأمّوذج للشر والصد عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فكان مثالا وعظة وعبرة، وبيانا لحال كل من نهج نهجه.

(١) التحرير والتنوير (٢٨٠/١٢)، وانظر: تفسير المنار (٢٦١/١٢).

قال الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ: "وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيوب يكثر جدًّا، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل" (١).

٢٢ - فوائد أخرى متفرقة وبيان بلاغة التكرار:

ذكر الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ أن القصص في القرآن الكريم بثت بأسلوب بديع، إذ ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع، قال: فتوفرت من ذلك عشر فوائد:

فمن هذه الفوائد التي ذكرها: أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأيامهم، وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحديًا عظيمًا لأهل الكتاب، وتعجيزًا لهم بقطع حجتهم على المسلمين، فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين في نظر اليهود، وانقطعت ألسنة المعرضين بهم بأنهم أمة جاهلية، وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين.

ومن هذه الفوائد: أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأقوامهم تكميلًا لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرعين، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦] الآية. وهذه فائدة من فتوحات الله عَزَّوَجَلَّ لنا أيضًا. وقد رأيت من أسلوب القرآن في هذا الغرض: أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة في رسوخ

(١) إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني (ص: ٣٤).

الإيمان وضعفه، وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان. وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم، أو بلدانهم؛ إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم. وكذلك مواضع العبرة في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ في قصة أهل الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝﴾ [الكهف: ٩] إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝﴾ [الكهف: ١٣] الآيات، فلم يذكر أنهم من أي قوم، وفي أي عصر. وكذلك قوله فيها: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ۝﴾ [الكهف: ١٩]، فلم يذكر أي مدينة هي؛ لأن موضع العبرة هو انبعاثهم، ووصول رسولهم إلى المدينة إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۝﴾ [الكهف: ٢١].

ومن هذه الفوائد: ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب؛ لتقتدي الأمة وتحذر، وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك.

ومن هذه الفوائد: أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهودًا للعرب، فكان مجيؤه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية، شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن؛ إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله؛ إذ لم يعتادوه، انظر إلى حكاية أحوال الناس في الجنة والنار والأعراف في سورة الأعراف.

ومن هذه الفوائد: أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية، وجعلوا معظمها، وجعلوا أحوال البعض الذي علموا أسماءه، فأعقبهم ذلك إعراضا عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم، فكان في ذكر قصص

الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، قال مشيراً إلى غفلتهم قبل الإسلام: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

ثم قال بعد ذلك: وفوائد القصص تحتلبها المناسبات، فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريراً لها؛ لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى. كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعت المناسبات إلى أن وقف خطيباً في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة: إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها، ولم يعد ألفاظ خطبته. وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي.

ثم تحصل معه مقاصد أخرى.

منها: رسوخها في الأذهان بتكريرها.

ومنها: ظهور البلاغة، فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز، أو استعارات، أو كناية. وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات، وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان من الحدود القصوى في البلاغة.

وذكر من هذه المقاصد:

أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ويذكر في بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الآخر وذلك لأسباب:

منها: تجنب التطويل في الحكاية الواحدة، فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع، ويذكر آخر في موضع آخر، فيحصل من متفرق مواضعها في القرآن كمال القصة، أو كمال المقصود منها، وفي بعضها ما هو شرح لبعض.

ومنها: أن يكون بعض القصة المذكور في موضع مناسباً للحالة المقصودة من سامعيها، ومن أجل ذلك تجد ذكرًا لبعض القصة في موضع، وتجد ذكرًا لبعض آخر منها في موضع آخر؛ لأن فيما يذكر منها مناسبة للسياق الذي سيقته؛ فإنها تارة تساق إلى المشركين، وتارة إلى أهل الكتاب، وتارة تساق إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما، وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة، ثم تساق إليها في حالة أخرى. وبذلك تتفاوت بالإطناب والإيجاز على حسب المقامات.

ومنها: أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة، وتارة لا يقصد ذلك... إلى غير ذلك ^(١).

"وإن إطلاق كلمة تكرار هنا فيها كثير من التسامح والتساهل؛ فإن تعرض القرآن لما حدث مع نبي من الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَام مع قومه في أكثر من موضع ليس هو تكرارًا بالمعنى الحقيقي، إنما هو استشهاد بالقصة لأغراض متعددة؛ لذلك لا نجد القصة تعاد كما هي، وإنما يذكر الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة باستعراض سريع. أما جسم القصة فلا يكرر إلا نادرًا، ولا استنباط دروس وعبر جديدة منه مما يجعله على الحقيقة غير مكرر.

وهكذا وردت قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَام في ست مواضع من القرآن تثير العبر حول خطر اتباع الهوى ومخالفة أمر الله عَزَّجَلَّ، وضعف الإنسان أو توبته وقبول توبته.. وهكذا.

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/٦٤-٦٩).

كذلك وردت قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نحو عشرين موضعًا، تثير في كل موضع عبرة ودرسًا، في التوحيد، أو الإنابة، أو تأسيس البيت العتيق، أو الأذان في الحج.. إلى آخر ما هنالك..^(١).

فالقصة في كل سورة فيها من المعاني والحكم ما لا يوجد في سورة أخرى، وسياق السور وظرفها يحددان في موضع العبرة من القصة. فليس من السهل أن يقال: في كل سورة جاءت فيها قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون: إنها قصة واحدة، بل الواجب أن ندرس القصة في كل سورة؛ ليتبين السياق الذي جاءت من أجله، والعبرة التي هدفت لها، والحكمة التي قصدت منها.

كما في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث إنها وردت في ست سور، في (البقرة، والأعراف، والحجر، وطه، وص).

وفي (سورة الأعراف) وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلًا ما يشكرون الله عَزَّجَلَّ الذي مكنهم في الأرض، وجعل فيها معاش؛ ولذلك أسهبت القصة في موقف إبليس من الإنسان.

وفي (سورة الحجر) وردت القصة في سياق خلق الإنسان من طين، والجن من نار، فليست مادة أفضل من مادة، وهذا ما ركزت عليه القصة.

أما (سورة الإسراء) فقد وردت قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في سياق فتنة الناس؛ ولذلك كان الإسهاب في حسد إبليس وأعدائه لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته^(٢).

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، لنور الدين العتر (ص: ٢٤٩)، مطبعة الصباح، دمشق [١٤١٤هـ].

(٢) بتصرف عن (مجلة لواء الإسلام)، السنة الرابعة (ص: ٥٣٧-٥٥٤)، مقالة الشيخ محمد خضر حسين. انظر:

(الرد على قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية)، د. فضل حسن عباس (ص: ١٤١-١٤٢)، ط: جمعية

عمال المطابع التعاونية، الأردن [١٤١٠هـ].

وقد نقل الدكتور جوستاف عن (دائرة المعارف البريطانية) تحت مادة: قرآن: ليس هناك مهارة أدبية عظيمة واضحة في التكرير الذي لا لزوم له لنفس الكلمات والجمل في القرآن.

والرد على ذلك من وجوه:

أولاً: إن لكل لغة منهجاً مختاراً، وللمتكلمين بها ذوقاً خاصاً.. ومن هنا يخطأ متكلم بلغة ما حين يطعن في أسلوب لغة أخرى لم يألّفها لسانه، ولم يدرك سرها حجاه. فينبغي أن يذكر في الترجمة إلى لغة أخرى: الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة في كل موضع، ويبيان أنه يغيّر الموضع الآخر في كذا وكذا، وأن القصة لا تعاد كما هي كما سبق؛ فإن ذلك من (فقه اللغة) الذي لا يدركه بالترجمة الحرفية من يجهل فقهها.

ثانياً: إن التكرار في موضع اللجاج والجمود المتتابع أسلوب مرغوب فيه في اللغة العربية، ومعروف منذ عهودها الأولى.

والقرآن الكريم كتابها الأعلى، وحجتها البالغة، وإنما جاء في الذروة من أساليبها بلاغة وإعجازاً وسحراً.

وهاك ما ورد في (سورة الرحمن) —مثلاً—؛ فإن كل آية أو اثنتين من هذه السورة تضمنت تذكيراً بنعمة من نعم الله عَزَّوَجَلَّ السابعة على الناس في الدنيا والآخرة، فناسب أن يكرر هذا التساؤل التذكيري الذي يذكر الناس.

على أننا نلاحظ التكرار؛ لفاصلة الأناشيد الوطنية والحربية في سائر اللغات، وعند كافة الأمم للتركيز على معنى خاص مقصود لذاته؛ لأجل التذكير به، ويبيان أهميته.



فلماذا يعاب في لغة القرآن الكريم ما لا يعاب في سواها؟! (١).

وقد تكلم كثيرون في بلاغة التكرار، ومن أبرزهم: أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ، فذكر مقاصد التكرار وأساره، وما فيه من ألوان البلاغة، قال رَحِمَهُ اللهُ: "كانت وفود العرب ترد على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإسلام، فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن، فيكون ذلك كافياً لهم.

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالشُّور المختلفة، فلو لم تكن الأنبياء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم، وقصة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم، وقصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم، وقصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم.

فأراد الله عَزَّجَلَّ بلطفه ورحمته، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

قال: وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزىء عن بعض، كتكراره في: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١]، وفي (سورة الرحمن) بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ۝٣﴾ [الرحمن: ١٣] فقد أعلمتكم أَنَّ القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم: التكرار؛ إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار؛ إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فنٍّ واحد.

(١) بتصرف عن (كتاب أحكمت آياته)، أحمد محمد جمال (ص: ١٢١)، ط: إدارة الصحافة والنشر، مكة المكرمة.

وقد يقول القائل في كلامه: والله لا أفعله، ثم والله لا أفعله. إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله. كما يقول: والله أفعله، بإضمار: (لا) إذا أراد الاختصار.... إلى آخر ما ذكره في بيان بلاغة التكرار" (١).

وقد كتب في بلاغة التكرار المؤلفات والرسائل الكثيرة - قديماً وحديثاً -، ولا سيما في كلية اللغة العربية في (جامعة الأزهر).

وللسجلماسي رَحِمَهُ اللهُ (٢) نظرة جديدة وموسعة إلى بلاغة التكرير في القرآن الكريم. وقد ذكر منهجه وطريقته: الدكتور عبد الله علي محمد حسن في كتابه: (السجلماسي ونظرة جديدة إلى بلاغة التكرير) في كلية اللغة العربية في (جامعة الأزهر). وقد جاء في (أوله) أن التكرير طريق من طرق الإطناب لا يأتي عبثاً أو لغواً أو تطويلاً بدون داع، وإنما جاء لهدف بلاغي كالتأكيد، أو لزيادة التنبيه، أو لطول الفصل، أو لتعدد المتعلق.

ومن المعروف أن التكرير هو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لفائدة. وقد اعتبر علماء البلاغة أن اللفظة أو الجملة إذا كررت دون أن تضيف شيئاً فإنه عيب يخل بفصاحة الكلام.

فقد قيل في قول الشاعر:

إِنِّي وَأَسْطَارُ سَطِرُنْ سَطِرًا لِقَائِلٍ يَا نَصْرُ نَصْرًا نَصْرًا (٣)

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد بن قتيبة (ص: ١٤٩-١٥٩).

(٢) انظر: السجلماسي ونظرة جديدة إلى بلاغة التكرير، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ط: مركز فجر لخدمات الطباعة، القاهرة.

(٣) البيت من الرجز، وهو في (ديوان رؤبة بن العجاج) (ص: ١٧٤)، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، طبع ليسج، ودار ابن قتيبة للطباعة والنشر، الكويت.

أنه لا يفيد معنى -سوى التأكيد-، ولا ينبئ عن غرض، ولا يحمل عاطفة.
وقد ذكر البلاغيون الكثير من أغراض التكرير:

ومن هذه الأغراض: تأكيد الإنذار في نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٣ ثم
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ [التكاثر: ٣-٤]. وفي ﴿ثُمَّ﴾ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ وأشد،
تنزيلاً لبعد المرتبة بعد الزمان، واستعمالاً للفظ: ﴿ثُمَّ﴾؛ للدلالة على التدرج في الإنذار.
ومن هذه الأغراض: استمالة المخاطب لقبول الخطاب: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الَّذِي
ءَامَنَ يَقُومُ آتِيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ٣٨ يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ [غافر: ٣٨-
٣٩] فقد كرر قوله: ﴿يَقُومُ﴾؛ لاستمالتهم وحملهم على قبول الرشاد.

ونحوه: الاستعطاف، كما في نحو قوله جَلَّوَعَلَا عن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دعوته
لأبيه: ﴿يَتَّابِتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ٤٢ يَتَّابِتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي
مِنْ أَلْعَلِمَ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ٤٣ يَتَّابِتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ
لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ٤٤ يَتَّابِتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا
﴿٤٥﴾ [مريم: ٤٢-٤٥].

وكما في قوله جَلَّوَعَلَا عن لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في نصحه لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ
يُعِظُهُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يَبْنَى إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي
صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]، ﴿يَبْنَى أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ
بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

ومن هذه الأغراض: طول في الكلام، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ
عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ



﴿١١٩﴾ [النحل: ١١٩]، وفي قوله جَلَّوَعًا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

ومن هذه الأغراض: تعدد المتعلق، كما كرره الله عَزَّوَجَلَّ من قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]؛ لأنه جَلَّوَعًا ذكر نعمة عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى.

ونحوه قوله جَلَّوَعًا: ﴿وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]؛ لأنه جَلَّوَعًا ذكر قصصًا مختلفة، وأتبع كل قصة بهذا القول، فصار كأنه عقب كل قصة: ﴿وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه القصة.. إلى غير ذلك ^(١).

وقد عدَّ النورسي رَحْمَةُ اللَّهِ التكرار في أسلوب القرآن الذي حسبه الجاهلون مطعنا فيه وجهًا آخر من وجوه إعجازه، وبين حكم التكرار، وذكر منها:

١- أن القرآن الكريم كتاب ذكر ودعاء ودعوة، فالذكر يكرَّر، والدُّعاء يردد، والدعوة تؤكد.

٢- ومن جهة أخرى فإنه لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحد في كل وقت؛ فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سوره، ولا سيما الطويلة منها، حتى صارت كل سورة قرآنًا صغيرًا، فسَهِّل السبيل لكل أحد، دون أن يحرم أحدًا، فكَرَّر التوحيد والحشر، وقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢).

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (٢٠٠/٣)، عروس الأفراح (٦٠٨/١)، مختصر المعاني (ص: ١٧٧)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٨٧/٢-٨٨)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (٦٥٩/١)، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٦٩٦/٢).

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي، المکتوبات (٢٦٧/٢-٢٦٨)، المؤتمر العالمي لبديع الزمان النورسي (ص: ٢٧٣)، [Y.BOSNA/ISTANBUL.BASIM-YAYIN-sanayi cad. Bilge Sok]

٣- تكراره يناسب حاجات الإنسان المعنوية. فتكرار المعاني دون الألفاظ يجيء في القرآن إذن؛ للدلالة على تكرّر الاحتياج؛ وللإشارة إلى شدّة الاحتياج إليها؛ ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه؛ وللتشويق على الاحتياج؛ ولتحريك اشتهاه الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية.

٤- إن القرآن مؤسس لهذا الدين، ولا بدّ للمؤسس من التكرير؛ للتثبيت، ومن التريديد؛ للتأكيد، ومن التكرير للتقرير والتأييد.

٥- بحثه في المسائل العظيمة والحقائق الدقيقة يتطلب تكرارها؛ لتتقرر في القلوب، وتثبت في أفكار العامة.

ويخلص النورسي رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى أَنَّهُ لَا تَكَرُّرَ حَقِيقِي فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَلَكَلَّ آيَةٍ حَدٍّ وَمَطْلَعٍ، وَلَكُلِّ قِصَّةٍ وَجْوهٌ وَأَحْكَامٌ وَفَوَائِدٌ وَمَقَاصِدٌ، فَتَذَكَّرُ فِي مَوْضِعٍ لَوْجِهَهُ، وَفِي آخَرٍ لآخر.

يقول الجاحظ مبيّنًا الفائدة منه: "إن الناس لو استغنوا عن التكرير، وكفوا مؤونة البحث والتنقير، لقلّ اعتبارهم، ومن قلّ اعتباره قلّ علمه، ومن قلّ علمه قلّ فضله، ومن قلّ فضله كثر نقصه، ومن قلّ علمه وفضله وكثر نقصه لم يُحمد على خير أتاها، ولم يُدَمَّ على شرّ جناها، ولم يجد طعم العزّ، ولا سرور الظفر، ولا روح الرجاء، ولا برد اليقين ولا راحة الأمن.." (١).

قال الزمخشري رَحْمَةُ اللَّهِ: "فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ

﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٩-٤٠]؟



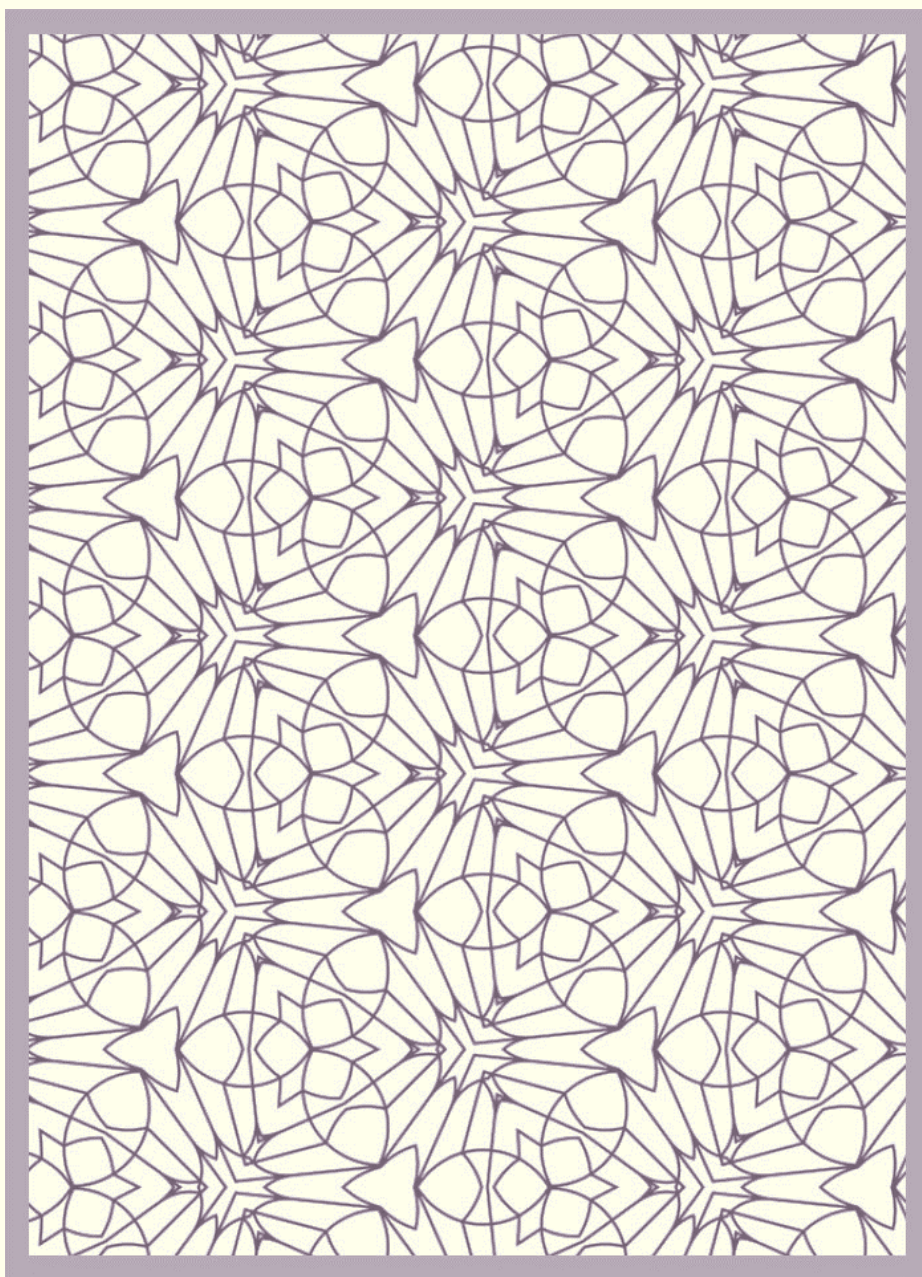
قلت: فائدته: أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين اذكارًا واتعاظًا، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظًا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات^(١)؛ لئلا يغلبهم السهو، ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله جلّ وعلا: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] عند كل نعمة عدها في (سورة الرحمن)، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَيْلٌ لِّمُكْذِبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] عند كل آية أوردها في (سورة والمرسلات)، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها؛ لتكون تلك العبر حاضرة القلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان^(٢).

وقد أضفت زيادة على ما جاء هنا فوائد في مقاصد قصص القرآن في الجزء الثاني في كتاب: (تذكرة وبيان في علوم القرآن).



(١) الشَّنُّ والشَّنَّةُ: الْقَرِيبَةُ الْخَلْقُ، وكأخا صغيرة، وجمع الشَّنِّ: شَنَانٌ. وفي المثل: (لا يُقَعِّعُ لي بالشَّنَانِ). انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (شنن) (٢١٤٥/٥-٢١٤٦). والمثل المذكور يضرب للرجل الشرس الصعب، أي: لا يهدد ولا يفزع. والقعقة: تحريك الشيء يسمع له صوت، والشنان: جمع شن، وهي القرية البالية. قال الصفدي: الشَّنُّ: الْقَرِيبَةُ الْخَلْقُ الْيَابِسَةُ، وكل وعاء أُخْلِقَ من أديم وجف فهو شَنٌّ، ولا تقل: شِنٌّ، بالكسر. وأصل المثل: أنهم كانوا إذا أرادوا حث الإبل على السير حركوا قرية بالية يسمع لها صوت فتفزع الإبل وتسرع. انظر: الكامل، للمبرد (٣٠٢/١)، المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري (٢٧٤/٢)، تصحيح التصحيف، للصفدي (ص: ٣٤٢)، الأمثال، للهاشمي (ص: ٢٨١)، الزاهر في معاني كلمات الناس (٣٩٦/٢).

(٢) الكشف (٤٣٩/٤).



الرهبت السادس:

الأزمنة الفاضلة

لقد اختص الله عَزَّجَلَّ بعض الأزمنة وشرفها بمزايا وفضائل دائمة مستمرة غير منقطعة، وخصَّها بقرب تؤدى فيها، وضاعف لعباده الأجر فيها، وحثهم على التعبد له فيها، كشهر رمضان، والعشر الأواخر منه، وليلة القدر، والعشر الأول من ذي الحجة، ويوم النحر، ويوم عرفة، وأيام التشريق، ويوم الجمعة، والأشهر الحرم - ولا سيما شهر الله المحرم -، ويوم عاشوراء، وشهر شعبان. ووقت الأسحار، والثلاث الأخير من الليل، والأيام البيض، وفي وقت الصلاة والصيام.

ومن الأوقات التي يُرجى فيها قبولُ الدعاء، وهي من الأزمنة الفاضلة: ما بين الأذان والإقامة، والدعاء عند النداء للصلاة، وفي جوف الليل الآخر، ودُبر الصلوات المكتوبات، وفي رمضان عند فطر الصائم، والساعة التي في يوم الجمعة، والدعاء في الصلاة والسجود، وفي الصيام، والسفر، ودعاء الغازي في سبيل الله عَزَّجَلَّ، والحاج والمُعتمر، وفي يوم عرفة. وقد فاضل الحقُّ عَزَّجَلَّ بين الأزمنة كما فاضل بين الأمكنة، وكما فاضل بين الخلائق. فمن الأزمنة الفاضلة من أيام الأسبوع: يوم الجمعة، ومن أيام السنة: يوم عرفة، ومن ليالي السنة: ليلة القدر، ومن شهور السنة: شهر رمضان.

وقد نصَّ العلماء على أن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها؛ لشرف الزمان، أو شرف المكان، أو بهما معاً، وكذا المعصية يتضاعف وزرها في الأماكن المفضلة، كمكة - شرفها الله عزَّ وجلَّ -، وفي الأزمنة المفضلة، كرمضان وغيره.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا اسْتَعْمَلَهُ فِي الْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ، وَإِذَا مَقَّتَهُ اسْتَعْمَلَهُ فِي الْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ بِسِيِّئِ الْأَعْمَالِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَوْجَعُ فِي عِقَابِهِ، وَأَشَدُّ لِمَقَّتِهِ؛ لِحِرْمَانِهِ بَرَكَةِ الْوَقْتِ، وَانْتِهَاكِهِ حَرَمَةِ الْوَقْتِ"^(١). وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "الْعَمَلُ الْمَفْضُولُ فِي الْوَقْتِ الْفَاضِلِ يَلْتَحِقُ بِالْعَمَلِ الْفَاضِلِ فِي غَيْرِهِ وَيَزِيدُ عَلَيْهِ لِمُضَاعَفَةِ ثَوَابِهِ وَأَجْرِهِ"^(٢).

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ اللهُ فِي (الآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ): "زِيَادَةُ الْوُزْرِ كَزِيَادَةِ الْأَجْرِ فِي الْأَزْمَنَةِ وَالْأَمْكَنَةِ الْمُعْظَمَةِ"^(٣). قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللهُ: "الْمَعَاصِي فِي الْأَيَّامِ الْمُعْظَمَةِ وَالْأَمْكَنَةِ الْمُعْظَمَةِ تَغْلُظُ مَعْصِيَتَهَا وَعِقَابُهَا بِقَدْرِ فَضِيلَةِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ"^(٤).

ولذلك قال بعض الفقهاء فِي الْإِعْلَانِ عَنِ النِّكَاحِ -مثلاً-: يَرَاعَى فِيهِ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ الْفَاضِلَ.

قال ابن الهمام رَحِمَهُ اللهُ: "يَسْتَحِبُّ مَبَاشَرَةَ عَقْدِ النِّكَاحِ فِي الْمَسْجِدِ؛ لِكُونِهِ عِبَادَةً وَكَوْنِهِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ"^(٥).

(١) إحياء علوم الدين (١/١٨٨).

(٢) لطائف المعارف (ص: ٢٦١).

(٣) الآداب الشرعية (٣/٤٣٠).

(٤) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/٤١٢).

(٥) انظر: مرقاة المفاتيح (٥/٢٠٧٢)، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي (٢/٩٥)، البحر الرائق شرح كنز

الدقائق، لابن نجيم المصري (٣/٨٦).

وقد ذهب الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أنه يندب عقد النكاح يوم الجمعة. قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: "ويستحب عقد النكاح يوم الجمعة؛ لأن جماعة من السلف استحَبوا ذلك؛ منهم ضمرة بن حبيب، وراشد بن سعد، وحبيب بن عتبة رَحِمَهُمُ اللهُ؛ ولأنه يوم شريف، ويوم عيد، فيه خلق الله عَزَّجَلَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ" ^(١). والبركة في النكاح مطلوبة، فاستحب له أشرف الأيام طلبًا للبركة ^(٢) - والله أعلم -.

فالمسلم إنما يحب الأزمنة الفاضلة؛ لأنها مواسم للخير، يسارع الموفقون من عباد الله عَزَّجَلَّ إلى اغتنام لحظاتها ودقائقها، ويتعرضون لنفحات الله عَزَّجَلَّ، ويتلذذون بالطاعات والمناجاة والقرب من الله عَزَّجَلَّ. فلا شك أنهم يحبون تلك المواسم، وينتظرونها، ويعدون العدة لها كحال تجار الدنيا الذين ينتظرون المواسم؛ لعظيم الرواج فيها، فإذا جاءت تلك المواسم شتموا عن ساعد الجد، وقد تحملهم شدة الحرص على التضحية براحتهم، ويتعرضون للمخاوف والأخطار غير مباليين بما ينالهم من شدة وعناء، بل يستسهلون في سبيل الربح جميع الصعاب.. هذا حال تجار الدنيا الذين يطلبون ربحًا غير مضمون، فقد يكون وقد لا يكون، فكيف إذا كان موسم التجارة موسمًا لا خسارة فيه ولا غش ولا كساد؟ بل هي تجارة مأمونة رائجة رابحة لن تبور.. هل سمعتم أن المشتري يعطي التاجر أكثر من الثمن؟ لكن الله جَلَّ وَعَلَا الغني الكريم يأخذ عمل العبد، ويعطيه على الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله عَزَّجَلَّ يضاعف لمن يشاء، فكما أن للدنيا تجارًا منهمكين

(١) انظر: المغني، لابن قدامة (٨٤/٧)، الشرح الكبير على متن المقنع (٣٦٧/٧)، الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (١٦٢/٣)، المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (١٤/٢). والحديث في (صحيح مسلم) [٨٥٤]، ونصه: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة».

(٢) دقائق أولي النهى، لمنصور البهوتي (٦٣٠/٢)، كشاف القناع (٢٠/٥)، كشف المخدرات (٥٨١/٢)، مطالب أولي النهى (٢٦/٥).

في تجارتها كذلك فإن للآخرة تجارتاً صادقين، أوفياء مخلصين. ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(١) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

﴿٣٨﴾ [النور: ٣٧-٣٨].

وقد قالوا: ويل لمن غلبت آحاده عشراته؛ لأن الحسنه بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة واحدة.

ويكون حال الصالحين بعد تلك المواسم أفضل من حالهم قبلها؛ وذلك لما تتركه من الأثر في نفوسهم، فهي بمثابة دورة تدريبية فعالة، تحمل الإنسان على ترك الماديات والشهوات، وترتقي به إلى أفق أسمى من المحبة والقرب من المحبوب.. وإن كان لتلك المواسم تميزها عن سائر الأيام الأخرى من حيث الاجتهاد في اغتنام أوقاتها، والتشوق لقدمها. وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»^(١).

وقد نبّه النبي ﷺ الغافلين عن اغتنام الأزمنة الفاضلة، فحثهم على اغتنامها فقال عن (شهر شعبان) -مثلاً-: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين»^(٢).

(١) صحيح البخاري [٦، ١٩٠٢، ٣٢٢٠، ٣٥٥٤، ٤٩٩٧]، مسلم [٢٣٠٨].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٩٧٦٥]، وأحمد [٢١٧٥٣]، والبخاري [٢٦١٧]، والنسائي [٢٣٥٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٨/٩)، والضياء [١٣١٩] وقال: "إسناده حسن". قال الحافظ في (الفتح) (٢١٥/٤):

"صححه بن خزيمة عن أسامة بن زيد".

وقال عن العشر الأول من ذي الحجة: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه؟»، قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء»^(١).

وعند الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ بلفظ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»، فقالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»^(٢).

ومن أيام العشر: يوم النحر، هذا اليوم العظيم من أيام الله جَلَّ وَعَلَا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أعظم الأيام عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يوم النحر، ثم يوم القر»^(٣). و(يوم القر): هو اليوم الذي يلي يوم النحر، سمي بذلك؛ لأن الناس يقرون فيه بمنى، وقد فرغوا من طواف الإفاضة والنحر فاستراحوا، وقروا.

ومن الأيام الفاضلة: يوما الاثنين والخميس، جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»^(٤).

(١) صحيح البخاري [٩٦٩].

(٢) سنن الترمذي [٧٥٧]، وقال: "حسن صحيح غريب".

(٣) أخرجه أحمد [١٩٠٧٥]، وأبو داود [١٧٦٥]، وابن أبي عاصم [٢٤٠٧]، والنسائي في (الكبرى)

[٤٠٨٣]، وابن خزيمة [٢٨٦٦]، وابن حبان [٢٨١١]، والحاكم [٢٨٦٦]، وقال: "صحيح الإسناد"،

ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح مسلم [٢٥٦٥].

وفي رواية: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»^(١).

والشهور عند الله عَزَّجَلَّ اثنا عشر شهراً اختص منها أربعة؛ فجعلن حرمًا، وعظم حرماثن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أكرم. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقد بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأشهر، ففي (الصحيحين): عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب في حجة الوداع، فقال في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب شهر مضر الذي بين جمادى وشعبان»^(٢).

وقد ختم الله عَزَّجَلَّ الآية السابقة بقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، فالظلم محرم في كل وقت، ولكنه في الأشهر الحرم أعظم من الظلم فيما سواها، وتعظيم ما عظم الله عَزَّجَلَّ من صفات المؤمنين السالكين طريق النجاة.

(١) أخرجه الترمذي [٧٤٧]، وقال: "حديث: أبي هريرة في هذا الباب حديث حسن غريب". قال ابن الملقن: "هذا الحديث صحيح" البدر المنير (٧٥٥/٥). قال الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) (٤٦٧/٢): "حديث: «تعرض الأعمال على الله يوم الاثنين والخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم» الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة. وأبو داود والنسائي من حديث أسامة بن زيد. قال قلت: يا رسول الله إنك تصوم حتى تكاد لا تفطر، وتفطر حتى تكاد لا تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما، قال: أي يومين؟ قلت: يوم الاثنين والخميس، قال: «ذانك يومان تعرض الأعمال فيهما على رب العالمين فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم» ورواية النسائي أتم، ورواه أحمد به وأتم منه" اهـ.

(٢) صحيح البخاري [٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٤٤٧]، مسلم [١٦٧٩].

وفي المقابل فإن اجتراح السيئات، ومقارفة الآثام من ظلم النفس، وهو في الشهر الحرام أشد سوءاً، وأعظم شؤماً، وأفدح ظلماً؛ لأنه يجمع بين الذنب وبين امتهان حرمة ما حرم الله جَلَّوَعَلَا وعظمه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وهذا فيمن ابتدأ القتال، أما من اعتدي عليه، فإنه يدافع عن نفسه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١]، كما أن أجر العمل الصالح في الشهر الحرام أعظم. لقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ فاتحة العام شهراً مباركاً نجى فيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه من فرعون وقومه، فشرع فيه الطاعة والعبادة والصوم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الصيام، بعد رمضان، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة، بعد الفريضة، صلاة الليل»^(١).

ومن عظيم فضل الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل آخر شهر في العام شهر عبادة وطاعة، وأول شهر في العام شهر عبادة وطاعة؛ ليفتح المرء عامه بإقبال ويختتمه بإقبال. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن صام شهر ذي الحجة سوى الأيام المحرم صيامها منه وصام المحرم فقد ختم السنة بالطاعة وافتتحها بالطاعة، فيرجى أن تكتب له سنته كلها طاعة؛ فإن من كان أول عمله طاعة وآخره طاعة فهو في حكم من استغرق بالطاعة ما بين العملين"^(٢).

وقد سمي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الشهر: شهر الله المحرم، فاختصه بإضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ تدل على شرفه وفضله، ولما كان هذا الشهر مختصاً بإضافته

(١) صحيح مسلم [١١٦٣].

(٢) لطائف المعارف (ص: ٣٥).

إلى الله وكان الصيام من بين الأعمال مختصاً بإضافته إلى الله عَزَّجَلَّ^(١) ناسب أن يختص هذا الشهر المضاف إلى الله عَزَّجَلَّ بالعمل المضاف إليه المختص به، وهو الصيام. وقد قيل في معنى إضافة هذا الشهر إلى الله عَزَّجَلَّ: إنه إشارة إلى أن تحريمه إلى الله عَزَّجَلَّ، ليس لأحد تبديله كما كانت الجاهلية يحلونه، ويحرمون مكانه صفرًا. فقد تلاعب أهل الجاهلية بالأشهر الحرم زيادةً ونقصاناً، تقديمًا وتأخيرًا، وهو الذي سماه الله عَزَّجَلَّ: النسيء، فقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَمَّا وُحِّرَ مِنْهُ عَمَّا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٧].

ومن فضائل شهر الله المحرم: أنه يستحب الإكثار فيه من صيام النافلة؛ ففي الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الصيام، بعد رمضان، شهر الله المحرم»^(٢). ويتأكد صيام يوم عاشوراء وهو العاشر من محرم؛ لأنه يومٌ معظمٌ، فقد حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صيامه؛ لنيل ثوابه واغتنامه، فعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»^(٣).

ويسن صيام التاسع معه؛ فعن عبد الله بن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لئن بقيت إلى قابلٍ لأصومن التاسع»^(٤).

(١) جاء في الحديث: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به...» صحيح البخاري [١٩٠٤،

٥٩٢٧]، مسلم [١١٥١].

(٢) صحيح مسلم [١١٦٣]، وقد تقدم.

(٣) صحيح مسلم [١١٦٢].

(٤) صحيح مسلم [١١٣٤].

وقد قيل: إن سبب صوم تاسوعاء مع عاشوراء: هو مخالفة اليهود في اقتصارهم على صوم العاشر. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "قال بعض العلماء: ولعل السبب في صوم التاسع مع العاشر: أن لا يتشبه باليهود في أفراد العاشر. وفي الحديث إشارة إلى هذا. وقيل: للاحتياط في تحصيل عاشوراء، والأول أولى - والله أعلم -" (١).

ولم يكن صوم يوم عاشوراء بدعاً من الأعمال، ولا افتراءً من الأقوال، بل صامه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحثَّ أمته على صيامه، وصامه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه من قبل، وكانت العرب تصومه في الجاهلية، فله منزلة عظيمة وحرمة قديمة، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصومه، فلما هاجر إلى المدينة، صامه وأمر بصيامه، فلما فرض شهر رمضان قال: «من شاء صامه، ومن شاء تركه» (٢).

والحكمة من صيامه: أنه اليوم الذي نجي الله عَزَّوَجَلَّ فيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه من فرعون وجنوده، فصامه موسى شكراً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ روى ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر بصيامه» (٣).

وصيام عاشوراء على مراتب:

أدناها: أن يصام وحده.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٨).

(٢) أخرجه البخاري [٢٠٠٢]، مسلم [١١٢٥].

(٣) أخرجه البخاري [٢٠٠٤]، مسلم [١١٣٠].



وفوقها: أن يصام التاسع معه.

وكلما كثر الصيام في محرم كان أفضل وأطيب.

إذا وافق عاشوراء يوم جمعة جاز إفراده بالصوم.

وصيام عاشوراء مرّ بمراحل:

الأولى: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصومه بمكة ولا يأمر بصيامه.

الثانية: جاء المدينة فرأى اليهود يصومونه فسألم عنه، وقال: «نحن أحق منكم بموسى»

فصامه وأمر بصيامه.

الثالثة: لما فرض صيام رمضان ترك الأمر بصيام عاشوراء.

الرابعة: عزم أن لا يصومه مفرداً؛ مخالفة لليهود.

ولعل الأقرب إلى الحكمة والصواب أن يقال: إن المخالفة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المراد أن هذه الأمة لما كانت موصوفة بالخيرية كان الشكر فيها فوق الشكر في الأمم السابقة، فإن من اليهود من كان يصوم يوماً؛ شكراً لله عَزَّجَلَّ على نعمة الإنجاء، ثم تركوا، فنحن نصوم يومين، ولا نترك الشكر، فدلّ ذلك على أن صيام التاسع مندوب وإن تركه الآخرون من الأمم السابقة؛ إذ المخالفة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المراد الزيادة في الشكر؛ لخيرية هذه الأمة. ومن أفرد عاشوراء بالصيام فقد حصل الأجر كاملاً من تكفير السنة الماضية، ومن زاد فهو من زيادة العمل الذي يترتب عليه زيادة الأجر والثواب.

فقد جاء في (صحيح مسلم): عن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن صومه؟ قال: فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وبيعتنا ببيعة. قال: فسئل عن صيام

الدهر؟ فقال: «لا صام ولا أفطر -أو ما صام وما أفطر-»، قال: فسئل عن صوم

يومين وإفطار يوم؟ قال: «ومن يطيق ذلك؟» قال: وسئل عن صوم يوم، وإفطار يومين؟

قال: «ليت أن الله قوانا لذلك»، قال: وسئل عن صوم يوم، وإفطار يوم؟ قال: «ذاك صوم أخي داود عَلَيْهِ السَّلَام»، قال: وسئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت -أو أنزل علي فيه-»، قال: فقال: «صوم ثلاثة من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، صوم الدهر»، قال: وسئل عن صوم يوم عرفة؟ فقال: «يكفر السنة الماضية والباقية»، قال: وسئل عن صوم يوم عاشوراء؟ فقال: «يكفر السنة الماضية»^(١)، كما ورد في روايات أنه يعدل صيام سنة.

والحاصل أن الأزمنة يفضل بعضها على بعض. فيرى ابن تيمية وابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ: أن الليالي العشر الأخيرة من رمضان -مثلاً- هي أفضل ليالي العام كله؛ لما خصت به من المزايا والفضائل العظيمة، ففيها ليلة القدر. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "أيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان والليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وإذا تأمل الفاضل اللبيب هذا الجواب. وجدده شافياً كافياً؛ فإنه ليس من أيام العمل فيها أحب إلى الله من أيام عشر ذي الحجة، وفيها: يوم عرفة ويوم النحر ويوم التروية. وأما ليالي عشر رمضان فهي ليالي الإحياء التي كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحييها كلها، وفيها ليلة خير من ألف شهر. فمن أجاب بغير هذا التفصيل لم يمكنه أن يدلي بحجة صحيحة"^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليالي العشر الأخير من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه،

(١) صحيح مسلم [١١٦٢].

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨٧/٢٥)، بدائع الفوائد (١٦٢/٣).



ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فضلت باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فضل باعتبار أيامه؛ إذ فيه يوم النحر ويوم عرفة ويوم التروية" (١). وفي المقابل يرى آخرون أن ليالي العشر الأول من ذي الحجة أفضل؛ لعموم النصوص التي فضلت العشر الأول من ذي الحجة، وأن تفضيلها ليس قاصراً على النهار، بل ليلاتها مثل نهارها في الفضل، وإنما تستثنى من ذلك: ليلة القدر. قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "وفيه فضل بعض الأزمنة على بعض" (٢).

ومحبة الأزمنة؛ لكونها وسيلة للقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبة للعبد، بسبب مضاعفة الأجر فيها. قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ في معرض حديثه عن (ليلة القدر): "وتفضيلها بالخير على ألف شهر إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة، واستجابة الدعاء، ووفرة ثواب الصدقات، والبركة للأمة فيها؛ لأن تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها، ولا بما يحدث فيها من حر أو برد، أو مطر، ولا بطولها أو بقصرها؛ فإن تلك الأحوال غير معتد بها عند الله جَلَّوَعَلَا، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفراداً وجماعات، وما يعين على الحق والخير ونشر الدين. وقد قال في فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣]، فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها؛ لأنها ظروف للأعمال، وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس ففضلها بما أعده الله لها من التفضيل" (٣).

(١) زاد المعاد (٥٧/١).

(٢) فيض القدير (٥١/٢).

(٣) التحرير والتنوير (٤٥٩/٣٠).



وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ عَنْ الأَيام العشر من ذي الحجة: "والذي يظهر أنَّ السبب في امتياز عشر ذي الحجة؛ لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتى ذلك في غيره" (١).

"فينبغي أن تُخَصَّصَ الأَيامُ والأوقات التي فضَّلَها الله عَزَّجَلَّ بمزيد من الاهتمام والاجتهاد. ولكن مع الأسف فإنَّ الكثيرين تمرُّ عليهم أعمارهم، وتمرُّ عليه الأَيامُ الفاضلة، والأوقات الشريفة، ولا يستفيدون منها، وتذهب عليهم سدى، وقد لا يكفي أنهم لا يستفيدون منها، بل يستغلونها في الحرام والمعاصي والسيئات، خصوصاً في هذا الزمان الذي فشت فيه الشواغل والملهيَّات، فالمسلم يتنبه لنفسه، ويتنبه لأوقات الفضائل، والغافل يقول: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، ويواجه ما ذكره الله عَزَّجَلَّ عَنْ أَصْحَابِ النار، إِذَا القوا فيها، قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيقول الله عَزَّجَلَّ لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مِمَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فمن ضيَّع وقته وحياته فهذا مصيره.

ومن الأزمنة الفاضلة التي يحبها المسلم: قرن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لحديث: «بعثت من خير قرون بني آدم، قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه» (٢). و«القرون» جمع: قرن وهو الطبقة من الناس المجتمعين في عصر واحد. وقيل: هو مائة سنة، وقيل غير ذلك. و«قرناً فقرناً» أي: نقيت من القرون، وأفضلها حال كونها قرناً بعد قرن.

(١) فتح الباري (٢/٤٦٠).

(٢) صحيح البخاري [٣٥٥٧].

وفي الحديث: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١)، وقد اتفق العلماء على أن خير القرون قرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختلفوا في المراد بالقرن، والصحيح أن المراد من قرنه: أصحابه، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم.

وقد ذكرت ما جاء في فضائل الأوقات في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة)، ومن ذلك: ما جاء في فضائل شهر رمضان والعشر الأخير منه، وليلة القدر.

وقد خصَّ الشارع بعض أوقات الاستغفار بمزيد فضل - كما جاء ذلك مبيناً في الجزء الثاني من كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة) -، ومن ذلك: الاستغفار عند وقوع الذنب، والاستغفار عقب الصلوات وفيها، وعقب سائر العبادات، وعقب الصلاة على الخصوص، وفي الصلاة، فيدخل في هذا: كل دعاء في الصلاة فيه سؤال الغفران، كاللحظة في الركوع والسجود، والقنوت، وعند الأذان، وبينه وبين الإقامة، وقيل: في افتتاح الصلاة، وقيل: في الجلوس بين السجدين، ويندب بعد التشهد الأخير، وفي وقت الإفطار من الصيام، وعند دخول المسجد، والخروج منه، وعند النوم، وإذا مضى شطر الليل، وفي وقت الأسحار، وعقب كل عبادة، ويسن للعاطس أن يدعو بالمغفرة لمن شتمه، ويندب الاستغفار بعد قضاء الحاجة، وعند الخروج من الخلاء، كما يندب الإكثار منه في الاستسقاء. وعند اقتراب الأجل، كما هو مفصل في مظانه. فهذه أوقات مخصوصة يتأكد فيها الاستغفار، ويعظم فيها الأجر، مع مشروعيته في كل وقت، والاستغفار بعد الفراغ من الوضوء، والاستغفار في الحجّ وعقب إكمال أعماله، وفي ختم المجالس، وفي ختام العمر وفي حالة الكبر والشيخوخة، إلى غير ذلك مما بينته مفصلاً في (الإرشاد).

(١) صحيح البخاري [٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨، ٦٦٩٥]، مسلم

[٢٥٣٣، ٢٥٣٤، ٢٥٣٥].

البحث السابع:

دلالات بعض ألفاظ الزمان الأهمية والاعتبارات

أولاً: أهمية العلم بدلالات ألفاظ الزمن:

وفي هذا المبحث دراسة لبعض ألفاظ الزمن الأكثر تداولاً في الكتاب والسنة، مع بيان ما يقترن ذكره بها غالباً مما يقابلها من ألفاظ الزمن، وبيان أكثر ما يحتاجه الباحث في اللغة، والمفسر والفقيه منها.

ثانياً: الاعتبارات في النظر إلى ألفاظ الزمن:

١ - الاعتبارات المتعلقة بالعبادات والمعاملات:

- أ. باعتبار أوقات الصلوات.
- ب. باعتبار الصيام.
- ج. باعتبار أداء الزكاة.
- د. باعتبار أداء فريضة الحج.
- هـ. باعتبار أداء العمرة.
- و. باعتبار الوفاء بالنذر.
- ز. باعتبار الوفاء بالوعد.

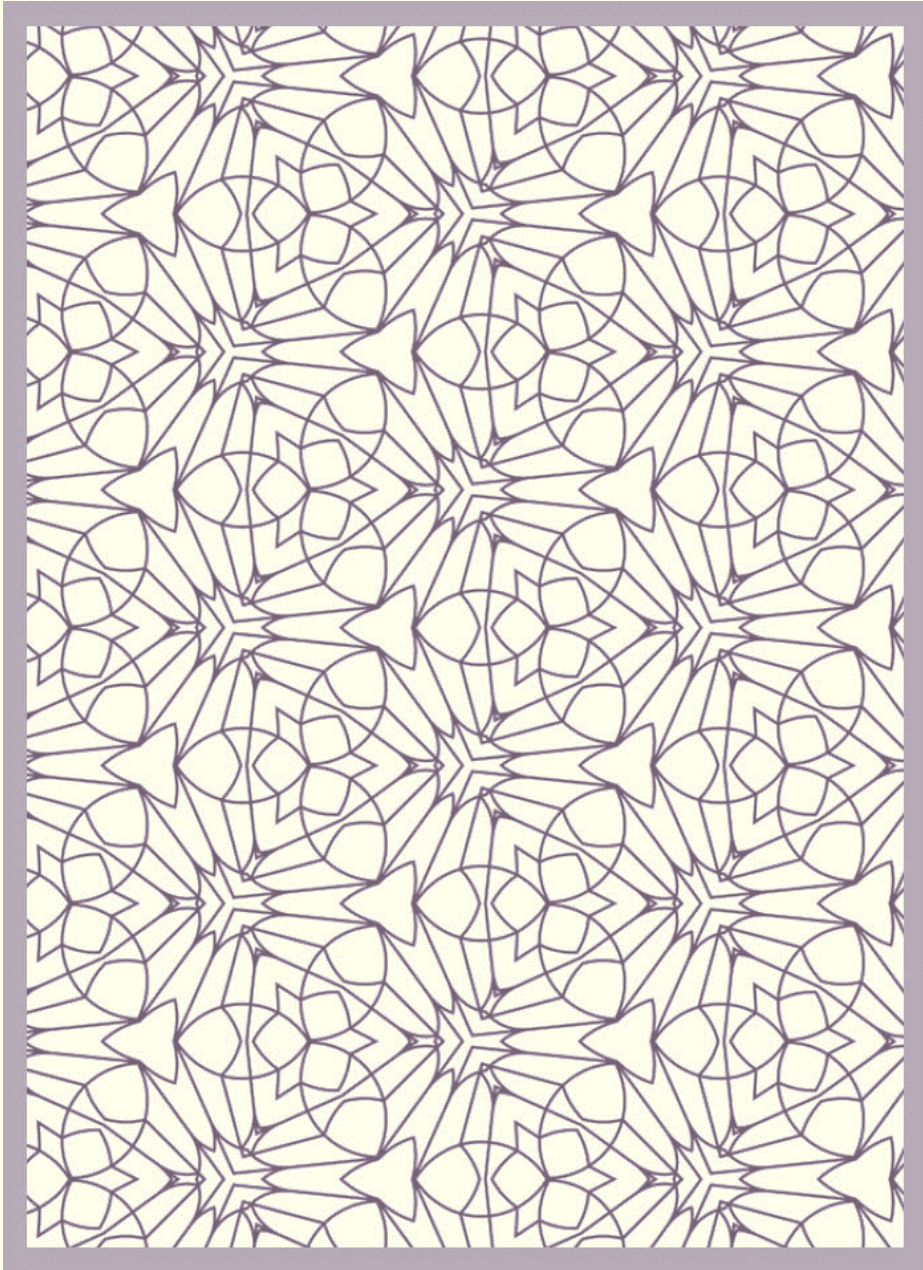


- ح. باعتبار اختصاص شهور وأيام بمزايا وخصائص وعبادات.
- ٢ - النظر إلى الزمن من حيث كونه محدودًا أو غير محدود.
- ٣ - النظر إلى الزمن من حيث كونه قصيرًا أو طويلًا، ومن حيث التعجل وسرعة الانقضاء، أو البطء والتمهل.
- ٤ - النظر إلى الزمن باعتبار الأزمنة الثلاث: (الماضي، والحاضر، والمستقبل).
- ٥ - النظر إلى دلالة الأفعال الناقصة على الزمان.
- ٦ - النظر إلى الألفاظ الدالة على الزمن.
- ٧ - النظر إلى الزمن باعتبار أجزاء النهار.
- ٨ - النظر إلى الزمن باعتبار أجزاء الليل.
- ٩ - النظر إلى الزمن باعتبار أجزاء الأسبوع.
- ١٠ - النظر إلى الزمن باعتبار الشهور وأجزائها واختصاص كل شهر منها بأعمال ومزايا، أو اختصاص أيام منها.
- ١١ - النظر إلى الزمن باعتبار أجزاء السنة.
- ١٢ - النظر إلى الزمن باعتبار الفصول الأربعة.
- ١٣ - النظر إلى أسماء الزمن من حيث اختصاصها أو عمومها، ومن ذلك: اختصاص بعض ألفاظه بالمرأة -مثلاً-.
- ١٤ - النظر إلى الزمن كون متجددًا أو غير متجدد.
- ١٥ - النظر إلى الزمن من حيث كونه مبهمًا أو غير مبهم.
- ١٦ - النظر في أسماء الزمن الظرفية الشرطية.
- ١٧ - النظر في أسماء الزمن الظرفية الاستفهامية.



- ١٨ - النظر إلى ظرف الزمان باعتبار الإضافة.
- ١٩ - النظر إلى حروف المعاني الدالة على الزمن.
- ٢٠ - النظر إلى ترتيب ألفاظ الزمن وأدواته من حيث كونها مرتبة على حروف المعجم أو على حسب المعاني الآنفه الذكر، ومن حيث اقتران بعض الألفاظ ببعضها؛ لما بينها من المقابلة.
- ٢١ - النظر إلى الزمن من حيث كونه مخلوقاً خاصاً للنظام الكوني.
- ٢٢ - النظر إلى اختلاف الزمن باعتبار الحياتين: (الدنيا والآخرة).

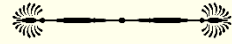




البحث الثامن

دلالات ألفاظ الزمان الممتد والمحدود والمبهم وغير المبهم

أبد :



قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الأبد: عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان، وذلك أنه يقال: زمان كذا، ولا يقال: أبد كذا. وكان حقه ألا يثنى ولا يجمع؛ إذ لا يتصور حصول أبد آخر يضم إليه فيثنى به، لكن قيل: آباء، وذلك على حسب تخصيصه في بعض ما يتناوله، كتخصيص اسم الجنس في بعضه، ثم يثنى ويجمع، على أنه ذكر بعض الناس أن آباءًا مولد، وليس من كلام العرب العرباء.

وقيل: أبد أبد وأبيد، أي: دائم، وذلك على التأكيد.

وتأبد الشيء: بقي أبدًا، ويعبر به عما يبقى مدة طويلة"^(١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الأبد: الدهر، والجمع: آباءٌ وأبؤد. يقال: أَبَدُ أَيْيَدٌ، كما يقال دَهْرٌ دَهْرٌ دَهِيْرٌ. ولا أفعله أبد الأبيد، وأبد الآبدين، كما يقال: دهر الداهرين، وَعَوَضَ العائضين. والأَبْدُ أيضًا: الدائم. والتأبيدُ: التخليد. وَأَبَدَ بِالْمَكَانِ يَأْبُدُ -بالكسر- أَبودًا، أي: أقام به"^(٢).

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (أبد) (ص: ٥٩).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (أبد) (٤٣٩/٢)، مقاييس اللغة (٣٤/١).

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللهُ: "الأبد: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، كما أن الأزل استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي" (١).
وسأتي بيان الفرق بين الأمد والأبد.

أجل :

ورد ذكر الأجل في القرآن الكريم في مواضع كثيرة.
والأجل: مدّة الشيء. والآجلُ والآجلةُ ضدُّ العاجلِ وَالْعَاجِلَةُ (٢).
وفي (العين): "الأجلُ: غاية الوقت في الموت. ومحل الدين ونحوه. تقول: أجل هذا الشيءُ يأجل، فهو آجل، وهو نقيضُ عاجل. والأجيلُ: المؤجلُ إلى وقت" (٣).
وبلغ الشيءُ أَجَلَهُ: إذا بلغ غايته، والجمع: آجال (٤).
وفي (المصباح المنير): "أجل الشيء: مدته ووقته الذي يحلُّ فيه، وهو مصدر أَجَلَ الشيءُ أَجَلًا، من باب: نَعِبَ، وَأَجَلَ أَجُولًا من باب: قَعَدَ لغة. وَأَجَلْتُهُ تَأْجِيلًا، وَجَعَلْتُ لَهُ أَجَلًا، وَالْأَجَلُ عَلَى فَاعِلٍ خِلَافُ الْعَاجِلِ، وَجَمْعُ الْأَجَلِ: آجَالٌ، مِثْلُ: سَبَبٍ وَأَسْبَابٍ، وَأَجَلَ مِثْلُ: نَعَمْ وَزَنًا وَمَعْنَى" (٥).

(١) التعريفات (ص: ٧).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أجل) (٤/١٦٢١-١٦٢٢)، مقاييس اللغة (١/٨٨).

(٣) العين (٦/١٧٨).

(٤) جمهرة اللغة (٢/١٠٤٣).

(٥) المصباح المنير، مادة: (أجل) (ص: ٦).

وتقول: ابن آدم قصير الأجل، طويل الأمل؛ يؤثر العاجل، ويذر الآجل. وتقول: أجلن عيون الآجال، فأصبن النفوس بالآجال^(١).
ومن أقوالهم: يا طويل الأمل، في قصير الأجل، يا كثير الزلل، في يسير العمل، خلا لك الزمان، وما سددت الخلل، أفما عندك وجل، من هجوم الأجل؟!^(٢).
ومن أقوالهم: لا ينقضي الأمل ما بقي الأجل.
وقيل لمحمد بن واسع رَحِمَهُ اللهُ: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، سيء العمل^(٣).

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، فالأجل: مدة العمر، وأعاد ذكره بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾؛ للاشارة الى آخر المدة، أي: لا يتركون بعد الأجل شيئاً قليلاً من الزمان، ولا يهلكون قبله كذلك. قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "الأجل، أي: وَقْتُ مَوْتِهِ. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، المعنى: ولا يستقدمون ساعة، ولا أقل من ساعة، ولكن دُكِرَتِ الساعة؛ لأنها أقل أسماءِ الأوقات" ^(٤).
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

(١) انظر: أساس البلاغة، للزمخشري (٢٢/١).

(٢) المدهش، لابن الجوزي (ص: ٣٤٢).

(٣) ربيع الأبرار، للزمخشري (٢٧٧/٣)، وانظر: المستطرف (ص: ٨٢).

(٤) معاني القرآن وإعراجه (٣٣٤/٢)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣٠-٢٩/٣).



وفي الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نقرأ القرآن وفيما الأعرابي والأعجمي، فقال: «اقْرَءُوا فَكُلُّ حَسَنٍ، وسيجيء أقوامٌ يُقِيمُونَهُ كما يُقَامُ الْقِدْحُ يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ»^(١).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "التأجل: تفعل من الأجل، وهو الوقت المضروب المحدود في المستقبل، أي: أنهم يتعجلون العمل بالقرآن ولا يؤخرونه..."^(٢).

الفرق بين المدة والأجل:

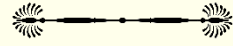
قال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الفرق بين المدة والأجل: "إن الأجل الوقت المضروب لانقضاء الشيء، ولا يكون أجلاً بجعل جاعل، وما علم أنه يكون في وقت فلا أجل له إلا أن يحكم بأنه يكون فيه. وأجل الإنسان هو الوقت لانقضاء عمره، وأجل الدين محله؛ وذلك لانقضاء مدة الدين، وأجل الموت وقت حلوله؛ وذلك لانقضاء مدة الحياة قبله، فأجل الآخرة الوقت لانقضاء ما تقدم قبلها قبل ابتدائها، ويجوز أن تكون المدة بين الشيئين بجعل جاعل، وبغير جعل، وكل أجل مدة، وليس كل مدة أجلاً"^(٣).

(١) أخرجه سعيد بن منصور في (التفسير) [٣١]، وأحمد [١٤٨٥٥]، وأبو داود [٨٣٠]، وأبو يعلى [٢١٩٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٣٩٩]، والبخاري في (شرح السنة) [٦٠٩]. كما روي عن محمد بن المنكدر مرسلاً.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٦/١).

(٣) الفروق اللغوية (ص: ٢٧٣).

أزل :



قد جرى ذكر الأزل فيما تقدم، مع بيان ما يفيدُه كل من (الأزل)، و(لا يزال)، كما تقدم كذلك تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. وقد ذكر أقوامٌ أن لفظ: (الأزلي) ليس بعربي. أو أن أصله: يَزِي، منسوبٌ إلى قولهم للقديم: (لم يَزَلْ)، ثم نُسبَ إلى هذا، فلم يستقيم إلا باختصار، فقالوا: يَزِي، ثم أبدلت الياء ألفًا للخفة.

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الأزل - بالتحريك -: القدم. يقال: أَزِي. ذكر بعض أهل العلم أن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم: لم يَزَلْ، ثم نسب إلى هذا فلم يستقم إلا باختصار فقالوا: يَزِي، ثم أبدلت الياء ألفًا؛ لأنها أَخَفُ فقالوا: أَزِي، كما قالوا في الرُّمَحِ المنسوب إلى ذي يَزَنَ: أَزِي، ونَصَلَ أَثَرِي" (١).

والأزل: القدم الذي ليس له ابتداء، ويطلق مجازًا على من طال عمره. والأزل: استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، كما أن الأبد استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل. والأزلي: ما لا يكون مسبوقًا بالعدم.

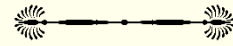
(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (أزل) (١٦٢٢/٤)، وانظر: مقاييس اللغة (٩٦/١-٩٧). و(أَزِي) نسبة إلى ذي يزن من ملوك حمير في اليمن، نسبت الرماح اليَزَنِيَّةَ له؛ لأنه أول من عملت له، والأصل: (يَزِي) و(أَزِي)، وبعضهم زاد الهمزة فقال: (يَزَانِي). وقولهم: (نَصَلَ أَثَرِي)، أي: منسوب إلى يثرب.

والموجود أقسام ثلاثة لا رابع لها: أزلي أبدي، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ولا أزلي ولا أبدي، وهو الدنيا، وأبدي غير أزلي، وهو الآخرة، وعكسه محال؛ فإن ما ثبت قدمه امتنع عدمه (١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "قولهم: كان في الأزل قادرًا عالما، وعلمه أزلي وله الأزلية، مصنوع ليس من كلام العرب، وكأنهم نظروا في ذلك إلى لفظ: لم يزل" (٢). ولحنه أيضًا: ابن الجوزي، وأبو بكر الزبيدي رَحِمَهُمَا اللهُ (٣).

وقيل: الأزل: ضيقُ العيشِ والشِدَّةُ؛ فقليل للقدم الذي ليس له ابتداء؛ لضيق العقل عن إدراك أوله، وسنةُ أزل، كصَبورٍ: شديدة، جمع: أزل - بالضم - (٤).

إقامته :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ الثَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ

﴿٣٧﴾ [المائدة: ٣٧].

﴿وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

﴿قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [٣٩] مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ [الزمر: ٣٩-٤٠].

(١) انظر: التعريفات، للجرجاني (ص: ١٧)، التوفيق على مهمات التعاريف (ص: ٤٦)، الكليات (ص: ٨١).

(٢) أساس البلاغة، مادة: (أزل) (٢٦/١).

(٣) انظر: خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام (ص: ١٧).

(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (أزل) (٧٨/٩)، القاموس المحيط (ص: ٩٦١)، تاج العروس

(٤٤٢/٢٧).

﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

يقال: قَامَ يَقُومُ قِيَامًا، فهو قَائِمٌ، وجمعه: قِيَامٌ، وأَقَامَهُ غيره. وأَقَامَ بالمكان إِقَامَةً، أي: استوطنه ودام فيه، وإِقَامَةُ الهاء عوض من عين الفعل؛ لأن أصله: إِقْوَامًا. وأَقَامَهُ من موضعه. وأَقَامَ الشيء، أي: أدامه، من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]. والمُقَامَةُ - بالضم -: الإِقَامَةُ. والمَقَامَةُ - بالفتح -: المجلس، والجماعة من الناس. وأما المَقَامُ والمُقَامُ فقد يكون كل واحدٍ منهما بمعنى: الإِقَامَةُ وقد يكون بمعنى: موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم؛ لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالوضع مضموم الميم؛ لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو: دَحْرَجَ، وهذا مُدَحْرَجُنَا، فَشُبِّهَ بِنَاتِ الأربعة.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣]، أي: لا موضع لكم.

وقرئ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣] بالضم، أي: لا إقامة لكم^(١).

و﴿حَسَنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]، أي: موضعًا.

وقول لييد:

(١) قرأ أبو عبد الرحمن والأعرج وحفص: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بضم الميم. قال الفراء: فمن قال: ﴿لَا مَقَامَ﴾، فكأنه أراد: لا موضع قيام. ومن قرأ: ﴿لَا مُقَامَ﴾ كأنه أراد: لا إقامة لكم "معاني القرآن، للفراء (٣٣٧/٢)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣٣١/٥).

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا *** (١) " (٢).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَالْمُقَامَةُ: الإقامة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٥]، نحو: ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨]، و﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].
ويعبرُ بالإقامة عن الدوام، نحو: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقرئ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مُقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]، - بالضم - أي: في مكان تدوم إقامتهم فيه " (٣).
وفي قوله: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ لم يقل: أَقِيمُوا، لأن الإقامة تقتضي الدوام،
وَالْمُكْتُ لَيْسَ كَذَلِكَ (٤).

أُمَّة :

الْأُمَّة تَأْتِي بِمَعْنَى: الْحَيُّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]، معناه: إِلَى أَجَلٍ وَحِينَ مَعْلُومٍ (٥).

(١) عجزه: (***) بِمَنْى تَأَبَّدَ غَوْهَا فَرَجَاهُهَا). ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص: ١٠٧). عفت: أي درست واندثرت.

المحل: مكان الحلول. والمقام: حيث طال المكوث. منى: جبل أحمر عظيم يشرف على ما حوله من الجبال وهو قريب من طخفة في بلاد كلاب. الغول: اسم موضع. الرجام: جبل مستطيل بناحية طخفة، وفي أصله ماء عذب تشرب منه بنو جعفر قوم لبيد.

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (قوم) (٢٠١٧/٥)، وانظر: الكليات (ص: ٨٢٧).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (قوم) (ص: ٦٩٠-٦٩٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١١/١٧٢).

(٥) انظر: معاني القرآن، للأخفش (١/٣٨٠)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٤٠).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، و﴿أُمَّةٍ﴾ بضم الألف وتشديد الميم هي قراءة القراء في أمصار الإسلام.

وقد روي عن جماعة من المتقدمين أنهم قرؤوا ذلك: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بفتح الألف، وتخفيف الميم وفتحها، بمعنى: بعد نسيان.

وذكر بعضهم أن العرب تقول من ذلك: أمة الرجل يأمة أمهًا: إذا نسي. وكذلك تأوله من قرأ ذلك كذلك^(١).

وقد قرأ ابن عباس، وزيد بن علي، وقتادة، والضحاك، وأبو رجاء: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بفتح الهزمة وتخفيف الميم وهاء منونة من الأمة، وهو النسيان.

وقرأ مجاهد وعكرمة وشُبَيْل بن عَزْرَةَ: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بسكون الميم، على أنه مصدرٌ لأَمِه على غير قياس.

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "وَمَنْ قرأ بسكون الميم فقد خُطِئَ"^(٢).

قال أبو حيان رَحِمَهُ اللهُ: "وهذا على عادته في نسبته الخطأ إلى القراء"^(٣).

قال الشيخ شهاب الدين رَحِمَهُ اللهُ: "لم يَنْسَبْ هو إليهم خطأ؛ وإنما حكى أَنَّ بعضهم خطأً هذا القاري؛ فإنه قال: (خُطِئَ) بلفظ ما لم يُسَمَّ فاعله، ولم يقل فقد أخطأ، على أنه إذا صحَّ أَنَّ مَنْ ذكره قرأ بذلك فلا سبيلَ إلى الخطأ إليه البتة"^(٤).

ولا يخفى أن أبا حيان رَحِمَهُ اللهُ قد جانبه الصواب في تعقبه للزمخشري رَحِمَهُ اللهُ؛ ولذلك تعقبه الشيخ شهاب الدين رَحِمَهُ اللهُ بقوله: إنما حكى أَنَّ بعضهم خطأً هذا القاري.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/١٢١-١٢٢).

(٢) الكشف (٢/٤٧٦).

(٣) البحر المحيط في التفسير (٦/٢٨٤).

(٤) الدر المصون (٦/٥٠٨).



ولم ينه الشيخ شهاب الدين رَحِمَهُ اللهُ إلى قول أبي إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ في ذلك، حيث قال: "قرأ ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿بَعْدَ أُمِّهِ﴾، والأُمُّ: النسيان، يقال أُمُّه يَأْمُهُ أُمُّهَا. هذا الصحيح بفتح الميم، وروى بعضهم عن أبي عبيدة رَحِمَهُ اللهُ: أُمُّه بسكون الميم، وليس ذلك بصحيح عنه؛ لأن المصدر أنه يَأْمُهُ أُمُّه لا غير" (١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "ويقرأ ﴿أُمِّهِ﴾ بفتح أوله وميم بعدها هاء منونة نسيان، أي: تَذَكَّرَ بعد أن كان نسي، وهذه القراءة نسبت في الشواذ لابن عباس وعكرمة والضحاك. يقال: رجل مَأْمُوءٌ أي: ذاهب العقل. قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ: ﴿أُمِّهِ﴾ أي: نسيان، تقول: أُمِّهْتُ أُمُّه أُمُّهَا - بسكون الميم -، قال الشاعر:
أُمِّهْتُ وَكُنْتُ لَا أُنْسَى حَدِيثًا *** (٢)

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: روي عن جماعة أنهم قرأوا ﴿بَعْدَ أُمِّهِ﴾، ثم ساق بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه كان يقرأها ﴿بَعْدَ أُمِّهِ﴾ وتفسيرها بعد نسيان، وساق مثله عن عكرمة والضحاك. ومن طريق مجاهد رَحِمَهُ اللهُ نحوه لكن قالها بسكون الميم" (٣).
وقد قيل في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَعْدَ أُمِّهِ﴾ [يوسف: ٤٥]: أي حقبة من الدهر. وقيل: بعد حين. وهو: الأجل الذي يعلمه الله عَزَّجَلَّ. وقيل: بعد سنين (٤).

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١١٣/٣).

(٢) صدر بيت، عجزه: (*** كذاك الدَّهْرُ يُودِي بِالْعُقُولِ). انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أُمه)

(٦/٢٢٢٤)، الكشف والبيان (٥/٢٢٧)، تفسير القرطبي (٩/٢٠١).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٢/٣٨١-٣٨٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/١٢٠-١٢١)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧/٢١٥١-٢١٥٢).

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ: "بَعْدَ أُمَّةٍ" أي: بعد قرن، ويقال: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: نسيان، نسيت كذا وكذا: أي: أمهت، وأنا أمهه، ويقال: هو ذو أمه" (١).

وقال في موضع آخر: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حين (٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "بَعْدَ أُمَّةٍ" أي: قرن هو قول أبي عبيدة رَحِمَهُ اللهُ، قاله في تفسير آل عمران. وقال في تفسير يوسف: بعد حين. وأخرجه الطبري رَحِمَهُ اللهُ بسند جيد: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مثله. ومن طريق سماك عن عكرمة رَحِمَهُ اللهُ قال: بعد حقبة من الدهر. وأخرج بن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ: بعد سنين" (٣).

وقال الفراء رَحِمَهُ اللهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: "الأمة: الحين من الدهر..." (٤).

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَنَّا عَنْهُمْ أَلْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]، "أي: إلى حين موقوت وأجل" (٥).

وقال ابن الأنباري رَحِمَهُ اللهُ: "وتكون الأمة بمعنى: الزمان" (٦).

وقال أبو منصور رَحِمَهُ اللهُ: "قال أبو الهيثم: فيما أخبرني عنه المنذري، قال: الأمة: الحين" (٧).

(١) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٩٩/١).

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٥/١)، (٣١٣/١).

(٣) فتح الباري (٣٨١/١٢).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للفراء (٤٧/٢).

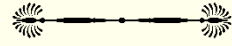
(٥) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٥/١).

(٦) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (١٥٠/١).

(٧) تهذيب اللغة (٤٥٤/١٥).

وقال الجوهرى رَحِمَهُ اللَّهُ: "والأُمَّةُ: الحِينُ" ^(١). قال: "والأُمَّةُ: النِّسيانُ. تقول منه: أَمِهْ - بالكسر -" ^(٢).

أَمَد :



الأمد: الأجل والغاية التي يُنتهى إليها، تقول: بلغ أمدَه أي: غايته.
قال الجوهرى رَحِمَهُ اللَّهُ: "الأَمْدُ): الغاية كالأَمَدَى. يقال: ما أَمْدُكَ؟ أي: منتهى عمرك. والأَمْدُ أيضاً: الغضب. وقد أَمَدَ عليه بالكسر، وأَبَدَ عليه، أي: غضب. وآمد: بلد في الثغور" ^(٣).

ومدى الأجل: منتهاه، وليس لعذاب الكافر أمد ^(٤).

قال النابغة:

إِلَّا لَمْ تُثَلِّكْ أَوْ مِنْ أَنْتَ سَابِقُهُ سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوَلَى عَلَى الْأَمَدِ ^(٥)
أي: بلغ الغاية.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، يعني: غاية بعيدة. وقيل: مسافة واسعة - كما سيأتي -.

(١) انظر: الصحاح، مادة: (أَمَم) (١٨٦٤/٥).

(٢) انظر: الصحاح، مادة: (أَمِه) (١٨٦٤/٥).

(٣) الصحاح، مادة: (أَمَد) (٤٤٢/٢).

(٤) تهذيب اللغة (١٥٥/١٤)، غريب الحديث، لابن قتيبة (٤٧٧/٢).

(٥) ديوان النابغة الذبياني (ص: ٢١)، ط: دار المعارف، القاهرة.

وقال جَلَّوَعًا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۖ﴾ [الكهف: ١٢].
 وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
 قُلُوبُهُمْ ۖ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَّا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۖ﴾ [الجن: ٢٥]، أي:
 قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله عَزَّوَجَلَّ من قومك: ما أدري أقرب ما يعدكم ربكم جَلَّوَعًا
 من العذاب، وقيام الساعة، ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۖ﴾ يعني: غاية معلومة تطول مدتها.

الفرق بين الأمد والغاية:

قال أبو هلال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الأمد حقيقة والغاية مستعارة على ما ذكرنا،
 ويكون الأمد ظرفًا من الزمان والمكان، فالزمان: قوله جَلَّوَعًا: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ
 الْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦]، والمكان: قوله جَلَّوَعًا: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل
 عمران: ٣٠]" (١).

فقوله جَلَّوَعًا: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ ما بينهم وبين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك الأمد:
 الزَّمان. قال الرَّجَّاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: لا تكونوا كالذين لما طالت عليهم المدة قَسَتْ
 قُلُوبُهُمْ" (٢).

وقوله جَلَّوَعًا: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، يعني: غاية بعيدة.
 وقيل: مسافة واسعة كما بين المشرق والمغرب، وذلك في يوم القيامة حين تجدد كل نفس
 خيرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾، قال السدي

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص: ٢٩٣).

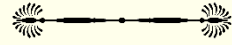
(٢) معاني القرآن وإعرابه (١٢٦/٥).

رَحِمَهُ اللهُ: مكانًا بعيدًا، وقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: يسر أحدهم أن لا يلقي عمله أبدًا، وقيل: يود أنه لم يعمله.

الفرق بين الأمد والأبد:

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الأمدُ والأبدُ يتقاربان، لكن الأبد: عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حدُّ محدود، ولا يتقيد، فلا يقال: أبد كذا. والأمد: مدة لها حدُّ مجهول إذا أطلق، وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، والفرق بين الزمان والأمد: أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام في المبدأ والغاية؛ ولذلك قال بعضهم: المدى والأمد يتقاربان" (١).

تاريخ :



التاريخ هو ذكر ابتداء مدة الشيء؛ ليعرف بها مقدار ما بين ذلك الابتداء، وما انتهى إليه من الوقت الذي أريد منه. قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ اللهُ: "إن (التاريخ) الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وإن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب. وتاريخ المسلمين أُرِّخَ من سنة الهجرة، وكتب في خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فصار تاريخًا إلى هذا اليوم.

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (أمد) (ص: ٨٨)، وانظر: روح المعاني (٢٠٣/٨).

وقيل: إنه عَرَبِيٌّ، واشتقاقه من (الأرخ)، وهو ولد البقرة الوحشية إذا كانت أنثى، كَأَنَّهُ شَيْءٌ حَدَثَ كَمَا يَحْدُثُ الْوَلَدُ، وقيل: التَّارِيخُ مأخوذ منه؛ لأنه حَدِيثٌ" (١).
قال ابن السِّكِّيتِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد أَرَحْتُ الْكِتَابَ وَوَرَّخْتُهُ تَارِيخًا، ويقال أيضًا: أَرَحْتُهُ أَرَحًا، وَوَرَّخْتُهُ وَرَخًا" (٢).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "التَّارِيخُ: تعريف الوقت. والتَّوْرِيخُ مثله. وَأَرَحْتُ الْكِتَابَ بيوم كذا، وَوَرَّخْتُهُ، بمعنى. والإِراخُ: بقر الوحش، الواحدة: إِرَخ" (٣).
قال في (المصباح): "أَرَحْتُ الْكِتَابَ بِالتَّثْقِيلِ فِي الْأَشْهُرِ، والتَّخْفِيفِ لُغَةً: إذا جعلت له تَارِيخًا، وهو مُعَرَّبٌ، وقيل: عَرَبِيٌّ، وهو بيان انتهاء وقته. وسببُ وَضْعِ التَّارِيخِ أَوَّلُ الْإِسْلَامِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بِصَلِّ مَكْتُوبٍ إِلَى شَعْبَانَ فَقَالَ: أَهوَ شَعْبَانُ الْمَاضِي أَوْ شَعْبَانُ الْقَابِلِ؟ ثم أمر بوضع التاريخ، واتفقت الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى ابتداء التاريخ من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى المدينة، وجعلوا أول السنة: المحرم، ويعتبر التاريخ بالليالي؛ لأن الليل عند العرب سابق على النهار؛ لأنهم كانوا أميين لا يحسنون الكتابة ولم يعرفوا حساب غيرهم من الأمم، فتمسكوا بظهور الهلال، وإنما يظهر بالليل، فجعلوه ابتداء التاريخ، والأحسن ذكر الأقل ماضيًا كان أو باقيًا" (٤).

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "التاريخ: ذكر ابتداء مدة الشيء؛ ليعرف بها مقدار ما بين ذلك الابتداء وبين أي وقت أريد منه" (٥).

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢٢٢/٧-٢٢٣).

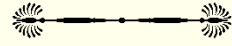
(٢) إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيت (ص: ١٢٢)، وانظر: المخصص (٧/٤).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (أرخ) (١/ ٤١٨).

(٤) المصباح المنير، مادة: (أرخ) (١/ ١١).

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٨٩).

تربص :



قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن دِيسَانِهِمْ تَرْبُصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ

مَعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ

مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَابُّ﴾ [التوبة: ٩٨].

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا﴾ [طه: ١٣٥].

﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ [٣٠] قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ

﴿٣١﴾ [الطور: ٣٠-٣١].

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ

الْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤]. "التربص: الانتظار. والمُترَبِّص: المحتكر. ولي في متاعي رُبُصَةٌ، أي:

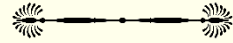
لي فيه تربص" (١).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (ربص) (١٠٤١/٣).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "التَّرْبُصُ: الانتظار بالشيء، سلعة كانت يقصد بها غلاء، أو رخصاً، أو أمراً ينتظر زواله أو حصوله، يقال: تَرَبَّصْتُ لكذا، ولي رُبُصَةٌ بكذا، وَتَرَبَّصْتُ" (١).

وفي (العين): "تَرَبَّصْنَا الأرضَ: إذا أُرْسِلَتْ فيها الماء، فَمَحَرَّهَا؛ لتجود" (٢). وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، التربص: التلبث والانتظار، وهذا صيغته صيغة الخبر، ومعناه: الأمر، فهو أمر من حيث المعنى. وقيل: هو أمر لفظاً ومعنى على إضمار اللام، أي: ليتربصن، وقيل غير ذلك كما سيأتي.

ثوى :



قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرْ ثَمَوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].
﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨].
﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١].
﴿إِنَّهُ وَرَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣].
﴿فَلْيَبْشِرْ ثَمَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].
﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥].
﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].
﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

(١) المفردات، مادة: (ربص) (ص: ٣٣٨).

(٢) العين (١٨١/٧).



﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

﴿فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦].

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ

﴿١٢﴾ [محمد: ١٢].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَلَكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

"الثَّوَاءُ: طُولُ الْمَقَامِ، وَقَدْ ثَوَى يَتَوَى ثَوَاءً. وَيُقَالُ لِلْمَقْتُولِ: قَدْ ثَوَى. وَيُقَالُ لِلْغَرِيبِ الْمَقِيمِ ببلدة: هُوَ ثَاوِيهَا. وَالْمَثْوَى: الْمَوْضِعُ. وَأَثْوَيْتُهُ: حَبَسْتُهُ عِنْدِي" (١).

ثَوَى يَتَوَى ثَوِيًّا: إِذَا أَقَامَ بِالْمَكَانِ، وَالاسْمُ: الثَّوَاءُ - مَمْدُودٌ -.

وَالثَّوَاءُ: الْمَقَامُ فِي الْمَوْضِعِ، وَالْمَثْوَى: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَتَوَى فِيهِ (٢).

وَتَوَى يَتَوَى ثَوَاءً وَثَوِيًّا، مِثْلُ: مَضَى يَمْضِي مَضَاءً وَمَضِيًّا. يُقَالُ: ثَوَيْتُ الْبَصْرَةَ، وَثَوَيْتُ بِالْبَصْرَةِ. وَاثْوَيْتُ بِالْمَكَانِ لَعَةً فِي ثَوَيْتِ.

وَأَثَوَى غَيْرَهُ يَتَعَدَى وَيَلْزَمُ وَ(ثَوَى) غَيْرُهُ أَيْضًا تَثْوِيَةً. يُقَالُ: ثَوَى بِالْمَكَانِ، وَأَثَوَى: أَقَامَ. وَفُلَانٌ أَكْرَمَ مَثَوَايَ، وَطَالَ بِي الثَّوَاءُ (٣).

(١) العين، مادة: (ثوي) (٢٥٢/٨).

(٢) انظر: جمهرة اللغة (٢٣٠/١)، (١٠٣٧/٢)، معجم ديوان الأدب (١٠٩/٤).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ثوي) (٢٢٩٦/٦)، أساس البلاغة (١١٩/١).

وفي الحديث: عن أبي شريح الكعبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحِلُّ له أن يثوي عنده حتى يُجرِّجَه»^(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في (المشارك): "قوله: «يثوي» بفتح الواو وكسرهما معاً، أي: يقيم، وكذلك اختلف فيه ضبط شيوخنا، وهما لغتان: ثوى يثوي بكسره في الماضي، وفتح في المستقبل، وثوى يثوي بفتحها في الماضي وكسرهما في المستقبل. قال بعضهم: وكسرهما في الماضي هو اللغة الفصيحة، وبالفتح ذكرها صاحب الأفعال، والعين والجمهرة، وهو الأفصح"^(٢).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الثَّوَاء: الإقامة مع الاستقرار، يقال: ثوى يثوي ثوَاءً. وقيل: من أم مثواك؟ كناية عن نزل به ضيف، والثَّوِيَّة: مأوى الغنم"^(٣). وقوله جَلَّوَعَلَا: «لَتَبَوَّئَتْهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا» [العنكبوت: ٥٨] قُرَأَ: «لَتَثْوِيَنَّهُمْ» - بالثاء -^(٤). قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال: ثوى الرجل: إذا أقام بالمكان، وأَثْوَيْتُهُ أنزلته منزلاً يقيم فيه"^(٥).

(١) صحيح البخاري [٦١٣٥].

(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار (١/ ١٣٥-١٣٦).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (ثوى) (ص: ١٨١).

(٤) قرأه حمزة والكسائي بالثاء من الثواء، وقرأه الباقون بالباء. قال الأخفش: قرأ الأعمش: «لَتَثْوِيَنَّهُمْ» قال: ولا يعجبني ذلك؛ لأنك لا تقول: أثويته الدار. قال أبو علي: ووجه هذه القراءة كان في الأصل: لتثوينهم من الجنة في غرف، وحذف الجار، كما حذف من نحو قوله: أمرتك الخير، أي بالخير. انظر: التفسير البسيط (١٧/ ٥٥٠)، الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (٥/ ٤٤٠)، المخصص (٤/ ٢٤٧).

(٥) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/ ١٧٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال: ثوى في المنزل، وأثوى هو، وأثوى غيره وثوى: غير متعد، فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحداً، نحو: ذهب، وأذهبته. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين، وإلى الغرف: إمّا إجراؤه مجرى لنزلهم ونبوئهم. أو حذف الجار وإيصال الفعل: أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم" ^(١)، أي: المحدد، وهو الغرف.

وقال جَلَوَعَلَا: ﴿وَمَا أَوْلَهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، أي: ومسكنهم النار. ﴿وَبِئْسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ﴾ [١٥١] المَثْوَى: المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه.

وقد بين أن النَّوَاء هو الخلود في النار بقوله جَلَوَعَلَا: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَلَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقوله جَلَوَعَلَا: ﴿أَكْرَمَى مَثْوَلَهُ﴾ [يوسف: ٢١]، أي: أكرمي منزله ومقامه عندك.

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: المعنى أحسني إليه في طول مُقامه عندنا" ^(٢). فالمَثْوَى على هذا بمنزلة الظرف، كأنه قيل: أحسني إليه مدة مقامه عندنا، والمَثْوَى على هذا مصدر. ومن المفسرين من يجعل المَثْوَى الموضع الذي يقيم فيه، أي: اجعلي محل ثوائه وإقامته كريماً، أي: حسناً مرضياً، وهذا كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه؛ لأن من أكرم المحل بتنظيفه وفرشه ونحو ذلك، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به.

وقال المحققون: أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه، يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم وهو كما يقال: سلام الله على المجلس العالي والمقام السامي، فالمَثْوَى بمعنى المقام على هذا مقحم.

(١) الكشف (٣/٤٦١-٤٦٢).

(٢) معاني القرآن وإعراجه (٣/٩٨).

والمعنى: أحسنني تعهده والنظر فيما يقتضيه إكرام الضيف.

حقبة :

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الحُقْبُ - بالضم - ثمانون سنة، ويقال أكثر من ذلك، والجمع: حِقَابٌ، مثل: قُفٍّ وَقَفَافٍ. والحِقْبَةُ بالكسر: واحدة: الحِقْبُ، وهي السنون. و(الحُقْبُ): الدهر، وجمعه: أَحْقَابٌ، والأحْقَاب: الدهور، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾ [الكهف: ٦٠]" (١).

قال قُطْرُب: "يقال: عَبَرَ زَمَنَةً من دهره، وطَرَفَةً، وحِقْبَةً، وهَبَةً، وبُرْهَةً. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ٢٣]، والحُقْبُ واحدٌ، وهو بُلْعَةٌ قيسٍ سَنَةً" (٢). وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ٢٣]، قيل: جمع الحقب، أي: الدهر. قيل: والحقبة ثمانون عامًا، وجمعها: حقب، والصحيح أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة.." (٣).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "﴿أَحْقَابًا﴾ حقبًا بعد حقب، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية (٤)، ولا يكاد يستعمل الحقب والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (حقب) (١/١١٤).

(٢) الأزمنة وتلبية الجاهلية (ص: ٦٠).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (حقب) (ص: ٢٤٨).

(٤) (إلى غير نهاية) أي: لجموعها، وإن كان كل منها متناهياً، وإنما قال: (إلى غير نهاية)؛ ليوافق قوله جَلَّوَعَلَا:

﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا أَبَدًا﴾ في غير موضع. قال صاحب (الكشف): ذكر ﴿أَحْقَابًا﴾ للكثرة لا لتحديد =

وتواليها، والاشتقاق يشهد لذلك. ألا ترى إلى حقيقة الراكب، والحقب الذي وراء التصدير^(١). وقيل: الحقب ثمانون سنة، ويجوز أن يراد: ﴿لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ غير دائقين فيها ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿النَّبَأ: ٢٤-٢٥﴾، ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب. وفيه وجه آخر: وهو أن يكون من (حقب عامنا): إذا قلَّ مطره وخيره، و(حقب فلان): إذا أخطأه الرزق، فهو حقب، وجمعه: أحقاب، فينتصب حالاً عنهم، يعني: ﴿لَبِثِينَ فِيهَا﴾ حقيين جحدين^(٢). وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ تفسير له، والاستثناء منقطع، يعني: لا يذوقون فيها بردًا وروحًا ينفس عنهم حرَّ النار، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون فيها ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾. وقيل: (البرد): النوم. وعن بعض للعرب: منع البرد البرد^(٣).

= اللبث، ألا تراك تقول: لبثت فيها سنين وأعوامًا، وأنت لا تريد أنك لم تقم غيرها؟ انظر: حاشية الطيبي على الكشف (٢٥١/١٦).

(١) قوله: (والحقب الذي وراء التصدير) قال في (الصحيح): " (التصدير): الحزام، وهو في صدر البعير، والحقب عند الثيل. وفيه: الثيل: وعاء قضيب البعير " الانتصاف (٦٨٩/٤)، الصحيح، للجوهري، مادة: (صدر) (٧١٠/٢)، ومادة: (ثيل) (١٦٥٠/٤). و"التَّصْدِيرُ حَبْلٌ يُصَدَّرُ بِهِ الْبَعِيرُ إِذَا جَرَّ حِمْلَهُ إِلَى خَلْفٍ، وَالْحَبْلُ اسْمُهُ: التَّصْدِيرُ، وَالْفِعْلُ التَّصْدِيرُ. قال الأصمعي: وفي الرَّحْلِ حِزَامَةٌ يُقَالُ لَهُ: التَّصْدِيرُ " العين (٩٥/٧)، تهذيب اللغة (٩٥/١٢)، مقاييس اللغة، مادة: (صدر) (٣٣٧/٣).

(٢) قوله: (حقيين) لعله حقبين من (حقب) بالكسر، كجحدين من جحد: إذا كان ضيقًا قليل الخير فيهما، أفاده في الصحيح. الانتصاف (٦٨٩/٤)، يقال: حقب العام: إذا قلَّ مطره وخيره فيكون حالاً بمعنى: لاثنين فيها حقبين. قال الجوهري: "الجحد، بفتح الجيم وضمها وسكون الحاء، وبفتح الجيم والحاء أيضًا: قلة الخير، وجحد الرجل، بالكسر، جحدًا فهو جحد: إذا كان ضيقًا قليل الخير" الطيبي (٢٥٢/١٦)، الصحيح، مادة: (جحد) (٤٥٢/٢).

(٣) الكشف (٦٨٨/٤-٦٨٩)، وقوله: (منع البرد البرد)، أي: منع البرد النوم. الانتصاف.

قال ابن قتيبة الدينوري رَحِمَهُ اللهُ: يقال: "الحُقْبُ: ثمانون سنة. وليس هذا مما يدلُّ على غايةٍ، كما يظن بعض الناس. وإنما يدلُّ على الغاية: التوقيُّتُ، خمسة أحقاب أو عشرة. وأراد: أنهم يَلْبَثُونَ فيها أحقابًا، كلُّما مضى حُقْبٌ تَبِعَهُ حَقْبٌ آخَرُ" (١).

وقد أشكل على البعض ما قد يفهم منه: كون عذاب أهل النار غير باق بقاء لا انقطاع له أبدًا، وقد أجاب عن ذلك غير واحد من الأئمة وأهل العلم، منهم: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في كلام نافع (٢).

ولالإمام تقي الدين، علي بن عبد الكافي السبكي رَحِمَهُ اللهُ كتاب: (الاعتبار ببقاء الجنة والنار).

ولمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ كتاب: (رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار).

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا ولا تبديدان، وإن الله جَلَّ وَعَلَا خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه" (٣). والله عَزَّجَلَّ كما قال في أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، قال في أهل النار من الكافرين: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، أي: يريد هؤلاء الذين كفروا برهم

(١) غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري (ص: ٥٠٩).

(٢) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص: ٩٣-٩٧).

(٣) متن الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي الحنفي (ص: ٢٦)، طبعة دار ابن حزم.

يوم القيامة، أن يخرجوا من النار بعد دخولها، وما هم بخارجين منها. ولهم عذاب دائم ثابت، لا يزول عنهم، ولا ينتقل أبدًا، كما قال الشاعر:

فإن لكم بيوم الشَّعْبِ مَيِّ عَذَابًا دَائِمًا لَكُمْ مُقِيمًا^(١)

وعن يزيد الفقير، قال: قلت لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن قوما يخرجون من النار، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وإنكم تجعلون العام خاصًا، والخاص عامًا، إنما هذا في الكُفَّارِ خاصَّةً، فقرأت الآية كُلُّها من أولها إلى آخرها فإذا هي في الكُفَّارِ خاصَّةً^(٢).

قال الإمام أبو محمد بن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اتفقت فرق الأمة كلها على أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها"^(٣).

وقال في (مراتب الإجماع): "اتفقوا أن النار حق، وأنها دار عذاب أبدًا، لا تفنى ولا يفنى أهلها أبدًا بلا نهاية، وأنها أعدت لكل كافر مخالف لدين الإسلام ولمن خالف الأنبياء السالفين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قبل مبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلوغ خبره إليه"^(٤).

واستدل بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في (المحلى)^(٥): بما جاء في (الصحيحين): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فِينَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول:

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩٣/١٠)، مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (١٦٥/١).

(٢) انظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣٠٣/٢-٣٠٤)، تفسير القرطبي (١٥٩/٦).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٦٩/٤).

(٤) مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات (ص: ١٧٣).

(٥) انظر: المحلى بالآثار، مسألة: بيان أن الجنة والنار لا يفنيان، ولا أحد ممن فيهما أبدًا (٣٠/١-٣١).

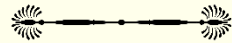


وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] «^(١).. إلى غير ذلك.

الفرق بين الزمان والحقبة والبرهة:

قال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحقبة: اسم للسنة، إلا أنها تفيد غير ما تفيده السنة، وذلك أن لسنة تفيد أنها جمع شهور، والحقبة تفيد أنها ظرف لأعمال ولأُمُور تجري فيها، مأخوذ من الحقيبة، وهي ضرب من الظروف تتخذ من الأدم يجعل الراكب فيها متاعه، وتشد خلف رحله أو سرجه. وأما البرهة فبعض الدهر، ألا ترى أنه يقال: برهة من الدهر، كما يقال: قطعة من الدهر، وقال بعضهم: هي فارسية معربة" ^(٢).

حَوْل :



الْحَوْلُ: الحيلة والقُوَّةُ أيضًا. وَالْحَوْلُ: السنة. وحال عليه الحَوْلُ، أي: مرَّ. وحالتِ الدَّارُ، وحال العُلاَمُ، أي: أتى عليه حَوْلٌ ^(٣).

(١) صحيح البخاري [٤٧٣٠]، مسلم [٢٨٤٩].

(٢) الفروق اللغوية (ص: ١٩٢-١٩٣).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (حول) (٤/١٦٧٩).

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الحول: السنة، اعتبارًا بانقلابها ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها. وحالت السنة تحول، وحالت الدار: تغيرت، وأحالت وأحولت: أتى عليها الحول، نحو: أعامت وأشهرت، وأحال فلان بمكان كذا: أقام به حولًا" (١).

وقال الحرالي رَحِمَهُ اللهُ: "الحول: تمام القوة في الشيء الذي ينتهي لدورة الشمس، وهو العام الذي يجمع كمال النبات الذي يثمر فيه قواه" (٢).

ونزل بذلك القرآن في أول الإسلام قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، ثم نسخ ذلك بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] (٣).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، اللفظ لفظ الخبر، والمعنى معنى الأمر، كما تقول: حسبك درهم، فاللفظ لفظ الخبر والمعنى معنى الأمر، معناه: اكتف بدرهم. وكذلك معنى الآية: لرتضع الوالدات (٤).

ويشترط لوجوب أداء الزكاة شروط، منها: بلوغ النصاب، وحولان الحول بالتاريخ الهجري، وليس بالتاريخ الميلادي، ويجوز تعجيلها قبل أن يكتمل النصاب. وذهب أكثر أهل العلم إلى جواز تعجيلها قبل تمام الحول من غير كراهة، لا سيما إن كان ثم مصلحة، كأن يوجد بالفقراء حاجة عاجلة، أو تنزل بالمسلمين نازلة.

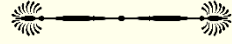
(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (حول) (ص: ٢٦٦-٢٦٧)، وانظر: تفسير الراغب (١/٤٨١).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٤٩).

(٣) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢/٩٧).

(٤) انظر: تهذيب اللغة (١/٣٠٠).

حياة :



الحياة: "ضد الموت والحَيُّ: ضدُّ المَيِّت. والمَحْيَا مَفْعَلٌ من الحياة. تقول: مَحْيَايَ وَمَحْيَايَ. والجمع: المحايي. والحَيُّ: واحد أحياء العرب. وأَحْيَاهُ اللهُ فَحْيِي وَحْيِي أَيْضًا، والإدغام أكثر؛ لأنَّ الحركة لازمه.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَحْيِي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فإذا لم تكن الحركة لازمة لم تُدْعَمْ، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]، ويقرأ: ﴿وَيَحْيِي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١).

والحَيُّ: المسلم كَمَا قِيلَ لِلْكَافِرِ مَيِّتٌ.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أي: كافرًا فهديناه؛ لأن الإيمان حياة القلوب. فالمراد بـ: (الميت) ها هنا: الكافر، فجعله الله عَزَّجَلَّ لَانْصِرَافِهِ عَنْ طَاعَتِهِ، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله جَلَّوَعَلَا بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة: (الميت) الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: فهديناه للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضارَّ

نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من الله عَزَّجَلَّ وعقابه في معاده.

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (حيا) (٦/٢٣٢٣-٢٣٢٤).

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، لا يدري كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ، لشدة ظلمة الليل، وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، لا يبصر رشدًا ولا يعرف حقًا.

والحياة: الْمَنْفَعَةُ، وبه فُسِّرَتِ الْآيَةُ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فقله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، خص بالنداء أصحاب العقول الكاملة، مع أن الخطاب عام؛ للتنبيه على أن ذا اللب هو الذي يعرف قيمة الحياة والمحافظة عليها، ويعرف ما تقوم به المصلحة العامة وما يتوسل به إليها، وهو مرتبتان: القصاص وهو العدل، والعفو وهو الفضل، كأنه يقول: إن ذا اللب هو الذي يفقه سر هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة، فعلى كل مكلف أن يستعمل عقله في فهم دقائق الأحكام، وما فيها من المنفعة للأنام، وهو يفيد أن من ينكر منفعة القصاص بعد هذا البيان، فهو بلا لب ولا جنان. ولا رحمة ولا حنان. فلما كان في القصاص حياة لكم كتبناه عليكم، وشرعناه لكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، الاعتداء، وتكفون عن سفك الدماء (١).

قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخبرني المنذري، عن الغساني، عن سلمة، عن أبي عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، أي: منفعة، ومنه قولهم: ليس بفلان حياة، أي: ليس عنده نفع، ولا خير.

وتقول العرب: كيف أنت وكيف حيَّةُ أهْلِكَ؟ أي: كيف من بقي منهم حيًّا" (٢). وإحياء الليل: السهر فيه بالعبادة، وترك النوم (٣).

(١) المنار (١٠٧/٢).

(٢) تهذيب اللغة (١٨٥/٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حيا) (٤٧١/١).



وإحياء السنة: العودة إلى العمل بها بعد هجرها.

وفي الحديث: «أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصْلِي الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ»^(١)، "أي: صافية اللون لم يدخلها التغير بدنو المغيب؛ كأنه جعل مغيبها لها موتاً، وأراد تقديم وقتها"^(٢). قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: «والشمس حية»: "حياتها: صفاء لونها قبل أن تصفر أو تتغير"^(٣).

قال ذو الرمة:

فلما رَأَيْنَ اللَّيْلَ وَالشَّمْسُ حَيَّةً حَيَاةَ الَّذِي يَقْضِي حُشَاشَةً نَازِعَةً^(٤)
وفي الحديث: «مِنْ أَحْيَا مَوَاتًا فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ»^(٥)، و"الموات: الأرض التي لم يجر عليها ملك أحد، وإحيائها: مباشرتها بتأثير شيء فيها، من إحاطة، أو زرع، أو عمارة، ونحو ذلك، تشبيهاً بإحياء الميت"^(٦).

والمراد بالإحياء فيها: إحيائها بالحياة النامية، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩]، وإنما سمي مواتاً لبطلان الانتفاع بها، كالميت الحقيقي.

(١) صحيح البخاري [٥٤١، ٥٤٧، ٥٦٥، ٥٩٩، ٧٧١]، مسلم [٦٤٧].

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٧١/١).

(٣) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١٩١/١).

(٤) يقول: بقي من الشمس مثل ما يبقى من الذي ينزع. و(الحشاشة): بقية النفس. ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب (٨٠١/٢-٨٠٢).

(٥) أخرجه الطبراني [٨٢٣]، عن فضالة بن عبيد. قال الهيثمي (١٥٧/٤): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله رجال الصحيح". والحديث له طرق أخرى تحسنه. وفي (صحيح البخاري)، باب من أحيا أرضاً مواتاً: وقال عمر: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له». وروى عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [٢٣٣٥]، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أعمار أرضاً ليست لأحد فهو أحق»، قال عروة: «قضى به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته» صحيح البخاري (١٠٦/٣).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٧١/١).

وفي (المغرب): "الْمَوَاتُ: الأرض الخراب، وخلافه: العامر. وعن الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: هي ما ليس بملك لأحد، ولا هي من مرافق البلد، وكانت خارجة البلد، سواء قربت منه أو بعدت في ظاهر الرواية. وعن أبي يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ: أرض الموات هي البقعة التي لو وقف رجل على أدناه من العامر ونادى بأعلى صوته لم يسمعه أقرب من في العامر إليه.."^(١). وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: حَيَّتِ النَّارُ تَحْيِ حَيَاةً فَهِيَ حَيَّةٌ، كما تقول: ماتت فهي ميتة. وَأَرْضُ حَيَّةٍ: مخصبة، كما قالوا في الجذب: ميتة. وأحيينا الأرض: وجدناها حَيَّةَ النَّبَاتِ غَضَّةً. وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: أُحْيِيَتِ الْأَرْضُ: إذا استُخرجت. وطريق حَيٍّ: بَيْنَ. والجمع: أحياء.

وسمى الله عَزَّجَلَّ الدار الآخرة: حيواناً في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]؛ لأن كل من صار إلى الآخرة لم يمت، ودام حياً فيها إما في الجنة، وإما في النار^(٢).

والله عَزَّجَلَّ هو الذي يحيي الأرض بعد موتها، ويحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ [آل عمران: ٢٧]، ﴿* إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحل: ٦٥]، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ وَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٥-٦]، ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي

(١) المغرب، مادة: (موت) (ص: ٤٤٨)، انظر: أنيس الفقهاء، لقاسم بن عبد الله القنوي (ص: ١٠٥).

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٣/٣٩٦).



الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ [الروم: ١٩]، ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٢٤]، ﴿فَانْظُرْ إِلَى ءَآثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]، ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: ٩]، ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجناب: ٥]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ ءَايَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ١٧].

قال ابن الأثير رحمه الله: "والموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة:

فمنها: ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

ومنها: زوال القوة الحسية، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢].

ومنها: زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، و﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾ [النمل: ٨٠].

ومنها: الحزن والخوف المكدر للحياة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

ومنها: المنام كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد قيل: المنام: الموت الخفيف، والموت: النوم الثقيل.

وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة، كالفقر، والذل، والسؤال، والهرم، والمعصية، وغير ذلك" (١).

وقد فصل القول في ذلك: الراغب الأصفهاني رحمه الله في (المفردات) (٢).
وقد تقدم أن مرور الزمن في الحياة الدنيا ينقل الإنسان من قوة إلى ضعف، ويؤذن بانصرام العمر.

وقال الله عزَّ وجلَّ في بيان حال كثيرٍ من النَّاس الذين يَقْدُمُونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، ويؤثرون متاعها العاجل على ما فيه نفعهم وصلاتهم في معاشهم ومعادهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، أي: ثواب الله عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى؛ فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!
أما الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهم أحياء من باب أولى؛ فهم أرفع رتبة من الشهداء والصديقين.

وقد جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الأنبياء أحياء يصلون في قبورهم» وفي بعض الروايات زيادة: «يُصَلُّونَ» (٣).

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (موت) (٤/٣٦٩)، بتصرف يسير.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (حجى) (ص: ٢٦٨-٢٧٠).

(٣) أخرجه البزار [٦٣٩١، ٦٨٨٨]، وأبو يعلى [٣٤٢٥]، وابن عدي (٣٢٧/٢)، ترجمة: الحسن بن قتيبة المدائني [٤٦٠]، كما أخرجه تمام [٥٨]، والديلمى [٤٠٣]، وابن عساكر (٣٢٦/١٣)، قال الهيثمي (٢١١/٨): "رواه أبو يعلى، والبزار، ورجال أبي يعلى ثقات". وقال الحافظ في (الفتح) (٤٨٧/٦): = أخرجه البيهقي في كتاب: (حياة الأنبياء في قبورهم) وصححه. وقال المناوي في (فيض القدير): (١٨٤/٣): "رواه أبو يعلى عن أنس بن مالك، وهو حديث صحيح".

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»؛ لأنهم كالشهداء، بل أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم. وفائدة التقييد بالعندية: الإشارة إلى أن حياتهم ليست بظاهرة عندنا. قال: وقوله: «يُصَلُّونَ» قيل المراد به: التسبيح والذكر" (١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أحياء عند الله عَزَّجَلَّ، وإن كانوا في صورة الأموات بالنسبة إلى أهل الدنيا، وقد ثبت ذلك للشهداء، ولا شك أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أرفع رتبة من الشهداء" (٢).

وقال: "وقد أفرد البيهقي رَحِمَهُ اللهُ جزءًا لطيفًا في حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في قبورهم، وأورد فيه عدة أحاديث تؤيد هذا، فيراجع منه، وقال في (دلائل النبوة): الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أحياء عند ربهم كالشهداء، وقال في كتاب: (الاعتقاد): والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بعد ما قبضوا ردت إليهم أرواحهم فهم أحياء عند ربهم كالشهداء" (٣).

وقال البدر العيني رَحِمَهُ اللهُ: "الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أحياء، فقد رآهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة، وقد مر على موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو قائم يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة" (٤).

وللشهداء حياة خاصة، فهم أحياء عند ربهم جَلَّ وَعَلَا، ويرزقون ويكرمون، فالشهيد يبكي عليه أهله وإخوانه ويحزنون وهو فوق ما يُتَصَوَّرُ من السعادة والسرور، فالشهداء

(١) فيض القدير (١٨٤/٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٤٤٤/٦).

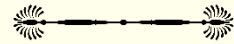
(٣) انظر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر (٢٩٣/٢-٢٩٤)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٤٨٧/٦)، الاعتقاد، للبيهقي (ص: ٣٠٥)، دلائل النبوة، للبيهقي (٣٨٨/٢).

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤٨/٤).

فرحون، مستبشرون، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]. وقال المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَنَا نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَسُولِهِ: «مَنْ قَتَلَ مَنْ صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ» (١).

وقال المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَخْبَرَنَا نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَسُولِهِ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ مَنْ صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرِ مِثْلَهَا قَطُّ، وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ مَلِكٌ رَقَابَتُهُمْ» (٢).
وقد فصلتُ القول في بيان حال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصديقين والشهداء في (الجزء الثاني) من كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

حين :



ومن الألفاظ ذات الصلة: الحين:
(الْحَيْنُ) كالوقت في أَنَّهُ مُبْتَهَمٌ يَقَعُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ.
قال الجوهرى رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْحَيْنُ: الوقت. وربما أدخلوا عليه التاء، فقالوا: (تَحِينٌ) بمعنى: حين. والحينُ أيضاً: المدة. ومنه قوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]. وahan له أن يفعلَ كذا يَحِينُ حِينًا - بالكسر -، أي: آن. وahan حينه، أي: قرب وقته. وعاملته

(١) صحيح البخاري [٧٥٣٠].

(٢) صحيح البخاري [٣١٥٩].

مُحَايَنَةً، مثل: مُسَاوَعَةً. وَأَحْيَنْتُ بِالْمَكَانِ: إِذَا أَقَمْتُ بِهِ حِينًا. وَحَيَّنْتُ النَّاظِقَ: إِذَا جَعَلْتُ لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَقْتًا تَحْلِبُهَا فِيهِ. وَفُلَانٌ يَأْكُلُ الْحَيْنَةَ وَالْحَيْنَةَ، أَي: الْمَرَّةَ الْوَاحِدَةَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. وَفُلَانٌ يَفْعَلُ كَذَا أحيانًا، وَفِي الْأَحْيَانِ^(١).

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْحَيْنُ عِنْدَ الْعَرَبِ: الْوَقْتُ مِنَ الزَّمَانِ، غَيْرُ مُحْدُودٍ، وَقَدْ يَجِيءُ مُحْدُودًا.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٢٥]، مَعْنَاهُ: كُلَّ عَامٍ. وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنُنَهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يُوسُفَ: ٣٥]، مَعْنَاهُ: إِلَى سَبْعِ سِنِينَ.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصَّافَاتِ: ١٧٤]، مَعْنَاهُ: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البَقَرَةِ: ٣٦]، مَعْنَاهُ: إِلَى انْقِضَاءِ الْأَجَالِ.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الْإِنْسَانِ: ١]، فَالْحَيْنُ هَا هُنَا: أَرْبَعُونَ سَنَةً^(٢).

(١) الصَّحَاحُ، مَادَّةُ: (حِين) (٢١٠٦/٥).

(٢) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: "اِخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي قَدْرِ هَذَا الْحِينِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَقَالُوا: مَكَثَتْ طِينَةُ آدَمَ مَصُورَةً لَا تَنْفَخُ فِيهَا الرُّوحُ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَذَلِكَ قَدْرُ الْحِينِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، قَالُوا: وَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكَورًا﴾ [الْإِنْسَانِ: ١]؛ لِأَنَّهُ أَتَى عَلَيْهِ وَهُوَ جِسْمٌ مَصُورٌ لَمْ تَنْفَخْ فِيهِ الرُّوحُ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَكَانَ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكَورًا، قَالُوا: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكَورًا﴾ ❶ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا لَهُ نَبَاهَةٌ وَلَا رَفْعَةٌ، وَلَا شَرَفٌ، إِنَّمَا كَانَ طِينًا لَا زَيًّا، وَحَمًّا مَسْنُونًا. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا حَدًّا لِلْحِينِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ وَقَدْ يَدْخُلُ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَغَيْرُ مَفْهُومٍ فِي الْكَلَامِ أَنْ يَقَالَ: أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ قَبْلَ أَنْ يَوْجَدَ، وَقَبْلَ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا، وَإِذَا أُريدَ ذَلِكَ قِيلَ: أَتَى حِينٌ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ، وَلَمْ =

والحين أيضاً: ثلاثة أيام. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ [الذاريات: ٤٣]، معناه: إلى ثلاثة أيام^(١).

وقال الشاعر في الحين الذي ليس بمحدود:

ماذا مِرَاحُكَ بَعْدَ الْعِلْمِ وَالِدِينِ وقد علاك مشيب حين لا حين^(٢)
معناه: في غير وقت الجهل^(٣).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "والحين: القطعة من الزمان، ومنه: فمكثنا حيناً. قال ابن عرفة رَحِمَهُ اللهُ: هو الساعة فما فوقها"^(٤).

قال العسكري رَحِمَهُ اللهُ في الفرق بين الحين والسنة: "إن قولنا: (حين) اسم جمع أوقاتاً متناهية، سواء كان سنة، أو شهوراً، أو أياماً، أو ساعات؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم لمعان مختلفة، وبينه وبين الدهر فرق وهو أن الدهر يقتضي أنه أوقات متوالية مختلفة -على ما ذكرنا-؛ ولهذا قال الله عَزَّجَلَّ حاكياً عن الدهريين: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا

=يقول أتى عليه. وأما الدهر في هذا الموضع، فلا حد له يوقف عليه" تفسير الطبري (٨٧/٢٤-٨٨). وذكر الماوردي فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه أربعون سنة مرت قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف. الثاني: أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة، ثم نفخ فيه الروح. الثالث: أن الحين المذكور ها هنا: وقت غير مقدر وزمان غير محدود" النكت والعيون (١٦٢/٦).

- (١) تفسيره قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].
- (٢) المثبت في ديوان جرير وغيره: (ما بال جهلك...***). انظر: ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (٥٥٧/٢)، الكتاب، لسيبويه (٣٠٥ / ٢)، التعليقة على كتاب سيبويه (٤٢/٢)، شرح تسهيل الفوائد (٢٠٣/٢)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٦٣ / ٢)، ضرائر الشعر (ص: ٧٦)، الأزمنة والأمكنة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني (ص: ١٩٦)، شرح شواهد المغني (٦٥٩/٢).
- (٣) الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري (٦٢/٢).
- (٤) مشارق الأنوار (٢١٧/١)، وانظر: مصابيح الجامع، لبدر الدين الدماميني (٢٠/١).



الدَّهْرُ ﴿الجاثية: ٢٤﴾، أي: يهلكنا الدهر باختلاف أحواله، والدهر أيضاً لا يكون إلا ساعات قليلة ويكون الحين كذلك" (١).

وقد ورد لفظ: (الحين) في آيات كثيرة، فمن ذلك إضافة إلى ما تقدم: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْقَالًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَتَّعَ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَظَرُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَدَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ نُمُوسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [٧] وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿[الروم: ١٧-١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [١٧] فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ

﴿[الصافات: ١٤٧-١٤٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤].



وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] ... إلى غير ذلك من الآيات، وهي تفيد ما تقدم ذكره من المعاني.

وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، فإن مذهب الخليل وسيبويه رَحِمَهُمَا اللَّهُ أن (لات) هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث لتأكيد هذا النفي، كما زيدت على (رب)، و(ثم)؛ للتأكيد^(١)، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة، منها: أنها لا تدخل إلا على الأحيان، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزءيها، إما الاسم، وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعاً.

وقال الأخفش رَحِمَهُ اللَّهُ: إنها (لا) النافية للجنس زيدت عليها التاء، وخصت بنفي الأحيان، و﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منصوب بها كأنك قلت: ولات حين مناص لهم، ويرتفع بالابتداء، أي: ولات حين مناص كائن لهم^(٢).

وأشهر أقوال النحويين فيها أنها تعمل عمل ليس، وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة، كالساعة والأوان، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها، والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب.

والحين: ظرف مبهم يتخصص بالإضافة.

وهي على مذهب الجمهور تعمل عمل (ليس) فترفع الاسم، وتنصب الخبر، لكن اختصت بأنها لا يذكر معها الاسم والخبر معاً، بل إنما يذكر معها أحدهما.

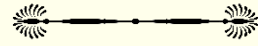
(١) قال في (العين) (٣٦٩/٨): "وأما لات فإنها ينفي بها كما يُنْفَى بـ: (لا) إلا أنها لا تقع إلا على الأزمان". وانظر: الكتاب، لسيبويه (٥٧/١).

(٢) قال الأخفش: "شبهو (لات) بـ: (ليس)، وأضمروا فيها اسم الفاعل "معاني القرآن" (٤٩٢/٢).

والكثير في لسان العرب حذف اسمها وبقاء خبرها، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ بنصب الحين فحذف الاسم وبقي الخبر، والتقدير: ولات الحين حين مناص، فالحين اسمها، و﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ خبرها.

وقد قرئ شذوذاً: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ برفع الحين على أنه اسم: (لات) والخبر محذوف، والتقدير: ولات حين مناص لهم، أي: ولات حين مناص كائنًا لهم^(١).

خلد وأُخلد :



قال في (العين): "الخُلْدُ: من أسماء الجنان، والخُلُود: البقاء فيها، وهم فيها خَالِدُونَ ومُخَلَّدُونَ. وتفسير: ﴿وَلَدَنَّ مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]: مقرطون^(٢).

وأُخلد فلان إلى كذا، أي: ركن إليه، ورضي به. والخُلْدُ: البال، تقول: ما يقع ذلك في خلدي. والخلد: ضرب من الجرذان عمي، لم يخلق لها عيون، واحدها: خِلْدَة، والجمع: خِلْدَان. والحوالد: الأثافي، وتسمى الجبال والحجارة: خوالد.."^(٣)

وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]: "ركن إليها وسكن. ولغة يُقال: خلد إلى الأرض بغير ألف، وهي

(١) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣١٩/١).

(٢) قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ قيل: مسورون بالأسورة، ومقرطون بالأقراط. والقرط يسمى خُلْدًا وخِلْدًا، وجمعه: خِلْدَة، كَقِرْدَة، وهي لغة جَمِيرِيَّة استعملها العرب كلهم، وكانوا يحسنون غلمانهم بالأقراط في الأذان. وقال أبو عبيدة: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَدَنَّ مُخَلَّدُونَ﴾: أي لا يهرمون، يبقون على حالهم لا يتغيرون، ولا يكبرون. انظر: مجاز القرآن (٢٤٩/٢).

(٣) العين، مادة: (خلد) (٢٣١-٢٣٢).

قليلة. ويُقال للرجل إذا بقي سواد رأسه ولحيته: إنه مُخَلَّد، وإذا لم تسقط أسنانه قيل: إنه لمُخَلَّد" (١).

ونحوه قول الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَخْلَدَ أَكْثَرُ فِي اللُّغَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ سَكَنَ إِلَى لَذَاتِ الْأَرْضِ" (٢).

قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: وسمعت من الكسائي رَحِمَهُ اللَّهُ نحوه (٣).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "خَلَدَ بِالْمَكَانِ وَأَخْلَدَ: أَطَالَ بِهِ الْإِقَامَةَ" (٤).

وخلدَ بِالْمَكَانِ يَخْلُدُ خُلُودًا وَأَخْلَدَ، ومنه: خَلَدَ يَخْلُدُ خُلُودًا وَخُلُودًا: بَقِيَ، وَدَارَ الْخُلْدُ: هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ، وَقَدْ أَخْلَدَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَهْلَهَا وَخَلَّدَهُمْ، وَالْخُلْدُ، اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْجَنَانِ (٥).

و"الْخُلْدُ: دَوَامُ الْبَقَاءِ. تَقُولُ: خَلَدَ الرَّجُلُ يَخْلُدُ خُلُودًا. وَأَخْلَدَهُ اللَّهُ وَخَلَّدَهُ تَخْلِيدًا. وَقِيلَ لِأَثَاثِيِّ الصَّخُورِ: خَوَالِدُ؛ لِبَقَائِهَا بَعْدَ دُرُوسِ الْأَطْلَالِ. وَأَخْلَدْتَ إِلَى فُلَانٍ، أَيِ: رَكَنْتَ إِلَيْهِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنَكُنَّهٗ أَخْلَدًا إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وَأَخْلَدَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ" (٦).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الخلود: هو تَبْرِي الشَّيْءِ مِنْ اعْتِرَاضِ الْفَسَادِ، وَبَقَاؤُهُ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، وَكُلُّ مَا يَتَبَايَأُ عَنْهُ التَّغْيِيرُ وَالْفَسَادُ تَصِفُهُ الْعَرَبُ بِالْخُلُودِ، كَقَوْلِهِمْ لِأَثَاثِي: خَوَالِدُ، وَذَلِكَ لَطَوِيلُ مَكْتَبِهَا لَا لِدَوَامِ بَقَائِهَا. قَالَ: وَأَصْلُ الْمَخْلَدِ: الَّذِي يَبْقَى

(١) معاني القرآن، للفراء (٣٩٩/١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٣٩١/٢).

(٣) تهذيب اللغة (١٢٤/٧).

(٤) أساس البلاغة، مادة: (خلد) (٢٦١/١).

(٥) انظر: المخصص (٣١٩/٣).

(٦) الصحاح، للجوهري، مادة: (خلد) (٤٦٩/٢).

مدة طويلة، ومنه قيل: رجل مخلد لمن أبطأ عنه الشيب، ودابة مخلدة: هي التي تبقى ثناياها حتى تخرج رباعيتها، ثم استعير للمبقي دائماً. والخلود في الجنة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]، قيل: مبقون بحالتهم لا يعترفهم استحالة، وقيل: مقرطون بخلدة، والخلدة: ضرب من القرطة ^(١)، وإخلاد الشيء: جعله مبقى، والحكم عليه بكونه مبقى، وعلى هذا قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّهُمْ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، أي: ركن إليها ظاناً أنه يخلد فيها ^(٢).

و"الخلود: البقاء في دار لا يخرج منها، والفعل: خلد يخلد. وأهل الجنة خالدون مخلدون آخر الأبد، وأخلد الله عزَّجَلَّ أهل الجنة إخلاداً، والخلد: اسم من أسماء الجنان" ^(٣). وكلمة الخلود في القرآن الكريم تطلق على التأبید، وعلى التأقیت، وعلى الفترة الزمنية الطويلة، فإذا قيد الخلود بالتأبید كان أطول.

(١) القُرْطُ: نوع من حُلِيِّ الأذن معروف، ويجمع على أَقْرَاط، وقُرْطَة، وأَقْرُطَة. النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (قُرْط) (٤١/٤). وقال الفراء في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]: يقال: إنهم على سن واحدة، لا يتغيرون. قال: ويقال: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ [٧]: مقرطون. ويقال: مسورون. معاني القرآن، للفراء (١٢٢/٣-١٢٣)، وانظر: تهذيب اللغة (١٢٤/٧). وقيل: هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (خلد) (ص: ٢٩١-٢٩٢).

(٣) تهذيب اللغة (١٢٤/٧).

ومن الإطلاق على الخلود المؤقت: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ

﴿٣﴾ [الهمزة: ٣].

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿٣٩﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] فمعناه: أنه يمكث في النار طويلاً، ولا يحمل على الخلود الأبدي إلا على من كان مستحقاً للقتل.

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "تعاضدت الدلائل النقلية والعقلية، على أن صاحب الكبيرة إذا كان موحداً محكوماً بإسلامه لا يخلد في النار، ولا يحرم من الجنة" (١). والانتحار كذلك من كبائر الذنوب، ومن الذنوب المتوعد عليها بالخلود في النار، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى نَفْسًا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» (٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قيل: غاية هذه الأشياء أنها معصية لا كفر فيها، فما وجه الخلود؟ فالجواب: أن ذكر الخلود إنما هو في رواية أبي صالح: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رواه سعيد المقبري والأعرج: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يذكر فيه: «خَالِدًا مُخَلَّدًا أَبَدًا». قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا أصح؛ [لأن الروايات إنما تنجيء بأن أهل التوحيد يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَلَمْ يُذَكَّرْ أَنَّهُمْ يُخَلَّدُونَ فِيهَا].

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٨/٥٧٢٤).

(٢) صحيح البخاري [٥٧٧٨]، مسلم [١٠٩]. و«تردى» بمعنى: سقط. و«يجأ بها»: أي: يضرب بها.

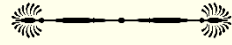
وقال القاضي أبو يعلى رَحِمَهُ اللهُ: هذا محمول على من فعل ذلك مستحلاً لقتله، ومكذباً بتحريم ذلك، بدليل الأحاديث المروية في أن المسلمين لا يخلّدون^(١).
وقد تمسك به المعتزلة وغيرهم ممن قال بتخليد أصحاب المعاصي في النار.
وأجاب أهل السنة عن ذلك بأجوبة منها: ما تقدم من قول الترمذي رَحِمَهُ اللهُ.
قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "وأجاب غيره بحمل ذلك على من استحلّه فإنه يصير باستحلاله كافراً، والكافر مخلد بلا ريب.

وقيل: ورد مورد الزجر والتغليظ، وحقيقته غير مرادة.
وقيل: المعنى أن هذا جزاؤه، لكن قد تكرم الله عَزَّجَلَّ على الموحدين فأخرجهم من النار بتوحيدهم.

وقيل: التقدير مخلداً فيها إلى أن يشاء الله جَلَّوَعَلَا.
وقيل: المراد بالخلود طول المدة لا حقيقة الدوام، كأنه يقول: يخلد مدة معينة، وهذا أبعداها^(٢).

وقد جاء بيان ذلك مفصلاً في كتاب: (نهج الأبرار).

دَاب :



قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣].
يطلق الدأب والدؤوب على اللبث والدوام، وطول البقاء في الشيء، قال الله عَزَّجَلَّ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٤٥٣/٣)، سنن الترمذي [٢٠٤٤].

(٢) فتح الباري (٢٢٧/٣-٢٢٨).

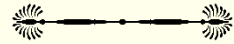


كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿آل عمران: ١٠-١١﴾، أي: دُؤِبهم في النار كدُؤِب آل فرعون (١).

و"الدُّؤُوب: المبالغة في السَّيْرِ، وأَذَابَ الرجلُ الدَّابَّةَ إِذَا بَا: إِذَا اتَّعَبَهَا، والفعل اللازم: دَأَبَتِ الدَّابَّةُ تَدَأِبُ دُؤُوبًا. وقوله جَلَّوَعًا: ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ١١]، أي: كعادتهم وحالهم" (٢). ودَأَب فلان في عمله، أي: جَدَّ وتَعَب، دَأَبًا ودُؤُوبًا، فهو دَائِب. والدائِبان: الليل والنهار.

وَالدَّأَبُ: العادةُ والشَّانُ، وقد يَحْرُك (٣).

دهر:



الدَّهْر: الزَّمان، ويجمع على دهور.

وقيل: الدَّهْر: الأَبَد.

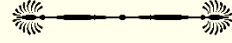
وقد تقدم الحديث عن الدهر مفصلاً.

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٥٣/٧).

(٢) العين، مادة: (دأب) (٨٥/٨).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (دأب) (١٢٣/١-١٢٤).

سرمد :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ ۖ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۚ﴾ [الفصص: ٧١-٧٢].

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ مجازة: دائماً لا نهار فيه، وكل شيء لا ينقطع من عيش أو رخاء أو غم وبلاء دائم فهو سرمد" (١).

وفي (العين): "السَّرمَدُ: دوام الزَّمان من ليلٍ ونهار. والسَّرمَدُ: دوام العيش" (٢).

وإنما جعل الليل سرمدا لطوله شبه بالشيء لا ينقضي.

والعرب تقول لكلِّ ما كان متصلاً لا ينقطع، وما يقع فيه فصل، من رخاء، أو بلاء، أو نعمة: هو سرمد (٣).

وفي (الكليات): "السرد: من السرد، وهو التوالي والتعاقب، سمي الزمان به لذلك، وزادوا عليه الميم؛ ليفيد المبالغة في ذلك المعنى" (٤).

قال الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لما كان الله عَزَّوَجَلَّ هو الجاعل الأشياء على الحقيقة وأضاف إلى نفسه جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة صار الليل كأنه سرمد بهذا التقدير، وظرف

(١) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١٠٩/٢).

(٢) العين (٣٤١/٧).

(٣) تفسير الطبري (٦١٢/١٩)، التفسير البسيط (٤٤١/١٧-٤٤٢)، غريب الحديث، لابن قتيبة الدينوري

(ص: ٥٢١). تهذيب اللغة (١٠٥/١٣).

(٤) الكليات (ص: ٨٠-٨١).

الليل ظرف مظلم، لا ينفذ فيه البصر لاسيما وقد أضاف الإتيان بالضياء الذي تنفذ فيه الأبصار إلى غيره، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة فصار النهار كأنه معدوم؛ إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والليل كأنه لا موجود سواه؛ إذ جعل سرمدًا منسوبًا إليه جَلَّوَعًا فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۖ﴾ [القصص: ٧١]؛ لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع، ولا يصلح للإبصار.

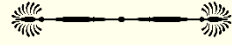
وكذلك قال في الآية التي تليها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۖ﴾ [القصص: ٧٢]؛ لأنه لما أضاف جعل النهار سرمدًا إليه صار النهار كأنه سرمد، وهو ظرف مضى تنور فيه الأبصار، وأضاف الإتيان بالليل إلى غيره وغيره ليس بفاعل على الحقيقة فصار الليل كأنه معدوم؛ إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والنهار كأنه لا موجود سواه؛ إذ جعل وجوده سرمدًا منسوبًا إليه، فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۖ﴾؛ إذ الظرف مضى صالح للإبصار وهذا من دقيق المناسبة المعنوية" (١).

وقد روى أبو نعيم في (الحلية): عن إبراهيم بن بشار، قال: وقف رجل صوفي على إبراهيم بن أدهم فقال: يا أبا إسحاق لم حجبت القلوب عن الله عَزَّجَلَّ؟ قال: «لأنها أحببت ما أبغض الله عَزَّجَلَّ: أحببت الدنيا، ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد، في نعيم لا يزول ولا ينفد، خالدًا مخلدًا في ملك سرمد، لا نفاد له ولا انقطاع» (٢).

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٨٢).

(٢) حلية الأولياء (٨/١٢).

سكن :



قال الله عَزَّجَلُ: ﴿وَقُلْنَا يٰعَادُمْ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١].

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤].

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ [طه: ١٢٨].

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٣].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٩].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨].

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨].



﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِينِهِمْ آيَةٌ﴾ [سبأ: ١٥].

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسْكِينُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَمَسْلَكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ [الصف: ١٢].

﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦].

يقال: سكن الشيء سكونا: استقر وثبت. وسكنه غيره تسكينا. والسكينة: الوداع والوفار. وسكنت داري وأسكنتها غيري. والاسم منه: السكى، كما أن العتي اسم من الاعتبار.

والمسكن أيضاً: المنزل والبيت. وأهل الحجاز يقولون: مسكن - بالفتح - والسكن: أهل الدار.

والسكن أيضاً: كل ما سكنت إليه ^(١).

والإسكان: هو جعل الغير ساكناً، والأصل أن يعدى بـ: (في)؛ لأن السكى نوع من اللبث والاستقرار، إلا أنهم لما نقلوه إلى سكون خاص تصرفوا فيه، فقالوا: أسكن الدار ^(٢).

قال الزمخشري رحمه الله في قوله جلّ وعلا: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]: "السكى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار. وأنت تأكيد للمستكن في: (اسكن) ليصح العطف عليه" ^(٣).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (سكن) (٢١٣٦/٥ - ٢١٣٧).

(٢) الكليات (ص: ١١٥).

(٣) الكشف (١/١٢٧).



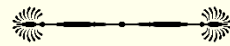
قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "السُّكُونُ: ثبوت الشيء بعد تحركه، ويستعمل في الاستيطان نحو: سَكَنَ فلان مكان كذا، أي: استوطنه، واسم المكان: مَسْكَنٌ، والجمع: مَسَاكِينُ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يُرَى إِلَّا مَسْكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]، و﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧].
فمن الأول يقال: سَكَنَتْهُ.

ومن الثاني يقال: أَسْكَنَتْهُ، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، فتنبيهه منه على إيجاده وقدرته على إفنائه.

والسَّكَنُ: السُّكُونُ وما يُسَكَنُ إليه، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ صَلَوَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

والسُّكُنَى: أن يجعل له السكون في دار بغير أجرة، والسَّكَنُ: سُكَّانُ الدَّار...^(١).

سُنَّ وَسَنَةٌ :



السَّنَةُ: الحول، وهي محذوفة اللام، وفيها لغتان:

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (سكن) (ص: ٤١٧-٤١٨).



إحداهما: جعل اللام هاء، وبينى عليها تصاريف الكلمة والأصل: سنهة، وتجمع على: سَنَهَاتٍ، مثل: سَجْدَةٍ وَسَجَدَاتٍ وَتَصَعَّرَ عَلَى: سُنيَّهَةٍ. وَتَسَنَّهَتْ النخلة وغيرها: أتت عليها سِنُونٌ، وعاملته مُسَانَهَةً، وأرض سَنَهَاءٌ: أصابتها السَّنَةُ وهي الجُدْبُ.

والثانية: جعلها واوا يُبْنَى عليها تصاريف الكلمة أيضاً، والأصل: سَنَوَةٌ، وتجمع على: سَنَوَاتٍ، مثل: شَهْوَةٍ وَشَهَوَاتٍ، وَتَصَعَّرَ عَلَى: سُنيَّةٍ، وَعَامَلْتُهُ مُسَانَاةً، وَأَرْضٌ سَنَوَاءٌ: أصَابَتْهَا السَّنَةُ، وَتَسَنَّى عِنْدَهُ: أَقَمْتُ سِنِينَ.

قال النحاة: وتجمع السَّنَةُ كجمع المذكر السالم أيضاً، فيقال: سِنُونٌ وَسِنِينَ، وتحذف النون؛ للإضافة.

وفي لغة تثبت الياء في الأحوال كلها، وتجعل النون حرف إعراب تنون في التنكير، ولا تحذف مع الإضافة، كأنها من أصول الكلمة، وعلى هذه اللغة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف»^(١).

والسنة عند العرب: أربعة أزمنة، وربما أطلقت السنة على الفصل الواحد مجازاً، يقال: دام المطر السنة كلها، والمراد: الفصل^(٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، أي: لم يغيّر السنين، ومن جعل حذف السنة واوا قرأ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّ﴾ وقال: سانيتها مساناة، وإثبات الهاء أصوب.

(١) أخرجه أحمد [١٠٧٥٤]، والدارقطني [١٦٩٠]. وهو في (الصحيحين) بلفظ: «كسني يوسف»، صحيح البخاري [٤٨٢١، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣، ٦٩٤٠]، مسلم [٦٧٥، ٢٧٩٨]. وقوله: «كسني يوسف» أصله: كسنين، سقطت النون بالإضافة، ومعنى: «سني يوسف»: الجُدْبُ والقحط الذي أصابهم.

(٢) المصباح المنير، مادة: (سنه) (٢٩٢/١)، وانظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٣٣٣/١) - (٣٣٦)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٦٢/١-٦٦)، شرح المفصل للزمخشري، لابن يعيش (٢٢٧/٣)، شرح الشواهد الكبرى (٢١٩/١).

وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ في قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: يقال في التفسير: لم يتغير، وتكون الهاء من أصله، وتكون زائدة صلة بمنزلة قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَيَهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فمن جعل الهاء زائدة جعل فعلت منه: تسنيت، ألا ترى أنك تجمع السنة سنوات، فتكون تفعلت على صحة.

ومن قال في تصغير السنة: سنينة وإن كان ذلك قليلاً، جاز أن يقول: تسنيت: تفعلت؛ أبدلت النون ياء لما كثرت النونات، كما قالوا: تظنيت، وأصله الظن، وقد قالوا: هو مأخوذ من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْ حَمِيمٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، يريدون: متغير، فإن يكن كذلك فهو أيضاً مما أبدلت نونه ياء، ونرى -والله أعلم- أن معناه مأخوذ من السنة: أي: لم تغيره السنون^(١).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "والصواب من القراءة عندي في ذلك: إثبات (الهاء) في الوصل والوقف؛ لأنها مثبتة في مصحف المسلمين، ولإثباتها وجهٌ صحيح في كلتا الحالتين في ذلك"^(٢). قال: وجعل (الهاء) في (السنة) أصلاً هي اللغة الفصحى. وغير جائز حذف حرف من كتاب الله عَزَّجَلَّ في حال وقف أو وصل؛ لإثباته وجه معروف في كلامها"^(٣). و(السِّنُّ) مؤنثة وتصغيرها: سُنَيْنَةٌ، وقد يُعَبَّرُ بِالسِّنِّ عَنِ الْعُمُرِ. وَسِنَّةٌ مِنْ ثَوَمٍ، أي: فَصٌّ مِنْهُ. وَسِنَّ الْقَلَمِ: موضع البري منه. وَأَسَنَّ الرَّجُلُ: كَبِرَ^(٤).

(١) معاني القرآن، للفراء (١٧٢/١-١٧٣)، وانظر: تهذيب اللغة (٦/٧٩)، العين (٤/٨).

(٢) قرأ حمزة والكسائي: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، بحذف الهاء في الوصل خاصة، والباقون بإثباتها في الحالين. انظر: حاشية

الطبيعي على الكشف (٣/٥٠٩)، حجة القراءات، لابن زنجلة (ص: ١٤٢-١٤٣).

(٣) انظر ذلك مفصلاً في (تفسير الطبري) (٥/٤٦٠-٤٦٧)، وانظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي

(٤/٣٨٦-٣٩٢)، غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/٢٢٧-٢٢٨)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد

على البيضاوي (٥/٤١٦).

(٤) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سنن) (٥/٢١٤٠-٢١٤١).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "السَّنَةُ في أصلها طريقان:

أحدهما: أَنْ أصلها: سَنَهَةٌ؛ لقولهم: سَأَهْتُ فلانًا، أي: عاملته سَنَةً فسنة، وقولهم: سُنِّيَهُ، قيل: ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، أي: لم يتغيَّر بمَرِّ السِّنِينَ عليه، ولم تذهب طراوته.

وقيل: أصله من الواو؛ لقولهم: سنوات، ومنه: سَانَيْتُ، والهاء للوقف، نحو: ﴿كِتَابِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٩]، و﴿حِسَابِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٠].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧]، ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ [الكهف: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، فعبارة عن الجذب، وأكثر ما تستعمل السَّنَةُ في الحول الذي فيه الجذب، يقال: أَسَنَتِ القوم: أصابتهم السَّنَةُ....^(١).

وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]: "أأخذهم بالسنين: القحط والجذوبة عامًّا بعد عام"^(٢).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِالسِّنِينَ﴾: جمع: سَنَة. وفيها لغتان أشهرهما: إجراؤه مُجْرَى جمع المذكر السالم، فيرفع بالواو، ويُنْصَب ويُجَرُّ بالياء، وتُحْدَفُ نونُه للإضافة.

قال النحاة: إنما جرى ذلك المجرى؛ جبرًّا له؛ لِمَا فاتَه من لامه المحذوفة.

واللغة الثانية: أن يُجْعَلَ الإعرابُ على النون، ولكن مع الياءِ خاصَّةً. نَقَلَ هذه اللغة أبو زيد والفراء رَحِمَهُمَا اللَّهُ. ثم لك فيها لغتان أحدهما: ثبوت تنوينها، والثانيةُ عدمه. قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: هي في هذه اللغة مصروفة عند بني عامر، وغير مصروفة عند بني تميم

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) معاني القرآن، للفراء (١/٣٩٢).



اهـ. ووجه حذف التنوين: التخفيف، وحينئذ لا تُحذف النون للإضافة، وعلى ذلك جاء قوله:

دَعَايَ مِنْ نَجْدٍ فَإِنَّ سَنِيَهَ لَعِبْنَ بَنَا شَيْبًا وَشَيَّبَنَنَا مُرْدًا^(١)

وجاء الحديث «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، و«سنيًا كسنيين يوسف» باللغتين^(٢).

الفرق بين السنة والحجة :

قال العسكري رَحِمَهُ اللهُ فِي بيان الفرق بين السَّنةِ الحُجَّةِ: "إِنَّ الحُجَّةَ تَفِيدُ أَنَّهَا يَحْجُ فِيهَا، وَالْحُجَّةُ الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ، مِنْ حَجٍّ يَحْجُ، وَالْحُجَّةُ فَعْلُهُ، مِثْلُ: الْجُلُوسَةُ وَالْقُعْدَةُ، ثُمَّ سَمِيَتْ بِهَا السَّنَةُ، كَمَا يَسْمَى الشَّيْءُ بِاسْمِ مَا يَكُونُ فِيهِ"^(٣).

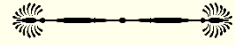
(١) ينسب إلى الصمة بن عبد الله القشيري. انظر: الصمة حياته وشعره، جمع وتحقيق د. خالد الجبر (ص: ٧٨)، وهو شاهد مشهور في كتب اللغة. وقال الفراء في (معاني القرآن) (٩٢/٢): "أُنشِدْنِي بَعْضُ بَنِي غَامِرٍ" فذكره، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: (ذَرَانِي مِنْ نَجْدٍ...). والشاهد فيه: قوله: (فإن سنيته) حيث نصبه بالفتحة الظاهرة، بدليل بقاء النون مع الإضافة إلى الضمير، فجعل هذه النون الزائدة على بنية الكلمة كالنون التي من أصل الكلمة في نحو: مسكين وغسلين، ألا ترى أنك تقول: هذا مسكين، ولقد رأيت رجلاً مسكيناً، ووقعت عيني على رجل مسكين، وتقول: هذا الرجل مسكينكم، فتكون حركات الإعراب على النون، سواء أضيفت الكلمة أم لم تضاف؛ لأن مثلها مثل الميم في غلام، والباء في كتاب، ولو أن الشاعر اعتبر هذه النون زائدة مع الباء للدلالة على أن الكلمة جمع مذكر سالم لوجب عليه هنا أن ينصبه بالياء ويحذف النون فيقول: (فإن سنيته).

(٢) انظر: الدر المصون (٤٢٥/٥-٤٢٦)، تفسير أبي السعود (٢٦٣/٣)، روح المعاني (٣١/٥)، معاني القرآن، للفراء (٩٢/٢)، والحديث قد تقدم.

(٣) الفروق اللغوية (ص: ٢٧١).



شهر :



قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن بَنَاتِهِمْ تَرْبُصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدًى وَلَا الْقَلْبَيدَ﴾ [المائدة: ٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهُدًى وَالْقَلْبَيدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: ٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَسَلَيْمَنْ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَا حُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسًا﴾ [المجادلة: ٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّتِي يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ دَسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ

أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

الشَّهْرُ: "واحد الشهور. وقد أَشْهَرْنَا، أي: أتى علينا شَهْرٌ.

قال ابن السِّكِّيت رَحِمَهُ اللَّهُ: أَشْهَرْنَا فِي هَذَا الْمَكَانِ: أَقْمْنَا فِيهِ شَهْرًا^(١).

وقال ثعلب رَحِمَهُ اللَّهُ: أَشْهَرْنَا: دَخَلْنَا فِي الشَّهْرِ. وَالْمُشَاهَرَةُ مِنَ الشَّهْرِ، كَالْمُعَاوَمَةِ

مِنَ الْعَامِ. وَالشُّهْرَةُ: وَضُوحُ الْأَمْرِ. تَقُولُ مِنْهُ: شَهَرْتُ الْأَمْرَ أَشْهَرُهُ شَهْرًا وَشُهُرَةً، فَاشْتَهَرَ، أي: وَضَحَ، وَكَذَلِكَ شَهَرْتُه تَشْهِيرًا..^(٢).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشين والهاء والراء أصل صحيح يدل على وضوح في

الأمر وإضاءة. من ذلك: الشهر، وهو في كلام العرب: الهلال، ثم سمي كل ثلاثين يومًا

باسم الهلال، فقليل شهر. قد اتفق فيه العرب والعجم؛ فإن العجم يسمون ثلاثين يومًا

باسم الهلال في لغتهم. والدليل على هذا قول ذي الرمة:

فأصبح أجلى الطرف ما يستزيده يرى الشهر قبل الناس وهو نحيل^(٣)

(١) انظر: إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيت (ص: ١٧٣)، و(ص: ١٧٦).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (شهر) (٧٠٥/٢).

(٣) مقاييس اللغة (٢٢٢/٣)، والبيت في ديوان ذي الرمة، شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب (٣/١٩٠٠)،

وفيه: "وهو ضئيل" مكان: "وهو نحيل".

وأصله من شهر الشيء: إذا أظهره، وهو لكونه ميقاناً للعبادات والمعاملات صار مشهوراً بين الناس. وفي (البحر): "الشَّهْرُ مصدر: شَهَرَ الشَّيْءَ يَشْهَرُهُ: أَظْهَرَهُ وَمِنْهُ الشُّهُرُ، وبه سمي الشهر، وهو: المدة الزمانية التي يكون مبدؤ الهلال فيها خافياً إلى أن يستسر، ثم يطلع خافياً. سمي بذلك؛ لشهرته في حاجة الناس إليه في المعاملات وغيرها من أمورهم" (١).

قال الواحدي رَحِمَهُ اللهُ: الشهر: مأخوذ من الشهرة، تقول: شَهَرَ الشَّيْءَ يَشْهَرُهُ شَهْرًا: إذا أظهره، وسمي الشَّهْرُ شَهْرًا؛ لشهرة أمره في حاجة الناس إليه في معاملاتهم، ومحل ديونهم، وقضاء نسكهم في صومهم، وحجهم، وغير ذلك من أمورهم" (٢). وقال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "سمي الهلال شهراً؛ لشهرته وبيانه" (٣).

وقال غيره: سمي شهراً باسم الهلال، إذا أهل يسمى شهراً، والعرب تقول: رأيت الشهر، أي: رأيت هلاله (٤). وقد أَشْهَرْنَا، أي: أتى علينا شَهْرٌ - كما تقدم -.

وقد جعل الله عَزَّجَلَّ لبعض الشهور فضلاً على بعض ميزها بخصائص وأعمال جليلة، كفضل شهر رمضان، وشهر شعبان، والأشهر الحرم، كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيراً من ألف شهر.

وفي الحديث: عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب في حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فقال في خطبته: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير (١٧٢/٢ - ١٧٣).

(٢) انظر: التفسير البسيط (٥٦٩/٣ - ٥٧٠)، مفاتيح الغيب (٢٥٠/٥ - ٢٥١)، البحر المحيط في التفسير

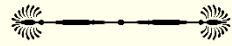
(١٧٢/٢ - ١٧٣)، الدر المصون (٢٧٩/٢ - ٢٨٠).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٢٥٩/١).

(٤) تهذيب اللغة (٥١/٦).

والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها: أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وَرَجَبُ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»^(١).

طبقة :



الطَّبَقُ واحدٌ: الأطباق. وطبقات النَّاسِ: مراتبُهُمْ. وَالسَّمَوَاتُ طباق: أي: بعضها فوق بعض.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [المك: ٣]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

ويقال: مضى طبق من النهار، أي: ساعة. ومثله مضت طائفة من الليل. والطبق الحال من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]، أي: حالاً عن حالٍ يوم القيامة. وقيل: الطبقة: المنزلة، وكل شيء طوبق بعضه على بعض فالأعلى منه طبق للأسفل.

والطبق: الدرك من أدراك جهنم، والطبق جماعة من الناس يعدلون جماعة مثلهم، و طِبَاقُ الْأَرْضِ: ما علاها. ومطرٌ طَبَقٌ، أي: عامٌّ. تقول العرب: اللهم اسقنا غيثاً طَبَقاً، أي: يطبق الأرض.

والطبق: القرن من الناس يطبقون الأرض، ثم يموتون، ويأتي طبق آخر. والطبق: المتشابهون من الخلق والعرب، تقول: هم طبقة واحدة: إذا كانوا متشابهين، والناس طبقات، أي: بعضهم أرفع من بعض.

(١) صحيح البخاري [٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٤٤٧]، مسلم [١٦٧٩].

وَالْمُطَابَقَةُ: الموافقة. وَالتَّطَابُقُ: الاتفاقُ. وَطَابَقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ: إِذَا جَعَلْتَهُمَا عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ، وَأَلَزَقْتَهُمَا.

وَأُطَبِقُوا عَلَى الْأَمْرِ، أَي: اتَّفَقُوا عَلَيْهِ.

وَأُطَبِقْتُ الشَّيْءَ، أَي: غَطَيْتُهُ وَجَعَلْتُهُ مُطَبَّقًا، فَتَطَبَّقَ هُوَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لَوْ تَطَبَّقَتِ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مَا فَعَلْتَ كَذَا.

وَالْحُمَّى الْمُطَبَّقَةُ، هِيَ الدَّائِمَةُ لَا تَفَارِقُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا^(١).

وَالطَّبَقُ، وَالطَّبَقَةُ: الْفَقْرَةُ حَيْثُ كَانَتْ.

وَقِيلَ: هِيَ مَا بَيْنَ الْفَقْرَتَيْنِ وَجَمَعَهَا: طَبَاقٌ.

وَقَدْ قِيلَ: الطَّبَقَةُ: عَشْرُونَ سَنَةً. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ كِتَابِ الْمَجَرِيِّ^(٢).

وَفِي الْحَدِيثِ: عَنْ أَبِي يَعْفُورٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مَصْعَبَ بْنَ سَعْدٍ، يَقُولُ: صَلَّيْتُ إِلَى

جَنْبِ أَبِي، فَطَبَّقْتُ بَيْنَ كَفَّيَّ، ثُمَّ وَضَعْتُهُمَا بَيْنَ فَخَذَيْي، فَنَهَانِي أَبِي، وَقَالَ: «كُنَّا نَفْعَلُهُ،

فَنَهَيْنا عَنْهُ وَأَمَرْنَا أَنْ نَضَعَ أَيْدِينَا عَلَى الرِّكْبِ»^(٣).

فَقَوْلُهُ: «طَبَّقْتُ» أَي: جَعَلْتَهُمَا عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ وَأَلَزَقْتَهُمَا.

وَالطَّبَقَةُ - كَمَا تَقْدُمُ -: مَدَّةٌ مِنَ الزَّمَنِ مُحَدَّدَةٌ، وَلِلْعُلَمَاءِ عُنَايَةٌ فَائِقَةٌ فِي

تَحْدِيدِ طَبَقَاتِ التَّابِعِينَ؛ لِمَعْرِفَةِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْهُمْ، وَشَرَفِ الزَّمَانِ كُلَّمَا قَرَّبَ مِنْ عَصْرِ النُّبُوَّةِ؛

(١) انظر: العين، مادة: (طبق) (١٠٨/٥)، تهذيب اللغة (٢٩/٩)، الصحاح، للجوهري (١٥١٢/٤)، اتفاق

المباني وافتراق المعاني، لتقي الدين سليمان بن بنين (ص: ٢٢٨-٢٢٩).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (طبق) (٢٩٣/٦).

(٣) صحيح البخاري [٧٩٠].

لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد بقرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: الصحابة رَحِمَهُمُ اللَّهُ" (٢)، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم.

قال الحافظ العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِلرُّوَاةِ طَبَقَاتٌ تُعْرَفُ بِالسِّنِّ وَالْأَخْذِ، وَكَمْ مُصَنَّفُ
يَعْلَطُ فِيهَا، وَابْنُ سَعْدٍ صَنَّفَا فِيهَا وَلَكِنْ كَمْ رَوَى عَنْ ضَعْفَا^(٣)

قال في (الشرح): "فمن المهمات: معرفة طبقات الرواة؛ فإنه قد يتفق اسمان في اللفظ، فيظن أن أحدهما الآخر، فيتميز ذلك بمعرفة طبقتيهما، إن كانا من طبقتين، فإن كانا من طبقة واحدة فرمما أشكل الأمر، وربما عرف ذلك بمن فوقه، أو دونه من الرواة، فرمما كان أحد المتفقين في الاسم لا يروي عن من روى عنه الآخر، فإن اشتركا في الراوي الأعلى وفيمن روى عنهما، فالإشكال حينئذ أشد. وإنما يميز ذلك أهل الحفظ والمعرفة. ويعرف كون الراويين أو الرواة من طبقة واحدة، بتقاربهم في السن، وفي الشيوخ الآخذين عنهم، إما بكون شيوخ هذا هم شيوخ هذا أو تقارب شيوخ هذا من شيوخ هذا في الأخذ، كما تقدمت الإشارة إلى نحو ذلك في رواية الأقران، فإن مدلول الطبقة لغة: القوم المتشابهون، وأما في الاصطلاح فالمراد: المتشابه في الأسنان، والإسناد، وربما اكتفوا بالمتشابه في الإسناد.

(١) صحيح البخاري [٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨، ٦٦٩٥]، مسلم [٢٥٣٣، ٢٥٣٤، ٢٥٣٥، ٢٥٣٦].

(٢) فتح الباري (٧/٥-٦).

(٣) ألفية العراقي المسماة بـ: (التبصرة والتذكرة في علوم الحديث) (ص: ١٨٤) [٩٩٢، ٩٩٣].



وبسبب الجهل بمعرفة الطبقات غلط غير واحد من المصنفين، وربما ظن راوياً راوياً آخر غيره، وربما أدخل راوياً في غير طبقته.

وقد صنف في الطبقات جماعة، فمنهم من اختصر، كخليفة بن خياط، ومسلم بن الحجاج رَحِمَهُمَا اللَّهُ، ومنهم من طول كمحمد بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ في (الطبقات الكبرى)، وله ثلاثة تصانيف في ذلك، وكتابه الكبير كتاب جليل، كثير الفائدة، وابن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ ثقة في نفسه، وثقه أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره، ولكنه كثير الرواية في الكتاب المذكور عن الضعفاء، كمحمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي. ويقتصر كثيراً على اسمه واسم أبيه من غير نسب، وكهشام بن محمد ابن السائب الكلبي، ونصر بن باب الخراساني في آخرين منهم. على أن أكثر شيوخه أئمة ثقات، كسفيان بن عيينة، وابن علية، ويزيد بن هارون، ومعن بن عيسى، وهشيم، وأبي الوليد الطيالسي، وأبي أحمد الزبيري، وأنس ابن عياض، وغيرهم، ولكنه أكثر الرواية في الكتاب المذكور عن شيخه الأولين.

ثم إنه قد يكون الراوي من طبقة؛ لمشابهته لتلك الطبقة من وجه، ومن طبقة أخرى غيرها؛ لمشابهته لها من وجه آخر.

وأنس بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ ونحوه من صغار الصحابة من طبقة العشرة عند من عد الصحابة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم طبقة واحدة، كابن حبان في (الثقات)؛ لا اشتراكهم في الصحبة، وهو من طبقة أخرى دون طبقة العشرة، عند من عد الصحابة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ طباقاً، والتابعين

طَبَقًا^(١)، كابن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد تقدم في معرفة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ اثْنَا عَشْرَةَ طَبَقَةً، أو أكثر، وتقدم في معرفة التابعين أَنَّهُمْ خَمْسَ عَشْرَةَ طَبَقَةً -والله أعلم-^(٢).

وقال شمس الدين السخاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(طبقات الرواة) وهو من المهمات، وفائدته الأمان من تداخل المشتبهين كالمُتَّفِقِينَ في اسم أو كنية أو نحو ذلك، وإمكان الإطلاع على تبين التدليس، والوقوف على حقيقة المراد من العنونة، وبينه وبين التاريخ عموم وخصوص وجهي، فيجتمعان في التعريف بالرواة، وينفرد التاريخ بالحوادث والطبقات، بما إذا كان في البدرين -مثلاً- من تأخرت وفاته عمن لم يشهدها؛ لاستلزامه تقديم المتأخر الوفاة، وقد فرق بينهما بعض المتأخرين بأن التاريخ ينظر فيه بالذات إلى المواليد والوفيات، وبالعرض إلى الأحوال، والطبقات ينظر فيها بالذات إلى الأحوال، وبالعرض إلى المواليد والوفيات، ولكن الأول أشبه... الخ"^(٣).

قال ابن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ: "معرفة طبقات الرواة والعلماء من المهمات التي افتضح بسبب الجهل بها غير واحد من المصنفين وغيرهم.

وطبقات ابن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ عظيم كثير الفوائد، وهو ثقة، ولكنه كثير الرواية فيه عن الضعفاء، منهم: شيخه محمد بن عمر الواقدي. لا ينسبه.

(١) الطبقة القوم المتشابهون، وقد يكونون من طبقة باعتبار، ومن طبقتين باعتبار كأنس وشبهه من أصاغر الصحابة، هم مع العشرة في طبقة الصحابة إذا جعلوا كلهم طبقة واحدة، وعلى هذا فالتابعون طبقة ثانية، وأتباعهم الثالثة، وهلم جراً. وأما باعتبار السوابق فالصحابه بضع عشرة طبقة، والتابعون طبقات أيضاً، وكذلك من بعدهم.

(٢) شرح التبصرة والتذكرة (٣٤٢/٢-٣٤٤).

(٣) انظر: فتح المغيث بشرح الفية الحديث (٣٨٨/٤-٣٩٣).

والطبقة في اللغة: عبارة عن القوم المتشابهين، وعند هذا قرب شخصين يكونان من طبقة واحدة؛ لتشابههما بالنسبة إلى جهة، ومن طبقتين بالنسبة إلى جهة أخرى لا يتشابهان فيها.

قال: وعلى هذا فالصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأسرهم طبقة أولى، والتابعون طبقة ثانية، وأتباع التابعين ثالثة، وهلم جرًّا.

والباحث الناظر في هذا الفن يحتاج إلى معرفة المواليد والوفيات، ومن أخذوا عنه ومن أخذ عنهم، ونحو ذلك - والله أعلم -^(١).

وقال أبو عبد الله الحاكم رَحِمَهُ اللَّهُ في شأن التابعين: "هم طبقات خمس عشرة طبقة: آخرهم من لقي أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل البصرة، ومن لقي عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل الكوفة، ومن لقي السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل المدينة، ومن لقي عبد الله بن الحارث بن جزء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل مصر، ومن لقي أبا أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل الشام"^(٢).

وأما صاحب الطبقات محمد بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ فقد قسم التابعين إلى أقسام باعتبار منازلهم: كوفيين، وبصريين، وشاميين، ومكيين، ومدنيين، وعراقيين، ويمنيين، ومصريين، ومن نزل اليمامة، ومن نزل البحرين، وغير ذلك.. وينظر ذلك في مظانه.

وعلم الطبقات في العلوم العربية والإسلامية يتفرع إلى أنواع متعددة، فمن ذلك:

- علم طبقات القراء.

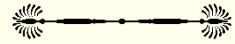
- علم طبقات المفسرين.

(١) معرفة أنواع علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح) (ص: ٣٩٩)، بتصرف واختصار.

(٢) معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله الحاكم (ص: ٤٢).

- علم طبقات المحدثين.
 - علم طبقات الشافعية.
 - علم طبقات الحنفية.
 - علم طبقات المالكية.
 - علم طبقات الحنابلة.
 - علم طبقات النحاة.
 - علم طبقات الأطباء.
 - طبقات الفقهاء.
 - طبقات الحفاظ.....إلى غير ذلك.
- وقد يختص ذلك بفترة زمنية معينة، كطبقات الممالك -مثلاً-.

عام :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفَصَّلْهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

قال في (العين): "العام: حَوْلٌ يأتي على شتوةٍ وصيفَةٍ، ألفها واو، ويُجمع على الأعوام. ورُسْمٌ عامِيٌّ أو حَوْلِيٌّ: أتى عليه عامٌ" (١).

وقال الجوهرى رَحِمَهُ اللهُ: "والعام: السنة. يقال: سنون عوم، وهو توكيد للأول، كما تقول: بينهم شغل شاغل" (٢).

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: العامُ كالسنة، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الشدة أو الجذب؛ ولهذا يعبر عن الجذب بالسنة، والعام بما فيه الرخاء والخصب، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]، وقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. ففي كون المستثنى منه بالسنة والمستثنى بالعام لطيفة، والعوم السباحة، وقيل: سمي السنة: عاماً؛ لعوم الشمس في جميع بروجها، ويدلُّ على معنى العوم: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] (٣).

واللطيفة قيل: هي أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ عاش بعد إغراق قومه ستين سنة في طيب زمان، وصفاء عيش، وراحة بال. فخص لفظ العام بالخمسين؛ إيداناً بأن نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ لما استراح منهم بقي في زمن حسن، والعرب تعبر عن الخصب بالعام وعن الجذب بالسنة.

(١) العين، مادة: (عوم) (٢/٢٦٨).

(٢) الصحاح، مادة: (عوم) (٥/١٩٩٣-١٩٩٤).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عوم) (ص: ٥٩٨).

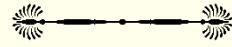


قال برهان الدين البقاعي رَحِمَهُ اللهُ: "وعبر بلفظ: ﴿سَنَةٍ﴾ ذمًّا لأيام الكفر، وقال: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ﴾ فحقق أن ذلك الزمان تسعمائة وخمسون من غير زيادة ولا نقص، مع الاختصار والعذوبة، وقال: ﴿عَامًا﴾؛ إشارة إلى أن زمان حياته عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد إغراقهم كان رغدًا واسعًا حسنًا بإيمان المؤمنين، وخصب الأرض" (١).

وقال العسكري رَحِمَهُ اللهُ في بيان الفرق بين العام والسنة: "إن العام جمع أيام، والسنة جمع شهور.

ويجوز أن يقال: العام يفيد كونه وقتًا لشيء، والسنة لا تفيد ذلك؛ ولهذا يقال: عام الفيل، ولا يقال: سنة الفيل. ويقال في التاريخ: سنة مائة، وسنة خمسين، ولا يقال: عام مائة، وعام خمسين؛ إذ ليس وقتًا لشيء مما ذكر من هذا العدد، ومع هذا فإن العام هو السنة والسنة هي العام، وإن اقتضى كل واحد منهما ما لا يقتضيه الآخر مما ذكرناه، كما أن الكل هو الجمع، والجمع هو الكل وإن كان الكل إحاطة بالأبعض، والجمع إحاطة بالأجزاء" (٢).

عِدَّةٌ :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

﴿وَلْيُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلْيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿لِّيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُجِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

(١) نظم الدرر (٤٠٤/١٤).

(٢) الفروق اللغوية (ص: ٢٧١).

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١].
 ﴿وَالَّذِي يَأْتِي مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّذِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

قال في (العين): "الْوَعْدُ والعِدَّةُ يكونان مصدرًا واسمًا. فأما العِدَّةُ فتُجمع: عِدَات، والوعد لا يجمع. والموعدُ: موضع التَّواعد، وهو الميعادُ. والموعدُ مصدرٌ وَعَدْتُهُ، وقد يكون الموعدُ وقتًا للعدة.

والموعدة: اسم للعدة. قال جرير:

تُعَلِّلُنَا أُمَامَةً بِالْعِدَاتِ وما تَشْفِي الْقُلُوبَ الصَّادِيَاتِ (١)
 والميعاد لا يكون إلا وقتًا أو موضعًا" (٢).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "عِدَّةٌ: أَحْصَاهُ، والاسم: الْعِدْدُ، وَالْعِدِيدُ. يقال: هم عَدِيدُ الْحَصَى. وَعِدَّةٌ فاعْتَدَّ، أي: صار مَعْدُودًا، واعتَدَّ به. وَالْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ: أَيَّامُ التَّشْرِيقِ. وَعِدَّةُ الْمَرْأَةِ: أَيَّامُ أَقْرَائِهَا. وقد اعتَدَّتْ، وانقضتْ عِدَّتُهَا. وتقول: أنفَذتْ عِدَّةَ كَتَبٍ، أي: جماعةَ كَتَبٍ. والعِدَّةُ - بالضم - : الاستعداد. يقال: كونوا على عِدَّةٍ. والعِدَّةُ أيضًا: ما أَعْدَدْتَهُ لِحَوَادِثِ الدَّهْرِ مِنَ الْمَالِ وَالسَّلَاحِ. يقال: أَخَذَ لِلْأَمْرِ عِدَّتَهُ وَعَتَادَهُ، بمعنى" (٣).
 قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "عِدَّةُ الْمَرْأَةِ: وهي الْأَيَّامُ الَّتِي بَانْقِضَائُهَا يَحُلُّ لَهَا التَّزْوِجُ.

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (١٢٧/٢).

(٢) العين، مادة: (وعد) (٢٢٢/٢).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (عدد) (٥٠٥/٢-٥٠٦).

والإعدادُ من العَدِّ كالإسقاء من السَّقْيِ، فإذا قيل: أَعَدَدْتُ هذا لك، أي: جعلته بحيث تُعَدُّه وتتناوله بحسب حاجتك إليه. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ﴾ [الفرقان: ١١]، وقوله: ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مُتَكَبَّرًا﴾ [يوسف: ٣١]، قيل: هو منه. وقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، أي: عدد ما قد فاتته، وقوله: ﴿وَلْيُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: عِدَّةَ الشَّهْرِ، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فإشارة إلى شهر رمضان. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فهي ثلاثة أيام بعد النَّحر، والمعلومات: عشر ذي الحجة. وعند بعض الفقهاء: الْمَعْدُودَاتُ: يومُ النَّحر ويومان بعده، فعلى هذا يوم النَّحر يكون من الْمَعْدُودَاتِ والمعلومات. والعِدَادُ: الوقت الذي يُعَدُّ لمعاودة الوجع، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما زالت أكلة خَيْر تُعَادُّنِي»^(١). وَعِدَانُ الشيء: عهده وزمانه^(٢).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قوله جَلَّوَعَلَا: الأيام المعلومات: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيام التشريق"^(٣).

(١) أخرجه البزار [٨٠٠٧]، وقال: "وهذا الحديث لا نعلم رواه عن محمد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة إلا سعيد بن محمد، ولم يسمعه إلا من إبراهيم بن سعيد، وسعيد بن محمد ليس بالقوي، وحدث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه، وكان من أهل الكوفة اهـ". ورواه ابن عدي في (الكامل) وأعله، بسعيد بن محمد، ونقل تضعيفه عن النسائي وابن معين. انظر: الكامل في ضعفاء الرجال، ترجمة: (سعيد بن محمد الوراق) (٤/٥٩-٤٦١)، وانظر طرق الحديث ورواياته مفصلة في (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف)، للزيلعي (١/٦٨-٧٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عد) (ص: ٥٥٠-٥٥١).

(٣) انظر: صحيح البخاري (٢/٢٠).



وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] اختصار حذف، أي: من كان مريضًا فأفطر فعدة، أو على سفرٍ فأفطر فعدة.

قال الأخفش رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]: يقول: فعَلَيْهِ عِدَّةٌ رَفَع، وَإِنْ شِئْتَ نَصَبْتَ (العِدَّة) على فَلْيَصُمْ عِدَّةً، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُقْرَأ" (١).

فليس المرض والسفر على الإطلاق؛ فان المريض إذا لم يضر به الصوم لم يجز له الإفطار، وإنما الرخصة موقوفة على زيادة المرض بالصوم. وقد ربط الشارع الحكيم رخصة الفطر بالنسبة للمسافر بالسفر ولم يربطها بالمشقة؛ لأن المشقة متفاوتة.

واتفق العلماء أن السفر مقدر.

وللعلماء تقييدات في السفر الذي تباح فيه الرخص بالمسافة أو المدة. فمنهم من قدره بالمسافة، ومنهم من قدره بالمدة والتحديد بالأيام، فقال الحنفية هو مقدر بمسيرة ثلاثة أيام بسير الإبل ومشى الأقدام، وقال آخرون: هو مقدر بيوم وليلة. وذكر ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الشارع الحكيم ذكر السفر، وأطلقه بدون ذكر مسافة، ولا مدة، وجعل ذلك راجعًا إلى العرف، فأى سفر في عرف الناس فهو السفر الذي علق الشارع الحكيم الرخص عليه، قال: والتحديد لم يثبت به نص ولا إجماع ولا قياس. وهو خلاف ما عليه الأئمة الأربعة، وقد يكون العرف غير منضبط، فقليل: لا من الرجوع والحالة هذه إلى القول بالتحديد، أما ما دام الأمر منضبطًا فالرجوع إلى العرف هو الصواب على هذا القول.

(١) معاني القرآن، للأخفش (١/١٦٩).

والمسافر الذي يباح له الفطر:

- ١ - من سافر مسافة أو مدة قصر.
 - ٢ - من كان سفره مباحًا على قول الأكثر.
- أما من سافر سفرًا لا يبلغ مسافة القصر، أو كان سفره سفر معصية، فلا يباح لهما الفطر.

وكذا لو سافر؛ ليفطر: حرم عليه السفر والفطر. والقول بأن العاصي بسفره لا يباح له الفطر ولا غيره من رخص السفر، كقصر الصلاة هو مذهب المالكية والشافعية والحنابلة.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ [البقرة: ١٨٥] قرئ بالتشديد والتخفيف. من كَمَّلَ يكْمِلُ، وأكمل يُكْمِلُ. قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: معطوف على علة محذوفة قد حذف معلولها. التقدير: فعل الله عَزَّجَلَّ ذلك؛ ليسهل عليكم ولتكمّلوا العدة (١). وقيل: الفعل المعلل مقدر بعد قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥)، تقديره: شرع ذلك، قاله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا نص كلامه قال: "شرع ذلك، يعني: جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدة، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء، والخروج عن عهدة الفطر. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥) علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك، لا يهتدي إلى تبينه إلا النقاب من علماء البيان" (٢).

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٥٤/١).

(٢) الكشف (٢٢٨/١)، وانظر: الدر المصون (٢/ ٢٨٦)، البحر المحيط في التفسير (٢٠٢/٢).



وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «الشهر تسع وعشرون ليلة، فلا تصوموا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين»^(١).

وعن محمد بن زياد، قال: سمعت أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أو قال: قال أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمِّيَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»^(٢).

وعن عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا البختري، قال: أهللنا رمضان ونحن بذات عرق، فأرسلنا رجلاً إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يسأله، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله قد أمدّه لرؤيته، فإن أُغْمِيَ عليكم فأكملوا العدة»^(٣). وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] فإن النسيء - هذا - تأخير الشيء، وكانوا يحرمون القتال في المحرم فإذا عزموا على أن يقاتلوا فيه جعلوا صفرًا كالمحرم، وقاتلوا في المحرم وأبدلوا صفرًا منه، فأعلم الله عَزَّجَلَّ أن ذلك زيادة في الكفر. ﴿لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، فيجعلوا صفرًا كالمحرم في العدة، ويقولوا: إن هذه أربعة بمنزلة أربعة. والمواطأة المماثلة والاتفاق على الشيء. قاله الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ^(٤).

(١) صحيح البخاري [١٩٠٧].

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٩]. و«غُمِّي» بضم المعجمة وكسر الموحدة المشددة. وفي نسخة: «غُمِّي»، كعلم، وفي أخرى: «أُغْمِيَ»، وفي أخرى: «غُمَّ». انظر: منحة الباري (٤/٣٤٩-٤٥٠). و«غمي» من الغباوة، وهي عدم الفطنة. يقال: غمي علي إذا لم تعرفه، وهي هنا استعارة لخفاء الهلال.

(٣) صحيح مسلم [١٠٨٨].

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/٤٤٧).

وأما عدة المرأة فهي مدة شرعها الله عَزَّجَلَّ بعد طلاق أو وفاة زوجها.
والْعِدَّةُ في اللغة: الإحصاء، يقال: عددت الشيء، أي: أحصيته، وتطلق أيضاً
على المعدود.

وسميت بذلك؛ لاشتغالها على العدد من الأقراء أو الأشهر غالباً، فعدة المرأة المطلقة
والمتوفى عنها زوجها هي ما تعده من أيام أفرائها، أو أيام حملها، أو أربعة أشهر وعشر
ليال.

وقيل: تربصها المدة الواجبة عليها.

وجمع العدة: عدد، كسدره، وسدر.

وقيل: هي في الشرع: اسم لمدة تتربص فيها المرأة؛ لمعرفة براءة رحمها، أو للتعبد، أو
لتفجعها على زوجها (١).

وقيل: هي شرعاً: تربصٌ يلزم المرأة عند زوال النكاح أو شبهته، وسمي التربص عدة؛
لأن المرأة تحصي الأيام المضروبة عليها، وتنتظر الفرج الموعود لها.

وقيل: العدة في الشرع: تربص يلزم المرأة عند زوال النكاح المتأكد بالدخول أو ما
يقوم مقامه من الخلوة والموت. قال ابن الهمام رَحِمَهُ اللهُ: "وينبغي أن يزداد: وشبهته - بالجر -
عطفًا على النكاح" (٢).

(١) انظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٣/٣٨٩)، فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب (٢/١٢٦)،

الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢/٤٦٥)، مغني المحتاج (٥/٧٨)، الغرر البهية (٤/٣٤٣).

(٢) فتح القدير، للكمال بن الهمام (٤/٣٠٧).

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: "فكأنهم أرادوا بالنكاح حقيقته وحكمه، ومن المعلوم أن الطلاق قبل الدخول لا تجب فيه العدة؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]" (١).

والعلاقة بين التربص والعدة أن التربص ظرف للعدة فإذا انتهت العدة انتهى التربص، وأنه يوجد في العدة وفي غيرها، فهو أعم من العدة، فكل عدة تربص، وليس كل تربص عدة.

ومن المسائل ذات الصلة بالعدة: الإحداد، وهو لغة: المنع، ومنه: امتناع المرأة عن الزينة وما في معناها؛ إظهاراً للحزن والأسف.

وفي الاصطلاح: هو امتناع المرأة عن الزينة وما في معناها مدة مخصوصة في أحوال مخصوصة، ومنه امتناع المرأة من البيوتة في غير منزلها.

والعلاقة بين العدة والإحداد: أن العدة ظرف للإحداد، ففي العدة تترك المرأة زينتها لموت زوجها.

وتجب العدة على المرأة بالفرقة بين الزوجين بعد الدخول بسبب الطلاق أو الموت أو الفسخ أو اللعان، كما تجب بالموت قبل الدخول وبعد عقد النكاح الصحيح.

وأما الخلوة فقد اختلف الفقهاء في وجوب العدة بها.

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]. فقد قال الفقهاء: الطلاق السني: هو طلاق المرأة في غير طهر جامعها

(١) مرقاة المفاتيح (٢١٧٥/٥)، وانظر: تبين الحقائق شرح كنز الدقائق مع حاشية الشلبي (٢٦/٣)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (١٣٨/٤)، اللباب في شرح الكتاب (٨٠/٣)، الجوهرة النيرة (٧٣/٢)، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (٤٦٤/١)، رد المحتار على الدر المختار (٥٠٢/٣).



فيه، وليست حاملاً، ولا آيسة، ولا صغيرة. والطلاق البدعي: هو طلاق المرأة المدخول بها في الحيض، أو في النفاس، أو في طهر جامعها فيه ولم يتبين حملها.

وقال الزجاج رحمه الله: "قوله جَلَّوَعًا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: هذا خطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون داخلون معه في الخطاب. ومعناه: إن أردتم الطلاق كما قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦] معناه: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

وقوله جَلَّوَعًا: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، فطلاق السنة المجمع عليه في قول مالك رحمه الله: أن يطلق الرجل امرأته طاهرًا من غير جماع تطليقة واحدة، ثم يتركها إذا أراد المقام على فراقها ثلاث حيض، فإذا طعنت في الحيضة الثالثة فلا يملك رجعتها، ولكن إن شاء وشاءت أن يجدا نكاحًا جديدًا كان ذلك لهما.

وقال أهل العراق: إن طلقها طاهرًا من غير جماع ثم أوقع عند كل حيضة تطليقة فهو أيضًا عندهم طلاق السنة، وأن فعل ما قال مالك رحمه الله فهو عندهم سنة أيضًا. وقال الشافعي رحمه الله: إذا طلقها طاهرًا من غير جماع فهو مطلق للسنة أيضًا طلق واحدة أو ثلاثًا، وهذا يسقط معه إذا كان ثلاثًا.. " (١).

وقد بسط الفقهاء القول في ذلك.

وقد أوجب الله عز وجل السكنى حتى تنقضي العدة. قال الله عز وجل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَاسْتَزِضْ لَهُنَّ أُخْرَى ۖ﴾ [الطلاق: ٦].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٨٣/٥-١٨٤).

والسكنى والنفقة على الزوج إذا طلق طلاق السنة إلى أن تأتي ثلاث حيضٍ، فإذا أبَتَّ الطلاق قبل انقضاء العدة فعليه النفقة والسكنى في قول أهل العراق، وعليه السكنى في مذهب مالك والشافعي رَحِمَهُمَا اللَّهُ، فأما الحامل فعليه النفقة لها، كما في نص الآية (١). والعدة تختلف بحسب حال المرأة، فإن كانت المرأة الحامل فعدتها تكون بوضع حملها، سواء كانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأُولَئِ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

وعدة المتوفى عنها زوجها غير الحامل أربعة أشهر وعشرًا، كما هو نص الآية في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وهو يعم من تحيض ومن لا تحيض، والشابة والكبيرة في السن. وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عدة المطلقة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فالمرأة المطلقة إذا كانت غير حامل وهي من ذوات الحيض فعدتها ثلاث حيض كاملة بعد الطلاق في مذهب الحنفية والحنابلة. بمعنى: أن يأتيها الحيض وتطهر، ثم يأتيها وتطهر، ثم يأتيها وتطهر، هذه ثلاث حيض كاملة سواء طال المدة بينهن أم لم تطل، وزهد المالكية والشافعية إلى أن الأقراء هي: الأطهار.

أما التي لا تحيض إما لصغرها أو لكبرها قد أيسر منه، وانقطع عنها فهذه عدتها ثلاثة أشهر؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّتِي يَيْسَرُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبَتْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ [الطلاق: ٤].

وقد بسط الفقهاء القول في ذلك.

ولا علاقة للعدة بكون زوجك عقيماً أو غير عقيم.

(١) المصدر السابق (١٨٦/٥).



والحاصل أن العدة مدة من الزمن شرعها الله عَزَّجَلَّ بعد الطلاق وبعد الوفاة، ولها أحكام مبسطة في مظانها.

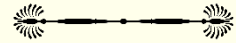
والعدة مدة شرعها الله عَزَّجَلَّ لحكم كثيرة، منها:
منها: براءة الرحم؛ لئلا تشته الأنساب.

ومنها: ترك فسحة من الزمن للزوجين لعودة الحياة الزوجية بينهما.

ومنها: التنبيه على مكانة عقد النكاح، فهو ميثاق غليظ بين الزوجين لا تنقض عراه إلا عند تعسر الحياة بين الزوجين، ومن خلال إجراءات وأحكام ولبث لوقت طويل للمراجعة والنظر، وفتح المجال للإصلاح إن كان ثمة رجوع، أو معالجة لذلك الصدع بينهما.

ومنها: إظهار الوفاء والحرمة للميت؛ إذ لا تسارع المرأة إلى الزواج من غيره.
إلى غير ذلك.

عكف :



قال في (العين): "يقال: عَكَفَ يَعْكَفُ وَيَعْكُفُ عَكَفًا وَعُكُوفًا، وهو إقبالك على الشيء لا تصرف عنه وجهك. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، أي: يواظبون على عبادتها ويلازموها.

وقرىء: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ بضم الكاف وكسرهما. ولو قيل: عكف في المسجد لكان صوابًا، ولكن يقولون: اعتكف. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]" (١).

(١) العين، مادة: (عكف) (١/٢٠٥-٢٠٦)، بتصرف يسير.



وَعَكَفَهُ، أي: حبسه ووقفه، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: محبوسًا. ويقال: ما عَكَفَكَ عن كذا. ومنه: الاعتِكَافُ في المسجد، وهو الاحتباس...^(١).
وقيل: الاعتِكَافُ افتعال من عَكَف: إذا دام، وعَكَفَهُ: حبسه فهو في اللغة: اللبث والدَّوام.

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "العُكُوفُ: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التَّعْظِيم له.

والاعتِكَافُ في الشَّرْع: هو الاحتباس في المسجد على سبيل القرية.
ويقال: عَكَفْتُهُ على كذا، أي: حبسته عليه، لذلك قال: ﴿سَوَاءٌ أَلْعَكِيفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥].

﴿وَالْعَكِيفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥].

﴿فَنَظَّلْ لَهَا عَكِيفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

﴿ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧].

﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: محبوسًا ممنوعًا^(٢).

والاعتِكَافُ في الشَّرْع - كما عرفه الراغب رَحِمَهُ اللهُ -: هو الاحتباس في المسجد على سبيل القرية.

(١) انظر: الصحاح، مادة: (عَكَف) (٤/١٤٠٦).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عَكَف) (ص: ٥٧٩).



وقيل: هو لبث رجل في مسجد جماعة بنية العبادة، واختلف في لبث المرأة في بيتها بنيتها، كما اختلف في اعتكافها في مسجد جماعة.

والمراد بمسجد الجماعة: ما يقوم فيه جماعة ولو مرة في يوم.

وقيل: لا يصح إلا فيما تقوم فيه خمس مرات.

والاعتكاف لزوم المسجد بقصد الطاعة، ولأجل التفرغ للعبادة، ويكون في الليل أو في النهار، ساعة أو يومًا، أو ليلة أو أيامًا أو ليالي.

أما حكم الاعتكاف فإنه واجب في المنذور، وسنة في العشر الأخير من رمضان، ومستحب فيما سواه.

وقيل: هو سنة مؤكدة مطلقًا.

وأما الصوم فشرط في الواجب لا المستحب.

وقيل: للمستحب أيضًا.

وقد ذهب الحنفية والحنابلة إلى أنه لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد جماعة.

وعن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: أنه لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد تقام فيه الصلوات الخمس؛ لأن الاعتكاف عبادة انتظار الصلاة، فيختص بمكان يصلى فيه، وصححه بعضهم.

وقال أبو يوسف ومحمد رَحِمَهُمَا اللهُ: يصح في كل مسجد.

وعن أبي يوسف رَحِمَهُ اللهُ أنه فرق بين الاعتكاف الواجب والمسنون، فاشتراط

للاعتكاف الواجب مسجد الجماعة، وأما النفل فيجوز في أي مسجد كان.

وبعني الحنفية بمسجد الجماعة: ما له إمام ومؤذن، أدت فيه الصلوات الخمس أو

لا.

واشترط الحنابلة لصحة الاعتكاف في المسجد: أن تقام الجماعة في زمن الاعتكاف الذي هو فيه، ولا يضر عدم إقامتها في الوقت الذي لا يعتكف فيه، وخرج من ذلك المرأة، والمعذور، والصبي، ومن هو في قرية لا يصلي فيها غيره؛ لأن الممنوع ترك الجماعة الواجبة، وهي منتفية هنا.

والمذهب عند المالكية والشافعية: أنه يصح الاعتكاف في أي مسجد كان. واختلفوا في مكان اعتكاف المرأة - كما تقدم - : فذهب الجمهور، والشافعي رَحِمَهُمُ اللَّهُ في المذهب الجديد إلى أنها كالرجل لا يصح اعتكافها إلا في المسجد، وعلى هذا فلا يصح اعتكافها في مسجد بيتها.

وفي القديم للشافعي رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أنه يصح اعتكاف المرأة في مسجد بيتها؛ لأنه مكان صلاحها. قال النووي رَحِمَهُمُ اللَّهُ: قد أنكر القاضي أبو الطيب رَحِمَهُمُ اللَّهُ وجماعة هذا القديم. وقالوا: لا يجوز في مسجد بيتها قولاً واحداً، وغلطوا من قال: فيه قولان^(١).

قال محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُمُ اللَّهُ: "وبلغنا عن حذيفة رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لا اعتكاف إلا في مسجد جماعة، وليس ينبغي للمعتكف أن يخرج من المسجد لحاجة، ما خلا الجمعة، والغائط، والبول، فأما عيادة المريض، وشهادة الجنازة، فليس ينبغي له أن يخرج لذلك، وكذلك ما سوى ذلك من الحوائج، فإن خرج لجمعة، أو غائط، أو بول، فدخل بيتاً أو مر فيه فلا بأس بذلك، ولا يفسد ذلك اعتكافه، وليس ينبغي له أن يمكث في منزله بعد فراغه من الوضوء وليس ينبغي له أن يمكث بعد الجمعة. قال: ولا تعتكف المرأة إلا في مسجد بيتها، ولا تعتكف في مسجد جماعة"^(٢).

(١) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (٣٩٨/٢).

(٢) انظر: الأصل المعروف بالمبسوط، لمحمد بن الحسن (٢٧١/٢-٢٧٤)، وانظر: المبسوط لشمس الأئمة

السرخسي (١١٥/٣).

وقال: الكاساني رَحِمَهُ اللهُ: "وروى الحسن رَحِمَهُ اللهُ عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: أن للمرأة أن تعتكف في مسجد الجماعة، وإن شاءت اعتكفت في مسجد بيتها، ومسجد بيتها أفضل لها من مسجد حيها ومسجد حيها أفضل لها من المسجد الأعظم، وهذا لا يوجب اختلاف الروايات، بل يجوز اعتكافها في مسجد الجماعة على الروایتين جميعاً بلا خلاف بين أصحابنا، والمذكور في الأصل محمول على نفي الفضيلة لا على نفي الجواز؛ توفيقاً بين الروایتين، وهذا عندنا.

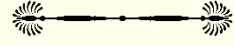
وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: لا يجوز اعتكافها في مسجد بيتها وجّه قوله: أن الاعتكاف قرينة خصت بالمساجد بالنص، ومسجد بيتها ليس بمسجد حقيقة، بل هو اسم للمكان المعد للصلاة في حقها حتى لا يثبت له شيء من أحكام المسجد، فلا يجوز إقامة هذه القرينة فيه، ونحن نقول: بل هذه قرينة خصت بالمسجد، لكن مسجد بيتها له حكم المسجد في حقها في حق الاعتكاف؛ لأن له حكم المسجد في حقها في حق الصلاة لحاجتها إلى إحراز فضيلة الجماعة، فأعطي له حكم مسجد الجماعة في حقها، حتى كانت صلاتها في بيتها أفضل. وإذا كان له حكم المسجد في حقها في حق الصلاة فكذلك في حق الاعتكاف؛ لأن كل واحد منهما في اختصاصه بالمسجد سواء وليس لها أن تعتكف في بيتها في غير مسجد وهو الموضع المعد للصلاة؛ لأنه ليس لغير ذلك الموضع من بيتها حكم المسجد، فلا يجوز اعتكافها فيه" (١).

وقد اختلف الفقهاء في مقدار البث المجزئ في الاعتكاف المسنون.
وينظر ذلك كله في مظانه من كتب الفقه.

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١١٣/٢)، وانظر: درر الحکام (٢١٢/١).



عمر :



قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُودُ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْجَاهٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا يُعْمَرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [التوبة: ١٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ [يونس: ١٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠].

وقال جلَّ وعلا: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِمَّنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [الفصص: ٤٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨].

وعَمِرَ الرجل بالكسر يَعْمُرُ عَمْرًا وَعُمُرًا على غير قياس؛ لأنَّ قياس مصدره التحريك، أي: عاش زمانًا طويلاً. ومنه قولهم: أطال الله عُمُرَكَ وَعَمْرَكَ. وهما وإن كانا مصدرين بمعنى، إلا أنه استعمل في القسم أحدهما، وهو المفتوح، فإذا أدخلت عليه اللام رفعته بالابتداء قلت: لعمر الله، واللام لتوكيد الابتداء، والخبر محذوف، والتقدير: لَعَمْرُ اللَّهِ قَسَمِي، وَلَعَمْرُ اللَّهِ مَا أَقْسِمُ بِهِ. فإن لم تأت باللام نصبته نصب المصادر، وقلت: عَمَرَ اللَّهُ مَا فَعَلْتُ كَذَا، وَعَمْرَكَ اللَّهُ مَا فَعَلْتُ كَذَا. ومعنى لعمر الله وعمر الله: أحلف ببقاء الله عَزَّجَلَّ ودوامه. وإذا قلت: عَمْرَكَ اللَّهُ، فكأنك قلت: بتعميرك الله، أي: بإقرارك له بالبقاء.

والعمره في الحج، وأصلها من الزيارة، والجمع: العُمُرُ. وعَمَرْتُ الخرابَ أَعَمَرْتُهُ عِمَارَةً، فهو عامِرٌ، أي: مَعْمُورٌ، مثل: ماءٍ دافِقٍ، أي: مدفوقٍ، وعيشةٍ راضيةٍ، أي: مرضية. ومكانٌ عَمِيرٌ أي: عامِرٌ. وَأَعَمَرَهُ دَارًا أو أَرْضًا أو إِبْلًا: أعطاه إيَّاهَا، وقال: هي لَكَ عُمْرِي أو عُمْرَكَ فإذا مِتَّ رَجَعْتَ إِلَيَّ، والاسم: العُمْرَى. واعْتَمَرَهُ زَارَهُ. وَقَوْلُهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، أي: جعلكم عُمَارَهَا. وَعَمَرَهُ اللَّهُ تَعْمِيرًا: طَوَّلَ عُمُرَهُ. وَعُمَارُ الْبُيُوتِ: سُكَّانُهَا مِنَ الْجِنِّ. وَالْعُمَرَانُ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقال قتادة: هما: عمر بن الْخَطَّابُ وعمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(١).

ويجب حذف الخبر بعد القسم الصريح، نحو: ﴿لَعَمْرَكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ

﴿٧٢﴾ [الحجر: ٧٢]، أي: لعمرك يميني، أو قسمي.

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عمر) (٧٥٦/٢ - ٧٥٩).

وقد تقدم بيان القسم بالعمر مفصلاً في (دلالات القسم بالزمن).
وقد وبَّخَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الكُفَّارَ؛ لتفريطهم وإضاعتهم أعمارهم في الانغماس في ظلمات الكفر والغفلة والإعراض فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

فجعل جَلَّوَعَلَا التعمير موجباً للتذكر والاستبصار، وقاطعاً للأعذار.
وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: "اعلموا أَنَّ طُولَ الْعُمُرِ حُجَّةٌ، فنعوذ بالله عَزَّوَجَلَّ أَنْ نُعَيَّرَ بِطُولِ الْعُمُرِ" (١).
قال في (الكشاف): "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: ٣٧] توبيخ من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتناول أعظم" (٢).

عَيْش :

العَيْشُ: الحياة. والمعيشة: التي يعيش بها الإنسان من المطعم والمشرب، والعيشة: ضربٌ من العيش، مثل: الجلسة، والمشية، وكل شيء يعاش به أو فيه فهو معاش، النهار معاش، والأرض معاش للخلق يلتمسون فيها معاشهم (٣).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٠/٣١٨٥)، الدر المنثور (٧/٣١-٣١)، تفسير ابن كثير (٦/٥٥٣).

(٢) الكشاف (٣/٦١٥).

(٣) العين، مادة: (عيش) (٢/١٨٩).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "العَيْشُ: الحياة. وقد عاشَ الرجلَ مَعَاشًا وَمَعِيشًا. وكلُّ واحدٍ منهما يصلح أن يكون مصدرًا، وأن يكون اسمًا، مثل: مَعَابٍ وَمَعِيبٍ، وَمَمَالٍ وَمُمِيلٍ. وأعاشه الله عَزَّجَلَّ عَيْشَةً راضيةً.

والمعيشةُ جمعها: معايشُ بلا همز، إذا جمعتها على الأصل. وأصلها مَعِيشَةٌ، وتقديرها مفعلة، والياء أصلية متحركة، فلا تنقلب في الجمع همزة. وكذلك: مُكَائِلٌ وَمُبَايِعٌ ونحوها. وإن جمعتها على الفرع هَمَزَتْ وَشَبَّهَتْ مَفْعَلَةً بِفَعِيلَةٍ كما هَمَزَتْ المصائب؛ لأن الياء ساكنة. وفي النحويين من يرى الهمز لحنا. والتعيش: تكلف أسباب المعيشة. وعائشة مهموز، ولا تقل: عيشة. وبنو عايش: قوم من العرب. ولا يقال: بنو عيش" (١).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "العَيْشُ: الحياة المختصة بالحيوان، وهو أخصُّ من الحياة، لأنَّ الحياة تقال في الحيوان، وفي البارئ جَلَّوَعَلَا، وفي المَلَك، ويشتقُّ منه: المَعِيشَةُ لما يُتَعَيَّشُ منه. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، ﴿مَعِيشَةً صَنَعْنَا﴾ [طه: ١٢٤]، ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ [الأعراف: ١٠]، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ [الحجر: ٢٠].

وقال في أهل الجنة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢) [الحاقة: ٢١]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ» (٣)، أي: لا عيش باق، أو لا عيش مطلوب إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ؛ فهو العيش النافع للعبد في حاله ومآله، وما سواه ظل زائل، وحال حائل.

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (عيش) (١٠١٢/٣-١٠١٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عيش) (ص: ٥٩٦). والحديث في (الصحيحين): عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانت الأنصار يوم الخندق تقول: (نحن الذين بايعوا محمداً*** على الجهاد ما حينئذ أبداً)، فأجابهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة*** فأكرم الأنصار والمهاجرة» وفي رواية: «فأصلح الأنصار»، وفي أخرى: «فاغفر للأنصار والمهاجرة». انظر: صحيح البخاري [٢٩٦١، ٣٧٩٥=



قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].
 قال العلامة الطيبي رحمه الله: "وفيه أن لا عيش ألد وأمرأ وأشهي وأهنأ مما يجد العبد من طاعة ربه عزَّ وجلَّ، ويستروح إليها، حتى يرفع تكاليفها ومشاقها عنه، بل إذا فقدتها كان أصعب عليه مما إذا وُتِرَ أهلُه وماله^(١)، وإليه ينظر قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أرحنا يا بلال»^(٢)، وقوله: «وجعل قرّة عيني في الصلاة»^(٣)، وتعرض بدم عيش الدنيا؛ لما ورد: «تعس عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد الخميصة»^(٤)، إلى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله عزَّ وجلَّ» الحديث^(٥) " (٦).

= [٣٧٩٦، ٦٤١٣]، مسلم [١٨٠٥]. كما رواه سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالْفَاظِ مُقَارِبَةً. انظر: صحيح البخاري [٣٧٩٧، ٤٠٩٨، ٦٤١٤]، مسلم [١٨٠٤]
 (١) جاء في (الصحيح): عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الذي تفوته صلاة العصر، كأنما وُتِرَ أهلُه وماله» قال أبو عبد الله: «يَتَرَكُمُ» [محمد: ٣٥] «وَتَرْتُ الرجل: إذا قتلت له قتيلاً أو أخذت له مالاً» صحيح البخاري [٥٥٢]، مسلم [٦٢٦]. وقوله: «وتر»، أي: سلب وترك بلا أهل ولا مال.

(٢) قال في (الكشف): "رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رجل: ليتني صليت فاسترحت، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها». ولأبي داود عن محمد بن الحنفية أنه قال: انطلقت أنا وأبي إلى صهر لنا في الأنصار نعوذه فحضرت الصلاة فقال لبعض أهلهم: يا جارية: اتتوني بوضوء لعلني أصلي فأستريح، قال: فأنكرنا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة» كشف الخفاء [٣١٢]. والحديث له أطراف كثيرة.
 (٣) أخرجه أحمد [١٢٢٩٣]، والنسائي [٣٩٣٩]، وأبو يعلى [٣٤٨٢]، والطبراني في (الأوسط) [٥٢٠٣]، و(الصغير) [٧٤١]، والحاكم [٢٦٧٦]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً: البيهقي [١٣٤٥٤]، كلهم عن أنس. كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٠١٢] عن المغيرة.

(٤) صحيح البخاري [٢٨٨٦، ٢٨٨٧].

(٥) صحيح البخاري [٢٨٨٧].

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢٦٣٠/٨).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي: ذات رضا، كقولهم: ليل نائم، وهم ناصب، أي: ينام فيه وينصب، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُبَوِّأُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحریم: ٨]، أي: ينصح فيها.

وقد اختلف النظر في نحو: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بمعنى: مرضية على التجوز في الكلمة نفسها أو في إسنادها. فيكون مجاز عقلياً في الإسناد، أو لغوياً بجعل اسم الفاعل بمعنى: اسم المفعول. ومما جاء فيه فاعل بمعنى: مفعول قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، بمعنى: مدفوق، كما جاء مفعول بمعنى: فاعل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، أي: ساتراً.

قال أبو عبيدة والفراء رَحِمَهُمَا اللَّهُ: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية^(١).

وحاصل ما قيل في ذلك: إن وصف العيشة بأنها راضية مجاز عقلي؛ لملازمة العيشة حالة صاحبها، وهو العائش، ملازمة الصفة لموصوفها.

أي: يرضى بها صاحبها. والراضي: هو صاحب العيشة لا العيشة، وذلك من قبيل الإسناد مجازي، أي: راض صاحبها بها، فهو مجاز عقلي^(٢)؛ لأن راضية اسم فاعل: (رضيت) إذا حصل لها الرضى، وهو الفرح والغبطة.

(١) قال أبو عبيدة: "إن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل، والمعنى: أنه مفعول، لأنه ظرف يفعل فيه غيره نحو: ﴿فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها" مجاز القرآن (٢٧٩/١). فقوله: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ مجاز مرضية، فخرج مخرج لفظ صفتها، والعرب تفعل ذلك إذا كان من السبب في شيء. يقال: نام ليله، وإنما ينام هو فيه" مجاز القرآن (٢٦٨/٢)، وانظر: معاني القرآن، للفراء (١٦/٢)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥٤/٣).

(٢) فمن المجاز العقلي: ما يلائم الفاعل، نحو قولك: (سيل مفعم) - بفتح العين - أي: مملوء، فإسناد (مفعم) وهو مبني للمفعول إلى ضمير السيل، وهو فاعل: مجاز عقلي؛ ملازمته الفاعلية، ويلائم المفعول به؛ لوقوعه =

والعيشة ليست راضية، ولكنها لحسنها رضي صاحبها، فوصفها بـ: ﴿رَاضِيَةٍ﴾^(١) من إسناد الوصف إلى غير ما هو له، وهو من المبالغة؛ لأنه يدل على شدة الرضى بسببها حتى سرى إليها؛ ولذلك الاعتبار أرجع السكاكي رَحِمَهُ اللَّهُ ما يسمى بالمجاز العقلي إلى الاستعارة المكنية^(٢).

و"قال غير واحد: ﴿رَاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضى، على أنه من باب النسبة بالصيغة كلابن وتامر^(٣)، ومعنى (ذات رضى): ملتبسة بالرضا، فيكون بمعنى: (مرضية) أيضًا^(٤). وأورد عليه أن ما أريد به النسبة لا يؤنث، كما صرح به الرضي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره، وهو هنا مؤنث، فلا يصح هذا التأويل إلا أن يقال: التاء فيه للمبالغة^(٥)، وفيه بحث. وقال بعض المحققين: الحق أن مرادهم أن ما قصد به النسبة لا يلزم تأنيثه وإن جاء فيه على خلاف

= عليه نحو: ﴿عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾^(٦)، فإسناد ﴿رَاضِيَةٍ﴾^(٧) وهو مبني للفاعل إلى ضمير (العيشة)، وهي مفعول به (مجاز عقلي) ملابسته المفعولية... إلى غير ذلك مما تقدم بيانه.

(١) التحرير والتنوير (١٣٢/٢٩-١٣٣)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٢٣٧/٨)، روح المعاني (٥٤/١٥).

(٢) (التامر): الذي عنده التمر. يقال: رجل تامر لابن، أي: ذو تمر ولبن. الصحاح، للجوهري، مادة: (تمر) (٦٠١/٢).

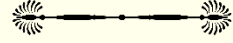
(٣) فلا مجاز في النسبة ولا في الكلمة، فحينئذ (التاء) فيه للمبالغة لا للتأنيث، أو يقال: إن ما قصد به النسبة لا يلزم تأنيثه لأنه لا يجوز تأنيثه.

(٤) تكون التاء في نحو قولك: (فلان راوية للحديث) للمبالغة، وليست لتوكيد المبالغة؛ لأن (راوي) ليست من أوزان المبالغة، ولكنك إذا قلت: (فلان علامة) فإن التاء فيه لتوكيد المبالغة؛ لأن (علامة) على وزن (فَعَال) من صيغ المبالغة، والمبالغة موجودة من غير التاء. ويحول اسم الفاعل عند قصد المبالغة إلى فَعَال، أو مَفْعَال، أو فَعُول، أو فَعِيل، أو فَعِل، وتسمى هذه الخمسة أمثلة المبالغة، فيعملن عمله بشروط، وهذه الصيغ سماعية. قال ابن مالك في (الألفية) (ص: ٣٩): (فَعَال أو مَفْعَال أو فَعُول*** في كثرة عن فاعل بديل)، (فيستحق ماله من عمل*** وفي فَعِيلٍ قلَّ ذا وفَعِل).

الأصل الغالب أحياناً. والمشهور حمل ما ذكر على أنه مجاز في الإسناد، والأصل: في عيشة راض صاحبها، فأسند الرضا إليها، لجعلها، لخلوصها دائماً عن الشوائب كأنها نفسها راضية.

وجوز أن يكون فيه استعارة مكنية وتخييلية^(١)، كما فصل في (المطول)^(٢). وعلى الأخير يكون المجاز في الكلمة لا في الإسناد. وقد فصلت القول في هذه المسألة في الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

فترة :



الأصل في الفترة: الضعف والسكون. يقال: فتر فلان يفتر فتوراً: إذا سكن عن حدثه، ولان بعد شدته، وطَرَفَ فاتِرٌ: فيه فتور وسُجُوٌ ليس بحاد النظر^(٣)، ويجد في جسده فِتْرَةً، أي: ضَعْفًا^(٤).

(١) روح المعاني (٥٤/١٥)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٩٢/٨)، حاشية القونوي على البيضاوي (٥٦/٢٠ - ٥٧)، (٢٠١/٢٠).

(٢) انظر: المطول، للعلامة السعد (ص: ٦٥-٦٧).

(٣) (السجوا) السين والجيم والواو أصل يدل على سكون وإطباق. يقال سجا الليل: إذا ادلهم وسكن. وسجا البحر وأسجى: إذا سكن، وسجا الليل وغيره يسجو سَجْواً وسَجْواً: سكن ودام، وليلة ساجية: إذا كانت ساكنة البرد والرياح والسحاب غير مظلمة. وسجا البحر سَجْواً: سكن متوجّه.

(٤) انظر: العين (١١٤/٨)، تهذيب اللغة (١٩٣/١٤).

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: "الطَّرْفُ الْفَاتِرُ: الذي ليس بجديدٍ شَزَرَ. وَفَتَّرْتُ الشَّيْءَ وَأَفَتَّرْتُهُ. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥]، أي: لا يُضَعَفُ. ومِمَّا شَدَّ عَنْ هَذَا الباب: الْفِتْرُ: ما بين طَرْفِ الْإِهْمامِ وَطَرْفِ السَّبَّابةِ إِذَا فَتَحْتَهُمَا" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الْفِتْرَةُ: الانكسارُ والضعفُ. وقد فَتَرَ الْحُرُّ وَغَيْرُهُ يَفْتِرُ فَتُورًا، وَفَتَّرَهُ اللهُ تَفْتِيرًا. (الفترة) ما بين الرسولين من رسل الله عَزَّجَلَّ" (٢)، من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة. ومنه: فترة ما بين عيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- (٣). قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، أي: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال كونه على فترة، أو حال كونكم على فترة. و﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ صفة فَتْرَةٍ، و﴿مِّن﴾ ابتدائية، أي: فترة كائنة من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مبتدأة من جهتهم.

و(الفترة): الفعلة، من قول القائل: فتر هذا الأمر يفتر فُتُورًا، وذلك إذا هداً وسكن. وكذلك (الفترة) في هذا الموضع، معناها: السكون، يراد به سكون مجيء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وذلك انقطاعها.. (٤).

فهي عند جميع المفسرين انقطاع ما بين الرسولين.

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: (فتر) (٤/٤٧٠).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (فتر) (٢/٧٧٧)، معجم ديوان الأدب (١/١٣٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٤٠٨).

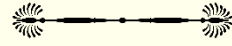
(٤) انظر: روح المعاني (٣/٢٧٤)، تفسير الطبري (١٠/١٥٦).

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بعد انقطاع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانت إلى وقت رفع الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَتْرَى، أي: متواترة، يجيء بعضها في إثر بعض" (١).

وقال الله عَزَّجَلَّ في بيان حكم من لم تبلغه الدعوة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، أي: وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم (٢).

وقد حدّث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن فترة الوحي، كما جاء بيان ذلك مفصلاً في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن). وكان الوحي قد جاء ثم انقطع.

قرن :



قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْقَرْنُ لِلثَّوَرِ وَغَيْرِهِ. وَالْقَرْنُ: الْخُصْلَةُ مِنَ الشَّعْرِ، وَيُقَالُ: لِلْمَرْأَةِ قَرْنَانِ، أي: صَفِيرَتَانِ. وَذَوِ الْقَرْنَيْنِ لَقَبٌ إِسْكَندَرَ الرُّومِيَّ. وَالْقَرْنُ: ثَمَانُونَ سَنَةً، وَيُقَالُ: ثَلَاثُونَ سَنَةً. وَالْقَرْنُ: مِثْلُكَ فِي السِّنِّ تَقُولُ: هُوَ عَلَى قَرْنِي، أي: عَلَى سِنِّي.

وَالْقَرْنُ فِي النَّاسِ: أَهْلُ زَمَانٍ وَاحِدٍ.

قال الشاعر:

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ

(١) معاني القرآن وإعرابه (١٦٢/٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٠٢/١٧).

وَالْقَرْنُ: قَرْنُ الْهُودَجِ. وَالْقَرْنُ: جَانِبُ الرَّأْسِ.

ويقال: منه سَمِي ذُو الْقَرْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنَيْهِ.

و(قَرْنُ) الشَّمْسِ: أَعْلَاهَا، وَأَوَّلُ مَا يَبْدُو مِنْهَا فِي الطُّلُوعِ.

وَالْقَرْنُ - بِالتَّحْرِيكِ -: مَوْضِعٌ، وَهُوَ مِيقَاتُ أَهْلِ نَجْدٍ ^(١).

وقرنت الشيء بالشيء: وصلته به، فالاقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين، أو أشياء في معنى من المعاني. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ الْمُقَرَّنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]. يقال: قرنت البعير بالبعير: جمعت بينهما، ويسمى الحبل الذي يشد به: قرناً، وشُدَّ للكثرة، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨]. قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه قرون. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [يونس: ١٣]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ [الإسراء: ١٧]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤]، وقال: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢]. والقرون: النفس لكونها مقترنة بالجسم، والقرون من البعير: الذي يضع رجله موضع يده، كأنه يقرنها بها، والقرن: الجعبة، ولا يقال لها قرن إلا إذا قرنت بالقوس، وناقاة قرون: إذا دنا أحد خلفيها من الآخر، والقران: الجمع بين الحج والعمرة، ويستعمل في الجمع بين الشيئين. وقرن الشاة والبقرة، والقرن: عظم القرن، وكبش أقرن، وشاة قرناء، وقرن الجبل: الناتئ منه، وقرن المرأة: ذؤابتها، وقرن الفلاة: حرفها، وقرن الشمس، وقرن الشيطان، كل ذلك تشبيهاً بالقرن" ^(٢).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قرن) (٦/٢١٧٩-٢١٨٢).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (قرن) (ص: ٦٦٧-٦٦٨)، وينظر الفرق بين القرن والقوم في (الفروق

اللغوية)، لأبي هلال العسكري (ص: ٤٢٧-٤٢٨)، وفيما حررناه مقنع.



قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: "القرن أن يكون وفاة الأشياخ وولادة الأطفال، ويظهر ذلك من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]"^(١). قال في (الدر): "فجعله معنى، وليس بواضح. وقيل: القرن: الناس المجتمعون، قَلَّتِ السنين أو كَثُرَتْ، واستدلوا بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خير الناس قرني»^(٢).

ويقول الشاعر:

نَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ ... فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِيَّةِ ...

ويقوله:

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَحُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ^(٤)

وقال الله عَزَّجَلَّ في مقام الاعتبار بهلاك من هلك من القرون السالفة: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]، أي: مثل قوم نوح، وعاد، وثمود. والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمي.

وقد اتفق العلماء على أن خير القرون قرن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٥).

(١) المحرر الوجيز (٢/٢٦٩).

(٢) صحيح البخاري [٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨، ٦٦٩٥]، مسلم [٢٥٣٣، ٢٥٣٤، ٢٥٣٥، ٢٥٣٦].

(٣) البيت من مجزوء الكامل لقُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ. انظر: لقُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ الإيادي، (حياته، خطبه، شعره)، لأحمد الربيعي (ص: ٣٣٠). وقوله: (بصائر) أي: عبر.

(٤) الدر المصون (٤/٥٤٠)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٤/٤٢٦).

(٥) تقدم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "والمراد بقرن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ" ^(١)، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "القرن -بسكون الراء- من الناس: أهل زمان واحد. قيل: مقدار زمانه: ثمانون سنة، وقيل: ستون، ويعني: أن هذه القرون الثلاثة: أفضل مما بعدها إلى يوم القيامة، وهذه القرون في أنفسها متفاضلة، فأفضلها: الأول، ثم الذي بعده، ثم الذي بعده. هذا ظاهر الحديث. فأما أفضلية الصحابة، وهم القرن الأول على من بعدهم، فلا تخفى، وأما أفضلية من بعدهم، بعضهم على بعض، فبحسب قربهم من القرن الأول، وبحسب ما ظهر على أيديهم من إعلاء كلمة الدين، ونشر العلم، وفتح الأمصار، وإخماد كلمة الكفر. ولا خفاء: أن الذي كان من ذلك في قرن التابعين كان أكثر وأغلب مما كان في أتباعهم، وكذلك الأمر في الذين بعدهم، ثم بعد هذا غلبت الشرور، وارْتُكِبَتِ الأمور، وقد دلَّ على صحة هذا قوله في حديث: أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]: «يَغْزُو فِتْنًا مِنَ النَّاسِ، فيقال: هل فيكم من صَحْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيقال: نعم، فَيُفْتَحُ لَهُمْ...» الحديث ^(٢). والفئام: الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه، وهو مهموز، والعامة تترك همزه" ^(٣).

(١) فتح الباري (٥/٧ - ٦).

(٢) صحيح البخاري [٢٨٩٧، ٣٦٤٩]، صحيح مسلم [٢٥٣٢].

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤٨٥/٦ - ٤٨٦). قال الإمام النووي: «فئام» بفاء مكسورة ثم همزة، أي: جماعة وحكى القاضي فيه بالياء مخففة بلا همز ولغة أخرى فتح الفاء حكاها عن الخليل، والمشهور الأول، وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفضل الصحابة، والتابعين، وتابعيهم" شرح النووي على صحيح مسلم (٨٣ / ١٦)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٥٦٩/٧).

والحاصل أن القرن: الجماعة من النَّاس، وقيل: مُدَّة من الزمان يكون التقدير على هذا: من أهل قرن، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَّيْلَ الْقَرْيَةِ﴾ [يوسف: ٨٢]. قال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأصح من هذا القول: القرن كل عَامٍّ في عَصْرِهِ؛ لأنه مأخوذ من الاقتران، أي: عَامٌّ مُقْتَرَنٌ بعضهم إلى بعض. وفي الحديث: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خير الناس: القرن الذي أنا فيه» يعني: أصحابه رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، «ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، وأكثر أصحاب الحديث على أن القرن مائة سنة، واحتجوا بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعبد الله بن بُسْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «تعيش قرناً»^(١)، فعاش مائة سنة" (٢).

قال الحافظ أبو نعيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "عبد الله بن بسر أبو صفوان السلمي المازني يكنى: أبا بسر، وقيل: أبو صفوان، آخر من مات بالشام من الصحابة رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وصلى القبلتين، وضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على رأسه، وَبَرَكَ عليه ودعا له، صحب هو وأبوه وأمه وأخوه عطية، وأخته الصَّمَاءُ. توفي سنة ست وتسعين في خلافة سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ، وقيل: سنة ثمان وثمانين، وله مائة سنة. وقيل: أربع وتسعون" (٣).

(١) حديث: «يعيش هذا الغلام قرناً» قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن بسر رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وقد أخرجه: أحمد [١٧٦٨٩]، والطبراني في (الشاميين) [٨٣٦]، قال الهيثمي (٤٠٥/٩): "رواه الطبراني، وأحمد بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب، وهو ثقة، ورجال الطبراني ثقات". وأخرجه أيضاً: الحارث [١٠٣٢]، والبزار [٣٥٠٢]، وابن جرير في التفسير (٤٠٧/١٧)، والحاكم [٤٠١٦]، وتمام [١٩٦]، والضياء في (المختارة) [٧٢]، قال الهيثمي (٤٠٤/٩): "رجال أحد إسنادى البزار رجال الصحيح، غير الحسن بن أيوب الحضرمي، وهو ثقة.

(٢) معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٤٠٠/٢-٤٠١).

(٣) معرفة الصحابة، لأبي نعيم (١٥٩٥/٣).



وقال ابن سعد رَحِمَهُ اللهُ: "توفي عبد الله بن بسر سنة ثمان وثمانين، وهو آخر من مات بالشام من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يوم مات ابن أربع وتسعين سنة" (١).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: "وهو آخر من مات بالشام بجمص من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "مات سنة ثمان وثمانين، وقيل: ست وتسعين، وله مائة سنة، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة" (٣).

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: "عبد الله بن بسر بن أبي بسر، أبو صفوان المازني، الصحابي، المعمر، بركة الشام، أبو صفوان المازني، نزيل حمص. له: أحاديث قليلة، وصحبة يسيرة، ولأخويه عطية والصماء ولأبيهم صحبة.

قال يحيى بن صالح الوحاظي: حدثتنا أم هاشم الطائية، قالت: رأيت عبد الله بن بسر يتوضأ، فخرجت نفسه رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ.

قال الواقدي: مات سنة ثمان وثمانين، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام. قال: وله أربع وتسعون سنة. وكذا أرخه في سنة ثمان وثمانين جماعة. وقال أبو زرعة الدمشقي (٤): مات قبل سنة مائة.

وقال عبد الصمد بن سعيد الحافظ: توفي سنة ست وتسعين.

(١) الطبقات الكبرى (٢٩٠/٧).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٨٧٤/٣).

(٣) تقريب التهذيب (ص: ٢٩٧)، وانظر: تهذيب التهذيب (١٥٨/٥-١٥٩).

(٤) تاريخ أبي زرعة الدمشقي (٦٩٣/٢).

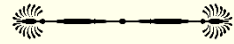
وقال يزيد بن عبد ربه الجرجسي: توفي في إمرة سليمان بن عبد الملك رَحِمَهُ اللهُ. حديثه في الكتب الستة" (١).

وعن صفوان بن عمرو قال: رأيت في جبهة عبد الله بن بسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أثر السجود (٢).

والحاصل أن عبد الله بن بسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان من العُباد الصالحين، وَخُتِمَ له بالحسنى؛ إذ مات وهو يتوضأ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفي جبهته أثر السجود (٣). رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا معه تحت لواء سيد المرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا من الإعجاز الذي أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمر غيبي يقع في مستقبل الزمان، وقد وقع كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعاش رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قرناً من الزمن.

لَبِث :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامًا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ [يونس: ١٦].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥].

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩].

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٤٣١ - ٤٣٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٧/٢٩٠)، تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢٧/١٤٩)، سير أعلام النبلاء (٣/٤٣١)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٢/٩٥١).

(٣) انظر: مشاهير علماء الأمصار (ص: ٩٢)، رجال صحيح مسلم (١/٣٤٤).



- ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].
- ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].
- ﴿وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢].
- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].
- ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف: ٢٥-٢٦].
- ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [طه: ٤٠].
- ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣-١٠٤].
- ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [طه: ١١٢-١١٤].
- ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].
- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥-٥٦].
- ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٥-٥٦].
- ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].
- ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجُنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبا: ١٤].

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٢٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الصفات: ١٤٣-

[١٤٤].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

قال في (العين): "اللَّبْثُ: الْمُكْثُ، وَلَبِثْتُ لَبْثًا. وَاللَّبِثُ: الْبَطِيءُ" ^(١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "اللَّبْثُ: وَاللَّبَاثُ: الْمُكْثُ. وَقَدْ لَبِثْتُ لَبْثًا عَلَى غَيْرِ

قياس؛ لأن المصدر من (فَعِلَ) - بالكسر - قياسه: التحريك إذا لم يتعدَّ، مثل: تَعَبْتُ تَعَبًا.

وقد جاء الشعر على القياس، قال جرير:

وقد أكون على الحاجات ذا لَبِثٍ وَأُحْوَذِيًّا إِذَا انْضَمَّ الدَّعَالِيْبُ ^(٢)
فهو لَابِثٌ وَلَبِثُ.

وَقُرِئَ: ﴿لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبا: ٢٣]. وَأَلْبَثْتُهُ أَنَا، وَلَبِثْتُهُ تَلْبِثًا ^(٣).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَبِثَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ مَلَاظِمًا لَهُ" ^(٤).

و"لَبِثَ بِالْمَكَانِ لَبْثًا مِنْ بَابِ تَعَبَ، وَجَاءَ فِي الْمَصْدَرِ السَّكُونُ؛ لِلتَّخْفِيفِ. وَاللَّبْثَةُ

بِالْفَتْحِ: الْمَرَّةُ، وَبِالْكَسْرِ: الْهَيْئَةُ، وَالنَّوْعُ وَالْأَسْمُ: اللَّبْثُ بِالضَّمِّ وَاللَّبَاثُ بِالْفَتْحِ، وَتَلَبَّثْتُ

بِمَعْنَاهُ، وَيَتَعَدَّى بِالْهَمْزِ وَالتَّضْعِيفِ، فَيُقَالُ: أَلْبَثْتُهُ وَلَبَّثْتُهُ ^(٥).

(١) العين، مادة: (لبث) (٢٢٧/٨).

(٢) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (١/ ٣٤٨). و(الأحوذى): المنكمش، و(دعاليبه): فضول ثوبه وما ناس

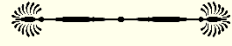
منه.

(٣) الصحاح، مادة: (لبث) (٢٩١/١)، انظر: معجم ديوان الأدب (١/ ٣٧٥)، (٢/ ٢٢٦).

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة: (لبث) (ص: ٧٣٣)، وانظر: الكليات (ص: ٤٣٤).

(٥) المصباح المنير، مادة: (لبث) (٥٤٧/٢).

ليل ونهار :



النهارُ: ضدُّ الليل. ولا يُجْمَعُ كما لا يجمع العذابُ والسَّرابُ. فإن جمعته قلت في قليله: (أُكْثِرَ)، وفي الكثير: (كُثِّرَ) كَسَحَابٍ وَسُحُبٍ^(١).

الليلُ واحد بمعنى جَمْع، وواحدته: ليلة مثل: تَمَرَّةٌ وَتَمَرٌ. وقد جمع على ليال فزادوا فيها الياء على غير قياس. ونظيره: أَهْلٌ وَأَهَالٍ. ويقال: كان الأصل فيها لَيْلَةً فحذفت، لأنَّ تصغيرها لَيْلِيَّةٌ. وليلٌ أَلِيلٌ: شديدُ الظلمة. وليلةٌ لَيْلَاءٌ. وَلَيْلٌ لَأَيْلٌ، مثل: شِعْرٌ شَاعِرٌ في التأكيد. وَعَامِلَةٌ مُلَايِلَةٌ، مثل: مُيَاوِمَةٌ^(٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "يقال: ليل وليلة، وجمعها: ليال وليالات.." ^(٣).

أما أجزاء اليوم: فأوله: الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الهجيرة، ثم الظهر، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة، عند مغيب الشفق^(٤).

وقد ذكر قطرب رَحِمَهُ اللهُ ترتيب ساعات الليل، وترتيب ساعات النهار، وهي تمثل أجزاء اليوم، مع بيان مسمياتها في كتابه: (الأزمنة)^(٥).

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (نحر) (٨٣٩/٢ - ٨٤٠).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ليل) (١٨١٥/٥).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (ليل) (ص: ٧٥١).

(٤) انظر: الكليات (ص: ٩٨١).

(٥) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقطرب (ص: ٤٩)، (ص: ٥٦).



وقد أوجز الثعالبي رَحِمَهُ اللهُ فِي (فقه اللغة) ذكر ساعات النهار وساعات الليل، حيث قال: ساعاتُ النَّهارِ: الشُّرُوقُ، ثُمَّ الْبُكُورُ، ثُمَّ الْعُدُودَةُ، ثُمَّ الضُّحَى، ثُمَّ الْهَاجِرَةُ، ثُمَّ الظَّهِيرَةُ، ثُمَّ الرَّوْحُ، ثُمَّ الْعَصْرُ، ثُمَّ الْقَصْرُ، ثُمَّ الْأَصِيلُ، ثُمَّ الْعَشِيُّ، ثُمَّ الْغُرُوبُ. وساعاتُ اللَّيْلِ: الشَّفَقُ، ثُمَّ الْغَسَقُ، ثُمَّ الْعَتَمَةُ، ثُمَّ السُّدُفَةُ، ثُمَّ الْفَحْمَةُ، ثُمَّ الزُّلَّةُ، ثُمَّ الزُّلْفَةُ، ثُمَّ الْبُهْرَةُ، ثُمَّ السَّحَرُ، ثُمَّ الْفَجْرُ، ثُمَّ الصُّبْحُ، ثُمَّ الصَّبَاحُ"، وباقي أسماء الأوقات تجيء بتكرير الألفاظ التي معانيها متفقة^(١).

وقد وقع الليل في مقابلة النهار في آيات كثيرة من القرآن الكريم. وقد تقرر في غير موضع أن من حكمة الله عَزَّجَلَّ وفضله على عباده أن صَرَّفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالْأَيَّامَ، وَقَلَّبَ الشُّهُورَ وَالْفُصُولَ وَالْأَعْوَامَ؛ لما في ذلك من مصالح عظيمة، وحكم بالغة، كما جاء ذلك مبيناً في كتاب الله عَزَّجَلَّ في غير آية.

فقد جعل الله عَزَّجَلَّ الليل والنهار علامتين دالتين على وحدانيته وقدرته؛ لما فيهما من الاختلاف في الطول والقصر، والحرارة والبرودة، فجعل الليل مظلاً للراحة والنوم، وجعلنا النَّهارَ مضيئاً يبصر فيه الناس، فيسعون لمعاشهم، وعلى هذا جرى النظام الكوني في غالب بقاع الأرض، فعلم الناس من هذا النظام الكوني المطرد والدقيق عدد السنين، وما تحتاجون إليه من حساب أوقات الشهور والأيام والساعات.

والزمان الذي أوجده الله عَزَّجَلَّ في الحياة الدنيا على وفق النظام المطرد فيه، له حكم كثيرة - كما تقرر في غير موضع - فمن ذلك: معرفة الحساب الذي تستقيم به حياة الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، وليعلم من ذلك ابتداء وقت كل حدث أو عمل أو عبادة، وانتهاء ذلك الوقت، فتتميز بذلك الأوقات، وتعلم البدايات والنهايات.

(١) فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي (ص: ٢١٥).



وأما في الآخرة فلا تكليف وإنما يلهم أهل الجنة التسبيح إلهامًا.
قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

وإن في خلق السماوات والأرض من عَدَمٍ على غير مثال سبق، وفي تعاقب الليل والنهار، وما يصحب ذلك من ظلمة وضياء، ومن قصر أحدهما وطول الآخر، لدلائل واضحة لأصحاب العقول السليمة تبعث على التأمل والتفكير في بديع خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وتدل على عظيم قدرته، وأنه جَلَّوَعَلَا خالق الكون والخلق، والمستحق للعبادة وحده.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

﴿٨٦﴾ [النمل: ٨٦].

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السَّنَتِكُمْ وَالْوَنَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [٢٢] وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ [الروم: ٢٢-٢٣].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥] وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٦﴾ وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ [الجاثية: ٣-٥].

والتأمل باعث على التقوى والعمل، والاستعداد للآخرة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي

اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا

﴿٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢].

وإن نعم الله عَزَّوَجَلَّ على عباده كثيرة لا تحصى، ولا يمكن للبشر أن يحصوها؛ وذلك

لكثرتها، واستمرارها، ويسرها، وتتابع إنعام الله عَزَّوَجَلَّ بها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

ومن هذه النعم الجليلة التي تستوجب الشكر: تسخير الليل والنهار، قال الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ



وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَعَاتَلَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَاءٍ سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ [القصص: ٧٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [غافر: ٦١].

وقد تقرر في غير موضع أن النظام الكوني الذي أقامه الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الأرض، من تصريف الليل والنهار، ومن جعل الليل للسكن، والنهار للكد والعمل، إنما جري على الغالب في بقاع الأرض، أما تلك البقاع التي يختلف فيها ذلك النظام، ويطول فيها الليل والنهار فإنها كذلك تشكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمة الليل والنهار؛ إذ إنها إنما تقيس الوقت على البلاد القريبة منها، والتي ينتظم فيها الوقت في الليل والنهار كسائر بقاع الأرض الأخرى، وعامة المصالح والأعمال فيها قائمة على ذلك، فتعرف أوقات العمل والعبادات على ذلك التقدير.

وإن الله عَزَّوَجَلَّ هو الحافظ للعبد في قلبه في الليل والنهار، فهو يحفظ العبد ويحرسه في ليله إذا نام، وفي نهاره إذا قام، ويحميه من النوازل والآفات، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَن يَكْلُوكُمۡ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِۢ بَلْ هُمۡ عَنۢ ذِكْرِ رَبِّهِمۡ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ [الأنبياء: ٤٢].



وقد حذّر الله عَزَّوَجَلَّ من الإعراض عن طاعته، وكفران نِعَمِهِ، وبيّن عاقبة المعرضين، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه.

ومن فائدة تقلب الليل والنهار: معرفة أوقات العبادات، والأزمنة الفاضلة، تنظيم الوقت، واغتنامه فيما ينفع العبد:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [٦] إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرْ

أَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ [الزمل: ٦-٨].

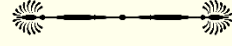
﴿وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ [الفجر: ١-٢].

﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ٥﴾ [القدر: ٥].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ٢﴾ [الكوثر: ٢]... إلى غير ذلك.

والقرآن إنما يعنى بالحكم على الكل، وهو الغالب من النظام المطرد في الكون. وإن في انقضاء كل زمن محدد عبرة لكل معتبر؛ إذ إن أفلول شمس كل يوم، ومضي ليليه، وبزوغ فجر يوم جديد ينقص من العمر، ويؤذن باقتراب كل إنسان من أجله المحتوم.

مدة وبرهته :



(المدة والبرهه) مقدار من الزمان يقع على القليل والكثير، يقال: أقمت عنده مدة مديدة، أي: وقتًا طويلًا.

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "وَمُدَّةٌ مِنَ الزَّمانِ: بُرْهَةٌ مِنْهُ" (١).

(البرهه) المدة من الزمان. يقال: أَقَمْتُ عنده بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ كَقَوْلِكَ: أَقَمْتُ عنده سَنَةً مِنَ الدَّهْرِ.

ويقال: أَتَتْ عَلَيْهِ (بُرْهَةٌ) مِنَ الدَّهْرِ - بضم الباء وفتحها، أي: مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الزَّمانِ. والجمع: بُرَّةٌ وَبُرْهَاتٌ، مثلُ: غُرْفَةٍ وَغُرْفَاتٍ فِي وَجْهِهَا (٢).
ويقال: مَضَى سَنَبٌ مِنَ الدَّهْرِ وَسَنَبَةٌ، أي: برهه.

وفي (الصحيح): عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة (٣) أفأصلها؟ قال: «نعم صليها» (٤). أراد بمدتهم: الزمان الذي كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ترك قتالهم فيها، وهي المدة التي كانت معينة للصالح بينهم وبين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) الصحاح، مادة: (مدد) (٥٣٧/٢).

(٢) انظر: أساس البلاغة (٥٨/١)، تهذيب اللغة (١٥٨/٦)، المصباح المنير (٤٦/١).

(٣) «وهي راغبة» جملة حالية: أي: راغبة عن الإسلام وكراهة له. وقيل معناه: طامعة فيما أعطيها من الإحسان وحريصة عليه.

(٤) صحيح البخاري [٣١٨٣، ٥٩٧٩].

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبره أن أبا سفيان بن حرب بن أمية أخبره: «أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجارًا بالشَّام، في المَدَّةِ التي مَادَّ فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سفيان في كفار قريش»^(١).

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "المدة: طائفة من الزمان، تقع على القليل والكثير. و«مَادَّ فيها»، أي: أطالها، وهي فاعل، من المد. ومنه الحديث: «إن شاءوا ماددناهم»^(٢).

وقال ابن بطل رَحِمَهُ اللَّهُ: "«مَادَّ»: فاعل من المدة التي اتفق معهم على الصلح مدة ما من الزمان، تقول العرب: تماد الغريمان والمتبايعان: إذا اتفقا على أجل ومدة، وهي مفاعلة من اثنين"^(٣).

وقيل: «مَادَّ» بتخفيف الدال. وهذه المدة هي المدة التي هادن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سفيان في كفار قريش، سنة ست من الهجرة^(٤).

وقال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الفرق بين المدة والزمان: "إن اسم الزمان يقع على كل جمع من الأوقات، وكذلك المدة، إلا أن أقصر المدة أطول من أقصر الزمان..^(٥)"
وقال في الفرق بين الدهر والمدة: إن الدهر جمع أوقات متوالية مختلفة كانت أو غير مختلفة، ولهذا يقال: الشتاء مدة، ولا يقال: دهر؛ لتساوي أوقاته في برد الهواء وغير ذلك

(١) صحيح البخاري [٣١٧٤]، وقد ورد الحديث في (الصحيحين) مطوَّلاً عن ابن عباس. صحيح البخاري [٧]، ٢٩٤١، ٤٥٥٣، مسلم [١٧٧٣].

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٠٩/٤)، والحديث في (مسند الإمام أحمد) [١٨٩٢٨]، و(السنن الكبرى)، للبيهقي [١٨٨٠٧].

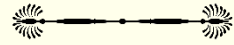
(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطل (٥٣/١).

(٤) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢٤٠/٥).

(٥) انظر ذلك في (الفروق)، لأبي هلال العسكري (ص: ٢٧٠).

من صفاته ويقال للسنين: دهر؛ لأن أوقاتها مختلفة في الحر والبرد وغير ذلك، وأيضاً من المدة ما يكون أطول من الدهر، ألا تراهم يقولون: هذه الدنيا دهور، ولا يقال الدنيا: مدد. والمدة والأجل متقاربان، فكما أن من الأجل ما يكون دهوراً فكذلك المدة" (١).

مكث :



قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠].

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢].

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩].

﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

المكث: "اللبث والانتظار. وقد مكث ومكث. والاسم: المَكْثُ والمِكْثُ - بضم الميم وكسرهما-. وَمَكَّثَ: تَلَبَّثَ" (٢).

وفي (جمهرة اللغة): "والمكث: المقام، مكث يمكث مكثاً ومكوثاً، وهو ماكث. وقد قالوا: رجل مكيث: إذا أقام بالمكان، وربما جعل المَكْثُ في معنى الانتظار" (٣).

(١) الفروق اللغوية (ص: ٢٧٠).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (مكث) (٢٩٣/١).

(٣) جمهرة اللغة (١/٤٣١).



وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "المكث: ثبات مع انتظار، يقال: مَكَّثَ مَكْثًا" (١).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: تؤدة وتأنٍ؛ فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم، وروي ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقيل: أي: تطاول في المدة، وتقضيها شيئًا فشيئًا، والظاهر تعلق: ﴿لِتَقْرَأَهُ﴾ بـ: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾. و﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بـ: تقرأه، و﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ به أيضًا، إلا أن فيه تعلق حرفي جر بمعنى بمتعلق واحد. وأجيب: بأن تعلق الثاني بعد اعتبار تعلق الأول به، فيختلف المتعلق. وفي (البحر) لا يبالى بتعلق هذين الحرفين بما ذكر؛ لاختلاف معنهما لأن الأول في موضع المفعول به، والثاني في موضع الحال، أي متمهلاً مترسلاً، ولما في ذلك من القيل والقال اختار بعضهم تعلقه بـ: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾.

وجوز الخفاجي رَحِمَهُ اللَّهُ تعلقه بمحذوف، أي: تفريقاً أو فرقاً ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾. أو قراءة على مكث منك، كمكث تنزيله. وجعله أبو البقاء في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أي: متمكثاً. ومن العجيب قول الحوفي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه بدل من ﴿عَلَى النَّاسِ﴾. وقد تعقبه أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه لا يصح؛ لأن ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ من صفات القارئ، أو من صفات المقروء، وليس من صفات الناس؛ ليكون بدلاً منهم، والمكث مثلث الميم، وقرئ بالضم والفتح، ولم يقرأ بالكسر، وهو لغة قليلة، وزعم ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ إجماع القراء على الضم" (٢).

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (مكث) (ص: ٧٧٢).

(٢) روح المعاني (٨/ ١٧٨)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٧/ ١٢٤)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي

(٦/ ٦٧)، التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري (٢/ ٨٣٥)، حاشيتنا القونوي وابن التمجيد على

البيضاوي (١١/ ٦٠٩).

وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣]: "شبه ما لهم من اللذات والملائمت بالظرف الذي يستقر فيه حاله للدلالة على أن الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين، فليس قوله: ﴿أَبَدًا﴾ بتأكيد لمعنى: ﴿مَكْثِينَ﴾، بل أفيد بمجموعها: الإحاطة والدوام" (١).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢]، قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "المكث: البقاء في المكان وملازمته زمنًا ما، وفعله من باب: كرم ونصر. وقرأه الجمهور بالأول. وقرأ عاصم وروح عن يعقوب رَحِمَهُ اللهُ بالثاني.

وأطلق المكث هنا على البطء؛ لأن الهدهد لم يكن مأكثًا بمكان، ولكنه كان يطير وينتقل، فأطلق المكث على البطء مجاز مرسل؛ لأن المكث يستلزم زمنًا. وغير بعيد صفة لاسم زمن، أو اسم مكان محذوف منصوب على الظرفية، أي: مكث زمنًا غير بعيد، أو في مكان غير بعيد، وكلا المعنيين يقتضي أنه رجع إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد زمن قليل.

وغير بعيد قريب قربًا يوصف بضد البعد، أي: يوشك أن يكون بعيدًا. وهذا وجه إثارة التعبير بـ: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ لأن ﴿غَيْرَ﴾ تفيد دفع توهم أن يكون بعيدًا، وإنما يتوهم ذلك إذا كان القرب يشبه البعد.

والبعد والقرب حقيقتهما من أوصاف المكان، ويستعاران لقلة الحصة بتشبيه الزمن القصير بالمكان القريب، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] " (٢).

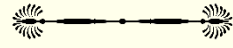
(١) التحرير والتنوير (٢٥٠/١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥٠/١٥).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، أي: مقيمون في العذاب أبداً، لا خلاص لكم منه بموت ولا غيره، وهذا تقنيط ونكاية لهم فوق ما هم فيه.

وذكر البعض أن فيه استهزاء؛ لأنه أقام المكث مقام الخلود، والمكث يشعر بالانقطاع؛ لأن المكث ثبات مع انتظار. ويمكن أن يكون وجه الاستهزاء: التعبير بـ: ﴿مَكِثُونَ﴾ من حيث إنه يشعر بالاختيار، وإجابتهم بذلك بعد مدة (١). وفي الحديث: «أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ وَضُوءًا مَكِثًا» (٢)، أي: بطيئاً متأنيّاً غير مستعجل. والمكث والمكث: الإقامة مع الانتظار، والتلبث في المكان (٣).

وعد وموعد وميعاد :



ورد ذكر الوعد والموعد والميعاد في آيات كثيرة من القرآن الكريم. قال في (العين): "الْوَعْدُ والعِدَّةُ يكونان مصدرًا واسماً. فأما العِدَّةُ فتُجْمَعُ: عِدَاتٌ، والوعد لا يجمع، والموعدُ: موضع التَّوَاعُدِ، وهو الميعادُ. ويكون الموعد مصدر وَعَدْتُهُ، وقد يكون الموعدُ وقتاً للعدة، والموعدة: اسم للعدة.

(١) انظر: روح المعاني (١٠٢/١٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٧٣٨٢]، وأحمد [٢٣٩٧١]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٢٨٦]، وابن حبان [٦٦٧٥]، والطبراني في (الشاميين) عن عوف بن مالك. كما أخرجه الطبراني في (الكبير): عن أبي جناب عن عبد الله بن عمرو. قال الهيثمي (٣٢١/٧-٣٢٢) «رواه أحمد والطبراني، وفيه: أبو جناب الكلبي، وهو مدلس».

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (مكث) (٣٤٨/٤).

والميعاد لا يكون إلا وقتاً أو موضعاً.
والوعد من التَّهْدُد: أوعده ضرباً ونحوه، ويكون وعده أيضاً من الشَّرِّ. قال الله
عَزَّوَجَلَّ: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢].
وعلى هذا فالوعد يستعمل في الخير والشر، يقال: وعده خيراً، ووعدته شراً^(١).
قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الوعد مصدر حقيقي، والعدة: اسم يوضع موضع المصدر،
وكذلك: الموعدة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤].
وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾ [طه: ٨٧]: الموعد: العهد.
وكذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦] قال: عهدي.
وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] قال: رزقكم: المطر،
وما توعدن: الجنة.

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ
﴿[البروج: ١-٢]: إِنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، قرأ أبو عمرو رَحِمَهُ اللَّهُ:
﴿وَعَدْنَا﴾ بغير ألف، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي رَحِمَهُمُ اللَّهُ:
﴿وَوَعَدْنَا﴾ بالألف.

وقال أبو معاذ النحوي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاعَدْتُ زَيْدًا: إِذَا وَعَدَكَ وَوَعَدْتَهُ، وَوَعَدْتُ زَيْدًا إِذَا
كَانَ الْوَعْدُ مِنْكَ خَاصَّةً^(٢).

(١) العين (٢٢٢/٢)، وانظر: معاني القرآن، للفراء (٣٨٥/١).

(٢) تهذيب اللغة (٨٥/٣-٨٦).

وعن ابن السِّكِّيت رَحِمَهُ اللهُ: "تقول: قد وَعَدْتُهُ خيراً، وقد وَعَدْتُهُ شراً، وهو الوعد والْعِدَّةُ في الخير والشرِّ" (١).

ويقال: وعدته خيراً أو شراً، فإذا قلت: وعدته لم يكن إلا للخير، وإذا قلت: أوعدته لم يكن إلا للشر (٢). فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير: الوَعْدُ والْعِدَّةُ، وفي الشر: الإيعادُ والوَعِيدُ. قال الشاعر:

وإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لِمُخْلِفِ إِيْعَادِي وَمُنْجِرِ مَوْعِدِي (٣)
فإن أدخلوا الباء في الشر جاءوا بالألف، قال الراجز:

أَوْعَدَنِي بِالسَّجَنِ وَالْأَدَاهِمِ رَجُلِي فَرَجُلِي شَتْنَةُ الْمَنَاسِمِ (٤)
تقديره: أَوْعَدَنِي بِالسَّجَنِ، وَأَوْعَدَ رَجُلِي بِالْأَدَاهِمِ. ثم قال: رَجُلِي شَتْنَةُ، أي: قوِيَّةٌ على القيد (٥).

والميعادُ: المواعِدَةُ، والوقتُ، والموضعُ. وكذلك الموعد.

(١) إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيت (ص: ٢١١).

(٢) معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٥٣/٣)، كتاب الأفعال، لابن القطاع (٢٩٦/٣).

(٣) ديوان عامر بن الطفيل (ص: ٥٨)، برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري.

(٤) قاله العدِيل بن الفرخ - بضم الفاء وسكون الراء - العجلي، وكان الحجاج طلبه فهرب منه وهجاه. انظر:

شرح أدب الكاتب (ص: ٢٠٠)، وهو من شواهد (معاني القرآن)، للفرّاء (١٩٧/١)، وهو في (الصحاح)

(٥٥١/٢)، و(تَهْذِيبُ اللُّغَةِ) (٨٦/٣)، ومعجم مقاييس اللغة (١٢٥/٦)، و(المحكم) (٣٢٩/٢)، وانظر:

إسفار النصيح (٤٦٦/١)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لابن الأنباري (ص: ٤٠٣)، شرح

الرضي على كافية ابن الحاجب (٣٩٠/٢).

(٥) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (وعد) (٥٥١/٢ - ٥٥٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٣٢٨-٣٢٩)،

النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٠٦/٥)، المفردات في غريب القرآن، للراغب (ص: ٨٧٥).

وتواعد القوم، أي: وَعَدَ بعضهم بعضًا. هذا في الخير، وَأَمَّا فِي الشَّرِّ فيقال: اتَّعَدُوا. والاتِّعَادُ أيضًا: قبول الوعد.

والتَّوَعَّدُ: التَّهَدُّدُ. ويوم واعدٌ: إِذَا وَعَدَ أَوَّلَهُ بِحَرْ، أو برد. وأَرْضٌ واعدة: إِذَا رُجِيَ خَيْرُهَا مِنَ النِّبْتِ..^(١)

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الوعد يكون في الخير والشر. يقال: وعدته بنفع وضر وعدًا وموعداً وميعاداً، والوعيد في الشر خاصة. يقال منه: أوعدته، ويقال: واعدته وتواعدنا.

ومن الوعد بالخير :

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ [القصص: ٦١]، ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٩].. إلى غير ذلك.

ومن الوعد بالشر :

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وكانوا إنما يستعجلونه بالعذاب، وذلك وعيد.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢]، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، ﴿وَأَمَّا نُرِيدَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦]، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (وعد) (٥٥٢/٢).

ومما يتضمن الأمرين (الخير والشر) :

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]، فهذا وعد بالقيامة، وجزاء العباد إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والموعد والميعاد يكونان مصدرًا واسماً.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ [طه: ٥٨]، ﴿بَلْ رَعِمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]، ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ [طه: ٥٩]، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ [الكهف: ٥٨]، ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ [سبا: ٣٠]، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَدِ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]، أي: البعث.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ [الكهف: ٥٨].

ومن المواعدة : قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]،

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، وأربعين وثلاثين مفعول لا ظرف، أي: انقضاء ثلاثين وأربعين، وعلى هذا قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه: ٨٠]، ﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢]. وإشارة إلى القيامة كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٥٠].

ومن الإيعاد : قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨].



وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [النور: ٥٥] إلى قوله: ﴿لَيْسَتْ خُلِفَتُهُمْ﴾. وقوله: ﴿لَيْسَتْ خُلِفَتُهُمْ﴾ تفسير لـ: ﴿وَعَدَ﴾، كما أن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] تفسير الوصية.

وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] فقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾، تقديره: وعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم، إما طائفة العير، وإما طائفة النفير.

والعدة من الوعد، ويجمع على: عدات، والوعد مصدر لا يجمع. ووعدت يقتضي مفعولين الثاني منهما مكان، أو زمان، أو أمر من الأمور، نحو: وعدت زيدًا يوم الجمعة، ومكان كذا، وأن أفعل كذا، فقوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] لا يجوز أن يكون المفعول الثاني من: ﴿وَأَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ﴾؛ لأن الوعد لم يقع في الأربعين، بل انقضاء الأربعين، وتماها: لا يصح الكلام إلا بهذا^(١).

بين الوعد والوعيد :

إن كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن فهو من الكبائر^(٢).
وما وعد الله عَزَّوَجَلَّ به المؤمنين الصالحين من النعيم في الآخرة فإنه حقٌّ وواقع.
ووعيد الله عَزَّوَجَلَّ للكافرين واقع كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦].

(١) المفردات، مادة: (وعد) (ص: ٨٧٥-٨٧٦).

(٢) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٢٤).



أما وعيد الله عَزَّوَجَلَّ للعصاة من المؤمنين فلا يعني أنه من الموجبات له؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يخلف وعده للمؤمنين بحسن العقبي، ولكن المسامحة قد تقع في وعيد العصاة. ومن سلك نهج الأبرار كان حريصاً على اجتناب ما توعَّد عليه بالنَّار، وعلى الاجتهاد في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، المحسن إلى عباده، والمحِبُّ لأهل طاعته؛ ليلقى الله عَزَّوَجَلَّ لقاء المحبين، فيحظى بالدرجات العلى من القرب من المحبوب جَلَّوَعَلَا. وقد قيل في (التفسير): يجوز أن يُحمَل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] هذا على ميعاد الأولياء، دون وعيد الأعداء؛ لأنَّ حُلْفَ الوعيد كرم عند العرب؛ لأنهم يمدحون بذلك.

ولا يلزم من أنه جَلَّوَعَلَا لا يخلف الوعد: القطع بوعيد الفساق - كما زعم المعتزلة - ؛ لأن كل ما ورد في وعيد الفساق فهو عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة بدليل منفصل^(١).

قال الواحدي رَحِمَهُ اللهُ: "إن الله جَلَّوَعَلَا يجوز أن يخلف الوعيد، وإن كان لا يجوز أن يخلف الوعد، بهذا وردت السنة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"^(٢).

وقال -أعني: الواحدي-: "أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد الأصبهاني، أخبرنا عبد الله بن محمد الأصبهاني، حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، وأبو حفص السلمي، وأبو يعلى الموصلي، قالوا: حدثنا هذبة بن خالد، حدثنا سهيل بن أبي حزم، حدثنا ثابت البناني،

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٥١/٧)، غرائب القرآن (١١١/٢)، البحر المحيط في التفسير (٣٤/٣)، تفسير السَّمْعَانِي (٤٦٥/١).

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١٠٠/٢).

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى عَمَلِهِ ثَوَابًا فَهُوَ مُنْجَرُهُ لَهُ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلَى عَمَلِهِ عِقَابًا فَهُوَ بِالْخِيَارِ» (١).

وقال -أعني: الواحدي-: أخبرنا أبو بكر، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمد بن حمزة، حدثنا أحمد بن الخليل، حدثنا الأصمعي، قال: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو، يخلف الله ما وعد؟ قال: لا.

قال: قال: أفرايت مَنْ أَوْعَدَهُ اللَّهُ عَلَى عَمَلٍ عَقَابًا، أَيْخَلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ فِيهِ؟ فقال أبو عمرو بن العلاء من العجمة: أتيت يا أبا عثمان؟ إن الوعد غير الوعيد، إن العرب لا تعد عارًا ولا خلْفًا أن تعد شرًّا ثم لا تفعله، ترى ذلك كرمًا وفضلًا، وإنما الخلف أن تعد خيرًا ثم لا تفعله.

قال: فأوجدني هذا في العرب. قال: أما سمعت قول الأول:

(١) الوسيط (١٠٠/٢)، والحديث أخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [٩٦٠]، والبخاري [٦٨٨٢]، وأبو يعلى [٣٣١٦]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٢٠٥]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٤٠٦٢]، والطبراني في (الأوسط) [٨٥١٦]، والكلاباذي في (بحر الفوائد) (ص: ٢٣٦)، وابن بطة في (الإبانة) [١٩٦٧]، وقد ضعف. انظر: كنز العمال [١٠٤١٦]. قال الهيثمي (٢١١/١٠): "رواه أبو يعلى، والطبراني في (الأوسط)، وفيه سهيل بن أبي حزم، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح". قال البزار: "سهيل، لا يتابع على حديثه". كشف الأستار عن زوائد البزار (٧٥/٤)، المطالب العالية (٥٦٦/١٢). قال في (الصحيح) [٢٤٦٣]: "والحديث مع ضعف سنده فهو ثابت المتن عندي؛ فإن شطره الأول يشهد له آيات كثيرة في القرآن الكريم كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، وقوله: ﴿وَتَنَجَّوْزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [١٦]. وأما الشطر الآخر، فيشهد له حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «...ومن عبد الله... وسمع وعصى، فإن الله عَزَّجَلَّ من أمره بالخيار، إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه». أخرجه أحمد وغيره بسند حسن. وله طرق أخرى في (الصحيحين) وغيرهما بنحوه".

وإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لِمُخْلِيفٍ إِيْعَادِي وَمُنْجِزٍ مَّوْعِدِي ^(١)
والذي ذكره أبو عمرو بن العلاء رَحِمَهُ اللهُ مذهب الكرام، ويستحسن عند كل أحد
خلف الوعيد كما قال السري الموصلِي رَحِمَهُ اللهُ:

إذا وعد السر أنجز وعده وإن أوعد الشر فالعفو مانعه ^(٢)
وأحسن يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الفصل حيث قال: الوعد والوعيد حق،
فالوعد حق العباد على الله عَزَّجَلَّ، ضمن لهم إذا فعلوا كذا أن يعطيهم كذا، ومن أولى
بالوفاء من الله عَزَّجَلَّ؟ والوعيد حقه على العباد، قال: لا تفعلوا كذا فأعذبكم، ففعلوا،
فإن شاء عفا، وإن شاء أخذ؛ لأنه حقه، وأولاهما برئنا: الكرم والعفو، إنه غفور
رحيم ^(٣).

قال الرَّازِي رَحِمَهُ اللهُ: واعلم أَنَّ المعتزلة حكوا أَنَّ أبا عمرو بن العلاء لما قال هذا
الكلام قال له عمرو بن عبيد: يا أبا عمرو فهل يسمَّى الله عَزَّجَلَّ مكذِّب نفسه؟ فقال:
لا، فقال عمرو بن عبيد: فقد سقطت حجَّتُك، قالوا: فانقطع أبو عمرو بن العلاء.
قال الرَّازِي رَحِمَهُ اللهُ: وعندي أَنَّهُ كان لأبي عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السُّؤال
فيقول: إِنَّكَ قستَ الوعيد على الوعد، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البابين؛
وذلك لأنَّ الوعد حقٌّ عليه، والوعيد حقٌّ له، ومن أسقط حقَّ نفسه فقد أتى بالجود
والكرم، ومن أسقط حقَّ غيره فذلك هو اللُّؤم، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد، وبطل
قياسك، وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق. فأما قولك: لو لم يفعل لصار كاذبًا

(١) ديوان عامر بن الطفيل (ص: ٥٨)، برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، وقد تقدم.

(٢) انظر: التذكرة الفخرية، للصاحب بهاء الدين الإربلي (ص: ٣٢٢)، شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري (٢/٢١٢).

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/١٠٠-١٠١).

ومكذَّباً نفسه، فجوابه: أنَّ هذا إنما يلزم لو كان الوعيد ثابتاً جزئاً من غير شرط، وعندى جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو، فلا يلزم من تركه دخول الكذب فى كلام الله عَزَّجَلَّ، فهذا ما يتعلّق بهذه الحكاية -والله أعلم-^(١).

وقال: "إنّ الأخبار على سبيل الوعيد مما يفيد الزجر عن المعاصى والإقدام على الطاعات، فإذا حصل هذا المقصود جاز أن لا يوجد المخبر عنه كما فى الوعيد، وعند هذا قالوا: إن وعد الله عَزَّجَلَّ بالثواب حق لازم، وأما توعدده بالعقاب فغير لازم، وإنما قصد به صلاح المكلفين مع رحمته الشاملة لهم، كالوالد يهدد ولده بالقتل والسمل والقطع والضرب، فإن قبل الولد أمره فقد انتفع، وإن لم يفعل فما فى قلب الوالد من الشفقة يرده عن قتله وعقوبته"^(٢).

وهذا مختص بالعصاة من المؤمنين دون الكفرة -كما سيأتى-، فهم -أي: العصاة- تحت مشيئة الله عَزَّجَلَّ، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم. ولا يفهم من ذلك: ارتفاع العذاب عن العصاة مطلقاً، ولكنه إن دل فإنما يدل على جواز العفو والمسامحة لعصاة الله عَزَّجَلَّ أعلم بأحوالهم، والمعاصى تتفاوت -كما هو معلوم-.

ولا يخفى أن الاسترسال فى المعاصى مع الاتكال على الرحمة من من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالعذاب، وهو أسباب الخلان. كما سيأتى بيانه فى مبحث: (الأمن من مكر الله عَزَّجَلَّ).

وقد جاء فى الحديث: ما يدل على ما تقرّر من كون العصاة تحت مشيئة الله عَزَّجَلَّ، فمن ذلك: ما صحّ عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بهتان

(١) تفسير الرّازى (١٥٢/٧)، وانظر: روح المعاني (٢/ ٨٨ - ٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٢٩٩).

تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئاً من ذلك فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»^(١).

وفي رواية: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد، فمن جاء بهنَّ لم يُضَيَّعْ مِنْهُنَّ شيئاً استخفافاً بِحَقِّهِنَّ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهنَّ فليس له عند الله عهد، إن شاء عَذَّبَهُ، وإن شاء أدخله الجنة»^(٢).

وفي رواية: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من عبد الله لا يشرك به شيئاً فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وسمع وأطاع، فإن الله يدخله من أي أبواب الجنة شاء، ولها ثمانية أبواب، ومن عبد الله لا يشرك به شيئاً وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وسمع وعصى، فإن الله من أمره بالخيار إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه»^(٣).

(١) صحيح البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، مسلم [١٧٠٩].
 (٢) أخرجه مالك [٤٠٠]، وعبد الرزاق [٤٥٧٥]، والحميدي [٣٩٢]، وابن الجعد [١٥٧١]، وابن أبي شيبة [٦٨٥٢]، وأحمد [٢٢٦٩٣]، والدارمي [١٦١٨]، وابن ماجه [١٤٠١]، وأبو داود [١٤٢٠]، ومحمد بن نصر في (تعظيم قدر الصلاة) [١٠٢٩]، والنسائي [٤٦١]، وابن حبان [٢٤١٧]، والطبراني في (الشاميين) [٣٥]، والبيهقي [٢٢٢٦]، والضياء [٤٤٩]، قال ابن عبد البر في (التمهيد) (٢٨٨/٢٣): "حديث صحيح ثابت". وقال العراقي: "أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث: عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن عبد البر" المغني عن حمل الأسفار (ص: ١٧٣). وقال الحافظ في (الفتح) (٢٠٣/١٢): "أخرجه مالك وأصحاب السنن، وصححه ابن حبان وابن السكن وغيرهما".
 (٣) أخرجه أحمد [٢٢٧٦٨]، وابن أبي عاصم في (السنن) [٩٦٨]، والبخاري [٢٧٠٤]، والطبراني في (الشاميين) [١٦١١]، وابن عساكر (٢٢٥/٦٦). قال الهيثمي (٢١٦/٥): "رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات".

قال ابن بطلال رَحِمَهُ اللهُ: "وقد ثبت أن الكافر يدخل النار لا محالة، فلا يجوز أن يقال فيه مثل هذا، فعلمنا أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصد: من تركها وهو معتقد لوجوبها لا جاحداً؛ لأن الجاحد يدخل النار لا محالة، ولا حجة لأحمد رَحِمَهُ اللهُ في إباءة إبليس من السجود وصار بذلك كافراً؛ لأنه عاند الله عَزَّجَلَّ واستكبر، ورد على الله عَزَّجَلَّ أمره، فجاهر بالمعصية لله عَزَّجَلَّ، فهو أشد من الجاحد أو مثله؛ لأنه جحدها واستيقنتها نفسه" (١).

وقيل: "شبه وعد الله عَزَّجَلَّ بإثابته المؤمنين علي أعمالهم بالعهد الموثوق به، الذي لا يخلف، ووكل أمر التارك إلي مشيئته تجويزاً لعفوه، وأنه لا يجب على الله عَزَّجَلَّ شيء، ومن ديدن الكرام: محافظة الوعد، والمسامحة في الوعيد" (٢).

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: "ما أوعده الله عَزَّجَلَّ به الكفار لا يصح أن يخلفه بحال؛ لأن ادعاء جواز إخلافه؛ لأنه إيعاد، وأن العرب تعد الرجوع عن الإيعاد كرمًا يطله أمران:

الأول: أنه يلزمه جواز ألا يدخل النار كافر أصلاً؛ لأن إيعادهم بإدخالهم النار مما زعموا أن الرجوع عنه كرم، وهذا لا شك في بطلانه.

الثاني: ما ذكرنا من الآيات الدالة: على أن الله عَزَّجَلَّ لا يخلف ما أوعده به الكفار من العذاب، كقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ (٣٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴿الآية [ق: ٢٨-٢٩]، وقوله جَلَّ وَعَلَا فِيهِمْ: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤]، وقوله فيهم: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]. ومعنى حق: وجب وثبت، فلا وجه لانتفائه بحال" (٣).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطلال (٨ / ٥٧٨ - ٥٧٩).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣ / ٨٦٩)، وانظر: فيض القدير (٣ / ٤٥٢).

(٣) أضواء البيان (٥ / ٢٧٧).

وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أَلْرُّسَلِ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤]، هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يحق عليه العذاب، أي: يتحتم ويثبت في حقه ثبوتاً لا يصح معه تخلفه عنه. وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله عَزَّجَلَّ يصح أن يخلف وعيده؛ لأنه قال: إنه لا يخلف وعده، ولم يقل: إنه لا يخلف وعيده، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:

وإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ
لَمُخْلِيفُ إِيْعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

يمدح نفسه بأنه يخلف الوعيد، لكنه ينجز الوعد. ولكن لا يصح الإطلاق؛ لذلك يقول الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: ولا يصح -أي: الإطلاق- بحال؛ لأن وعيده جَلَّ وَعَلَا للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما دل عليه قوله هنا: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أَلْرُّسَلِ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤].

وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة، كقوله: سها فسجد، أي: لعله سهوه، وسرق فقطعت يده، أي: لعله سرقته، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، فتكذيبهم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علة صحيحة؛ لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله عَزَّجَلَّ في هذه السورة الكريمة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم.

وقوله جَلَّ وَعَلَا في سورة: (ص): ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أَلْرُّسَلِ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]، وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب؛ لأن الله عَزَّجَلَّ أوضح ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عَزَّجَلَّ عن ذنوب عباده المؤمنين

العاصين، ولا إشكال في ذلك، وقد أوضحنا هذا في كتابنا: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة: (الأنعام) في الكلام على قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَلُكُمْ خَلِيدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] ^(١).

فمن أراد التوفيق والهداية فينبغي يجمع بين الخوف والرجاء، فهما الجناحان اللذان يرتقي بهما السالك إلى سُدَّة النجاة، ولا ينفَعُ واحدٌ منهما دون الآخر، بل هما صِنوان، ومثابة كفتي الميزان.

فمن الاغترار: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو، وتوَقَّع القرب من الله عَزَّجَلَّ بغير طاعة، وانتظارُ زرع الجنة يَبْذُر النار. فلا بدَّ من تحقيق التَّكافؤ والتَّوازن بين الخوف والرجاء؛ حتى تستقيم حياة المؤمن في الدنيا، ويفوز بالنَّعيم في الآخرة.

فلا يَغْلِبُ العبدُ جانبَ الرجاء؛ لئلا يفضي به ذلك إلى الأمن من مكر الله؛ فيكون من الذين قال الله عَزَّجَلَّ فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. ولا يَغْلِبُ جانبَ الخوف؛ لئلا يفضي به إلى اليأس من رحمة الله عَزَّجَلَّ؛ فيكون من الذين قال الله عَزَّجَلَّ فيهم: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]. ومن الذين قال الله جَلَّوَعَلَا فيهم: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ قَوْمًا أَهْتَهُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: إِنِّي لِأَحْسَنُ الظَّنِّ بِرَبِّي، وَكَذَبَ لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لِأَحْسَنِ الْعَمَلِ ^(٢). وكان

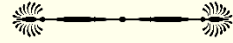
(١) أضواء البيان (٤٢٥/٧) وانظر: دفع إيهام الاضطراب (ص: ٩٤-٩٧).

(٢) انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/٣٢٣)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص: ١٢٨)،

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٢٨).

قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بَارُّ، يا رحيم^(١). وقد فصلت القول في ذلك في (نهج الأبرار).

وقت وميقات :



الوقت: من الأزمنة المبهمة. والميقات: الوقت المضروب للفعل والموضع، والجمع: المواقيت، فاستعير للمكان. ومنه: مواقيت الحج لمواضع الإحرام. يقال: هذا ميقات أهل الشام: للموضع الذي يحرمون منه، وتقول أيضاً: وقته فهو موقوت، إذا بين للفعل وقتاً يفعل فيه ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي: مفروضاً في الأوقات.

والتوقيت: تحديد الأوقات.

والمُوقِت: مفعول من الوقت^(٢).

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الوقت: المقدار المحدود من الزمن. وقيل: الوقت الحد الواقع بين أمرين أحدهما معلوم سابق، والآخر معلوم به لاحق، ذكره الحرالي رَحِمَهُ اللَّهُ. وقال غيره: نهاية الزمان المفروض للعمل؛ ولهذا لا يكاد يقال إلا مقيداً، نحو قولهم: وقت كذا. والميقات: الوقت المضروب للشيء، ويقال: الميقات للمكان الذي يجعل وقت الشيء كميات الحج"^(٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤١٢/٧)، النكت والعيون (٣٥٩/٥)، تفسير القرطبي (٢٩/١٧).

(٢) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء (ص: ١٦).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٣٤٠).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الْوَقْتُ معروف، والميقات: الوقتُ المضروب للفعل، والموضع. يقال هذا ميقات أهل الشام، للموضع الذي يحرمون منه. وتقول: وقته فهو موقوت، إذا بَيَّنَّ للفعل وقتاً يُفَعَّلُ فيه. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي: مفروضاً في الأوقات. والتوقيت: تحديد الأوقات. تقول: وَقَّتُهُ ليوم كذا، مثل أَجَلْتُهُ. وقرئ: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ وَقَّتْ﴾ [المرسلات: ١١] بالتشديد، ﴿وُقَّتْ﴾ أيضاً: مخففة ^(١). و﴿أُقَّتْ﴾ ^(١١) لغة، و(الْمَوْقُتُ) كالمَجْلِسِ مَفْعِلٌ من الوقت. قال العجاج: والجامعُ الناس ليوم الموقت... " ^(٢).

وقال العسكري رَحِمَهُ اللهُ في بيان الفرق بين الوقت والميقات: "إن الميقات: ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال، والوقت وقت الشيء قدره أو لم يقدره؛ ولهذا قيل: مواقيت الحج للمواضع التي قدرت للإحرام، وليس الوقت في الحقيقة غير حركة الفلك.. " ^(٣). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتَمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(١) قال ابن جرير: "قرأه بعض قراء البصرة بالواو وتشديد القاف ﴿وُقَّتْ﴾، وقرأه أبو جعفر ﴿وُقَّتْ﴾ بالواو وتخفيف القاف. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن كل ذلك قراءات معروفة، ولغات مشهورات، بمعنى واحد، فبأيتها قرأ القارئ فمصيب، وإنما هو فُعِّلَتْ من الوقت، غير أن من العرب من يستقل ضمة الواو، كما يستقل كسرة الياء في أول الحرف فيهمزها" تفسير الطبري (١٣٠/٢٤).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (وقت) (٢٦٩/١-٢٧٠)، وانظر: معجم ديوان الأدب (٢٢٥/٣)، خزانة الأدب (٢٩٩/٨).

(٣) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص: ٢٧١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣٨) [الشعراء: ٣٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) [الدخان: ٤٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ

﴿٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا﴾ (١٧) [النبا: ١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

والمواقيت هي الأماكن التي حددها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن أراد أن يحرم للحج والعمرة.

والمواقيت قسمان:

الأول: مواقيت زمانية: وهي بالنسبة إلى الحج: شهر شوال، وذو القعدة، والعشر

الأول من ذي الحجة، وهي أشهر الحج التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال الشافعية: أشهر الحج هي: شوال، وذو القعدة، وعشر ليال من ذي الحجة،

تنتهي بطلوع الفجر من يوم النحر.

وقال المالكية: هي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة بكمالها؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال:

﴿أَشْهُرٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهي جمع، وأقل الجمع ثلاثة.

وذهب الحنفية والحنابلة إلى أن أشهر الحج هي: شوال، وذو القعدة، وعشرة أيام

من ذي الحجة، فهما يُدخلان يوم النحر بخلاف الشافعية، وينظر ذلك في مظانه.

أما العمرة فيجوز أدائها في أيّ وقت من السنة، وحتى في أشهر الحج، لا فرق في ذلك بين أن ينوي الحج في عامه أو لا ينوي ذلك.

والثاني: مواقيت مكانية: وقد جاء ذكرها في فيما رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «وَقَتَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ: ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَلَأَهْلِ الشَّامِ: الْجُحْفَةَ، وَلَأَهْلِ نَجْدٍ: قَرْنَ الْمَنَازِلِ، وَلَأَهْلِ الْيَمَنِ: يَلَمْلَمَ». قَالَ: «فَهُنَّ هُنَّ، وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ، مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، فَمَنْ كَانَ دُونَهُنَّ فَمِنْ أَهْلِهِ، وَكَذَا فَكَذَلِكَ، حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ يُهْلُونَ مِنْهَا»^(١).

وقوله: «وَقَتَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ: ذَا الْحُلَيْفَةِ» أي: جعل لهم ذلك الموضع ميقات الإحرام، وذو الحليفة أبعد المواقيت من مكة بينهما نحو عشر مراحل أو تسع وهي قريبة من المدينة على نحو ستة أميال منها، وتسمى: وادي العقيق. «ولأهل الشام: الجحفة» هي ميقات لهم ولأهل مصر، وسائر المغرب، لكن إذا اجتازوا بالمدينة النبوية أحرموا من ميقات أهل المدينة.

قليل سميت بذلك؛ لأن السيل أجحفها في وقت، أي: ذهب بأهلها، ويقال لها: مهيجة، وهي على ثلاث مراحل من مكة على طريق المدينة.

«ولأهل نجد: قَرْنَ الْمَنَازِلِ» وهو على نحو مرحلتين من مكة. قالوا: وهو أقرب المواقيت إلى مكة. واسمه الآن: السيل الكبير.

«ولأهل اليمن: يَلَمْلَمَ» هو جبل من جبال تهامة على مرحلتين من مكة.

واسمه الآن: السعدية، وهو ميقات أهل اليمن، وكل من جاء من الجنوب عن طريق الساحل كأهل الباحة.

(١) صحيح البخاري [١٥٢٤، ١٥٢٦، ١٥٢٩، ١٥٣٠]، مسلم [١١٨١].



وقد جمعها بعضهم بقوله:

عرق العراق ويللمم اليمن وبذي الحليفة يحرم المدني

والشام جحفة إن مررت بها ولأهل نجد قرن فاستبن

ويضاف إليها: مساجد مكة التي بخارج حدود الحرم، مثل: مسجد التنعيم،
ومسجد الجعرانة، فتعتبر مواقيت لأهل مكة فقط.

فهذه المواقيت لأهل هذه الأقطار، ولمن مر عليها من غير أهلها.

«فمن كان دونهن فمن أهله» هذا صريح في أن من كان مسكنه بين مكة والميقات

فميقاته: مسكنه، ولا يلزمه الذهاب إلى الميقات، ولا يجوز له مجاوزة مسكنه بغير إحرام.

«وكذا فكذلك حتى أهل مكة يهلون منها» هكذا هو في جميع النسخ، وهو

صحيح، ومعناه: وهكذا من جاوز مسكنه الميقات حتى أهل مكة يهلون منها.

ومن تجاوز الميقات ولم يحرم منه وجب عليه الرجوع ليحرم منه، فإن لم يفعل وأحرم

بعد مجاوزته للميقات فعليه دم، فيذبح شاة في مكة، ويوزعها على المساكين.

وإذا رجع إلى الميقات وأحرم منه فلا شيء عليه.

وإذا مرت الحائض بالميقات وهي تريد الحج فإنها تحرم من الميقات..



البحث التاسع

اليوم وأجزاء الوقت فيه

أولاً: اليوم (مقداره وبيان المراد منه):

اليوم: مقداره من طلوع الشمس إلى غروبها، والأَيَّامُ جَمْعُهُ. واليوم: الكَوْنُ، يُقال: نعم الأخ فلان في اليوم، أي: في الكائنة من الكَوْنِ إذا نزلت.

والأيام في أصل البناء: أَيَّامٌ، ولكن العرب إذا وجدوا في كلمة: (ياء) و(واوًا) في موضع واحد، والأولى منهما ساكنة، أدغموا إحداهما في الأخرى، وجعلوا الياء هي الغالبة، كانت قبل الواو أو بعدها، إلّا في كلمات شواذٍ تُرَوَى مثل: الْفُتُوَّةُ وَالْهُوَّةُ^(١).

قال ابن كيسان رَحِمَهُ اللهُ: وسُئِلَ عَنْ (أَيَّامٍ) لَمْ ذَهَبَتْ (الواو)؟ فَأَجَابَ: إِنْ كُلَّ (ياء) و(واو) سبق أحدهما الآخر بسكون، فَإِنَّ (الواو) تصير (ياء) في ذلك الموضع. وتدغم إحداهما في الأخرى، من ذلك (أَيَّامٍ) أصلها: أَيَّامٌ، وَمِثْلُهَا: سَيِّدٌ، وَمِيتٌ، الْأَصْلُ: سَيُّودٌ، وَمَيَّوْتٌ^(٢).

قال الأخفش رَحِمَهُ اللهُ: في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَمَسَّجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] يريد: (مُنْذُ أَوَّلِ يَوْمٍ)؛ لَأَنَّ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ (لَمْ أَرَهُ مِنْ يَوْمٍ كَذَا) بمعنى: مبدؤه، أي: (مُنْذُ أَوَّلِ يَوْمٍ)، كقولك: (لَقِيتُ كُلَّ رَجُلٍ)، تريد به: (كُلَّ

(١) العين (٤٣٣/٨).

(٢) تهذيب اللغة (٤٦٣/١٥).



الرِّجَالِ) ^(١). وعامله مِياومةً كما تقول: مُشَاهَرَةً. وَرُبَّمَا عَبَّرُوا عَنِ الشَّدَّةِ بِالْيَوْمِ، يُقَالُ: يَوْمٌ أَیُّومٌ، كما يقال: لَيْلَةٌ لَيْلَاءٌ ^(٢).

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "وقد يعبر باليوم عن مدّة من الزَّمان، أي مدّة كانت، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ﴿وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمُ﴾ [النحل: ٨٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وغير ذلك.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، فإضافة الأَيَّامِ إلى الله عَزَّجَلَّ تشريف لأمرها؛ لما أفاض الله عليهم من نعمه فيها.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الآية [فصلت: ٩] ^(٣). قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "لو أراد جَلَّوَعَلَا أَنْ يَخْلُقَهَا فِي لَحْظَةٍ لَفَعَلَ ولكن ذلك سائعاً في قُدْرَتِهِ، ولكنه أحب أن يُبَصِّرَ الْخَلْقَ وُجُوهَ الْأَنَاةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ، وفي لحظة واحدة؛ لأن المخلوقين كلهم والملائكة المقربين لو اجتمعوا على أن يخلقوا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْهَا مَا خَلَقُوا. وجاء في التفسير أن ابتداء خلق الأرض كان في يوم الأحد واستقام خلقها في يوم الاثنين" ^(٤).

و"يَرْكَبُ (يَوْمٌ) مع (إِذْ)، فيقال: (يَوْمَئِذٍ) نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ

﴿٩﴾ [المدثر: ٩]، وربما يعرب ويبنى، وإذا بني فلإضافة إلى (إِذْ)" ^(٥).

(١) انظر: معاني القرآن، للأخفش (٣٦٦/١)، تفسير الطبري (٤٧٦/١٤).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (يَوْم) (٢٠٦٥/٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (يَوْم) (ص: ٨٩٤).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٨٠/٤).

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (يَوْم) (ص: ٨٩٤).



فقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ذلك، وبني لإضافته إلى غير متمكن، وهو (إذ) والتنوين عوض عن جملة، أي: يوم إذ نفخ في الصور.

و﴿الْيَوْمَ﴾ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣]. ظرف منصوب بـ: ﴿يَبْسُ﴾، والألف واللام فيه للعهد، قيل: أراد به يوم عرفة، وهو يوم الجمعة عام حجة الوداع، نزلت هذه الآية فيه بعد العصر، ولم يعيش الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك إلا إحدى وثمانين ليلة.

وقيل: هو يوم دخوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مكة سنة تسع، وقيل: ثمان.

وقيل: أنه زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كله إلى أن نزل ذلك عليه يوم عرفة.

ف: ﴿الْيَوْمَ﴾ الأول: ظرف لـ: ﴿يَبْسُ﴾، و﴿الْيَوْمَ﴾ الثاني ظرف لـ: ﴿أَكْمَلْتُ﴾.

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿الْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرف، وليس يُرادُ به -والله أعلم- يوماً بعينه. معناه: الآنَ ﴿يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾، وهذا كما تقول: أنا اليوم قد كُفِّرْتُ. وهذا الشأن لا يصلح في اليوم تريد: أنا الآن وفي هذا الزمان. ومعناه: أن قد حَوَّلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ الْخَوْفَ الذي كاد يلحقكم منهم اليوم، ويئسوا من بُطْلان الإسلام وجاءكم ما كنتم توعدون من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]" (١).

وتابع جاز الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرف، وليس يُرادُ به يوماً بعينه حيث قال: لم يرد بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿الْيَوْمَ﴾ يوماً بعينه، وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، كقولك: (كنت

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢/٤٧-١٤٨).

بالأمس شابًا، وأنت اليوم أشيب)، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك، ولا باليوم يومك" (١).

ونحوه: (الآن) في قول قول زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكِنِّي عن عِلْمٍ ما في غَدٍ عَمٍ (٢)
فلم يرد بهذه حقائقها.

وقد أوضح ذلك الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ فيه قولان:

الأول: أنه ليس المراد هو ذلك اليوم بعينه حتى يقال: إنهم ما يئسوا قبله بيوم أو يومين، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان، معناه: لا حاجة بكم الآن إلى مDAHنة هؤلاء الكفار؛ لأنكم الآن صرتم بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم في توهين أمركم، ونظيره قوله: (كنت بالأمس شابًا واليوم قد صرت شيخًا)، ولا يريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك، ولا باليوم يومك الذي أنت فيه.

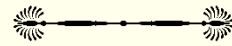
(١) الكشف (١/٦٠٤).

(٢) هذا بيت من الطويل. وقائله: زهير بن أبي سلمى. وهو في (ديوانه) (ص: ٧٠)، طبعة: دار المعرفة، بيروت. والشاهد فيه: ورودُ الأزمنة الثلاثة فيه: اليوم للحال، والأمس للماضي، وغد للمستقبل. وفيه حشو غير مفسد للمعنى، وهو لفظة قبله، قوله: قبله، صفة الأمس بتقدير الكائن قبله، وهو الوصف للتأكيد، وإنما صار حشوءًا؛ لأنه لا فائدة للتأكيد فيه. انظر: معاهد التنصيص (١/٣٢٥-٣٢٦)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (١/٦٦)، (٢/٦٩)، مواهب الفتاح (١/٦٨)، (١/٦٣٣)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص: ١٤١).

والقول الثاني: أن المراد به يوم نزول هذه الآية، وقد نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقف بعرفات على ناقته العضباء" (١).

ثانياً: أجزاء الوقت في اليوم:

ساعة وبيان ما يراد منها في القرآن الكريم :



الساعة: جزء من أجزاء الزمان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]. ويعبر بها عن القيامة؛ تشبيهاً بذلك؛ لسرعة حسابه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، أو لما نبه عليه بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، فالأولى هي: القيامة، والثانية: الوقت القليل من الزمان.

وقيل: الساعات التي هي القيامة ثلاثة: الساعة الكبرى، وهي القيامة، ووسطى وهي موت أهل القرن الواحد، وصغرى وهي موت الإنسان، فساعة كل إنسان موته، وهي المشار إليها بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ﴾

(١) مفاتيح الغيب (٢٨٦-٢٨٧)، وانظر: الدر المصون (٤/١٩٨).



بَعَثَتْ قَالُوا يَحْسَرَتْنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴿[الأنعام: ٣١]، ومعلوم أن هذه الحسرة تنال الإنسان عند موته (١).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الساعة في عرف اللغة: القطعة من الزمان غير محدود بمقدار؛ كما قال جَلَوَعَلَا: ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وتقول العرب: (جئتكَ ساعة كذا)، فتتعين بحسب ما تضاف إليه، وليست محدودة" (٢).

والساعة: جزءٌ من أجزاءِ الجديدين -الليل والنهار-، وهما: أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً، وإذا اعتَدَلَا فكلُّ واحدٍ منهما: ثِنْتَا عَشْرَةَ سَاعَةً (٣).

والساعة أيضاً: آلة يعرف بها الوقت بحسب الساعات.

واليوم، والشهر، والسنة، واللييلة، والساعة أسماء وضعن لمقادير من الزمان في أول الوضع (٤).

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "والساعة في الأصل تطلق بمعنيين:

أحدهما أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءاً هي مجموع اليوم واللييلة.

والثاني: أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل. يقال: (جلست عندك

ساعة من النهار)، أي: وقتاً قليلاً منه، ثم استعير لاسم يوم القيامة.

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (ساعة) (ص: ٤٣٤-٤٣٥)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف

(ص: ١٨٩)، الميسر في شرح مصابيح السنة، للتَّوْرِيثِي (١١٨١/٤)، شرح الطَّبِّي على مشكاة المصابيح

(٣٤٨١/١١).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤٨٦/٢).

(٣) انظر: تهذيب اللغة (٥٧/٣).

(٤) انظر: المخصص، لابن سيده (٢٦٨/٤).

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ ^(١): معنى الساعة في كل القرآن: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة -والله أعلم- ^(٢).

والصواب أنه قد يراد منها في القرآن الكريم كذلك: الوقت القليل المتناهي، وهو مدة اللبث في القبور، وقيل: في الحياة الدنيا أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث، كما سيأتيك في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]. ومن الغريب خفاء ذلك على الإمام أبي إسحاق الزجاج، ومن تبعه كابن الأثير، وصاحب لسان العرب رَحِمَهُمُ اللَّهُ، ولعلمهم أرادوا الغالب في الاستعمال؛ ولذلك قال صاحب (المنار) رَحِمَهُ اللَّهُ: "الصواب أنها استعملت في القرآن منكرة بمعنى: الساعة الزمانية، ومعرفة بالآلف واللام العهدية بمعنى: الساعة الشرعية، وهي ساعة خراب هذا العالم، وموت أهل الأرض، وجمع بينهما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾. وقيل: إن هذا القول هو وجه تسميتها بالساعة.

والغالب في استعمال القرآن الكريم: التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون بعد الموت، الذي يكون فيه الحساب، وما يتلوه من الجزاء، والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم، ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الأهوال يتلو بعضها بعضاً، فالساعة هي المبدأ، والقيامة هي الغاية، ففي الأولى: الموت والهلاك، وفي الآخرة: البعث والجزاء. وبعض التعبيرات في كل منهما يحتمل حلوله محل الآخر في الغالب، وفي المعنى المشترك الذي يعم المبدأ والغاية. وحمل بعض المفسرين

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (٤/٢١٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (سوع) (٢/٤٢٢).

الآيات على القيامة الصغرى لكل فرد وهي ساعة موته، وزاد بعضهم القيامة الوسطى، وهي هلاك الجيل أو القرن... الخ" (١).

وقال جابر الله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ٥٥]: ﴿السَّاعَةُ﴾: القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تقوم في آخر ساعةٍ من ساعات الدنيا، أو: لأنها تقع بغتةً وبداهةً. كما تقول: (في ساعةٍ) لمن تستعجله، وجرت علمًا لها كالنجم للثريا، والكوكب للزهرة (٢).

﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي: في القبور، أو في الدنيا" (٣). قال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: "والأول هو الأظهر؛ لأنَّ لبثهم مُغَيًّا بيوم البعث، وليس لبثهم في الدنيا كذلك" (٤). وقيل: "فيما بين فناء الدنيا إلى البعث" (٥). وفي الحديث: «ما بين النفختين أربعون» (٦)، وهو محتملٌ للساعات والأيام والأعوام. وقيل لا يعلم أهي أربعون سنة أو أربعون ألف سنة. ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، وإنما يقدِّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقلُّوا فيه

(١) انظر: تفسير المنار (٣٨٧/٩).

(٢) (الزهرة) بضم الزاي وفتح الهاء، وتسكينها لحن، و(الكوكب) غلب عليها غلبة الكتاب على كتاب سيبويه.

حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١٢٨/٧)، حاشية القونوي على البيضاوي (١٧٢/١٥).

(٣) الكشف (٤٨٦/٣).

(٤) تفسير أبي السعود (٦٦/٧). قال الله عَزَّجَلَّ في الآية التالية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي

كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

(٥) قال الشهاب: "قوله: (فناء الدنيا) المراد: فناء أهلها، فلا ينافي كونها في آخر ساعات الدنيا؛ فإنه قد يعد ما

قبل دخول الجنة والنار من الدنيا، وقد يعد من الآخرة، وقد يعد برزخًا. حاشية الشهاب الخفاجي على

البيضاوي (١٢٨/٧).

(٦) صحيح البخاري [٤٨١٤، ٤٩٣٥]، مسلم [٢٩٥٥].

مدّة لبثهم ^(١)، أو أنهم ينسون، أو يكذبون، أو يخمنون. ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك الصّرف كانوا يُصرفون في الدُّنيا عن الحقِّ والصّدق ^(٢).

والقول بأن القيامة سميت: ساعة؛ لأنها تقع بغتة، فالساعة عبارة عن السرعة؛ فإنه ورد استعمالها كذلك في العرف؛ ولذا قيل: وقوعها في أدنى ما يطلق عليه اسم الزمان؛ إشارة إلى المباغتة، وسرعة الوقوع، وإن كانت بالنسبة إلى انتهائها مديدة.

وقيل: إنها سميت بها؛ لأنها مع طولها في نفسها فهي كساعة عند الله عَزَّجَلَّ، فالمراد بها: لازمها، وهو السرعة، فسميت بها؛ لسرعتها.

وقيل: لسرعة حسابها.

وقيل: هي بالنظر إلى السعداء كساعة واحدة ^(٣).

ولا أحد يعلم متى تقوم الساعة إلا الله عَزَّجَلَّ، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ [٤٤] فيم أنت من ذكرناها [٤٣] إلى ربك

مُنْتَهَاهَا [٤٤] [النازعات: ٤٢-٤٤].

(١) أي: عدوها قليلاً؛ فإنها متناهية، ومدة عذابهم غير متناهية، ولتسارع انقضاء الأيام في الحياة الدنيا.

(٢) الكشف (٤٨٦/٣-٤٨٧).

(٣) انظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١٢٨/٧)، حاشية القونوي على البيضاوي (١٥/١٧١-١٧٢).

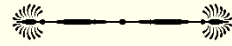


فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ وَحْدَهُ عِنْدَهُ عِلْمُ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْأَحْوالِ وَالْأَهْوالِ، وَهُوَ مُتَفَرِّدٌ بِعِلْمِهِ، فَلَا يَدْرِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فِي أَيِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَلَا فِي أَيِّ شَهْرٍ، وَلَا فِي أَيِّ سَنَةٍ.

الفرق بين الوقت والساعة :

قال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ: "السَّاعَةُ هِيَ الْوَقْتُ الْمُنْقَطِعُ مِنْ غَيْرِهِ، وَالْوَقْتُ اسْمُ الْجِنْسِ؛ وَلِهَذَا تَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ عِنْدِي، وَلَا تَقُولُ: الْوَقْتُ عِنْدِي" (١).

دقيقة :



الدَّقِيقَةُ: مُدَّةٌ مِنَ الْوَقْتِ قَصِيرَةٌ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ سِتِّينَ جُزْءًا مِنَ السَّاعَةِ، وَهِيَ مَقْسُومَةٌ إِلَى سِتِّينَ ثَانِيَةً، فَكُلُّ سَاعَةٍ عِبَارَةٌ عَنْ سِتِّينَ دَقِيقَةً، وَكُلُّ دَقِيقَةٍ سِتُونَ ثَانِيَةً، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ.

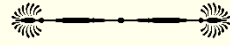
قال الشاعر:

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانِي
فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِي (٢)

(١) الفروق اللغوية (ص: ٢٧٢).

(٢) البيتان لأحمد شوقي، وهما في (ديوانه) (ص: ١٤٧). وقد شبه الدلالة بالقول، بجامع إيضاح المراد في كل، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، واشتق من القول بمعنى: الدلالة (قائل) بمعنى: دال، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة نسبة القول إلى الدقات.

لحظة :



اللَّحَاطُ: مُؤَخَّرُ الْعَيْنِ، وَاللَّحْظَةُ: النَّظَرُ مِنْ جَانِبِ الْأُذُنِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فلما تلتته الخيل وهو مثابر على الركض يخفي لحظة ويعيدها^(١)

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ يَلْحَظُ فِي

الصَّلَاةِ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَلَا يَلْوِي عُنُقَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ»^(٢). قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "قَالَ

أَبُو زَيْدٍ: لَحَظٌ يَلْحَظُ لَحْظًا وَلَحْظَانًا: إِذَا نَظَرَ بِمُؤَخَّرِ عَيْنِهِ. أَخْبَرَنِي أَبُو نَصْرٍ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: اللَّحَاطُ: مُؤَخَّرُ الْعَيْنِ الَّذِي يَلِي الصَّدْغَ"^(٣).

وَاللَّحْظَةُ: الْمَرَّةُ مِنَ اللَّحْظِ. يَقُولُونَ: جَلَسْتُ عِنْدَهُ لَحْظَةً، أَي: كَلَحْظَةِ الْعَيْنِ،

وَيَصَغَّرُونَهُ: لَحِظَةً، وَالْجَمْعُ: لَحْظَاتٌ.

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَحْظُهُ وَلَحَظَ إِلَيْهِ، أَي: نَظَرَ إِلَيْهِ بِمُؤَخَّرِ عَيْنِهِ. وَاللَّحَاطُ-

بِالْفَتْحِ-: مُؤَخَّرُ الْعَيْنِ. وَاللَّحَاطُ -بِالْكَسْرِ-: مَصْدَرٌ لِحَظَّتِهِ: إِذَا رَاعَيْتَهُ"^(٤). وَقَوْلُهُ:

أَي: نَظَرَ بِمُؤَخَّرِ عَيْنِهِ الْمُرَادُ مِنْهُ: الزَّمَنُ الْيَسِيرُ، أَي: قَدَرُ لَحْظَةٍ

(١) العين، مادة: (لحظ) (١٩٨/٣)، وانظر: تهذيب اللغة (٢٦٤/٤).

(٢) وفي لفظ: «يلتفت» مكان: «يلحظ». والحديث صححه ابن حبان والدارقطني، والحاكم، وقال: "صحيح

على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. قال الحافظ ابن حجر: "أخرجه الترمذي، والنسائي، وصححه ابن

حبان والحاكم والدارقطني، ورجح إرساله الترمذي، وقد أخرجه البزار وابن عدي من وجه آخر في ترجمة

مندل بن علي. الدراية في تخريج أحاديث الهداية (١٨٣/١)، انظر: نصب الراية (٨٩/٢).

(٣) غريب الحديث، لإبراهيم الحربي (٦٥١/٢).

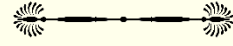
(٤) الصحاح، للجوهري، مادة: (لحظ) (١١٧٨/٣)، وانظر: جمهرة اللغة، مادة: (لحظ) (٥٥٣/١)، مقاييس

اللغة (٢٣٨-٢٣٧/٥).



واللحظة: مصدر لحظ الشيء هنيهة إذا نظر إليه بتحديد، ثم استعملت بمعنى الزمان اليسير بقدر ما تلحظ العين ^(١). واللحظة أطول من الثانية حيث إن اللحظة وحدة زمنية قديمة تساوي تسعين ثانية.

ثانية :



الثانية: هي جزء من ستين جزءاً من الدقيقة، والدقيقة جزء من ستين جزءاً من الدرجة؛ والدرجة جزء من خمسة عشر جزءاً من الساعة المقدر بها الليل والنهار ^(٢). والثانية أقصر من اللحظة حيث إن اللحظة وحدة زمنية قديمة تساوي تسعين ثانية.



(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢٨٨).

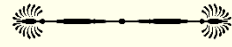
(٢) انظر: الكلبيات (ص: ٣٢٧)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٥/٦)، حاشيتنا القانوني وابن

التمجيد على البيضاوي (١١/٤٣٣-٤٣٤).



ثالثًا: أسماء اليوم باعتبار الماضي والحاضر والمستقبل:

أمس :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ آمَرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].
﴿فَأُصْبِحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ [القصص: ١٨].

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ أَتَرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [الفصص: ١٩].
﴿وَأُصْبِحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [الفصص: ٨٢].

سيأتي أن الغد تعبير عن الزمن النسبي المستقبل، ويقال في الحقيقة لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه.

ثم توسَّعوا فيه حتى أُطلق على البعيد المُتَرَقَّب.

والأمس عكسه، فهو تعبير عن الزمن النسبي الماضي، فهو يقال على سبيل الحقيقة لليوم الذي قبل اليوم الحاضر.

ويتوسع فيه فيطلق على الزمن الماضي مطلقًا.

والنكته فيه: تقريب الزمان الماضي؛ تشبيهًا لما مضى من الزمن؛ لسرعة انقضائه، بانقضاء اليوم الذي قبل اليوم الحاضر، وهو يمضي سريعًا، فكذلك ما مضى من الأيام المتعاقبة.

ويقال: ذهب فلان كما ذهب أمس الدابر، أو أمس الذهاب، وهو الماضي الذي لا يرجع أبداً.

وأمس مبني على الكسر إذا كان معرفة، فإذا نكر أو أضيف أو دخلت عليه أل فيعرب: كلُّ غدٍ صائِرٌ أمْسًا، ومضى أمْسنا، والأمس المبارك.

والأمس البعيد هو الماضي البعيد.

والأمس القريب: الماضي القريب.

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمس: اسمٌ حَرَك آخره؛ لالتقاء الساكنين. واختلفت العرب فيه، فأكثرهم يبنيه على الكسر معرفةً، ومنهم من يُعربه معرفةً. وكلُّهم يعربه إذا دخل عليه الألف واللام، أو صَيَّرَه نكرة، أو أضافه. تقول: مضى الأمْسُ المبارك، ومضى أمْسنا، وكلُّ غدٍ صائِرٌ أمْسًا. وقال سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): قد جاء في ضرورة الشعر مذ أمس - بالفتح -.

ولا يُصَغَّرُ أمْس كما لا يُصَغَّرُ غَدٌ، والْبَارِحَةُ، وَكَيْفَ، وَأَيْنَ، ومتى، وأَيُّ، وما، وعند، وأسماءُ الشُّهُور، والأسبوع غَيْرَ يومِ الجمعة"^(٢).

فأمس يراد به اليوم الذي قبل يومك، ويراد به ما مضى من الزمان مطلقاً، كقول

زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علمٍ ما في غدٍ عم^(٣)

(١) انظر: الكتاب، لسيبويه (٢٨٣/٣).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (أمس) (٩٠٤/٣)، وانظر: الجمل في النحو (ص: ٢٠١-٢٠٢).

(٣) هذا بيتٌ من الطويل. وقائله: زهير بن أبي سلمى. وهو في (ديوانه) (ص: ٧٠)، طبعة: دار المعرفة، بيروت. والشاهد فيه: ورودُ الأزمنة الثلاثة فيه: اليوم للحال، والأمس للماضي، وغد للمستقبل. وفيه حشو غير مفسد للمعنى، وهو لفظة قبله، قوله: قبله، صفة الأمس بتقدير الكائن قبله، وهو الوصف للتأكيد، وإنما صار حشواً؛ لأنه لا فائدة للتأكيد فيه. انظر: معاهد التنصيص (٣٢٥/١-٣٢٦)، الأطول شرح=

فإذا أريد منه اليوم الذي قبل يومك فهو مبني على الكسر؛ لتضمنه معنى: الألف واللام، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين. ومنهم من بينه وفيه الألف واللام.

وقد جاء في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ [الفصل: ٨٢]: أن قوله: ﴿بِالْأَمْسِ﴾ ظرف لـ: ﴿تَمَنَّوْا﴾، ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة، أي: الاستعارة اللفظية، نحو: استعارة المرسن - وهو أنف فيه رسن - لمطلق الأنف^(١). وكذلك استعار (الأمس) وهو وقت محدود متعارف للزمان المستقرب^(٢). تقول: كنت بالأمس شابًا، وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك، ولا باليوم يومك.

وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]. قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن العرب من يخفض الأمس، وإن أدخل عليه الألف واللام. وأنشد:

وَإِنِّي حُبِسْتُ الْيَوْمَ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ ***" (٣).

= تلخيص مفتاح العلوم (١/٦٦)، (٢/٦٩)، مواهب الفتاح (١/٦٨)، (١/٦٣٣)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص: ١٤١).

(١) (المرسن)، وهو أنف البعير، إذا أطلق على الإنسان إما أن نطلقه على سبيل إطلاق المقيد على المطلق مجازًا مرسلًا، وعلاقته: التقييد. وإما أن نطلقه على سبيل التشبيه؛ لعلاقة المشابهة، فيكون من قبيل الاستعارة.

(٢) انظر: الكشف (٣/٤٣٤)، حاشية الطيبي على الكشف (١٢/١١٧).

(٣) انظر: معاني القرآن، للفراء (١/١٠١-١٠٢)، تهذيب اللغة (١٣/٨٠). قال ابن هشام: "روى هذا البيت بفتح (أمس) على أنه ظرف معرب؛ لدخول (أل) عليه. ويروى أيضًا بالكسر، وتوجيهه إما على البناء، وتقدير (أل) زائدة، أو على الإعراب على أنه قدر دخول (في) على (اليوم)، ثم عطف عليه عطف =

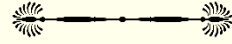


وقال ابن خروف رَحِمَهُ اللهُ: "للعرب في (أمس) لغات: فأهل الحجاز بينونه على الكسر في كل حال، ولا علة لبنائه إلا التخفيف؛ تشبيها بالأصوات، ك: (غاق) لصوت الغراب، وبنو تميم بينونه على الكسر في الجر والنصب، ويعربونه في الرفع بلا صرف، ومنهم من يعربه بكل حال ولا يصرفه..".^(١)

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

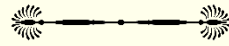
وكلُّ حرفٍ مستحقٌّ لبنا والأصل في المبني أن يسكَّنَا
ومنه ذو فتح وذو كسر وضم كأين أمس حيث والسَّاكن كم^(٢)

يوم :



وقد تقدم.

غد :



قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢].

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۖ ﴿٣١﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۚ﴾ [لقمان: ٣٤].

=التوهم" انظر: شرح شذور الذهب، لابن هشام (ص: ١٣١-١٣٢)، وانظر: حاشية الصبان على شرح

الأشمونى لألفية ابن مالك (٣/٣٩٣).

(١) انظر: تحرير ألفاظ التنبيه، للنووي (ص: ٢٦٦-٢٦٧)، المحكم والمحيط الأعظم (٨/٥٦٥-٥٦٦).

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ١٠).



﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ﴾ [القمر: ٢٦].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

﴿أَنِ اعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ [القلم: ٢٢].

﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

الغد أو غداً هو تعبير عن الزمن النسبي المستقبل، ويقال في الحقيقة لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه.

ثم توسَّعوا فيه حتى أُطلق على البعيد المُتَرَقَّب. فهو يطلق على المستقبل مجازاً؛ والنكته فيه: أنه مرتقب ينبغي أن يكون في الحسبان، وأن لا يغفل عنه؛ لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغد، لأن الغد هو اليوم الموالي لليوم الذي فيه المتكلم فهو أقرب أزمنة المستقبل، كما قال قراد بن أجدع:

فإن يك صدر هذا اليوم ولَّى فإن غداً لناظره قريب ^(١)

أي: لمنتظره. يقال: نظرته أي: انتظرته.

كما يستعمل اليوم بمعنى: زمان الحال، والأمس بمعنى: زمن الماضي. وقد جمعها زهير بقوله:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكِنِّي عن عِلْمٍ ما في غَدٍ عَمٍ ^(٢)

(١) أول من قال ذلك: قراد بن أجدع. انظر: مجمع الأمثال (٧٠/١)، التحرير والتنوير (١١١/٢٨).

(٢) هذا بيت من الطويل. وقائله: زهير بن أبي سلمى. وهو في (ديوانه) (ص: ٧٠)، طبعة: دار المعرفة، بيروت. والشاهد فيه: ورودُ الأزمنة الثلاثة فيه: اليوم للحال، والأمس للماضي، وغد للمستقبل. وفيه حشو غير مفسد للمعنى، وهو لفظة قبله، قوله: قبله، صفة الأمس بتقدير الكائن قبله، وهو الوصف للتأكيد، وإنما صار حشواً؛ لأنه لا فائدة للتأكيد فيه. انظر: معاهد التنصيص (٣٢٥/١-٣٢٦)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٦٦/١)، (٦٩/٢)، مواهب الفتاح (٦٨/١)، (٦٣٣/١)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص: ١٤١).

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]: "الغد: يوم القيامة، سماه باليوم الذي يلي يومك؛ تقريباً له. وعن الحسن رَحِمَهُ اللهُ: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد. ونحوه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، يريد: تقرب الزمان الماضي. وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران: يوم وغد" (١).

وتنكيره لتعظيم أمره، أي: أنه لا يعرف كنهه؛ لعظمه.

قال في (النهاية): "الغدو: أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه، ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر..". (٢).

وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]: "أي: ليوم القيامة، وقُرِبَ على الناس، فجعل كأنه يأتي غداً. وأصل غَدٍ: غَدُوٌّ، إلا أنه لم يأت في القرآن إلا بحذف الواو، وقد تُكَلِّم به بحذف الواو، وجاء في الشعر بإثبات الواو وحذفها.

قال الشاعر في إثباتها:

وما النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بها يومَ حُلُوهَا وَغَدُوًّا بَلَاقِعُ (٣)

وقال آخر:

(١) الكشاف (٤/٥٠٨).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غدا) (٣/٣٤٦).

(٣) قاله لبيد بن ربيعة العامري، وهو في (ديوانه) (ص: ٥٦)، وبلاقع: أي: قفار.

لَا تَعْلُوهَا^(١) وَاذْلُوهَا ذَلُّوا إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ أَخَاهُ غَدُوٌّ^(٢)
 الْغَدُ أَصْلُهُ غَدُوٌّ - مِثْلُ فَلَسٍ -، حَذَفُوا الْوَاوَ بِلَا عَوْضٍ، وَ(الْغُدُوَّةُ): مَا بَيْنَ صَلَاةِ
 (الْعَدَاةِ) وَطُلُوعِ الشَّمْسِ. يُقَالُ: أَتَيْتَهُ غُدُوَّةً غَيْرَ مَصْرُوفٍ؛ لِأَنَّهَا مَعْرِفَةٌ مِثْلُ: سَحَرَ، إِلَّا
 أَنَّهَا مِنَ الظُّرُوفِ الْمُمْكِنَةِ، وَالْجَمْعُ: غُدَاً. وَيُقَالُ: آتَيْكَ غَدَاةً غَدٍ، وَالْجَمْعُ: الْغَدَوَاتُ^(٣).
 قَالَ فِي (الْعَيْنِ): "غَدُو: غَدَا غَدَاكَ: مَقْصُورٌ نَاقِصٌ، وَغَدَا غَدُوْكَ تَامٌ، وَأَنْشَدَ:
 وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلَّوْهَا وَغَدَوْا بِلَاقِعٍ"^(٤)
 قَالَ الرَّاعِبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: "غَدٌ يُقَالُ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَلِي يَوْمَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، قَالَ:
 ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ [القمر: ٢٦]، وَنَحْوَهُ"^(٥).

(١) ورد في غير مصدر بلفظ: (لا تغلواها واذلواها دلوا***)، والقلو: السير الحثيث، والدلو: السير الرفيق. انظر:
 الزاهر (٣٣٨/١)، الفاضل، للمبرد (ص: ١٩)، جمهرة الأمثال (٢٨٤/٢)، الصحاح، مادة: (دلو)
 (٢٣٣٩/٦)، جمهرة اللغة (٦٧١/٢)، المستقصى في أمثال العرب (٤١٤/١)، المنصف، لابن جني
 (ص: ٦٤)، المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٤٢٧)، غريب الحديث، للخطابي (٢/ ٢٤٤)، الممتع الكبير في
 التصريف، لابن عصفور (ص: ٣٩٦)، شرح شافية ابن الحاجب (٣/ ٢٩٧)، شرح المفصل، لابن يعيش
 (٣/ ٢٢٢).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (١٤٩/٥). و"معنى قوله: لا تغلواها، أي: لا تعنفوا بها. يقال: غلوت الأبل غلواً: إذا
 حثثتها في السير، ودلوها: إذا رفقت بها. وقوله: غدواً إنما المستعمل منه غد؛ لأنه على حرفين، مثل: يد
 وما أشبهه. وأصله: غدو، فحذفت منه الواو، فلما اضطر إليه الشاعر رده إلى أصله "الخور العين، لنشوان
 بن سعيد الحميري اليميني (ص: ٤٦).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري (٦/ ٢٤٤٤).

(٤) العين، مادة: (غدو) (٤/ ٤٣٦-٤٣٧). والبيت قد تقدم.

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (غدا) (ص: ٦٠٣).



رابعًا: أجزاء اليوم وساعات الليل والنهار:

أما أجزاء اليوم: فأوله: الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الهجيرة، ثم الظهر، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة، عند مغيب الشفق^(١).

وقد ذكر قطرب رحمه الله ترتيب ساعات الليل، وترتيب ساعات النهار، وهي تمثل أجزاء اليوم، مع بيان مسمياتها في كتابه: (الأزمنة)^(٢).

وقد أوجز الثعالبي رحمه الله في (فقه اللغة) ذكر ساعات النهار وساعات الليل، حيث قال: ساعات النهار: الشُّرُوقُ، ثُمَّ الْبُكُورُ، ثُمَّ الْغُدُوَّةُ، ثُمَّ الضُّحَى، ثُمَّ الْهَاجِرَةُ، ثُمَّ الظُّهَيْرَةُ، ثُمَّ الرَّوَّاحُ، ثُمَّ الْعَصْرُ، ثُمَّ الْقَصْرُ، ثُمَّ الْأَصِيلُ، ثُمَّ الْعَشِيُّ، ثُمَّ الْغُرُوبُ. وساعات الليل: الشَّفَقُ، ثُمَّ الْغَسَقُ، ثُمَّ الْعَتَمَةُ، ثُمَّ السُّدُفَةُ، ثُمَّ الْفَحْمَةُ، ثُمَّ الزُّلَّةُ، ثُمَّ الزُّلْفَةُ، ثُمَّ الْبُهِرَةُ، ثُمَّ السَّحَرُ، ثُمَّ الْفَجْرُ، ثُمَّ الصُّبْحُ، ثُمَّ الصَّبَّاحُ، "وباقى أسماء الأوقات تجيء بتكرير الألفاظ التي معانيها متفقة"^(٣).



(١) انظر: الكليات (ص: ٩٨١).

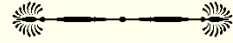
(٢) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقطرب (ص: ٤٩)، (ص: ٥٦).

(٣) فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي (ص: ٢١٥).

البحث العاشر

ألفاظ يحتاجها المفسر والفقيه مع بيان دلالاتها وما يتصل بها من أعمال

إبكار وبكرة وتبكير :



والبُكْرَةُ: الغُدْوَةُ. قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "تقول: أتيتُهُ بُكْرَةً - بالضم -، أي: باكراً. فإن أردت به بُكْرَةً يوم بعينه قلت: أتيتُهُ بَكْرَةً غيرَ مصروفٍ، وهي من الظُّروف التي لا تتمكن. وسِيرَ على فرسك بُكْرَةً وبَكْرًا، كما تقول: سَحَرًا. وقد بَكَرْتُ أَبْكَرُ بُكُورًا، وبَكَرْتُ تَبْكِيرًا، وَأَبْكَرْتُ وَابْتَكَرْتُ، وباكَرْتُ كله بمعنى. ولا يقال: بَكُر - بضم الكاف - ولا بكر - بكسرهما -. وقال أبو زيد: أَبْكَرْتُ الغَدَاءَ. قال: وَبَكَرْتُ على الحاجة بكُورًا، وَأَبْكَرْتُ غَيْرِي. وَأَبْكَرَ الرجلُ: وَرَدَتْ إِبْلُهُ بُكْرَةً. وكلُّ من بادر إلى الشيء فقد أَبْكَرَ إليه وَبَكَرَ، أيَّ وقتٍ كانَ. يقال: بَكَّرُوا بِصَلَاةِ الْمَغْرَبِ، أي صَلُّوْهَا عِنْدَ سَقُوطِ الْفُرْصِ. وقوله جَدَّوَعَلَا: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝﴾ [آل عمران: ٤١]، وهو فَعْلٌ يدلُّ على الوقت وهو البكرة، كما قال: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، جعل الغدوَّ وهو مصدرٌ يدل على الغداة. والباكورة: أول الفاكهة.

وفي (التَّهذِيبُ): "والبُّكْرَةُ من العُدَّة تُجمع: بُكْرًا وأبكارًا. وقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٨] بكرة وغدوة إذا كانتا نكرتين أنثى وصُفرتا، وإذا أرادوا بهما بكرة يومك؛ وغداة يؤمك لم تصرفهما فبكرة ها هُنا نكرة.

والبُّكُورُ، والتبكيرُ: الخروج في ذلك الوقت.

والإِبْكَارُ: الدُّخُولُ في ذلك الوقت، ويقال: باكَرْتُ الشَّيْءَ إذا بَكَّرْت له^(١). وسيأتي كذلك ذكر لفظ: (الإبكار في القرآن الكريم) مع ذكر (عشي) من ألفاظ الزمن.

ومن المجاز: "بكر بالصلاة إذا صلاها في أول وقتها. وابتكر الشيء: أخذ أوله. وابتكر الخطبة: سمع أولها. ونخلة باكر وبكور: تبكر بحملها"^(٢). وفي حديث الجمعة: «من بَكَّرَ وَابْتَكَّرَ»^(٣)، قالوا: بكر: أسرع. وابتكر: أدرك الخطبة من أولها. وهو من الباكورة^(٤).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: وقوله «بَكَّرَ وَابْتَكَّرَ» زعم بعضهم أن معنى «بَكَّرَ»: أدرك باكورة الخطبة، وهي أولها، ومعنى: «وَابْتَكَّرَ» قدم في الوقت.

(١) تهذيب اللغة (١٠/١٢٧).

(٢) انظر: أساس البلاغة (١/٧٢)، الفائق في غريب الحديث والأثر (٣/٦٧)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (بكر) (١/١٤٨-١٤٩).

(٣) رواه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث: أوس بن أوس، وحسنه الترمذي. المغني عن حمل الأسفار (ص: ٢١٣).

(٤) الصحاح، للجوهري، مادة: (بكر) (٢/٥٩٦-٥٩٧).

وقال ابن الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ معنى: «بَكَّرَ»: تصدق قبل خروجه. وتأول في ذلك ما روي في الحديث من قوله: «باكروا بالصدقة؛ فإن البلاء لا يتخطاها»^(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح، فكأنما قَرَّبَ بدنه، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قَرَّبَ بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قَرَّبَ كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قَرَّبَ دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قَرَّبَ بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»^(٢).

وقوله: «راح إلى الجمعة» معناه: قصدها، وتوجه إليها مبكراً قبل الزوال. وإنما تأولناه على هذا المعنى؛ لأنه لا يجوز أن يبقى عليه بعد الزوال من وقت الجمعة خمس ساعات، وهذا جائز في الكلام أن يقال: راح لكذا ولأن يفعل كذا بمعنى: أنه قصد إيقاع فعله وقت الرواح، كما يقال للقاصدين إلى الحج: حجاج ولما يحجوا بعد، وللخارجين إلى الغزو غزاة، ونحو ذلك من الكلام.

(١) الحديث مروي عن عليٍّ وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. حديث علي: أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٥٦٤٣]، قال الهيثمي (١١٠/٣): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه: عيسى بن عبد الله بن محمد، وهو ضعيف" حديث أنس: أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٧٨٣١]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٨٢]، والديلمي [٢٠٧٩]. وقد أورده ابن الجوزي في (الموضوعات) (١٥٣/٢). وأورده كذلك القاري في (الموضوعات الكبرى) (ص: ٨٧). قال ابن الجوزي: هو موضوع. وقال ابن حجر العسقلاني: لكن لا يتبين لي أنه كذلك. انظر: المقاصد الحسنة (ص: ٢٣٢)، الأسرار المرفوعة (ص: ١٤٦-١٤٧)، وفي (الفوائد المجموعة): "رواه ابن عدي عن أنس مرفوعاً، وفي إسناده: وضاع ومجهول وكذاب، وأخرجه الطبراني من حديث: عليٍّ بإسناد آخر، وفيه ضعف" (ص: ٦١-٦٢)، وانظر: اللآلئ المصنوعة (٦١/٢-٦٢)، تنزيه الشريعة المرفوعة (١٣١/٢).

(٢) صحيح البخاري [٨٨١]، مسلم [٨٥٠].

فأما حقيقة الرواح فإنما هي بعد الزوال، يقال: (غدا الرجل في حاجته): إذا خرج فيها صدر النهار، و(راح لها): إذا كان ذلك في عجز النهار أو في الشطر الآخر منه. وأخبرني الحسن بن يحيى، عن أبي بكر بن المنذر، قال: كان مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ يقول: لا يكون الرواح إلا بعد الزوال، وهذه الأوقات كلها في ساعة واحدة.

قلت: كأنه قسم الساعة التي يحين فيها الرواح للجمعة أقسامًا خمسة فسمها ساعات على معنى التشبيه والتقريب، كما يقول القائل: قعدت ساعة، وتحدثت ساعة ونحوه، يريد: جزءًا من الزمان غير معلوم، وهذا على سعة مجاز الكلام وعادة الناس في الاستعمال^(١).

وجاء في الحث على التذكير لصلاة العصر: عن أبي المليح، قال: كنا مع بريدة في غزوة في يوم ذي غيم، فقال: بكروا بصلاة العصر، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»^(٢).

فقوله: «بكروا بصلاة العصر»، أي: قدموها في أول الوقت.

قال المهلب رَحِمَهُ اللهُ: "معناه من تركها مضيعًا لها، متهاونًا بفضل وقتها مع قدرته على أدائها، فحبط عمله في الصلاة خاصة، أي: لا يحصل على أجر المصلي في وقتها، ولا يكون له عمل ترفعه الملائكة. قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: فإن قيل: ما معنى قوله: «بكروا بصلاة العصر» في يوم الغيم، ولا سبيل إلى معرفة أوقات النهار؛ لارتفاع الأدلة على ذلك بالغيم الساتر عين الشمس؟ قال: ذلك أمر منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالبكور بها على

(١) معالم السنن (١/١٠٨-١٠٩).

(٢) صحيح البخاري [٥٥٣، ٥٩٤].

التحرى والأغلب عند المتحرى، لا على إحاطة نفس العلم بإصابة أول وقتها؛ لأن أوقات الصلوات لا تدرك في يوم الغيم إلا بالتحري والعلم الظاهر" (١).

وجاء في الحث على التبكير لصلاة المغرب: عن مرثد بن عبد الله، قال: لما قدم علينا أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غازیًا وعقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومئذ على مصر، فأخبر المغرب فقام إليه أبو أيوب، فقال: له ما هذه الصلاة يا عقبة، فقال: شغلنا، قال: أما سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا تزال أمتي بخير -أو قال: على الفطرة- ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم» (٢).

وفي رواية: عن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «بادرُوا بِصَلَاةِ الْمَغْرِبِ قَبْلَ طُلُوعِ النَّجْمِ» (٣).

و«بادروا» أي: سارعوا إلى فعلها قبل ظهور النجوم للناظرين؛ فإن المبادرة بها مندوبة؛ لضيق وقتها، ويبقى وقتها إلى مغيب الشفق على المفتى به عند الشافعية والحنابلة.

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٧٦/٢-١٧٧).

(٢) أخرجه أحمد [١٧٣٢٩]، وأبو داود [٤١٨]، وابن خزيمة [٣٣٩]، والطبراني في (الكبير) [٤٠٨٣]، والحاكم [٦٨٥]، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٧٢٨].

(٣) أخرجه أحمد [٢٣٥٢١]، والرويانى [٢٥٨]، والدارقطنى [١٠٢١]، وفيه: ابن لهيعة، قال الذهبي: وشاهده: «لا تزال أمتي بخير ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم»، قال الهيثمي (٣١٠/١): رواه أحمد عن يزيد بن أبي حبيب، عن رجل، عن أبي أيوب، وبقيّة رجاله ثقات. ورواه الطبراني عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران عن أبي أيوب، ورجاله موثقون.

وفرق ابن القيم رحمه الله بين المبادرة والعجلة بأن المبادرة: انتهاز الفرصة في وقتها فلا يتركها حتى إذا فاتت طلبها، فهو لا يطلب الأمور في أدبارها، ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها، ووثب عليها، والعجلة: طلب أخذ الشيء قبل وقته ^(١).
وقد حكى محمد بن خوير منداد البصري المالكي رحمه الله في كتابه في (الخلاص):
"أن الأمصار كلها بأسرها لم يزل المسلمون فيها على تعجيل المغرب والمبادرة إليها في حين غروب الشمس، ولا نعلم أحداً من المسلمين آخر إقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس. وفي هذا ما يكفي مع العمل بالمدينة في تعجيلها ^(٢).
قال ابن عبد البر رحمه الله: "وقد أجمع المسلمون على تفضيل تعجيل المغرب، من قال: إن وقتها ممدود إلى مغيب الشفق، ومن قال: إنه ليس لها إلا وقت واحد، كلهم يرى تعجيلها أفضل.

قال: وعلى تفضيل أوائل الأوقات جمهور العلماء، وأكثر أئمة الفتوى ^(٣).
وأما صلاة الفجر فقد "أجمع العلماء على أن وقت صلاة الصبح: طلوع الفجر، وهو البياض المعترض في الأفق الشرقي، واختلفوا في التغليس بما هل هو أفضل أم الإسفار؟ فممن كان يغلس بالفجر: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وأبو موسى، وابن الزبير رحمه الله عنه، وهو قول مالك، والليث، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق رحمه الله. وممن كان يسفر بالصبح: ابن مسعود، وأبو الدرداء، وعمر بن عبد العزيز، وأصحاب عبد الله

(١) فيض القدير (١٩٣/٣).

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٨٧/٢)، الاستذكار، لابن عبد البر (٣٠/١).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٣٤٢-٣٤٣).



رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: كانوا يستحبون أن ينصرفوا من الصبح، وأحدهم يرى مواقع نبله، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والثوري رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُصَلِّيَ الصُّبْحَ، فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ مُتَلَفَعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ، مَا يُعْرِفْنَ مِنَ الْغَلَسِ»^(٢).

وعن أبي بكر بن عُمَارَةَ بنِ زُوَيْبَةَ، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»، يعني: الفجر والعصر^(٣).

وفي (الصحيحين): «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤).

قوله: «الْبَرْدَيْنِ»: تشية: برد - بفتح الباء الموحدة وسكون الراء-، والمراد بهما: صلاة الفجر والعصر^(٥).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال كثير من العلماء: هما: الفجر والعصر، وسُمِّيَا بذلك؛ لأنهما يفعَلان في وقتي البرد"^(٦).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢/٢٠٠).

(٢) صحيح البخاري [٥٧٨، ٨٦٧]، مسلم [٦٤٥]. و«متلفعات» متلحفات من التلحف، وهو شد اللفاح، وهو ما يغطي الوجه ويتلحف به. و«مروطهن»: (الْمُرْطُ) - بالكسر - كساء من صوف أو خز يؤثر به. وقيل: الجلباب. وقيل: الملحفة. «ما يعرفن»، أي: ما يعرفهن أحد. و(الْغَلَسُ): بفتح اللام ظلمة آخر الليل.

(٣) صحيح مسلم [٦٣٤].

(٤) صحيح البخاري [٥٧٤]، مسلم [٦٣٥].

(٥) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١).

(٦) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٢٦٢).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأنهما يصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب سَوْرَةُ الْحَرِّ" (١).

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: الفجر والعصر، وخصمهما؛ لكونهما شاقين، فمن واضب عليهما واضب على غيرهما بالأولى" (٢).

وعن جرير بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى القمر ليلة -يعني البدر- فقال: «إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُونَ في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [٣٩: ٢٠]، قال إسماعيل: افعلوا لا تفوتنكم (٣).

وجاء في الحث على المبادرة إلى صلاة الوتر قبل صلاة الفجر: عن ابن عمر رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بادروا الصُّبْحَ بالوتر» (٤)، أي: سابقوا وتعجلوا من المبادرة، أي: أسرعوا بأداء قبل صلاة الفجر. قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال: بادرت إليه، وبادرت. والبدر قيل: سمي بدراً؛ لمبادرته الشمس بالطلوع. وأقول: كأن الصبح تقدم إليك مسافراً طالباً منك الوتر، وأنت تستقبله مسرعاً بمطلوبه، وإيصاله إلى بغيته. وذهب بعض

(١) انظر: غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١٨٥-١٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (٥٣/٢)، عمدة القاري (٧١/٥). و(سَوْرَةُ الْحَرِّ): وَثُوْبُهُ واشتداده.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٣٠٣/٢).

(٣) صحيح البخاري [٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤]، مسلم [٦٣٣].

(٤) صحيح مسلم [٧٥٠].

أهل العلم إلى أنه لا وتر بعد الصبح، وهو قول عطاء رَحِمَهُ اللهُ، وبه قال أحمد ومالك رَحِمَهُمَا اللهُ، وذهب آخرون إلى أنه يقضيه متى كان^(١).

وجاء في الحثِّ على المبادرة والمسارة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر..."^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة»^(٤).

وقد جاء بيان ذلك مفصلاً في كتاب: (نهج الأبرار).

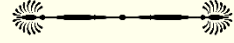
(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٢٢٢).

(٢) صحيح مسلم [١١٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣٣).

(٤) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

إِسْفَارُ:



والإسفار: الإضاءة. وسَفَرَ الصُّبْحُ وَأَسْفَرَ الصُّبْحُ، أي: أضاء. وفي الحديث: «أَسْفَرُوا بِالصُّبْحِ؛ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْأَجْرِ»^(١)، أي: صلوا صلاة الفجر مُسْفِرِينَ، ويقال: طَوَّلُوهَا إِلَى الْإِسْفَارِ. وَأَسْفَرَ وَجْهُهُ حُسْنًا، أي: أشرق كذا في (الصَّحاح)، قال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أَقُولُ: أَسْفَرْنَا، إِذَا دَخَلْنَا فِي سَفَرِ الصُّبْحِ، وَلَا أَقُولُ إِلَّا سَفَرَ الصُّبْحِ^(٢). وفي (المطلع): قوله: (مسفرين) "أي: إسفارًا يتيقن معه طلوع الفجر؛ جمعًا بينه وبين مواظبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّغْلِيصِ"^(٣).

وفي (التهذيب): "قوله: «أَسْفَرُوا بِالْفَجْرِ؛ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْأَجْرِ» يقول: صَلُّوا صَلَاةَ الْفَجْرِ بعدما يَتَبَيَّنُ الْفَجْرُ ويظهر ظهورًا لا ارتياب فيه، فكلُّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ عَلِمَ أَنَّهُ الْفَجْرُ الصَّادِقُ، ومن هذا يقال: سَفَرَتِ الْمَرْأَةُ عَنْ وَجْهِهَا: إِذَا كَشَفَتِ النَّقَابَ عَنْ وَجْهِهَا، تَسْفِرُ سَفُورًا، ومنه يقال: سَفَرْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ أَسْفِرَ سَفَارَةً: إِذَا أَصْلَحْتَ بَيْنَهُمْ وَكَشَفْتَ مَا فِي قَلْبِ هَذَا وَقَلْبِ هَذَا؛ لِتُصْلِحَ بَيْنَهُمْ"^(٤).

(١) أخرجه الإمام الشافعي في (مسنده) (١٧٥/١)، وابن الجعد [٢٩٥٧]، وعبد بن حميد [٤٢٢]، والطبراني في (الكبير) [٤٢٨٦]، والبيهقي في (معرفة السنن) [٢٧٩٣]. وعند أحمد [١٥٨١٩]، ابن ماجه [٦٧٢]، وأبي داود [٤٢٤]، واللفظ له، وابن حبان [١٤٨٩]: «أَصْبَحُوا بِالصُّبْحِ؛ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْأَجْرِ»، أو أَعْظَمُ لِلْأَجْرِ». وفي رواية عند أبي شيبة [٨٣]، والطبراني [٤٤١٥]: «تَوَرَّوْا بِالصُّبْحِ بِقَدْرِ مَا يُبْصَرُ الْقَوْمَ مَوَاقِعَ نَبْلِهِمْ».

(٢) انظر: الصَّحاح، للجوهري، مادة: (سفر) (٦٨٥/٣-٦٨٧)، جمهرة اللغة (٧١٧/٢).

(٣) المطلع على ألفاظ المقنع، للبلعي (ص: ٧٧).

(٤) تهذيب اللغة (٢٧٨/١٢).

وقالوا: "يحتمل أنهم حين أمرهم بتغليس صلاة الفجر في أول وقتها كانوا يصلونها عند الفجر الأول؛ حرصاً ورغبة، فقال أسفروا بها: أي: أخروها إلى أن يطلع الفجر الثاني وتحققوه، ويقوى ذلك أنه قال لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نور بالفجر قدر ما يبصر القوم مواقع نبلهم.

وقيل: إن الأمر بالإسفار خاص في الليالي المقمرة؛ لأن أول الصبح لا يتبين فيها، فأمرُوا بالإسفار احتياطاً" (١).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإسفار يختص باللون، نحو: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدر: ٣٤]، أي: أشرق لونه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨].. " (٢).
واختلف الفقهاء في الأفضل من صلاة الصبح، فذهب الكوفيون وأبو حنيفة وأصحابه، والثوري، والحسن بن حي رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وأكثر العراقيين إلى أن الإسفار بها أفضل من التغليس في الأزمنة كلها الشتاء والصيف.

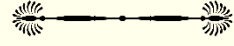
وكان مالك، والليث بن سعد، والأوزاعي، والشافعي رَحِمَهُمُ اللَّهُ يذهبون إلى أن التغليس بصلاة الصبح أفضل، وهو قول أحمد بن حنبل، وأبي ثور، وداد بن علي، وأبي جعفر الطبري رَحِمَهُمُ اللَّهُ "وينظر ذلك في مظانه" (٣).

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (سفر) (ص: ٣٧١-٣٧٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (سفر) (ص: ٤١٢)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٥٠).

(٣) انظر: الاستذكار، لابن عبد البر (١/٣٦-٣٧).

أَصَال :



قوبل في القرآن الكريم الغدو بالأصال، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].
وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [النور: ٣٦].
وقال جلَّ وعلا: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].
وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨-٩].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].
قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جلَّ وعلا: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾، أي: بالعشي، واحدها: أُصْل، وواحد الأصل: أصيل، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس.. " (١) فالأصال جمع: أصِل، والأصل جمع: أصيل، فالأصال جمع الجمع، والأصال: العَشيَّات " (٢).

(١) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن النخعي (١/٣٢٨).

(٢) معاني القرآن وإعراجه (٢/٣٩٨).



وفي (العين): "والأصيل: العشي، وهو مأخوذ من الأصل، وتَصْغِيرُهُ أَصِيلٌ. وَلَقِيْتُهُ مُؤْصِلًا، أي: بأصيل" (١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه: أَصْلٌ وَأَصَالٌ وَأَصَائِلٌ، كأنه جمع: أَصِيلَةٍ. و(أَصْلَانٌ) مِثْلُ: بَعِيرٍ وَبُعْرَانٍ، ثم صغروا الجمع فقالوا أَصِيلَانٌ، ثم أبدلوا من النون لامًا فقالوا: أَصِيلَالٌ. وقد آصَلْنَا، أي: دخلنا في الأصيل.."(٢).

والمدة في آصال أصلها همزتان الأولى متحركة بالفتحة، والثانية ساكنة -أأصال-. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "والآصال واحدها: أَصِيلٌ، وهو ما بين العصر إلى المغرب، كقولك: بكرة وأصيلًا، هو قول أبي عبيدة رَحِمَهُ اللهُ أيضًا بلفظه. قال ابن التين ضبط في نسخة أصل بضميتين، وفي بعضها: أَصِيلٌ بوزن عظيم، وليس بَيْنٍ، إلا أن يريد أن الآصال جمع: أَصِيلٌ فيصح. وعن قتادة رَحِمَهُ اللهُ: الآصال: العشي. وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: الأصيل واحد الأَصْلُ، وجمع الأَصْلِ أَصَالٌ، فهو جمع الجمع والأصائل جمع: أَصِيلَةٍ، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]" (٣).

والحاصل أنه قد قيل في الآصال:

إنها جمع: أَصْلٌ، والأصل جمع أَصِيلٌ، فالآصال جمع الجمع، وليس للقلة وليس جمعًا لأصيل؛ لأن فاعلاً لا يجمع على أفعال. وقيل: إنه جمع لأصيل، وفَعِيلٌ يجمع على أَفْعَالٍ، نحو: يَمِينٌ وَأَيْمَانٌ.

(١) العين (١٥٦/٧-١٥٧).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (أصل) (١٦٢٣/٤).

(٣) فتح الباري (٣٠١/٨)، مقاييس اللغة، مادة: (أصل) (١٠٩/١-١١٠).

وقيل: أصل جمع لأصل، وأصل مفرد، وفُعل يجمع على أفعال كعُنُق وأَعْنَاق، وعلى هذا فلا حاجة إلى دَعْوَى أنه جمع الجمع. ويُجمع على أصلان، كزَغيف وزُغْفان. وقيل: إنه مأخوذ من الأصل، وهو أسفل كل شيء. قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ "يقال: الأصيل مأخوذ من الأصل، واليوم بليته إنما يتبدأ بالشروع من أول الليل، وآخر نهار كل يوم متصل بأول ليل اليوم الثاني، فسمي آخر النهار أصيلاً؛ لكونه ملاصقاً لما هو الأصل لليوم الثاني" (١).

قالوا: الغدو: صلاة الصبح، والآصال: صلاة الظهر والعصر والعشاءين؛ لأن اسم الآصال يشملها، ومعنى بالغدو والآصال: بالغداة والعشي، وقيل: صلاة الصبح والعصر. قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: "والغدو مصدر أطلق للوقت؛ ولذلك حسن اقترانه بالآصال" (٢).

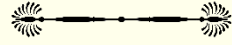
وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: "خص الغدو والآصال بهذا الذكر، والحكمة فيه: أن عند الغدوة انقلب الإنسان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، والعالم انقلب من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية. وأما عند الآصال فالأمر بالضد؛ لأن الإنسان ينقلب فيه من الحياة إلى الموت، والعالم ينقلب فيه من النور الخالص إلى الظلمة الخالصة، وفي هذين الوقتين يحصل هذان النوعان من التغيير العجيب القوي القاهر، ولا يقدر على مثل هذا التغيير إلا الإله الموصوف بالحكمة الباهرة، والقدرة الغير المتناهية؛ فلهذه الحكمة العجيبة خص الله عزَّجَلَّ هذين الوقتين بالأمر بالذكر.

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٤٤٤/١٥)، التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٥٧٣/٩).

(٢) تفسير البيضاوي (١٠٨/٤)، وانظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١٠٧/١١).

ومن الناس من قال: ذكر هذين الوقتين، والمراد: مداومة الذكر، والمواظبة عليه بقدر الإمكان^(١)، فعلى هذا: ليس المراد التخصيص، بل دوام الذكر واتصاله، أي: اذكر كل وقت.

آناء الليل :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْنِثْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

قال في (العين): الإني، والأني -مقصور-: ساعة من ساعات الليل، والجمع: آناء، وكلّ إني ساعة. والإني، مقصور أيضاً: الإدراك والبلوغ، وإني الشيء: بلوغه وإدراكه، فتقول: انتظرنا إني الطعام، أي: إدراكه، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أي: غير منتظرين نُضْجِه وبلوغه. يقال: أني الحميم، أي: انتهى حرّه، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَمِيمٍ عَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: بالغ إناءه في شدة الحرّ، والفعل: أنى ياني أنى. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْ عَيْنٍ عَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أي: سُخْنَة، متناهية في شدة الحرّ^(٢).

(١) مفاتيح الغيب (٤٤٤/١٥).

(٢) العين (٤٠٠/٨)، بتصرف، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (أني) (٥٣٠/١٠).

وَأَنَّى الشَّيْءُ أَنِّيَا وَإِنِّي وَأَنَاءُ، وَهُوَ أَنِيٌّ: حَانَ وَأَذْرَكَ. وَكُلُّ مَدْرِكٍ آنٍ. وَأَنَاءُ يُؤْنِيهِ
إِينَاءً، أَي: أَحْرَهُ وَحَبَسَهُ وَأَبْطَأَهُ.

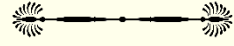
وَأَنَاءُ اللَّيْلِ: سَاعَاتُهُ. قَالَ الْأَخْفَشُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاحِدُهَا: إِنِّي، مِثَالُ: مَعَى. قَالَ: وَقَالَ
بَعْضُهُمْ: وَاحِدُهَا: إِنِّي وَإِنُّو. يُقَالُ: مَضَى إِنْوَانٍ مِنَ اللَّيْلِ وَإِنْيَانٍ. وَتَأَنَّى فِي الْأَمْرِ: تَرَفَّقَ
وَتَنَظَّرَ، وَاسْتَأَنَّى بِهِ: انتَظَرَ بِهِ، يُقَالُ: اسْتَأْنَيْتَنِي بِهِ حَوْلًا، وَالْأَنَاءُ: الْبُوزُنُ الْقَنَاءَةُ -
وَالْأَنَاءَةُ أَيْضًا: الْحِلْمُ..^(١).

قَالَ قُطْرُبٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: "قَالُوا فِي وَاحِدِ الْأَنَاءِ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَاءُ اللَّيْلِ﴾ [إِل
عمران: ١١٣]: مَضَى إِنِّي، مَنْقُوصٌ، وَإِنِّي، مَقْصُورٌ، وَإِنُّو وَإِنِّيَّ. وَقَالَ الْمُتَنَخِّلُ الْهُذَلِيُّ:
حُلُوٌّ وَمُرٌّ كَعَطْفِ الْقِدْحِ مِرَّتُهُ فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ^(٢)
وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ
اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يَنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ»^(٣).

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أنا) (٢٢٧٣/٦ - ٢٢٧٤)، معاني القرآن، للأخفش (٢٣٠/١).
(٢) الأزمنة وتلبية الجاهلية (ص: ٥١)، وانظر: جمهرة اللغة (٢٥٠/١)، الأزمنة والأمكنة (ص: ٢٤٢)، ديوان
الهذليين (٣٥/٢)، الشعر والشعراء (٦٤٩/٢). وقوله: (حلو ومر) يعني: أنه سهل لمن لاينه، صعب على
من خاشنة. وقوله: (كعطف القدح)، يريد: أنه يطوى كما يطوى القدح، ثم يعود إلى شدته واستقامته.
(والمرة): القوة والشدّة. و(قضاء الليل)، أي: أي صنعه وقدره وفصله. و(انتعل الليل): اتخذته نعلًا، يعني:
سرى فيه، غير حافل بما يلقي. والمثبت في (ديوان الهذليين) وغيره: (بكلّ إِنِّي حذاه اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ)، و(حذاه
الليل)، أي: قطعه الليل حذاء، وهو شبيه في المعنى بقوله: (قضاء الليل).

(٣) صحيح البخاري [٧٥٢٩]، مسلم [٨١٥].

رواح وادلاج :



الرَّوَّاحُ: نقيض الصَّبَاح، وهو اسمٌ للوقت من زوال الشمس إلى الليل. وقد يكون مصدر قولك: رَاحَ يَرْوُحُ رَوَاحًا، وهو نقيض قولك: غَدَا يَغْدُو غَدْوًا. وتقول: خرجوا بِرَوَاحٍ من العَشِيِّ ورياحٍ بِمَعْنَى. وَسَرَحَتِ الماشِيَةُ بالغَدَاةِ، وراحت بِالْعَشِيِّ، أي: رجعت. وتقول: افْعَلْ ذاك في سَرَّاحٍ وَرَوَاحٍ، أي: سُهولة. والمَرَّاحُ بالضم: حيثُ تأوي إليه الإبل والغَنَمُ بالليل. والمَرَّاحُ بالفتح: الموضع الذي يَرْوُحُ منه القوم أو يروحون إليه، كالمَغْدَى من الغَدَاة. يقال: ما تَرَكَ فُلَانٌ من أبيه مَغْدًى ولا مَرَّاحًا: إذا أَشَبَّهَهُ في أحواله كُلِّهَا. والمَرَّوْحَةُ - بالكسر -: ما يُتَرَوَّحُ بها، والجمع المَرَّوَح. والمَرَّوْحَةُ - بالفتح -: المفازة" (١).

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَسَلَيْمَنَ الرِّيحِ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿غُدُوُّهَا﴾ أي: سيرها غدوة، وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس. والغدو: الخروج أول النهار. يقال: غَدَا يَغْدُو غَدْوًا، أي: ذهب غدوة - كما تقدم -. ويُستعمل بمعنى: صار عند بعضهم، فيكون ناقصًا يرفع الاسم وينصب الخبر (٢)، وعليه قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لو أنكم توكلتم على الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرْوُحُ بِطَانًا» (٣).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (روح) (٣٦٨/١-٣٦٩).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/٣٧٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٥٥٩]، والطيالسي [٥١]، وأحمد [٢٠٥]، وابن حميد [١٠]، وابن ماجه [٤١٦٤]، والترمذي [٢٣٤٤]، وقال: "حسن صحيح"، والبخاري [٣٤٠]، وأبو يعلى [٢٤٧]، وابن=

فأثبت لها غدوًا ورواحًا لأجل طلب الرزق، فهي تخرج من أول النهار «خماصًا»، أي: جياعًا، جمع خميص، وهو الضامر البطن. و«خماصًا» حال: أي: خالية الأجواف من القوت. «وتروح» أي: في آخره «بطانًا» أي: ممتلئة الأجواف، جمع بطين. فمعنى الغدو: الذهاب أول النهار، والرواح ضده.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَرَوَّاحُهَا﴾ [سبأ: ١٢]: سيرها في الرواح، أي: العشي.

وفي الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها»^(١).

وفي رواية: «لروحة في سبيل الله، أو غدوة، خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة، أو موضع قيد - يعني: سوطه - خير من الدنيا وما فيها»^(٢).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لغدوة أو روحة في سبيل الله، خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب»^(٣).

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها»^(٤).

= حبان [٧٣٠]، والحاكم [٧٨٩٤]، وصححه، وأبو نعيم في (الحلية) (٦٩/١٠)، والشهاب القضاعي

[١٤٤٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١١٣٩]، والضياء [٢٢٧]، وقال: "إسناده صحيح".

(١) صحيح البخاري [٢٧٩٢]، مسلم [١٨٨٠].

(٢) صحيح البخاري [٢٧٩٦].

(٣) صحيح البخاري [٢٧٩٣].

(٤) صحيح البخاري [٢٧٩٤]، مسلم [١٨٨٠].

وعن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غدوة في سبيل الله، أو روحة، خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»^(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "«الغدوة» - بفتح الغين -: السير أول النهار إلى الزوال. و«الروحة»: السير من الزوال إلى آخر النهار.

و«أو» هنا للتقسيم، لا للشك، ومعناه: أن الروحة يحصل بها هذا الثواب، وكذا الغدوة، والظاهر أنه لا يختص ذلك بالغدو والروح من بلدته، بل يحصل هذا الثواب بكلّ غدوة أو روحة في طريقه إلى الغزو وكذا غدوه وروحة في موضع القتال؛ لأن الجميع يسمى: غدوة وروحة في سبيل الله عَزَّجَلَّ.

ومعنى هذا الحديث: أن فضل الغدوة والروحة في سبيل الله عَزَّجَلَّ وثوابهما خير من نعيم الدنيا كلها لو ملكها إنسان وتصور تنعمه بها كلها؛ لأنه زائل، ونعيم الآخرة باق. قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد قيل في معناه ومعنى نظائره من تمثيل أمور الآخرة وثوابها بأمر الدنيا أنها خير من الدنيا وما فيها لو ملكها إنسان، وملك جميع ما فيها وأنفقه في أمور الآخرة قال هذا القائل، وليس تمثيل الباقي بالفاني على ظاهر إطلاقه - والله أعلم -^(٢).

قال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «الغدوة والروحة خير من الدنيا» يعني: خير من زمن الدنيا؛ لأن الغدوة والروحة في زمن، فيقال: إن ثواب هذا الزمن القليل في الجنة خير من زمن الدنيا كلها، وكذلك قوله: «لقاب قوس أحدكم»، أو «موضع سوط في الجنة» يريد: أن ما صغر في الجنة من المواضع كلها من بساطينها وأرضها، فأخبر في هذا الحديث: أن قصير الزمان، وصغير المكان في الآخرة خير من طويل الزمان وكبير المكان في الدنيا؛

(١) صحيح مسلم [١٨٨٣].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٦/١٣-٢٧)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٠٠/٦).



ترهيداً فيها، وتصغيراً لها، وترغيباً في الجهاد؛ إذ بالغدوة والروحة فيه، أو مقدار قوس المجاهد يعطيه الله عَزَّجَلَّ في الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها، فما ظنك بمن أتعب فيه نفسه وأنفق ماله. وقال صاحب (العين): قاب القوس: قدر طولها^(١).

وفي حديث السَّحُور: عن العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّحُورِ في رمضان، فقال: «هَلُمَّ إِلَى الْغَدَاءِ الْمُبَارَكِ»^(٢).

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْغَدَاءُ: الطَّعَامُ الَّذِي يُؤْكَلُ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَسُمِّيَ السَّحُورُ: غَدَاءً؛ لِأَنَّهُ لِلصَّائِمِ بِمَنْزِلَتِهِ لِلْمُفْطِرِ.

وفيه: «لَعْدُوَّةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ» الْعَدُوَّةُ: الْمَرَّةُ مِنَ الْعُدُوِّ، وَهُوَ سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ، نَقِيضُ: الرَّوْحِ. وَقَدْ غَدَا يَعْدُو غُدُوًّا. وَالْعُدُوَّةُ بِالضَّمِّ: مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ»^(٣).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٤/٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٩٢٢]، وأحمد [١٧١٤٣]، وأبو داود [٢٣٤٤]، والبخاري [٤٢٠٢]، والنسائي [٢١٦٣]، وابن خزيمة [١٩٣٨]، وابن حبان [٣٤٦٥]، والطبراني في (الكبير) [٦٢٨]، والبيهقي في (الكبرى) [٨١١٦]. والحديث له أكثر من شاهد. فقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أُرْسِلَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُونِي إِلَى السَّحُورِ، وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمَاهُ: «الْغَدَاءُ الْمُبَارَكُ»، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ (١٥١/٣): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه: محمد بن إبراهيم أخو أبي معمر، وهو محمد بن إبراهيم بن معمر بن الحسن أبو بكر الهذلي، قال موسى بن هارون الحمال: صدوق لا بأس به، وسئل = ابن معين، عن أبي معمر فقال: مثل أبي معمر لا يسأل عنه، هو وأخوه من أهل الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح. وروي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُرْبِي إِلَيْنَا الْغَدَاءُ الْمُبَارَكُ»، يعني: السَّحُورُ، «وربما لم يكن إلا تمرتين». قال الهيثمي (١٥١/٣): "رواه أبو يعلى [٤٦٧٩]، ورجاله ثقات". وعن المقدم بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «عليكم بغداء السحر؛ فإنه هو الغداء المبارك» أخرجه أحمد [١٧١٩٢]، وهو حسن بشواهده.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غدا) (٣٤٦/٣).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنما سماه غداء؛ لأن الصائم يتقوى به على صيام النهار، فكأنه قد تغدى، والعرب تقول: غدا فلان لحاجته: إذا بكر فيها، وذلك من لدن وقت السحر إلى طلوع الشمس" (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّجَّةِ» (٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عليكم بالدُّجَّة؛ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ» (٣).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "كأنه خاطب مسافراً يقطع طريقه إلى مقصده، فنبهه على أوقات نشاطه التي يزكو فيها عمله؛ لأن الغدو والرواح والدلج أفضل أوقات المسافر، وقد حض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسافر على المشي بالليل، وقال: إن الأرض تطوى بالليل،

(١) معالم السنن (٢/١٠٤).

(٢) صحيح البخاري [٣٩]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يسر»، أي: ذو يسر. «يشاد الدين»، أي: يكلف نفسه من العبادة فوق طاقته والمشادة المغالبة. «إلا غلبه»، أي: رده إلى اليسر والاعتدال. «فسددوا»، أي: الزموا السداد، وهو التوسط في الأعمال. «وقاربوا»، أي: اقتربوا من فعل الأكمل إن لم تستطيعوه.

(٣) الحديث مروي عن أنس وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. حديث أنس: أخرجه أبو داود [٢٥٧١]، والبزار [٦٣١٥]، [٦٥٢١]، قال الهيثمي (٢٥٧/٥): "رواه البزار ورجاله ثقات". كما أخرجه ابن خزيمة [٢٥٥٥]، والحاكم [١٦٣٠]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، وأخرجه أيضاً: أبو نعيم في (الحلية) (٢٥٠/٩)، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٣٤٢، ١٠٣٤٣]، والضياء [٢٦٣٠]، وقال: "إسناده صحيح". حديث جابر: أخرجه أحمد [١٤٢٧٧]، أبو يعلى [٢٢١٩]، قال الهيثمي (٢١٣/٣): "رجاله رجال الصحيح". والحديث مروي عن خالد بن معدان مرسلًا، ومروي عن خالد بن معدان عن أبيه. حديث: خالد بن معدان عن أبيه: أخرجه عبد الرزاق [٩٢٥١]، والطبراني [٨٥٢]، قال الهيثمي (٢١٣/٣): "رجاله رجال الصحيح". حديث: خالد بن معدان المرسل: أخرجه مالك [١٧٦٧]، وسعيد بن منصور [٢٦٢٠].

وقال لعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»^(١)، فشبه الإنسان في الدنيا بالمسافر، وكذلك هو على الحقيقة؛ لأن الدنيا دار نقلة وطريق إلى الآخرة، فنبه أمته أن يغتنموا أوقات فرصتهم وفراغهم^(٢).

فبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خير ما يستعان به عند نزول الشدائد: العبادات التي تقرب من الله عَزَّ وَجَلَّ، وتريح النفس، أي: استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المُنشِطَة، كأول النهار، وبعد الزوال، وآخر الليل.

والاستعانة بالأوقات الثلاثة في العمل والتقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وعند نزول الشدائد مصداق لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٠]. والمعنى: استعينوا على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون، وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها، فيصل المقصود بغير تعب. وهذا يحتمل أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يضرب مثلاً للسفر المعنوي بالسفر الحسي؛ فإن الإنسان المسافر حساً يبتغي له أن يكون سيرة في أول النهار، وفي آخره، وفي شيء من الليل؛ لأن ذلك هو الوقت المريح للراحلة وللمسافر.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة» يعني: أن هذه الأوقات الثلاثة أوقات العمل والسير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي: أول

(١) حديث: عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر، يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» أخرجه البخاري [٦٤١٦].

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩٦/١-٩٧).



النهار، وآخره، وآخر الليل. فالغدوة: أول النهار، والروحة آخره، والدلجة: سير آخر الليل" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَدْلَجَ القوم: إذا ساروا من أَوَّل الليل. والاسم: الدَلَجُ - بالتحريك-. والدُّلْجَةُ والدَّلْجَةُ أيضًا، مِثْلُ: بُرْهَةٍ من الدَّهْرِ وَبُرْهَةٍ. فَإِنْ ساروا من آخر الليل فقد ادَّجُوا -بتشديد الدال-، والاسم: الدُّلْجَةُ والدَلْجَةُ" (٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغدوة» -بالضم-: ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. وبالفتح: المرة من الغدو، وهو سير أول النهار، نقيض: الرواح، و(الدلجة) -بالضم والفتح- اسم من ادَّجَ بالتشديد: إذا سار من آخر الليل، استعيرت هذه الأوقات للصلاة فيها (٣). قال العلامة التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المراد من الألفاظ الثلاثة: الحث على التحريك لعبادة الله عَزَّجَلَّ في أوقات الصلاة، وكأنه بيان قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤]، وإنما قال: بشيء من الدلجة؛ ليأخذ العبد بحظه من آناء الليل على ما تيسر له، ثم لينتهي عن التحامل على نفسه بالسهر في سائر الليل، بل يكتفر بشيء منه؛ فإن ذلك من المشادة المنهي عنها" (٤).

وقيل: الدُّلْجَةُ من الإدِّلاج -بسكون الدال-، وهو سَيْرُ أَوَّل اللَّيْلِ. قال العلامة المظهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "(الدُّلْجَةُ): اسم من الادِّلاج -بتشديد الدال- وهو السيرُ في آخر الليل. وقيل: بل هي اسمٌ من الإدِّلاج -بسكون الدال- وهو السيرُ في أول الليل، يعني: كما أن المسافرَ يَقْدِرُ على دوام المسافرة بأن يمشي في أول النهار إلى أن يمضي بعضُ النهار،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (١٥٢/١).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (دلج) (٣١٥/١).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٢١٤/٤).

(٤) الميسر في شرح مصابيح السنة (٣١٧/١)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٢١٤/٤).

ثم ينزل ويستريح ساعة، ثم يمشي بعد العصر إلى الليل، ثم ينزل ويستريح، ثم يمشي في آخر الليل، فكذا العابد ينبغي أن يتعبَّد ساعة، ثم يستريح ساعة، وهكذا ساعة فساعة حتى لا يتعب" (١).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾، يعني: الغداة والعشي، يعني: صلاة الصبح والمغرب. وقال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: النهار: صلاة الصبح والظهر والعصر. ﴿وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾: صلاة المغرب والعشاء. وقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: طرفا النهار: الصبح والعصر، ﴿وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء. وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: طرفا النهار: الغداة والعشي، يعني: صلاة الصبح والمغرب.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ بعد عرضه ما قيل في معنى الآية: "وأولى هذه الأقوال بالصواب: قول من قال: هي صلاة المغرب، - كما ذكرنا عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -. وإنما قلنا هو أولى بالصواب؛ لإجماع الجميع على أن صلاة أحد الطرفين من ذلك صلاة الفجر، وهي تصلى قبل طلوع الشمس. فالواجب إذ كان ذلك من جميعهم إجماعاً، أن تكون صلاة الطرف الآخر المغرب؛ لأنها تصلى بعد غروب الشمس.

قال: وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] فإنه يعني: ساعات من الليل. وهي جمع: (زُلفَة)، و(الزُلفَة): الساعة، والمنزلة، والقربة. وقيل: إنما سميت (المزدلفة)؛ لأنها منزلٌ بعد عرفة بقرب مكة. وقيل سميت بذلك؛ لازدلاف آدم عَلَيْهِ السَّلَام من عرفة إلى حواء عَلَيْهَا السَّلَام وهي بها (٢).

(١) المفاتيح في شرح المصابيح (٢/٢٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/٥٠٢-٥٠٥).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنى هذا الكلام: الأمر بالاقتصاد في العبادة، وترك الحمل منها على النفس ما يؤودها ويثقلها.

يقول: إن الله عَزَّجَلَّ لم يتعبد خلقه بأن ينصبوا آناء الليل والنهار، ولا يفتروا ولا يستريحوا أبداً، وإنما أوجب عليهم وظائف الطاعات، في وقت دون وقت؛ تيسيراً منه ورحمة، فعليكم بالسداد، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقونه، واخلطوا طرف الليل بطرف النهار، وأجموا أنفسكم ^(١) فيما بينهما؛ لئلا تنقطع بكم" ^(٢).

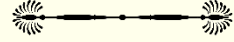
وقال ابن المنير رَحِمَهُ اللَّهُ: "في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد: منع طلب الأكمل في العبادة؛ فإنه من الأمور المحمودة بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل، فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة" ^(٣).

(١) يقال: (أجمَّ الإنسان)، أي: استراح فذهب إعياءه. قال الجوهرى: "والجَمَامُ بالفتح: الراحة. يقال: جمَّ الفرسُ جمًّا وجمًّا: إذا ذهب إعياءه، و(أُجمَّ) الفرسُ و(جُمَّ) على ما لم يُسمَّ فاعله فيهما، أي: تُركَ ركوبه" الصحاح، مادة: (جَمَّ) (٦١/١).

(٢) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١٧٠/١-١٧١).

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٩٤/١)، فيض القدير (٥٥٥/٣).

زلفته :



تقدم أن ترتيب ساعات الليل يكون مجملًا على النحو التالي: الشَّفَق، ثُمَّ الْعَسَق، ثُمَّ الْعَتَمَة، ثُمَّ السُّدُفَة، ثُمَّ الْفَحْمَة، ثُمَّ الزُّلَّة، ثُمَّ الزُّلْفَة، ثُمَّ الْبُهْرَة، ثُمَّ السَّحَر، ثُمَّ الْفَجْر، ثُمَّ الصُّبْح، ثُمَّ الصَّبَاح.

فالزلفة هي إحدى ساعات الليل، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤]، قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ: "أي: ساعات، وواحدتها: زلفة، أي: ساعة، ومنزلة وقربة، ومنها سميت المزلفة، قال العجاج:

ناج طَوَاهُ الْأَيْنِ مِمَّا وَجَفَا طَيِّ اللَّيَالِي زُلْفًا فَزُلْفًا" (١)
وفي (العين): "زُلْفَةٌ مِنَ اللَّيْلِ: طائفة من أوله" (٢).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "وَالزُّلْفَةُ وَالزُّلْفَى: الْقُرْبَةُ وَالْمَنْزِلَةُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ: ٣٧]، وهي اسمُ المصدر، كأنه قال: بالتي تقربكم عندنا ازدلافاً.

والزلفة: الطائفة من أول الليل، والجمع: زلف وزلفات.
وَالزَّلْفُ وَالزَّلْفُ وَالزَّلْفُ: التَّقَدُّمُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، وَتَزَلَفُوا وَازْدَلَفُوا، أَيِ تَقَدَّمُوا. وَمَزْدَلْفَةٌ: مَوْضِعٌ بِمَكَّةَ" (٣).

(١) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١/٣٠٠)، ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريش وشرحه (ص: ٤٢٦)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (١/٣٥٩). والأين: الفتور والتعب، وطواه: أضمره، والزجيف: ضرب من السير. وزُلْفًا فَزُلْفًا، أي: منزلة بعد منزلة ودرجة بعد درجة، والزلف: الدرج، والمَزَلْفُ: المنازل والدَّرَج.

(٢) العين، مادة: (زلف) (٧/٣٦٨).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (زلف) (٤/١٣٧٠)، جمهرة اللغة (٢/٨٢١).

وقد قيل: إنما سميت: (المزدلفة) بهذا الاسم؛ لأنها منزلٌ بعد عرفة.
وقيل: سميت بذلك؛ لآزدلاف آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من عَرَفَةَ إلى حِوَاءَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وهي بها (١).

فطرفا النهار: غدوة وعشية، وصلاة طرفي النهار: الصبح في أحد الطرفين والأولى، والعصر في الطرف الأخير، وهو العشي.
قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهو منصوب على الظرف، كما تقول: جئْتُ طرفي النَّهَارِ وأول الليل.

ومعنى: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤]: الصَّلَاةُ الْقَرِيبَةُ من أول اللَّيْلِ، أراد بالزُّلْفِ: المغرب والعِشَاءُ الأخيرة؛ ومن قرأ: (وَزُلْفًا) فهو جمع: زَلِيفٍ، مِثْلُ: القُرْبِ والقَرِيبِ" (٢).
قال ابن دريد رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال: فلان يزلف في حديثه ويزرف فيه: إذا زاد فيه" (٣).
وقال أبو العباس رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾، قال: الزُّلْفُ: أول ساعات الليل، واحدهما: زُلْفَةٌ، وقال شمر في قول العجاج:

طَيِّ اللَّيَالِي زُلْفًا فَرُلْفًا

أي: قليلاً قليلاً، يقول: طوى الإعياء هذا البعير كما تطوي الليالي سماوة الهلال، أي: شخصه قليلاً قليلاً حتى دق واستقوس" (٤).

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٠٥/١٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٨٢/٣)، تهذيب اللغة (١٤٦/١٣).

(٣) جمهرة اللغة، لابن دريد (٨٢١/٢).

(٤) تهذيب اللغة (١٤٧/١٣)، وانظر: العين، مادة: (زلف) (٣٦٨/٧)، جمهرة اللغة، لابن دريد (٨٢٠/٢) -

(٨٢١)، غريب القرآن، لابن قتيبة (ص: ٢١٠)، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص: ١٢٦)، النهاية في

غريب الحديث والأثر، مادة: (زلف) (٣٠٩/٢ - ٣١٠)، فقه اللغة، لأبي منصور الثعالبي (ص: ٣٧).



وَقُرِئَ: (وَزُلْفًا) بضم الزاي واللام، (وَزُلْفًا) بضم الزاي ساكنة اللام.
وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤] الطرف الأول هو صلاة الصبح باتفاق.

وأما الطرف الثاني ففيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه عنى صلاة الظهر والعصر.

الثاني: صلاة العصر وحدها.

الثالث: صلاة المغرب.

وفي معنى: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قولان:

أحدهما: صلاة العشاء الآخرة.

الثاني: صلاة المغرب والعشاء الآخرة^(١).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الزلفة: المنزلة والحظوة.

وقيل: واستعمالها في منزلة العذاب كاستعمال البشارة ونحوها من الألفاظ.

وقيل لمنازل الليل: زلف، والمزالف: المراقبي، وأزلفته: جعلت له زلفى.."^(٢).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وانتصاب ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ على الظرف؛ لأنهما

مضافان إلى الوقت، كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار وأوله وآخره،

تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه.

ونحوه: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠].

وَقُرِئَ: (وَزُلْفًا) بضمين. (وَزُلْفًا) بسكون اللام.

(١) انظر: النكت والعيون (٥٠٨/٢).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (زلف) (ص: ٣٨٢).

وزلفى: بوزن قري. فالزلف: جمع: زلفة، كظلم في ظلمة. والزُّلْف بالسكون: نحو بسرة وبسر. والزُّلْف بضمين نحو: بسر في بسر [فيمن ضم السين]. والزلفى بمعنى: الزلفة، كما أن القربى بمعنى: القربة: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل. وقيل: ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾: وقرباً من الليل، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة ^(١)، أي: أقم الصلاة ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾، وأقم زلفاً من الليل، على معنى: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عَزَّجَلَّ في بعض الليل.. " ^(٢).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "والمقصود: أن تكون الصلاة أول أعمال المسلم إذا أصبح، وهي صلاة الصبح، وآخر أعماله إذا أمسى وهي صلاة العشاء؛ لتكون السيئات الحاصلة فيما بين ذلك ممحوة بالحسنات الحافة بها" ^(٣).

وفي (صحيح البخاري رَحِمَهُ اللهُ): وزلفا: ساعات بعد ساعات، ومنه سميت المزدلفة، الزلف منزلة بعد منزلة، وأما ﴿زُلْفَى﴾ [سبأ: ٣٧]: فمصدر من القربى، ازدلفوا: اجتمعوا، ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: جمعنا.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

(١) "لأن معنى: (قرباً من الليل): يتقرب إلى الله عَزَّجَلَّ في بعض الليل، بأن تصلى صلاة التهجد، فتعطف على (الصلاة)، وهي الصلاة في طرفي النهار؛ لتجتمع صلاة النهار وصلاة الليل" حاشية الطيبي على الكشف (٢٢٣/٨).

(٢) الكشف (٤٣٤-٤٣٥)، وانظر: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني (٣٣٠-٣٣١)، المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (٤٨/٩-٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٧٩/١٢).



السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ [هود: ١١٤]، قال الرجل: ألي هذه؟ قال: «لمن عمل بها من أمتي» (١).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فبين أن الآية نزلت بسبب ذلك الرجل. وإقامة الصلاة: القيام بفعلها على سنتها والمثابرة عليها. وطرفا النهار: هما الصبح والعصر. وقيل: الظهر والعصر، وقيل: العشاء والمغرب. ﴿وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ﴾: بفتح اللام على قراءة الجماعة، وهي: الساعات المتقاربة، جمع: زلفة، وهي القرية والمنزلة.

وقرأها يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ بضم اللام، وابن محيصن رَحِمَهُ اللَّهُ بسكونها، والمراد: المغرب والعشاء -والله أعلم-.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني: الصلوات الخمس، كما قد جاء مفسراً عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاله الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: هي: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله.

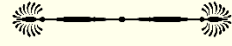
قلت: واللفظ بحكم عمومه صالح لما قالاه، ولزيادة عليه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهما إذا اجتنب الكبائر» (٢). فالصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، أعمال تكفر الذنوب والخطايا، وترفع العبد عند الله عَزَّجَلَّ درجات. وإقامة الصلوات المفروضة على وجهها الذي شرعه الله عَزَّجَلَّ يوجب مباحدة الذنوب، ويوجب تطهير

(١) صحيح البخاري (٧٤/٦-٧٥). والحديث في (صحيح البخاري)، رقم [٥٢٦، ٤٦٨٧] وفي (صحيح مسلم) [٢٧٦٣].

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٨٧-٨٨). والحديث في (صحيح مسلم) [٢٣٣]: عن أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

ظاهر العبد وباطنه، كما جاء (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كلَّ يوم خمسَ مرَّاتٍ، هل يَبْقَى من دَرْنِهِ شيءٌ؟»، قالوا: لا يبقى من دَرْنِهِ شيءٌ، قال: «فذلك مثلُ الصَّلَواتِ الحُمُسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»^(١).

سجّو :



يُقَالُ أيضًا: سَجَا اللَّيْلُ وَأَسْجَى. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢]. ويقال: يومٌ أَسْجَى، وليلةٌ سَجَواءُ: وهي اللَّيْنَةُ. وَبَعِيرٌ أَسْجَى، وناقَةٌ سَجَواءُ، أي: أديبة" (٢).

وَالسُّجُوءُ: السُّكُون. وَعَيْنٌ سَاجِيَةٌ، أي: فاترةُ النَّظَرِ يعتري الحُسْنَ في النساءِ. وسجا الليل والبحر: إذا سكن سجّواً، وليل وجر ساج. وليلةٌ سَاجِيَةٌ: ساكنةُ الرِّيحِ غيرِ مظلمة. يقال: سَجَا اللَّيْلُ: إذا اذْهَمَّ وَسَكَنَ. سجا الليل: أدبر، وقيل: أقبل، ومنه: يا حَبَّذا الْقَمَرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجُ وطُرُقٌ مِثْلُ مُلَاءِ النُّسَاجِ^(٣)

(١) صحيح البخاري [٥٢٨]، مسلم [٦٦٧].

(٢) الأزمنة وتلبية الجاهلية، لُقْطُوب (ص: ٥٣-٥٤).

(٣) انظر: العين، مادة: (سَجَوْ) (١٦١/٦)، مقاييس اللغة، (١٣٧/٣)، أساس البلاغة (٤٤٠/١)، الخصائص،

لابن جني (١١٧/٢)، الكامل في اللغة والأدب (٢٢٦/١)، أمالي القالي (١٧٤/١)، الأزمنة والأمكنة،

للأصفهاني (ص: ٢٩٥)، شرح ديوان الحماسة (ص: ٢٢٣).



وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: "إذا أظلم وركد في طوله، كما تقول: بحر ساج، وليل ساج: إذا ركد وسكن وأظلم" (١).

وعن ابن الأعرابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "سجا: سكن، وسجا: امتدَّ بظلامه، وسجا: أظلم" (٢).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: "أوقات الصلاة في كتاب الله عزَّجَل: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، يعني: الظهر والعصر. ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ يعني: المغرب والعشاء. ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر.

وقد قال ذلك قبله جماعة من العلماء بتأويل القرآن منهم: ابن عباس رَحِمَهُمَا اللَّهُ وَمجاهد وعكرمة رَحِمَهُمَا اللَّهُ وغيرهم" (٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما غسق الليل فالأكثر على أنه أراد به: صلاة العشاء. وروي عن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: غسق الليل: غروب الشمس" (٤).

وقال الثَّوْرِبَشْتِي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه، ووقوبه: دخول ظلامه في كل شيء. وإنما أمرنا بالاستعاذة منه؛ لما في الوقت من انبثاث الشر أكثر مما في غيره، ثم إن التحرز منه أصعب، وأستند الشر إليه، لملا بستته له من حدوثه فيه" (٥).

(١) معاني القرآن، للفراء (٢٧٣/٣).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٩٧/١١).

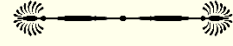
(٣) الاستذكار، لابن عبد البر (٢٣/١).

(٤) الاستذكار، لابن عبد البر (٦٤-٦٥/١)، وانظر: المسالك في شرح موطأ مالك (٤١٠/١).

(٥) الميسر في شرح مصابيح السنة (٥٨٠-٥٨١/٢).



السَّحَرُ وثَلَاثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝﴾ [الذاريات: ١٨].

قال في (العين): "السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيْلِ.."^(١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "السَّحَرُ: قُبَيْلُ الصُّبْحِ. تقول: لقيته سحرنا هذا: إذا أردت به سحر ليلتك لم تصرفه؛ لأنه معدول عن الألف واللام. وهو معرفة وقد غلب عليه التعريف بغير إضافة ولا ألف ولا لام، كما غلب ابن الزبير على واحد من بنيه. وتقول: سر على فرسك سحر يا فتى، فلا ترفعه؛ لأنه ظرف غير متمكن. وإن أردت بسحر نكرة صرفته، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ تَجَيَّنَهُمْ بِسَحَرٍ ۝﴾ [القمر: ٣٤]. ويقال: أتيته بسحرٍ وبِسُحْرَةٍ. وأسحَرْنَا: أي: سرنا في وقت السحر. وأسحَرْنَا أَيضًا: صِرْنَا فِي السَّحَرِ. واسْتَحَرَ الديك: صاح في ذلك الوقت. والسحور: ما يُتَسَحَّرُ به..."^(٢).

قالوا: السحر سَحَرَانِ: السَّحَرُ الأعلى قَبْلَ انْصِدَاعِ الفجر، والآخِرُ عند انْصِدَاعِهِ قبيل الصبح.

وانصداع الفجر، أي: انشقاقه عن الظلمة، ومنه سمي الفجر: الصديق^(٣).

قال جَلَّوَعَلَا في وصف المؤمنين المسارعين إلى الخيرات، وفي بيان فضل الاستغفار في وقت الأسحار: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾ [الصَّيِّرِينَ

(١) كتاب العين، مادة: (سحر) (١٣٥/٣).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سحر) (٦٧٨/٢-٦٧٩).

(٣) انظر: المغرب، مادة: (سحر) (ص: ٢١٩)، الكليات (ص: ٩٨١)، مشارق الأنوار، مادة: (صدع) (٤٠/٢).



وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿٧﴾ [آل عمران: ١٦-١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا:
﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ينزل ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني، فأستجيب له من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(١).

وفي رواية: «إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح»^(٢).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من تَعَارَّ^(٣) من الليل، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة

(١) صحيح البخاري [١١٤٥، ٧٤٩٤]، مسلم [٧٥٨].

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].

(٣) «تَعَارَّ»: بمهملة وراء مشددة. و«تعار من الليل»: إذا هب من نومه. ولعله مأخوذ من (عِارَ الظليم)، وهو صوته. و(عِارَ الظليم) صوت ذكر النعام، ويقال لصوت الأنتى زمار. قال أبو عبيد: ولا أدري أهو من ذلك أم لا. قال ابن التَّين: ظاهر الحديث أنَّ تعارَّ معناه: استيقظ؛ لأنَّه قال: «مَنْ تعارَّ فقال»، فعطف القول بالفاء على «تعارَّ». ويحتمل أن تكون الفاء تفسيرية لما يصوت به المستيقظ؛ لأنَّه قد يصوت بغير ذكر، فخصَّ الفضل المذكور في الحديث بمن صوّت بما ذكر من ذكر الله عَزَّجَلَّ. وهذا هو السرُّ في اختيار لفظ: «تعارَّ» دون استيقظ أو انتبه، وإِنَّمَا يَتَّفَقُ ذلك لمن تعودَ الذكر، واستأنس به وغلب عليه حتَّى صار حديث نفسه في نومه ويقظته، فأكرم من اتَّصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته. وقيل: تعارَّ تَقَلَّبَ في فراشه، ولا يكون إلَّا يقظةً مع كلام يرفع به صوته عند انتباهه وتمطُّيه، وقيل غير ذلك. انظر: فتح الباري، لابن حجر (٤٠/٣)، معالم السنن (١٤٣/٤)، غريب الحديث، لأبي عبيد، مادة: (عرر) (١٣٤/٤-١٣٥)، تهذيب اللغة (٧٦/١)، مقاييس اللغة (٣٥/٤)، مشارق الأنوار (٧٢/٢).



إِلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»^(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "حديث: عبادة رَحِمَهُ اللهُ شريف عظيم القدر، وفيه: ما وعد الله عَزَّوَجَلَّ عباده على التيقظ من نومهم، لهجة ألسنتهم بشهادة التوحيد له والربوبية، والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى، رطبة أفواههم بالإقرار له بالقدرة التي لا تتناهى، مطمئنة قلوبهم بحمده وتسبيحه، وتنزيهه عما لا يليق بالإلهية من صفات النقص، والتسليم له بالعجز عن القدرة عن نيل شئ إلا به جَلَّوَعَلَا؛ فإنه وعد بإجابة دعاء من بهذا دعاه، وقبول صلاة من بعد ذلك صلى، وهو جَلَّوَعَلَا لا يخلف الميعاد، وهو الكريم الوهاب، فينبغي لكل مؤمن بلغه هذا الحديث: أن يغتنم العمل به، ويخلص نيته لربه العظيم جَلَّوَعَلَا أن يرزقه حظاً من قيام الليل، فلا عون إلا به، ويسأله فكاك رقبته من النار، وأن يوفقه لعمل الأبرار، ويتوفاه على الإسلام. قد سأل ذلك الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين هم خيرة الله عَزَّوَجَلَّ، وصفوه من خلقه، فمن رزقه الله عَزَّوَجَلَّ حظاً من قيام الليل فليكثر شكره على ذلك، ويسأله أن يديم له ما رزقه، وأن يختم له بفوز العاقبة، وجميل الخاتمة" ^(٢).

وأخرج ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: عن ابن عمر رَحِمَهُمُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يَحْيِي اللَّيْلَ صَلَاةً، ثُمَّ يَقُولُ: يَا نَافِعَ أَسْحَرْنَا؟ فيقول: لا، فيعاود الصلاة، فإذا قلتُ: نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يُصْبِحَ ^(٣).

(١) صحيح البخاري [١١٥٤].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٤٧/٣-١٤٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٦٦/٦)، وانظر: مختصر قيام الليل، لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي (ص: ٩٦).



وقد قيل: حُصِّنَ السحر، وهو آخر الليل بالذكر؛ لأنه وقت الغفلة، ولذة النوم، ولأنه أرجى في القبول، فهو وقت إجابة الدعاء لمن توجه إلى الله عَزَّجَلَّ بالدعاء بصدق وإخلاص.

وقد قيل: إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما قال لبيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر؛ ولذلك فإن الذكر والدعاء في هذا الوقت من أفضل الأعمال.

وقيل: إلى ليلة الجمعة؛ ليتعمد به وقت الإجابة. وقيل: ليتعرَّفَ حالهم في صدق التوبة وإخلاصها. وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم.

ومن دأب الصالحين: أنهم لا يغفلون عن الأوقات الفاضلة، وقد جاء: عن يحيى بن أيوب المقابري، قال: حدثني بعض أصحاب وكيع رَحِمَهُ اللهُ الذين كانوا يلزمونه، قال: كان لا ينام -يعني: وكيعاً- حتى يقرأ جزءه في كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر، فيصلي الركعتين (١).

وفي الأسحار نسمات ينالها المقربون، ففي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثَلَاثَاهُ، يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يَسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يَغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ» (٢)، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ

(١) انظر: تاريخ بغداد (٦٤٧/١٥)، تاريخ دمشق (٧٧/٦٣)، صفة الصفوة (٩٩/٢)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٤٨١/٣٠)، سير أعلام النبلاء (١٤٨/٩).

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].



بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ١٦-١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تسحروا؛ فإن في السحور بركة»^(١).

ويستحب تأخير السحور؛ لأنه أقرب إلى حصول المقصود منه من حفظ القوى، والتقوي به على النشاط، كما جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تسحرنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قام إلى الصلاة»، قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: «قدر خمسين آية»^(٢). وفي رواية: «قدر خمسين أو ستين»، يعني: آية^(٣).

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "فيه دليل على استحباب السحور للصائم. وتعليل ذلك بأن فيه بركة. وهذه البركة: يجوز أن تعود إلى الأمور الأخروية؛ فإن إقامة السنة توجب الأجر وزيادته. ويحتمل أن تعود إلى الأمور الدنيوية؛ لقوة البدن على الصوم، وتيسيره من غير إجحاف به. و(السحور) بفتح السين: ما يتسحر به. وبضمها الفعل. هذا هو الأشهر.

و(البركة) محتملة لأن تضاف إلى كل واحد من الفعل والمتسحر به معاً^(٤).

(١) صحيح البخاري [١٩٢٣]، مسلم [١٠٩٥].

(٢) صحيح البخاري [١٩٢١]، مسلم [١٠٩٧].

(٣) صحيح البخاري [٥٧٥].

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٩/٢). قال ابن الملقن: "ويجوز أن تكون البركة بمجموع الأمرين: وحاصل البركة في السحور يتنوع أنواعاً: أولها: اتباع السنّة والاقتداء. ثانيها: مخالفة أهل الكتاب في الزيادة في الأكل على الإفطار. ثالثها: التقوي به والنشاط للصوم سيما الصبيان. رابعها: التسبب للصدقة على من يسأل إذ ذاك. خامسها: التسبب لذكر الله والدعاء والرحمة فإنه وقت الإجابة. سادسها: التسبب في حسن الخلق؛ فإنه إذا جاع ربما ساء خلقه. سابعها: تحديد نية الصوم فيخرج من خلاف من أوجب =

وَالسَّحَرُ وَالسَّحَرُ: آخِرُ اللَّيْلِ قُبَيْلُ الصُّبْحِ، وَالْجَمْعُ: أَسْحَارٌ. وَالسُّحْرَةُ: السَّحَرُ، وَقِيلَ: أَعْلَى السَّحَرِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ^(١).

فوقت السحر يبدأ في آخر الليل، والثالث الأخير من الليل، وهو أن تقسم الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر أثلاثاً، فتحذف ثلثين الأولين منه، وما بقي فهو الثالث، فإذا قدرنا أن ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر تسع ساعات، فإذا مضى ست ساعات من الليل دخل الثالث الآخر من الليل.

يأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتسحر، الذي هو الأكل والشرب وقت السحر، استعداداً للصيام، ويذكر الحكمة الإلهية فيه، وهي حلول البركة، والبركة تشمل منافع الدنيا والآخرة. فمن بركة السحور: ما يحصل به من الإعانة على طاعة الله عَزَّجَلَّ في النهار وعلى القيام بما ينبغي على الصائم القيام به من العمل.

ومن بركة السحور: أن الصائم إذا تسحر لا يمل إعادة الصيام، خلافاً لمن لم يتسحر، فإنه يجد حرجاً ومشقة يثقلان عليه العودة إليه؛ لأن السحور فيه تنظيم لوقت تناول الطعام.

ومن بركة السحور: الثواب الحاصل من متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومن بركته أيضاً: أن المتسحر يقوم في آخر الليل، فيذكر الله عَزَّجَلَّ، ويستغفره. ومن بركة السحور: أنه عبادة، إذا نوى به الاستعانة على طاعة الله عَزَّجَلَّ، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله عَزَّجَلَّ في شرعه حكم وأسرار.

=تجديدها إذا نام ثم تنبه. ثم قال: أجمع العلماء على استحباب السحور، وأنه ليس بواجب، وإنما الأمر به أمر إرشاد، وهو من خصائص هذه الأمة "الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملكن (١٨٧/٥) - (١٨٨).

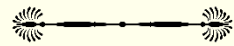
(١) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، مادة: (سحر) (١٨٤/٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وأما البركة التي فيه فظاهرة؛ لأنه يقوي على الصيام، وينشط له، وتحصل بسببه الرغبة في الازدياد من الصيام؛ لخفة المشقة فيه على المتسحر، فهذا هو الصواب المعتمد في معناه.

وقيل: لأنه يتضمن الاستيقاظ، والذكر، والدعاء في ذلك الوقت الشريف، وقت تنزل الرحمة، وقبول الدعاء والاستغفار، وربما توضأ صاحبه وصلى أو أدام الاستيقاظ للذكر والدعاء والصلاة، أو التأهب لها حتى يطلع الفجر" (١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "والأولى أن البركة في السحور تحصل بجهات متعددة، وهي اتباع السنة، ومخالفة أهل الكتاب، والتقوي به على العبادة، والزيادة في النشاط، ومدافعة سوء الخلق الذي يثيره الجوع، والتسبب بالصدقة على من يسأل إذ ذاك، أو يجتمع معه على الأكل، والتسبب للذكر" (٢). فذكر بعض ما ذكره الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ، وزاد عليه.

شرح وأراح :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].
قال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "الإراحة: أن تروح الإبل من مراعيها إلى الموضع الذي تقيم فيه.

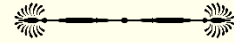
(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٦/٧).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٤/١٤٠).



﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي: حين تُخلونها للرعي، وفيما ملكه الإنسان جمال وزينة، كما قال جرّولاً: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، والمال ليس يخلص الورق والعين دون الأملاك، وأكثر مال العرب الإبل، كما أن أكثر أموال أهل البصرة النخل، إنما يقولون: مال فلان بموضع كذا وكذا، يعنون: النخل^(١).
فالسَّرحُ بالغداة، والإراحة بالعشي.

سرى :



قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١].

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥].
﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ [طه: ٧٧].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ [الفجر: ٤].

السَّرى كالهذى: قال في (العين): "هو سير الليل، وكلُّ شيءٍ طرق ليلاً فهو سارٍ. سَرَى يسري سُرًى وسَرِيًّا. والسَّارية من السَّحاب: التي تجيء بين الغادية والرائحة ليلاً، والعرب تؤنث السَّرى، قال:

(١) معاني القرآن وإعرابه (١٩١/٣).

هَنَّ الْغِيَاثُ إِذَا تَهَوَّلَتِ السُّرَى *** (١)

وسرى وأسرى، لغتان، وسرى به وأسرى به سواء " (٢).

وفي (المحكم): "سَيَّرُ اللَّيْلُ عَامَّتِهِ (٣) يذكر ويؤنث ولم يعرف اللحياني إلا التأنيث،

وقول لبيد:

قلت: هَجَدْنَا فَقَدْ طَالَ السُّرَى وَقَدَرْنَا إِنْ حَنَى الدَّهْرُ غَفْلَ (٤)

فقد يكون على لغة من ذكّر، وقد يجوز أن يريد: طالت السري، فحذف علامة

التأنيث؛ لأنه ليس بمؤنث حقيقي " (٥).

والسُّرى: سَيَّرُ اللَّيْلُ، أَلْفُهُ مَنْقَلِبَةٌ عَنْ يَاءٍ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: سَرَيْتُ وَأَسْرَيْتُ. ونحوه:

(أسرى)؛ فَإِنْ فِيهِ إِعْلَالٌ بِالْقَلْبِ، فَأَصْلُهُ: أُسْرِيَ بِالْيَاءِ، تَحَرَّكَتِ الْيَاءُ بَعْدَ فَتْحِ قَلْبَتِ أَلْفًا.

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد قيل: إِنَّ (أسرى) ليست من لفظة: سرى يسرى، وإنما

هي من السَّرَاةِ، وهي أرض واسعة، وأصله من الواو، ومنه قول الشاعر:

*** بِسَرَوْ حَمِيرٍ أَبْوَالُ الْبُعَالِ (٦)

(١) وعجز البيت: (***) وإذا توقد في الناد الحزور). و(الحزور): الإكمام والنشور. انظر: ديوان جرير بشرح محمد

بن حبيب (٣٨٤/١)، أساس البلاغة (٢/٢٥٠).

(٢) العين، مادة: (سري) (٢٩١/٧).

(٣) أي: سَيَّرَ عَامَّةَ اللَّيْلِ لَا بَعْضَهُ.

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص: ٩٢). و(هجدنا): أي دعنا ننام. و(قدرنا): دنونا، وخنى الدهر: آفاته

وأحدثه. فكأنه قال: نَوْمُنَا؛ فَإِنَّ السُّرَى طَالَ حَتَّى غَلَبَنَا النَّوْمُ، فَقَدْ دَنَوْنَا إِنْ لَمْ يَعْقِنَا الدَّهْرُ.

(٥) المحكم والمحيط الأعظم (٥٦٩/٨)، وانظر: المخصص (١٤٢/٥).

(٦) هذا شطر بيت، وعجزه: (***) أَيْ تَسَدَّيْتُ وَهَذَا ذَلِكَ الْبَيْنَا، وهو لتميم بن مقبل العامري، وهو في (ديوانه)

(ص: ٣١٦)، وزارة الثقافة، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق [١٣٨١هـ]، وانظر: جمهرة

أشعار العرب (ص: ٦٨٣)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (ص: ٤٣٣)، شرح مقصورة ابن=

فأسرى نحو: أَجْبَلْ وَأَتَّهِمْ^(١)، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، أي: ذهب به في سراة من الأرض، وسراة كل شيء: أعلاه، ومنه: سراة النهار، أي: ارتفاعه^(٢).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "و(أسرى) بمعنى: (سرى) يقال: أسراه وأسرى به، وسرى به. فهزمة (أسرى) ليست للتعدية؛ ولذا عدي بالباء^(٣).

وفُرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة في (أسرى)؛ لإفادة السرعة في السير؛ ولذا أوتر على (سرى).

والإسراء: سير الليل كله، كأسرى، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]؛ للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود. مثل: أسعفت مرامه. مع أن الإسعاف قضاء الحاجة، أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر. وأُسْرى وسرى لغتان. و﴿لَيْلًا﴾ نصب على الظرف.

= دريد، لابن خالويه (ص: ٤٩٧)، الفائق في غريب الحديث والأثر (١٧٤/٢). و(السرو): ما انحدر عن

الجلبل وارتفع عن الوادي، و(تسدت) أي: علوت وركبت.

(١) يقال: أجبل القوم: إذا صاروا إلى الجبل، وأسهلوا: إذا صاروا إلى السهل، وأبر فلان: إذا صار إلى البر، وأبحر: إذا ركب البحر، وأفلى: إذا صار إلى الفلاة، وأتهم: إذا أتى تامة.

(٢) المفردات، مادة: (سرى) (ص: ٤٠٨-٤٠٩).

(٣) "وللمبرد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدية بالهمزة، والتعدية بالياء بأن الثانية أبلغ؛ لأنها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل، فأصل (ذهب به) أنه استصحبه، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [القصص: ٢٩]. وقالت العرب: أشبعهم شتمًا، وراحوا بالإبل. وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا؛ إذ قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ دون: (سرى بعبد)، وهي التلويح إلى أن الله عَزَّجَلَّ كان مع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إسرائه بعنايته وتوفيقه، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، فالمعنى: الذي جعل عبده مسريًا، أي: ساريًا" انظر: التحرير والتنوير (١١/١٥).

فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل؟ قلت: أراد بقوله ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى: البعضية. ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (من الليل)، أى: بعض الليل، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] يعنى: الأمر بالقيام في بعض الليل^(١).

وقال في (الانتصاف): "وقد جرى ذكرُ الليل في موضع لا يليق به الجواب الذي ذكره الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]. والظاهر أن ذكر الليل لتصوير السرى بصورته، أو لأن السرى دل على أمرين: السير، وكونه ليلاً، فأفرد أحدهما بالذكر؛ تقوية له في ذهن المخاطب، مثله قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١]، فإن الاسم الحامل للتثنية دالٌّ عليها وعلى الجنسية، فأكد التثنية؛ لأنها مقصودة بالإبطال، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأن الوجدانية هي المقصودة في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]، ولو اقتصر على قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ﴾ لأوهم أن المهم إثبات الالهية له، والغرض من الكلام ليس إلا الإثبات للوجدانية"^(٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأجيب: أن بين المقامين بوناً بعيداً؛ لأنه ما وقع النزاع في أن عروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ليلاً أو نهاراً، كما وقع في اتخاذ الإله والعدد في تلك الآية، وإنما هو بيان إبداء أمر غريب خارق للعادات.

وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ فهو له لا عليه، لأنه أتى بالليل هناك، ونُكر ليضمن المعنى المقصود في الإيراد من التبويض. وجيء بقوله: ﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾ هنا؛ ليبين أن

(١) الكشف (٦٤٦/٢-٦٤٧).

(٢) الانتصاف (٦٤٦/٢).

البعض هنا مقصودٌ منصوبٌ فيه البعضية، وذاك مُضمن. والحاصل أن إعادة الشيء لإناطة أمر زائد أسلوبٌ من الأساليب.

وأقول - والعلم عند الله عَزَّجَلَّ -: ويمكن أن يُراد بالتنكير: التعظيم والتفخيم، والمقام يقتضيه، ألا ترى كيف افتتحت السورة بالكلمة المنبئة عنه؟ ثم وصف المسرى به بالعبودية، ثم أردف تعظيم المكانين بالحرم وبالبركة لما حوله؛ تعظيمًا للزمان، ثم تعظيمًا للآيات بإضافتها إلى صيغة التعظيم، وجمعها ليشمل جميع أنواع الآيات، وكل ذلك شاهدٌ صدقٍ على ما نحن بصددده، والمعنى: ما أعظم شأن من أسرى به بمن حقق له مقام العبودية، وحقق استئماله للعناية، وصحح له النعمة السرمدية. و﴿لَيْلًا﴾، أي: ليل له شأن جليل، ليلٌ دنا فيه الحبيب من المحبوب، وفاز في مقام الشهود المطلوب، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ٨ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ٩ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ١٠ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ١١ ﴿[النجم: ٨-١١]، فحينئذ ينطبق عليه التعليل بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ١٢ ﴿[الإسراء: ١]، أي: السميع بأحوال ذلك العبد، والبصير لأفعاله، العالمٌ بكونها مهذبة خالصة من شوائب الهوى، مقرونة بالصدق والصفاء، مُستأهلة للقربة والزلفى. ولا بُد أن يرجع الضمير إلى العبد، كما نقل أبو البقاء رَحِمَهُ اللهُ عن بعضهم، قال: إنه ﴿السَّمِيعُ﴾ لكلامنا، و﴿الْبَصِيرُ﴾ لذاتنا. وأما توسيطُ ضمير الفصل؛ فلإشعار باختصاصه بهذه الكرامة وحده" (١).

وقال محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: "وإذ قد كان السرى خاصًا بسير الليل كان قوله: ﴿لَيْلًا﴾ إشارة إلى أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، وإلا لم يكن ذكره إلا تأكيدًا، على أن الإفادة كما يقولون خير من الإعادة.

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٩/٢٣٥-٢٣٦).

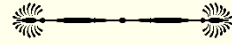
وفي ذلك إيماء إلى أنه إسراء خارق للعادة؛ لقطع المسافة التي بين مبدأ السير ونهايته في بعض ليلة، وأيضاً ليتوصل بذكر الليل إلى تنكيه المفيد للتعظيم.

فتنكير ﴿لَيْلًا﴾ للتعظيم، بقرينة الاعتناء بذكره مع علمه من فعل: أسرى، وبقريضة عدم تعريفه، أي: هو ليل عظيم باعتبار جعله زمناً لذلك السرى العظيم، فقام التنكير هنا مقام ما يدل على التعظيم. ألا ترى كيف احتيج إلى الدلالة على التعظيم بصيغة خاصة في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝﴾ [الفجر: ١-٢]؛ إذ وقعت ليلة القدر غير منكورة^(١).

والمتسري: الذي يخرج في السرية، وهي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها: أربعمائة، تبعث إلى العدو، وجمعها: السرايا، سموا بذلك؛ لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السري النفيس^(٢).

وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِر ۝﴾ [الفجر: ٤] فقد تقدم بيانه مفصلاً في (الأقسام). وكذا قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ۝﴾ [الفجر: ٥].

شروق وغروب وإشراق وبلوج :



ويدل على الشروق والغروب: الجهة التي تشرق وتغرب منها الشمس، فتسمى جهة الشروق: المشرق، وجهة الغروب: المغرب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥].

(١) التحرير والتنوير (١٥/١١-١٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (سرى) (٢/٣٦٣-٣٦٥).



وقال جَلَّوَعًا: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿* لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف: ٨٦].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ [الصافات: ٥].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ

﴿٣٩﴾ [ق: ٣٩].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزلزل: ٩].

الغَرْبُ: الْمَغْرِبُ، والغُرُوبُ: غَيْبُوبَةُ الشَّمْسِ. يقال: لقيته عند مُغِيرَبَانِ الشَّمْسِ.

وَالْغُرْبَةُ: الْاِغْتِرَابُ مِنَ الْوَطَنِ. وَغَرَبَ فُلَانٌ عَنَّا يَغْرُبُ غَرْبًا، أَي: تَنَحَّى، وَأَغْرَبْتَهُ وَغَرَّبْتُهُ

أي: نحيته. ويقال: وغاية مُغْرِبَةٌ، أي: بعيدة الشأو. وَغَرَبَتِ الكلاب، أي: أُمعنت في طلب الصيد. والغَرِيبُ: الغامض من الكلام، وغربت الكلمة غرابة، وصاحبه مُغْرِبٌ..^(١).
وَالْمُغْرِبَةُ: الاغترابُ. تقول: (تَغَرَّبَ) واغترب، بمعنى، واغترب، بمعنى، وَغُرِبَ - بضم الغين والراء - والجمع: الغرباء. والغرباء أيضاً: الأبعد. واغترب فلان، إذا تزوّج إلى غير أقرابه.

والتَّغْرِيبُ: النَّفْيُ عن البلد. وأغرب الرجل: جاء بشئ غريب. وأغرب أيضاً صار غريباً. وأَسْوَدُ غَرِيبٌ بوزن: قَنْدِيل، أي: شَدِيدُ السَّوَادِ. فإذا قلت: غَرَابِيبُ سُودٍ كَانَ السُّودُ بَدَلًا مِنْ غَرَابِيبٍ؛ لِأَنَّ لَأَنَّ تَوَاكِيدَ الْأَلْوَانِ لَا يَتَقَدَّمُ. والغَرَبُ والمُغْرِبُ بمعنى واحد. وَغَرَبَ: بَعَدَ. واغْرُبْ عَنِّي، أي: تَبَاعَدْ. وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ غُرُوبًا. والغُرُوبُ أيضاً: مجاري الدمع. وَالْغُرْبُ - بوزن: الضَّرْبُ -: الدَّلُّو العظيمة. وَغَرِبَ كُلُّ شَيْءٍ أَيْضًا: حَدُّهُ. وَالْعَارِبُ: ما بين السَّنَامِ إِلَى الْعُنُقِ، ومنه قولهم: (حَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ): أي: اذهبي حيث شئت..^(٢).

وفي الحديث: عن أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَصْرَ بِالْمُحَمَّصِ، فَقَالَ: «إِنْ هَذِهِ الصَّلَاةُ عَرَضَتْ عَلَيَّ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا، فَمَنْ حَافِظٌ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَا صَلَاةَ بَعْدَهَا حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ»، وَالشَّاهِدُ: النَّجْمُ^(٣).

وقد قيل: هو كناية عن غروب الشمس؛ لأن لغروبها يظهر الشاهد.

(١) انظر: العين، مادة: (غرب) (٤/٤٠٩-٤١٥)، وانظر: مادة: (غرب) في (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٣/٣٤٨-٣٥٢).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (غرب) (١/١٩١-١٩٤).

(٣) صحيح مسلم [٨٣٠].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "يسمى شاهداً؛ لأنه يشهد الليل، أي: يحضر ويظهر، ومنه قيل لصلاة المغرب: صلاة الشاهد. أقول: ويجوز أن يحمل على الاستعارة، شبه النجم عند طلوعه دليلاً على وجود الليل بالشاهد الذي تثبت به الدعاوى" (١).

وعن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ هَذِهِ الصَّلَاةُ -يعني: العصر- فرضت على من كان قبلكم فضيعوها، فمن حافظ منكم اليوم عليها أعطي أجرها مرتين ولا صلاة بعدها حتى يرى الشاهد -يعني: النجم-» (٢).

فعلى هذا فإن صلاة المغرب سميت: صلاة الشاهد؛ لأنها تصلى عند طلوع نجم اسمه شاهد. قال شَمْرٌ: هو راجع إلى ما فسرهُ أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه النجم. وقال غيره: وتسمى هذه الصلاة: صلاة البَصَر؛ لأنه تبصر في وقته نجوم السماء، فالْبَصَرُ يدرك رؤية النجم؛ ولذلك قيل له: صلاة البصر. وقيل في صلاة الشاهد: إنها صلاة الفجر؛ لأن المسافر يُصَلِّيها كالشاهد، لا يَقْصُرُ منها (٣).

وقد قوبل العشي بالإشراق في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

الإشراق يكون عند استقبال الشمس (٤). تقول: أشرق: إذا دخل في وقت الشروق.

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١١٢٤).

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٤٠٨٤]، قال الهيثمي (١/٣٠٨): "رواه الطبراني في الكبير، وفيه: ابن إسحاق، وهو ثقة مدلس".

(٣) انظر: تهذيب اللغة (٦/٤٩٦).

(٤) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية، لِقَطْرُب (ص: ٥٦).

والبلوج: الإشراق. تقول: بَلَجَ الصُّبْحُ يَبْلُجُ - بالضم-، أي: أضاء. وَابْلَجَ وَتَبْلَجَ مثله. وَتَبْلَجَ فلانٌ: إذا ضحك وهشَّ. وَصُبُحُ أبلج بين البلج، أي: مشرق مضيء^(١). وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: "البلج: الإشراق، ومنه: انبلاج الصبح"^(٢). وفي حديث: أم معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أبلج الوجه»^(٣) "أي: مشرق الوجه مسفره. ومنه: تبلج الصبح وانبلاج. فأنا الأبلج فهو الذي قد وضح ما بين حاجبيه فلم يقتربنا، والاسم: البلج - بالتحريك-، لم ترده أم معبد؛ لأنها قد وصفته في حديثها بالقرن. ومنه الحديث: «ليلة القدر بلجة»^(٤) أي: مشرقة.

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (بلج) (٣٠٠/١)، وانظر: تهذيب اللغة (٦٨/١١).

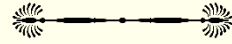
(٢) مقاييس اللغة، مادة: (بلج) (٢٩٦/١).

(٣) حديث أم معبد حديث: أم معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قصة الهجرة، ووصفها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما مر بها في طريقه، مشهور في كتب السيرة والسنة، وفي سنده مجاهيل، وقد حُسِّنَ باعتبار مجموع طرقه. وقد أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٣٤٨٥]، والطبراني في (الكبير) [٣٦٠٥]، والحاكم [٤٢٧٤]، وصححه، وأقره الذهبي. قال الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية) (٤٧٢/٤): "وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً".

(٤) الحديث رواه عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن أمانة ليلة القدر أنها صافية بلجة..» الحديث. وقد أخرجه أحمد [٢٢٧٦٥]، والطبراني في (الشاميين) [١١١٩]، والضياء في (المختارة) [٣٤٢]. قال ابن عبد البر: "هذا حديث حسن حديث غريب، وهو من حديث: الشاميين، رواه كلهم ثقات، وبقيّة إذا روى عن الثقات فليس بحديثه بأس" الاستدكار (٤١٧/٣)، وقال الهيثمي (١٧٥/٣): "رواه أحمد، رجاله ثقات" اهـ. وأخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٨٦٧٨، ٩٥٤٣]: عن الحسن بلفظ: «ليلة القدر بلجة سمحة، تطلع شمسها ليس لها شعاع». والطبراني في (الكبير) [١٣٩]، وفي (الشاميين) [٣٣٨٩]: عن واثلة بن الأسقع بلفظ: «ليلة القدر بلجة، لا حارة ولا باردة، ولا سحب فيها، ولا مطر، ولا ريح، ولا يرمى فيها بنجم، ومن علامة يومها تطلع الشمس لا شعاع لها». قال الهيثمي (١٧٨/٣-١٧٩): "رواه الطبراني في (الكبير)، وفيه بشر بن عون عن بكار بن تميم، وكلاهما ضعيف". وفي (صحيح مسلم) [٧٦٢]: عن عبد الله بن مسعود، يقول: «من قام السنة أصاب ليلة=

والبُلْجَة - بالضم والفتح - : ضوء الصبح " (١).

شفق ووسق:



قال الله عَزَّجَلْ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٧].

الباء هي الأصل في القسم، وتبدل منها الواو (٢).

والشَّفَقُ: "بَقِيَّةُ ضوء الشمس وحُمُرُهَا في أول الليل إلى قريبٍ من العَمَةِ. وقال الخليل رَحِمَهُ اللهُ: الشَّفَقُ: الحمرةُ من غُروب الشمس إلى وقت العِشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق. وقال الفراء رَحِمَهُ اللهُ: سمعتُ بعض العرب يقول: عليه ثوبٌ كأنَّه الشَّفَقُ، وكان أحمر. والشَّفَقَةُ: الاسم من الإشفاق، وكذلك الشَّفَقُ.. " (٣).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "الشَّفَقُ: الحمرة التي ترى في الأفق في المغرب بعد سقوط الشمس. وقيل: الشفق النهار" (٤).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس. والإشفاق: عناية مختلطة بخوف، لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال الله عَزَّجَلْ: ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، فإذا عدي بـ: (من)

=القدر»، فقال أبي: «والله الذي لا إله إلا هو، إنما لفي رمضان، يحلف ما يستثني، والله إني لأعلم أي

ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين، وأما رُحْمَا

أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها».

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (بلج) (١٥١/١).

(٢) انظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (١١٧/٥).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة (شفق) (١٥٠١/٤)، وانظر: معاني القرآن، للفراء (٢٥١/٣).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٠٥/٥).

فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ: (في) فمعنى العناية فيه أظهر. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝﴾ [الطور: ٢٦]، ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [الشورى: ٢٢]، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا﴾ [المجادلة: ١٣] " (١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشفق: الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس، وبسقوطه يخرج وقت المغرب، ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء، إلا ما يروى عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في إحدى الروايتين: أنه البياض. وروى أسد بن عمرو (٢): أنه رجع عنه، سمى لرقته. ومنه الشفقة على الإنسان: رقة القلب عليه" (٣).

قال محمد بن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: "والشفق البياض المعترض في الأفق في قول أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي قول أبي يوسف ومحمد رَحِمَهُمَا اللَّهُ: الحمرة. وروى أيضاً عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: الشفق هو الحمرة" (٤).

وقال في (الحجة): "والشفق عندنا: الحمرة التي تكون في المغرب، فإذا ذهب تلك الحمرة فقد غاب الشفق، وكذلك قال أهل المدينة، ومالك رَحِمَهُ اللَّهُ مثل قولنا: إن الشفق هو الحمرة" (٥).

(١) المفردات، للراغب، مادة: (شفق) (ص: ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) قل شمس الأئمة السرخسي: "والشفق البياض الذي بعد الحمرة في قول أبي حنيفة، وهو قول أبي بكر وعائشة رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وفي قول أبي يوسف ومحمد والشافعي: الحمرة التي قبل البياض وهو قول عمر وعلي وابن مسعود رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وهكذا روى أسد بن عمرو عن أبي حنيفة" المبسوط (١/٤٤٤-١٤٥). وعليها الفتوى، كما في الدراية، ومجمع الروايات، وشروح المجمع، وبه قالت الثلاثة. انظر: الباب في شرح الكتاب (١/٥٧).

(٣) الكشف (٤/٧٢٧).

(٤) الأصل المعروف بالمبسوط، لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني (١/١٤٦).

(٥) الحجة على أهل المدينة (١/٧).



وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ووقت صلاة المغرب: ما لم يغيب الشفق»^(١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن حجج القائلين بأن الشفق الحمرة ما روي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنه صَلَّى العشاء لسقوط القمر لثالثه الشهر»^(٢)، أخرجه أحمد وأبو داود، والترمذي، والنسائي رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو صحيح، وصلى قبل غيبوبة الشفق^(٣).
قال ابن سيد الناس رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرح الترمذي): وقد علم كل من له علم بالمطالع والمغرب أن البياض لا يغيب إلا عند ثلث الليل الأول، وهو الذي حد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خروج أكثر الوقت به، فصح يقيناً أن وقتها داخل قبل ثلث الليل الأول بيقين، فقد ثبت بالنص أنه داخل قبل مغيب الشفق الذي هو البياض، فتبين بذلك يقيناً أن الوقت إنما دخل بالشفق الذي هو الحمرة؛ للفرق بين أول الوقت وآخره^(٤).
وقد جاء ذكر الشفق في غير موضع.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧].

(١) صحيح مسلم [٦١٢].

(٢) أخرجه الطيالسي [٨٣٤]، وأحمد [١٨٤١٥]، والدارمي [١٢٤٧]، وأبو داود [٤١٩]، والترمذي [١٦٥]، والبزار [٣٢٣٢]، والنسائي [٥٢٨]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٧٨٤]، وابن حبان [١٥٢٦]، والطبراني في (الكبير) [١٧٢]، والدارقطني [١٠٥٨]، والحاكم [٦٩٨]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٧٤٨].

(٣) انظر: أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٣٦٩/٤).

(٤) نيل الأوطار (١٤/٢)، وانظر: شرح الترمذي (النفح الشذي)، لابن سيد الناس اليعمري (٤٠٥/٣)، وانظر: التفسير البسيط، للواحدي (٣٦٣/٢٣-٣٦٦)، تفسير ابن كثير (٣٥٨/٨-٣٥٩).

أي: وما جَمَعَ وضمَّ^(١).

قال الشاعر.

*** مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدُنَ سَائِقًا

أي: مجتمعات، ومنه الوَسَق في الطعام؛ لأنه مكيلة معلومة تجمع قدرًا معلومًا.

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا وَسَقَ ۝٧﴾، أي: وما جمع من الجبال والبحار والأشجار، كأنه جمعها بأن طلع عليها كلها^(٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الوسق: جمع المتفرق. يقال: وسقت الشيء: إذا جمعته، وسمي قدر معلوم من الحمل كحمل البعير وسقًا، وقيل: هو ستون صاعًا.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَلَّيْلٍ وَمَا وَسَقَ ۝٧﴾ [الانشقاق: ١٧]، قيل: وما جمع من الظلام. وقيل: عبارة عن طوارق الليل، ووسقت الشيء: جمعته، والوسيقة الإبل المجموعة كالرفقة من الناس، والاتساق: الاجتماع والاطراد. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقَمَرٍ إِذَا أَتَسَقَ ۝١٨﴾ [الانشقاق: ١٨]"^(٣).

وفي (الكشاف): "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا وَسَقَ ۝٧﴾ وما جَمَعَ وضمَّ، يقال: وسقه فاتسق واستوسق^(٤). ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين: اتسع واستوسع. ومعناه: وما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها"^(٥).

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء (٢٥١/٣)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٠٥/٥).

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٩١/٢)، تهذيب اللغة (١٨٥/٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (وسق) (ص: ٨٧١).

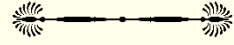
(٤) يعني أن كلاً منهما مطاوع لوسق، أي: جمعه فاجتمع.

(٥) الكشاف (٧٢٧/٤).

وهو عبارة عما جَمَعَ الليل وضمَّ مما كان منتشرًا بالنهار، من الدَّواب والحشرات والهوام والسباع، وذلك أنه إذا أقبل الليل أقبل كل شيء إلى مأواه.

وقيل: يجوز أن يكون المراد بما جمعه الليل من العباد المتجهدين بالليل؛ لأن الله عَزَّجَلَّ قد مدح المستغفرين بالأسحار، فيجوز أن يقسم بهم.

صبح :



وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

قال الجوهرى رَحِمَهُ اللهُ: "الصُّبْحُ: الفجر^(١). وصلاة الفجر تسمى أيضًا: صلاة الصبح - كما سيأتيك في بيان معنى: الفجر-. ويقال للصُّبْح المستطير: فَجْرٌ، وهو الصَّادِق. والمستطيل الكاذب يقال له: فجر أيضًا. وأما الصُّبْح فلا يكونُ إِلَّا الصَّادِق^(٢). وعلى هذا فالصبح أخص من الفجر.

والصَّبَاخُ: نقيض المساء. وكذلك: الصَّيْحَةُ: تقول: أَصْبَحَ الرَّجُلُ، وصَبَّحَهُ اللهُ، وصَبَّحْتُهُ، أي: قُلْتُ له: عَمَّ صَبَاخًا. وصَبَّحْتُهُ أيضًا: إذا أَتَيْتُهُ صَبَاخًا. ولا يُراد بالتشديد

(١) قال في (المختار): "وهو أيضًا اسم من (الإصباح) ذكره في (مسا). مختار الصحاح، مادة: (صبح)

(ص: ١٧٢).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٣٥/١١).



ههنا: التكثير. وأصبح فلانٌ عالماً، أي: صار. وفُلانٌ ينامُ الصُّبْحَةَ والصُّبْحَةَ، أي: ينامُ حين يُصْبِح. و(الصُّبُوحُ): الشُّرْبُ بِالْعَدَاةِ، وهو ضِدُّ الْعَبُوقِ..^(١)

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الصبح والصباح: أول النهار، وهو وقت ما احمر الأفق بحاجب الشمس. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ الْأُصْبُحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، وقال: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧]، والتصبح: النوم بالعادة، والصبوح: شرب الصباح، يقال: صبحته: سقيته صبوخًا. ويقال: صبح فلان، أي: وضؤ^(٢).

تَنْفَسُ الصُّبْحُ :

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

قال الفرَّاء رَحِمَهُ اللَّهُ: "إذا ارتفع النهار، فهو تنفس الصبح"^(٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قلت: ما معنى تنفس الصبح؟ قلت: إذا أقبل الصبح: أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفسًا له على المجاز. وقيل: تنفس الصبح"^(٤).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وتنفس النهار عبارة عن توسعه"^(٥).

وقيل: ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [١٨]: إذا أضاء وأقبل وتبين^(٦).

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (صبح) (٣٧٩/١-٣٨١).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (صبح) (ص: ٤٧٣). يقال: وضؤ وضاءة، أي: جمل.

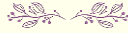
(٣) معاني القرآن، للفرَّاء (٢٤٢/٣).

(٤) الكشف (٧١١/٤).

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (نفس) (ص: ٨١٨).

(٦) انظر: إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس (١٠١/٥)، تفسير الطبري (٢٥٨/٢٤)، تفسير ابن كثير

(٣٣٨/٨).



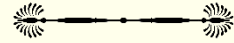
وقال الزَّجَاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِذَا امْتَدَّ يَصِيرُ هَارًا بَيْنًا" ^(١).

وقيل: "إِذَا انشَقَّ الْفَجْرُ وَانْفَلَقَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ" ^(٢).

قال عَلَقَةُ بْنُ قُرْطُ التِّيمِي:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَعَسَا ^(٣)

صريمه :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝﴾ [القلم: ٢٠-٢١]، قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "انصرم في الليل، وهو الليل، وكل رملة انصرمت من معظم الرمل فهي الصريمة" ^(٤).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝﴾ [القلم: ٢٠]، أي: كالمصرومة لهلاك ثمرها. وقيل: الصريم الليل، أي: احترقت فاسودت. وقيل: النهار، أي: بيست وزهبت خضرتها. أو لم يبق شيء فيها، من قولهم: بيض الإناء: إذا فرغه. وقيل: الصريم الرمال" ^(٥).

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢٩٢/٥).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٩/١٣).

(٣) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية، لُقْطُوب (ص: ٥١)، مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٨/٢)، المخصص (١٧٨/٤).

(٤) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٦٥/٢).

(٥) الكشف (٥٩٠/٤)، "بيض الإناء: ملأه وفرغه. وعن بعض العرب: ما بقي لهم صميل إلا بيض، أي:

سقاء يابس إلا مليء" أساس البلاغة، مادة: (بيض) (٨٦/١)، حاشية الطيبي (٥٨٤/١٥).



و"الصريم من الأضداد؛ يقال لليل: صريم، وللنهار: صريم؛ لأن كل واحد منهما يتصرم من صاحبه.." ^(١). فالصَّرَمُ: القُطْعُ البائن، قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "صرمت الشيء صرماً: إذا قطعته. وصرمتُ الرجلَ صرماً: إذا قطعت كلامه. والاسم الصُّرْمُ. وصرَمَ النخل، أي: جدّه. وأصرَمَ النخل، أي: حان له أن يُصرَمَ. واصطِرامُ النخل: اجترامه. والانصرامُ: الانقطاع. والتصارُمُ: التقاطع. والتصرُّمُ: التقطع. قال: والصريمُ: المجدود المقطوع" ^(٢). وقد استعمل اللفظ في دلالتي الصباح والليل؛ لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه. فقليل: الأصرمان: الليل والنهار.

قال في (العين): "والصَّرْمُ: قُطْعُ بَائِنٍ لِحَبْلٍ وَعِذْقٍ وَنَحْوِهِ. والصِّرَامُ: وقت صِرَامِ النَّخْلِ، وصرَمَ العِذْقُ عن النَّخْلَةِ، وأصرَمَ النَّخْلُ: إذا حان وقتُ اصطِرامِهِ. والصَّرِيمةُ: إحكامُك أمرًا والعزمُ عليه. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠]، أي: كالليل. وتَصَرَّمَتِ الأَيَّامُ والسَّنَةُ والأمر، أي: انقضى. وانصرَمَ الأمرُ والشيء: إذا انقطع فذهب" ^(٣).

قال إبراهيم الحربي رَحِمَهُ اللهُ: "أخبرنا سلمة، عن الفراء رَحِمَهُ اللهُ: ﴿كَالصَّرِيمِ﴾: كالليل المسود.

وأخبرنا الأثرم، عن أبي عبيدة رَحِمَهُ اللهُ: ﴿كَالصَّرِيمِ﴾: ما انصرم من الليل، الصريم: الليل، والصريم الصبح قال بشر بن أبي خازم:

فَبَاتَ يَقُولُ أَصْبَحَ لَيْلٌ حَتَّى تَجَلَّى عَنْ صَرِيْمَتِهِ الظَّلَامُ ^(٤)

(١) انظر: الأضداد، لأبي بكر بن الأنباري (ص: ٨٤-٨٥).

(٢) الصحاح، مادة: (صرم) (١٩٦٥/٥ - ١٩٦٦).

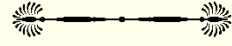
(٣) انظر: العين، مادة: (صرم) (١٢٠/٧ - ١٢١).

(٤) غريب الحديث، لأبي إسحاق إبراهيم الحربي (١٢٠٠/٣ - ١٢٠١).



وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ٥٠﴾، أي: كالليل المسود، ونحوه قول الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

ضحى :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَامِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف: ٩٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ ضُحًى ٥٩﴾ [طه: ٥٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَنُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ١١٩﴾ [طه: ١١٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ٦٩﴾ [النازعات: ٢٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ٤٦﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ١﴾ [الشمس: ١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالضُّحَى ١ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ٢﴾ [الضحى: ١-٢].

ضُحُوَّةُ النهار: بعد طلوع الشمس، ثم بعده: الضُّحَى، وهي حين تشرق الشمس، مقصورة تُؤَنَّثُ وتُذَكَّرُ، فمن أَنتَ ذهب إلى أنها جمع: ضحوة، ومن ذَكَرَ ذهب إلى أنه اسم على فُعْلٍ، مثل: صُرِدَ وَنُعِرَ.

وهو ظرف غير مُتَمَكِّنٍ مِثْلُ: سَحَرٍ، تقول: تقول: لِقَيْتُهُ ضُحًى وضُحًى، إذا أردت به ضُحَى يومك لم تُنَوِّنْهُ.

وقيل: ضُحًى مصروفٌ على كلِّ حالٍ.

(١) معاني القرآن، للفراء (١٧٥/٣)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٠٨/٥).



ثم بعده الضَّحَاءُ ممدود مُدَكَّرٌ، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى. تقول منه: أقمت بالمكان حتى أضحيت، كما تقول من الصباح: أصبحت. والضحاء أيضاً: الغداء، وإنما سمي بذلك؛ لأنه يؤكل في الضَّحَاءِ. و(أضحى) فلانٌ يَفْعَلُ كذا كما تقول: ظلَّ يفعلُ كذا. و(ضحى) بشاةٍ من الأضحية، وهي شاةٌ تُذْبَحُ يوم الأضحى. يقال: (أضحى) - بضم الهمزة وكسرهما - والجمع: أضحى. و(ضحى) على فَعِيلَةٍ، والجمع: (ضحاًيا). و(أضحاًة) والجمع: (أضحى)، كَأَرْطَاةٍ وَأَرْطَى، وبها سُمِّيَ يوم الأضحى. والأضحى يُدَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فمن دَكَّرَ ذهب إلى العيد واليوم.. (١).

وفي (العين): الضَّحُو: ارتفاع النَّهار، والضُّحى: فويق ذلك، وضحي الرجلُ ضَحَى: أصابه حرُّ الشَّمْسِ. قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: ١١٩]، أي: لا يؤذيك حرُّ الشَّمْسِ. وقد تُسَمَّى الشَّمْسُ: الضَّحَاءُ - ممدود - . وتقول: اضح، أي: ابرُزْ للشَّمْسِ. ضحا يضحو ضُحُوًّا وضحي يضحى ضَحَى وضحيًّا. وضح الأضحية، وأضح بصلاة الضُّحى إضحاءً، أي: أخرجها إلى ارتفاع الضُّحى. وهلمَّ نتضحى، أي: نتغذى. وتَضَحَّتِ الإبِلُ: أخذت في الرعي من أوَّل النَّهار، وتعتشت: رعت بالليل. يقال: ضحها وعشها. والضَّاحية من كلِّ بلدةٍ: ناحيتها البارزة.. (٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "الضحى: انبساط الشمس، وامتداد النهار، وسمي الوقت به. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَهَا﴾ [١] [الشَّمْسُ: ١]، ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضَحَلَهَا﴾ [٢] [النازعات: ٤٦]، ﴿وَالضُّحَى﴾ [٣] [الضحى: ١-٢]، ﴿وَأَخْرَجَ ضَحَلَهَا﴾

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (ضحا) (٢٤٠٦/٦)، وانظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (٢٩٢-٢٩١/٤)، تهذيب اللغة (٩٨/٥)، المخصص (١٤٩/٥).

(٢) العين، مادة: (ضحو) (٢٦٥/٣)، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (ضحو) (٤٧١-٤٧٠/٣).



﴿٢٩﴾ [النازعات: ٢٩]، ﴿وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]، وضحي يضحى: تعرض للشمس. قال: ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩]، أي: لك أن تتصون من حر الشمس.. " (١).

قال الفراء رحمه الله في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَلَهَا﴾ [الشمس: ١]: "ضحاهها: نهارها، وكذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١]، هو النهار كله" (٢).

وقال الزجاج رحمه الله: "معنى: ﴿وَضُحَلَهَا﴾ [الشمس: ١]: وضيائها. وقيل ضحاهها النهار" (٣).

وقال في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١]: "النهار، وقيل: ساعة من ساعات النهار" (٤).

فقابل بين الضحي وبين الليل إذا سجي؛ ولذلك قالوا: إن المراد من الضحي في الآية: النهار؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢] فقابله بالليل. وفي (سورة الأعراف): ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [٩٧] أَوْأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨]، أي: نهارًا. وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله عز وجل فيه موسى عليه السلام، وبليلة المعراج. وقيل: هي الساعة التي خر فيها السحرة سجداً. بيانه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]. وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضممار، مجازة: ورب الضحي. و﴿سَجَى﴾ [معناه: سكن، قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة رحمه الله. يقال: ليلة ساجية، أي:

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (ضحى) (ص: ٥٠٢).

(٢) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٦٦).

(٣) معاني القرآن وإعراب، للزجاج (٥/٣٣١).

(٤) معاني القرآن وإعراب، للزجاج (٥/٣٣٩).

ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية. يقال: سجا الليل يسجو سجوا: إذا سكن. والبحر إذا سجا: سكن" (١).

والأضحية: المنحورة يوم الأضحى وما يليه، أفعولة (٢) من ضحى يضحى: إذا برز للشمس؛ لأنها تنحر ظاهرة عند ضحوة.

فالأضحية لغة: اسم لما يذبح وقت الضحى، ثم كثر حتى صار اسماً لما يذبح في أي وقت كان من أيام الأضحى، من تسمية الشيء باسم وقته. وشرعاً: ذبح حيوان مخصوص، في وقت مخصوص، بنية القرية (٣).

فالأضحية: اسم لما يذبح في أيام النحر (من يوم العيد إلى آخر أيام التشريق)؛ بنية القرية إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال القاضي عياض رحمه الله: "يقال: أضحية، وإضحية - بالضم والكسر مشددة الياء -، وجمعها: أضاحي - مشدد الآخر - . وضحيَّة وجمعها: ضحايا، وأضحاه وجمعها: أضحى وأضحٍ، ومنه قيل: يوم الأضحى، ومنه سميت بذلك. وقيل: سميت بذلك اليوم؛ لأن وقتها وقت ضحى النهار، وهو ارتفاعه" (٤).

(١) تفسير القرطبي (٩١/٢٠).

(٢) "أفعولة، أصله أضحوية، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وكسرت الحاء؛ لثبات الياء. وتجمع على: أضاحي بتشديد الياء كما في (العناية). ونقل في (الشرنبلالية) أن فيها ثمانى لغات: أضحية بضم الهمزة وكسرهما مع تشديد الياء، وتخفيفها، وضحية بلا همزة بفتح الضاد وكسرهما، وأضحاة بفتح الهمزة وكسرهما" رد المحتار على الدر المختار (٣١١/٦).

(٣) الباب في شرح الكتاب (٢٣٢/٣)، العناية شرح الهداية (٥٠٥/٩)، البناية شرح الهداية (٣/١٢)، درر الحكام (٢٦٥/١)، مجمع الأنهر (٥١٦/٢)، رد المحتار على الدر المختار (٣١١/٦ - ٣١٢).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٣٩٨/٦)، وانظر: نجاح القاري (ص: ١٩٥٣٠)، إرشاد الساري (٨ / ٢٩٨)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (١٠٦/٣).



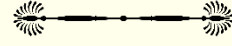
والذبح كذلك - بكسر الذال - : اسم لما يذبح، وبالنصب مصدر ^(١).
ومن خصائص القرآن الكريم: مراعاة العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه، كما في قوله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١-٣]، فالعلاقة تشبيه نور الوحي بالضحى، وانقطاعه بظلام الليل، وهو من لطائف القسم.
يقول ابن القيم رحمه الله: "فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه : (ودَّعَ محمدًا ربه) ^(٢)، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.
وأيضًا فإن الذي فلقَ ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلقَ ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس، وهذان للعقل. وأيضًا: فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.
فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها" ^(٣).

(١) انظر: التعريفات (ص: ٢٩)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٥٤)، وانظر: فيض القدير (٩٣/٦).

(٢) أخرجه مسلم في (صحيحه) [٤٧٥٧].

(٣) التبيان في أيمان القرآن، لابن القيم (١١٠-١١١)، وانظر: الإتيان (٣٥٥/٢).

ظهر وبيان المراد من الإبراد :



قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذِّنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُسْوُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ١٧-١٨].

قال في (العين): "الظُّهُرُ: ساعةُ الزَّوالِ ^(١)، ومنه يُقالُ: صلاةُ الظُّهْرِ. والظَّهِيرَةُ: حدُّ انتِصافِ النَّهارِ" ^(٢)، والظهر مشتق منها. قال في (التَّهذِيبِ): هما واحد. قال الأصمعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يُقالُ: جاء فلان مُظَهَّرًا أي: جاء في الظَّهِيرَةِ ^(٣). وقد يحذفون على السَّعة فيقولون: هذه الظهر، يريدون: صلاة الظهر. وأتاني مُظَهَّرًا ومُظَهَّرًا، أي: في الظَّهِيرَةِ ^(٤).

وفي (المفردات): "الظَّهِيرَةُ: وقت الظهر وأظهر فلان حصل في ذلك الوقت، على بناء أصبح وأمسى..." ^(٥).

وقال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "في أسماء الله عَزَّجَلَّ: (الظاهر)، وهو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه.

(١) أي: زوال الشمس من كبد السماء.

(٢) العين، مادة: (ظهر) (٣٧/٤).

(٣) تهذيب اللغة (١٣٦/٦)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ظهر) (٧٣١/٢-٧٣٢).

(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٢٩٠/٤)، وانظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص: ٤٩).

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (ظهر) (ص: ٥٤١).

وقيل: هو الذي عرف بطرق الاستدلال العقلي بما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه.

و(صلاة الظهر) وهو اسم لنصف النهار، سمي به من ظهيرة الشمس، وهو شدة حرها.

وقيل: أضيفت إليه؛ لأنه أظهر أوقات الصلاة للأبصار.

وقيل: أظهرها حرًا.

وقيل: لأنها أول صلاة أظهرت وصليت.

وقد تكرر ذكر (الظهيرة) في الحديث، وهو شدة الحر نصف النهار. ولا يقال في الشتاء ظهيرة. وأظهرنا: إذا دخلنا في وقت الظهر، كأصبحنا وأمسينا في الصباح والمساء. وتجمع الظهيرة على الظهائر...^(١).

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وقت الظهر: إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله، ما لم يحضر العصر، ووقت العصر: ما لم تصفر الشمس، ووقت صلاة المغرب: ما لم يغب الشفق، ووقت صلاة العشاء: إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صلاة الصبح: من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة؛ فإنها تطلع بين قرني شيطان»^(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس»^(٣).

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ظهر) (١٦٤/٣).

(٢) صحيح مسلم [٦١٢].

(٣) صحيح البخاري [٩٠٤].

الإبراد :

وأريد به هنا: الإبراد في الاصطلاح الشرعي، وهو الذي جاء النص عليه في أكثر من حديث، فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»^(١).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أذن مؤذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهر، فقال: «أبرد أبرد»، أو قال: «انتظر انتظر»، وقال: «شدة الحر من فيح جهنم، فإذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة» حتى رأينا فيء التلول^(٢).

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبردوا بالظهر؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم»^(٣).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإبراد: الدخول في البرد. كقولك: أظهرنا وأفجرنا. والباء للتعدي. فالمعنى: ادخلوا الصلاة في البرد"^(٤).

وفي (النهاية): "وأما الحديث الآخر: «أبردوا بالظهر» فالإبراد: انكسار الوهج والحر، وهو من الإبراد: الدخول في البرد. وقيل معناه: صلوها في أول وقتها، من برد النهار وهو أوله"^(٥).

وقال غير واحد: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبْرِدُوا» أي: افعلوها في وقت البرد، وهو الزَّمان الذي يتبين فيه شدة انكسار الحر؛ لأن شدة الحر تذهب الخشوع، قال ابن التين

(١) صحيح البخاري [٥٣٣، ٥٣٦]، مسلم [٦١٥، ٦١٧].

(٢) صحيح البخاري [٥٣٥، ٥٣٩]، مسلم [٦١٦].

(٣) صحيح البخاري [٥٣٨].

(٤) الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري (٩١/١).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (١١٤/١).

رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَبْرِدُوا» أي: ادخلوا في وقت الإبراد، مثل: أظلم دخل في الظلام، وأمسى دخل في المساء" (١).

وكان حد التأخير غالبًا: أن يظهر الفيء للجدر.

قالوا: وتأخيرها عن وقتها على سبيل الندب إلى أن يصير للحيطان ظل يمشي فيه قاصد الجماعة من محل بعيد، بشرط: عدم وجود ظل يمشي فيه، وأن لا يجاوز به نصف الوقت، وأن يكون بقطر حار.. (٢). وقال الفقهاء: يندب الإبراد بالظهر في شدة الحر بقطر حار، لا بالجمعة؛ لشدة الخطر في فواتها المؤدي إليه تأخيرها بالتكاسل، ولأن الناس مأمورون بالتبكير إليها، فلا يتأذون بالحر (٣).

وقال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ» الكلام عليه من وجوه:

أحدها: (الإبراد): أن تؤخر الصلاة عن أول الوقت مقدار ما يظهر للحيطان ظل، ولا يحتاج إلى المشي في الشمس. هذا ما ذكره بعض مصنفي الشافعية. وعند المالكية: يؤخر الظهر إلى أن يصير الفيء أكثر من ذراع.

الثاني: اختلف الفقهاء في الإبراد بالظهر في شدة الحر: هل هو سنة، أو رخصة؛ وعبر بعضهم بأن قال: هل الأفضل التقديم أو الإبراد؟ وبنوا على ذلك: أن من صلى في

(١) انظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (١٤٤/٦)، عمدة القاري، للبدر العيني (٢٠/٥)، منحة

الباري، لتركيا الأنصاري (٢٥٣/٢).

(٢) انظر: فيض القدير (٧٦/١).

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٧٤/٢).

بيته، أو مشى في كَرٍّ^(١) إلى المسجد: هل يسن له الإبراد؟ فإن قلنا: إنه رخصة لم يسن؛ إذ لا مشقة عليه في التعجيل، وإن قلنا: إنه سنة أبرد. والأقرب: أنه سنة؛ لورود الأمر به، مع ما اقترن به من العلة، وهو أن «شدة الحر من فيح جهنم»، وذلك مناسب للتأخير، والأحاديث الدالة على فضيلة التعجيل عامة أو مطلقة، وهذا خاص.

ولا مبالاة مع ما ذكرناه من صيغة الأمر ومناسبة العلة بقول من قال: إن التعجيل أفضل؛ لأنه أكثر مشقة؛ فإن مراتب الثواب إنما يرجع فيها إلى النصوص، وقد يترجح بعض العبادة الخفيفة على ما هو أشق منها بحسب المصالح المتعلقة بها^(٢).

وقوله: «حتى رأينا فيء التلول» يدل على زيادة التأخير بالإبراد؛ إذ التلول لا يظهر ظلها إلا بعد تمكن الفياء وطوله بخلاف الأشياء المبسطة؛ فإن ظهور ظلها سريع. وقال في (طرح التثريب): "ذكر أصحابنا الشافعية أن الإبراد بالظهر يكون بقدر ما يبقى للحيطان ظل يمشي فيه الساعي للجماعة، قالوا: ولا ينبغي أن يؤخر عن النصف الأول من الوقت قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في (الأم): ولا يبلغ بتأخيرها آخر وقتها، فيصليهما جميعاً معاً، ولكن بقدر ما يعلم أنه يصليهما متمهلاً فينصرف منها قبل آخر وقتها؛ ليكون بين انصرافه منها وبين آخر وقتها فصل..^(٣).

وكذا قال الحنابلة وقدر المالكية التأخير بزيادة على ربع القامة إلى نصف الوقت.

(١) الكِنُّ: السترة، والجمع: أكنان. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١]. والأَكِنَّةُ:

الأغطية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥]، الواحد: كِنَانٌ. الصحاح، للجوهري،

مادة: (كنن) (٦/٢١٨٨).

(٢) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (١/٢٩٣).

(٣) انظر: الأم، للإمام الشافعي (١/٩١).

واختلفوا هل ينتهي بالإبراد إلى آخر الوقت أم لا؟ فمنعه أشهب رَحِمَهُ اللهُ، وأجازه ابن عبد الحكم رَحِمَهُ اللهُ، ويدل له قوله في رواية البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «حَتَّى سَاوَى الظِّلُّ التُّلُولَ» (١).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من فيح جهنم**» أي: شدة غليانها، وانتشار حرها. قال العلامة السندي رَحِمَهُ اللهُ: "والجمهور حمله على الحقيقة؛ إذ لا يستبعد مثله. وقيل: خرج مخرج التشبيه والتقريب، أي: كأنه نار جهنم في الحرِّ؛ فاحذروها واجتنبوا ضرها" (٢).

وبناء على ما تقدم فإن الحكمة من الأمر بالإبراد بصلاة الظهر وإن كان على سبيل الندب فهي ظاهرة، وهي لأجل أداء الصلاة على أتم وجه من الخشوع وحضور القلب، ولا يكون ذلك إلا إذا المصلي غير منشغل عن الصلاة بشيء. هذا الوجه الأول، وأما الوجه الثاني فإن الإبراد أسلم للمصلي من الأذى الذي قد يترتب على المشي إلى الصلاة في اشتداد حرِّ الشمس.

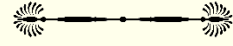
وفي الحديث: عن عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «**ثلاث ساعات كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهانا أن نصلي فيهن، أو أن نقبر فيهن موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس، وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب**» (٣).

(١) صحيح البخاري [٦٢٩]. انظر: طرح الشريب في شرح التقريب (١٦٠/٢)، وانظر: عارضة الأحوذى، لأبي بكر بن العربي (٢٦٨/١-٢٦٩).

(٢) انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢٣١/١-٢٣٢)، وانظر: حاشية السندي على سنن النسائي (٢٤٨/١-٢٤٩).

(٣) صحيح مسلم [٨٣١].

عشاء وعشي؛



العشاء - بفتح العين - : طعام العشي، جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وَضَعَ عَشَاءُ أَحَدِكُمْ وَأَقِيَمَتِ الصَّلَاةُ، فَابْدُءُوا بِالْعَشَاءِ وَلَا يَعْجَلْ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهُ» (١).

والعشاء - بكسر العين - هو أَوَّلُ ظِلَامِ اللَّيْلِ، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦) [يوسف: ١٦].

يقال: عَشَيْتُ الْإِبِلَ فَتَعَشَّتْ: إِذَا رَعَيْتُهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ. ويقال: العواشي: الْإِبِلُ وَالْغَنَمُ تُرْعَى بِاللَّيْلِ. والعشي، آخر النَّهَارِ، فَإِذَا قُلْتَ: عَشِيَّةٌ فَهِيَ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ، تقول: لَقِيتُهُ عَشِيَّةَ يَوْمٍ كَذَا، وَعَشِيَّةٌ مِنَ الْعَشِيَّاتِ.

والعشاء ممدود مهموز: الْأَكْلُ فِي وَقْتِ الْعَشِيِّ. والعشاء عند الْعَامَّةِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ مِنْ لَدُنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يُؤَلِّيَ صَدْرُ اللَّيْلِ، وَبَعْضٌ يَقُولُ: إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، وَالْعِشَاءُ: الْمَغْرِبُ وَالْعَتَمَةُ (٢).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: "العين والشين والحرف المعتل أصل صحيح يدل على ظلام وقلة وضوح في الشيء، ثم يُفَرِّغُ مِنْهُ مَا يُقَارِبُهُ، فَمِنْ ذَلِكَ: الْعِشَاءُ، وَهُوَ أَوَّلُ ظِلَامِ اللَّيْلِ. وَعَشَوَاءُ اللَّيْلِ: ظَلَمَتُهُ.

قال: وَالْعَشِيُّ: آخر النهار. فإذا قلت: عَشِيَّةٌ فَهُوَ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ. تقول: لَقِيتُهُ عَشِيَّةَ يَوْمٍ كَذَا، وَلَقِيتُهُ عَشِيَّةً مِنَ الْعَشِيَّاتِ. وهذا الذي حكى عن الخليل فهو مذهب، والأصح

(١) صحيح البخاري [٦٧٣]، مسلم [٥٥٩].

(٢) انظر: العين، مادة: (عَشَوُ) (١٨٧/٢-١٨٩)، جمهرة اللغة (٨٧٢/٢)، غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق

الحري (٥٧٥/٢)، تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحُمَيْدِي (ص: ٢٠٢).

عندنا أن يقال في العشي مثل ما يقال في العَشِيَّة. يقال: لَقِيْتُهُ عَشِيَّ يوم كذا، كما يقال عَشِيَّة يوم كذا؛ إذ العَشِيُّ إنما هو آخر النَّهار. وقد قيل: كُلُّ ما كان بَعْدَ الزَّوَالِ فهو عَشِيٌّ. وَتَصَغَّرُ العَشِيَّةُ: عُشْيَشِيَّةٌ ^(١). والعشاء -ممدود مهموز بفتح العين- هو الطَّعَامُ الَّذِي يُؤْكَلُ من آخر النَّهار وأَوَّلِ اللَّيْلِ.

والعِشَا -مقصور-: مصدر الأَعْشَى، والمرأة عَشَوَاءُ، ورجالٌ عَشَوُ، وهو الَّذي لا يُبْصِرُ بِاللَّيْلِ، وهو بالنَّهارِ بَصِيرٌ. يقال: عَشَى يَعْشِي عَشَى. والعشواء من النوق: التي كأنها لا تبصر ما أمامها فتخبط كل شيء بيديها. وتقول: إنهم لفي عشواء من أمرهم ^(٢).

وقال في (العين): "والعِشاء: أَوَّلُ ظلام اللَّيْلِ، وعَشَيْتُ الإبل فتعَشَّت: إذا رعيَتْها اللَّيْلُ كُلَّهُ. قال: العشيّ، آخر النَّهار، فإذا قلت: عَشِيَّةٌ فهي ليوم واحد، تقول: لَقِيْتُهُ عَشِيَّةً يوم كذا، وعَشِيَّةٌ من العَشِيَّاتِ، وإذا صَغَّرُوا العَشِيَّ قالوا: عُشْيَشِيَّان، وذلك عند الشَّقَى، وهو آخر ساعة من النَّهار عند مُعَيَّرِبان الشَّمْسِ. ويجوز في تصغير عَشِيَّةٍ: عُشْيَّةٌ، وعُشْيَشِيَّةٌ. والعِشاء [بالفتح] ممدود مهموز: الأكل في وقت العشيّ. والعِشاء [بالكسر] عند العَامَّة بعد غروب الشَّمْسِ من لَدُنْ ذلك إلى أن يُولِّي صدر اللَّيْلِ، وبعض يقول: إلى طلوع الفجر.. " ^(٣).

(١) تصغير: عَشِيَّة. قال سيبويه: صغرت على غير مكبرها. انظر: الكتاب، لسيبويه (٤٨٤/٣).

(٢) مقاييس اللغة، مادة: (عَشَوُ) (٣٢٢/٤)، وانظر: العين (١٨٧/٢-١٨٩)، مشارق الأنوار، للقاضي عياض

(١٠٣/٢)، المصباح المنير (٣٢٢/٤).

(٣) انظر: العين، مادة: (عَشَوُ) (١٨٨/٢).



وقال الجوهرى رَحِمَهُ اللهُ: "العَشِيُّ والعَشِيَّةُ: من صلاة المغرب إلى العَتَمَةِ. تقول: أتيتُه عَشِيَّ أَمَس، وَعَشِيَّةَ أَمَس. والعِشَاءُ مكسور ممدود مِثْلُ الْعَشِيِّ. قال: العِشَاءُ: المغرب والعَتَمَةُ. وزعم قوم أَنَّ العِشَاءَ من زوال الشمس إلى طلوع الفجر..^(١)

قال الأزهرى رَحِمَهُ اللهُ: (العشي): ما بين زوال الشمس وغروبها. وصلاتا العشي هما: الظهر والعصر، فإذا غابت الشمس فهو (العشاء). قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللهُ: يقال لصلاتي المغرب والعشاء: العشاءان، والأصل العشاء فغلب على المغرب، كما قالوا: الأبوان وهما الأب والأم. ومثله كثير. قال النضر: العشاء: حين يصلي الناس العتمة^(٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "العشي: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب. والإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى"^(٣). قال في (الدر): "وهو المعروف"^(٤). وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ وغير واحد - كما تقدم -: "العشي: من زوال الشمس إلى الصباح..^(٥)

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «صلى بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحدى صلاتي العشي، إما الظهر، وإما العصر، فسلم في ركعتين...» الحديث^(٦). قال مجد الدين بن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "يريد: صلاة الظهر أو العصر؛ لأن ما بعد الزوال إلى المغرب عشي. وقيل: العشي: من زوال الشمس إلى الصباح"^(٧).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (عشا) (٢٤٢٦/٦).

(٢) تهذيب اللغة (٣٨/٣)، وانظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (١٣١/٤).

(٣) الكشف (٣٦١/١).

(٤) الدر المصون (١٦٧/٣).

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (عشا) (ص: ٥٦٧).

(٦) صحيح البخاري [٤٨٢، ١٢٢٩]، مسلم [٥٧٣]، واللفظ له.

(٧) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر مادة: (عشا) (٢٤٢/٣).

وفي الحديث: عن عبد الله بن مُعَقِّلٍ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَغْلِبَنَّكُمْ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمُ الْمَغْرَبِ»، قال الأعراب: وتقول: هي العِشَاءُ^(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَغْلِبَنَّكُمْ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمُ الْعِشَاءِ؛ فَإِنَّمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ الْعِشَاءُ، وَإِنَّمَا تُعْتَمُّ بِحِلَابِ الْإِبِلِ»^(٢). وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِحِلَابِ الْإِبِلِ»: كانت الأعراب يحلبون الإبل بعد غيبوبة الشفق حين يمد الظلام رواقه، ويسمى ذلك الوقت: العتمة.

وقيل: كانوا يؤخرون الحلاب إلى الظلمة، ويسمون ذلك الوقت: العتمة فهو من باب تسمية الشيء باسم وقته.

وكان ذلك مستفيضاً في اللغة العربية، فلما جاء الإسلام، وتمهدت قواعده، وأكثر المسلمون من أن يقولوا: العتمة بدل: صلاة العشاء قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَغْلِبَنَّكُمْ الْأَعْرَابُ» أي: لا تطلقوا هذا الاسم على ما هو متداول بين المسلمين، فيغلب مصطلحهم على الاسم الذي جئتم به من الله عَزَّ وَجَلَّ^(٣).

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ: الْعِشَاءُ وَالْفَجْرُ»، وقال: «لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالْفَجْرِ»، قال أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: والاختيار: أن يقول: العشاء، لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ بَعْدَ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨]. ويذكر عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا نَتَنَاقَبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ فَأَعْتَمَ بَهَا».

(١) صحيح البخاري [٥٦٣].

(٢) صحيح مسلم [٦٤٤].

(٣) انظر: الميسر في شرح مصابيح السنة، للتَّوْرِبِشْتِي (١٨٩/١-١٩٠)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٨٩٩/٣)، مرقاة المفاتيح (٥٤٤/٢).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أعتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعشاء». وقال بعضهم، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أعتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعتمة». وقال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي العشاء». وقال أبو برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤخر العشاء». وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أخر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العشاء الآخرة». وقال ابن عمر، وأبو أيوب، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المغرب والعشاء»^(١). وعن محمد بن عمرو بن الحسن بن علي، قال: قدم الحجاج فسلنا جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي الظهر بالهاجرة، والعصر والشمس نقية، والمغرب إذا وجبت، والعشاء أحيانا وأحيانا، إذا رأهم اجتمعوا عجل، وإذا رأهم أبطؤوا آخر، والصبح كانوا -أو كان- النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلها بغلس»^(٢).

(١) صحيح البخاري (١١٧/١). قوله: «تتناوب» أي: تأتي نوبة بعد نوبة. وقوله: «فأعتم»: أي: دخل في العتمة، وهي الظلمة. وقيل: إنها اسم لثلث الليل الأول بعد غروب الشفق. و«العشاء الآخرة» قيدها بالآخرة احترازًا عن المغرب؛ لأنها قد تسمى: العشاء. قال الحافظ ابن رجب: "مراده: أن العشاء الآخرة تسمى: العشاء، وتسمى: العتمة، وأنه يجوز تسميتها بالعتمة من غير كراهة، وإن كان تسميتها بالعشاء أفضل؛ اتباعًا لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ بَعْدَ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨]، وهذا قول كثير من العلماء، أو أكثرهم، وهو ظاهر كلام أحمد، وقول أكثر أصحابه، وكذا قال الشافعي في (الأم): أحب إلي أن لا تسمى العشاء الآخرة: عتمة، وهو قول كثير من أصحابه، أو أكثرهم. ومنهم من قال: يكره أن تسمى: عتمة، وهو وجه ضعيف لأصحابنا" فتح الباري، لابن رجب (٣٦٣/٤).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٠، ٥٦٥]، مسلم [٦٤٦]. وقوله: «بالهاجرة» هي شدة الحر نصف النهار عقب الزوال. قيل سميت هاجرة من الهجر، وهو الترك؛ لأن الناس يتركون التصرف حينئذ لشدة الحر ويقبلون. وقوله: «وجبت» أي: غابت الشمس، والوجوب: السقوط، وحذف ذكر الشمس؛ للعلم بما كقولها

جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَقَّقْ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۝﴾ [ص: ٣٢].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أعتَم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعشاء حتى ناداه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصلاة نام النساء والصبيان، فخرج، فقال: «ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم»، ولم يكن أحد يومئذ يصلي غير أهل المدينة، وكانوا يصلون فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل الأول^(١).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شغل عنها ليلة، فأخرها حتى رقدنا في المسجد، ثم استيقظنا، ثم رقدنا، ثم استيقظنا، ثم خرج علينا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «ليس أحد من أهل الأرض ينتظر الصلاة غيركم»، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا يبالي أقدمها أم أخرها، إذا كان لا يخشى أن يغلبه النوم عن وقتها، وكان يرقد قبلها»^(٢).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أنا وأصحابي الذين قدموا معي في السفينة نزولاً في بقيق بُطْحَانَ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، فكان يتناوب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند صلاة العشاء كل ليلة نفر منهم، فوافقنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا وأصحابي، وله بعض الشُّغْل في بعض أمره، فأعتم بالصلاة حتى ابْهَارَ الليل، ثم خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلى بهم، فلما قضى صلاته، قال لمن حضره: «على رِسْلِكُمْ، أبشروا، إن من نعمة الله عليكم، أنه ليس أحد من الناس يصلي هذه الساعة غيركم»، أو قال: «ما صلَّى هذه الساعة أحد غيركم» لا يدري أي الكلمتين قال، قال أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرجعنا، وفرحنا بما سمعنا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

(١) صحيح البخاري [٥٦٦، ٥٦٩، ٨٦٢، ٨٦٤]، مسلم [٦٣٨].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٠].

(٣) صحيح البخاري [٥٦٧]، مسلم [٦٤١].

و«اجهارُ النهار» -بتشديد الراء-، يعني: انتصف، قاله الأصمعي رَحِمَهُ اللهُ وغيره، وقالوا: وهو مأخوذ من (جُهر الشيء) أي: وسطه. وقيل: طلعت نجومه وأضاء^(١). وعن أبي بَرزَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها»^(٢).

والعشاء -بالفتح كما تقدم-: الطعام الذي يؤكل عند العشاء. وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء»^(٣). وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا قُدِّمَ العشاء، فابدءوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشاءكم»^(٤). وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء ولا يعجل حتى يفرغ منه». وكان ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «يوضع له الطعام، وتقام الصلاة، فلا يأتيها حتى يفرغ، وإنه ليسمع قراءة الإمام»^(٥).

(١) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مادة: (بهر) (٨٣/١)، مشارق الأنوار، للقاضي عياض

(ص: ١٠٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/١٦٥)، مقاييس اللغة (١/٨٣).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٨].

(٣) صحيح البخاري [٦٧١، ٥٤٦٥].

(٤) صحيح البخاري [٦٧٢]، مسلم [٥٥٧].

(٥) صحيح البخاري [٦٧٣، ٦٧٤]، مسلم [٥٥٩].

إطلاق العشاءين على المغرب والعشاء :

جاء في الحديث: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً»، ثم صلاها بين العشاءين، بين المغرب والعشاء^(١).

قال الإمام النووي رحمه الله: "«ثم صلاها بين العشاءين»: بين المغرب والعشاء، فيه: بيان صحة إطلاق لفظ: (العشاءين) على المغرب والعشاء، وقد أنكره بعضهم؛ لأن المغرب لا يسمى عشاء، وهذا غلط؛ لأن التثنية هنا للتغليب، كالأبوين، والقمرين، والعمرين، ونظائرها"^(٢). قال العراقي رحمه الله: "فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين نهيه صلى الله عليه وسلم عن تسمية المغرب عشاء، وقد صرح الفقهاء الشافعية بأنه مكروه؟ قلت: لعل النهي إنما هو عن إفرادها بهذا الاسم، فأما إذا أطلقه عليها مع العشاء على سبيل التغليب فهذا لا ينكر؛ لأنه مجاز خارج عن أصل الوضع على أن هذا الإطلاق هنا ليس مرفوعاً، وإنما هو من كلام الصحابي -والله أعلم-"^(٣). ويستحب إحياء ما بين العشاءين بالصلاة والذكر^(٤).

ولا خلاف بين الفقهاء في أن إحياء ما بين المغرب والعشاء مستحب. ويرى كثير منهم أنه مستحب استحباباً مؤكداً.

(١) صحيح مسلم [٦٢٧].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٣٠).

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب (٢/ ١٧٧).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٢/ ٥٢٦).

اختلف في عدد ركعات إحياء ما بين العشاءين، فذهب جماعة إلى أن إحياء ما بين العشاءين يكون بست ركعات، وبه أخذ الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، وهو الراجح من مذهب الحنابلة. وفي رواية عند الحنابلة أنها أربع ركعات، وفي رواية أنها عشرون ركعة. وذهب الشافعية إلى أن أقلها ركعتان وأكثرها عشرون ركعة. وذهب المالكية إلى أنه لا حد لأكثرها، ولكن الأولى أن تكون ست ركعات. وينظر ذلك في مظانه. وتسمى هذه الصلاة: صلاة الأوابين، وصلاة الغفلة.

إحياء ما بين العشاءين :

جاء في الحديث: عن حذيفة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فصليت معه المغرب فصلى إلى العشاء» (١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: "والأحاديث المذكورة في الباب تدل على مشروعية الاستكثار من الصلاة ما بين المغرب والعشاء، والأحاديث وإن كان أكثرها ضعيفاً فهي منتهضة بمجموعها لا سيما في فضائل الأعمال، قال العراقي رَحِمَهُ اللهُ: وممن كان يصلي ما بين المغرب والعشاء من الصحابة: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسلمان الفارسي، وابن عمر، وأنس بن مالك في ناس من الأنصار رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُمْ.

ومن التابعين: الأسود بن يزيد، وأبو عثمان النهدي، وابن أبي مليكة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن المنكدر، وأبو حاتم، وعبد الله بن سخرية، وعلي بن الحسين، وأبو عبد الرحمن الحبلي، وشريح القاضي، وعبد الله بن مغفل وغيرهم رَحِمَهُ اللهُ. ومن الأئمة: سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ" (٢).

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [٣٧٩]، قال المنذري (٢٢٨/١): "رواه النسائي بإسناد جيد".

(٢) نيل الأوطار (٦٨/٣).

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "وأحياء ما بين العشاءين سنة مؤكدة، وإنما رغب في هذه الأحاديث على الصلاة بين العشاءين؛ لأنه إذا واصل بينهما بالصلاة ينجس عن باطنه آثار الكدورة الحاصلة في أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم، وسماع كلامهم؛ فإن لذلك كله أثراً وخدشاً في القلب، حتى النظر إليهم يعقب كدراً في القلب، يدركه من صفا قلبه، ورق حجاب، وبالمواصلة بين العشاءين بالعبادة يرجى ذهاب ذلك الأثر" (١).

عشي في القرآن الكريم :

ذكر لفظ (العشي) في القرآن من غير مقابلة في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْغِيَاثُ﴾ [ص: ٣١].

وقبل لفظ الغداة بالعشي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

كما قبل العشي بالإبكار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٤٢٧)، وانظر: فيض القدير (٦/١٦٧).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

كما قوبل لفظ بكرة بالأصيل، وهو العشي، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا أَأُطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَها فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

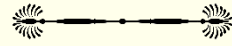
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَسْبِيحُهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَسْبِيحُهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

كما قوبل العشي بالإشراق في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

عصر:



العصر: مصدر عصرت، والمعصور: الشيء العصير، والعصارة: نفاية ما يعصر.
واعتصرت من كذا: أخذت ما يجري مجرى العصارة.
والاعتصار: والاعتصار أن يغص الإنسان بطعام فيعتصر بالماء، وهو شربه إياه قليلاً قليلاً؛ ليسيغه.. " (١).

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (عصر) (ص: ٥٦٩)، تفسير الراغب (١/٥٦٠)، العين (١/٢٩٤)،
الصحاح (٢/٧٤٩).

والعَصْر: الدَّهْر، وفيه لغتان أخريان: عَصْرٌ وَعَصْرٌ، مثل: عُسْرٌ وَعُسْرٌ. والجمع: عَصُورٌ، أقسم الله عَزَّجَلَّ به فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١-٢]، أراد بالعصر: الدهر.

و(الْعَصْران): الليل والنهار، وذلك كالقمرين للشمس والقمر. والعصران أيضاً: الغدَاة والعَشِيَّةُ، ومنه سُمِّيتْ صلاة (العَصْرِ)؛ لأنها تعصر، أي: تُؤَخَّرُ عن الظُّهْرِ^(١).

وقال ابن السِّكِّيتِ رَحِمَهُ اللهُ في باب ما جاء مثني: الليل والنهار يقال لهما: العصران. قال: ويقال: العصران: الغدَاة والعشي^(٢).

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "العصر مصدر عصرت العنب، وسمي آخر النهار ومدة من الزمان: عصرًا؛ كأنه مدة عصرت فجمعت، والمعصر: سحاب ذات عصر للمطر..^(٣) وفي (جمهرة اللغة): "سميت صلاة العصر؛ لأنها تصلى في أحد العصرين، وهو آخر النهار. وقالوا: صلاة العَصْرِ، وصلاة العَصْرِ. أخبرنا أبو عثمان الأشنانداني قال: سمعت الأَخْفَشَ يقول: كنت عند الخليل فسأله رجل عن حدِّ الليل فقال: من ندأة الشفق إلى ندأة الفجر"^(٤).

وقد قيل: سميت العصر؛ لأنها تعصر، أي: تؤخَّرُ، أو لأن الوقت يُعصر.

(١) انظر: الصحاح، مادة: (عصر) (٧٤٨/٢-٧٥٠)، العين، مادة: (٢٩٢/١-٢٩٣)، مقاييس اللغة (٣٤١/٤)، الزاهر في معاني كلمات الناس (١٧٠/٢).

(٢) إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيتِ (ص: ٢٧٧)، تهذيب اللغة (١١٠/٢-١١١).

(٣) انظر: تفسير الراغب (٥٦٠/١)، حاشية الطيبي على الكشاف (٥٢٦/٣).

(٤) جمهرة اللغة (٧٣٩/٢)، و(النَّدَاة): الحُمْرة تكون حول الشمس في غروبها أو طلوعها.

وقد قيل: معنى أنها تعصر: وقوعها في آخر النهار، فهي مؤخّرة عن جميع صلوات النهار، ووقتها مؤخر عن جميع أوقات صلوات النهار، لا لأنها تُعصر عن أول وقتها. قال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: "قال أبو قلابة رَحِمَهُ اللهُ: سُمِّيَتِ الْعَصْرُ؛ لأنها تعصر، فتعلّق بالاشتقاق. وهذا غيرُ مسلّم له؛ فإن العصرَ في اللّغة: الدَّهْرُ، والعصرُ: وقتٌ من اليوم، وهو العَدَاة والعَشِي، والعصر: الليل، والعصرُ: النَّهَارُ. ويقال أيضًا: العصران... " (١).

وفي الحديث: «حَافِظٌ عَلَى الْعَصْرَيْنِ: صَلَاةٌ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٌ قَبْلَ غُرُوبِهَا» (٢).

وعند ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَحَافِظُوا عَلَى الْعَصْرَيْنِ صَلَاةٌ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٌ قَبْلَ غُرُوبِهَا» (٣).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: "يريد بالعصرين: صلاة العصر، وصلاة الصبح. والعرب قد تحمل أحد الاسمين على الآخر، فتجمع بينهما في التسمية؛ طلبًا للتخفيف، كقولهم: سُنَّةُ الْعَمْرَيْنِ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وَالْأَسُودَيْنِ يَرِيدُونَ: التَّمْرَ وَالْمَاءَ. وَالْأَصْلُ فِي الْعَصْرَيْنِ عِنْدَ الْعَرَبِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ" (٤).

(١) المسالك في شرح موطأ مالك (٣٥٦/٢)، عارضة الأحوزي (٢٧١/١).

(٢) أخرجه البخاري في (التاريخ الكبير) (١٢٤/٧)، وأبو داود [٤٢٨]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٩٣٩]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٩٩٦]، والطبراني [٨٢٦]، والرامهرمزي في (أمثال الحديث) (ص: ١٥٧)، والحاكم [٧١٧]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، وأقره الذهبي. والبيهقي في (الكبرى) [٢١٨٨].

(٣) صحيح ابن حبان [١٧٤٢].

(٤) معالم السنن (١/١٣٤).

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «حافظ على العصرين» يريد: صلاة الفجر وصلاة العصر، سماهما العصرين؛ لأنهما يقعان في طرفي العصرين، وهما: الليل والنهار. والأشبه أنه غلب أحد الاسمين على الآخر" (١).

وقيل: "غلب العصر على الفجر؛ لأن رعاية العصر أشد؛ لاشتغال الناس بمصالحهم. وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: غلب العصر على الفجر؛ لزيادة فضلها؛ لأنها الوسطى، والغالب في التغليب رعاية الأشرف. وتعقبه المحقق العراقي رَحِمَهُ اللهُ بأنه لا حاجة لادعاء التغليب؛ لقول صاحب الصحاح: العصران: الغداة والعشي، فالصلاتان واقعتان في نفس العصرين، وخصهما بالأمر؛ لأن وقتها مظنة للاشتغال عنهما" (٢).

وفي (الصحيحين): «من صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دخل الجنة» (٣).

قوله: «الْبَرْدَيْنِ»: تنثية: برد - بفتح الباء الموحدة وسكون الراء-، والمراد بهما: صلاة الفجر والعصر (٤).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "قال كثير من العلماء: هما: الفجر والعصر، وسُمِّيَا بذلك؛ لأنهما يفعلان في وقتي البرد" (٥).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: "لأنهما يصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء، وتذهب سَوْرَةُ الْحَرِّ" (٦).

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٤٦/٣-٢٤٧).

(٢) فيض القدير (٣٦٧/٣).

(٣) صحيح البخاري [٥٧٤]، مسلم [٦٣٥].

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥٣/٢)، عمدة القاري (٧١/٥).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٦٢/٢).

(٦) انظر: غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١٨٥/١-١٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (٥٣/٢)، عمدة

القاري (٧١/٥). و(سَوْرَةُ الْحَرِّ): وَثُوْبُهُ واشتداده.

وقال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "أي: الفجر والعصر، وخصمهما؛ لكونهما شاقين، فمن وازب عليهما وازب على غيرهما بالأولى" (١).

قال التَّوْرِبَشْتِي رَحِمَهُ اللهُ: "ومن المفهوم الواضح أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخصص هاتين الصلاتين بالمحافظة تسهياً للأمر في إضاعة غيرهما من الصلوات، أو ترخيصاً لتأخيرها عن أوقاتها، وإنما أمر بأدائهما في الوقت المختار، والمحافظة عليهما في جماعة؛ لما فيهما من الفضل والزيادة في الأجر؛ فإن صلاة الفجر تشهدا ملائكة الليل وملائكة النهار؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وصلاة العصر: هي الصلاة الوسطى؛ نص عليها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح، ويجمع فيها-أيضاً- ملائكة الليل وملائكة النهار.

ثم إن إحداهما تقام في وقت تثاقل النفوس؛ لتراكم الغفلة، واستيلاء النوم، والأخرى تقام عند قيام الأسواق في البلدان، واشتغال الناس بالمعاملات؛ فنبه المكلفين على هذه المعاني بزيادة تأكيد" (٢).

وقوله: وصلاة العصر: هي الصلاة الوسطى؛ نص عليها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح، يعني: كما جاء في حديث: علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مألاً الله بيوثهم وقبورهم نارا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» وهي صلاة العصر (٣).

وكما في حديث: عن عبد الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: حبس المشركون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صلاة العصر، حتى احْمَرَّتِ الشَّمْسُ، أو اصْفَرَّتْ، فقال رسول الله

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٣٠٣).

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة (١/١٨٧-١٨٨).

(٣) صحيح البخاري [٢٩٣١، ٤١١١، ٦٣٩٦]، مسلم [٦٢٧].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملاً الله أجوافهم وقبورهم ناراً»، أو قال: «حشا الله أجوافهم وقبورهم ناراً»^(١).

وعن أبي يونس، مولى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنه قال: أمرتني عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن أكتب لها مصحفاً، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فلما بلغت آذنتها فَأَمَلْتُ عَلَيَّ: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾، وصلاة العصر، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سمعتها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

وقوله: ويجتمع فيها-أيضاً- ملائكة الليل وملائكة النهار، يعني: كما جاء في أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»^(٣).

والصلاة الوسطى على ما تقدم هي صلاة العصر.

وقيل: إن الصلاة الوسطى: صلاة العتمة والصبح.

وقيل: هي الظهر؛ لأنها وسط النهار، والنهار أوله من طلوع الفجر.

وقيل: إنها المغرب؛ لأن الأولى هي الظهر، فتكون المغرب الثالثة، والثالثة من كل

خمس هي الوسطى؛ ولأنها وسطى في عدد الركعات ووسطى في الأوقات، فعدد ركعاتها ثلاث، فهي وسطى بين الأربع والاثنتين، ووقتها في آخر النهار وأول الليل، خصت من

(١) صحيح مسلم [٦٢٨].

(٢) صحيح مسلم [٦٢٩].

(٣) صحيح البخاري [٥٥٥، ٣٢٢٣، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦]، مسلم [٦٣٢].



بين الصلاة بأنها الوتر، والله عَزَّوَجَلَّ وتر يحب الوتر، وبأنها تصلى في أول وقتها في جميع الأمصار والأعصار، ويكره تأخيرها عنه.. إلى غير ذلك.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هي صلاة العشاء؛ لأنها بين صلاتين لا تقصران، ويستحب تأخيرها، وذلك شاق، فوقع التأكيد في المحافظة عليها.

وقيل: إنها صلاة الجمعة؛ لأن الجمعة خصت بالجمع لها والخطبة فيها، جعلت عيداً للمسلمين.

وقيل: إنها الصلوات الخمس.

وقيل: إن الصلاة الوسطى غير معينة، فهي مبهمة في الصلوات الخمس؛ ليجتهد في الجميع، كما في ليلة القدر، والساعة التي في يوم الجمعة... إلى غير ذلك. والحاصل أنه قد اختلف في الصلاة الوسطى على أقوال. وقد جمع الحافظ الدمياطي رَحِمَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ كِتَابًا سَمَاهُ: (كشف الغطا عن الصلاة الوسطى) ^(١)، وذكر فيها تسعة عشر قولاً ^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "كونها العصر هو المعتمد، وبه قال: ابن مسعود، وأبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، وقول أحمد رَحِمَهُ اللهُ، والذي صار إليه معظم الشافعية؛ لصحة الحديث فيه. قال الترمذي رَحِمَهُ اللهُ: هو قول أكثر علماء الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وقال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: هو قول جمهور التابعين، وقال ابن عبد البر

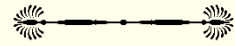
(١) (كشف الغطا عن الصلاة الوسطى)، للحافظ عبد المؤمن الدمياطي. المتوفى سنة: [٧٠٥هـ]. انظر: كشف الظنون (١٤٩٢/٢).

(٢) انظر: نجاح القاري لصحيح البخاري (ص: ١٥٥٧٠).

رَحِمَهُ اللَّهُ: هو قول أكثر أهل الأثر، وبه قال من المالكية: ابن حبيب، وابن العربي، وابن عطية رَحِمَهُمُ اللَّهُ" (١).

وقال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الفرق بين الدهر والعصر بعد أن ذكر معنى الدهر: "إن العصر لكل مختلفين معناهما واحد، مثل الشتاء والصيف، والليلة واليوم، والغداة والسحر. يقال لذلك كله: العصر. وقال المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ في تأويل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١-٢] قال: العصر ههنا: الوقت، قال: ويقولون: أهل هذا العصر، كما يقولون أهل هذا الزمان، والعصر اسم للسنين الكثيرة.. وتقول: عاصرت فلاناً، أي: كنت في عصره، أي: زمن حياته.. " (٢).

غدو وغدوة :



تقدم أن الغدوة هي المرة من الغدو، وهو سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ، نقيض: الرَّواح. قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْغُدُوءُ: ما بين صلاة الْغَدَاةِ وطلوع الشمس. يقال: أتيتُه غُدُوءَ غير مصروفة؛ لأنها معرفة، مثل: سَحَرَ، إلا أنها من الظروف المتمكنة. تقول: سِيرَ على فَرَسِكَ غُدُوءَ وَغُدُوءَ، وَغُدُوءَ وَغُدُوءَ. فما نون من هذا فهو نكرة، وما لم ينون فهو معرفة، والجمع: غدا. ويقال: آتيتك غداة غد. والجمع: الغدوات، مثل: قطاة وقطوات. وقولهم: إن لآتيه بالغدايا والعشايا، هو لازدواج الكلام كما قالوا: هنأني الطعام ومَرَأني، وإِنَّمَا هو أَمَرَأني. والغُدُوءُ: نقيض الرواح. وقد غدا يَغْدُو غُدُوءًا. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِالْغُدُوءِ

(١) فتح الباري (١٩٦/٨).

(٢) الفروق اللغوية (ص: ٢٧١-٢٧٢).

وَالْأَصَالِ ﴿[الأعراف: ٢٠٥]، أي: بالغَدَوَاتِ، فعَبَّرَ بالفعل عن الوقت، كما يقال: أتيتك طلوع الشمس، أي: وقت طلوع الشمس" (١).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الغدوة والغداة من أول النهار، وقوبل في القرآن الغدو بالآصال، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقوبل الغداة بالعشي، قال: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْعِشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. والغادية: السحاب ينشأ غدوة، والغداة: طعام يتناول في ذلك الوقت، وقد غدوت أغدو، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرِثِكُمْ﴾ [القلم: ٢٢]، وغد يقال لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه، قال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ [القمر: ٢٦]، ونحوه" (٢).

وغدوة معرفة لا تنصرف، كذا في (العين) (٣)؛ لأنها علم وضع للتعريف (٤). قال الأزهرى رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال النَّحْوِيُّونَ: إِنَّهَا لَا تُنَوَّنُ، ولا يدخل فيها الألف واللام، وإذا قالوا: (الغداة) صَرَفُوا، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]؛ وهي قراءة جميع القراء إِلَّا ما رُوي عن ابن عامر رَحِمَهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ قَرَأَ بِالْغُدُوِّ، وهي شاذة" (٥). والغداة: ما يؤكل من أول النهار.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "في لفظ: (الغدو) قولان:

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (غدا) (٢٤٤٤/٦).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (غدا) (ص: ٦٠٣).

(٣) العين (٤/٤٣٧).

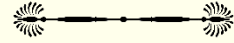
(٤) الكليات (ص: ٦٦٦).

(٥) تهذيب اللغة (١٥٥/٨)، وانظر: حجة القراءات، لابن زنجلة (ص: ٢٥١)، المحرر الوجيز (٢/٢٩٥).

القول الأول: أنه مصدر، يقال: غدوت أغدو غَدُوًّا وَغُدُوًّا^(١)، ومنه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿غُدُوْهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، أي: غدوها للسير، ثم سمي وقت الغدو: غدوًّا، كما يقال: دنا الصباح، أي: وقته، ودنا المساء، أي: وقته.

القول الثاني: أن يكون الغدو جمع: غدوة، قال الليث: الغدو جمع، مثل: الغدوات، وواحد الغدوات: غدوة^(٢).

غسق ووقب :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾ [الفلق: ٣].

الغَسَقُ: أول ظلمة الليل. وقد غسق الليل يَغْسِقُ، أي: أظلم. والغاسقُ: الليل إذا غاب الشفق. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾، قال غير واحد: الليل إذا دخل^(٣)، ويقال: إنه القمر. ووقبت الشمس: غابت. وَغَسَقَتْ عينه غَسَقًا: أظلمت. وَغَسَقَ الجرح غَسَقَانًا: إذا سال منه ماء أصفر. وأغسق المؤذن، أي: أحرَّ المغرب إلى غَسَقِ الليل. والغَسَاقُ: البارد المنْتِنُ، يخفف ويشدد. وقرأ أبو عمرو رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا

(١) الغدو على هذا: مصدر غَدَا يَغْدُو غَدُوًّا وَغُدُوًّا. ويقال: ألقاه غَدُوًّا، في معنى: غَد. كذا في (جمهرة اللغة) (٦٧١/١).

(٢) مفاتيح الغيب (٤٤٤/١٥)، وانظر: تهذيب اللغة (١٥٥/٨).

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق (٤٧٦/٣)، تفسير الطبري (٧٠٢/٢٤)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٧٩/٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٨٥٠٨/١٢)، التفسير البسيط (٤٥٨/٢٤)، معاني القرآن، للفراء (٣٠١/٣)، غريب الحديث، لأبي غُبَيْد (١٩٤/٢).

وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ [النبا: ٢٥] بالتخفيف، والكسائي رَحِمَهُ اللَّهُ بالتشديد. وفسَّروا الْعَسَاقَ فِي التَّنْزِيلِ بأنه صديد أهل النَّار ^(١).

وقد قيل: إن معنى: (عساق): الشديد البرد الذي يُحْرِقُ من بَرِّهِ كإحراق الحميم. وقيل: إن العساق: ما يغسق ويسيل من صديدهم وجلودهم ^(٢). وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]: هو "أَوَّل ظلمته للمغرب والعشاء" ^(٣).

قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (التَّهْذِيبِ): "عَسَقِ اللَّيْلِ" عِنْدِي: غَيْبُوبَةُ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ، حِينَ تَحُلُ صَلَاةُ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: سِيَاقُ الْآيَةِ.. إِلَى آخِرِهَا، وَقَدْ دَخَلَتْ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِهِ، فَقَالَ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، وَهُوَ زَوَالُهَا، ﴿إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ﴾: الْعِشَاءُ الْآخِرَةُ، فَهَذِهِ أَرْبَعُ صَلَوَاتٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ تَتِمَّةُ خَمْسٍ " ^(٤).

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْعَاسِقُ: اللَّيْلُ؛ وَالْعَسَقُ: الظُّلْمَةُ. وَ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ ^(٥) أَي: دَخَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَيُقَالُ: الْعَاسِقُ: الْقَمَرُ إِذَا كُشِفَ فَاسْوَدَّ. ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ ^(٦): دَخَلَ فِي الْكُسُوفِ" ^(٥).

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عسق) (١٥٣٧/٤)، المفردات، مادة: (وقب) (ص: ٨٧٩)، جمهرة اللغة (٨٤٥/٢).

(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء (٤١٠/٢)، معاني القرآن وإعرابه (٣٣٩/٤)، وانظر: تفسير عبد الرزاق (١٢٥/٣)، المفردات في غريب القرآن، للراغب، مادة: (عسق) (ص: ٦٠٦)، الكشف (١٠١/٤)، مقاييس اللغة، لابن فارس (٤٢٥/٤).

(٣) معاني القرآن، للفراء (١٢٩/٢).

(٤) تهذيب اللغة (٣١/٨).

(٥) غريب القرآن، لابن قتيبة (ص: ٥٤٢).

قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (التَّهْذِيبِ): "وَالصَّوَابُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]: مِنْ شَرِّ اللَّيْلِ إِذَا دَخَلَ ظِلَامُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَاءِ وَالزَّجَّاجِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ؛ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ.

فَقَوْلُهُ: ﴿غَاسِقٍ﴾، يَعْنِي بِهِ: اللَّيْلُ. ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [٣]: إِذَا دَخَلَ" (١).

قال الزججاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقيل لليل غاسقٌ -والله أعلم-؛ لأنه أبرد من النهار" (٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وعليه حمل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَوْلَهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]، وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [٤] إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبا: ٢٤-٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرهما، وكذلك قال مجاهد ومقاتل هو الذي انتهى برده. ولا تنافي بين القولين؛ فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط، اقتصر على أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة؛ فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل؛ ولهذا استعاذ برَبِّ الفلق، الذي هو الصبح والنور، من شر الغاسق، الذي هو الظلمة فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة.. " (٣).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ): "قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿الْفَلَقِ﴾ [١]: الصبح.

و﴿غَاسِقٍ﴾: الليل. ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [٣]: غروب الشمس، يقال: أَبْيَنُ مِنْ فَرْقٍ وَفَلَقٍ الصُّبْحُ. ﴿وَقَبَ﴾ [٣]: إِذَا دَخَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَأَظْلَمَ" (٤).

(١) تهذيب اللغة (٣٢/٨)، معاني القرآن، للفراء (٣٠١/٣)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٧٩/٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٧٩/٥).

(٣) بدائع الفوائد (٢١٦/٢-٢١٧).

(٤) صحيح البخاري (١٨١/٦).



قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: "وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿الْفَلَقِ﴾ (١): الصبح. وصله الفريابي رَحِمَهُ اللَّهُ من طريقه، وكذا قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ. قوله: ﴿وَالْعَاسِقِ﴾: الليل. ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ (٢): غروب الشمس، وصله الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ من طريق: مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ بلفظ: ﴿وَالْعَاسِقِ إِذَا وَقَبَ﴾ (٣): الليل إذا دخل.

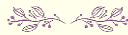
قوله: يقال: أَبَيُّ من فَرَّقَ وفَلَّقَ الصُّبْحُ (١) هو قول الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ، ولفظه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (٢): الصبح، وهو أبين من فلق الصبح، وفرق الصبح (٢). قوله: ﴿وَقَبَ﴾ (٣): إذا دخل في كل شيء وأظلم، هو كلام الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا. وجاء في حديث مرفوع: أن الغاسق: القمر، أخرجه الترمذي، والحاكم رَحِمَهُمَا اللَّهُ من طريق: أبي سلمة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ اسْتَعِذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ» (٣)، وإسناده حسن (٤).

(١) " (فلق الصبح، وفرق الصبح) باللام والراء المفتوحتين، وهذا الأمر أبين من فلق الصبح وفرق الصبح لغتان صحيحتان فصيحتان، ذكرهما أبو العباس ثعلب وغيره، هكذا مضافين إلى الصبح، وهذا إنما يقال في الشيء الواضح البين.. " شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى، لأبي شامة (ص: ٨٤-٨٥).

(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء (٣/٣٠١).

(٣) أخرجه الطيالسي [١٥٨٩]، وأحمد [٢٤٣٢٣]، وعبد بن حميد [١٥١٧]، والترمذي [٣٣٦٦]، قال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٠٦٤]، وأبو يعلى [٤٤٤٠]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١٧٧١]، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) [٦٤٨]، وأبو الشيخ (٤/١٢٠٤)، والحاكم [٣٩٨٩] وقال: "صحيح الإسناد"، وأقره الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الدعوات) [٣٦٥].

(٤) فتح الباري، لابن حجر (٨/٧٤١).



قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لما رأى الشمس قد وقبت قال: «هَذَا حَيْنٌ حَلَّهَا» ^(١): "قوله: «حَيْنٌ حَلَّهَا» يعني: صلاة المغرب. وقوله: وقبت، يعني: غابت ودخلت موضعها، وأصل الوقب: الدخول" ^(٢).

يقال: وَقَبَ الشَّيْءُ: دَخَلَ فِي وَقْبَةٍ، وهي كَالْتَقَرَةِ فِي الشَّيْءِ. وَوَقَبْتُ عَيْنَاهُ: غَارَتَا. وَوَقَبَ الشَّيْءُ: نَزَلَ وَوَقَعَ. ووقب الشيء يَقْبُ وَقْبًا، أي: دخل. تقول: وقبت الشمس: إذا غابت ودخلت موضعها. ووقب الظلام: دخل على الناس. ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا دخل على الناس. وأوقبت الشيء: إذا أدخلته في الوقبة. وَأَوْقَبَ الْقَوْمُ، أي: جاعوا ^(٣).

قال قُطْرُب رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويقال: عَسَقَ اللَّيْلُ يَعْسِقُ عُسُوقًا وَعَسَقًا، أي: أَظْلَمَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾».

وقال كعب بن زهير:

ظَلَّتْ تَجُوبُ يَدَاها وَهي لَاهِيَةٌ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ الْإِظْلَامُ وَالْعَسَقُ ^(٤)

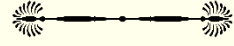
(١) أخرجه أبو عبيد في (غريب الحديث) مرسلاً. انظر: الانتصاف، لابن المنير (٨٢١/٤)، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي (٣٣٥/٤). و«حَيْنٌ حَلَّهَا» برفع «حَيْن»، وكسر الحاء، وجَرَّ اللام من «حلَّها». و«حَيْنٌ حَلَّهَا»: الوقت الذي يَحُلُّ فيه أداؤها، يعني: صلاة المغرب. و(الوقوب): الدخول في كل شيء. النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (وقب) (٢١٢/٥)، حاشية الطيبي على الكشاف (٦٤٦/١٦)، البارع في اللغة، لأبي علي القالي (ص: ٥٠٩).

(٢) غريب الحديث، لأبي غُبَيْد القاسم بن سلام (١٩٤/٢-١٩٥).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (وقب) (٢٣٤/١)، مقاييس اللغة (١٣١/٦).

(٤) الأزمنة وتلبية الجاهلية (ص: ٥٣).

غَلَسٌ :



الْعَلَسُ: ظِلَامٌ آخر اللَّيْلِ. وَغَلَسْنَا: سِرْنَا بَعْلَسَ^(١). قال في (التهذيب): "الْعَلَسُ: أَوَّلُ الصُّبْحِ الصَّادِقِ الْمُنتَشِرِ فِي الْآفَاقِ، وكذلك: الْعَبَسُ، وهما: سَوَادٌ يَخَالِطُهُ بَيَاضٌ يَضْرِبُ إِلَى الْحُمْرَةِ قَلِيلًا، وكذلك: الصُّبْحُ، وَحَرَّةٌ غَلَّاسٍ معروفة، وهي إِحْدَى الْحَرَارِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ"^(٢).

والتَّغْلِيسُ خلافُ النُّورِ، وهو السَّيْرُ مِنَ اللَّيْلِ بَعْلَسٍ. يقال: غَلَسْنَا الْمَاءَ، أي: وَرَدْنَاهُ بَعْلَسَ، وكذلك إِذَا فَعَلْنَا الصَّلَاةَ بَعْلَسٍ، وقولهم: وَقَعَ فِي تُغْلَسٍ، أي: ذَاهِيَةٍ، هو من هَذَا، لِأَنَّهُ يَقَعُ فِي أَمْرِ مُظْلِمٍ لَا يَعْرِفُ الْمَخْرَجَ مِنْهُ^(٣).

وفي الحديث: عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ عِنْدَ الْمَزْدَلِفَةِ، فَقَامَتْ تُصَلِّي، فَصَلَّتْ سَاعَةً ثُمَّ قَالَتْ: «يَا بُنَيَّ، هَلْ غَابَ الْقَمَرُ؟»، قُلْتُ: لَا، فَصَلَّتْ سَاعَةً ثُمَّ قَالَتْ: «يَا بُنَيَّ هَلْ غَابَ الْقَمَرُ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: «فَارْتَحِلُوا»، فَارْتَحَلْنَا وَمَضِينَا، حَتَّى رَمَتِ الْجَمْرَةَ، ثُمَّ رَجَعَتْ فَصَلَّتِ الصُّبْحَ فِي مَنْزِلِهَا، فَقُلْتُ لَهَا: يَا هَنْتَاهُ مَا أَرَانَا إِلَّا قَدْ غَلَسْنَا، قَالَتْ: «يَا بُنَيَّ، إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِلظُّعْنِ»^(٤).

وفي رواية أَبِي دَاوُدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا رَمَتِ الْجَمْرَةَ، قُلْتُ: إِنَّا رَمِينَا الْجَمْرَةَ بَلِيلٍ، قَالَتْ: «إِنَّا كُنَّا نَصْنَعُ هَذَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٥).

(١) العين، مادة: (غلس) (٣٧٨/٤).

(٢) تهذيب اللغة، مادة: (غلس) (٦٩/٨).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (غلس) (٩٥٦/٣)، مقاييس اللغة (٣٩٠/٤).

(٤) صحيح البخاري [١٦٧٩]، مسلم [١٢٩١].

(٥) سنن أبي داود [١٩٤٣]، وأخرجه البيهقي في (الكبرى) [٩٥٧٠].

وقوله (يا هَنْتَاهُ) أي: يا هذه. قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "وتفتح النون وتسكن، وتضم الهاء الآخرة وتسكن. وفي التثنية: هنتان، وفي الجمع: هنوات وهنات، وفي المذكر: هن وهنان وهنون. ولك أن تلحقها الهاء لبيان الحركة، فتقول: يا هنه، وأن تشبع الحركة فتصير ألفا فتقول: يا هناه، ولك ضم الهاء، فتقول: يا هناه أقبل. قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: (هذه اللفظة تختص بالنداء). وقيل: معنى يا هنتاه: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشورهم" (١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: لقد غلسنا: أي: رمينا بغلس، وهو أعلى السحر" (٢). قال أبو زيد: "الغلس آخر الليل حين يشتد سواده، ومنه قوله: (غلسنا) أي: فعلنا ذلك وأتيناه ذلك الوقت" (٣).

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. ومنه حديث الإفاضة: «كُنَّا نُغَلِّسُ مِنْ جَمْعٍ إِلَى مِئَى» (٤)، أي: نسير إليها ذلك الوقت. وقد غلس يغلس تغليسا" (٥).

وقولها «إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِلظُّعْنِ» هو بضم الظاء والعين، وبإسكان العين أيضاً، وهنَّ النساء، الواحدة: ظعينة كسفينة وسفن. وأصل الظعينة: الهودج الذي تكون

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (هنا) (٢٧٩/٥-٢٨٠)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (هنو) (٢٥٣٦/٦-٢٥٣٧).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٣٦٩/٤).

(٣) مشارق الأنوار (١٣٤/٢).

(٤) صحيح مسلم [١٢٩٢].

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غلس) (٣٧٧/٣).

فيه المرأة على البعير فسميت المرأة به مجازاً، واشتهر هذا المجاز حتى غلب، وخفيت الحقيقة، فأطلق على المرأة مطلقاً. وطمعينة الرجل: امرأته ^(١).

وفي هذا الحديث ما يفيد أنه يجوز للنساء الرمي لجمرة العقبة في النصف الأخير من الليل، ومفهومه أنه لم يأذن بذلك للذكور الأقوياء وفيه خلاف ينظر في مظانه. قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "و(غلسنا) لفظة محتملة للتأويل، لا يقطع بها؛ لأنه يجوز أن يسمى ما بعد الفجر: غلساً. واعترض ابن القصار رَحِمَهُ اللهُ فقال: لو صح قوله: (رمينا قبل الفجر) لكان ظناً منه؛ لأنه لما رآها صلت الصبح في دارها ظنَّ أن الرمي كان قبل الفجر، والرمي كان بعد الفجر، فأخرت صلاة الصبح إلى دارها. وقولها: «هكذا كنا نفعل مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» إشارة إلى فعلها، وفعلها يجوز أن يكون بعد الفجر؛ لأنها لم تقل هي: رمينا قبل الفجر، ولا قالت: كنا نرمي معه قبل الفجر؛ لأنه لم ينقل أحد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رمى قبل الفجر". قال ابن الملقن رَحِمَهُ اللهُ: "وفيه ما لا يخفي" ^(٢).

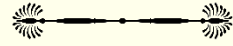
وعن محمد بن عمرو بن الحسن بن علي، قال: قدم الحجاج فسألنا جابر بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُمَا فقال: «كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي الظهر بالهاجرة، والعصر والشمس نقية، والمغرب إذا وجبت، والعشاء أحياناً وأحياناً، إذا رآهم اجتمعوا عجل، وإذا رآهم أبطؤوا آخر، والصبح كانوا -أو كان- النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصليها بغلس» ^(٣).

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٤٠/٩-٤١)، وانظر: الاستذكار، لابن عبد البر (٢٩٥/٤)، فتح الباري، لابن حجر (٥٢٨/٣).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٥٩/٤)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (٥٨٩/١١).

(٣) صحيح البخاري [٥٦٠، ٥٦٥]، مسلم [٦٤٦]. وقوله: «بالهاجرة» هي شدة الحر نصف النهار عقب الزوال. قيل سميت هاجرة من الهجر، وهو الترك؛ لأن الناس يتكون التصرف حينئذ لشدة الحر ويقيلون.=

فجر :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ١ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ٢ ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٣ ﴿[الفلق: ١-٣].

تقدم في (مواضع ودلالات القسم بالزمن في القرآن الكريم) تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١].

=وقوله: «وجبت» أي: غابت الشمس، والوجوب: السقوط، وحذف ذكر الشمس؛ للعلم بها كقوله

جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ٢٣ ﴿[ص: ٣٢].

وَالْفَجْرُ: "ضوءُ الصباح، وَالْفَجْرُ: الصُّبْحُ. وَالْفَجْرُ: المعروف، وما أَكْثَرُ فَجْرِهِ، أي: معروفه. وَالْفَجْرُ: تَفْجِيرُكَ الْمَاءِ. وَالْمَفْجَرُ: الموضع الذي يَنْفَجِرُ منه الْمَاءُ. وَاَنْفَجَرَ عَلَيْهِمُ الْقَوْمُ، وَاَنْفَجَرْتَ عَلَيْهِمُ الدَّوَاهِي إِذَا جَاءَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْهَا بَغْتَةً. وَالْفُجُورُ: الرِّيبَةُ، وَالْكَذِبُ مِنَ الْفُجُورِ" (١).

يقال: فَجَرْتُ الْمَاءَ أَفْجَرُهُ - بِالضَّم - فَجَرًا، فَانْفَجَرَ، أي: بِجَسْتِهِ فَانْبَجَسَ. وَفَجَرْتَهُ شِدْدًا؛ لِلْكَثَرَةِ، فَتَفَجَّرَ. وَالْفَجْرُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ كَالشَّفَقِ فِي أَوَّلِهِ. وَقَدْ أَفْجَرْنَا، كَمَا تَقُولُ: أَصْبَحْنَا مِنَ الصَّبْحِ. وَفَجَرَ فُجُورًا، أي: فَسَقَ. وَفَجَرَ، أي: كَذَبَ. وَأَصْلُهُ الْمِيلُ. وَالْفَاجِرُ: الْمَائِلُ (٢).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الفجر: شق الشيء شقًا واسعًا، يقال: فجرته فانفجر وفجرته فتفجر. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، ﴿فَتَفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [١١] [الإسراء: ٩١]، ﴿تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [١٠] [الإسراء: ٩٠].

وقرأ الكوفيون ﴿تَفْجُرُ﴾ بفتح التاء وضم الجيم مُحَقَّقًا، والباقيون: بضم التاء وكسر الجيم مشدَّدًا (٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، ومنه قيل للصُّبْحِ: فجر؛ لكونه فجر الليل. قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ [الفجر: ١-٢]، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [٧٨] [الإسراء: ٧٨]، وقيل: الفجر فجران: الكاذب، وهو كذب السرحان (٤)،

(١) العين، مادة: (فجر) (١١١/٦)، وانظر: المحيط في اللغة (٩٢/٧).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (فجر) (٧٧٨/٢).

(٣) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (٣٧٦/٩).

(٤) سيأتي بيانه.

والصادق، وبه يتعلق حكم الصوم والصلاة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. والفجور: شق ستر الديانة، يقال: فجر فجورًا فهو فاجر، وجمعه: فجار وفجرة...^(١).

قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والفجر: الشق، وبه سميَّ الصبح: فجرًا؛ لاشتقاق ظلمة الليل عن نور الفجر، إما ساطعًا وإما مستطيرًا"^(٢).

وقال في (التهذيب): "ويقال: استطار الغبار: إذا انتشر في الهواء، واستطار الفجر: إذا انتشر في الأفق ضوءه، فهو مستطير، وهو الصبح الصادق البين الذي يحرم على الصائم الأكل والشرب والجماع، وبه تحل صلاة الفجر، وهو الخيط الأبيض الذي ذكره الله عَزَّجَلَّ في كتابه. وأما الفجر المستطيل -باللام- فهو المستدق الذي يشبه بذنب السرحان، وهو الخيط الأسود، ولا يحرم على الصائم شيئًا، وهو الصبح الكاذب عند العرب"^(٣).

وقال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وسمي الصبح: فجرًا؛ لكونه فجرًا لليل، وهو كاذب لا يتعلق به حكم الصوم والصلاة، وصادق به يتعلق حكمهما"^(٤).

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (فجر) (ص: ٦٢٥ - ٦٢٦).

(٢) معاني القراءات، للأزهري (٢/ ١٠٠).

(٣) تهذيب اللغة (٤/ ١٢).

(٤) روح المعاني (١٥/ ٣٣٤).

وفي الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْفَجْرُ فَجْرَان: فأما الفجر الذي يكون كَذَنْبِ السَّرْحَان، فلا يُحِلُّ الصَّلَاةَ، ولا يُحَرِّمُ الطَّعَامَ، وأما الذي يذهب مُسْتَطِيلًا في الأفق فَإِنَّهُ يُحِلُّ الصَّلَاةَ وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ»^(١).
وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الفجر فجران: فأما الأول فَإِنَّهُ لا يحرم الطعام، ولا يحل الصلاة، وأما الثاني فَإِنَّهُ يحرم الطعام، ويحل الصلاة»^(٢).

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الفجرُ فَجْرَان، فأما الذي كَانَهُ ذَنْبُ السَّرْحَان، فَإِنَّهُ لا يُحِلُّ شَيْئًا ولا يُحَرِّمُهُ، ولكن الْمُسْتَطِير»^(٣).
وروي عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان مرسلاً^(٤).

(١) أخرجه الحاكم [٦٨٨]، والبيهقي في (الكبرى) [١٧٦٥]. وقال: "هكذا روى بهذا الإسناد موصولاً، وروي مرسلاً، وهو أصح".

(٢) أخرجه ابن خزيمة [٣٥٦]، والدارقطني [٢١٨٥]، وقال: "لم يرفعه غير أبي أحمد الزبيري عن الثوري، ووقفه الفريابي وغيره عن الثوري، ووقفه أصحاب ابن جريج عنه أيضاً. وأخرجه أيضاً: الحاكم [٦٨٧] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، وأقره الذهبي، وأخرجه أيضاً: البيهقي في (الكبرى) [١٧٦٧]، وقال: "رواه أبو أحمد الزبيري مسنداً، ورواه غيره موقوفاً، والموقوف أصح"، كما أخرجه الخطيب (٥٨/٣)، والديلمي [٤٤٣١]، والضياء [٢٥٦].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٩٠٧١]: عن ثوبان مرفوعاً.

(٤) أخرجه ابن وهب في (جامعه) [٣٢٨]، وأبو داود في (المراسيل) [٩٧]، وابن جرير الطبري في (التفسير) (٥١٤/٣)، والدارقطني [١٠٥٣]، وقال: هذا مرسل. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٧٦٦].



وروى الدارقطني رَحِمَهُ اللهُ: عن عبد الرحمن بن عائش -صاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «الفجر فجران: فأما المستطيل في السماء فلا يمنع السحور، ولا تحل فيه الصلاة، وإذا اعترض فقد حرم الطعام فصل صلاة الغداة»^(١).
والحاصل أن الحديث صحيح بمجموع طرقه.

قسم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفجر من حيث الحكم إلى قسمين:

الأول: الفجر الكاذب والمستطيل، أي: الصاعد، وهو كذنب السرحان -بكسر السين- وهو الذئب؛ لأن ذنبه يمتد مرتفعاً، فهو يشبه ذنب الذئب في امتداده إلى أعلى الأفق، ثم إنه يذهب، وتعقبه ظلمة، فهذا الفجر لا تحل فيه صلاة الفجر، ويحل فيه الأكل والشرب للصائم.

والثاني: الفجر الصادق والمستطير، أي: الممتد المنتشر، وهو الذي يكون ممتداً في الأفق من الشمال إلى الجنوب، ولا ظلمة بعده، بل يزداد نوره شيئاً فشيئاً، حتى ينتشر في الأفق، فهذا الذي تحل فيه صلاة الفجر ويحرم فيه الأكل والشرب على الصائم.
قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "ووقت الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس، الفجر: هو انصداع البياض من المشرق، وسمي بذلك: لانفجاره؛ أي: لظهوره وخروجه؛ كما ينفجر النهر. وهو اثنان: الكاذب، وهو المسمى: بذنب السرحان، وهو الصاعد المستطيل. والصادق: وهو الممتد المنتشر في الأفق.

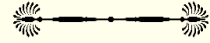
وهذا هو الذي يحرم الأكل على الصائم، وتجزئه الصلاة فيه دون الأول بلا خلاف. واختلف في آخر وقت الصبح، فذهب الجمهور وأئمة الفتيا: إلى أن آخر وقتها طلوع أول جرم الشمس، وهو مشهور مذهب مالك رَحِمَهُ اللهُ"^(٢).

(١) سنن الدارقطني [٢١٨٣].

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٢٣٩).

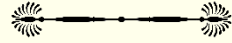
وصلاة الفجر تسمى أيضًا: صلاة الصبح.

فلق :



الفلق: الصبح. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①﴾ [الفلق: ١]، والله فلقه، أي: أوضحه وأبداه فانفلق. والله يفلق الحب فينفلق عن نباته. وسمعه من فلَقٍ فيه. وضربته على فلَقٍ مفرقه، مفرقه. وفلقتُ الفستقة فانفلقت. والفلقة: الكسرة من الخبز ^(١). وقالوا: انفلق الصُّبحُ. وقالوا: عند فلَقِ الصُّبحِ، وفرق الصُّبحِ، بالراء. وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ②﴾ من ذلك. والفلق أيضًا: الطريق لفلقِ الجبلين بينهما. وتيمم تقول: فرق الصُّبح - بالراء - ^(٢).

مبيت وتبييت :



قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ③﴾ [النساء: ٨١].
﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ④﴾ [النساء: ١٠٨].

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ⑤﴾ [الأعراف: ٤].

﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ⑥﴾ [الأعراف: ٩٧].

(١) العين، مادة: (صبح) (١١١/٦).

(٢) الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقطرب (ص: ٥٢).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠].

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩].

قال في (العين): "البيتوتة: دخولك في الليل، تقول: بئْتُ أصنع كذا: إذا كان بالليل، وبالنهَار: ظَلِلْتُ. ومن فَسَّرَ باتَ على النَّوم فقد أخطأ، ألا تَرى إنك تقول: بئْتُ أراعي النُّجُوم، معناه: بئْتُ أنظرُ إليها، فكيف نامَ وهو ينظر إليها؟! وتقول: أبأهم الله إِبَانَةً حَسَنَةً فباتوا بَيَّتُوتَةً صالحة. وأتأهم الأمرُ بَيَاتًا، أي: أتاهم في جَوْفِ الليل، وباتَ يُصَلِّي. والمَبِيتُ يجمع كلَّ المعاني" (١).

قال ابن كيسان رَحِمَهُ اللهُ: "بات يجوز أن يجري مجرى: نام، وأن يجري مجرى: كان، قاله في باب كان وأخواتها: (ما زال، وما انفك، وما فتى، وما برح).

وقال الفراء رَحِمَهُ اللهُ في قوله جَلَّوَعًا: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةً مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ [النساء: ٨١] وفي قراءة عبد الله: «بَيَّتَ مُبَيَّتٌ مِنْهُمْ» غير الذي تقول. القراءة أن تنصب التاء؛ لأنها على جهة فعل. ومعناه: غيروا ما قالوا وخالفوا، وقد جزمها حمزة رَحِمَهُ اللهُ، وقرأها: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةً﴾، جزمها؛ لكثرة الحركات، فلما سكنت التاء اندغمت في الطاء (٢).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ في قول الله جَلَّوَعًا: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، كل ما فكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت (٣). ويقال: هذا أمر دبر بليل، وبيت بليل بمعنى واحد.

(١) العين، مادة: (بيت) (٨/١٣٨-١٣٩).

(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء (١/٢٧٩).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٢/١٠١).



وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجَاءَهَا بِأُسْنَا بَيْتًا﴾ [الأعراف: ٤٤]، أي: ليلاً، والبيت سمي بيتاً؛ لأنه يبات فيه، وبيتهم العدو: إذا جاءهم ليلاً.

وقوله: ﴿لَتُبَيِّتَنَّهٗ﴾ [النمل: ٤٩] أي: لنوقعن به بياتاً، أي: ليلاً.

وقوله: ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١]، أي: ما يدبرون بالليل " (١).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيَّتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]: "كل من أدركه الليل فقد بات يبيت، نام أو لم ينم، بات فلان البارحة قلماً، إنما المبيت: إدراك الليل" (٢).

والبيوت: الأمر يبيت عليه صاحبه مهتما به. وبات يبيتُ وبياتُ بَيَّتَوْتَهُ. تقول: أَبَاتَكَ اللَّهُ بخير. وباتَ يفعل كذا: إذا فعله ليلاً، كما يقال: ظلَّ يفعل كذا: إذا فعله نهاراً. وبَيَّتَ العدو، أي: أوقع بهم ليلاً. والاسم: البياتُ. وبَيَّتَ أمراً، أي: دبره ليلاً. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]. وبَيَّتَ الشيء، أي: قدر. وتقول: ماله بيت ليلة - بكسر الباء -، وبيتُهُ ليلة، أي: قوت ليلة" (٣).

وعلى ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يُبَيِّتِ الصِّيَامَ قَبْلَ الْفَجْرِ، فَلَا صِيَامَ لَهُ» (٤).

ولو حلف لا يبيت في مكان كذا، فأقام فيه ولم ينم حنث؛ لأن البيتوتة هو المكث والإقامة. قال نجم الدين النسفي رَحِمَهُ اللَّهُ: ويقع ذلك على نصف الليل أو أكثر.

(١) تهذيب اللغة (٢٣٧/١٤ - ٢٣٨).

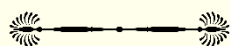
(٢) معاني القرآن وإعرابه (٧٥/٤).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (بيت) (٢٤٥/١).

(٤) أخرجه الدارقطني: عن عائشة [٢٢١٣]، وقال: تفرد به عبد الله بن عباد عن المفضل بهذا الإسناد، ورواته كلهم ثقات، وضعفه ابن حبان بعبد الله بن عباد، والحديث له طرق أخرى.

ولو حلف لا يؤويه بيت فعلى قول أبي يوسف رَحِمَهُ اللهُ الأول لا يحنث إلا بأكثر الليل والنهار؛ لأنه عبارة عن المقام، والمأوى: موضع الإقامة، فأشبهه البيتوتة. وفي قول الآخر وهو قول محمد رَحِمَهُ اللهُ: يحنث بساعة؛ لأن الإيواء هو الضم، يقال: أوى إلى فلان يأوي أويًا، أي: انضم إليه، وآواه فلان إلى نفسه إيواء، أي: ضمه.. " (١).

مساء :



قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].
المساء: خلاف الصباح. والإمساء: نقيض الاصبح. و(أَمْسَى) (مُئْسَى). قال أمية بن أبي الصلت:

الحمد لله مُمَسَّنَا وَمُصْبِحَنَا بالخير صَبَّحْنَا رَبِّي وَمَسَّنَا (٢)
وهما مصدران وموضعان أيضًا (٣).
قال امرؤ القيس يصف جارية:

(١) طلبه الطلبة، لأبي حفص، نجم الدين النسفي (ص: ٧١).
(٢) انظر: ديوان أمية بن أبي الصلت (ص: ١٣٤)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٤/ ٩٥)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢٤١/٢)، شرح المفصل، لابن يعيش (٤/ ٥٨)، شرح المعلقات السبع (ص: ٥٧).
(٣) فقلوه: (ممسنا ومصبحنا) حيث ورد الاسمان دالين على زمان الحدث، بمعنى: الإمساء والإصبح، وهما على وزن اسم المفعول من الفعل الثلاثي المزيد. وقد يكونان دالين على مصدرين أو موضعين للإمساء والإصبح، فيكونان اسمين للمكان.

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنَارَةٌ مُمَسَّى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلٍ^(١)

يريد: صومعته حيثُ يُمَسِّي فيها.

والاسم: المُسَيِّ والصُّبْحُ....^(٢)

وَالْمَسَاءُ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى الْمَغْرَبِ وَأَمْسَيْتُ إِمْسَاءً: دَخَلْتُ فِي الْمَسَاءِ، وَمَسَّاهُ اللَّهُ بِخَيْرٍ: دَعَاءٌ لَهُ، كَمَا يَقَالُ: صَبَّحَهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ^(٣).

وفي (العين): "المُسَيِّ: من المساء، كالصُّبْحِ مِنَ الصَّبَاحِ. وَالْمُسَيِّ كَالْمُصْبِحِ. والمساء: بعد الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْمَغْرَبِ. وَقَالَ بَعْضُ: إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ. وَقَوْلُ النَّاسِ: كَيْفَ أَمْسَيْتَ؟ أَيْ: كَيْفَ كُنْتَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ، وَكَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ أَيْ: كَيْفَ صَرْتَ فِي وَقْتِ الصُّبْحِ؟ وَمَسَّيْتُ فَلَانًا: قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ أَمْسَيْتَ. وَأَمْسَيْنَا نَحْنُ: صِرْنَا فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ"^(٤).

وفي الحديث: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا أَمَسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمَلِكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» قَالَ: أَرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ: «لَهُ الْمَلِكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ

(١) الإضاءة: قد يكون الفعل المشتق منها لازماً وقد يكون متعدداً، تقول: أضاء الله الصبح فأضاء، والضوء والضوء واحد، والفعل ضاء ضوءاً، وهو لازم. والمنارة: المرسجة، والجمع: المناور والمناثر. الممسى: بمعنى: الإمساء والوقت جميعاً. ديوان امرئ القيس (ص: ٤٦).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (مسا) (٢٤٩٢/٦-٢٤٩٣).

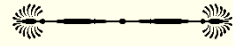
(٣) انظر: كتاب الأفعال، لابن القطّاع (٢٠٦/٣)، المغرب (ص: ٤٤٢)، المصباح المنير (٥٧٤/٢).

(٤) العين (٣٢٣/٧)، وانظر: تهذيب اللغة (٨٢/١٣)، وانظر ما قيل في (الفرق بين البكرة والغداة، والمساء، والعشاء، والعشي، والأصيل) في الفروق اللغوية (٢٧٢/١).



أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر»، وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله» ^(١).

ناشئة الليل :



قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦].
قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّوَعًا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾: ساعات الليل، وهي آناء الليل، ناشئة بعد ناشئة. ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ عليك أشد ركوبًا، وكل شيء عمله من سير أو صلاة بالليل فهو ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ عليك. ويقال: وطئنا الليل وطئًا فراشًا، أي: مهادًا؛ لأنه يفترش الليل. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾: أسمع قولًا، إن الليل أسمع" ^(٢).
وقال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾: ساعات الليل كلها، كلما نشأ منه، أي: كل ما حدث منه فهو ناشئة، ومعنى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي: أشد مواطأة لتقلب السمع. ومن قرأ ﴿وَطْأً﴾ - بفتح الواو - فمعناه: هي أبلغ في القيام، وأبين في القول. ويجوز أن يكون ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ أغلظ على الإنسان من القيام بالنهار؛ لأن الليل جُعِلَ لِيُسْكِنَ فيه. وقيل: ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي: أبلغ في الثواب؛ لأن كل مجتهد فثوابه على قَدَرِ اجتهاده" ^(٣).

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٣].

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٧٣/٢).

(٣) معاني القرآن وإعراجه (٢٤٠/٥).

وكل صلاة بعد العشاء الأخيرة فهي ناشئة من الليل، والأمور التي تحدث في ساعة الليل أو ساعاته فهي ناشئة الليل أيضاً^(١).

وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "كان أنس رَحِمَهُ اللَّهُ، والحسن، وعلي بن الحسين، والضحاك، والحكم، ومجاهد رَحِمَهُمُ اللَّهُ، يقولون: ﴿نَاشِئَةُ اللَّيْلِ﴾: أوله، وإليه ذهب الكسائي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: الناشئة: ما كان بعد نومه.

وقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأبو مالك، ومعاوية بن قرة، وعكرمة، وأبو مجلز، والسدي رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الليل كله ناشئة، فمتى قمت فقد نشأت.

قال: وأخبرني أبو نصر، عن الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: خرج السحاب له نشء حسن، وخرج له خروج حسن، وذلك أول ما ينشأ"^(٢).

قرأ أبو عمرو وابن عامر رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ﴿وِطَاءٌ﴾ بكسر الواو، وفتح الطاء، والمد والهمزة، من المواطأة والموافقة.

وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾: يقول: هي أثبت قياماً. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ يقول: إن النهار يضطرب فيه الناس، ويتقلبون فيه للمعاش، والليل أخلى للقلب، فجعله أقوم قِيلاً.

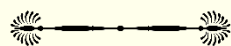
وقال بعضهم: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ﴾ على المصلي من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم، فقال: هي، وإن كانت أشد وطئاً فهي أقوم قِيلاً.

(١) انظر: الكليات (ص: ٨٨٧).

(٢) غريب الحديث لإبراهيم بن إسحاق الحربي (٢/٨٧٩)، وانظر: تهذيب اللغة (١١/٢٨٧-٢٨٨).

وقرأ بعضهم: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطَاءً﴾ على فعال، يريدون: أشدَّ علاجًا ومواطأة" (١).
 وقال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: "من قرأ: ﴿وَطَاءً﴾ على تقدير (فعال) فهو مصدر لواطأت
 فلانًا على كذا مواطأة ووطاء. وأراد: أنَّ القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه
 وسمعه على التَّفَهُّمِ والأداء والاستماع، بأكثر مما يتواطأ عليه بالنهار.
 ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (٢) أي: أخلص للقول وأسمع له؛ لأن الليل تهدأ عنه الأصوات،
 وتنقطع فيه الحركات، فيخلص القول، ولا يكون دون تسمُّعه وتفهمه حائل" (٢).
 وروى ابن سلام عن يونس: ﴿أَشَدُّ وَطَاءً﴾ قال: ملائمة وموافقة، ومن ذلك قوله
 جَلَّوَعًا: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]، أي: ليوافقوا (٣).

هجد :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].
 قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: اسهر بصلاة أو بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وهجدت: نمت
 أيضًا، وهو المهجود" (٤).

(١) معاني القرآن، للفراء (١٩٧/٣)، وانظر: معاني القراءات، للأزهري (٩٩/٣)، تهذيب اللغة (٣٧/١٤)، حجة

القراءات (ص: ٧٣٠)، السبعة في القراءات (ص: ٦٥٨).

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص: ٢١٥).

(٣) انظر: الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (٣٣٥/٦)، حجة القراءات (ص: ٧٣٠)، التفسير البسيط

(٣٦٢/٢٢).

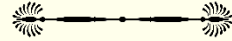
(٤) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٣٨٩/١).



وقال صاحب (العين): "هَجَدَ الْقَوْمُ هَجُودًا، أَي: ناموا، وَتَهَجَّدُوا، أَي: استيقظوا لصلاةٍ أو لأمر. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ أَلَيْلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾، أَي: بالقرآن في الصلاة، أَي: انتبه بعد النوم نافلة، أَي: فضيلة" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "هَجَدَ وَتَهَجَّدَ، أَي: نام ليلاً. وَهَجَدَ وَتَهَجَّدَ، أَي: سهر، وهو من الأضداد. ومنه قيل لصلاة الليل: التَهَجُّدُ. والتَهَجُّدُ: التنويم" (٢).

هَجَع :



قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿كَأَنُودَا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

قال في (العين): "الهُجُوعُ: نومُ الليل دُونَ النَّهَارِ، يقال: لَقِيْتُهُ بَعْدَ هَجْعَةٍ. وَقَوْمٌ هُجَّعٌ وَهُمْ جُوعٌ وَهَاجِعُونَ، وامرأةٌ هَاجِعَةٌ، ونسوةٌ هَوَاجِعٌ وَهَاجِعَاتٌ" (٣).

وقولهم: لَقِيْتُهُ بَعْدَ هَجْعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، أَي: بَعْدَ سَاعَةٍ مِنْهُ (٤).

ويقال: أَتَيْتُ فُلَانًا بَعْدَ هَجْعَةٍ، أَي: بَعْدَ نَوْمَةٍ خَفِيفَةٍ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ. وَالهَجْعَةُ مِنْهُ، كَالْجُلُوسَةِ مِنَ الْجُلُوسِ (٥).

(١) العين، مادة: (هجد) (٣/٣٨٥).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (هجد) (٢/٥٥٥)، وانظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (هجد) (ص: ٨٣٢-٨٣٣).

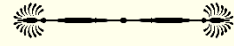
(٣) العين، مادة: (هجع) (١/٩٨).

(٤) انظر: جمهرة اللغة (١/٤٨٦).

(٥) انظر: الصحاح، مادة: (هجع) (٣/١٣٠٥ - ١٣٠٦).

وفي حديث الشورى: «طريقي بعد هَجْعٍ من الليل» ^(١)، قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "الْهَجْعُ وَالْهَجْعَةُ وَالْهَجِيعُ: طائفة من الليل. والهجوع: النوم ليلاً" ^(٢).

هَجِيرٌ وَهَاجِرَةٌ :



الْهَجْرُ وَالْهَاجِرَةُ وَالْهَجِيرُ: نِصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ. وَالتَّهْجِيرُ وَالتَّهْجِيرُ: السَّيْرُ فِي الْهَاجِرَةِ، قَالَ لبيد:

رَاحَ الْقَطِينُ بِهِجْرٍ بَعْدَمَا ابْتَكُرُوا فَمَا تُوَاصِلُهُ سَلَمَى وَمَا تَذُرُ ^(٣)
وَأَهْجَرْنَا: صِرْنَا فِي الْهَجِيرِ، وَهَجَّرَ مِثْلَهُ ^(٤).
قال قطرب رَحِمَهُ اللهُ: "الْهَجِيرُ: نِصْفُ النَّهَارِ" ^(٥).

قال ابن الأعرابي رَحِمَهُ اللهُ: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يقال له: السَّجْسَجُ ^(٦) ومن الزوال إلى العصر يقال له: الهجير والهجرة ^(٧).

(١) صحيح البخاري [٧٢٠٧].

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (هجع) (٢٤٧/٥)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٩٦/١٣).

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص: ٣٧)، و(القطين): أهل الدار.

(٤) انظر: العين، مادة: (هجر) (٣٨٧/٣)، الصحاح، للجوهري (٨٥١/٢).

(٥) الأزمنة وتلبية الجاهلية (ص: ٥٧).

(٦) وفي (الدلائل)، للسرقي (٩٠٤/٢): عن عبد الله: "السَّجْسَجُ من الزمان: الذي ليس فيه حر يؤذي،

ولا برد يؤذي". وفي (الصحاح) مادة: (سجج) (٣٢١/٣): "ويوم سَجْسَجٍ، لا حَرٌّ مؤذٍ ولا قُرٌّ". و«ظل

الجنة سَجْسَجٌ» أي: معتدل لا حَرٌّ ولا قُرٌّ "النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٤٣/٢).

(٧) انظر: تهذيب اللغة (٢٤٢/١٠).

وفي (المحكم): الهَجِيرُ والهَجِيرَةُ والهَجْرُ والهَاجِرَةُ: نصف النَّهَارِ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ مَعَ الظُّهْرِ.

وقيل: من عند زوال الشَّمْسِ إِلَى الْعَصْرِ، وقيل: في كل ذلك: إِنَّهُ شِدَّةُ الْحَرِّ. وَهَجَرَ الْقَوْمَ، وَأَهْجَرُوا، وَهَجَّرُوا: سَارُوا فِي الْهَاجِرَةِ ^(١)؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَسْكُنُونَ فِي بَيوتِهِمْ فِي وَقْتِ الْهَاجِرَةِ فَكَأَنَّهُمْ قَدْ تَهَاجَرُوا؛ لَشِدَّةِ الْحَرِّ ^(٢).

وقيل: ويجوز أن تكون سميت هاجرة؛ لأنها أكثر حرًا من سائر النهار. من قولهم: فلان أهجر من فلان: إذا كان أضخم منه. ويقال للحوض الضخم: هجير فسميت الهَاجِرَةُ هَاجِرَةً؛ لَضَخَامَةِ الْحَرِّ فِيهَا. ويقال لوقت الحر: هجير أيضًا، فيكون لفظه كلفظ الهجير، إذا عُنيَ بِهِ الْحَوْضُ الضَّخْمُ ^(٣).

وفي الحديث: عَنْ سَيَّارِ بْنِ سَلَامَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَأَبِي عَلَى أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، فَقَالَ لَهُ أَبِي: كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ؟ فَقَالَ: «كَانَ يُصَلِّي الْهَجِيرَ، الَّتِي تَدْعُونَهَا الْأُولَى، حِينَ تَدْحَضُ الشَّمْسُ، وَيُصَلِّي الْعَصْرَ، ثُمَّ يَرْجِعُ أَحَدُنَا إِلَى رَحْلِهِ فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ -وَنَسِيتُ مَا قَالَ فِي الْمَغْرَبِ- وَكَانَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يُؤَخِّرَ الْعِشَاءَ، الَّتِي تَدْعُونَهَا الْعَتَمَةَ، وَكَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَهَا، وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا، وَكَانَ يَنْقُتِلُ مِنْ صَلَاةِ الْعَدَاةِ حِينَ يَعْرِفُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ، وَيَقْرَأُ بِالسِّتِّينَ إِلَى الْمِائَةِ» ^(٤).

(١) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (هجر) (١٥٧/٤).

(٢) القاموس المحيط، مادة: (هجر) (ص: ٤٩٥)، وانظر: الكليات (ص: ٩٦١)، نيل الأوطار، للشوكاني (٣٩٢/١).

(٣) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٤٠٣/١).

(٤) صحيح البخاري [٥٤٧، ٥٩٩].

قوله: «حين تدحض الشمس»: الدَّحَضُ: الزَّلُقُ، كذا في (العين)، يقال: دَحَضَتِ الشمس عن بطن السماء، أي: زالت. ودَحَضَتْ حُجَّتُهُ: أي: بَطَلَتْ^(١).

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: "قوله: «حين تدحض الشمس»: يعني: نزول، وأصل الدحض: الزَّلُقُ. يقال: دحض يدحض دحضا: إذا زلق، وجعل الشمس تدحض؛ لأنها لا تزال ترتفع من لدن تطلع إلى أن تصير في كبد السماء، ثم تنحط عن الكبد؛ للزوال، فكأنها تزلق في ذلك الوقت، فلا تزال في انحطاط حتى تغرب"^(٢).

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "أراد صلاة الهجير، يعني: الظهر، فحذف المضاف"^(٣). يقال: "دحضت الشمس زالت الشمس حية، أي: لم يتغير لونها إلى الاصفرار"^(٤).

وعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي الظهر بالهاجرة، ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها، فنزلت: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال: «إن قبلها صلاتين، وبعدها صلاتين»^(٥).

(١) العين، مادة: (دحض) (١٠١/٣).

(٢) غريب الحديث، لابن قتيبة (١/٣٢٠-٣٢١). قال الإمام النووي: "الدَّحَضُ والزَّلُقُ والزَّلُقُ والرَّدْغ - بفتح الراء وإسكان الدال المهملة وبالغين المعجمة - كُلُّهُ بمعنى واحد" شرح النووي على صحيح مسلم (٥/٢٠٧).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (هجر) (٥/٢٤٦).

(٤) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، لمحمد بن فتوح الأزدي (ص: ١٤٠).

(٥) أخرجه أحمد [٢١٥٩٥]، وأبو داود [٤١١]، واللفظ له، والنسائي في (الكبرى) [٣٥٤]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٠٨]، والبيهقي [٢١٥٤]، والبخاري في (شرح السنة) [٣٨٩]، من طرق مختلفة.



وقد اختلف في الصلاة الوسطى على أقوال. وقد جمع الحافظ الدمياني رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك كتابًا سماه: (كشف الغطا عن الصلاة الوسطى) ^(١)، وذكر فيها تسعة عشر قولًا، منها: قول زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها صلاة الظهر ^(٢).

وقد ذكرت أهم هذه الأقوال في الحديث عن صلاة العصر.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "كونها العصر هو المعتمد، وبه قال: ابن مسعود، وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، وقول أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، والذي صار إليه معظم الشافعية؛ لصحة الحديث فيه. قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو قول أكثر علماء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو قول جمهور التابعين، وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: هو قول أكثر أهل الأثر، وبه قال من المالكية: ابن حبيب، وابن العربي، وابن عطية رَحِمَهُمُ اللَّهُ" ^(٣).

وعن ابن شهاب، قال: أخبرني سالم، أن الحجاج بن يوسف، عام نزل بابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، سأل عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كيف تصنع في الموقف يوم عرفة؟ فقال سالم: «إن كنت تريد السنة فَهَجِّرْ بِالصَّلَاةِ يوم عرفة»، فقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صدق، إنهم كانوا يجمعون بين الظهر والعصر في السنة»، فقلت لسالم: أفعل ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال سالم: «وَهَلْ تَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَّا سُنَّتَهُ» ^(٤).

فقلوه: «فَهَجِّرْ بِالصَّلَاةِ»، أي: صلها وقت الهجير، وهو شدة الحر.

(١) (كشف الغطا عن الصلاة الوسطى)، للحافظ عبد المؤمن الدمياني. المتوفى سنة: [٧٠٥هـ]. انظر: كشف

الظنون (١٤٩٢/٢).

(٢) انظر: نجاح القاري لصحيح البخاري (ص: ١٥٥٧٠).

(٣) فتح الباري (١٩٦/٨).

(٤) صحيح البخاري [١٦٦٢].



وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهَا وَلَوْ حَبَوًّا» ^(١).

والمراد بالتهجير هنا: التبكير إلى الصلوات. قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَالْهَجِيرُ وَالْهَاجِرَةُ: اشتدادُ الْحَرِّ نِصْفَ النَّهَارِ. وَالتَّهْجِيرُ، وَالتَّهْجُرُ، وَالْإِهْجَارُ: السَّيْرُ فِي الْهَاجِرَةِ. وَقَدْ هَجَرَ النَّهَارُ، وَهَجَرَ الرَّكِبُ، فَهُوَ مُهَجَّرٌ.

ومنه: حديث زيد بن عمرو: «***وَهَلْ مُهَجَّرٌ كَمَنْ قَالَ؟» ^(٢)، أي: هل من سَارَ فِي الْهَاجِرَةِ كَمَنْ أَقَامَ فِي الْقَائِلَةِ؟» ^(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، وَمِثْلَ الْمُهَجَّرِ كَمِثْلِ الَّذِي يَهْدِي بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يَهْدِي بَقْرَةً، ثُمَّ كِبْشًا، ثُمَّ دَجَاجَةً، ثُمَّ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طَوُّوا صَحْفَهُمْ، وَيَسْتَمْعُونَ الذِّكْرَ» ^(٤).

والتَّهْجِيرُ هُنَا: التَّبَكُّيرُ.



(١) صحيح البخاري [٦١٥، ٦٥٤، ٧٢١، ٢٦٨٩]، مسلم [٤٣٧].

(٢) وهو عجز بيت، صدره: (الْبِرُّ أَتَعْنِي لَا الْحَالُ ***). وتَمَامُ الْحَدِيثِ فِي (مُسْنَدِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ) [٢٣١]، وهو عند الطبراني فِي (الكَبِيرِ) [٣٥٠]، وَالضَّيَاءُ فِي (الْمُخْتَارَةِ) [١١١١]، بَلْفُظٍ: «وَهَلْ مُهَاجِرٌ كَمَنْ قَالَ» وَحُسْنُهُ الضَّيَاءُ.

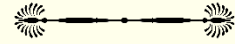
(٣) النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، مَادَّةُ: (هَجَرَ) (٢٤٦/٥).

(٤) صحيح البخاري [٩٢٩]، مسلم [٨٥٠].

البحث الحادي عشر

أسماء وأفعال الزمن الحال والمقارب

ارتداد الطرف :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

قال في (العين): "الطَّرْفُ: تحريك الجفون في النظر. يقال: شَخَصَ بَصَرُهُ فما يطرف. والطَّرْفُ: اسم جامع للبصر، لا يثنى ولا يجمع [؛ لأنه في الأصل مصدر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]]. والطَّرْفُ: إصابتك عيناً بثوبٍ أو غيره، والاسم: الطُّرْفَةُ. تقول: طُرِفَتْ عَيْنُهُ، وأصابتها طُرْفَةٌ. وطُرِفَها الحزنُ بالبُكاء" (١).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة، أي: نظرهم إلى شيء واحد، فكأن ذلك الشيء الذي ينظرون إليه قد ذهب بنظرهم نحوه، فليسوا ينظرون إلى غيره.

(١) العين، مادة: (طرف) (٧/٤١٣-٤١٤).

وقال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "طرفت عينه فهي تطرف طرفاً: إذا حركت جفونها بالنظر، ويقال: هي بمكان لا تراه الطوارف: يعني: العيون. ويقال: امرأة مطروفة بالرجال: إذا كانت لا خير فيها، تطمح عينها إلى الرجال" (١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَطَرَفَ بَصَرَهُ يَطْرِفُ طَرْفًا: إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر. الواحدة من ذلك: طَرْفَةٌ. يقال: (أَسْرَعُ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ). وَطَرَفْتُ عَيْنَهُ: إذا أصبتها بشيء فدمعت. وقد طرفت عينه، فهي مطروفة. والطَرْفَةُ أيضاً: نقطة حمراء من الدم تحدث في العين من ضربةٍ وغيرها، وقولهم: لا تراه الطوارف، أي: العيون" (٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الطرف: تحريكك أجفانك إذا نظرت، فوضع موضع النظر (٣). ولما كان الناظر موصوفاً بإرسال الطرف في نحو قوله:

وكننت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر (٤)

(١) تهذيب اللغة (٢١٨/١٣).

(٢) الصحاح، مادة: (طرف) (١٣٩٥/٤).

(٣) "كأن التطرف بالنسبة إلى النظر، كالنظر بالنسبة إلى الرؤية" حاشية الطيبي (٥٣٠/١١).

(٤) (وكننت إذا أرسلت طرفك رائداً*** لقلبك يوماً أتعبتك المناظر)، (رأيت الذي لا كله أنت قادر*** عليه ولا عن بعضه أنت صابر)، لأعرابية، نظرها أعرابي فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها، كأنه يراودها عن نفسها، فأجابته بذلك. وقيل: هو لشاعر حماسي. وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يتعرف لهم مكان الخصب، على طريق التصريحية، ورائداً ترشيح؛ لأنه يلائم الإرسال. ويومئاً: ظرف له. والمناظر: مواقع النظر، واستدل على إتعاها إياه بقوله: رأيت الذي لا تملكه كله، ولا تصبر عن بعضه، فكانت عينك سبباً لوقوع قلبك في حيرة الهوى، وحرقة الجوى. الانتصاف (٣٦٨/٣)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٤٦/٧)، حاشية الطيبي على الكشف (٥٣١/١١)، حاشيتا القنوي وابن التمجيد على البيضاوي (٣٩٥/١٤).

وصف برّ الطرف، ووصف الطرف بالارتداد. ومعنى قوله جَلَّوَعًا: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن تردّه أبصرت العرش بين يديك" (١). قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ: "والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن تردّه أحضر عرشها بين يديك، وهذا غاية في الإسراع، ومثل فيه" (٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: "الطرف: تحريك الأجفان عند النظر، فإذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد إلى المرئي، وإذا أغمضت فقد يتوهم أن ذلك النور ارتدّ إلى العين" (٣).

قال المرزوقي رَحِمَهُ اللهُ: قوله: "(رائدًا) حالٌ، وجواب (إذا): أتعبتك المناظر. وقوله: (رأيت الذي)، تفصيلٌ لما أجمله: أتعبتك المناظر. والرائد: الذي يتقدم القوم لطلب الكأ لهم. المعنى: إذا جعلت عينك رائدًا لقلبك تطلب له هواهم، فتتعبك مناظرها، وأوقعتك مواردها في أشق المكاره، وذلك أنها تهجم بالقلب في ارتيادها له على ما لا يصبر في بعضه على فراقه مع مهيجات اشتياقه، ولا يقدر على السلو عن جميعه، فهو ممتحنٌ الدهر ببلوى ما لا يقدر على كله، ولا يصبر عن بعضه.

وعن بعض الحكماء: (من أرسل طرفه استدعى حتفه).

وفي المثل: (الرائد لا يكذب أهله)؛ لأنه إن كذب هلك معهم" (٤)، وإنما هو ناصح لهم، يهديهم إلى ما يصلحهم ويبيدهم عما يسوءهم.

(١) الكشف (٣/٣٦٨).

(٢) تفسير البيضاوي (٤/١٦١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/٥٥٧).

(٤) انظر: حاشية الطيبي على الكشف (١١/٥٣١)، حاشية القونوي على البيضاوي (١٤/٣٩٤). قال في (العين): "ومن أمثالهم: الرائد لا يكذب أهله، يُضْرَبُ مثلاً للذي لا يكذب إذا حَدَّثَ" العين (٨/٦٣) =

وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]: "يقول: قبل أن يأتيك الشيء من مدِّ بصرك" (١).

وفي (تلخيص البيان): "هذه استعارة؛ لأن المراد بارتداد الطَّرْف هاهنا: التَّقاء الجفنين بعد افتراقهما. وذلك أبلغ ما يوصف به في السرعة. وليس هناك على الحقيقة شيء ذهب عنه ثم رجع إليه. ولكن جفن العين لما كان يفتح وينطبق، أقام الانفتاح مقام الخروج، والانطباق مقام الرجوع. وقيل غير ذلك" (٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "طَرَفُ الشيء: جانبه، ويستعمل في الأجسام والأوقات وغيرها. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ طَرَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [طه: ١٣٠]، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفًا مِّنَ النَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]، ومنه استعير: هو كريم الطَّرَفَيْنِ (٣)، أي: الأب والأم. وقيل: الذَّكْرُ واللِّسَانُ؛ إشارة إلى العَقَّة.

وطَرَفُ العين: جَفْنُهُ، والطَّرْفُ: تحريك الجفن، وعبر به عن النَّظَر؛ إذ كان تحريك الجفن لازمه النَّظَر" (٤).

= وفي (جمهرة الأمثال) (١/٤٧٤): "الرائد: الذي يتقدم القوم لطلب الماء والكأ لهم، فإن كذبهم أفسد أمرهم وأمر نفسه معهم؛ لأنه واحد منهم".

(١) معاني القرآن، للفراء (٢/٢٩٤).

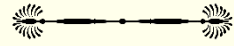
(٢) انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي (٢/٢٦٠).

(٣) يقال في مقام المدح: (فلان كريم الطَّرَفَيْنِ، شريف الجانبين، المجد لسان أوصافه، والشرف نسب أسلافه) انظر: لباب الآداب، لأبي منصور الثعالبي (ص: ٦٤)، سحر البلاغة (ص: ٥٩)، أدب الكاتب، لابن قتيبة (ص: ٤٣)، فقه اللغة، للثعالبي (ص: ١١٤).

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة: (طرف) (ص: ٥١٧-٥١٨).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظَّرْفِ﴾ [الصفات: ٤٨]، أي: عندهم حور قد قصرن طرفهن، أي: عيونهن على أزواجهن، فلا يمددن طرفاً إلى غيرهم^(١).
قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا تطمح أبصارهن" ^(٢).

آخِرُهَا :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ عَافِيًّا﴾ [محمد: ١٦].

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "كانوا يسمعون خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا خرجوا سألو أصحاب رسول الله استهزاء وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال، فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ عَافِيًّا﴾، أي: ماذا قال الساعة، ومعنى: ﴿عَافِيًّا﴾ من قولك: استأنفت الشيء: إذا ابتدأته، ورؤضة أُنف: إذا لم تُرْعَ بعد، أي: لها أول يُرْعَى، فالمعنى: ماذا قال من أول وقتٍ يُقْرَب مِنَّا" ^(٣).

و﴿عَافِيًّا﴾ حال من الضمير في قال، أي: مؤتفأ، وأعربه الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ ظرفاً ^(٤)، أي: ماذا قال الساعة؟

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٠٤/٤)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٢٧/٦)، الكشف (٤٣/٤).

(٢) مجاز القرآن (٢٤٥/٢).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (١٠/٥).

(٤) انظر: الكشف (٣٢٢/٤).



وقال أبو البقاء رَحِمَهُ اللَّهُ: "و﴿ءَانْفًا﴾: ظرف؛ أي: وقتًا مؤتلفًا. وقيل: هو حال من الضمير في قال" (١).

و"هو على ما ذهب إليه الرمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ نصب على الظرفية، ولا ينافي كونه: اسم فاعل كما في (باديء)؛ فإنه اسم فاعل غلب على معنى الظرفية في الاستعمال. وقال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ: الصحيح أنه ليس بظرف، ولا نعلم أحدًا من النُّحاة عدّه في الظروف (٢). وأوجب نصبه على الحال من فاعل: (قال) أي: ماذا قال مبتدئًا؟ أي: ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه؟ وإلى ذلك يشير كلام الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ" (٣).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمفسرون يقولون أنفا معناه الساعة الماضية القريبة مِنَّا وهذا تفسير بالمعنى" (٤).

قال في (العين): "يقال: ائْتَنَفْتُ في العمل ائْتِنَافًا، وهو أوّل ما تَبْتَدِئ به من كلّ شيءٍ من الأمر والكلام كذلك، وهو من أنْف الشيء، يقال: هذا أنْفُ الشَّدِّ والعَدُو، أي: أوّله وأشدّه، وأنْفُ البرد أوّله وأشدّه" (٥).

قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "استأنفت الشيء إذا ابتدأته، وفعلت الشيء آنفًا، أي في أول وقت يقرب مني" (٦).

(١) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري (١١٦٢/٢).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٤٦٨/٩).

(٣) روح المعاني (٢٠٦/١٣-٢٠٧)، وانظر: المفردات، للراغب، مادة: (أنف) (ص: ٩٥).

(٤) المحرر الوجيز (١١٥/٥).

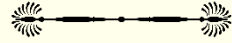
(٥) العين، مادة: (أنف) (٣٧٨/٨)، وانظر: الصحاح (١٣٣٢/٤)، مقاييس اللغة (١٤٦/١).

(٦) انظر: تهذيب اللغة (٣٤٦/١٥)، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم (٤٨٤/١٠).



قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "ومنه الحديث: «أُنزلت عليَّ سورة آنفاً»^(١)، أي: الآن. وقد تكررت هذه اللفظة في الحديث"^(٢).

أوان وأن :



والأوان: الحين والزَّمان، تقول: جاء أوان البرد، قال العجاج:

هَذَا أَوَانُ الْجِدِّ إِذْ جَدَّ عُمَرُ ***^(٣)

وجمع، الأوان: آونة.

وقد حكى ابن السِّكِّيتِ، عن الكسائي رَحِمَهُمَا اللهُ، قال: قال أبو جامع رَحِمَهُ اللهُ: هذا إَوَانٌ ذاك. والكلام: أوان ذاك، بالفتح^(٤).

وقال أبو عمرو رَحِمَهُ اللهُ: أتَيْتُهُ آئِنَةً بَعْدَ آئِنَةٍ، بمعنى: آونة.

و(الآنُ): بمنزلة السَّاعةِ إِلَّا أَنَّ السَّاعَةَ جِزْءٌ مُؤَقَّتٌ مِنْ أَجْزَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ^(٥).

يقال: أَنْ يَبِينُ أَيْنَا وَأَنْي لَكَ يَأْنِي أُنْيَا، أي: حان. ويقال أَتَيْتُ فَلَانًا آيَنَةً بَعْدَ آيِنَةٍ،

أي: أحيانا بعد أحيان، ويقال: تارة بعد تارة. وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿نَنْظُرِينَ إِنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وأما الظرف فالإناء ممدود، من الآنية^(٦).

(١) صحيح مسلم [٤٠٠].

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (أنف) (٧٦/١).

(٣) ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريش الأصمعي وشرحه (ص: ٦٧).

(٤) انظر: إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيتِ (ص: ٨٣).

(٥) انظر: العين (٤٠٤/٨)، تهذيب اللغة (٣٩٢/١٥).

(٦) مقاييس اللغة، لابن فارس (١٤٣/١).

و" (الآن): الزمن الكائن الفاصل بين الماضي والآتي. ذكره الحارلي رَحِمَهُ اللهُ. وعبر عنه غيره بأنه فصل الزمانين الماضي والمستقبل مع أنه إشارة إلى الحاضر. وقال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: كل زمان مقدر بين زمانين: ماضٍ ومستقبل، نحو: أنا الآن أفعل كذا، وخصَّ الآن بالألف واللام المعرّف بهما ولزماءه، وأفعل كذا آونة، أي: وقتًا بعد وقت الآن. وقولهم: هذا أوان كذا، أي: زمنه المختص به وبفعله. قال سيبويه رَحِمَهُ اللهُ: يقال: الآن أنك، أي: هذا الوقت وقتك" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "يقال: آنَ أيُّنْكَ، أي: حان حينك. وآنَ لك أن تفعل كذا يعني أيّنًا، أي: حانَ، مثل: أنى لك، وهو مقلوب منه.

و(أَيْنَ): سؤالٌ عن مكان، إذا قلت: أينَ زيد؟ فإنما تسأل عن مكانه.

و(أَيَّانَ): معناه: أيُّ حينٍ، وهو سؤال عن زمان، مثل: متى. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَيَّانَ

مُرْسَلَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧].

و(إَيَّانَ)، بكسر الهمزة: لغة سليم، حكاها الفراء. وبه قرأ السلمي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إَيَّانَ

يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

و(الآن): اسم للوقت الذي أنت فيه، وهو ظرف غير متمكن، وقع معرفة ولم تدخل عليه الألف واللام للتعريف؛ لأنه ليس له ما يشركه. وربما فتحوا منه اللام وحذفوا الهمزتين، فقالوا: (لَان) بمعنى: الآن" (٢).

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٦٤)، المفردات في غريب القرآن، مادة: (أين) (ص: ١٠١)، الكتاب، لسيبويه (٢/٤٠٢).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أين) (٥/٢٠٧٦)، وانظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (أبن) (ص: ١٠١).



والآن إن سبق بحرف جر فهو اسم مبني على الفتح في محل جر، وإن لم يسبق بحرف جر فهو ظرف زمان مبني على الفتح في محل نصب.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قَالُوا أَلَّيْنِ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١].

وقال أبو الفتح ابن جني رَحِمَهُ اللهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَّيْنِ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]: اللام في ﴿أَلَّيْنِ﴾ زائدة أنها لا تخلو إما أن تكون للتعريف - كما يظن مخالفنا-، أو أن تكون لغير التعريف - كما نقول-، فالذي يدل على أنها لغير التعريف أنا اعتبرنا جميع ما لامه للتعريف، فإذا إسقاط لامه جائز فيه، وذلك نحو: رجل والرجل، وغلام والغلام، ولم يقولوا: (افعله آن) كما قالوا: (افعله الآن)، فدل هذا على أن اللام ليست فيه للتعريف بل هي زائدة كما يزداد غيرها من الحروف.

وقد أطال الاحتجاج على زيادة اللام، وأنها ليست للتعريف" (١).

وقال الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ في (شرح المفصل): "الزمان ما له مقدار، ويقبل التجزئة.

والآن: لا مقدار له، وهو اسم الوقت الحاضر المتوسط بين الماضي والمستقبل" (٢).

قال الكرمانى رَحِمَهُ اللهُ: "(الآن) عبارة عن الزمان الموجود، وأصله عند الكوفيين:

الأوان، قلبت الواو؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها ألفًا، فاجتمع ساكنان، فحذف أحدهما.

وروي عن الكسائي رَحِمَهُ اللهُ أن أصلها: آن، من أأن يائن فجعل اسمًا، ودخله اللام.

وعند البصريين مبني على الفتح؛ لتضمنه لام التعريف، والألف واللام فيه زائدتان، كما في (الذي) و(مائة)" (٣).

(١) انظر: سر صناعة الإعراب (٣٢/٢)، الخصائص (٩٣/٣)، المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (٥٣١/١٠).

(٢) تاج العروس (٢٢٤/٣٤).

(٣) غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة الكرمانى (١٤٨/١-١٤٩).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَالْتَنَ بَشِيرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فالآن: ظرف زمان، حضر جميعه أو بعضه، والألف واللام فيه للحضور. وقيل: زائدة، وهو مبني؛ لتضمنه معنى الإشارة. وزعم الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ أنه منقول من الفعل، يقال: آن يعين أيناً: أي: حان (١).

وأكثر النحاة على أن (الآن) مبني على الفتح، ثم اختلفوا في سبب بنائه؟ فذهب قوم إلى أن علة بنائه تضمنه معنى: (أل) الحضورية، و(أل) الموجودة فيه زائدة - على هذا الرأي -، وبنائه لتضمنه معنى: (أل) أخرى غير موجودة، كما بني (الأمس) على الكسر في قوله:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عم (٢)
فإنهم جعلوا بناءه في هذا وما أشبهه لتضمنه معنى: (أل) غير الموجودة فيه، وهذا غريب منهم؛ فإنهم ألغوا الموجود، واعتبروا المعدم؛ ولذلك قال الشيخ محمد الخضري رَحِمَهُ اللَّهُ في (حاشيته على شرح ابن عقيل): وفيه غرابة؛ حيث ألغى اللفظ الموجود، وضمن معنى غيره من جنسه، وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: تضمنه معنى: الإشارة؛ فإنه بمعنى هذا الوقت. وقيل: الشبه الجمودي؛ إذ لا يثنى ولا يجمع ولا يصغر، بخلاف: حين، ووقت، وزمان، ومن غير الجمهور من جعله اسم إشارة للزمان، كهناك للمكان، وعليه فعلة بنائه كأسماء الإشارة، ومنهم من قال غير ذلك اهـ.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ اللَّهَ﴾ [النساء: ١٨].

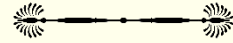
(١) البحر المحيط في التفسير (٤٠٢/١).

(٢) هذا بيت من الطويل. وقائله: زهير بن أبي سلمى. وهو في (ديوانه) (ص: ٧٠)، وقد تقدم بيانه.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَلَنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ءَلَنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ لَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩].

لمح البصر :



قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].
قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا للساعة كلمح خطفة" ^(١).

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "والساعة اسم لإماتة الخلق وإحيائهم.
فأعلم الله عَزَّجَلَّ أن البعث والإحياء في قدرته ومشيتته كلمح البصر، أو هو أقرب،
ليس يريد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان
بها" ^(٢)؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧]، أي: لا يعجزه شيء،
وهو مصداق قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]،

(١) معاني القرآن، للفراء (١١٠/٣).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٢١٤/٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال مقاتل: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ﴾ [النحل: ٧٧]، يعني: أمر تأتي يعني البعث. ﴿إِلَّا كَلَمَحَ الْبَصَرِ﴾ يعني: كرجوع الطرف. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ يقول: بل هو أسرع من لمح البصر. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من البعث وغيره ﴿قَدِيرٌ﴾" (١).

واللمح النظر بسرعة. يقال: لمح البرق والنجم: لمع من بعيد، وبرقُ لمَاحٍ، ورأيتُه لمحَ البرق، ولمحته ببصري: اختلست النظر إليه، وهو أسرع من لمح البصر، ومن لمحَةٍ بالبصر، ولامحته ملامحة. وألمحت المرأة من وجهها: أمكنت من أن تلمح.

ومن المجاز: أبيضُ لَمَاحٍ: يَقَقُّ (٢)، ولأرَبِّكَ لَمَاحٌ باصراً، أي: أمراً واضحاً (٣). ولا بدَّ في لمح البصر من زمان تتقلب فيه الحديقة نحو المرئي، وكل زمان قابل للتجزئة؛ ولذا قال: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، بأن يكون من زمان نصف تلك الحركة، بل في الآن الذي تبتدأ فيه.

وقد قيل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]: إن ﴿أَوْ﴾ للشك، ولكنها تعود على شكِّ المخاطب، أي: كونوا في تقدير سرعة كونها على هذا الشك.

وقيل: إِنَّ ﴿أَوْ﴾ هاهنا بمنزلة: (بل)، وهي للانتقال والترقي، لا للإبطال (٤). وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليست (أو) للشك، بل للتمثيل بأيهما أراد المُمَثِّل. وقيل: دخلت لشك المخاطب.

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٤٧٩/٢).

(٢) يقال: أبيض يقق، أي: شديد البياض ناصعه.

(٣) أساس البلاغة، مادة: (لمح) (١٧٩/٢)، وانظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٤٦).

(٤) انظر: حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٣٤٤/١١).



وقيل: هي بمنزلة: بل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧)، ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته (١).

قال في (البحر): "والشك والتخير بعيدان؛ لأن هذا إخبار من الله عَزَّجَلَّ عن أمر الساعة، فالشك مستحيل عليه، ولأن التخير إنما يكون في المحظورات كقولهم: خذ من مالي ديناراً أو درهماً، أو في التكاليفات كآية الكفارات، و﴿أَوْ﴾ هنا للإيهام على المخاطب، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٥٧) [الصفات: ١٤٧]، وقوله: ﴿أَتْلَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، وهو جَلَّوَعَلَا قد علم عددهم، ومتى يأتيها أمره، كما علم أمر الساعة، لكنه أبهم على المخاطب. وكون ﴿أَوْ﴾ هنا للإيهام ذكره الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ هنا. وقال القاضي: هذا لا يصح؛ لأن إقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال: إنه جَلَّوَعَلَا يأتي بها في زمان، يعني القاضي: فيكون الإيهام على المخاطب في ذلك الزمان، وليس زمان تكليف.

والذي نقوله: إن الإيهام وقع وقت الخطاب المتقدم على أمر الساعة، لا وقت الإتيان بها. وليس من شرط الإيهام على المخاطب في الإخبار عن شيء اتحاد زمان الإخبار، وزمان وقوع ذلك الشيء، ألا ترى في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٥٧) كيف تأخر زمان الإخبار عن زمان وقوع ذلك الإرسال، ووجودهم مائة ألف أو يزيدون.

وما ذكره من أن ﴿أَوْ﴾ بمعنى: (بل)، هو قول الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ، ولا يصح؛ لأن الإضراب على قسمين كلاهما لا يصح هنا.

(١) تفسير القرطبي (١٠/١٥٠).



أما أحدهما: فأن يكون إبطاً للإسناد السابق، وأنه ليس هو المراد، وهذا مستحيل هنا؛ لأنه يؤول إلى إسناد غير مطابق.

والثاني: أن يكون انتقالاً من شيء إلى شيء من غير إبطال لذلك الشيء السابق، وهذا مستحيل هنا؛ للتنافي الذي بين الإخبار بكونه مثل: لمح البصر في السرعة، والإخبار بالأقربى، فلا يمكن صدقهما معاً. وقد قيل: وهذا وإن كان يعتبر إدراكه حقيقة، إلا أن المقصود المبالغة على مذهب العرب وأرباب النظم" (١).



(١) البحر المحيط في التفسير (٥٧٣/٦-٥٧٤) مع بعض اختصار، وانظر: مفاتيح الغيب (٢٥٠/٢٠)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣٩٦/٤).

البحث الثاني عشر أفعال المقاربة والشروع

تدل أفعال المقاربة في اللغة العربية على قرب انقضاء الحدث.
أما أفعال الإنشاء والشروع فتدل على الشروع في القيام بالفعل؛ فلذلك كانت مقاربة للحدث، فسميت بأفعال المقاربة.
قال المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ: "تسمى أفعال المقاربة، وهي مختلفة المذاهب والتقدير، مجتمعة في المقاربة" (١).

وقال ابن الحاجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "أفعال المقاربة: ما وضع لدنو الخبر؛ رجاءً، أو حصولاً، أو أخذاً فيه" (٢).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

ككان كاد وعسى لكن ندر	غير مضارع لهذين خبر
وكونه بدون أن بعد عسى	نزر، وكاد الأمر فيه عكسا
وكعسى جرى ولكن جعلاً	خبرها حتماً بأن متصلاً
وألزموا اخلوق أن مثل حرى	وبعد أوشك انتفا أن نزرا
ومثل كاد في الأصح كرباً	وترك أن مع ذي الشروع وجبا

(١) المقتضب، للمبرد (٦٨/٣).

(٢) وانظر: التعريفات، للشريف الجرجاني (ص: ٣٢).

كأنشأ السائق يحدو وطفق كذا جعلت وأخذت وعلق
 واستعملوا مضارعاً لأوشكا وكاد لا غير وزادوا موشكا
 بعد عسى اخلولق أوشك قد يرد غنى بأن يفعل عن ثان فقد
 وجردن عسى أو ارفع مضمرًا بها إذا اسم قبلها قد ذكرا
 والفتح والكسر أجز في السين من نحو عسيت وانتفا الفتح زكن^(١)
 نواسخ الابتداء قسمان: أفعال وحروف، فالأفعال: (كان) وأخواتها، وأفعال
 المقاربة، و(ظن) وأخواتها، والحروف: (ما) وأخواتها، و(لا) التي لنفي الجنس وإن وأخواتها.
فالقسم الأول: هو (كان) وأخواتها، وكلها أفعال اتفاقاً إلا (ليس) فذهب الجمهور
 إلى أنها فعل، وقيل: إنها حرف.

والقسم الثاني من الأفعال الناسخة للابتداء: هو كاد وأخواتها، وذكر ابن مالك
 رَحِمَهُ اللهُ منها أحد عشر فعلاً، ولا خلاف في أنها أفعال إلا (عسى) فقيل: إنها حرف.
 قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ: "والصحيح أنها فعل بدليل اتصال تاء الفاعل وأخواتها بها،
 نحو: عسيتُ، وعسيتَ، وعسيتما، وعسيتم، وعسيتمن.
 وهذه الأفعال تسمى: أفعال المقاربة، وليست كلها للمقاربة، بل هي على ثلاثة
 أقسام:

أحدها: ما دل على المقاربة (قرب حصول الخبر)، وهي: كاد، وكرب، وأوشك.
والثاني: ما دل على الرجاء، وهي: عسى، وحرى، واخلولق.
والثالث: ما دل على الإنشاء (الشروع)، وهي: جعل، وطفق، وأخذ، وعلق،
 وأنشأ^(٢).

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٢٠-٢١).

(٢) انظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١/٤٦٨).

فتسميتها أفعال المقاربة من باب التغليب: تسمية للكل باسم البعض ^(١)،
كتسميتهم الكلام كلمة.

ويلزم أن يكون خبر هذه الأفعال مضارعاً مقترناً بـ: (أن) وجوباً في اخلوق وحرى،
وكثيراً في أوشك وعسى، وقليلاً في كاد وكرب. ولا اقتران في أفعال الشروع.
وتفصيل ذلك في مآله ^(٢).

والتحقيق أن (عسى) تفيد كذلك المقاربة، قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "ولها مذهبان:
أحدهما: أن تكون بمنزلة قارب: فيكون لها مرفوع ومنصوب، إلا أن منصوبها
مشروط فيه أن يكون أن مع الفعل متأولاً بالمصدر. كقولك: (عسى زيد أن يخرج)، في
معنى: قارب زيد الخروج. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: ٥٢].

والثاني: أن يكون بمنزلة قرب: فلا يكون لها إلا مرفوع، إلا أن مرفوعها أن مع
الفعل في تأويل المصدر كقولك: (عسى أن يخرج زيد)، في معنى: قرب خروجه، قال الله
عَزَّجَلَّ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومنها: (كاد)، ولها اسم وخبر. وخبرها مشروط فيه أن يكون فعلاً مضارعاً متأولاً
باسم الفاعل، كقولك: كاد يخرج. وقد جاء على الأصل:

فَأُبْتُ إِلَى فَهْمٍ وَمَا كِدْتُ آيِيَا *** ^(٣)

(١) وفي (شرح التصريح): "وهذا مجاز مرسل من باب تسمية الكل باسم الجزء، كتسميتهم الكلام: كلمة،
وكتسميتهم ربيعة القوم: عيناً" شرح التصريح على التوضيح (٢٧٧/١).

(٢) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣٢٢/١-٣٤٤)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن
هشام (٢٩٠/١).

(٣) أتى بخبر (كاد) مفرداً، وهو (آييا) اسم فاعل من (آب): إذا رجع. وقائله: هو تأبط شراً، واسمه: ثابت بن
جابر بن سفيان. وتام البيت المذكور: (*** وَكَمْ مِثْلُهَا فَارَقْتُهَا وَهِيَ تَصْفُرُ). والاستشهاد فيه: في قوله:
(وما كدت آيياً)، وهو أنه استعمل خبر (كاد) اسماً مفرداً، وإنما قياسه الفعل، ويروى: (وما كنت آيياً)، =

كما جاء: (عَسَى الْغَوِيرُ أَبُؤْسًا) ^(١)

وقال في الفصل بين معنيي: (عسى) و(كاد): "إن (عسى) لمقاربة الأمر على سبيل الرجاء والطمع، تقول: (عسى الله أن يشفي مريضاً)، تريد: أن قرب شفائه مرجو من عند الله عَزَّوَجَلَّ مطموح فيه؛ و(كاد) لمقاربتة على سبيل الوجود والحصول، تقول: (كادت الشمس تغرب)، تريد: أن قربها من الغروب قد حصل.

= فإن صح فلا استشهاد فيه" انظر: المقاصد النحوية (٦٨٠/٢-٦٨٣). قال ابن مالك: "ومن عادة

العرب في بعض ماله أصل متروك، وقد استمر الاستعمال بخلافه، أن ينبهوا على ذلك الأصل؛ لئلا يجهل، فمن ذلك جعل بعض العرب خبر كاد وعسى مفرداً منصوباً.." شرح تسهيل الفوائد (١/٣٩٣).

(١) قولهم في المثل: (عَسَى الْغَوِيرُ أَبُؤْسًا) فـ: (أَبُؤْسًا) جمع: بؤس ومعناه: العذاب أو الشدة، خبر (عسى) وهو

مفرد؛ لأنه ليس جملة. هذا قول سيبويه، وأبي علي من البصريين، وقال الكوفيون: خبر يكون محذوفة، والتقدير: أن يكون أَبُؤْسًا. وقال الأصمعي: خبر (يصير) محذوفة. وقيل: مفعول به، والتقدير: عسى الغوير يأتي بأبؤس، فحذف الناصب والجار توسعاً. وتلخص أن (أَبُؤْسًا) خبر لعسى، أو لكان، أو لصار، أو مفعولاً به. قال الموضح في (شرح الشواهد): والأحسن من ذلك كله: أن يقدر يئأس أَبُؤْسًا، فيكون مفعولاً

مطلقاً، على حدّ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ [ص:٣٣]، أي: يمسح مسحاً اهـ. وقال في (المغني): الصواب أنه مما

حذف فيه (كان) أي: يكون أَبُؤْسًا؛ لأن في ذلك إبقاء لها على الاستعمال الأصلي اهـ. وسبقه إلى ذلك

ابن جني، فقال في البيت: التقدير: وما كدت أكون آيياً اهـ.. كذا في (شرح التصريح) (١/٢٧٨-٢٧٩)،

وانظر: الكتاب، لسيبويه (٣/١٥٨)، المقتضب (٣/٧٠)، الأصول في النحو (٢/٢٠٧)، مغني اللبيب

(ص:٢٠٣)، شرح المفصل (٤/٣٧٧). والغوير تصغير الغار، وأبؤس، أي: شذائد، جمع: بؤس، وهو مثل

يضرِب لتوقع الشر من محل معين. وانتصاب (أَبُؤْسًا) على أنه خبر (عسى) جاء على أصل التقدير.

وأصله: أن قومًا أخذتهم السماء، ففزعوا إلى جبل فيه غار، فقالوا: ندخل هذا الغار، فقال أحدهم: عسى

أن يكون في الغار بأس، فدخلوا وأقام الواحد، فانهار عليهم الجبل، وجاء الرجل فحدث الحي فقالوا: هذا

كان أبؤسًا لا بأسًا واحدًا. انظر: المستقصى في أمثال العرب (٢/١٦١)، وانظر: مجمع الأمثال (٢/١٧).



وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرِلُّهَا﴾ [النور: ٤٠] على نفي مقارنة الرؤية، هو أبلغ من نفي نفس الرؤية" (١).

وقد جاءت (كاد) في القرآن الكريم بصيغة الماضي، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيَّانَ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، والمضارع كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَكَادُ الْبَرُّ يُخْطَفُ أَبْصَرُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

وقد ورد اشتقاقها في القرآن على النحو التالي:

﴿يَكَادُ الْبَرُّ يُخْطَفُ أَبْصَرُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيَّانَ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧].

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٧].

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣].

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧٦].

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣].

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرَنَّ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠].

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

(١) انظر ذلك في (المفصل في صنعة الإعراب) (ص: ٣٥٧-٣٥٩)، ومفصلاً في (شرح المفصل)، لابن يعيش



﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِئُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥].

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١].

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

أما أفعال الشروع فلم يرد في القرآن الكريم منها إلا (طفق)، ويجب في خبرها أن يكون فعلاً مضارعاً مجرداً من (أن).

قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال جل وعلا: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

أما (عسى) وأخواتها: (حرى) و(اخلولق) من أفعال الرجاء فلم يرد في القرآن منها إلا (عسى).

وتستعمل للترجي وللإشفاق، كما في قوله جل وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. قيل: (عسى) الأولى للإشفاق، والثانية للترجي. وقيل العكس.

وبيان ذلك على النحو التالي:

قال أبو حيان في (البحر) في ترجيح الوجه الأول: "عسى" الأولى للإشفاق، والثانية للرجاء. عسى هنا -أي: الأولى- للإشفاق لا للترجي، ومجيئها للإشفاق قليل، وهي هنا تامة لا تحتاج إلى خبر، ولو كانت ناقصةً لكانت مثل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا﴾ [محمد: ٢٢]، فقلوه: ﴿أَنْ تَكْرَهُوا﴾ في موضع رفع بعسى " (١).

قال الإمام ابن عرفة رَحِمَهُ اللهُ في التعقيب على قول أبي حيان رَحِمَهُ اللهُ ومن وافقه: "المناسب العكس؛ فإنَّ المستقبل في الأولى خَيْرٌ، وانتظاره رجاءٌ، والمستقبل في الثانية شَرٌّ، فانتظاره إشفاقٌ وخوفٌ.

قيل لابن عرفة: إنما المعتبر ما دخلت عليه (أن)؟ فقال: نعم لكن بصفته وقيده، والأوّل مقيّدٌ بأنّه يعقبه خَيْرٌ، والثاني مقيّدٌ بأنّه يعقبه الشَّرُّ. قيل لابن عرفة: المستقبل غير معلوم للإنسان، وإنما يُعلم الحاضر، فيعسر عليه المستقبل، فإن كان الحاضر خيراً ترجى دوامه، وإن كان شراً أشفق وخاف من دوامه" (٢).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "يقال: عسى من الله عَزَّجَلَّ واجبة" (٣).

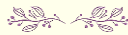
وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللهُ: "عسى إيجاب من الله عَزَّجَلَّ، وهي في القرآن كلها واجبة، فجاءت على إحدى لغتي العرب؛ لأن عسى في كلامهم: رجاء ويقين.. " (٤).

(١) البحر المحيط (٢/٣٨٠).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢/٦١٧).

(٣) انظر: الأم، للشافعي (٤/١٦٩)، أحكام القرآن، للشافعي، جمع البيهقي (٢/١٧)، البرهان في علوم القرآن (٤/٢٨٨).

(٤) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١/١٣٤).



وقال المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ: "عسى) وهي لمقاربة الفعل، وقد تكون إيجاباً" (١).
وقال الأخفش رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال: (عسى) من الله عَزَّجَلَّ واجبة، قال: لو علمت من رجل أنه لا يدع شيئاً هو أحسن من شيء إلا يأتيه، فقال لك: (عسى أن أكافئك) استبنت بعلمك به أنه سيفعل الذي يجب؛ إذ كان لا يدع شيئاً هو أحسن من شيء إلا يأتيه" (٢).

وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "عسى من الله عَزَّجَلَّ واجب إن شاء الله" (٣).
وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وعسى من الله عَزَّجَلَّ واجبة في جميع القرآن، إلا في قوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ [التحريم: ٥] (٤)؛ وفي (شرح الكافية): "لاستحالة الطمع والإشفاق عليه جَلَّوَعَلَا؛ إذ لا يكونان إلا في المجهول، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ للتخويف، لا للخوف والإشفاق، كما أن (أو) في كلامه جَلَّوَعَلَا، للإبهام، والتشكيك، لا للشك" (٥).

وقال أبو حيَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكلُّ (عسى) في القرآن للتَّحْقِيق، يعنون به: الوقوع، إلا قوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]" (٦). وهو كقول الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ الآنف الذكر.

(١) المقتضب، للمبرد (٦٨/٣).

(٢) معاني القرآن، للأخفش (٤٢٦/٢)، بتصرف، وانظر: معاني القرآن وإعرابه (١٨١/٢)، معاني القرآن، للنحاس (١٤٥/٢).

(٣) معاني القرآن، للفراء (٤٥١/١).

(٤) الصحاح، للجوهري، مادة: (عسا) (٢٤٢٦/٦).

(٥) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢١٤/٤).

(٦) البحر المحيط (٣٨٠/٢).

قال ابنُ عرفة رَحِمَهُ اللهُ: "بل هي أَيْضًا لِلتَّحْقِيقِ؛ لما تقدَّم من أنَّ القضية الشرطيَّة تقتضي صحَّة ملزوميَّة الجزاء للشرط، ولا تقتضي الثُّبوت والوقوع، والقضية الحملية تقتضي الثُّبوت والوقوع، أو يفهم الوقوع في الآية باعتبار المتكلم بهذا الشرط، والرجاء واقع من الله عَزَّجَلَّ" ^(١)؛ لأنَّ الجزاء إنما يقع عند وقوع الشرط، فإذا قال قائل لزوجته: (أنت طالق إن ذهبت إلى أهلك)، لا تتحقَّق ملزوميَّة الجزاء إلا عند تحقق الشرط.. أمَّا القضية الحملية فهي واقعة لا محالة.. وبيان ذلك أنَّ القضية الشرطيَّة هي التي يحكم فيها بالتَّلازم أو العناد ^(٢) بين شيئين، أو بنفيه فيها. أو القضية التي قُيِّد الحكم فيها بشرط، نحو: (إن كانت الشمس طالعة فالنَّهار موجود)، فقد حكمنا بالتَّلازم بين وجود النَّهار وطلوع الشمس. ونحو: العدد إمَّا أن يكون زوجًا أو فردًا، فقد حكمنا بالتَّنافي والعناد بين زوجيَّة العدد وفردِيَّتِهِ. ولا بدَّ أن تكون كلُّ قضية شرطيَّة من جزأين على الأقل، هما: (المقدَّم)، و(التَّالي). ففي قولنا: (إن كانت الشمس طالعة فالنَّهار موجود)، فإنَّ عبارة: (الشمس طالعة) هي المقدَّم، وعبارة: (النَّهار موجود) التَّالي. أمَّا القضية الحملية هي التي يحكم فيها بثبوت شيءٍ لشيءٍ أو نفيه عنه، نحو: (كلُّ السَّلاحف بطيئة، ولا

(١) تفسير ابن عرفة (٦١٧/٢-٦١٨)

(٢) (العناد) لغة: الاعوجاجُ والخلاف. وقيل: المبالغة في الإعراض ومخالفة الحقِّ. وعند المنطقيين: قضية يكون الحكم فيها بالتَّنافي لذاتِ الجزئيين مع قطع النَّظر عن الواقع كما بين الفرد والزَّوج، والشَّجر والحجر، وبين إمَّا أن يكون زيد في البحر وإمَّا أن لا يغرق، أي: وإمَّا أن لا يكون في البحر، ويلزمه أن لا يغرق. أو يقال: إمَّا أن يكون زيد في البحر وإمَّا أن لا يغرق لكنَّه ليس في البحر فلا يغرق، أو لكنَّه غرق فيكون في البحر. وتسمَّى الأخيرة مانعة الخلو. فالجمع أن يكون في البحر ولا يغرق، والخلو يغرق لا في البحر. أمَّا مانعة الجمع فنحو: (هذا العدد إمَّا مساوٍ لذلك أو أكثر)، وأمَّا مانعتهما فنحو: (العدد إمَّا زوج أو فرد).

شيء من الأسماك طائر)، ويسمى الجزء الأول: موضوعاً؛ لأنه وضع ليحمل عليه الثاني أو ليحكم عليه بشيء. والجزء الثاني يسمى: محمولاً.

ولكلٍ من القضية الشرطية والحملية أحكامٌ تنظرُ في مظاهرها..

والحاصل أنه لا تتحقق ملزومية الجزء هنا إلا عند تحقق الشرط.. ومن المعلوم أن ذلك لم يتحقق... والقضية الشرطية تقتضي صحة ملزومية الجزء للشرط، ولا تقتضي الثبوت والوقوع، والقضية الحملية تقتضي الثبوت والوقوع.

وفي الغالب يقترن خبرُ (عسى) بـ: (أن). ولم يرد في القرآن غير ذلك.

وتأتي ناقصة، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ﴾ [الإسراء: ٨].

وتامة، وهي التي تكتفي بمرفوعها فيكون فاعلاً، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَقُلْ عَسَى

أَنْ يَهْدِيَ رَبِّي لِقُرْبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤].

فإنَّ (عسى) تامة، والمصدر ﴿أَنْ يَهْدِيَ رَبِّي﴾ فاعل (عسى)، و﴿يَهْدِي﴾ فعل

مضارع منصوب، والنون للوقاية، والياء المقدرة مفعول به.

ومن أفعال المقاربة: (أوشك)، ويستعمل بصيغة الماضي كما تستعمل بصيغة

المضارع.

قال الزمخشري رحمه الله: "ومنها: (أوشك) يستعمل استعمال: (عسى) في مذهبيها،

واستعمال (كاد). تقول: (يوشك زيد أن يجيء)، و(يوشك أن يجيء زيد)، و(يوشك

زيد يجيء)" (١).

(١) المفصل في صناعة الإعراب (ص: ٣٥٩-٣٦٠). قال الشارح: "اعلم أن (أوشك) يستعمل استعمال: (عسى)

في المقاربة، فيقال: (أوشك زيد أن يقوم)، فـ (زيد) فاعل، و(أن يقوم) في موضع المفعول، والمراد: قارب

زيد القيام. ويقال: (أوشك أن يقوم زيد)، فتكون (أن) وما بعدها في موضع مرفوع، كما كانت (عسى)=

والغالب في خبر (عسى) و(أوشك) الاقتران بأن، نحو: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ
عَذُوكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾ [الإسراء: ٨]، ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحریم: ٨].

قال الشاعر:

ولو سُئِلَ الناسُ الترابَ لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا^(١)
وبقل حذفها منه، ومن تجرده منها قوله:
والتجرد من (أن) قليل، كقول هذبة:
عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب^(٢)
وكقول أمية:
يوشك من فرٍّ من منيته في بعض غراته يوافقها^(٣)

= كذلك، وقد أسقط من خبرها (أن)؛ تشبيهاً بـ: (كاد)، نحو قولك: (أوشك زيد يقوم) "شرح المفصل،
لابن يعيش (٣٨٥/٤-٣٨٦).

(١) أنشده ثعلب في (أماليه)، الجزء الثامن (ص: ٣٦٥) عن ابن الاعرابي، ورواه الزجاجي في (أماليه) عن ثعلب
(ص: ١٢٦). ويستشهد النحاة بهذا البيت ونحوه على أمرين، الأول: في قوله (لاوشكوا) حيث ورد
(أوشك) بصيغة الماضي، والأمر الثاني: في قوله: (أن يملوا) حيث أتى بـ (أوشك) جملة فعلية فعلها
مضارع مقترن بـ: (أن)، وهو الكثير.

(٢) هذا البيت لهذبة بن خشرم العذري. انظر: الكتاب، لسيبويه (٣/ ١٥٨)، المقتضب (٣/ ٧٠)، أوضح
المسالك (١/ ٢٩٩)، مغني اللبيب (ص: ٢٠٣)، شرح ابن عقيل (١/ ٣٢٧)، شرح الأشموني (١/ ٢٧٦)،
همع الهوامع (١/ ٤٧٦)، إيضاح شواهد الإيضاح (١/ ١١٣)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب
(٤/ ٢١٩). شرح شواهد المغني (١/ ٤٤٣-٤٤٤). والشاهد فيه: وقوع خبر (عسى) فعلاً مضارعاً مجرداً
من (أن) المصدرية، وهو قليل.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في (ديوانه) أمية بن أبي الصلت، بتحقيق: عبد الحفيظ السطلي
(ص: ٤٢١). والشاهد فيه: "إسقاط (أن) بعد (يوشك)؛ تشبيهاً بـ: (كاد)، كما أسقطت بعد (عسى)؛ =

و(كرب) و(أخذ) و(جعل) و(طفق)، يستعملن استعمال: (كاد)، تقول: (كرب يفعل)، و(جعل يقول ذاك)، و(أخذ يقول) ^(١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومثل كاد في الأصحَّ كرباً وترك أن مع ذي الشروع وجبا
كأنشأ السائق يحدو وطفق كذا جعلت وأخذت وعلق ^(٢)
يريد: أن (كرب) مثل: (كاد) في معناها، وهو: المقاربة، وفي عملها، وفي عدم اتصال خبرها بـ: (أن) في الأغلب.

ثم ذكر ترك (أن) مع ذي الشروع، فأوجب الحذف، وعد من أن أفعال الشروع، أنشأ، وطفق، وجعل، وأخذ، وعلق، ومثل للأول بقوله: أنشأ السائق يحدو، أي: يغني.

=تشبيهاً بـ: (كاد). ومعنى: (يوشك): يقارب، يقال: (أوشك فلان أن يفعل كذا): إذا قاربه. وهو من السرعة من قولهم: (خرج وشيكا)، أي: سريعاً، ومنه: (وشك البين)، أي: سرعة الفراق. فقولهم: (يوشك أن يفعل)، أي: يسرع. وضده: يبطئ، أي: يبعد، ومعنى (أن) فيه صحيح؛ لأنه في معنى: يقرب أن يفعل. والغرة: الغفلة عن الدهر، ووقوع صروفه، أي: لا ينجي من المنية شيء، فاعرفه "شرح المفصل، لابن يعيش (٣٨٦/٤)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (١٦٠/٣-١٦١)، الأصول في النحو (٢٠٧/٣-٢٠٨)، شرح الكافية الشافية (٤٥٥/١-٤٥٦)، أوضح المسالك (٢٩٨/١-٣٠٤)، شرح تسهيل الفوائد (٣٩٢/١)، الكامل (٦٢/١).

(١) انظر: المفصل في صنعة الإعراب (ص: ٣٦٠)، شرح المفصل (٣٨٦/٤)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (١٥٩/٣)، الأصول في النحو (٢٠٧/٢)، الكافية في علم النحو، لابن الحاجب (ص: ٤٨-٤٩).
(٢) ألفية ابن مالك (ص: ٢٠).



قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ: "لم يذكر سيبويه رَحِمَهُ اللهُ في (كرب) إلا تجرد خبرها من (أن) ^(١). وزعم ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ أن الأصح خلافه، وهو أنها مثل: (كاد) فيكون الكثير تجريد خبرها من أن، ويقل اقترانه بها" ^(٢).

وكذا قول الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ وغيره - كما تقدم -، وفي (شرح التصريح): "وما ذكره سيبويه رَحِمَهُ اللهُ مردود بالسمع" ^(٣).

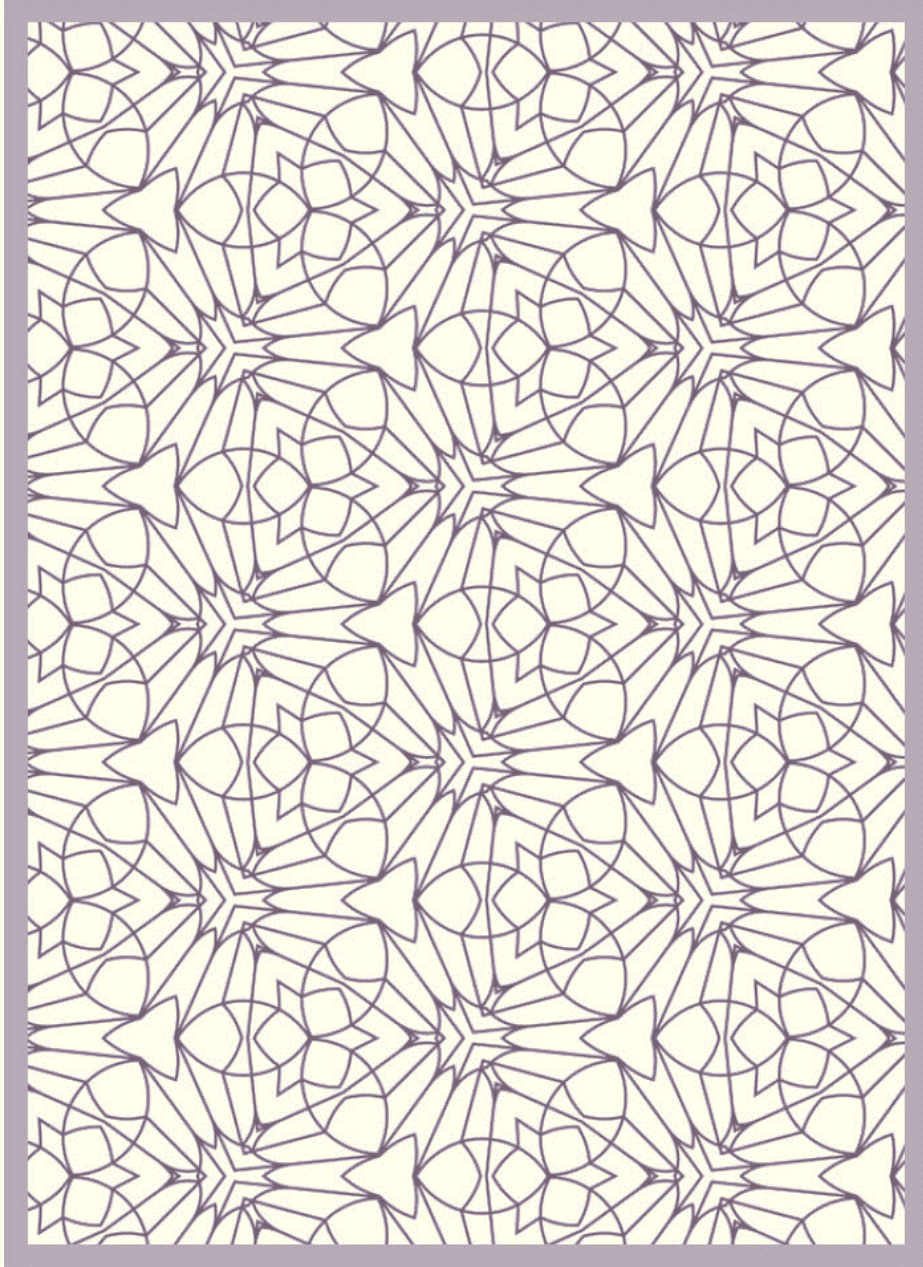
وتفصيل ذلك في مظانه.



(١) قال سيبويه: "وأما (كاد) فإنهم لا يذكرون فيها (أن)، وكذلك كرب يفعل، ومعناها واحد. يقولون: كرب يفعل، وكاد يفعل" الكتاب، لسيبويه (١٥٩/٣).

(٢) انظر: شرح ابن عقيل (٣٣٥/١)، وانظر: توضيح المقاصد (١/٥١٨).

(٣) شرح التصريح على التوضيح (٢٨٦/١).

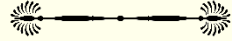


البحث الثالث عشر

أسماء الزمن المتجدد

أو ما يغلب استعماله في التجدد

تارة :



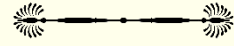
قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ [الإسراء: ٦٩].
 وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿* مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، أي: مرة وكرة أخرى، هو فيما قيل: من تار الجرح: إذا التأم.
 والتَّارَةُ: الحِينُ والمرَّةُ. وقوله:
 وما الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ
 أراد: فَمِنْهُمَا تَارَةً أَمُوتُهَا، أي: أَمُوتُ فِيهَا. والجَمْعُ: تارات، وتَيَرَّ. حكاه
 سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

(١) انظر: الكتاب، لسبويه (٣٤٦/٢). والبيت لثميم بن مقبل في (ديوانه) (ص: ٢٤)، وانظر: الكامل (١٣٢/٣)، الحيوان (٢١/٣)، شرح تسهيل الفوائد (٣٢٣/٣)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣٢٥/٢)، الأزمنة والأمكنة (٥٢/١). والكدح: الاكتساب، والمعنى: لا راحة في الدنيا؛ لأن وقتها تاراتان: إما موت، وإما حياة كلها كد وتعب في المعيشة.



وَأَتَرْتُ الشَّيْءَ: جِئْتُ بِهِ تَارَةً أُخْرَى، أي: مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ^(١).
 و"أتاره: أعاده مرة بعد مرة، ويجمع على (تير) و(تارات)، وألفها تحتل أن تكون
 عن واو أو ياء، قيل: هو من (تار الجرح): إذا التأم.
 وتارة، منصوب: إما ظرف، أو مصدر على قياس ما قيل في (مَرَّةً) في (ضربته
 مَرَّةً) ^(٢).

طَوْرٌ وَأَطْوَارٌ وَأَخْيَافٌ :



تطلق الأطوار إلى إيقاع الفعل على مراحل، أو تارة بعد تارة. فالطَّوْرُ: التَّارَةُ، يقال:
 فعل كذا طَوْرًا بعد طور، أي: تارة بعد تار. قال الأخفش رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَدْ
 خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، أي: "طَوْرًا عُلُقَةً، وَطَوْرًا مُضْغَةً" ^(٣). قيل: هو إشارة إلى
 نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عُلُقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ
 مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]، وقيل: إشارة إلى نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاخْتَلَفُ السِّنِّيَّاتِ
 وَالْوَنِيَّاتِ﴾ [الروم: ٢٢]، أي: مختلفين في الخلق والخلق ^(٤).

والناس أطوارٌ، أي: أخْيَافٌ على حالاتٍ شَتَّى. وبلغ فلانٌ في العلم أطْوَرِيه، أي:
 حَدَّيْهِ: أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ. ويروى: أطْوَرِيه - بكسر الراء -: أي بلغ أقصاه وغايته ^(٥).

(١) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (تور) (٥٣٠/٩).

(٢) الكليات (ص: ٣١٦).

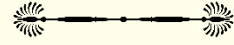
(٣) معاني القرآن، للأخفش (٥٥٠/٢).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (طور) (ص: ٥٢٨).

(٥) انظر: انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (طور) (٧٢٧/٢)، تهذيب اللغة (١٠/١٤).

قال في (العين): "الأخفاف: الأطوار، والناس أخفاف، أي: على حالاتٍ شتى. وأولاد أخفاف، أي: ما كانوا لأم واحدة وآباء شتى. وخُفِفَ هذا الأمر بينهم، أي: وزع" (١).

فين :



قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْفَيْنَاتُ: الساعات. يقال: لَقِيْتُهُ الْفَيْنَةَ بعد الْفَيْنَةِ، أي: الحين بعد الحين. وإن شئتُ حذفت الألف واللام فقلت: لقيته فَيْنَةً، كما قالوا: لَقِيْتُهُ النَّدْرَى، وفي نَدْرَى. ورجلٌ فَيْنَانٌ الشَّعْر، أي: حسن الشعر طويله، وهو فعْلان" (٢).
ويقال: ما أَلْقَاهُ إِلَّا الْفَيْنَةَ بعد الْفَيْنَةِ، أي: أَحْيَانًا. ويقال: أَيْضًا: الْحَيْنَةَ بعد الْحَيْنَةِ، أو الْمَرَّةَ بعد الْمَرَّةِ (٣).

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أو ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا، تَوَابًا، نَسَاءً، إِذَا ذُكِرَ ذَكَرٌ» (٤).

(١) العين، مادة: (خيف) (٤/٣١٢).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (فين) (٦/٢١٧٩).

(٣) انظر: المخصص، لابن سيده (٣/٤٦٦)، جمهرة اللغة (٢/٩٧٢).

(٤) أخرجه عبد بن حميد [٦٧٤]، والطبراني في (الكبير) [١١٨١٠، ١٢٤٥٧]، والأوسط [٥٨٨٤]، والبيهقي

في (شعب الإيمان) [٦٧٢٢]، قال الهيثمي (٢٠١/١٠): "رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط)

باختصار، وأحد أسانيد الكبير رجاله ثقات". وقال العراقي (ص: ١٣٨١): "أخرجه الطبراني، والبيهقي

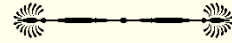
في (الشعب) من حديث: ابن عباس بأسانيد حسنة".



فقلوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْفَيْنَةُ بَعْدَ الْفَيْنَةِ» أي: الحين بعد الحين، والساعة بعد الساعة (١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: يقال: أقمت عنده فينات، أي: ساعات. وروي: كان هذا في فينة من ففين الدهر كبدة وبدر، وهو أحد الأسماء التي يعتقب عليها التعريفان: اللامي والعلمي (٢). حكى أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: لقيته فينة والفينة، ونظيرها: لقيته سحرًا والسحر... " (٣).

المر والمرّة:



أ. المر:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].
 ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٩].
 ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].
 ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٨٦/٣)، وانظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، لمحمد بن فتوح الحميدي (ص: ٢٧٠).

(٢) أي: التعريفان، أحدهما: بالألف واللام، والآخر بالوضع والعلمية.

(٣) الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري (١٥٠/٣)، وانظر: سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح ابن جني (٤٠/٢)، (٤٠٧/٢)، شرح المفصل، لابن يعيش (١٢٣/١)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤٩٩/١).



﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ

﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۖ﴾ [النمل: ٨٨].

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ۖ﴾ [الصافات: ١٣٧].

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ﴾ [المطففين: ٣٠].

المرُّ: المرور. والمرُّ: المرّة، تقول: في المرّة الأولى، والمرّ الأوّل. ومرّ يمرُّ من المرور.

ويقال: لقد مررت: من المرّة، أمر مرّاً ومرّة، وهي الاسم ^(١).

ومرّ من الماضي الثلاثي المضعّف من باب نصر، وهو بمعنى: سار ومضى.

قال ابن فارس رحمه الله: "الميم والراء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على مضي

شيء، والآخر على خلاف الحلاوة والطيب.

فالأول: مرّ الشّيء يمرُّ: إذا مضى. ومرّ السحاب: انسحابه ومضيّه. ولقيته مرة

ومرتين إنما هو عبارة عن زمان قد مرّ. ويقولون: لقيته مرّة من المرّ، يجمعون المرّة على المرّ.

والأصل الآخر: أمر الشّيء يمرُّ ومرّ: إذا صار مرّاً. ولقيت منه الأمرين، أي:

شدائد غير طيّبة. والأمران: الهمّ والمرض ^(٢).

(١) العين، مادة: (مر) (٢٦١/٨)، تهذيب اللغة (١٤٣/١٥).

(٢) مقاييس اللغة، مادة: (مر) (٢٧٠/٥).



ب. المرة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَنَّهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ٥٦].

﴿وَهُمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣].

﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ٨٣].

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦].

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٧].

﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٣٧].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

واسمُ المَرَّةِ أو مَصْدَرُ المَرَّةِ يستعمل للدلالة على أن الفعل حدث مرة واحدة،

وَيَصَاحُ مِنَ الْفِعْلِ الثَّلَاثِي عَلَى وَزْنِ فَعَلَةٍ نَحْوُ: قَوْمَةٌ وَرَحْمَةٌ وَخَشْيَةٌ.

وأما الفعل غير الثلاثي فاسم المرة منه، هو مصدره القياسي، مضافاً إليه تاء في

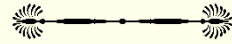
آخره على وزن: إِفْعَالَةٍ، نَحْوُ: إِعْطَاءَةٌ وَإِطْلَاقَةٌ، وانحدارة.



البحث الرابع عشر

الزمن الخاص بالمرأة

أولاً: قرء :



الْقَرْءُ - بالفتح - : الحيض، والجمع: أَقْرَاءُ وقُرُوءٌ على فُعُولٍ، وأَقْرُؤٌ في أدنى العدد. والقَرْءُ أيضاً: الطهر، وهو من الأضداد. وأَقْرَأَتِ المرأةُ: حاضت، فهي مُقْرِئٌ. وأَقْرَأَتْ: طَهَّرَتْ. وقال الأخفش رَحِمَهُ اللهُ: أَقْرَأَتِ المرأةُ إِقْرَاءً: إذا صارت صاحبة حيضٍ، فإذا حاضت قلت: قَرَأَتْ - بلا أَلِفٍ - يقال: قَرَأَتِ المرأةُ حَيْضَةً أو حَيْضَتَيْنِ. والقرء: انقضاء الحيض. قال: وقال بعضهم: ما بين الحيضتين. قال أبو عمرو بن العلاء: يقال دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرئها، أي: تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء. قال: وإنما القرء: الوقت، فقد يكون للحيض، وقد يكون للطهر. واعتدَّت بثلاثة قروء، وأقراء، وأقرء^(١).

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، "والتربص: التلبث والانتظار، وهذا صيغته صيغة الخبر ومعناه الأمر. والقروء على وزن الفعول جمع: قرء، وهو في اللغة اسم للطهر والحيض جميعاً، وقد ورد في الشرع في مواضع لهذا ولهذا، أما للطهر فقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إِنْ مِنْ السَّنَةِ أَنْ تَطْلُقَهَا لِكُلِّ

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (قرأ) (١/٦٤-٦٥)، معاني، القرآن، للأخفش (١/١٨٧)، أساس البلاغة (٢/٦٣).



«**قراءة تطليقة**»^(١)، أي: لكل طهر، وأما الحيض ففي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتلك المستحاضة: «**دعي الصلاة أيام أقرائك**»^(٢)، وهي جمع: قرء أيضاً، والمراد منها: الحيض، وإنما صلح هذا الاسم لهما جميعاً؛ لأن القرء في الأصل هو الوقت، والقارئ كذلك»^(٣).

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٣٩٩٧]، و(الشاميين) [٢٤٥٥]، قال الهيثمي (٣٣٦/٤): رواه الطبراني، وفيه: علي بن سعيد الرازي قال الدارقطني: ليس بذلك، وعظمه غيره، وبقية رجاله ثقات "اهـ. وفيه كذلك: عطاء الخراساني. وأخرجه أيضاً: الدارقطني في (السنن) [٣٩٧٤]، والبيهقي في (الكبرى) [١٤٩٣٩]، وفي (معركة السنن والآثار) [١٤٦٦٤]، قال الحافظ في (الدراية) (٦٩/٢): أخرجه "الدارقطني، والطبراني من حديث: ابن عمر في قصة تطليقه امرأته، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: السنة أن تستقبل الطهر فتطلق لكل قرء. وقال البيهقي: أتى عطاء الخراساني في هذا الحديث زيادات لم يتابع عليها، وهو ضعيف" وانظر: نصب الراية (٢٢٠/٣)، فتح الغفار، للصنعاني (١٥٠٨/٣).

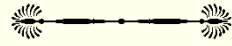
(٢) أخرجه أبو داود، والنسائي، والدارقطني، من حديث: فاطمة بنت أبي حبيش، والنسائي، من حديث: عائشة نحوه، والحديث مروي من طرق. قال الحافظ ابن حجر: "حديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «دعي الصلاة أيام أقرائك» أبو داود، والنسائي من حديث: «فاطمة بنت أبي حبيش أنها شكت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدم، فقال: إذا أتاك قرؤك فلا تصلي، وإذا مر قرؤك فتطهري، ثم صلي ما بين القرء إلى القرء». ورواه النسائي من حديث: الزهري، عن عمرة، عن عائشة: «أن أم حبيبة كانت تستحاض، فسألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمرها أن تترك الصلاة قدر أقرائها وحيضها». ورواه ابن حبان من طريق: هشام، عن أبيه، عنها بنحوه. ورواه البيهقي موقوفاً، والطبراني في الصغير مرفوعاً، من طريق: قمير امرأة مسروق عنها بنحوه، وزاد: «إلى مثل أيام أقرائها». ورواه الدارقطني من طرق عن أم سلمة. وهو في أبي داود كما تقدم، ورواه الدارمي من حديث: عدي بن ثابت، عن أبيه، عن جده، وهو في الترمذي وأبي داود وابن ماجه، ولفظه: «في المستحاضة تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض، ثم تغتسل وتصلي» وإسناده ضعيف. وفي الباب: عن سودة بنت زمعة نحوه، وزاد «ثم تتوضأ لكل صلاة». رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عن جابر نحوه "التلخيص الحبير (٣٠٠/١-٣٠١)، وانظر: البدر المنير، لابن الملقن (١٣١-١٢٥/٣).

(٣) طلبة الطلبة، لنجم الدين النسفي (ص: ٥٢)، وانظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص: ٢٢٥).



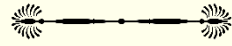
ثانيًا: ما يغلب إطلاقه في الاصطلاح الشرعي على ما يخص المرأة:

١ - عدة :



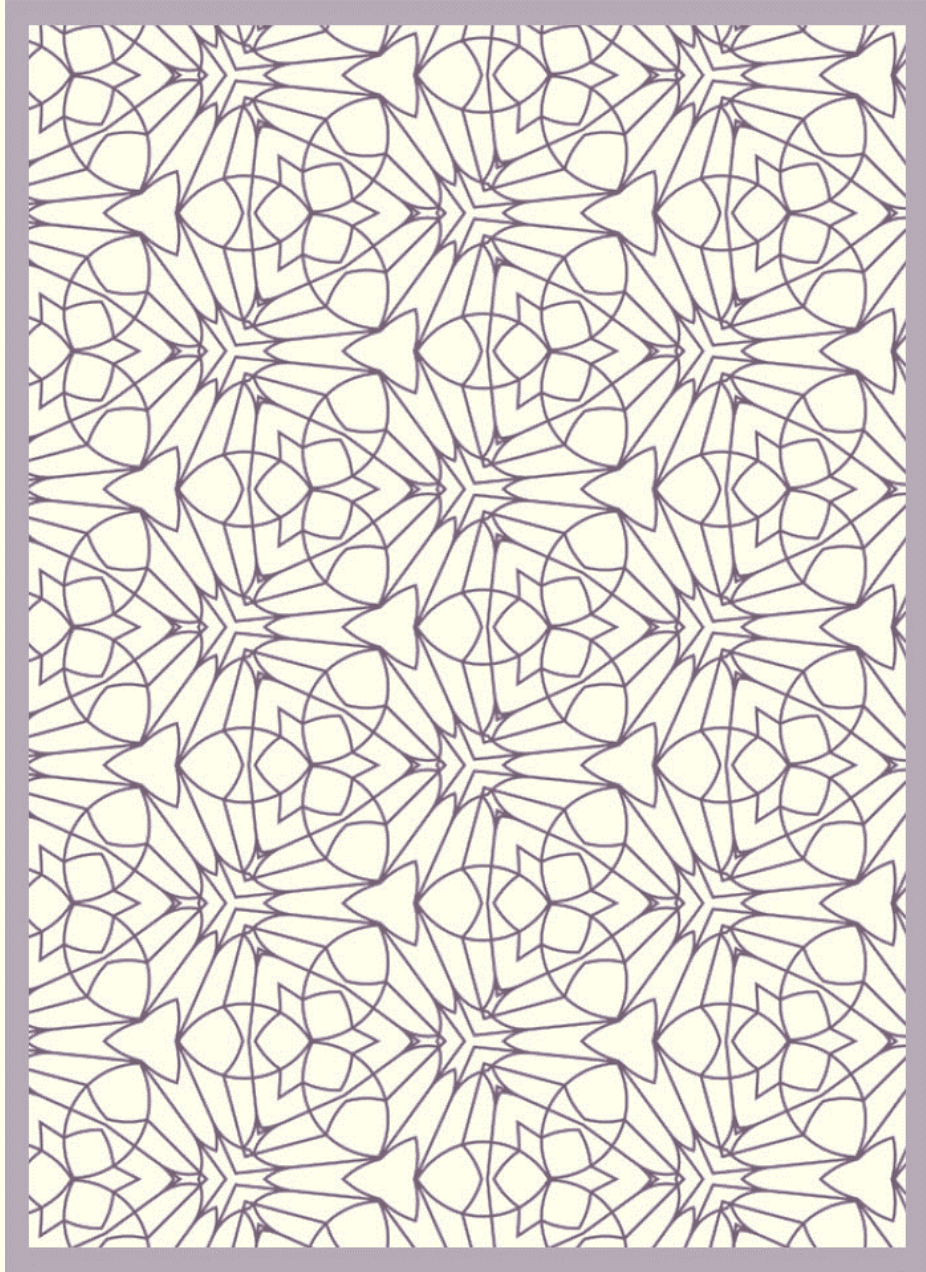
ويطلق في الاصطلاح الشرعي على عدة المرأة عند وفاة زوجها أو طلاقها، وله معان أخرى في الشرع واللغة، وقد تقدم بيانه.

٢ - تربص :



ويطلق في الاصطلاح الشرعي على تربص المرأة عند وفاة زوجها أو طلاقها أو عند الإيلاء، وله معان أخرى، وقد تقدم بيانه.





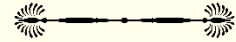


المبحث الخامس عشر

أسماء السنة وبيان أجزائها

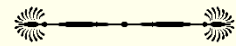
أولاً: أسماء السنة:

سنة :



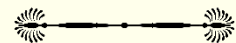
وقد تقدم ذكر السنة.

حول :



وقد تقدم ذكر الحول.

عام :

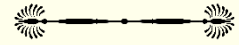


وقد تقدم ذكر العام.



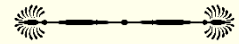
ثانيًا: أجزاء السنة:

يوم :



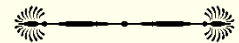
وقد تقدم ذكر اليوم.

أسبوع :



سيأتي ذكر الأسبوع.

شهر :



وقد تقدم ذكر الشهر.



ثالثاً: فصول السنة:

فصول السنة هي: (الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء).

قال في (التهذيب): "قال أبو يحيى بن كناسة في صفة أزمنة السنة وفصولها - وكان علامة بها: - اعلم أن السنة أربعة أزمنة: الربيع الأول، وهو عند العامة: الخريف. ثم الشتاء ثم الصيف، وهو الربيع الآخر، ثم القيظ. قال: وهذا كله قول العرب في البادية. قال: والربيع الأول الذي هو الخريف عند الفرس يدخل لثلاثة أيام من أيلول. قال ويدخل الشتاء لثلاثة أيام من كانون الأول، قال: ويدخل الصيف الذي هو الربيع عند الفرس لخمسة أيام تخلو من آذار، ويدخل القيظ الذي هو صيف عند الفرس لأربعة أيام تخلو من حزيران.

قال أبو يحيى: وربيع أهل العراق موافق لربيع الفرس، وهو الذي يكون بعد الشتاء. وهو زمان الورد، وهو أعدل الآونة، وفيه تقطع العروق، ويشرب الدواء. قال: وأهل العراق يمطرون في الشتاء كله، ويخصبون في الربيع الذي يتلو الشتاء، وأما أهل اليمن فإنهم يمطرون في القيظ ويخصبون في الخريف الذي يسميه العرب الربيع الأول.

قال الأزهرى رَحِمَهُ اللهُ: "وسمعت العرب تقول لأول مطر يقع بالأرض أيام الخريف: ربيع. قال: وإنما سمي فصل الخريف خريفًا؛ لأن الثمار تُخْتَرَفُ فيه، وسمَّته العرب: ربيعًا؛ لوقوع أول المطر فيه. ويقال للفصيل الذي ينتج في أول النتاج: ربع وجمعه رباع" (١).

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢/٢٢٥-٢٢٦).



وقال في (العين): "سُمِّيَ الخريف، لأنه يُحْرَفُ فيه كل شيء أي يُؤْخَذُ وَيُجْتَنَى في حينه، فهو ثلاثة أشهر بين آخر القيظ وأول الشتاء. وإذا مطر القوم في الخريف قيل: حُرِفُوا. ومطر الخريف هو الحَرْفِيُّ" (١).

والحَرْفِيُّ -بفتح العين- كما قالوا في ثَقِيف: ثَقَفِي، وقالوا: حَرَفِي أَيْضًا بسكون العين بالنسبة إلى المصدر (٢).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والخريف: المطر في ذلك الوقت. وقد حُرِفْنَا، أي: أصابنا مطر الحَرْفِ. وَحَرَفَتِ الْأَرْضُ فهي مَحْرُوفَةٌ. قال الكسائي رَحِمَهُ اللَّهُ: يقال: عَامَلْتُهُ مُحَارَفَةً من الحَرْفِ، كالمشاهرة من الشهر" (٣).

و"الشِّتَاءُ: معروف، والواحدة: شتوة. والموضع: المشتى والمشتاة، والفعل: شتا يشتو. ويوم شاتٍ" (٤).

قال المبرِّد رَحِمَهُ اللَّهُ: هو جمع: شَتَوَةٌ (٥).

وجمع الشِّتَاءِ: أَشْتِيَةٌ. والنسبة إليها: شَتَوِيٌّ وَشَتَوِيٌّ، مثل: حَرَفِي وَحَرَفِي. وَشَتَوْتُ بموضع كذا وَتَشَتَّيْتُ: أَقَمْتُ بِهِ الشِّتَاءَ. وَأَشْتَى القوم: دخلوا في الشتاء. قال الكسائي رَحِمَهُ اللَّهُ: عاملته مُشَاتَاةً، من الشتاء. والشتي على فعيل، والشتوى: مطر الشتاء" (٦).

(١) العين، مادة: (خرف) (٢٥١/٤-٢٥٢).

(٢) انظر: شرح شافية ابن الحاجب (٨٢/٢).

(٣) الصحاح، مادة: (خرف) (١٣٤٩/٤).

(٤) العين (٢٧٨/٦).

(٥) ك: (قصعة)، و(قصاع)، و(صحفة)، و(صحاف)، وأنت إذا نسبت إلى جمع؛ رددته إلى واحده، فعلى هذا يكون قياسًا. فعلى هذا شَتَوِيٌّ قياس؛ لأن الجمع في النسب يرد إلى واحده.

(٦) الصحاح، للجوهري، مادة: (شتا) (٢٣٨٩/٦)، وانظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (شتا) (ص: ٤٤٥).



وقال قطرب رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَأَوَّلُ الشّتوية يُقالُ له: (الوسميُّ)، والثاني: (الشتويُّ)، والثالث: (الربيعُ)." .

وَأَوَّلُ الصّيفِ يُقالُ له: (الصيفُ)، والثاني: (الحميمُ)، والثالث: (الخريفُ).
وقال آخرون: السنة عند العرب أربعة أزمنة: فَأَوَّلُهَا: (الوسميُّ)، والثاني: (الربيعُ)، والثالث: (الصيفُ)، والرابع، في لغة أهل الحجاز: (الخريفُ)، وفي لغة تميم: (الحميمُ) ^(١).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والربيع عند العرب ربيعان: ربيع الشهور، وربيع الأزمنة: فربيع الشهور شهران بعد صفر، ولا يقال فيه إلا شهر ربيع الأول، وشهر ربيع الآخر."

وأما ربيع الأزمنة فربيعان: الربيع الأول: وهو الذي تأتي فيه الْكَمَاءُ وَالنَّوْرُ وهو ربيع الْكَالِ. والربيع الثاني: وهو الذي تدرك فيه الثمار، وفي الناس من يسميه الربيع الأول. وسمعت أبا الغوث يقول: العرب تجعل السنة ستة أزمنة: شهران، منها: الربيع الأول، وشهران صيف، وشهران قيظ، وشهران الربيع الثاني، وشهران خريف، وشهران شتاء. وجمع الربيع: أربعاء، و أربعة، مثل: نصيب وأنصباء وأنصبه. والمربع: منزل القوم في الربيع خاصة تقول هذه (مربعنا) ومصايفنا أي حيث نرتبع ونصيف. والنسبة إلى الربيع: (ربيعي) بكسر الراء ^(٢).

والصَّيْفُ: واحد فصول السنة، وهو بعد الربيع الأول، وقيل: القيظ. يقال: صيف صائف، وهو توكيد له كما يقال: ليلٌ لائلٌ، وَيَوْمٌ (صَائِفٌ) أي: حارٌّ وليلةٌ صَائِفَةٌ.

(١) الأزمنة وتلبية الجاهلية (١/٢٢-٢٣).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (ربيع) (٢/١٢١٢).

وَعَامَلَهُ مُصَايَفَةً، أَي: أَيَّامَ الصَّيْفِ، وَصَافَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ الصَّيْفَ، وَاصْطَافَ مِثْلَهُ، وَالْمَوْضِعَ: مَصِيفٌ وَمُصْطَافٌ. وَتَصَيَّفَ مِنَ الصَّيْفِ، كَمَا تَقُولُ: تَشَتَّى مِنَ الشِّتَاءِ ^(١).

قَالَ فِي (الْعَيْنِ): "الصَّيْفُ: رُبْعٌ مِنْ أَرْبَاعِ السَّنَةِ، وَالصَّيْفُ مِنَ الْمَطَرِ وَالْأَزْمَنَةِ وَالنَّبَاتِ: مَا يَكُونُ فِي الرُّبْعِ الَّذِي يَتَلَوُ الرِّبْعَ مِنَ السَّنَةِ، وَهُوَ الصَّيْفِيُّ. وَيَوْمٌ صَائِفٌ وَلَيْلَةٌ صَائِفَةٌ. وَصَافَ الْقَوْمَ فِي مَصِيفِهِمْ: إِذَا أَقَامُوا فِي مَكَانٍ صَيَّفَتَهُمْ. وَغَزَوَهُ صَائِفَةٌ: أَكْهَمَ كَانُوا يَخْرُجُونَ صَيْفًا وَيَرْجِعُونَ شِتَاءً" ^(٢).

و"سَمِيَ الْمَطَرُ الْآتِي فِي الصَّيْفِ: صَيْفًا، كَمَا سَمِيَ الْمَطَرُ الْآتِي فِي الرَّبْعِ رَبِيعًا. وَصَافُوا: حَصَلُوا فِي الصَّيْفِ، وَأَصَافُوا: دَخَلُوا فِيهِ" ^(٣).

وَفِي حَدِيثِ الْكَلَالَةِ حِينَ سَأَلَ عَنْهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ: «تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ» ^(٤) أَي: الَّتِي نَزَلَتْ فِي الصَّيْفِ. وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ. وَالَّتِي فِي أَوَّلِهَا نَزَلَتْ فِي الشِّتَاءِ ^(٥).

وَلَا يَخْفَى أَنَّ لِلْمُسْلِمِينَ عُنَايَةً وَاهْتِمَامًا بِأَلْفِ الْبَقَرَةِ الْكَرِيمِ، حَيْثُ إِتْمَمَ لَمْ يَكْتَفُوا بِحِفْظِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ فَحَسَبَ، بَلْ تَتَّبَعُوا أَمَاكِنَ نَزُولِهِ، مَا كَانَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَمَا كَانَ بَعْدَهَا، مَا نَزَلَ بِاللَّيْلِ وَمَا نَزَلَ بِالنَّهَارِ، مَا نَزَلَ فِي الصَّيْفِ وَمَا نَزَلَ فِي الشِّتَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَذَلِكَ مِمَّا يُعْطِي الثِّقَةَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَبُوصُولِهِ إِلَيْنَا سَالِمًا مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّحْرِيفِ.

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (صيف) (١٣٨٩/٤).

(٢) العين، مادة: (صيف) (١٦٤/٧).

(٣) المفردات، مادة: (صيف) (ص: ٤٩٩-٥٠٠).

(٤) صحيح مسلم [٥٦٧، ١٦١٧].

(٥) انظر: مادة: (صيف) في (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٦٨-٦٧/٣).



وقد ذكر القرآن الكريم الشتاء والصيف في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ① إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾ [قريش: ١-٢].

وفي الحديث: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا» ^(١).

قال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "والخريف يعبر به عن السنة، فمعنى «سبعين خريفًا»: سبعون سنة. وإنما عبر بالخريف عن السنة؛ من جهة أن السنة لا يكون فيها إلا خريف واحد؛ فإذا مر الخريف فقد مضت السنة كلها، وكذلك لو عبر بسائر الفصول عن العام، كان سائغًا بهذا المعنى؛ إذ ليس في السنة إلا ربيع واحد، وصيف واحد. قال بعضهم: ولكن الخريف أولى بذلك؛ لأنه الفصل الذي يحصل به نهاية ما بدأ في سائر الفصول؛ لأن الأزهار تبدو في الربيع، والثمار تتشكل صورها في الصيف، وفيه يبدو نضجها، ووقت الانتفاع بها أكلاً، وتحصيلاً وإدخاراً في الخريف، وهو المقصود منها، فكان فصل الخريف أولى بأن يعبر به عن السنة من غيره -والله أعلم-» ^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ سمع وَجْبَةً ^(٣)، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَذَرُونَّ مَا هَذَا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مِنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا» ^(٤).

(١) صحيح البخاري [٢٨٤٠]، مسلم [١١٥٣].

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٣٧/٢).

(٣) «وجبة» -بفتح الواو وإسكان الجيم-: السقطة من علو إلى سفلى بصوت قوي مزعج. انظر: شرح النووي

على صحيح مسلم (١٧٩/١٧)، كشف المشكل من حديث الصحيحين (٥٧٦/٣).

(٤) صحيح مسلم [٢٨٤٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألا من قتل نفسًا معاهدًا، له ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ رسوله، فقد أَخْفَرَ بِذِمَّةِ الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ریحها ليوحد من مسيرة سبعين خريفًا» (١).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا» (٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "الخريف: الزمان المعروف من فصول السنة: ما بين الصيف والشتاء. ويريد به: أربعين سنة؛ لأن الخريف لا يكون في السنة إلا مرة واحدة، فإذا انقضى أربعون خريفًا فقد مضت أربعون سنة" (٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وفي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيْبٌ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذٍ مِنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَحْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ» والذي نفس أبي هريرة بيده إنَّ قعر جهنم لسبعون خريفًا (٤).

وقد روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «الشِّتَاءُ ربيع المؤمن» (٥).

(١) أخرجه ابن ماجه [٢٦٨٧]، والترمذي [١٤٠٣]، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا:

الحاكم [٢٥٨١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد [١٤٤٧٦]، وعبد بن حميد [١١١٧]، والترمذي [٢٣٥٥]، وقال: "حديث حسن".

(٣) انظر: مادة: (خرف) في (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٢/٢٤-٢٥).

(٤) صحيح مسلم [١٩٥].

(٥) أخرجه أحمد [١١٧١٦]، وأبو يعلى [١٠٦١]، وابن عدي [٦٤٧]، وقال: "قال أحمد: أحاديث دراج عن

أبي الهيثم عن أبي سعيد فيها ضعف.. الخ" كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٣٢٥/٨)، والشهاب القضاعي

[١٤١]، والديلمي [٣٦٧٢]. والبيهقي في (الكبرى) [٨٤٥٦]، وزاد: «قَصُرَ نَهَاؤُهُ فَصَامَ، وطال ليْلُهُ

فَقَامَ» قال الهيثمي (٢٠٠/٣): "رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن". وقال ابن الجوزي في (العلل

المتناهية) [٥٠١]، وقال: "قال الدارقطني: تفرد به عمرو عن دراج. قال أحمد: أحاديث دراج منكرة".

قال السخاوي: "لكن قد وثقه ابن معين وابن حبان، وقال ابن شاهين في ثقاته: ما كان من حديثه عن =



فالشَّتاء ربيع المؤمن يرتع فيه في بساتين العبادات، ويسرح في ميادين الطَّاعات والقربات؛ لأنَّ ليله طويل لقيام الليل، ونهاره قصير من أجل الصيام. والربيع هو محراب المؤمن لعبادة الله عَزَّجَلَّ، والتدبر والتأمل.

وقد كان السَّلف يفرحون بقدوم فصل الشَّتاء؛ لقصر نهاره للصَّائم؛ لما فيه من فرصٍ للطَّاعة والعبادة: بليله الطَّويل الذي يجعل للمؤمن فسحةً لقيامه، ونهاره القصير البارد الذي يرغَّب المؤمن في صيامه، فهو ربيع المؤمن، وغنيمته الباردة. و(الغنيمة الباردة)، وهي التي يتحصَّل عليها الجيش من غير قتالٍ وتعبٍ.

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشَّتاء ربيع المؤمن»؛ لأنَّه يرتع فيه في روضات الطَّاعات، ويسرح في ميادين العبادات، وينزه القلب في رياض الأعمال، فالمؤمن فيه في سعة عيش من أنواع طاعة ربه جَلَّ وَعَلَا، فلا الصوم يجهدُه، ولا الليل يضيق عن نومه وقيامه كالماشية تربع في زهر رياض الربيع. قال العسكري: إنَّما قال الشَّتاء ربيع المؤمن؛ لأنَّ أحمد الفصول عند العرب فصل الربيع؛ لأنَّ فيه الخصب ووجود المياه والزرع؛ ولهذا كانوا يقولون للرجل الجواد: هو ربيع اليتامى، فيقيمونه مقام الخصب والخير كثير الوجود في الربيع" (١).

وفي فصل الشَّتاء يستذكر المؤمن نِعَمَ الله عَزَّجَلَّ الكثيرة، والتي منها: المسكَنُ والملبَّسُ، وقد امتَنَّ اللهُ عَزَّجَلَّ على عباده فقال: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا

=أبي الهيثم عن أبي سعيد، فليس به بأس. قال: وعليه مشى شيخني في تقريبه حيث قال: إنَّه صدوق في حديثه عن أبي الهيثم، ضعيف، يعني في غيره، وعكس أبو داود فقال: أحاديثه مستقيمة، إلا ما كان عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وعلى كل حال فهذا الحديث شواهد.. الخ" المقاصد الحسنة (٦/٣٧٨-٣٧٩).
والحديث يروى من طرق لا تخلو من ضعف. ويروى عند البيهقي موقوفاً.

(١) فيض القدير (٤/١٧٢).



تَأْكُلُونَ ﴿٨٠﴾ [النحل: ٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا إِلَى حِينٍ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٠-٨١].

وهذا التذکر يحرض المؤمن على النظر إلى حال الضعفاء والمساكين ممن لا مأوى لهم، ولا لباس، فيتفقد أحوالهم، ويكون عوناً لهم.

وشدة البرد في الشتاء من المذكرات بما أعده الله عز وجل للكافرين والعصاة في جهنم، كما جاء في الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين؛ نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الرمهرير»^(١).

ومن الأعمال الفاضلة في فصل الشتاء: إسباغ الوضوء وإتمامه في شدة البرد وعدم التساهل في ذلك؛ لما فيه من الأجر العظيم، والفضل الكبير؛ كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»^(٢). وأما الربيع فقد جاء ذكره متمثلاً به في رواية: عائشة رضي الله عنها: أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر رضي الله عنه يقضي:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ رَيْعُ الْيَتَامَى عَصَمَةٌ لِلْأَرْمَلِ

(١) صحيح البخاري [٥٣٦، ٥٣٧، ٣٢٦٠]، مسلم [٦١٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٥١].

فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذاك والله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وفي (صحيح البخاري): عن عبد الله بن دينار، عن أبيه، قال: سمعت ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يتمثل بشعر أبي طالب:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

وقال عمر بن حمزة، حدثنا سالم، عن أبيه، ربما ذكرت قول الشاعر، وأنا أنظر إلى وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُسْتَسْقَى، فما يَنْزِلُ حَتَّى يَجِيشَ كُلُّ مِيزَابٍ:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

وهو قول أبي طالب^(٢).

وكما جاء ذكر الربيع متمثلاً به فيما رواه: عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِبْعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»، قال: فقليل: يا رسول الله، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فقال: «بلى، ينبغي لمن سمعها أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^(٣).

(١) أخرجه أحمد [٢٦]، واللفظ له، والبخاري [٥٨] وحسنه، والدينوري في (المجالسة) [٥٧٤]، وابن الأعرابي

[١٠٢٢]، قال الهيثمي (٢/٢٧٢): "رواه أحمد والبخاري، ورجاله ثقات" وفي إسناده: علي بن زيد.

(٢) صحيح البخاري [١٠٠٨، ١٠٠٩]، (ثمالة اليتامى): مطعمهم وقائم بأمرهم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٢٩٣١٨]، وأحمد [٣٧١٢]، واللفظ له، والبخاري [١٩٩٤]، وأبو يعلى

[٥٢٩٧]، وابن حبان [٩٧٢]، والطبراني [١٠٣٥٢]، والحاكم [١٨٧٧]، وقال: "صحيح على شرط

مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه". قال الهيثمي

(١٠/١٣٦): "رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان".



قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: "جعله ربيعًا له؛ لأن الإنسان يرتاح قلبه في الربيع من الأزمان، ويميل إليه" (١).

قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "كما أن الربيع زمان إظهار آثار رحمة الله عَزَّجَلَّ، وإحياء الأرض بعد موتها، كذلك القرآن يظهر منه تباشير لطف الله عَزَّجَلَّ من الإيمان والمعارف، وتزول به ظلمات الكفر والجهالة والهموم" (٢).

وقال القاري رَحِمَهُ اللهُ: "كما أن الربيع سبب ظهور آثار رحمة الله عَزَّجَلَّ، وإحياء الأرض بعد موتها، كذلك القرآن سبب ظهور تأثير لطف الله عَزَّجَلَّ من الإيمان والمعارف، وزوال ظلمات الكفر والجهل والهمم" (٣).

وكان مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن، إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض (٤).



(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ربيع) (١٨٨/٢).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٩١٠/٦).

(٣) مرقاة المفاتيح (١٧٠١/٤).

(٤) انظر: الزهد، لأحمد بن حنبل (٢٥٨/١)، حلية الأولياء (٣٥٨/٢)، مختصر قيام الليل، لمحمد بن نصر

المروزي (ص: ١٧٥)، إحياء علوم الدين (٢٨٥/١)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني

(ص: ٩٣٤)، التبصرة، لابن الجوزي (٢٦٨/٢)، صفة الصفوة (١٦٢/٢).

رابعاً: أيام الأسبوع:

الأسبوع هو وحدة زمنية أطول من اليوم وأقصر من الشهر.
 وأيام الأسبوع هي: (السبت، والأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥].
 ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ
 وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧].

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤].
 ﴿وَسَأَلُهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ
 يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَاعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣].
 ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ١٢٤].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].
 أما السبت فقليل هو: الراحة. وقيل: هو برهة من الدهر. وقيل: حلق الرأس،
 وَضَرْبُ الْعُنُقِ. ومنه سمي يوم السبت، لانقطاع الأيام عنده. والجمع: أسبُتٌ وسُبُوتٌ.
 والسبت: قيام اليهود بأمر سببتها. قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. وأسببت
 اليهود، أي: دخلت في السبت. والمُسبِت: الذي لا يتحرك، وقد أسبِت. والسبات: النوم، وأصله: الراحة. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا: ٩].. (١).

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سبت) (٢٥٠/١).

قال في (العين): "والسُّبَاتُ: النوم الغالب الكثير، والمريضُ يَسُبُّتُ سُبَّتًا فهو مسبوت. والسُّبَاتُ من النوم: شِبُه غَشِيَةٍ. وَسَبَّتَ رَأْسَهُ: إِذَا جَزَّهُ مُسْتَأْصَلًا. وَالسَّبْتُ بُرْهَةٌ مِنَ الدَّهْرِ"^(١).

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾^(٢)، أي: ليس بموت، رجل مسبوت فيه روح"^(٣).

وقال الزَّجَّاجُ رَحِمَهُ اللَّهُ: "السُّبَاتُ: أَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالرُّوحُ فِي بَدَنِهِ، أَي: جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ رَاحَةً لَكُمْ"^(٣).

قال أبو بكر بن الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ: "السبت، معناه في كلام العرب: القطع، يقال: قد سَبَّتَ رَأْسَهُ: إِذَا حَلَقَهُ، وَقَطَعَ الشَّعْرَ مِنْهُ. وَيُقَالُ: نَعْلٌ سَبْتِيَّةٌ: إِذَا كَانَتْ مَدْبُوعَةً بِالْقَرْظِ، مَحْلُوقَةُ الشَّعْرِ.

فسمي السبت سبتًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ ابْتَدَأَ الْخَلْقَ فِيهِ، وَقَطَعَ فِيهِ بَعْضَ خَلْقِ الْأَرْضِ. أَوْ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّوَعَلَا أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيهِ بِقَطْعِ الْأَعْمَالِ وَتَرْكِهَا. وَقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾^(٢)، فمعناه: قَطْعًا لأَعْمَالِكُمْ.

قال: وأخطأ من قال: سمي السبت؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَمَرَ فِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالِاسْتِرَاحَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ. وَخَلَقَ هُوَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، آخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَاسْتِرَاحَ يَوْمُ السَّبْتِ.

وهذا خطأ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: (سبت) بمعنى: (استراح)، وإنما المعروف فيه: قطع، ولا يوصف الله عَزَّجَلَّ بِالِاسْتِرَاحَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتْعَبُ فَيَسْتَرِيحُ، وَلَا يَشْتَغِلُ فَيَنْتَقِلُ

(١) العين، مادة: (سبت) (٢٣٨/٧-٢٣٩).

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٢/٢).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٢٧٢/٥).

من الشغل إلى الراحة. والراحة لا تكون إلا بعد تعب أو شغل، وكلاهما زائل عن الله عزَّ ذكره.

واتفق أهل العلم على أن الله عزَّجَلَّ ابتداء الخلق يوم السبت، ولم يخلق يوم الجمعة سماء ولا أرضاً. وقالت اليهود: ابتداء الله عزَّجَلَّ الخلق يوم الأحد، وفرغ يوم الجمعة، واستراح يوم السبت.

فقول هؤلاء خارج عن اللغة، وموافق لتأويل اليهود، ومباين لقول المسلمين^(١). من المقرر عند أهل الإيمان الراسخ، أن المولى جَلَّوَعَلَا قادر على كل شيء، وقدرته جَلَّوَعَلَا ليس لها حدود، فله جَلَّوَعَلَا مطلق القدرة، وكمال الإرادة، ومنتهى الأمر والقضاء، وإذا أراد شيئاً كان كما أراد، وفي الوقت الذي يريد، وبالكيفية التي أرادها جَلَّوَعَلَا. وقد تواترت النصوص القطعية في الكتاب والسنة على تقرير هذا الأمر، وبيانه بياناً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، وما من أمر يفعله الله عزَّجَلَّ إلا وله فيه بالغ الحكمة، وقد تكون هذه الحكمة ظاهرة للعباد أو لبعضهم، وقد تخفى عليهم؛ لقصور علمهم وضعفهم.

والجهل بتلك الحكمة فلا يعني نفيها، أو الاعتراض من جاهل على أفعال الله عزَّجَلَّ، وقد قال الله عزَّجَلَّ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وقد قيل في الحكمة من خلق السماوات والأرض في ستة أيام: إن الله عزَّجَلَّ أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور، ولا سيما أنه يكثر عند العباد الزلل بسبب التعجل.

وقيل: إنه جَلَّوَعَلَا أراد أن يوقع في كلِّ يوم أمراً تستعظمه الملائكة، ومن يشاهده.

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري (١٣٧/٢)، وانظر: تهذيب اللغة (١٢/٢٦٨-٢٦٩).

وقيل: إن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد جَلَّ وَعَلَا إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].
وقيل غير ذلك.

وقد قيل: إن الأرض قد عمرها قبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الجن، ومنهم إبليس (١).
وقد قال غير واحد من أهل العلم: إن أول أيام الأسبوع السبت.
وجاء في (الروض الأنف) أنه لم يقل بأن أوله الأحد إلا ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ، وتعقبه فيه (٢).

وقال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ اللَّهُ: "اختلف المسلمون في اليوم الذي ابتدئ فيه الخلق، وفي أول الأيام فقال قوم: أولها الأحد؛ وقال قوم: أولها السبت، وقال قوم: أول الأيام: الأحد، وأول الجمعة: السبت، وهذا أحسنها" (٣). ودل على قوله بما يراه أقرب إلى الصواب.

وذكر القلقشندي رَحِمَهُ اللَّهُ أن اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أن أول أيام الأسبوع، وابتداء الخلق: الأحد.

المذهب الثاني: أن أول أيام الأسبوع وابتداء الخلق: السبت.

المذهب الثالث: أن أول أيام الأسبوع: الأحد (٤).

وقد قالوا: سمي الاثنين؛ لأنه ثاني الأسبوع، والخميس؛ لأنه خامسه، كذا نقله الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ عن أهل اللغة. قالوا: وهو مبني على أن أول الأسبوع الأحد، وقد

(١) انظر: فيض القدير (٤٤٧/٣).

(٢) انظر: الروض الأنف، للسهيلى (٦٠-٥٩/٤).

(٣) عمدة الكتاب، لأبي جعفر النحاس (ص: ٨٧-٨٨).

(٤) انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (٣٩٢/٢).

نقله ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ عن الأكثرين، لكن قال السهيلي رَحِمَهُ اللهُ: الصواب أن أول الأسبوع هو السبت، وهو قول العلماء كافة^(١). وفي المسألة خلاف مطول ينظر في مظانه.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "سمي الاثنين؛ لأنه ثاني الأيام. وقال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ اللهُ: سببه أنه لا يثنى ولا يجمع، بل يقال مضت أيام الاثنين. قال: وقد حكى البصريون اليوم: الأثنى، والجمع: الثني. وذكر الفراء رَحِمَهُ اللهُ أن جمعه: الأثنان والأثان. وفي كتاب سيبويه رَحِمَهُ اللهُ: اليوم: الثَّني - مقصوراً -، فعلى هذا جمعه: الأثناء^(٢).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: لا يُثَنَّى ولا يجمع؛ لأنه مثنى، فإن أحببت أن تجمععه كأنه صفة للواحد قلت: أثنانين. وقولهم: هذا ثاني اثنَيْنِ، أي: هو أحد الاثنين. ويوم الخميس؛ لأنه خامس الأسبوع. قال النحاس رَحِمَهُ اللهُ: جمعه: خمسة وخمس وخمسان، كرجيف ورغف ورغفان، وأخمساء كأنصباء، وأخامس حكاه الفراء رَحِمَهُ اللهُ"^(٣).

(١) انظر: مغني المحتاج، للخطيب الشربيني (١٨٢/٢)، تحفة المحتاج (٤٥٤/٣)، أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٤٣٢/١)، إعانة الطالبين (٣٠٦/٢)، حاشيتا قليوبي وعميرة (٩٢/٢)، مرقاة المفاتيح (١٤٢١/٤)، فيض القدير (٤٤٧/٣)، (١٦٨/٥).

(٢) انظر: الكتاب، لسيبويه (٣٩٣/٣).

(٣) تحرير ألفاظ التنبيه، للإمام النووي (ص: ١٢٩-١٣٠)، بتصرف يسير، وانظر: المجموع شرح المذهب (٣٨٥/٦-٣٨٦)، الصحاح، للجوهري، مادة: (ثني) (٢٢٩٥/٦)، الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقطرب (ص: ٣٥)، تهذيب اللغة (٣٤٩/١٥).



ما جاء في الخميس والاثنين :

سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت -أو أنزل علي فيه-» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «تُعْرَضُ لأعمال في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله عَزَّجَلَّ في ذلك اليوم، لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اركبوا هذين حتى يصطليحا، اركبوا هذين حتى يصطليحا» (٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحرى صوم الاثنين والخميس» (٣).

تخصيص يوم الجمعة من بين أيام الأسبوع بالفضل :

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: ٩].

فاضل الحق عَزَّجَلَّ بين الأزمنة كما فاضل بين الأمكنة، وكما فاضل بين الخلائق. فمن الأزمنة الفاضلة من أيام الأسبوع: يوم الجمعة، ومن أيام السنة: يوم النحر، ويوم عرفة، ومن ليالي السنة: ليلة القدر، ومن شهور السنة: شهر رمضان.

(١) صحيح مسلم [١١٦٢].

(٢) صحيح مسلم [٢٥٦٥].

(٣) أخرجه أحمد [٢٤٥٠٩]، والترمذي [٧٤٥]، وقال: "وفي الباب: عن حفصة، وأبي قتادة، وأبي هريرة، وأسامة بن زيد. حديث عائشة حديث حسن غريب من هذا الوجه"، كما أخرج الحديث أبو نعيم في (الحلية) (١٢٣/٧).



قال المقرئ رحمه الله في (تذكرته): "يستجاب الدعاء في أوقات، وذكر منها: "وفي ساعة من يوم الجمعة.."^(١).

وذكر ابن القيم رحمه الله أن أوقات الإجابة الستة هي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر^(٢).

وقد نصَّ العلماء على أن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها؛ لشرف الزمان، أو شرف المكان، أو بهما معاً، وكذا المعصية يتضاعف وزرها في الأماكن المفضلة، كمكة -شرفها الله عزَّ وجلَّ-، وفي الأزمنة المفضلة، كرمضان وغيره.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: "إنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أحبَّ عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسوء الأعمال؛ ليكون ذلك أوجع في عقابه، وأشدَّ لمقته؛ لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت"^(٣). وقال ابن رجب رحمه الله: "العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره"^(٤).

وقال ابن مفلح رحمه الله في (الآداب الشرعية): "زيادة الوزر كزيادة الأجر في الأزمنة والأمكنة المعظمة"^(٥). قال الشيخ تقي الدين رحمه الله: "المعاصي في الأيام المعظمة والأمكنة المعظمة تغلظ معصيتها وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان"^(٦).

(١) انظر: فيض القدير (٣/٣٠١).

(٢) انظر: الجواب الكافي (ص: ١٢).

(٣) إحياء علوم الدين (١/١٨٨).

(٤) لطائف المعارف (ص: ٢٦١).

(٥) الآداب الشرعية (٣/٤٣٠).

(٦) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/٤١٢).

ولذلك قال بعض الفقهاء في الإعلان عن النكاح -مثلاً-: يراعى فيه المكان والزمان الفاضل. قال ابن الهمام رَحِمَهُ اللهُ: "يستحب مباشرة عقد النكاح في المسجد؛ لكونه عبادة وكونه في يوم الجمعة" (١).

وقد ذهب الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أنه يندب عقد النكاح يوم الجمعة. قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: "ويستحب عقد النكاح يوم الجمعة؛ لأن جماعة من السلف استحبوا ذلك؛ منهم ضمرة بن حبيب، وراشد بن سعد، وحبيب بن عتبة رَحِمَهُمُ اللهُ؛ ولأنه يوم شريف، ويوم عيد، فيه خلق الله عَزَّجَلَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَام" (٢).

والبركة في النكاح مطلوبة، فاستحب له أشرف الأيام طلباً للبركة" (٣).

وقد يجتمع في يوم واحد عيدان، كما إذا اجتمع يوم الجمعة مع يوم عرفة، أو مع يوم النحر، فيزداد ذلك اليوم حرمة وفضلاً؛ لاجتماع عيدين فيه.

وقد اجتمع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجته يوم عرفة، فكان يوم الجمعة، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

(١) مرقاة المفاتيح (٢٠٧٢/٥)، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي (٩٥/٢)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم المصري (٨٦/٣).

(٢) المغني، لابن قدامة (٨٤/٧)، الشرح الكبير على متن المقنع (٣٦٧/٧)، والحديث في (صحيح مسلم) [٨٥٤]، ونصه: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» وقد تقدم.

(٣) دقائق أولي النهى، لمنصور بن يونس البهوتي (٦٣٠/٢)، كشاف القناع (٢٠/٥)، كشف المخدرات (٥٨١/٢)، مطالب أولي النهى (٢٦/٥).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»^(١).

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي الباب: عن أبي لبابة، وسلمان، وأبي ذر، وسعد بن عباد، وأوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ"^(٢).

وعن أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبُضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ؛ فَإِنْ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ تَعْرُضُ صَلَاتَنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أُرْمَتْ - يَقُولُونَ: بَلَّيْتُ -؟ فَقَالَ: «إِنْ اللَّهُ عَزَّجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٣).

ويوم الجمعة هو خيرُ يومٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أَهْبَطَ مِنْهَا، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَصْلِي فِيَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ فَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِتِلْكَ السَّاعَةِ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِهَا وَلَا

(١) صحيح مسلم [٨٥٤].

(٢) سنن الترمذي [٤٨٨].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٦٩٧]، وأحمد [١٦١٦٢]، والدارمي [١٦١٣]، وابن ماجه [١٠٨٥]، وأبو داود

[١٠٤٧]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٥٧٧] والنسائي [١٣٧٤]، وابن خزيمة [١٧٣٣]،

وابن حبان [٩١٠]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٩]، و(الأوسط) [٤٧٨٠]، والحاكم [١٠٢٩]، وقال:

"صحيح على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٥٩٩٣] وغيره.

تضمن بها علي، قال: هي بعد العصر إلى أن تغرب الشمس، قلت: فكيف تكون بعد العصر وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي»؟ وتلك الساعة لا يصلي فيها، فقال عبد الله بن سلام: أليس قد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من جلس مجلسا ينتظر الصلاة فهو في صلاة»؟، قلت: بلى، قال: فهو ذاك، وفي الحديث قصة طويلة. ومعنى قوله «أخبرني بها ولا تضمن بها علي»: لا تبخل بها علي، و(الضن): البخل، و(الظنين): المتهم^(١).

ومن مكفرات الذنوب: المحافظة على الصوات الخمس، وغسل الجمعة، وصلاة الجمعة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغَشَّ الْكِبَائِرُ»^(٢). وفي لفظ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»^(٣).

وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النِّجاة).

وعن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَدْرِي مَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ؟»، قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم، قال: «لكني أدري ما يوم الجمعة،

(١) أخرجه مالك [٢٤١]، والشافعي في (مسنده) [٣٧٨]، والطيالسي [٢٤٨٣]، وأحمد [١٠٣٠٣]، وأبو داود [١٠٤٦]، والترمذي [٤٩١]، واللفظ له، وقال: "حديث صحيح"، كما أخرجه النسائي [١٤٣٠]، وأبو يعلى [٥٩٢٥]، وابن حبان [٢٧٧٢]، والحاكم [١٠٣٠]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً: البيهقي [٦٠٠٢]، والضياء [٣٩٥].

(٢) صحيح مسلم [٢٣٣].

(٣) صحيح مسلم [٢٣٣]، وقد تقدم.

لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة، فينصت حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة»^(١).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: "حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحديث بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كلها عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما من الخطايا والذنوب ما اجتنبت الكبائر» أو «ما لم تغش الكبائر». وفي حديث سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما لم تصب المقتلة»، «وما اجتنبت المقتلة» على حسب اختلاف ألفاظ المحدثين. وهذه الآثار كلها بأسانيدھا في (التمهيد)"^(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "الْجُمُعَةُ - بضم الميم وإسكانها وفتحها - حكاها الفراء والواحدي رَحِمَهُمَا اللهُ، سميت جمعة؛ لاجتماع النَّاسِ فيها. وكان يقال ليوم الجمعة في الجاهليَّة: العُرُوبَةُ، وجمعها: جمعات، وجمع" ^(٣).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٧٦٤٣]، وأحمد [٢٣٧١٨]، واللفظ له، والبرز [٢٥٢٦]، والنسائي في (الكبرى) [١٦٧٧]، وابن خزيمة [١٧٣٢]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٨٢٨]، والطبراني في (الكبير) [٦٠٨٩]، والحاكم [١٠٢٨]، وقال: "صحيح الإسناد، واحتج الشيخان بجميع رواته غير قرئ، سمعت أبا علي القارئ، يقول: أردت أن أجمع مسانيد قرئ الضبي؛ فإنه من زهاد التابعين، فلم يسند تمام العشرة" ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٧٢٤]. قال الهيثمي (١٧٤/٢): "روى النسائي بعضه. رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده حسن. وعن سلمان قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا سلمان ما يوم الجمعة؟ قلت: الله ورسوله أعلم، ثلاثاً قال سلمان: يوم الجمعة فيه جمع أبوك أو أبويك». فذكر نحوه، ورجاله ثقات".

(٢) الاستذكار (٢٠٢/١).

(٣) تحرير ألفاظ التنبيه، للنووي (ص: ٨٤). انظر: قرأ الجمهور: ﴿الْجُمُعَةُ﴾ [الجمعة: ٩] بضم الجيم والميم، وقرأ الأعمش: ﴿الْجُمُعَةُ﴾ بضم الجيم وإسكان الميم. انظر: معاني القرآن، للفراء (١٥٦/٣)، تفسير الطبري (٣٨٤/٢٣)، التفسير البسيط، للواحدي (٤٥٣/٢١ - ٤٥٤). قال الأزهري: "الجمعة تنقل، والأصل =

وقال في (شرح مسلم): "ووجهوا الفتح بأنها تجمع الناس، ويكثر فيها كما يقال: همزة، ولمزة؛ لكثرة الهمز واللمز، ونحو ذلك.." (١).

وقال الليث رَحِمَهُ اللهُ: "الجمعة يوم حُصَّ به؛ لاجتماع الناس في ذلك اليوم" (٢).
وقيل: أول من سماها جمعة: كعب بن لؤي.

وقيل: إنما سمي يوم الجمعة؛ لأن الله عَزَّجَلَّ جمع فيه خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال قوم: إنما سميت الجمعة في الإسلام؛ وذلك لاجتماعهم في المسجد للصلاة.

وقيل: إنما سمي يوم الجمعة؛ لأن قُرَيْشًا كانت تجتمع إلى قصي في دار الندوة.

قال الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "وقولهم: يوم الجمعة، لاجتماع الناس للصلاة، قال جَلَّ وَعَلَا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، ومسجد الجامع، أي: الأمر الجامع، أو الوقت الجامع، وليس الجامع وصفا للمسجد، وجمعوا: شهدوا الجمعة، أو الجامع أو الجماعة" (٣).

والمعول عليه في الاصطلاح الشرعي هو أنها سميت جمعة؛ لاجتماع الناس فيه، اجتماعاً واجباً في الشرع على كل مسلم ذكر بالغ مكلف غير معذور، على وفق ما قرر في الشريعة، ولأنه يوم يجتمع فيه المسلمون في الغالب مع الأرحام وغيرهم؛ لأن يوم الجمعة هو يوم عيد جعله الله عَزَّجَلَّ للمسلمين، يتبادلون فيه أواصر المحبة والإخاء.

=فيها التخفيف: جُمُعَة. فمن ثقل أتبع الضمة، ومن خفف فعلى الأصل. والقراء قرؤوها بالثقل "تهديب اللغة (٢٥٤/١). والجمعة: التي تجمع الناس كثيراً، كما قالوا: رجل لُغْنَة: يكثر لعن الناس، ورجل ضحكة: يكثر الضحك.

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٠/٦).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٢٥٤/١)، الصحاح، للجوهري، مادة: (جمع) (١١٩٨/٣)، التفسير البسيط (٤٥٣/٢١).

(٣) المفردات، مادة: (جمع) (ص: ٢٠٢).

فلا ريب أن يوم الجمعة هو سيد أيام الأسبوع، وأفضلها عند الله عَزَّجَلَّ، وهو اليوم الذي أمرت الأمم بتعظيمه فضلوها عنه، وهدانا الله عَزَّجَلَّ إليه، وله الحمد والمنة، ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعي للمسلمين، كما جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذَا يَوْمٌ عِيدٌ، جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ، وَإِنْ كَانَ طِيبٌ فَلْيَمِسْ مِنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَاكِ»^(١).

وأخرج عبد الرزاق في (مصنفه)، وعبد بن حميد في (تفسيره)، وابن المنذر: عن ابن سيرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَمَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَقْدُمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ الْجُمُعَةُ، قَالَتِ الْأَنْصَارُ: لِلْيَهُودِ يَوْمٌ يَجْمَعُونَ فِيهِ كُلَّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَلِلنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَهَلُمَّ فَلْنَجْعَلْ يَوْمًا نَجْتَمِعُ فِيهِ، فَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ وَنَشَكَرَهُ، فَجَعَلُوهُ يَوْمَ الْعُرُوبَةِ، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلى بهم يومئذ ركعتين، وذكرهم، فسموا الجمعة حين اجتمعوا إليه، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي ذَلِكَ بَعْدَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] الآية^(٢).

وفي الحديث: عن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن رُبَيْعِ بْنِ جَرَّاشٍ، عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالوا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصْلَ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بَنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ

(١) أخرجه ابن ماجه [١٠٩٨]، والطبراني في (الأوسط) [٧٣٥٥]. قال البوصيري في (الزوائد) (١٣٢/١): "في إسناده: صالح بن أبي الأخضر لينه الجمهور وباقي الرجال ثقات". قال الحافظ المنذري (٢٨٦/١): "رواه ابن ماجه بإسناد حسن".

(٢) انظر: فتح الباري، لابن رجب (٦٩/٨)، روح المعاني (٢٩٤/١٤)، التلخيص الحبير، لابن حجر (١١٥/٢).

الجمعة، فجعل الجمعة، والسبت، والأحد، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخِرُونَ من أهل الدنيا، والأَوَّلُونَ يوم القيامة، الْمَقْضِيُّ لهم قبل الخلائق»^(١).

قال الإمام المازري رَحِمَهُ اللهُ: "فيه دليلٌ على فساد تعلُّق اليهود والنصارى بالقياس في هذا الموضوع؛ لأن اليهود عَظَّمَتِ السبتَ لما كان فيه فراغُ الخلق، وظنَّنت ذلك فضيلةً تُوجِبُ تعظيمَ اليوم، وعَظَّمَتِ النصارى الأحد؛ لما كان فيه ابتداءُ الخلق، وأتَّبَعَ المسلمون الوحيَ والشرعَ الواردَ بتعظيم يوم الجمعة؛ فعَظَّمُوهُ"^(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: يوم الجمعة هو "اليوم الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة، وله على سائر الأيام منزلة بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة، فالله جَلَّوَعَلَا جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرَّغون فيه للعبادة، وَيَتَحَلَّلُونَ فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان؛ ولهذا من صَحَّحَ له يوم جمعه وسَلِّمَ سلمت له سائر جمعه، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له، صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر"^(٣).

وعن أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من اغتسل يوم الجمعة وغسل، وبَكَرَ وَابْتَكَرَ، ودنا واستمع وأنصت، كان له بكل خطوة يخطوها

(١) صحيح مسلم [٨٥٦].

(٢) الْمُعْلَمُ بفوائد مسلم (٤٧١/١).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣٨٦/١).

أجر سنة صيامها وقيامها»^(١)، قالوا: بكر: أسرع. وابتكر: أدرك الخطبة من أولها. وهو من الباكورة^(٢).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله «بَكَّرَ وَابْتَكَّرَ» زعم بعضهم أن معنى «بَكَّرَ»: أدرك باكورة الخطبة، وهي أولها، ومعنى: «وَابْتَكَّرَ» قدم في الوقت.

وقال ابن الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ معنى: «بَكَّرَ»: تصدق قبل خروجه.

وتأول في ذلك ما روي في الحديث من قوله: «باكروا بالصدقة؛ فإن البلاء لا يتخطاها»^(٣).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح، فكأنما قَرَّبَ بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قَرَّبَ بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قَرَّبَ كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة

(١) رواه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث: أوس بن أوس، وحسنه الترمذي. المغني عن حمل الأسفار (ص: ٢١٣). قال الترمذي [٤٩٦]: وفي الباب: عن أبي بكر، وعمران بن حصين، وسلمان، وأبي ذر، وأبي سعيد، وابن عمر، وأبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وحديث: أوس بن أوس حديث حسن.

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (بكر) (٥٩٦/٢-٥٩٧).

(٣) الحديث مروي عن عليٍّ وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. حديث علي: أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٥٦٤٣]، قال الهيثمي (١١٠/٣): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه: عيسى بن عبد الله بن محمد، وهو ضعيف". حديث أنس: أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٧٨٣١]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٨٢]، والديلمي [٢٠٧٩]. وقد أورده ابن الجوزي في (الموضوعات) (١٥٣/٢). وأورده كذلك القاري في (الموضوعات الكبرى) (ص: ٨٧). قال ابن الجوزي: هو موضوع. وقال ابن حجر العسقلاني: لكن لا يتبين لي أنه كذلك. انظر: المقاصد الحسنة (ص: ٢٣٢)، الأسرار المرفوعة (ص: ١٤٦-١٤٧)، وفي (الفوائد المجموعة) (ص: ٦١-٦٢): "رواه ابن عدي عن أنس مرفوعاً، وفي إسناده: وضاع ومجهول وكذاب، وأخرجه الطبراني من حديث: عليٍّ بإسناد آخر، وفيه ضعف"، وانظر: اللآلئ المصنوعة (٦١/٢-٦٢)، تنزيه الشريعة المرفوعة (١٣١/٢).

الرابعة فكأنما قَرَّبَ دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قَرَّبَ بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» ^(١).

وقوله: «راح إلى الجمعة» معناه: قصدتها، وتوجه إليها مبكرًا قبل الزوال. وإنما تأولناه على هذا المعنى؛ لأنه لا يجوز أن يبقى عليه بعد الزوال من وقت الجمعة خمس ساعات، وهذا جائز في الكلام أن يقال: راح لكذا ولأن يفعل كذا بمعنى: أنه قصد إيقاع فعله وقت الرواح، كما يقال للقاصدين إلى الحج: حجاج ولما يحجوا بعد، وللخارجين إلى الغزو غزاة، ونحو ذلك من الكلام.

وعن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِقَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ رَجُلًا يَصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ بِيَوْمِهِمْ» ^(٢).

فإن قيل: كيف يترك الفرض ويشغل بهم؟ فالجواب أن المقصود: التغليظ والمبالغة دون الحقيقة، على أنه يجوز تركه إلى بدل لمصلحة ضرورة إذا أدى إليه الاجتهاد، ولكن الإحراق إنما يتصور إذا كان تخلفهم جحودًا. كذا في (المراقبة) وغيره ^(٣).

وقد قيل: إنه أراد تحريق بيوت المنافقين لنفاقهم؛ ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم نفاقه.

والمنافق إذا تخلف عن الصلاة مع المسلمين لا يصلي في بيته بالكلية، كما أخبر

الله عَزَّجَلَّ عَنْهُمْ، أَنَّهُمْ ﴿يُرَءَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

(١) صحيح البخاري [٨٨١]، مسلم [٨٥٠].

(٢) صحيح مسلم [٦٥٢].

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح (٣/ ١٠٢٦)، وانظر: كشف المشكل (١/ ٣٣٨).

وهذا التأويل عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره.
ومنها: أنه لم يفعل التحريق، وإنما توعد به.
وقد ذهب قوم من العلماء الى جواز أن يهدد الحاكم رعيته بما لا يفعله بهم..^(١)
وفي الحديث: تنبيه على عظم إثم ترك الجمعة من غير عذر.
وقد ورد أن الموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة من أسباب الوقاية من عذاب البرزخ،
كما روي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من مسلم
يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»^(٢).

(١) انظر: فتح الباري، لابن رجب (٤٥٤/٥).

(٢) أخرجه أحمد [٦٥٨٢]، والترمذي [١٠٧٤]، وقال: "هذا حديث غريب، وليس إسناده بمتصل". قال الحافظ ابن حجر: "وفي إسناده ضعف، وأخرجه أبو يعلى من حديث: أنس نحوه، وإسناده أضعف" فتح الباري (٢٥٣/٣). ومن أهل العلم من حسن الحديث من مجموع طرقه. قال الإمام الزيلعي: "قلت: وصله الطبراني في (معجمه)، فرواه من حديث: ربيعة بن سيف، عن عياض ابن عقبة الفهري، عن عبد الله بن عمرو فذكره، وكذلك رواه أبو يعلى الموصلي في (مسنده)، وله طريق آخر: رواه أحمد وإسحاق بن راهويه في (مسنديهما)، والطبراني في (معجمه) من حديث: بقية، حدثني معاوية بن سعيد التجيبي، سمعت أبا قبيل، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة بقي فتنة القبر» انتهى. وكذلك رواه عبد بن حميد في (مسنده) سواء، والحديث الذي أشار إليه الترمذي رواه: أبو داود والنسائي، في (الجنائز): عن ربيعة بن سيف، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لفاطمة: «لعلك بلغت معهم الكدا» الحديث. وليس لربيعة غير هذين الحديثين، مع أن فيه مقالاً" تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف (٢٠/٤) - (٢١)، وانظر: المقاصد الحسنة، للسخاوي (ص: ٦٧١-٦٧٢)، المغني عن حمل الأسفار (ص: ٢١١)، التذكرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص: ٤٢٢-٤٢٣). قال المناوي: "وصله الطبراني فرواه من حديث: ربيعة بن عياض عن عقبة بن ابن عمرو فذكره، وهكذا أخرجه أبو يعلى، والحكيم الترمذي متصلاً، وخرجه أبو نعيم متصلاً من حديث: جابر. فلو عزاه المؤلف - السيوطي - لهؤلاء كان أجود، ومع ذلك ضعفه المنذري" فيض القدير (٤٩٩/٥).



قال في (المرقاة): "وهذا يدل على أن شرف الزمان له تأثير عظيم، كما أن فضل المكان له أثر جسيم" (١).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "اعلم رحمك الله أن هذا الباب لا يعارض ما تقدم من الأبواب، بل يخصصها، ويبين من لا يسأل في قبره، ولا يفتن فيه، ممن يجري عليه السؤال، ويقاسي تلك الأهوال، وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس، ولا مجال للنظر فيه، وإنما فيه التسليم والانقياد لقول الصادق المرسل إلى العباد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٢).

وقد قيل: إذا قبض الله عَزَّجَلَّ عبداً من عبيده، فوافق قبضه يوم الجمعة كان ذلك دليلاً لسعادته، وحسن مآبه" (٣).

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ اللهُ: "فمن مات يوم الجمعة انكشف الغطاء عما له عند الله عَزَّجَلَّ؛ لأن يوم الجمعة لا تسجر فيه جهنم، وتغلق أبوابها، فإذا قبض الله عَزَّجَلَّ عبداً من عبيده يوم الجمعة كان دليل سعادته، وحسن مآبه عند الله عَزَّجَلَّ، فيوم الجمعة يوم الله عَزَّجَلَّ الذي خلق فيه آدم وذريته، ويومه الذي تقوم فيه الساعة، فيميز بين الأحباب والأعداء، ويومه الذي يدعوهم إلى زيارته في جنات عدن، فلم يكن ليعطي بركة هذا اليوم إلا من كتب له السعادة عنده؛ فلذلك يقيه فتنة القبر، على أن سبب فتنة القبر إنما هو لتمييز المنافق من المؤمن في البرزخ، من قبل أن يلقي الله عَزَّجَلَّ؛ لأن كلا الصنفين صَلَّى عليهما، وفعل بهما سنته في الموتى، من الغسل والتكفين، فامتحننا بالسؤال؛ ليهتك

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٠٢١/٣).

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص: ٤٢٣).

(٣) انظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١٦٢/٤)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور،

للسيوطي (ص: ١٥١)، اللعة في خصائص الجمعة، للسيوطي (ص: ٦١)، مرقاة المفاتيح (١٠٢١/٣)،

فيض القدير (٤٩٩/٥).

المنافق من ستره بقوله: «لا أدري»؛ إذ ستر الله عَزَّوَجَلَّ عليه نفاقه بجرمة ما أظهر من المنطق الجميل، فقال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله..^(١).

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: "ومن تتممة ذلك أن «من مات يوم الجمعة له أجر شهيد»^(٢)، فكان على قاعدة الشهداء في عدم السؤال، فقد ورد النص بأن الشهيد لا يسأل، فكأن الميت يوم الجمعة، أو ليلتها على منواله"^(٣).

وقال اليافعي رَحِمَهُ اللهُ في (روض الرياحين): بلغنا أن الموتى لم يعذبوا ليلة الجمعة تشريعاً لهذا الوقت.

قال: ويحتمل ذلك بعصاة المسلمين دون الكفار"^(٤).

وقد قيل - كما في (بحر الكلام) -: "إن المسلم العاصي يعذب في قبره، ولكن يرفع عنه يوم الجمعة وليلتها، ثم لا يعود إليه إلى يوم القيامة، وإن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة يكون له العذاب ساعة واحدة وضغطة القبر كذلك، ثم ينقطع عنه العذاب ولا يعود إليه إلى يوم القيامة"^(٥).

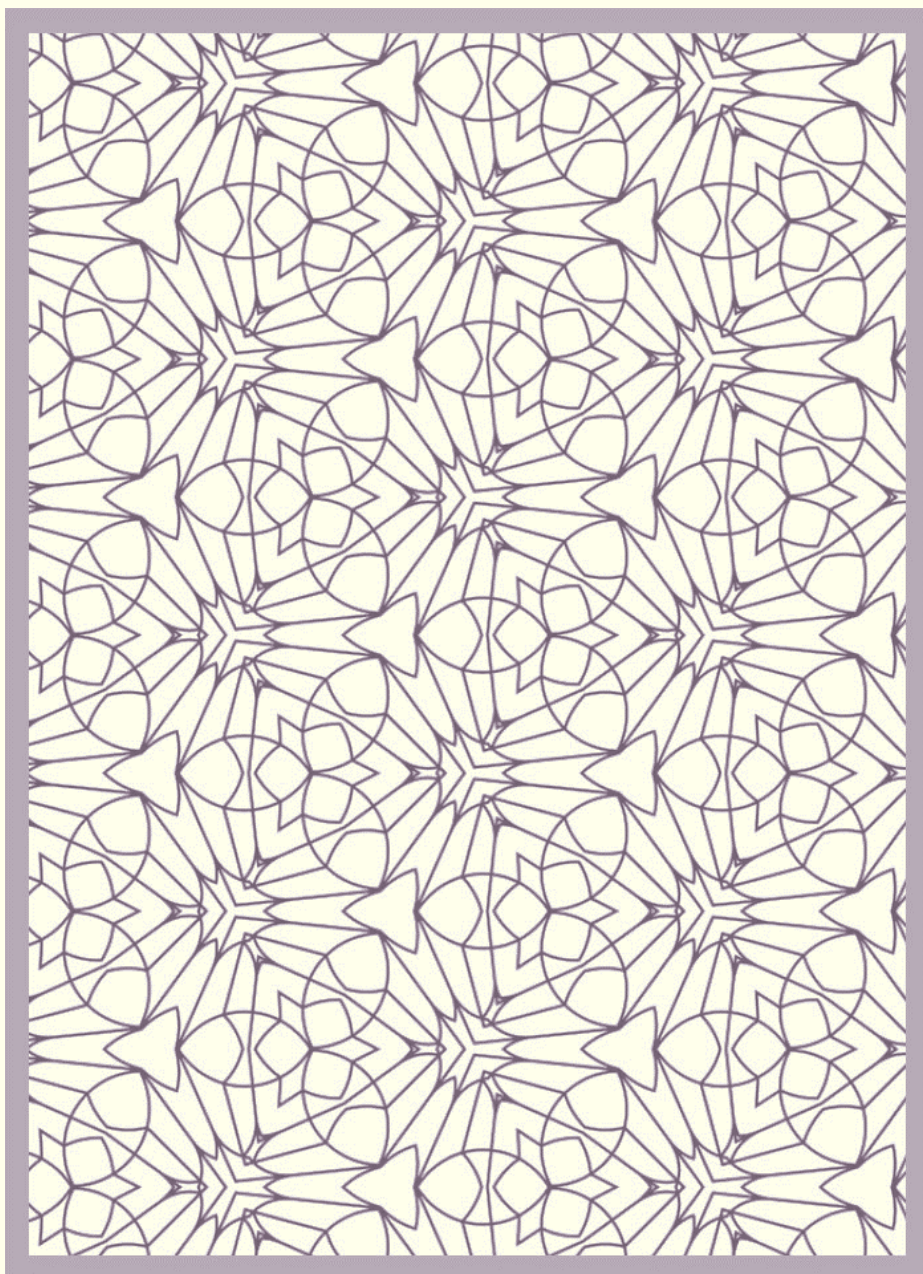
(١) نواذر الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١٦٢/٤).

(٢) ساق السيوطي في ذلك أحاديث، ولكن لا يخلو واحد منها من ضعف. انظر: شرح الصدور (ص: ١٥١ - ١٥٣)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٠٢١/٣). فحديث: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر» رواه الترمذي، وقال: غريب، ولم يذكر الشهادة، ورواه غيره بهذا اللفظ، وزاد بعضهم: وليلة الجمعة. وقد تقدم تخريجه. وينظر التفصيل في (تخريج أحاديث الكشاف)، للزليعي [١٣٤٤/٤-٢١]، وفي (المقاصد الحسنة)، لشمس الدين السخاوي (ص: ٦٧١-٦٧٢).

(٣) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ١٥١)، قوت المغتذي على جامع الترمذي (١/٣٢٤).

(٤) شرح الصدور (ص: ١٨١)، اللعة في خصائص الجمعة، للسيوطي (ص: ٦٢).

(٥) بحر الكلام، لميمون بن محمد النسفي (ص: ٢٥١)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ١٨١).



البحث السادس عشر

دلالة الفعل وأقسامه على الزمن

أولاً: دلالة الفعل على معنى مقترن بحدث وزمن:

الفعل: كلمة دلّت على معنى في نفسها، واقتترنت بزمن وضعاً.

فالفعل يدل على معنى مقترن بحدث وزمن.

ودلالته على الحدث تأتي عن اشتراكه مع مصدره في مادة واحدة، والمعروف أن

المصدر اسم الحدث.

قال ابن جني رَحِمَهُ اللهُ: "المصدر: كل اسم دل على حدث وزمان مجهول، وهو وفعله

من لفظ واحد، والفعل مشتق من المصدر، فإذا ذكرت المصدر مع فعله فضلة فهو

منصوب تقول: قمت قياماً، وقعدت قعوداً" (١).

وقال السهيلي رَحِمَهُ اللهُ: "دلالة الفعل على الحدث بالتضمنين لا بالمطابقة، كنحو

دلالة (البيت) على (السقف)" (٢).

وأما دلالاته على الزمان فقال النحويون: بالبنية.

(١) اللمع في العربية (ص: ٤٨).

(٢) دلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على تمام المعنى، كدلالة (الإنسان) على الحيوان الناطق، ومثل: دلالة (البيت)

على الجدران والسقف والأساس. ودلالة التضمنين هي دلالة اللفظ على جزء معناه، كدلالة (الإنسان)

على الحيوان فقط، أو الناطق فقط. فإننا أردنا من البيت السقف وحده أو الحائط كانت الدلالة دلالة

تضمنين.

وهو لا يدل على الزمان البتّة، وإنما يدل اختلاف أبنيته على اختلاف أحوال الحدث من الماضي والاستقبال والحال... " (١).

ويتحصل مما تقدم: أن الفعل له دالتان:

١ - الدلالة الزمنية.

٢ - دلالة على المعنى الذي يتضمنه.

ثانيًا: أقسام الفعل ودلالة كل منها على الزمن:

الفعل ثلاثة أقسام: ماض ومضارع وأمر.

القسم الأول: الماضي :

فالماضي: ما دلّ وضعًا على حدث وزمان انقضى.

وفي (معاني النحو): "يستعمل الفعل الماضي للدلالة على أزمنة متعددة أشهرها:

١ - الماضي المطلق: وهو الزمن الذي مضى قبل زمن التكلم - قريبًا كان أو

بعيدًا -.

فمن القريب: قوله جلّ وعلا: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَلَّنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿أَلَّنَ جِئْتَ

بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، ونحو قولك: (استيقظ الطفل).

ومن البعيد: قوله جلّ وعلا: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

(١) نتائج الفكر في النحو، للسّهيلي (ص: ٥٢-٥٣)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (١٢/١)، الخصائص، لابن جني

(١٢٠/١)، الصاحبي في فقه اللغة (ص: ٥٠)، شرح تسهيل الفوائد (١٥/١).

وإن هذه الفعل يصلح لجميع الأزمنة، فإذا قلت: (حضر أخوك) احتمل أن يكون الحضور قريباً أو بعيداً، وليس مختصاً بزمن معين.

٢ - الماضي المنقطع: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ١٥].
وأما الفعل الماضي المجرد من (كان)، فهو قد يفيد الانقطاع، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

ويحتمل أن يكون قد تكرر، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ أْبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣]، ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩]، ولا شك أن الله عَزَّوَجَلَّ يفعل ذلك باستمرار؛ فإن إنزال الماء وإخراج النبات مستمران.

٣ - الماضي القريب: وذلك إذا صُدِّرَ بـ: (قد) نحو (قد حضر خالد) وذلك أن قولك: (حضر خالد) يدل على القريب والبعيد، فإذا قلت (قد حضر خالد) أفاد القرب من الحال جاء في (شرح ابن يعيش رَحِمَهُ اللَّهُ): "قد حرف معناه التقريب، وذلك أنك تقول (قام زيد) فتخبر بقيامه فيما مضى من الزمن، إلا أن ذلك الزمان قد يكون بعيداً، وقد يكون قريباً من الزمان الذي أنت فيه، فإذا قرنته بـ (قد) فقد قرنته مما أنت فيه، ولذلك قال المؤذن: قد قامت الصلاة، أي: قد حان وقتها في هذا الزمان" (١).

ويذكر النحاة لـ (قد) الداخلة على الفعل الماضي ثلاثة معان هي: التحقيق، والتوقع، والتقريب" (١).

(١) معاني النحو (٣/٣٠٨-٣٠٩).

وقد جاء استعمال (قد) التي تقرب الماضي من الحال في القرآن الكريم في غير موضع، فمن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِءٍ﴾ [المائدة: ٦١].

قالوا: الفائدة في ذكر كلمة: (قد) تقريب الماضي من الحال. قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولمعى آخر: وهو أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوقفاً لإظهار الله عَزَّجَلَّ ما كتموه، فدخل حرف التوقع، وهو متعلق بقوله: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي: قالوا ذلك وهذه حالهم" ^(١). يعني بقوله: (وهو متعلق)، أي: والحال، وقوة كلامه تعطي: أن صاحب الحال وعاملها الجملة المحكية بالقول، و﴿بِالْكَفْرِ﴾ متعلق بمحذوف؛ لأنه حال من فاعل ﴿دَخَلُوا﴾، فهي حال من حال، أي: دخلوا ملتبسين بالكفر، أي: ومعهم الكفر؛ كقولهم: (خرج زيد بشيابه) ^(٢).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١] ^(٣).
و"لا يقال: (جئت وقام الأمير) ولكن: (وقد قام) قال صاحب (المفتاح) رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما وجب ذلك ليقربه من زمانك حتى يصلح للحال ^(٤).

وقال السجاوندي رَحِمَهُ اللَّهُ: الفعل الماضي لا يصح أن يكون حالاً؛ لأن الحال مفعول فيها، وما مضى لا يصح أن يقع فيه شيء، فإذا صحبه (قد) وقع حالاً، وذلك أن (قد)

(١) الكشف (١/٦٥٣)، وانظر: مفاتيح الغيب (١٢/٣٩٢).

(٢) الدر المصون (٤/٣٤٠)، وانظر استعمال (قد) ومواضعها في القرآن الكريم في (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) (٢/٣١٠)، وانظر أيضاً: الدر المصون (١/٤١٢).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/٦٣٤)، وانظر ما حرره السيوطي في (حاشيته على البيضاوي) (٣/٢٨٥ - ٢٨٦)، و(حاشية الشهاب الخفاجي) (٣/٢٦٠).

(٤) انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي (ص: ٢٧٥).

حرف معنى، وحرف المعنى إذا دخل على الفعل غيره عما كان عليه من المعنى، فإذا قلت: (جئت وقد كتب زيد)، لا يجوز أن يكون حالاً إن كانت الكتابة قد انقضت، ويكون إذا شرع في الكتابة، وقد مضى منها جزء لا أنه ملتبس بها، فيفيد (قد) أن زيداً قد شرع في الكتابة، وأنه قد مضى جزء منها، فلمضى ذلك الجزء جيء بالماضي، ولا يقع الماضي حالاً إلا على هذا المعنى؛ فلهذا لزم أن يكون معه (قد) ظاهرة أو مقدرة.

وقال غيره: لا بدّ في الماضي المثبت من (قد) ظاهرة أو مقدرة؛ لأنه إنما يصلح للحال ما يصح أن يقع فيه: (الآن) أو (الساعة)، وهذا ممتنع في الماضي المثبت، فلا يكون حالاً، إلا إذا كان معه (قد)، فإنه قد يقرب الماضي من الحال، ولا يحتاج الماضي المنفي إلى ذلك؛ لدلالة ما على نفي الحال، ولهذا يصح تقدير: (الآن) أو (الساعة)". كذا في (حاشية العلامة الطيبي رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَشَافِ)، و(الإنصاف)، لابن الأنباري رَحْمَةُ اللَّهِ، و(مختصر المعاني) للسعد رَحْمَةُ اللَّهِ^(١).

وقد جاءت (قد) مضمرة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَبِئْتٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقُولُوا قَوْلَهُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

وقد اختلفوا في موضع قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾، فقال الأكثرون: إنه في موضع الحال بإضمار (قد)؛ لأن (قد) تقرب الماضي من الحال، ألا تراهم يقولون: (قد قامت الصلاة)، ويقال: (أتاني فلان ذهب عقله)، أي: أتاني فلان قد ذهب عقله. وتقدير الآية، أو جاؤكم حال ما قد حصرت صدورهم.

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٤١٣/٢-٤١٤)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين (٢٠٦/١) -

(٢٠٧)، مختصر المعاني (ص: ١٦٤).

وقيل غير ذلك ^(١).

وقال جَلَوَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]. و(قد) ها هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال، ويكون المعنى: أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال ^(٢). وفي (تفسير ابن فورك رَحِمَهُ اللَّهُ): "معنى (قد): تقريب الماضي من الحال؛ فدل على أن فلاحهم قد حصل، وهم عليه في الحال. وهذا أبلغ في الصفة من تجريد ذكر الفعل" ^(٣).

وتأتي (هَلْ) بمعنى: (قد) فتكون للتقريب، أي: تقريب الماضي من الحال، كما في قوله جَلَوَعَلَا: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]. ولل فعل الماضي استعمالات آخر جاء ذكر أشهرها في (معاني النحو) ^(٤). فمن ذلك:

٤ - الدلالة على الاستقبال: وينصرف إلى ذلك في مواطن منها:

أ. الإنشاء المقصود به الطلب: وذلك كالدعاء له أو عليه نحو: (غفر الله لك) أي: ليغفر الله لك، ونحو: (ناشدتك الله إلا فعلت).

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٧٢/١٠)، التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٣٦٧-٣٧)، الإنصاف في

مسائل الخلاف بين النحويين، لابن الأنباري (٢٠٦/١-٢٠٧)، تحقيق الفوائد الغيائية، للكرماني

(٢/٥٥٧-٥٥٨)، مختصر المعاني (ص: ١٦٤)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٢/٥٦).

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/٢٨٤)، التفسير البسيط (١٥/٥١٩)، حاشية الطيبي على الكشف

(١٠/٥٤٢).

(٣) تفسير ابن فورك (١/٦٢).

(٤) انظر: معاني النحو (٣/٣٠٨-٣٢٢).

وفي (الكليات): الأفعال الواقعة بعد (إلا) و (لما) ماضية في اللفظ، مستقبلة في المعنى؛ لأنك إذا قلت: (عزمت عليك لما فعلت) لم يكن قد فعل، وإنما طلبت فعله وأنت تتوقعه^(١).

ب. الوعد أو الوعيد: نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، ومن ذلك: الإخبار عن الإحداث المستقبلة مع قصد القطع بوقوعها، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

ج. دخول أداة الشرط عليه: ك: (من)، و(إن) و(إذا): نحو: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١].

وقد يبقى على مضيه قليلاً، نحو: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦].

د. دخول (ما) الظرفية: نحو: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، أي: مدة دوامي حيّاً، وهذا يشمل المستقبل أيضاً، ونحو: (لا أكلمك ما طلع نجم وغرب)، أي: يطلع ويغرب، وهذا التعبير أدل على الاستمرار.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): أن الفعل الماضي ينقلب إلى المستقبل بدخول (ما) النائية عن الظرف المضاف، نحو: [لا أفعل] ما ذَرَّ شارِق^(٢)، وما دامت السماوات؛ لتضمنها معنى: (إن)، أي: إن دامت قليلاً أو كثيراً.

(١) الكليات (ص: ٨٤٠)، وانظر: شرح الكافية الشافية، لابن مالك (٣/١٦٤٥-١٦٤٦)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢/١٤٠).

(٢) يقال: (لا أفعل ذلك ما ذَرَّ شارِق)، أي: ما طلع قرن الشَّمْس. انظر: جمهرة اللغة (٢/٧٣١).

وقد يبقى معها على الماضي كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ^(١).

هـ. وينصرف إلى الاستقبال أيضاً إذا كان منفياً بـ: (لا) أو (إن) في جواب القسم: نحو: (والله لا كلمتك أبداً)، ونحو: ﴿* إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيَّ﴾ [فاطر: ٤١]، أي: ما يمسكهما.

٥ - احتمال الماضي والاستقبال:

وذلك في مواطن، منها:

أ. بعد همزة التسوية: نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

ب. بعد حرف التحضيض: نحو: هَلَّا فعلت، ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] ^(٢)، فهذا يحتمل الماضي والاستقبال. وفي (شرح ابن يعيش): فأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠]، فقد وليه الماضي، إلا أن الماضي هنا في تأويل المستقبل، كما يكون بعد حرف الشرط كذلك؛ لأنه في معناه والتقدير: إن أخرتني أصدق ^(٣).

ج. في الأحكام: نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ فإنه يحتمل الماضي والاستقبال.

(١) انظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٣/٤).

(٢) (لولا): كلمة تفيد: التحضيض، والمراد به في الآية: الأمر؛ لأن (لولا) إذا دخل على الفعل كان بمعنى: التحضيض، مثل: (هَلَّا). انظر: التفسير البسيط (٩٣/١١-٩٤)، مفاتيح الغيب (١٧١/١٦).

(٣) انظر: شرح المفصل، لابن يعيش (٨٩/٥).



- د. بعد (حيث): فالماضي نحو: ﴿فَأَتَوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]،
والاستقبال نحو: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩].
- هـ. بعد (كلما): فالماضي نحو: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]،
والاستقبال نحو: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

وهذا في الحقيقة يدل على الاستمرار، ولكن قد يكون الاستمرار في الماضي، كما
في الآية الأولى، وقد يكون في المستقبل كما في الآية الثانية.

- و. إذا وقع صلة: فالماضي نحو: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. والاستقبال
نحو: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤].

وقد اجتمعا في قول الطرماح:

فإني لآتيكم تشكراً ما مضى من الأمر واستيجاب ما كان في غد^(١)
فقال: (ما كان في غد)، وهو يريد: ما يكون في غد. ولو كان أراد الماضي لقال:
(ما كان في أمس)، ولم يجز له أن يقول: (ما كان في غد).

- ز. إذا وقع صفة لنكرة عامة: يحتمل الماضي كقول الشاعر:

رب رقد هرقته ذلك اليوم *** (٢).

(١) قائله: الطرماح بن حكيم الطائي. ذيل ديوانه (ص: ٥٧٢)، وانظر: معاني القرآن، للفراء (١/١٨٠)،

(٢٤٤/١)، الأضداد، لابن الأنباري (ص: ٦١)، الخصائص، لابن جني (٣/٣٣٤)، همع الهوامع

(٤٤/١)، شرح تسهيل الفوائد (١/٣٢)، أمالي ابن الشجري (١/٦٧)، (٢/٣٥)، (٢/٤٥٣).

(٢) صدر بيت، وعجزه: (*** وأسرى من معشر أفتال)، وقائله: الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، وهو في

(ديوانه)، القصيدة الأولى، البيت: [٧١] (ص: ١٣). و(الرقد) بفتح الراء: القدح الضخم، وبالكسر:

المعونة. انظر: مجاز القرآن (١/٢٩٨-٢٩٩)، أمالي القالي (١/٩٠)، تهذيب اللغة (١٤/٧١)، المحكم

(٩/٣٠٥)، خزانة الأدب (٩/٥٧٢).

ويحتمل الاستقبال كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَضَرَ اللَّهُ امراً سمع مقالتي فادّأها كما سمعها»^(١)؛ فإن هذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترغيب لمن أدركه في حفظ ما يسمعه منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك يقتضي أن يكون المعنى: نضر الله امراً يسمع مقالتي فيؤديها كما يسمعها^(٢).

٦ - الماضي المستمر: وذلك إذا دخلت (كان) على الفعل المضارع، نحو قوله جَلَّوَعًا: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٥٥]، أي: كان مستمراً على ذلك. ونحو: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

فهذا يفيد الدلالة على الاستمرار أو الاعتداد، جاء في (البرهان)^(٣): الحكاية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلفظ: «كان يصوم»، و«كنا نفعل»، وهو عند أكثر الفقهاء والأصوليين يفيد الدوام؛ فإن عارضه ما يقتضي عدم الدوام مثل أن يروى: «كان يمسح مرة»، ثم نقل «أنه يمسح ثلاثاً»، فهذا من باب تخصيص العموم^(٤).

وعلاوة الفعل الماضي: أن يقبل تاء التأنيث الساكنة.

وحكمه: البناء على الفتح لفظاً كـ (قام)، أو تقديرًا إن اتصل به ضمير رفع متحرك، أو واو جماعة كـ: ضربتُ، وضربوا.

والأصل في الفعل الماضي: أن يدل على حدث وقع في الزمن الماضي، وهو يفيد تحقق الأمر.

(١) رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة، وألفاظ مختلفة.

(٢) شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٣٢/١).

(٣) البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله الزركشي (١٢٥/٤).

(٤) انظر ذلك في (معاني النحو) (٣٠٨/٣-٣٢٢)، و(شرح تسهيل الفوائد) (٣٠/١-٣٢)، و(همع الهوامع)،

للسيوطي (٤٣/١-٤٥).

وقد يدل على الزمن الحاضر والمستقبل؛ لنكتة، والتجوز به من خلال ما يحتف به من قرائن لفظية أو معنوية - كما تقدم-.

القسم الثاني: المضارع :

أولاً: تعريف الفعل المضارع: ما دلَّ وضعًا على حدث في زمن التكلم، حاضرًا كان أو مستقبلًا.

وحروف المضارعة هي: (الهمزة، والنون، والتاء، والياء)، وتكون في صدر الفعل المضارع، وزيادتها في أوله لازمة. وتجمع حروف المضارعة كلمة: (نأتي)، أو (أنيت)، أو (نأيت).

فالهمزة للمتكلم وحده، ويستوي فيه المذكر والمؤنث، نحو: (أقوم أنا)، و(أنا أفعل)، والنون للمتكلم إذا كان معه غيره نحو: (نقوم نحن)، والتاء للمذكر الحاضر نحو: (تقوم أنت)، وللمؤنث الغائبة نحو: (تقوم هي)، والياء للمذكر الغائب نحو: (يقوم هو) ^(١).

ونون العظمة تختص باسم الله جَلَّ وَعَلَا. وأما قول الملوك: (نحن نفعل) ؛ قيل: لما كانت تصاريق أفضية الله عَزَّجَلَّ تجري على أيدي خلقه نزلت أفعالهم منزلة فعله مجازًا؛ وعلى هذا الحكم يجوز أن ينطق بالنون من لا يباشر الأمر بنفسه.

وأما قول العالم: (نحن نبين) ؛ فهو مخبر عن نفسه وأهل مقالته ^(٢).

والأصل في الفعل المضارع: أن يدل على الحال أو الاستقبال.

(١) انظر: اللمع في العربية، لابن جني (ص: ٩).

(٢) اللمعة في شرح الملح (١/١٤٣).

وفي (المفصل): "ويشترك فيه الحاضر والمستقبل. واللام في قولك: (إن زيدًا ليفعل)، مخرصة للحال، كالسين أو سوف للاستقبال. وبدخولهما عليه قد ضارع الاسم، فأعرب بالرفع، والنصب، والجزم مكان الجر" ^(١).

وقال أبو القاسم السهيلي رَحِمَهُ اللهُ: "دخول الزوائد على الحروف الأصلية منبئة على معان زائدة على معنى الكلمة التي وضعت الحروف الأصلية عبارة عنه، فإن كان المعنى الزائد آخرًا كانت الزيادة آخرًا، كنحو (الناء) في (فعلت)؛ لأنها تنبئ عما رتبته بعد الفعل. فإن كان المعنى الزائد أولًا كانت الزيادة المنبئة عنه (أولًا) مسبقة على حروف الكلمة كهذه الزوائد الأربع، فإنها تنبئ أن الفعل لم يحصل بعد لفاعله، وأن بينه وبين تحصيله جزءًا من الزمان، فكان الحرف الزائد السابق للفظ الفعل مشيرًا في اللسان إلى ذلك الجزء من الزمان، مرتبًا في البيان على حسب ترتب المعنى في الجنان" ^(٢).

ومعنى المضارعة: المشابهة، ويعنون بالمضارعة: مشابهة الفعل المضارع للأسماء. قال أبو العباس المبرد رَحِمَهُ اللهُ: "تقول: (زيد يأكل) فيصلح أن يكون في حال أكل، وأن يأكل فيما يستقبل، كما تقول: (زيد آكل) أي: في حال أكل، و(زيد آكل غدًا)، وتلحقها الزوائد؛ لمعنى، كما تلحق الأسماء: الألف واللام؛ للتعريف، وذلك قولك: سيفعل، وسوف يفعل، وتلحقها اللام في (إن زيدًا ليفعل) في معناه: لفاعل" ^(٣).

وفي (شرح المفصل): "فإن قيل: فمن أين أشبه الاسم؟ فالجواب من جهات:

(١) المفصل في صنعة الإعراب (ص: ٣٢١).

(٢) نتائج الفكر في النحو، للسهيلي (ص: ٩١).

(٣) المقتضب (٢/٢). وقال في موضع آخر: "إذا قلت: (زيد يأكل) فأنت مبهم على السامع، لا يدري أهو في حال أكل، أم يوقع ذلك فيما يستقبل، فإذا قلت: سيأكل أو سوف يأكل فقد أبنت أنه لما يستقبل" المقتضب (٨٣/١).

أحدهما: أَنَّا إِذَا قُلْنَا: (زَيْدٌ يَقُومُ)، فَهُوَ يَصْلَحُ لَزَمَانِي: الْحَالُ وَالْإِسْتِقْبَالُ، وَهُوَ مَبْهُمٌ فِيهِمَا، كَمَا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (رَأَيْتُ رَجُلًا)، فَهُوَ لِوَاحِدٍ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَبْهُمٌ فِيهِمْ، ثُمَّ يَدْخُلُ عَلَى الْفِعْلِ مَا يُخَلِّصُهُ لِوَاحِدٍ بَعِينِهِ، وَيَقْصُرُهُ عَلَيْهِ، نَحْوُ قَوْلِكَ: (زَيْدٌ سَيَقُومُ، وَسَوْفَ يَقُومُ)، فَيَصِيرُ مُسْتَقْبَلًا لَا غَيْرَ بِدُخُولِ: السَّيْنِ وَسَوْفَ، كَمَا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (رَأَيْتُ الرَّجُلَ)، فَأَدْخَلْتَ عَلَى الْوَاحِدِ الْمَبْهُمِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْأَلْفَ وَاللَّامَ، قُصِرَ عَلَى وَاحِدٍ بَعِينِهِ، فَاشْتَبَهَا بِتَعْيِينِهَا مَا دَخَلَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ وَقْعِهِمَا أَوَّلًا مَبْهُمَيْنِ.

ومنها: أَنَّهُ يَقَعُ فِي مَوَاقِعِ الْأَسْمَاءِ، وَيُؤَدِّي مَعَانِيهَا: نَحْوُ قَوْلِكَ: (زَيْدٌ يَضْرِبُ)، كَمَا تَقُولُ: (زَيْدٌ ضَارِبٌ)، وَتَقُولُ فِي الصِّفَةِ: (هَذَا رَجُلٌ يَضْرِبُ) كَمَا تَقُولُ: (هَذَا رَجُلٌ ضَارِبٌ)، فَقَدْ وَقَعَ الْفِعْلُ هُنَا مَوْقِعَ الْأِسْمِ، وَالْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ.

والثالث: أَنَّهُا تَدْخُلُ عَلَيْهِ لَامُ التَّأْكِيدِ الَّتِي هِيَ فِي الْأَصْلِ لِلْأَسْمِ؛ لِأَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ، نَحْوُ قَوْلِكَ: (إِنَّ زَيْدًا لَيَقُومُ)، كَمَا تَقُولُ: (إِنَّ زَيْدًا لَقَائِمٌ). وَلَا يَجُوزُ دُخُولُهَا عَلَى الْمَاضِي لِبُعْدِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأِسْمِ، فَلَا يُقَالُ: (إِنَّ زَيْدًا لَقَامَ) عَلَى مَعْنَى هَذِهِ اللَّامِ. فَلَمَّا ضَارَعَ الْأِسْمَ مِنْ هَذِهِ الْأَوْجِهَةِ؛ أُعْرِبَ لِمُضَارَعَةِ الْمُعْرَبِ " (١).

ثانيًا: الدلالة على الزمن في الفعل المضارع:

١ - الحال أو الاستقبال:

الأصل في الفعل المضارع: أن يدل على الحال أو الاستقبال - كما تقدم -.

(١) شرح المفصل، لابن يعيش (٤/٢١٠).

٢ - خروجه إلى الإنشاء:

وقد يخرج إلى الإنشاء: وذلك كما في (الدعاء): نحو: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]، و(يرحمك الله).
و(الأمر): نحو: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي: ليتربصن^(١).

و﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبر عن المبتدأ، وصورته صورة الخبر، وهو أمر من حيث المعنى.
وقيل: هو أمر لفظاً ومعنى على إضمار اللام، أي: ليتربصن، وهذا على رأي الكوفيين.

وقيل: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ على حذف مضاف، أي: وحكم المطلقات ويتربصن على حذف: أن، حتى يصح خبراً عن ذلك المضاف المحذوف، التقدير: وحكم المطلقات أن يتربصن، وهذا بعيد جداً.

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "هو خبر في معنى الأمر. وأصل الكلام: وليتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً.
ونحوه: قولهم في الدعاء: (رحمك الله)، أخرج في صورة الخبر؛ ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناءً على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد^(٢).

(١) فهذا صيغته صيغة الخبر، ومعناه: الأمر - وقد تقدم -.

(٢) قال صاحب (المفتاح): "وسبب تقويه هو أن المبتدأ لكونه مبتدأ يستدعي أن يسند إليه شيء، فإذا جاء بعده ما يصلح أن يستند إليه صرفه المبتدأ على نفسه، فينعقد بينهما حكم، سواء كان خالياً عن ضمير المبتدأ نحو: (غلامك)، أو كان متضمناً له نحو: (أنا عرفت، وأنت عرفت، وهو عرف، أو زيد عرف)، ثم إذا كان متضمناً لضميره صرفه ذلك الضمير على المبتدأ ثانياً فيكتسي الحكم قوة، فإذا قلت: هو يعطى =

ولو قيل: (ويترصد المطلقات)، لم يكن بتلك الوكادة" (١).

قال في (البحر): "وهو كلام حسن، وإنما كانت الجملة الابتدائية فيها زيادة تأكيد على جملة الفعل والفاعل لتكرار الاسم فيها مرتين: إحداهما: بظهوره، والأخرى: بإضمامه، وجملة الفعل والفاعل يذكر فيها الاسم مرة واحدة" (٢).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أي: ليرضعن، وقد أخرج الأمر مخرج الخبر؛ للدلالة على أنهن يفعلن ذلك امتثالاً لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا شأنهن، وهو أبلغ من صريح الأمر، ونظير هذا قولنا: (تذهب إلى فلان وتخبره كذا وكذا) على معنى أذهب إليه، وهو ألطف من الأمر الصريح؛ إذ لا يراد أحياناً المواجهة بالأمر، بل يخرج مخرج الخبر؛ تلطفاً بالسامع، أو إكراماً له. وجاء في (شرح شذور الذهب): في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقوله: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: وهذان الفعلان خبريان لفظاً، طليبان معنى، ومثلهما: (يرحمك الله).

=الجزيل كان المراد: تحقيق إعطائه الجزيل عند السامع دون تخصيص إعطاء الجزيل به" مفتاح العلوم، للسكاكي (٢٢١/١). و(قوله: فيكتسي الحكم) الذي هو ثبوت الفعل قوة أي: لتكرر الإسناد، وهذا واضح في الإثبات، وأما في النفي كقولك: (ما زيد أكل) فيقال فيه: إن سلب الأكل المحكوم به يطلبه المبتدأ، وضميره يطلب الفعل، وهو منفي فيحصل إسناد نفي الفعل مرتين فيلزم التقوي.. حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١٣٤/٢)، وانظر: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٥٠٠/١). ويعلل عبد القاهر الجرجاني سبب التقوي: بأن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد تنبيه السامع؛ لقصد به بالحديث قبل ذكر الحديث تحقيقاً للأمر وتأكيده له. انظر: دلائل الإعجاز (١٣٢/١).

(١) الكشف (٢٧٠/١).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٤٥٣/٢)، وانظر: الدر المصون (٤٣٧/٢)، حاشية القونوي على البيضاوي (٢٤٠/٥).

وفائدة العدول بهما عن صيغة الأمر: التوكيد والإشعار بأنهما جديران بأن يتلقيا بالمسارعة، فكأنهن امتثلن فهما مخبر عنهما بموجودين^(١).

و(النهي): نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، بمعنى: لا تسفكوا، ونحو (لا يكره المرء في الدين) بالرفع، ومعناه النهي، أي: لا تكرهوا، وقد أخرج مخرج الخبر؛ للدلالة على أن هذا هو الوضع الطبيعي، وإن هذا هو الذي يحصل^(٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]: "إخبار في معنى النهي، كما تقول: (تذهب إلى فلان تقول له كذا)، تريد: الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي؛ لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه وفي (الانتصاف): "وجه الدليل منه: أن الأول لو لم يكن في معنى النهي لما حسن عطف الأمر عليه، لما بين الأمر والخبر المحض من التنافر. ولا كذلك الأمر والنهي؛ لالتقائهما في معنى الطلب"^(٣).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرح مسلم) في باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها: "وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ، وَلَا يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ»^(٤)، هكذا هو في جميع النسخ. «ولا يسوم» بالواو، «ولا يخطب» بالرفع، وكلاهما لفظه لفظ الخبر والمراد به: النهي، وهو أبلغ في النهي؛ لأن خبر الشارع لا يتصور وقوع خلافه، والنهي قد تقع مخالفته، فكأن المعنى: عاملوا هذا النهي معاملة خبر الحتم. ثم قال

(١) شرح شذور الذهب، لابن هشام (٩٠/١).

(٢) معاني النحو (٣/٣٣٤).

(٣) الكشف ومعه (الانتصاف) (١٥٩/١).

(٤) صحيح مسلم [١٤٠٨].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولا تسأل المرأة طلاق أختها» يجوز في «تسأل» الرفع والكسر، الأول: على الخبر الذي يراد به النهي، وهو المناسب لقوله قبله: «لا يخطب ولا يسوم»، والثاني: على النهي الحقيقي^(١).

٣ - مشاركة وقوع الفعل:

يستعمل للدلالة على مشاركة وقوع الفعل، نحو قوله جَدَّ عَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، أي: والذين يشارفون الموت، وترك الأزواج يوصون وصية^(٢).

٤ - إرادة الفعل:

نحو: (متى تقم إلى الصلاة فتوضأ)، والمعنى: متى أردت القيام إلى الصلاة، وإلا كان الوضوء بعد القيام إلى الصلاة، ونحو: (متى تقرأ القرآن فاستعذ بالله) أي: إذا أردت ذلك^(٣).

وعلامة الفعل المضارع: أن يقبل لم، والسين، وسوف.

وحكمه: الإعراب ما لم تتصل به نون النسوة، فيبنى على السكون، أو تباشره نون التوكيد الخفيفة أو الثقيلة، فيبنى على الفتح.

والأصل في الفعل المضارع: أن يدل على حدث وقع في الزمن الحاضر، وهو يفيد استمرار الفعل، وتكرار صفته، وتحدد حدوثه.

وقد يدل على الزمن الماضي إذا كان مسبوقاً بـ: (كان)، أو بـ: (لم) الجازمة.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٩٢)، البرهان في علوم القرآن (٣/٣٥١-٣٥٢).

(٢) مغني اللبيب، لابن هشام (ص: ٩٠٢).

(٣) انظر ذلك كله في (معاني النحو) (٣/٣٢٣-٣٣٤).

وإذا سبق بـ: (لَمَّا) الجازمة دلَّ على الماضي المستمر إلى الحاضر.
ويدل على الزمن المستقبل إذا وجدت قرينة لفظية أو معنوية.
ومن ذلك: أن يكون مسبوقاً بالسين، أو سوف، أو الظروف الدالة على المستقبل
مثل: (غداً)، و(فيما بعد). وكذا المتضمن معنى: الشرط، أو الطلب، أو الاستفهام.

القسم الثالث: الأمر:

أولاً: الأصل في دلالة فعل الأمر على الزَّمن أنه مستقبل أبداً:
الأمر مستَقْبَلٌ أبداً، فهو يدل على حدث في زمن مستقبل، وقد يراد به دوام ما
حصل، وقد يتوسع في دلالته على الزمن إلى معان أخرى - كما سيأتي -:
قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ: "لما كان الأمر مطلوباً به حصول ما لم يحصل، كقوله جَلَّ وَعَلَا:
﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، ودوام ما حصل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]
لزم كونه مستقبلاً، وامتنع اقترانه بما يخرج عن ذلك.." (١).
"إلا أن يراد به الخبر، نحو: «ارْمِ وَلَا حَرْجَ» (٢)؛ فإنه بمعنى: رميت، والحالة هذه
وإلا لكان أمراً بتجديد الرمي، وليس كذلك" (٣).

(١) انظر ذلك مفصلاً في (شرح تسهيل الفوائد)، لابن مالك (١٧/١)، وانظر: همع الهوامع، للسيوطي (٣٥/١).
(٢) جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف في حجة الوداع بمنى
للناس يسألونه، فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح؟ فقال: «اذبح ولا حرج»، فجاء آخر
فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ قال: «ارم ولا حرج»، فما سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء قدم
ولا آخر إلا قال: «افعل ولا حرج» صحيح البخاري [٨٣، ١٢٤، ١٧٣٦]، مسلم [١٣٠٦].
(٣) همع الهوامع (٣٥/١).



ثانيًا: أزمنة فعل الأمر :

جاء في (معاني النحو): أن تحديد زمن فعل الأمر بما تقدّم من دلالاته على الاستقبال، ومن أنه قد يراد به دوام ما حصل فيه نظر؛ إذ هو أوسع من ذلك. ثم ذكر بيان أزمنة (فعل الأمر) من حيث دلالتها على معانٍ أوسع مما تقدم ذكره في أصل الاستعمال، وهاك إيجاز تلك الدلالات المتنوعة، فمن ذلك:

١ - الاستقبال المطلق :

قد يكون فعل الأمر دالًّا على الاستقبال المطلق - سواء كان الاستقبال قريبًا أم بعيدًا -، فمن المستقبل القريب: قوله جَلَّوَعَلَا في سورة البقرة: ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]، وقوله: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. ومن البعيد: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥].

٢ - الدلالة على الحال :

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨-٤٩]، فزمن الذوق مصاحب لصب الحميم. أَلْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان: ٤٩-٤٨]، فزمن الذوق مصاحب لصب الحميم.

٣ - الأمر الحاصل في الماضي :

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ عَاوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، فقوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ كان بعد دخولهم إياها، فهو أمر يفيد الماضي.

ونحوه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٦﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الحجر: ٤٥-٤٦]، فقولُه: ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ كان بعد دخولهم الجنة.

ومن دلالة فعل الأمر على الماضي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشخص رمي في الحج بعد الذبح: «ارْمِ وَلَا حَرَجَ»^(١)، فليس القصد أمره بالرمي في المستقبل؛ لأن الرمي قد حصل في الماضي، وإنما المعنى هو الموافقة والإقرار على ما فعل... إلى غير ذلك.

٤ - الأمر المستمر :

وهو كثير، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٥ - ما كان غير مقيد بزمن :

وربما كان فعل الأمر مطلقاً غير مقيد بزمن؛ لكونه دالاً على الحقيقة، أو لكونه دالاً على التوجيه والحكم، أو لغير ذاك، وذلك كقوله:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب^(٢)
فهو لا يأمر بك بأن تكون ابن من شئت على وجه الحقيقة، فليس بمقدورك ذاك،
وإنما القصد: أن يأمر بك باكتساب الأدب، ولا يهم بعد ذلك أن تكون ابن من ممن خلق
الله عَزَّوَجَلَّ. فقولُه: (كن ابن من شئت) لا يدل على زمن ما، وإنما هو ذكر لحقيقة من
حقائق الحياة، وهي أن (الأدب يغني عن النسب).

(١) تقدم.

(٢) انظر: الفاضل، للمبرد (ص: ٨)، جمهرة الأمثال (٣١٢/٢)، محاضرات الأدباء (٤٨/١)، غرر الخصائص

الواضحة (ص: ١٨٧)، المستطرف (ص: ٣١).

ونحوه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ»^(١)، فهذا لا يقصد به التعرف إلى الله عَزَّوَجَلَّ والالتجاء إليه في وقت دون وقت، وإنما هو من باب: التوجيه للالتجاء إليه في كل وقت؛ إذ من المعلوم أن أغلب الناس تبطّروهم الراحة، وينسيهم الرخاء، فهم لا يلتجئون إلى الله عَزَّوَجَلَّ إلا في وقت الشدة والضيق، ونزول المكروه، فيقول لهم: إذا أردتم أن يعينكم الله، ويخلصكم مما تقعون فيه من محن وكروب، فالتجئوا إليه، واعرفوا له حقه في كل وقت.

ومن باب الحقائق أن تقول مثلاً: (احترم الناس يحترموك، وتواضع لهم يرفعوك)، فهذه قاعدة عامة، وحقيقة مطلقة غير مقيدة بزمان، فمن احترم الناس احترموه، ومن تواضع لهم رفعوه.

(١) قال السخاوي في (المقاصد) (ص: ٢٥٦-٢٥٧): أخرجه "الطبراني في (الكبير) من حديث: عيسى بن محمد القرشي، والعسكري في (الأمثال) من حديث: حجاج بن فرافصة، كلاهما عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: كنت ردف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالتفت إليّ فقال: «يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف..» الحديث. وفيه: «قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشيء، لم يقضه الله عليك، لم يقدروا عليه»، وفيه: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك. وما أخطاك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً». ومن طريق الطبراني أورده الضياء في (المختارة)، وهو حسن، وله شاهد عند: عبد بن حميد من طريق: المثني بن الصباح، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس مرفوعاً: «يا ابن عباس: احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، وتعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»، وذكره مطولاً، وسنده ضعيف، وأصل الحديث بدون لفظ الترجمة عند الترمذي، وصححه من حديث: حنّش عن ابن عباس مرفوعاً، بل أخرجه أحمد، والطبراني، وغيرهما من هذا الوجه أيضاً بتمامه، وهو أصح وأقوى رجالاً، وقد بسطت الكلام عليه في (تخريج الأربعين) اهـ. وفي (أسنى المطالب) (ص: ١١٢): "رواه أحمد وغيره، وهو حسن". وأخرجه أبو القاسم بن بشران في (أماليه) [١٣٦٥]: عن أبي هريرة.

وقد يكون فعل الأمر غير مطلوب حصوله، بل إنما يذكر للتحذير منه، وذلك كأن تقول: (تواضع للناس يحبوك، واستعل عليهم يغيضوك)، فأنت لا تأمره بالاستعلاء على الناس، وإنما تحذره منه فتقول له: إذا استعليت على الناس أبغضوك. ونحوه أن تقول: (اعمل خيراً تلق خيراً، واعمل شراً تلق شراً)، فأنت لا تأمره بعمل الشر، وإنما أنت تحذره من مغبة فعل الشر، إلى غير ذلك، وهذا كله من باب الحقائق المطلقة غير المقيدة بزمن.. " (١).

وعلاوة فعل الأمر: أن يدلّ على الطلب بالصيغة مع قبول ياء المخاطبة. **وحكمه:** البناء على ما يجزم به مضارعه لو كان معرباً.

ثالثاً: الأمر من أنواع الإنشاء الطلبي:

(الأمر) طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء، وقول القائل لغيره: (افعل) أو ما يقوم مقامه لإفادة معنى الطلب. قال في (المراقي):

هو اقتضاء فعل غير كَفِّ دُلَّ عليه لا بنحو كُفِّي (٢)

(١) انظر ذلك مفصلاً في (معاني النحو) (٣٢/٤-٣٩).

(٢) مراقي السعود [٢٣٦]، (ص: ٣٤)، وانظر: نثر الورود (١٧٢/١)، نشر البنود (١٤٧/١). وقوله: (كَفِّ) مصدر: (كَفِّ)، وفي الثاني أمر للأنتى المخاطبة، يعني: أن الأمر هو اقتضاء، أي: طلب تحصيل فعل غير (كف) مدلول عليه بغير: كَفِّ، وَدَعَّ، وَدَزَّ، وَاتَرَكَ، وَخَلَّ. فيتناول الطلب ما ليس بكَفِّ نحو: (قم)، و(خذ)، وما هو كف مدلول عليه بكَفِّ ونحوه. فهذه كلها أوامر بخلاف الكَفِّ المدلول عليه بنحو: (لا تفعل) فليس بأمر بل هو نهي، ولا فرق في الاقتضاء بين الجازم وغيره وإن كان الأمر حقيقة في الجازم فقط على الصحيح، لكن المراد بالأمر صيغة (افعل).. انظر: نشر البنود (١٤٧/١)، نثر الورود (١٧٢/١-١٧٣).

والأمر محمولٌ في أغلبه على الوجوبِ إلا إن صرفته قرينةً عن الوجوب؛ لأنَّ الأصل في الأمرِ الوجوبُ، فإن صرفته قرينةً عن الوجوب انصرف إليها، كما قيل في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٢٣]. فقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّ هذا الأمر أمرٌ إرشادٍ واستحبابٍ وندب على الصحيح^(١)، لا أمرٌ تحثُّ وإيجاب، بل السيّد محيّرٌ إذا طلب منه عبده الكتابة، إن شاء كاتبه، وإن شاء لم يكاتبه.

وغالبُ الأمرِ في القرآن الكريم يدعمه تهديدٌ، فالله جلَّ وعلا عندما يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، يدلُّ على وجوب الصلاة؛ لأنَّ الذين لا يصلُّون يتوعددهم ويهددهم في آياتٍ أخرى حيث يقول جلَّ وعلا: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]، ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۖ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧]. والطلب إن كان بطريق العلو سواء كان عاليًا حقيقة أو لا فهو أمر^(٢)، وإن كان على طريق السفّل سواء كان سافلًا في الواقع أم لا فدعاء^(٣). وقيل: من الأعلى أمرٌ، ومن الأدنى دعاء^(٤).

(١) وقيل: هو للوجوب.

(٢) (ما كان عاليًا حقيقة) كقول السيّد لعبده: افعل كذا. (أو لا) كقول العبد لسيّده: افعل كذا - حال كونه طالبًا للعلو - فخرج الدعاء والالتماس؛ لأنَّ الأوّل من الأدنى، والثاني من المساوي، بخلاف الأمر؛ فإنّه يشترط فيه طلب الأمر العلو. والمراد بطلبه العلو أن يعدّ نفسه عاليًا بإظهار حاله العالي، وذلك بأن يكون كلامه على جهة الغلظة والقوّة لا على جهة التواضع والانخفاض، فسَمِّيَ ميله في كلامه إلى العلو طلبًا له سواء كان عاليًا في نفسه أو لا. انظر: شروح تلخيص المفتاح (٣٠٩/٢-٣١٠).

(٣) انظر: مختصر المعاني، للعلامة السعد (١٣٩/١)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٥٩٦/١)، مواهب

الفتح في شرح تلخيص المفتاح (٤٩٩/١)، الكليات (ص: ٥٨٢)، شمس البراعة (ص: ١٤).

(٤) انظر: حاشية الجرجاني على الكشف (٦٧/١)، البهجة في شرح التحفة (٢٦/١)، الجنى الداني (ص: ١١٠)،

التصريح (٢٤٦/٢). قال الأخضري: (أمرٌ مع استعلاء وعكسه دُعَاٌ**وفي التساوي فالتماسٌ وقعا)،=

قال الإمام ابنُ عرفة رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله عَزَّجَلَّ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]: "الطَّلَب من الأدنى للأعلى سؤال عند المنطقيين، ودعاء عند النحويين. ومنهم من قال: إن كان لله عَزَّجَلَّ فهو دعاء، وإن كان لغيره فهو أمر" (١).

والطَّلَب مع الخضوع مطلقاً ليس بدعاء، بل الدُّعاء مخصوصٌ بالطَّلَب من الله عَزَّجَلَّ في العرف وفي جميع الاصطلاحات (٢)، كما أنَّ الالتماس لا يستعمل إلا في مقام التَّواضع (٣)، وأمَّا السُّؤال فهو أعمُّ منه.

والمطلوب به إن كان ممَّا لا يمكن فهو التَّمني، وإن كان ممكناً، فإن كان حصول أمر في ذهن الطَّالِب فهو الاستفهام، وإن كان حصول أمرٍ في الخارج، فإن كان ذلك الأمر انتفاء فعل فهو النَّهي، وإن كان ثبوته فإن كان بأحد حروف النَّداء فهو النَّداء، وإلا فهو الأمر. والطَّلَب فعلٌ اختياريٌّ لا يتأتَّى إلا بإرادةٍ متعلِّقةٍ بخصوصيةِ المطلوب موقوفة على امتيازهِ عمَّا عداه.

= فالأمر ما دلَّ على الفعل بذاته كاضرب، وقوله: (مع استِعْلا)، أي: مع إظهار الطَّالِب العلوَّ على المطلوب منه. (وَعَكْسُهُ)، أي: طلبُ الفعلِ لا مع استِعْلاء، بل مع خضوع وإظهار الطَّالِب الانخفاض عن المطلوب منه دعاء، وفي التَّساوي التماس، كقول بعض الخدمة لبعض: أعطني عمامتي. السَّلَم بشرح الشَّيخ درويش القويسني (ص: ١٧).

(١) تفسير ابن عرفة (١/١٠٢).

(٢) يعني أنَّ الدُّعاء مخصوصٌ بالطَّلَب من الله عَزَّجَلَّ في (الاصطلاح الشرعي)، وكذلك في (الاصطلاح العربي) (وَاللُّغوي).

(٣) ومع التَّساوي في الرتبة فقد نَبَّه العلامة السَّعد، وصاحب: (الكليات) إلى أنَّ ثمةَ فرقاً بين الالتماس والسُّؤال، فالالتماسُ يستعملُ في مقام التَّواضع، والسُّؤال أعمُّ. وعلى ذلك فكلُّ التماس سؤال، وليس كلُّ سؤال التماساً فبينهما عموم وخصوص مطلق.

والطَّلَب من الله عَزَّجَلَّ يجوزُ بلفظ الماضي والمضارع، وبصيغة الأمر على اصطلاح الأدباء، وكذا الثَّناء مثل: (صلى الله عليه وسلم) و(حمدت الله)، و(أحمدته)، بخلاف: (أضرب)، و(أبيع)، والفرق إمكان الوعد فيه، وعدم إمكان الوعد في الثَّناء على الله عَزَّجَلَّ والطَّلَب منه إلا إذا قام دليل مثل: سأستغفر الله عَزَّجَلَّ، فإنَّ حرف التَّنْفيس دليل الوعد^(١).

والحاصل أنهم فرَّقوا بين (الأمر) و(الدُّعاء) و(الالتماس) في الصِّيغة الواحدة، وذلك بالنَّظر إلى المخاطب - بكسر الطاء المهملة - والمخاطَّب - بفتح الطاء المهملة -. ولكن ينبغي أن نلاحظ أنَّ الطَّلَب من غير الله عَزَّجَلَّ وإن كان معه خضوعٌ وانكسارٌ وذُلٌّ فليس بدعاء، وإنَّما هو سؤالٌ والتماسٌ ورجاءٌ - كما تقرَّر -.

وما سبق يصدق أيضاً على (لا النَّاهية). فما كان الأعلى إلى الأدنى يسمَّى: نهيًا، وبالعكس يسمَّى: دعاءً، ومن المساوي يسمَّى: التماسًا، وذلك مع ملاحظة الاعتبار السابقة. فقول الله عَزَّجَلَّ - مثلاً - على لسان لقمان عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣] نهيٌ حقيقيٌّ.

وقوله عَزَّجَلَّ على لسان المخاطبين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ليس نهيًا حقيقيًا، وإنَّما هو دعاءٌ، وإسقاط حرف النداء يشير إلى قرب المنادى، وأنه حاضر مع المنادي غير غافل عنه.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: "كثرة مجيء النداء باسم الرب المقتضي للقيام بأمر العباد وإصلاحها؛ فكان العبد متعلق بمن شأنه التربية والرفق والإحسان، قائلاً: يا من هو

(١) الكليات (ص: ٥٨٢).

المصلح لشؤوننا على الإطلاق أتم لنا ذلك بكذا، وهو مقتضى ما يدعو به، وإنما أتى (اللهم) في مواضع قليلة، ولمعان اقتضتها الأحوال" (١).

أَمَّا (الالتماسُ) فكقولك لصاحبك أو زميلك أو أخيك أو مَنْ يساويك في الرتبة: (لا تقلق يا أخي فالامتحان سهل)، أو ما إلى ذلك من الأفعال التي تتحدث بها مع نَدِّك؛ فإنَّها حينئذٍ تسمَّى التماسًا.

رابعًا: صيغ الأمر:

وإنَّ الأمرَ له أربع صيغ، وقد وردت في القرآن الكريم:

١ - فعل الأمر: وذلك كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [الإسراء: ٧٨].

٢ - المضارع المجزوم بلام الأمر: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧].

أَمَّا (لام الأمر) في القرآن الكريم فقد جاءت متعينة غير محتملة في (ثمانين) موضعًا

في القرآن الكريم.

أ. دخلت (لام الأمر) على المضارع المبدوء (بتاء الخطاب)، كما في قوله جَلَّوَعَلَا:

﴿فَبِذَلِكَ فَلْتَفَرَّحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، وكذلك قراءة: ﴿وَلْتَعْفُوا وَلْتَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٢] — بالتاء —

أمر خطاب للحاضرين (٢).

(١) الموافقات (٢٠٣/٤).

(٢) وهي قراءة عبد الله بن مسعود والحسن وسفيان بن الحسن وأسماء بنت يزيد. انظر: البحر المحيط (٢٥/٨).

وفي (المحتسب) قال أبو الفتح بن جني: "هذه القراءة — بالتاء — كالأخرى المأثورة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

﴿فَبِذَلِكَ فَلْتَفَرَّحُوا﴾، وقد ذكرنا ذلك، وأنه هو الأصل، إلا أنه أصل مرفوض، استغناء عنه بقولهم =



ب. (لام الأمر) غير المسبوقه بحرف عطف:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعْذِنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: ٥٨].

﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿لِيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧].

ج. (لام الأمر) للمتكلم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

وروى عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لَنَسُوهُنَّ وَجُوهَهُنَّ﴾

[الإسراء: ٧] - بالنون الخفيفة واللام المفتوحة - وهي (لام الأمر) .. - (١).

د. (لام الأمر) بعد الفاء في مواضع كثيرة:

فمن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]،

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ

بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ... إلى غير ذلك.

= (اعفوا واصفحوا) "المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (١٠٦/٢)، دارسات

لأسلوب القرآن الكريم (٤٢٢/٢-٤٢٣).

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء (١١٧/٢)، المحتسب (١٥/٢)، المحرر الوجيز (٤٤٠/٣)، تفسير القرطبي

(٢٢٣/١٠)، روح المعاني (١٩/١٥)، معاني القرآن، للنحاس (١٢٥/٤)، الدر المصون (٣٧٣/٤)،

البحر المحيط (١٠/٦).

هـ. (لام الأمر) بعد الواو في مواضع:

فمن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا:

﴿وَلْيَكُتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] [البقرة: ٢٨٢].

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢، ٢٨٣] ... إلى غير ذلك.

و. (لام الأمر) بعد (ثُمَّ):

﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، ﴿ثُمَّ لَيَقْطَعَنَّ﴾ [الحج: ١٥].

٣ - اسم فعل الأمر: نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٤ - المصدر النائب عن فعل الأمر:

وهو الذي يقع جزاءً لشرط، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ

الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، أي: فاضربوا رقابهم.

قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "نصب على الأمر، والذي نصب به مضمَر" (١).

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "معناه: فاضربوا الرقاب ضرباً، منصوب على

الأمر. وتأويله: فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوه، ولكن أكثر مواقع القتل ضرب

العنق" (٢).

وقال جاز الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصله: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل،

وقدم المصدر، فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛

لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنسبة التي فيه" (٣).

(١) معاني القرآن، للفراء (٥٧/٣).

(٢) معاني القرآن وإعراجه (٦/٥).

(٣) الكشاف (٣١٦/٤).



وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، أي: فبعدًا لهم عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وكرامته اعترفوا أو جحدوا؛ فإن ذلك لا ينفعهم. وانتصابه بفعل مضمر على أنه مصدر وقع موقع الدعاء. قال الزجاج رَحِمَهُ اللهُ: "ويروى: ﴿فَسُحْقًا﴾ بضم الحاء. ﴿فَسُحْقًا﴾ منصوب على المصدر، المعنى: أسحقهم الله سحقًا، أي: باعدهم الله عَزَّوَجَلَّ من رحمته مباعدة، والسحيق: البعيد" (١).

ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، أي: فليصم شهرين متتابعين، أو فليطعم ستين مسكينًا.

وأكثر العلماء قالوا: صيغة الأمر تدلُّ على الوجوب دلالةً حقيقيةً، ولا تدلُّ على غير الوجوب من الندب والإباحة ونحوهما إلا بقرينة. وتفصيل ذلك في مظانه.

وقد تستعمل صيغة الأمر لغيره، أي: لغير طلب الفعل استعلاء (٢).

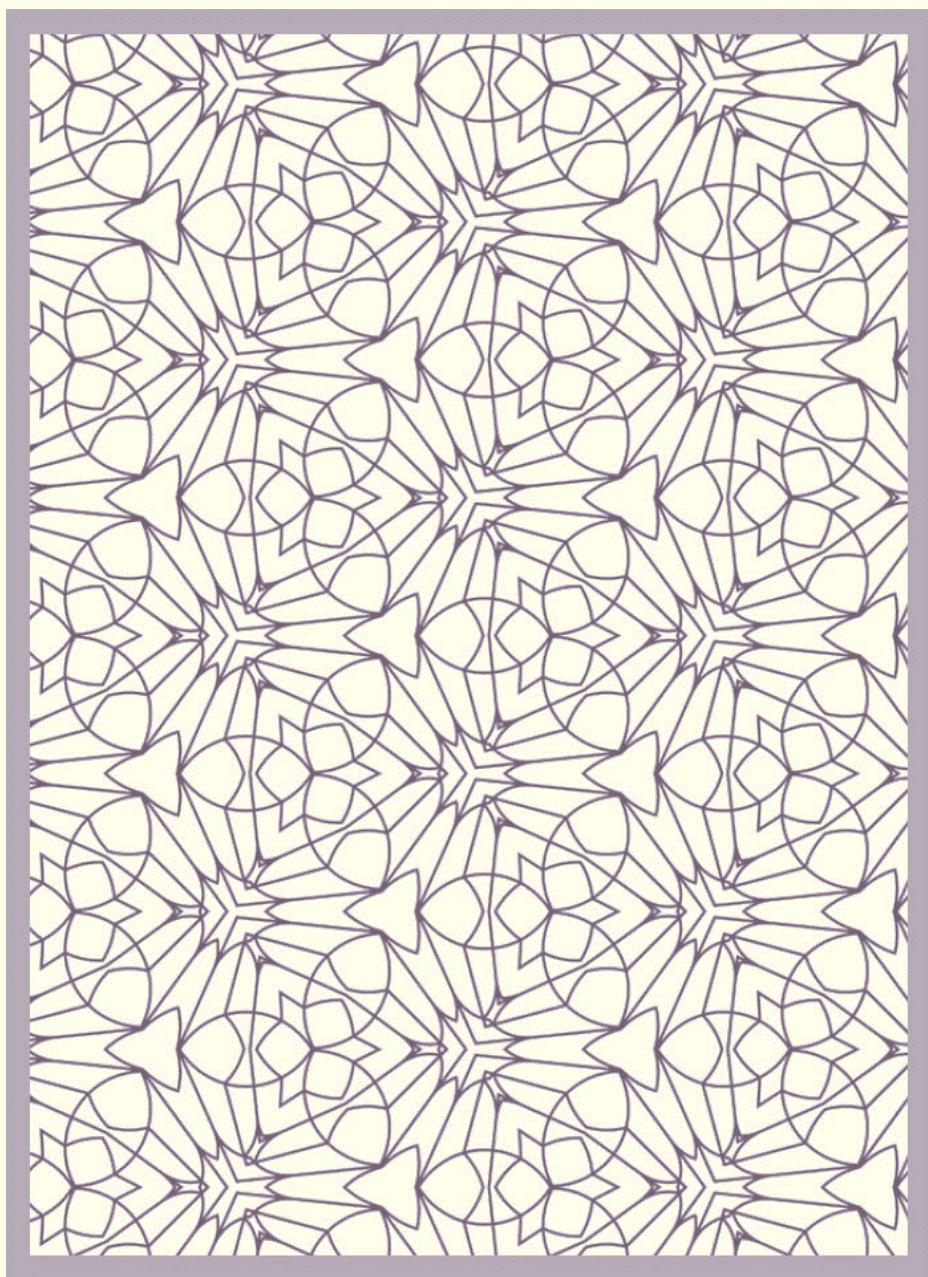
وقد كنتُ قد فصلت القول في خروج كل من الأمر والنهي عن معناهما الأصلي إلى معانٍ أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال في كتاب: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم).



(١) معاني القرآن وإعرابه (١٩٩/٥).

(٢) انظر: مختصر المعاني، للسعد (ص: ١٣٩)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٥٠٢)، حاشية

الدسوقي على مختصر المعاني (٢/٤٠٧).



البحث السابع عشر

دلالة النواسخ الفعلية على الزمان

الأفعال الناسخة هي أفعال ناقصة، أي: لا تكفي بوجود اسمها المرفوع، كما في الأفعال التامة، وإنما تحتاج إلى خبرها المنصوب حتى يكتمل معنى الجملة، وتتم دلالة الحدث، وهذه الأفعال تدخل على الجملة الاسمية، فترفع المبتدأ؛ تشبيهاً له بالفاعل، ويسمى: اسمها، وتنصب الخبر تشبيهاً؛ بالمفعول به، ويسمى: خبرها، كما أنها تسمى بالأفعال الناسخة؛ لأنها تنسخ حكم الخبر، فهي تغير في إعراب الجملة التي تدخل عليها. والأفعال الناقصة لها دلالة زمنية من حيث كونها أفعلاً ماضية أو مضارعة.

ولها دالتان - كما للفعل -:

١ - الدلالة الزمنية.

٢ - دلالة كل فعل منها على المعنى الذي يتضمنه.

قالوا: الأفعال الناقصة هي أفعال وضع كل واحد منها لتقرير فاعله وتشبيته - إيجاباً

أو سلباً - على صفة يدل عليها خبره.

وإنما سميت ناقصة؛ لأنها لا تتم بمرفوعها، كالأفعال الغير الناقصة، ففيها احتياج إلى الخبر. وكل شيء فيه احتياج فيه نقصان^(١).

والأفعال الناقصة تدل على زمان فقط، بينما تدل الأفعال التامة على الزمان والحدث.

ف: (كان) -مثلاً- مجرداً يدل على الزمان الماضي دون الحدث.

أما (كتب) -مثلاً- فهي تدل على الزمان الماضي، وعلى الحدث، هو الكتابة. ذهب أكثر النحاة إلى أن (كان) ليس فيها عنصر الحدث، وإنما تجردت للزمان فقط.

قال ابن يعيش رَحِمَهُ اللهُ: "وأما كونها ناقصة فإن الفعل الحقيقي يدل على معنى وزمان، نحو قولك: (ضرب)؛ فإنه يدل على ما مضى من الزمان، وعلى معنى: الضرب. و(كان) إنما تدل على ما مضى من الزمان فقط، و(يكون)، تدل على ما أنت فيه، أو على ما يأتي من الزمان، فهي تدل على زمان فقط. فلما نقصت دلالتها، كانت ناقصة"^(٢).

وفي (شرح الرضي على الكافية): "وما قال بعضهم من أنها سميت ناقصة، لأنها تدل على الزمان دون المصدر ليس بشيء لأن (كان) في نحو: (كان زيد قائماً)، يدل على الكون الذي هو الحصول المطلق، وخبره يدل على الكون المخصوص، وهو كون القيام، أي: حصوله، فجاء أولاً بلفظ دال على حصول ما، ثم عين بالخبر ذلك الحصول، فكأنك قلت: حصل شيء، ثم قلت: حصل القيام، فالفائدة في إيراد مطلق الحصول

(١) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٩٩/١)، وانظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢٣٨/١).

(٢) شرح المفصل، لابن يعيش (٣٣٥-٣٣٦)، وانظر: معاني النحو (٢٠٩/١).

أولاً. ثم تخصيصه كالفائدة في ضمير الشأن على قبل تعين الشأن مع فائدة أخرى ههنا، وهي: دلالته على تعيين زمان ذلك الحصول المقيد، ولو قلنا (قام زيد)، لم تحصل هاتان الفائدةان معاً، فكان يدل على حصول حدث مطلق تقييده في خبره، وخبره يدل على حدث معين واقع في زمان مطلق تقييده في (كان)، لكن دلالة (كان) على الحدث المطلق، أي: الكون وضعية، ودلالة الخبر على الزمان المطلق عقلية.

فمعنى: (كان زيد قائماً) أن زيداً متصف بصفة القيام، المتصف بصفة الكون، أي: الحصول والوجود" (١).

وفي (معاني النحو): "الحقيقة إنها تدل على الحدث الذي هو الكون، بدليل أنه يأتي منها المصدر واسم الفاعل قال الشاعر.

*** وكونك إياه عليك يسير (٢)

(١) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤/١٨١-١٨٢).

(٢) هذا عجز بيت، وصدره قوله: (ببذل وحلم ساد في قومه الفتى***). انظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (٣١٩/١)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٤٩٨/١)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢٣٤/١)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢٧٠/١)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢٢٨/١)، شرح التصريح على التوضيح (٢٤٠/١)، همع الهوامع (٤١٩/١). قال العيني: "لم أقف على اسم قائله" المقاصد النحوية (٢/٥٨٥). وقوله: (وكونك إياه) استعمل مصدر (كان) الناقصة وأجراه مجراها في رفع الاسم ونصب الخبر.

وقال:

وما كل من ييدي البشاشة كائناً أخاك إذا لم تلفه لك منجداً^(١)
والمصدر هو الحدث المجرد من الزمن، واسم الفاعل يدل على الحدث، وذات الفاعل
فهي إذن تدل على الحدث وهو الكون^(٢).

والأفعال الناقصة هي: كان، وصار، وأصبح، وأمسى، وأضحى، وظل، وبات، وما
زال، وما برح، وما فتى، وما انفك، وما دام، وليس: ترفع الاسم، وتنصب الخبر، تقول:
كان زيد منطلقاً، وصار زيد غنياً، ويجوز في هذا الباب تقديم الخبر على الاسم تقول:
كان منطلقاً زيد، وكان في الدار زيد، وفي التنزيل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾
[الروم: ٤٧]، ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٤]، ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ﴾ [الكهف: ٤٣]^(٣).

وقال ابن الحاجب رحمه الله: "الأفعال الناقصة: ما وضع لتقرير الفاعل على
صفة.."^(٤).

قال الشيخ رضي الدين رحمه الله في (شرحه): "كان ينبغي أن يقيد الصفة فيقول:
على صفة غير مصدره؛ فإن (زيد) في (ضرب زيد) أيضاً، متصف بصفة الضرب، وكذا
جميع الأفعال التامة، وأما الناقصة فهي لتقرير فاعلها على صفة، متصفة بمصادر الناقصة،

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (٣٨٧/١)، اللوحة في شرح الملحة (٥٧٣/٢)، أوضح المسالك (٢٣٥/١)،
شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢٦٩/١)، شرح الأشموني (٢٢٨/١)، شرح التصريح على التوضيح
(٢٤٠/١)، همع الهوامع (٤٢١/١)، شرح تسهيل الفوائد (٣٤٠/١). وقوله: (كائناً) اسم فاعل من
(كان) الناقصة، وقد عمل عملها، فرفع اسماً ونصب خبراً، أما الاسم فهو ضمير مستتر فيه، وأما الخبر
فهو قوله: (أخاك).

(٢) معاني النحو، للدكتور فاضل السامرائي (٢١٠/١).

(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب (ص: ٥٣٣-٥٣٤).

(٤) الكافية في علم النحو، لابن الحاجب (ص: ٤٧).



فمعنى: (كان زيد قائماً): أن زيداً متصف بصفة القيام المتصف بصفة لكون، أي: الحصول والوجود، ومعنى: (صار زيد غنياً): أن زيداً متصف بصفة الغني المتصف بصفة الصيرورة، أي: الحصول بعد أن لم يحصل، قوله: (لتقرير الفاعل على صفة)، أي: جعله وتثنيته عليها" (١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

ترفع كان المبتدا اسماً والخبر	تنصبه ككان سيِّداً عمر
ككان ظلّ بات أضحى أصبحا	أمسى وصار ليس زال برحا
فتى وانفكّ وهذي الأربعة	لشبه نفي أو لنفي متبعه
ومثل كان دام مسبوقاً بما	كأعط ما دمت مصيباً درهماً (٢)

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ: "نواسخ الابتداء قسمان: أفعال وحروف فالأفعال: كان وأخواتها، وأفعال المقاربة، وظن وأخواتها.

والحروف ما وأخواتها ولا التي لنفي الجنس وإن وأخواتها.

وكان وأخواتها كلها أفعال اتفاقاً، إلا (ليس) فذهب الجمهور إلى أنها فعل، وذهب الفارسي رَحِمَهُ اللهُ في أحد قوليه، وأبو بكر بن شقير رَحِمَهُ اللهُ - في أحد قوليه - إلى أنها حرف. وهذه الأفعال قسمان:

منها: ما يعمل هذا العمل بلا شرط: وهي: (كان، وظل، وبات، وأضحى، وأصبح، وأمسى، وصار، وليس).

(١) انظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤/١٨١-١٨٢)، ونحو قول الرضي -الآنف الذكر- قول الشيخ

عبد الحكيم السيالكوتي في (حاشيته على المطول) (ص: ٢٦٠).

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ١٩).

ومنها: ما لا يعمل هذا العمل إلا بشرط، وهو قسمان:

أحدهما: ما يشترط في عمله أن يسبقه نفي لفظاً أو تقديرًا، أو شبه نفي:

وهو أربعة: (زال، وبرح، وفتىء، وانفك).

فمثال النفي لفظاً: (ما زال زيد قائماً).

ومثاله تقديرًا: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالُوا تَأَلَّه تَفْتَوُ تَذَكُّرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥]، أي: لا تفتؤ.

ولا يحذف النافي معها إلا بعد القسم كالآية الكريمة، وقد شذ الحذف بدون القسم، كقول الشاعر:

وأبرح ما أدام الله قومي بحمد الله مُنْتَطِقًا مُجِيدًا^(١)

أي: لا أبرح منتطقًا مجيدًا، أي: صاحب نطاق وجواد ما أدام الله عَزَّجَلَّ قومي.

وعنى بذلك: أنه لا يزال مستغنيًا ما بقي له قومه، وهذا أحسن ما حمل عليه البيت.

ومثال شبه النفي، والمراد به: النهي: قولك: (لا تزل قائمًا)، ومنه قوله:

(١) قال العيني: "قائله: هو خدّاش بن زهير". وقوله: (أبرح) حيث استعمله بدون نفي أو شبه نفي، مع كونه غير مسبوق بالقسم، قال ابن عصفور: وهذا البيت فيه خلاف بين النحويين، فمنهم من قال: إن أداة النفي مرادة، فكأنه قال: (لا أبرح). ومنهم من قال: إن (أبرح) غير منفي، لا في اللفظ ولا في التقدير، والمعنى عنده: أزل بحمد الله عن أن أكون منتطقًا مجيدًا، أي: صاحب نطاق وجواد؛ لأن قومي يكفونني هذا، فعلى الوجه الأخير في كلام ابن عصفور لا استشهاد فيه. انظر: المقاصد النحوية، للبدر العيني (٦١٨/٢-٦١٩)، المعاني الكبير في أبيات المعاني، لابن قتيبة (٨٢/١)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (ص: ٣١٤)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص: ٦٤)، خزنة الأدب (٢٤٣/٩)، زهر الأكم في الأمثال والحكم (١٧٩/١).

صاح شمر ولا تنزل ذاكر المو ت فَنسيانه ضلال مبین^(١)
والدعاء كقولك: (لا يزال الله محسنًا إليك)، وقول الشاعر:
ألا يا اسلمي يا درامي على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر^(٢)

القسم الثاني: ما يشترط في عمله أن يسبقه (ما) المصدرية الظرفية:

وهو (دام) كقولك: (أعط ما دمت مصيبًا درهمًا)، أي: أعط مدة دوامك مصيبًا
درهما، ومنه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، أي: مدة
دوامي حيًّا.

ومعنى (ظلَّ): اتصاف المخبر عنه بالخبر نهارًا.

ومعنى: (بات): اتصافه به ليلاً^(٣).

(١) قال العيني: "لم أقف على اسم قائله. قوله: (ولا تنزل) أجرى فيه (زال) مجرى (كان)؛ لتقدم شبه النفي، وهو
النهى، وقد عُلم أن (زال وأخواتها) لا تفارق أداة النفي في حال نقصانها إما ملفوظًا بها وإما مقدرة"
المقاصد النحوية (٥٨٤/٢-٥٨٥).

(٢) قائله: ذو الرمة. وهو في (ديوانه) (٥٥٩/١) بشرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب. وقوله: (ولا زال.. الخ)
أجرى (زال) مجرى (كان) في رفعها الاسم ونصب الخبر؛ لتقدم (لا) الدعائية عليها، والدعاء شبه النفي.
والمعنى: يدعو لدار حبيبته بأن تدوم لها السلامة على مر الزمان من طوارق الحدثان، وأن يدوم نزول
الامطار بساحتها، وكفى بنزول الامطار عن الخصب والنماء بما يستتبع من رفاهية أهلها، وإقامتهم في
ربوعها، وعدم المهاجرة منها؛ لانتجاع الغيث والكلأ.

(٣) قال الزمخشري: "وظل وبات على معنيين: أحدهما: اقتران مضمون الجملة بالوقتتين الخاصيتين على طريقة كان.
والثاني: كينونتهما بمعنى: صار، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾
[النحل: ٥٨]" المفصل في صناعة الإعراب (ص: ٣٥٣)، وانظر: شرح المفصل، لابن يعيش (٣٥٧/٤).
قال ابن مالك: "وزعم الزمخشري أن (بات) ترد -أيضًا- بمعنى: (صار)، ولا حجة له على ذلك، ولا لمن
وافقه.. انظر: شرح الكافية الشافية (٣٩٤/١).

و(أضحى): اتصافه به في الضحى.

و(أصبح): اتصافه به في الصباح.

و(أمسى): اتصافه به في المساء ^(١).

ومعنى (صار): التحول من صفة إلى صفة أخرى ^(٢).

ومعنى (ليس): النفي، وهي عند الإطلاق لنفي الحال، نحو: (ليس زيد قائماً) أي:

الآن، وعند التقييد بزمن على حسبه، نحو: (ليس زيد قائماً غداً) ^(٣).

ومعنى (زال وأخواتها) ملازمة الخبر المخبر عنه على حسب ما يقتضيه الحال، نحو:

(ما زال زيد ضاحكاً) و(ما زال عمرو أزرق العينين).

ومعنى (دام): بقي واستمر ^(٤).

(١) وأصبح وأمسى وأضحى على ثلاث معان: أحدهما: أن يقرن مضمون الجملة بالأوقات الخاصة التي هي الصباح والمساء والضحى على طريقة كان. والثاني: أن تفيد معنى الدخول في هذه الأوقات كأظهر وأعتَم، وهي في هذا الوجه تامة يسكت على مرفوعها. والثالث: أن يكون بمعنى: صار كقولك: (أصبح زيد غنياً وأمسى أميراً). المفصل (ص: ٣٥٢-٣٥٣)، وانظر: شرح المفصل (٤/٣٥٣).

(٢) ومعنى (صار): الانتقال، وهو على ذلك على استعمالين: أحدهما: قولك: (صار الفقير غنياً، والطين خزفاً)، والثاني: (صار زيد إلى عمرو)، ومنه: (كل حي صائر إلى الزوال). انظر: المفصل (ص: ٣٥٢). الفائق، للزمخشري (١/٦٨)، وانظر: شرح المفصل (٤/٣٥٣).

(٣) قال الزمخشري: "و(ليس) معناه: نفي مضمون الجملة في الحال، تقول: (ليس زيد قائماً الآن)، ولا تقول: (ليس زيد قائماً غداً). والذي يصدق أنه فعل: لحق الضمائر وتاء التأنيث ساكنة به..". انظر: المفصل (ص: ٣٥٥)، شرح المفصل (٤/٣٦٥).

(٤) شرح ابن عقيل (١/٢٦١-٢٦٨)، وانظر: شرح الأشموني (١/٢٢١)، مع الهوامع (١/٤١١). قال الزمخشري: "وما دام توقيت للفعل في قولك: (أجلس ما دمت جالساً)، كأنك قلت: (أجلس دوام جلوسك)، نحو قولهم: (آتيك خفوق النجم ومقدم الحاج)؛ ولذلك كان مفتقراً إلى أن يشفع بكلام؛ لأنه ظرف لا بد له مما يقع فيه" المفصل (ص: ٣٥٥)، شرح المفصل (٤/٣٦٥). وانظر في ذلك كله الكافية في علم النحو، لابن الحاجب (ص: ٤٧-٤٨) وشرحها للرضي.



وتجيء (كان) تامة بمعنى: حدث، ووجد، كما في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

و(كان) التامة مثل الأفعال الأخرى تدل على حدث وزمن.

بينما (كان) الناقصة تدل على الزمن فقط، فهي تخلو من الحدث، ولا فاعل لها.

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومنع سبق خبر ليس اصطفي وذو تمام ما برفع يكتفي
وما سواه ناقص والنقص في فتىء ليس زال دائماً قفي^(١)
فقوله: "(ذو تمام.. إلى آخره) معناه: أن هذه الأفعال انقسمت إلى قسمين:
أحدهما: ما يكون تاماً وناقصاً.

والثاني: ما لا يكون إلا ناقصاً.

والمراد بالتام: ما يكتفي بمرفوعه، وبالناقص: ما لا يكتفي بمرفوعه، بل يحتاج معه إلى منصوب.

وكل هذه الأفعال يجوز أن تستعمل تامة، إلا (فتىء)، و(زال التي مضارعها: يزال)، لا التي مضارعها: يزول؛ فإنها تامة، نحو: زالت الشمس، و(ليس) فإنها لا تستعمل إلا ناقصة.

ومثال التام: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] أي: إن وجد ذو عسرة، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧]، أي: ما بقيت، وقوله

(١) ألفية ابن مالك (ص: ١٩).

جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُمَسُّونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] ^(١)، أي: حين تدخلون في المساء، وحين تدخلون في الصباح.

وقوله: (***) وذو تمام ما برفع يكتفي)، وقول من تبعه من الشُّراح مخالف لمذهب سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ وأكثر البصريين، من أن معنى تمامها: دلالتها على الحدث والزمان، وكذا الخلاف في تسمية ما ينصب الخبر ناقصاً، لم سمي ناقصاً؟ فعلى الأول: لكونه لم يكتف بمرفوعه، وعلى قول الأكثرين: لكونه سلب الدلالة على الحدث، وتجرد للدلالة على الزمان، واستدل ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ على بطلان مذهب الأكثرين بعشرة أوجه مذكورة في (شرحه على التسهيل) ^(٢).

و(كان) فعل ماض ناقص، غير أنها لا تختص بالماضي فقط، بل قد تكون لغيره، وقد ذكر كثير من النحاة تلك المعاني التي تخرج فيها (كان) عن الماضي إلى معاني أخرى، وقد أجمل هذه المعاني صاحب (الكليات) رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث قال: "تأتي (كان) بمعنى: وقع، نحو: (ما شاء الله كان).

وبمعنى: صار، نحو: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ^(٣).

وبمعنى: الاستقبال، نحو: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] ^(٤).

(١) شرح ابن عقيل (٢٧٩/١)، وانظر: شرح الأشموني (٢٣٥/١).

(٢) شرح التصريح على التوضيح (٢٤٩/١)، وانظر: شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٣٣٨/١-٣٤٠).

(٣) ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿ [النبا: ١٩-٢٠]، وقوله: ﴿وُبْسَتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُثْبَتًا ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿ [الواقعة: ٥-٧].

(٤) ونحوه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]. قال في (معاني النحو):

"والذي أراه في مثل هذا أنه من باب: (تنزيل المستقبل منزلة الماضي)؛ لبيان أنه محقق الوقوع، وأنه بمنزلة=



ومعنى: الماضي المنقطع، نحو: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: ٤٨] ^(١).

ومعنى: الحال، نحو: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] ^(٢).

= ما مضى وفرغ منه، وذلك نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، وهذا في القرآن كثير؛ فإن القرآن كثيراً ما يخبر عن المستقبل بلفظ الماضي؛ لبيان أن هذا المستقبل بمنزلة ما مضى، فكما أن الذي وقع وحصل لا شك فيه، فهذا كذلك "معاني النحو (١/٢١٦-٢١٧)"، وقد تقدم بيان التجوز في الأفعال في القرآن الكريم مفصلاً.

(١) "وهو الغالب عليها، كأن تقول: (كان خالد غنياً، وأصبح فقيراً)، ومنه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ [التوبة: ٦٩] والماضي المنقطع على ضربين: ١- ضرب يراد به الاتصاف بالحدث في الزمن الماضي على وجه الثبوت نحو: (كان محمد شاعراً)، و﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ [التوبة: ٦٩]، أي: متصفين بهذه الصفات على وجه الثبوت، وهذا إذا كان خبرها اسماً. ٢- وضرب يراد به أنه حصل مرة، ولم يكن وصفاً ثابتاً، وذلك إذا كان خبرها فعلاً ماضياً، وذلك كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا ذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ١٥]، أي: أحدثوا معه عهداً سابقاً "معاني النحو (١/٢١٠-٢١١)".

(٢) ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، وقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. قال في (معاني النحو): "والذي أراه أنها بمعنى المضي فمعنى قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]: "وجدتم خير أمة، وقيل: كنتم في علم الله عَزَّوَجَلَّ خير أمة، وقيل: كنتم في الأمم مذكورين بأنكم خير أمة، موصوفين به" الكشاف (١/٤٠٠)، وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أي: فرضت عليهم، أو كتبت عليهم، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فهي مفروضة على المؤمنين منذ القديم، وكذلك البواقي "معاني النحو (١/٢١٦)".



وبمعنى: الأزل والأبد، نحو: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [النساء: ١٧].

وبمعنى: الدوام والاستمرار، نحو: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٩٦﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ۝٨١﴾ [الأنبياء: ٨١]، أي: لم نزل كذلك، وعلى هذا المعنى يتخرج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان.

وبمعنى: ينبغي، نحو: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠]، [أو هي بمعنى القدرة والاستطاعة] (١).

وبمعنى: صح وثبت، كقوله: (صَحَّ عِنْدَ النَّاسِ أَنِّي عَاشِقٌ ***) (٢)، ثم إنهم لما أرادوا نفي الأمر بأبلغ الوجوه قالوا: ما كان لك أن تفعل كذا، حتى استعمل فيما هو محال، أو قريب منه، فمن الأول: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ۝٣٥﴾ [مريم: ٣٥].

(١) وقيل: هي بمعنى: القدرة، أي: ما قدرتم. انظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها (ص: ١١٦). وقد

قال غير واحد في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۝١١٦﴾ [المائدة: ١١٦]،

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ ۝١٥٠﴾ [يونس: ١٥٠]: يعني: ما ينبغي لي. انظر: تفسير مقاتل

(٥١٩/١)، الكشف (٦٩٤/١)، (٣٣٤/٢)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٥٤١/٢)، ومن ذلك

قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ۝٨٩﴾ [الأعراف: ٨٩]، ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ۝١٦﴾ [النور: ١٦]. وفي قوله

جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠]، أي: لا تستطيعون ذلك. وفي السياق والقرائن ما

يدل على المعنى المراد.

(٢) ونماه: (***) غَيَّرَ أَنْ لَمْ يَعْلَمُوا عِشْقِي لِمَنْ). انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (٣٧٣/١٣)، وفيات الأعيان

(٢٧٥/٢)، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٤٦١/٢).

ومن الثاني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢]، أي: ما صح له وما استقام (١).

وتكون للتأكيد، وهي: الزائدة، وجعل منه: ﴿وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] (٢).

وفي (معاني النحو): التفريق بين الماضي المتجدد والمعتاد: وذلك إذا كان خبرها فعلا مضارعاً، وهو نوعان:

١ - الماضي المستمر: وهو ما حدث مرة وكان مستمراً في حينه، نحو: (كنت أقرأ في كتابي فجاءني خالد)، أي: كنت مستمراً على القراءة فجاءني خالد.

٢ - الماضي المعتاد أو الدلالة على العادة في الماضي: أي: كان الفاعل يعتاد الفعل، نحو: (كان يقوم الليل)، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ

(١) قال الزمخشري في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾

وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِإِنِّي أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا

أَنْ نَّعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. أن يقتل مؤمناً ابتداء غير قصاص إلا خطأ إلا على وجه الخطأ" الكشاف

(٥٤٨/١). ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ

رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]. قال الطبري: "معناه: ما صح لهم ولا استقام أن

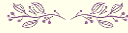
يترفعوا بأنفسهم عن نفسه، أي: بأن يكرهوا الشدائد لأنفسهم، ولا يكرهوها له؛ فإنه مستهجن جداً، بل

عليهم أن يعكسوا القضية" حاشية الطبري على الكشاف (٣٩٤/٧)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي =

(٣٧٣/٤)، روح المعاني (٤٣/٦). ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِإِنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُوَ

أَسْرَى﴾ [الأنفال: ٦٧].

(٢) الكليات (ص: ٧٤٨-٧٤٩).



﴿١٧﴾ [الذاريات: ١٧]، أي: هذه عادتهم. وقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٥٥]، أي: كان مستمرًا على ذلك.

ومن معانيها: **توقع الحدوث في الماضي**: تقول: (كان محمد سيفعل هذا) أي: كان متوقعًا منه الفعل في الماضي، أو بمعنى: أنه كان ينوي فعله في الماضي. جاء في (الخصائص) ^(١): "(كان زيد سيقوم أمس): أي كان متوقعًا منه القيام فيما مضى" ^(٢).



(١) انظر: الخصائص، لأبي الفتح بن جني (٣/٣٢٥).

(٢) معاني النحو (١/٢١١-٢١٢)، وانظر معانيها واستعمالاتها مفصلة في (معاني النحو).

البحث الثامن عشر

دلالة الحال في اللغة على الزمان

أولاً: تعريف الحال:

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

الحال وصف فضلة منتصب مفهم في حال كفرًا أذهب^(١)
الحال وهو: وصفٌ فضلةٌ يبيِّنُ هيئةَ صاحبه عند وقوع الفعل، مثل: (جاء زيدٌ ضاحِكًا)، فضاِحِكًا: حال منصوب؛ لأنه وصف، أي: اسم مشتق؛ لكونه اسم فاعل، وفضلة، أي: ليس مسندًا ولا مسندًا إليه؛ إذ المسند هو (جاء)، والمسند إليه هو (زيدٌ)، وقد بيَّن هيئة زيد عند وقوع المجيء، بدليل أنه يقال: كيف جاء زيدٌ؟ فيقال: راكبًا، وهذه علامة الحال صحة وقوعها في جواب: (كيف)، ويسمى زيدٌ: صاحب الحال.

قال الشيخ أبو البركات الأنباري رَحِمَهُ اللهُ: "إن قال قائل: ما الحال؟ قيل: هيئة الفاعل والمفعول، ألا ترى أنك إذا قلت: (جائي زيد راكبًا) كان الركوب هيئة زيد عند وقوع المجيء منه، وإذا قلت: (ضربتَه مشدودًا)؛ كان الشدُّ هيئة عند وقوع الضرب له"^(٢). وفي (شرح المفصل): "الحال وَصْفُ هَيْئَةِ الْفَاعِلِ أَوْ الْمَفْعُولِ، وَذَلِكَ نَحْوُ: (جاء زيدٌ ضاحِكًا)، و(أقبل محمدٌ مُسرِعًا)، و(ضربتُ عبدَ اللهَ باكِيًا)، و(لقيتُ الأميرَ عادِلًا).

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٣٢).

(٢) أسرار العربية، لأبي البركات كمال الدين الأنباري (ص: ١٥٠).



والمعنى: جاء عبدُ الله في هذه الحال، ولقيتُ الأمير في هذه الحال. واعتباره بأن يقع في جواب (كَيْفَ). فإذا قلت: (أقبل عبدُ الله ضاحكًا)، فكأنَّ سائلًا سأل: (كيف أقبل؟) فقلت: (أقبل ضاحكًا)، كما يقع المفعولُ له في جواب: (لَمْ فَعَلْتُ؟)" (١).

فالوصف: جنس يشمل: الخبر والنعت والحال.

و(فضلة): مخرج للخبر؛ فإن الوصف فيه عمدة.

والأصل في الحال بسبب كونه فضلة أنه يجوز حذفه، وقد يجب ذكره، في مواضع. فمعنى كونه (فضلة) أنه ليس مسندًا إليه، وليس معنى ذلك أنه يصح الاستغناء عنه في جميع الأحوال؛ إذ قد تجيء الحال غير مستغنى عنها، فلا يصح حذفها؛ لتوقف صحة المعنى على ذكرها، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

ومن الأحوال التي لا تحذف؛ لكون المراد لا يفهم إلا بشبوتها: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

ومن المواضع التي يجب فيها ذكر الحال: أن تكون محصورة في صاحبها، أو محصورًا فيها صاحبها، فالأول نحو: (ما جاء راكبًا إلا علي)، والآخر نحو: (ما جاء علي إلا راكبًا)، قال الله عزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

(١) شرح المفصل، لابن يعيش (٤/٢)، وانظر: اللمع في العربية، لابن جني (ص: ٦٢).



ومنها: أن يكون الحال جوابًا، كقولك: كقولك: (راكبًا) في جواب من قال: (كيف جئت؟).

ومنها: أن تكون الحال نائبة مناب الخبر، نحو: (ضربي زيدًا قائمًا)، فيمتنع حذفها هنا؛ لسدها مسد الخبر.

ومنها: أن تكون بدلًا من التلغظ بفعلها، نحو: (هنيئًا لك).
وبسط ذلك في مظانه ^(١).

وخرج بقوله: (للدلالة على الهيئة): التمييز المشتق، نحو: (لله دره فارسًا)؛ فإنه تمييز لا حال على الصحيح؛ إذ لم يقصد به الدلالة على الهيئة، بل التعجب من فروسيته، فهو لبيان المتعجب منه، لا لبيان هيئته.

وكذلك: (رأيت رجلًا راكبًا)؛ فإن (راكبًا) لم يسق للدلالة على الهيئة، بل لتخصيص الرجل.

وقول المصنف مفهم في حال هو معنى قولنا: للدلالة على الهيئة.

كذا في (شرح ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ) ^(٢).

و(منتصب) مخرج لنعتي المرفوع والمخفوض، ك: (جاءني رجل راكب) و(مررت برجل راكب).

(١) انظر: شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٣٥٣/٢)، شرح الكافية الشافية (٧٦٦/٢)، همع الهوامع، للسيوطي

(٢) (٣٣٤/٢)، اللباب في علل البناء والإعراب (١٤٥/١).

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢٤٣/٢-٢٤٤).

قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ: "وفي هذا الحد نظر؛ لأن النصب حكم، والحكم فرع التصور، والتصور متوقف على الحد، فجاء الدور" (١).

ثانيًا: تعدد الحال وصاحبها مفرد أو متعدد:

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

والحال قد يجيء ذا تعدُّد لمفردٍ فاعلم وغير مفرد
وعامل الحال بها قد أُكِّدًا في نحو: لا تعث في الأرض مفسدًا (٢)
يجوز تعدد الحال وصاحبها مفرد أو متعدد.

فمثال الأول: (جاء زيد راكبًا ضاحكًا) ف: راكبًا وضاحكًا حالان من زيد، والعامل فيهما: جاء. خلافًا لابن عصفور رَحِمَهُ اللهُ في منعه تعدد الحال في هذا النحو ما لم يكن العامل أفعل التفضيل، نحو: (هذا بُسرًا أطيبُ منه رُطبًا) (٣).

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢/٢٥٠). قال الأخضري: (وعندهم من جملة المردود*** أن تَدْخُلَ الأحكام في الحدود)، يشترط في التعريف: أن لا يكون التعريف مشتملاً على الحكم؛ بحيث يثبت صفة للتعريف، أو ينفيها عنه؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره. والسبب في منع إدخال الأحكام في التعاريف هو أن الحكم لا يعرف بثبوته إلا بعد تصور المحكوم عليه، فلو جعل جزءاً من تعريفه لزم الدور، كقولهم: الفاعل هو الاسم المرفوع، فالرفع حكمٌ من أحكام الفاعل، والحكم على الشيء متوقف على تصوره، فإذا أخذ الحكم جزءاً في التعريف توقف المعرف عليه، وحصل الدور الذي هو توقف كل من الشيئين على الآخر.

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ٣٣).

(٣) قوله: (بسرًا) بضم الموحدة وسكون المهملة، (أطيب منه رُطبًا) بضم الراء وفتح الطاء؛ ف: (بسرًا) حال من فاعل (أطيب)، المستتر فيه، و(رُطبًا): حال من الضمير المجرور بـ: (من)، والمعنى: هذا في حال كونه بسرًا أطيب من نفسه في حال كونه رُطبًا.. كذا في (شرح التصريح) (١/٥٧٦).

ونقل المنع عن الفارسي رَحِمَهُ اللهُ وجماعة؛ ف: (ضاحكًا) في المثال عندهم نعت لراكب، أو حال من الضمير في (راكب).

والثاني: قد يكون بجمع، نحو: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ونحو: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّ﴾ [النحل: ١٢]. وقد تكون بتفريق، وله طريقتان:

إحداهما: أن تولي كل حال صاحبه نحو: (لقيت مصعدًا زيدًا منحدرًا)، ولا إشكال فيها ^(١).

والأخرى: أن تؤخرهما، نحو: (لقيت زيدًا مُصْعِدًا منحدرًا).

فإن لم تكن قرينة تعين جعل الأولى للثاني، والثانية للأول؛ لتتصل إحداهما بصاحبه، خلافًا لمن عكس ^(٢).

وإن وجدت قرينة عمل بها ^(٣)، نحو:

خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا *** (٤)

(١) فلا يجوز أن يكون (المصعد) إلا أنت، و(المنحدر) إلا (زيدًا)؛ لأنك إن قدمت وأخرت التيسر. انظر: الأصول في النحو، لابن السراج (٢٤٥/٢-٢٤٦)، المقتضب (١٦٩/٤)، شرح الكافية الشافية (٧٥٥/٢)، همع الهوامع (٣١٦/٢).

(٢) قال في (الأصول): "ومن كلام العرب: (رأيت زيدًا مصعدًا منحدرًا)، و(رأيت زيدًا ماشيًا راكبًا) إذا كان أحدهما ماشيًا والآخر راكبًا، وأحدكما مصعدًا والآخر منحدرًا. تعني: أنك إذا قلت: (رأيت زيدًا مصعدًا منحدرًا) أن تكون أنت المصعد، وزيد المنحدر، فيكون (مصعدًا) حالًا للتاء و(منحدرًا) حالًا لزيد، وكيف قدرت بعد أن يعلم السامع من المصعد، ومن المنحدر جاز" الأصول في النحو (٢١٨/١)، شرح المفصل، لابن يعيش (٦/٢)، وانظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٦/٢).

(٣) انظر: شرح ابن عقيل (٢٧٤/٢)، توضيح المقاصد (٧١٤-٧١٥)، شرح الأشموني (٢٦-٢٧).

(٤) هذا صدر بيت لامرئ القيس من (معلقته)، وعجزه: (على أثرينا ذيل مرط مُرَحَّل). ديوان امرئ القيس (ص: ٣٨). والشاهد: وقوع الجملتين: (أمشي) و(تجر) في محل نصب على الحال، غير أن صاحب كل =

ثانيًا: الحال المؤكدة، وغير المؤكدة:

وتنقسم الحال إلى مؤكدة، وغير مؤكدة، فالمؤكدة على قسمين، وغير المؤكدة ما سوى القسمين.

فالقسم الأول من المؤكدة: ما أكدت عاملها -وهي المراد بهذا البيت- وهي: كل وصف دل على معنى عامله وخالفه لفظًا وهو الأكثر، أو وافقه لفظًا، وهو دون الأول في الكثرة.

فمثال الأول: لا تعث في الأرض مفسدًا.

ومنه قوله **جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾** [البقرة: ٦٠]، وقوله: **﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾** [التوبة: ٢٥].

ومن الثاني: قوله **جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴿٧٩﴾﴾** [النساء: ٧٩]، وقوله: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي ﴿١٢﴾﴾** [النحل: ١٢].

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

وإن تؤكد جملة فمضمرة عاملها ولفظها يؤخر ^(١)

القسم الثاني من الحال المؤكدة: ما أكدت مضمون الجملة.

وشرط الجملة: أن تكون اسمية، وجزأها معرفتان جامدان، نحو: (زيد أخوك عطوفًا) ^(٢)، و(أنا زيد معروفًا)، ومنه قوله:

= واحد غير الآخر؛ فجاء الحالان على ترتيب الصاحبين؛ الأول للأول، والثاني للثاني؛ لأمن اللبس؛ لأن (أمشي) مذكر، و(تجر) مؤنث، ومعلوم أن الحال يطابق صاحبه في التذكير والتأنيث.

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٣٣).

(٢) وهذه جملة معقودة من اسمين معرفتين جامدتين، وهذه الحال واجبة التأخير عن الجملة المذكورة، وهي معمولة لمخدوف وجوبًا، تقديره: أحقه ونحوه" أوضح المسالك (٢/ ٢٨٤).

وأنا ابن دارة معروفًا بها نسبي *** (١)

ف: (عطوفًا) و(معروفًا) حالان، وهما منصوبان بفعل محذوف وجوبًا، والتقدير في الأول: أحقه عطوفًا، وفي الثاني: أحق معروفًا.

ولا يجوز تقديم هذه الحال على هذه الجملة، فلا تقول: (عطوفًا زيد أخوك)، ولا (معروفًا أنا زيد)، ولا توسطها بين المبتدأ والخبر، فلا تقول: (زيد عطوفًا أخوك) (٢). وبناء على ما تقدم فقد أوجز ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ تعريفاً الحال في (شذور الذهب)، حيث قال: (الحال هو وصف، فضلة، مسوق؛ لبيان هيئة صاحبه، أو تأكيده، أو تأكيد عامله، أو مضمون الجملة قبله).

قال: "ويأتي من الفاعل (٣)، ومن المفعول (٤)، ومنهما (٥) مطلقًا (٦)،....."

(١) صدر بيت قائله: سالم بن دارة اليربوعي. والشاهد فيه قوله: (معروفًا)؛ فإنه حال أكدت مضمون الجملة التي قبلها، والتقدير: أحق معروفًا. انظر: الكتاب، لسيبويه (٧٩/٢)، الخصائص، لابن جني (٢٧٠/٢)، المفصل في صنعة الإعراب (ص: ٩٢)، شرح المفصل (٢١/٢)، شرح الكافية الشافية (٧٥٦/٢)، توضيح المقاصد (٧١٦/٢)، مغني اللبيب (ص: ٦٠٥).

(٢) شرح ابن عقيل (٢٧٦/٢-٢٧٧).

(٣) أي: يكون صاحب الحال فاعلاً، نحو: (جاء زيد راكبًا)، ونحو: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾ [القصص: ٢١].

(٤) أي: يكون صاحب الحال مفعولاً، نحو: ضربت اللصَّ مكتوفًا، ونحو: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩].

(٥) ومن الفاعل والمفعول، نحو: (زيد لقبيته راكبين) ف: (راكبين) مبين لهيئة الفاعل، وهو تاء المتكلم، وهيئة المفعول، وهو هاء الغائب. كذا في (شرح التصريح) (٥٦٩/١)، وانظر: المفصل (ص: ٨٩)، أوضح المسالك (٢٥٠/٢)، شرح شذور الذهب، لشمس الدين الجوجري (٤٥٢/٢).

(٦) قوله: (مطلقًا) أي: تأتي الحال من الفاعل، ومن المفعول، ومنهما بلا شرط. بخلاف مجيئها من المضاف إليه؛ فإنه مشروط بأن يكون المضاف بعضه، أي: بعض المضاف إليه.

..ومن المضاف إليه إن كان المضاف بعضه نحو: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] ^(١)، أو كبعضه نحو: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] ^(٢)، أو عاملاً فيها، نحو: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤] ^(٣).... " (٤).

وتفصيل ذلك في مظانه.

ومنع بعض النحاة مجيء الحال من المضاف إليه إذا كان المضاف بعضاً، أو كبعض منه؛ لأنه يصير العامل في الحال غير العامل في صاحبها، وهو ممتنع.

والصواب اعتباره، لأنه إذا كان بعض المضاف إليه أو كبعضه كانا كالشيء الواحد، وصح مجيء الحال منه، ألا ترى أنه لو قيل في الكلام: (ونزعنا ما فيهم من غلٍّ)، و(اتبع إبراهيم حنيفاً) لكان سائعاً حسناً" ^(٥).

(١) ونحو: (أعجبنى وجهها مسفرة)، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: ٤٧].

(٢) أو يكون كبعضه، أي يكون المضاف كبعض المضاف إليه، بأن يستقيم الكلام بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

(٣) أو عاملاً، أي: أو يكون المضاف عاملاً في الحال، نحو: (أعجبنى انطلاقتك منفرداً)، ونحو: (هذا شارب السويق ملتوتاً الآن أو غداً) فـ: (ملتوتاً) حال من (السويق) المضاف إليه شارب، و(شارب): اسم فاعل عامل في الحال النصب؛ لأنه بمعنى: الحال أو الاستقبال، واعتماده على المخبر عنه. كذا في (شرح التصريح) (٥٩٢/١)، و(شرح الجوجري) (٤٥١/٢-٤٥٤)، وانظر: شرح الأشموني (٢٠/٢)، وحاشية الصبان (٢٦٦/٢). و(السويق): ما يتخذ من القمح والشعير، و(الملتوت): من لت السويق؛ سحقه وبله وبسه بالماء.

(٤) انظر ذلك مفصلاً في (شرح شذور الذهب)، لابن هشام (ص: ٣١٦)، شرح شذور الذهب، لشمس الدين الجوجري (٤٤٦/٢).

(٥) انظر: شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٣٤٢/٢)، شرح شذور الذهب، لشمس الدين الجوجري (٤٥٤/٢)، شرح شذور الذهب، لابن هشام (٣٢٢/١)، شرح التصريح على التوضيح (٥٩٢/١).

رابعاً: أقسام الحال بالنسبة للزمان:

والحال بالنسبة للزمان ثلاثة أقسام:

١ - مقارنة: وهي الغالبة نحو: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]. يعني: أن الحال بها مقارنة لزمان الحدث، وهي الغالبة من أنواع الحال؛ لأن الحال تقتزن زماناً بعاملها مع صاحبها.

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، فقوله: ﴿خَائِفًا﴾ والجملة الفعلية ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ حالان من الفاعل الضمير المستتر في قوله: ﴿فَخَرَجَ﴾، وهي حال مقارنة دون النظر إلى زمن عاملها وزمنها في الماضي؛ لأن النظر فيها يكون إلى الاقتران الزمني بين الحال وعاملها مع صاحبها، وزمن الاثنين في الماضي، وهما مقترنان زمنياً.

٢ - مقدرة: وهي المستقبلية، نحو: كمررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي: مقدراً ذلك^(١)، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَلْدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فقوله: ﴿خَلْدِينَ﴾^(٢) حال، وصاحبها الفاعل في قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾، والعامل فعل الأمر (ادخل)، والحال هنا مقدرة، حيث زمنها مستقبل بالنسبة إلى زمن عاملها مع صاحبها؛ لأن الخلود - وهو معنى الحال - يأتي بعد دخول الجنة.

(١) "كانت الحال مقارنة لمقارنة التقدير المرور، فجعلها مستقبلة إنما هو بالنظر إلى الصيد نفسه لا إلى تقديره، وهل يلزم أن يكون المقدر للحال هو صاحبها أو لا؟ قولان. انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك (٢/٢٨٨).

فالحال المقدرة هي الحال التي ينتظر زمنها، أو يستقبل بالنسبة لزمن عاملها مع صاحبها.

قال في (الكليات): "الحال المقدرة: هي أن تكون غير موجودة حين وقع الفعل، وهي المستقبلية" (١).

وقال ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ: "والذي يتحرَّر لي أن الحال على ضربين: حال مقارنة ومنتظرة، وتسمى: (حالا مقدرة)، فالأولى ظاهرة.

والثانية نحو: ﴿فَادْخُلُوهَا خَلِيدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]؛ فإن الخلود ليس شيئاً يقارن الدخول، وإنما هو استمرار في المستقبل، ويقدر النحويون ذلك: ادخلوها مقدرين الخلود.

وكذلك: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، أي: مقدرين ذلك؛ فإنهم في حال الدخول لا يكونون محلّقين ومقصرين، إنما هم مقدرون الحلق والتقصير، فهذه الحال لا يمتنع اقتراحها بحرف الاستقبال؛ لأنها مستقبلية، بخلاف الحال الأولى" (٢).

وذكر في (المغني) أن انقسامها بحسب الزمان إلى ثلاثة، فزاد: (الحال المحكية)، وهي محل نظر - كما سيأتيك - (٣).

ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَفَقِّينَ وَالْمُتَفَقِّدِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٦٨]، أي: مقدرين الخلود.

(١) الكليات (ص: ٣٧٥).

(٢) اعتراض الشرط على الشرط، لابن هشام (ص: ٤٦-٤٧)، وانظر: أمالي ابن الشجري (١/١١٨)، (٣/١٤).

(٣) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (ص: ٦٠٥-٦٠٦)، وبتحقيق الدكتور عبد اللطيف الخطيب (٥/٤٢٧-٤٢٩).

(٤٢٩)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢/٣١٩)، شرح التصريح على التوضيح (١/٦٠٤).

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء: ١٣]: "أي: يدخلهم مقدرين الخلود فيها، والحال يستقبل بها، تقول: (مررت به معه باز صائداً به غداً)، أي: مقدراً الصيد به غداً" (١).
وقال ابن الشجري رَحِمَهُ اللَّهُ في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤]: يحتمل عامل النصب في ﴿خَالِدِينَ﴾ على الحال وجهين:

أحدهما: أن يكون ناصبه ما في ﴿أُولَئِكَ﴾ من معنى: أشير، فتكون الحال على هذا حالاً مقدرة، مثلها في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي: مقدرين الخلود.

والوجه الآخر: أن تنصب ﴿خَالِدِينَ﴾ بأصحاب، فلا تكون حالاً مقدرة، كأنه قيل: أولئك مالكو الجنة خالدين فيها" (٢).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].
فإن قلت: فرق بين هذا وبين قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، وذلك أن المدخول موجود مع وجود الدخول، والخلود غير موجود معهما، فقدرت: مقدرين الخلود فكان مستقيماً، وليس كذلك المبشر به؛ فإنه معدوم وقت وجود البشارة، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة؛ لأن الحال حلية، والحلية لا تقوم إلا بالمحلى، وهذا المبشر به الذي هو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ حين وجد لم توجد النبوة أيضاً بوجوده، بل تراخت عنه مدة متطاولة،

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢٧/٢).

(٢) أمالي ابن الشجري (٤٧٥/٢).

فكيف يجعل ﴿نَبِيًّا﴾ حالاً مقدّرة، والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به، فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة، فتقديرها صفتهم^(١)، لأن المعنى: مقدرين الخلود، وليس كذلك النبوة؛ فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدرة وقت وجود البشارة بإسحاق عَلَيْهِ السَّلَام؛ لعدم إسحاق. قلت: هذا سؤال دقيق السلك، ضيق المسلك، والذي يحل الإشكال: أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف، وذلك قولك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾، أي: بأن يوجد مقدرة نبوته^(٢)، فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة، وبذلك يرجع، نظير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَادْخُلُوهَا خَلِيدِينَ﴾.

(١) قوله: (فتقديرها صفتهم) لعله: فتقديره. الانتصاف (٥٨/٤).

(٢) قال العلامة الطيبي: "هذا البحث موقوف على مقدمة، وهي: أنه تقرر عند أصحاب المعاني أن لا بد من تقرر الوصف والموصوف معاً عند إثباته له. قال صاحب (المفتاح): إن حق كل ما يقصد ثبوته للغير: أن يكون في نفسه ثابتاً وعندك، فما لا يكون ثابتاً كذلك أو متحققاً يمتنع منك جعله وصفاً. وقال: إن محاولة إثبات الثابت في نفسه لشيء آخر يستدعي ثبوت ذلك الشيء الآخر في نفسه لا محالة. وهو المراد من قول المصنف، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله؛ لأن الحال حلية، والحلية لا تقوم إلا بالخلقي؛ ولهذه النكتة قالوا في قوله: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ [النساء: ١٣]، حال مقدرة؛ لأن الخلود لم يكن صفتهم عند دخول الجنة، وعلى هذا ذو الحال-الذي هو الموصوف في الحقيقة وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَام- لم يكن موجوداً عند البشارة، فلا بد من التأويل وتقدير الوجود. قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١١٢] مقضياً نبوته مقدراً كونه من الصالحين، وبهذا الاعتبار وقعا حالين، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة؛ فإن وجود ذي الحال غير شرط، بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به؛ لاعتبار المعنى بالحال، فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملاً فيهما مثل: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾ بوجود إسحاق، أي: بأن يوجد إسحاق نبياً من الصالحين، ومع ذلك لا يصير نظير قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَلِيدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]؛ فإن الداخلين مقدورون خلودهم وقت الدخول، وإسحاق عَلَيْهِ السَّلَام لم يكن مقدراً نبوة نفسه وصلاحها حينما يوجد" حاشية الطيبي على الكشاف (١٣/١٩٢-١٩٣)، =

وقوله: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣) حال ثانية، وورودها على سبيل الثناء والتقريض؛ لأن كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين" (١).
ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (٢١) [ق: ٣٤].
إلى غير ذلك.

٣ - الحال المحكية: وهي الماضية نحو: جاء زيد أمس ركباً (٢).

قال الشيخ الأشموني رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفيه نظر (٣). ووجه النظر في هذا القسم - كما ذكر الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رَحِمَهُ اللَّهُ - : أن المدار في مقارنة الحال وعدم مقارنتها إنما هو على مقارنتها لعاملها. ولا شك أن التي سماها ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ ماضية هي عند التحقيق مقارنة لعاملها في زمانه، والظاهر أن ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ فهم أن الغرض مقارنتها لزمان التكلم، ولو كان كما ظنه لتحقيق وجود هذا القسم، لكن الأمر ليس كما ظن، بل هو على ما قدمنا، لا جرم لم يكن لهذا القسم وجود، فإن قلت: فالوصف الذي وقع حالاً قد أريد به الزمن الماضي. قلت: لا ضرر في ذلك؛ لأن أقصى ما فيه أن يكون استعمالاً مجازياً؛ ولا حرج فيه اهـ.

= تفسير البيضاوي (١٦/٥)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي (٢٨١/٧)، حاشيتا القونوي وابن

التمجيد على البيضاوي (٣٠٥/١٦).

(١) الكشف (٥٩-٥٨/٤).

(٢) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (ص: ٦٠٥-٦٠٦)، وتحقيق الدكتور عبد اللطيف الخطيب (٤٢٧/٥-).

(٤٢٩)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٣١٩/٢)، شرح التصريح على التوضيح (٦٠٤/١).

(٣) انظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٤٥/٢).

وقال الشيخ الصبان رَحِمَهُ اللهُ فِي (حاشيته): "قوله: (وفيه نظر) أي: فِي إثبات هذا القسم والتمثيل له بما ذكر؛ لأن العبرة بمقارنة الحال لزمان العامل، وهي موجودة، لا لزمان التكلم، غاية ما هناك أنه عبر باسم الفاعل الذي هو حقيقة فِي الحال عن الماضي؛ حكاية للحال الماضية مجازاً" (١).

والحال تنقسم باعتبارات تنظر فِي مظاهرها (٢)، وما يعيننا هنا هو انقسامها بحسب الزمان على ما تقدم. وذكر كذلك ما يهدي إلى التعريف.

وهناك قاعدة مشهورة عند العلماء وهي أن: (الحال وصف لصاحبها قيد لعاملها)

فإذا قلت: (جاء زيدٌ ضاحكًا)، فالضحك من حيث المعنى وصف لصاحب الحال وهو (زيد)، وهو قيدٌ للذي نصب ضاحكًا وهو (جاء)؛ لأنَّ المعنى هو أنه ضاحكٌ فِي وقت المجيء.

وبهذا يتبين الفرق بين الحال والنعته فإن النعت لا يقيد عامله، تقول: جاء زيدٌ الضاحكُ، فالضاحكُ وصف لزيد، وقد يكون ضاحكًا قبل المجيء لا حال المجيء، بخلاف قولك: (جاء زيدٌ ضاحكًا)، فهو ينص على أنه وقت المجيء كان ضاحكًا، وقد لا يكون قبل المجيء كذلك.

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني (٢/٢٨٨).

(٢) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (ص: ٦٠٤)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢/٤٤)، حاشية الصبان

على شرح الأشموني (٢/٢٨٧).

البحث التاسع عشر

دلالة اسم الزمان والظرف في اللغة

أولاً: بيان المراد من اسم الزمان والظرف:

ينبغي التمييز بين ظرف المكان والزمان وبين اسم المكان والزمان، ولا يتبين ذلك إلا من خلال بيان التعريف والخصائص.

فاسم الزمان اسم مشتق من الفعل؛ للدلالة على زمان وقوع هذا الفعل. ويشتق اسم الزمان من الفعل الثلاثي على أوزان متعدّدة مثل: (مَفْعَل) و(مَفْعِل)، أما من غير الثلاثي فيُصاغ على أوزان أخرى مقترنة بالفعل المضارع بالجملة. وينظر ذلك في مظانه (١).

قال في (التعريفات): "اسم الزمان والمكان: ما اشتق من (يفعل) لزمان أو مكان وقع فيه الفعل" (٢).

وقال في بيان معنى: (الظرفية) في اللغة: "الظرفية: هي حلول الشيء في غير حقيقة، نحو: الماء في الكوز، أو مجازاً، نحو: النجاة في الصدق.

والظرف اللغوي: هو ما كان العامل فيه مذكوراً، نحو: زيد حصل في الدار.

والظرف المستقر: هو ما كان فيه العامل مقدراً، نحو: زيد في الدار" (٣).

(١) انظر: المفتاح في الصرف (ص: ٥٩-٦١)، جامع الدروس العربية (١/٢٠١-٢٠٢).

(٢) التعريفات (ص: ٢٦).

(٣) المصدر السابق (ص: ١٤٣-١٤٤). وقوله: (زيد في الدار)، تقديره: استقر أو حصل في الدار.

ومن الفروق التي ذكرها النحاة بين ظرف المكان والزمان وبين اسم المكان والزمان:

١ - كل ما يستقر فيه غيره فهو ظرف، وكل ظرف فهو في التقدير جار ومجرور؛ لأن قولنا: (صليت يوم الجمعة) معناه: صليت في يوم الجمعة، وعلى هذا القياس سائر الأزمنة والأمكنة.

٢ - الظرف في عرف النحويين: ليس كل اسم من أسماء الزمان أو المكان على الإطلاق، بل الظرف منها ما كان منتصباً على تقدير (في)، واعتباره بجواز ظهورها معه فتقول: (قمت اليوم)، و(في اليوم).

٣ - ظرف الزمان يدل على الزمن أو الوقت الذي وقع فيه الفعل أو الحدث، وظرف المكان هو الذي وقع فيه الفعل أو الحدث.

٤ - الظروف في اللغة مبنية ومعربة، وتتخذ المبنية منها حركة إعرابية واحدة، إما الضم وإما الكسر وإما السكون، أما الظروف المعربة فإنها منصوبة إلا في حالات تعرب فيها.

٥ - أسماء الزمان والمكان مشتقة من الفعل الثلاثي وغير الثلاثي.

٦ - ظروف الزمان والمكان أسماء جامدة لا يمكن اشتقاقها من فعل، كما لا يوجد تصريفات لها، فتبنى على حركة واحدة، مثل: (حين)، و(أمس)، و(حيث).. إلى غير ذلك. وقد تعرب بعلامة النصب إذا كانت مبهمه، أو مختصة.

٧ - أسماء الزمان والمكان تعرب على حسب موقعهما في الجملة.

٨ - أسماء الزمان كلها صالحة للانتصاب على الظرفية، سواء في ذلك مبهمها ك: (حين)، و(مدة). ومختصها ك: (يوم الخميس)، ومعدودها ك: (يومين)، و(أسبوعين).. إلى غير ذلك من الخصائص.

وقد ذكر أبو البقاء الكفوي رَحِمَهُ اللهُ جملة من الفروق في (الكليات)، وفصّل ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ القول في ذلك في (التسهيل) ^(١).

وهاك إيضاح تلك الفروق من خلال تحرير معنى: الظرف في الاصطلاح: قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

الظَّرْفُ: وقت أو مكان ضَمِنَا (في) باطِّراد كهنا امكث أزمنا ^(٢)

الظرف لغة: الوعاء، ومنه: ظروف الزمان والمكان عند النحويين ^(٣).

واصطلاحاً - كما عرفه ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ -: (وقت أو مكان)، أي: اسم وقت أو اسم مكان، ضَمِنَا معنى: (في) دون لفظها (باطراد) نحو: (امكث هنا أزمناً)، ف: (هنا): ظرف مكان، و(أزمناً): ظرف زمان، وكل منهما تضمن معنى: (في)؛ لأن المعنى: امكث في هذا الموضع، وفي أزمناً ^(٤).

واحترز بقوله: (ضمنا) معنى: (في) مما لم يتضمن من أسماء الزمان أو المكان معنى: (في)، كما إذا جعل اسم الزمان أو المكان مبتدأ أو خبراً نحو: (يوم الجمعة يوم مبارك)، و(يوم عرفة يوم مبارك) و(الدار لزيد)؛ فإنه لا يسمى: ظرفاً والحالة هذه، وكذلك ما وقع منهما مجروراً، نحو: (سرت في يوم الجمعة)، و(جلست في الدار) على أن في هذا ونحوه

(١) انظر: الكليات (ص: ٥٨٩)، شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٢/ ٢٠٠).

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ٣٠).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ظرف) (٤/ ١٣٩٨).

(٤) قال ابن جني: "الظرف: كل اسم من أسماء الزمان أو المكان يراد فيه معنى: (في) وليست في لفظه، كقولك:

(قمت اليوم)، و(جلست مكانك)؛ لأن معناه: قمت في اليوم، وجلست في مكانك، فإن ظهرت (في)

إلى اللفظ كان ما بعدها اسماً صريحاً وصار التضمن لـ: (في) تقول: سرت في يوم الجمعة، وجلست في

الكوفة" اللمع في العربية (ص: ٥٥).

خلافًا في تسميته ظرفًا في الاصطلاح ^(١)، وكذلك ما نصب منهما مفعولًا به، نحو: (بنيت الدار) و(شهدت يوم الجمل)، كذا في (شرح ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ) ^(٢).

واحترز بقوله: (باطراد) من نحو: (دخلت البيت)، و(سكنت الدار)؛ مما انتصب بالواقع فيه، وهو اسم مكان مختص؛ فإنه غير ظرف؛ إذ لا يطرد نصبه مع سائر الأفعال، فلا يقال: (نمت البيت)، ولا (قرأت الدار)؛ فانتصابه على المفعول به بعد التوسع بإسقاط الخافض؛ هذا مذهب الفارسي والناظم رَحِمَهُمَا اللهُ، ونسبه لسيبويه رَحِمَهُ اللهُ.

وقيل: منصوب على المفعول به حقيقة، وإن نحو: (دخل) متعد بنفسه، وهو مذهب الأخفش رَحِمَهُ اللهُ.

وقيل: على الظرفية تشبيهًا له بالمبهم، ونسبه الشلوبين إلى الجمهور؛ وعلى هذين لا يحتاج إلى قيد: (باطراد)؛ وعلى الأول يحتاج إليه خلافًا للشارح - كذا في (شرح الشيخ الأشموني رَحِمَهُ اللهُ)، وتفصيل ذلك في مآلته ^(٣).

وقد تقدم ذكر ألفاظ الزمن الواردة في القرآن الكريم.

اسم الزمان يكون مبهمًا، ومختصًا، ومعدودًا، ومشتقًا:

أسماء الزمان كلها صالحة للانتصاب على الظرفية، سواء في ذلك مبهمها ك: (حين)، و(مدة). ومختصها ك: (يوم الخميس)، ومعدودها ك: (يومين)، و(أسبوعين) ^(٤).

(١) لا يسمى: ظرفًا في الاصطلاح، على الأرجح.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١٩١/٢ - ١٩٣).

(٣) انظر ذلك مفصلاً في (شرح الأشموني على ألفية ابن مالك) (٤٨٥/١)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك

(٢٠٦/٢ - ٢٠٨)، شرح التصريح على التوضيح (٥١٨/١ - ٥٢٢)، حاشية الصبان (١٨٤/٢ - ١٨٥)،

توضيح المقاصد (٦٥٧/٢ - ٦٦٠).

(٤) أوضح المسالك، لابن هشام (٢٠٩/٢).

والمراد بالمختص: ما يقع جواباً لـ: (متى) كـ: (يوم الخميس) كما مثل.
وبالمعدود: ما يقع جواباً لـ: (كم) كـ: (يومين) و(أسبوعين)، كما مثل.
والمبهم^(١): ما لا يقع جواباً لشيء منهما كـ: (حين) و(مدة) كما مثل.
تقول: (صمت مدة)، أو (يوم الخميس) أو (يومين).
وبقي عليه ظرف الزمان المشتق نحو: (قعدت مقعد زيد)، تريد: الزمان، كما تفعل
ذلك إذا أردت المكان؛ إذ لا فرق بينهما في صحة تقدير: (في)، ونصبه على
الظرفية^(٢).

ثانياً: الظرف المتصرف وغير المتصرف:

الظرف نوعان: متصرف وغير متصرف، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:
وما يرى ظرفاً وغير ظرف فذاك ذو تصرف في العرف
وغير ذي التَّصرف: الذي لزم ظرفيةً أو شبهها من الكلم^(٣)
ينقسم اسم الزمان واسم المكان إلى: متصرف، وغير متصرف، فالمتصرف من ظرف
الزمان أو المكان: ما استعمل ظرفاً وغير ظرف كـ: (يوم) و(مكان).
فإن كل واحد منهما يستعمل ظرفاً نحو: (سرت يوماً)، و(جلست مكاناً)،
ويستعمل مبتدأ نحو: (يوم الجمعة يوم مبارك)، و(مكانك حسن)، وفاعلاً نحو: (جاء
يوم الجمعة)، و(ارتفع مكانك).

(١) ظرف الزمان المبهم: هو ما دل على قدر غير معين من الزمان، والمختص: هو ماله نهاية تحصره، أو مقدار

معين من الزمان. انظر: شرح الكافية (١/١٨٤).

(٢) شرح التصريح على التوضيح (١/٥٢٣).

(٣) ألفية ابن مالك (ص: ٣٠).

فمن المتصرف من الزمان نحو: يوم وليلة، ومن المكان نحو: يمين وشمال.
وغير المتصرف نوعان:

الأول: ما يُلازمُ النصب على الظرفية أبداً: فلا يُستعملُ إلا ظرفاً منصوباً، نحو:
(قط، وعوض^(١)، وبيناء، وبينما، وإذا، وأيان، وأنى، وذا صباح، وذات ليلة).
ومن ذلك: سحر، إذا أردت به سحر يوم معين، تقول: (خرجت يوم الجمعة
سحر)، فإن لم ترده من يوم بعينه، فهو متصرف، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا عَالَ لُوطٌ نَحْيَتْلَهُمْ بِسَحَرٍ
﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٣٤].

ومثله: صباحاً، ومساءً، وعشية، وعشاء، وليلاً، ونهاراً، إذا أردت صباح يومك،
ومساءه وعشيته، وعشاءه، وليله، ونهاره، أو يوماً آخر بعينه تقول: (جئت يوم السبت
عشاءً)، فلا يكون إلا ظرفاً، و(جئت يوم الخميس صباحاً) أو مساءً، أو ليلاً، قال
جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف: ١٦]، أي: في عشاء ذلك اليوم الذي خرجوا
فيه، فهذا لا يكون إلا ظرفاً.

(١) ما لا يفارق الظرفية أصلاً كـ: (قط) في استغراق الماضي، و(عوض) في استغراق المستقبل، ولا يستعملان إلا
بعد نفي. تقول: (ما فعلته قط)، و(لا أفعله عوضاً)، والمعنى ما فعلته في الزمن الماضي، ولا أفعله في الزمن
المستقبل، وعوض معناه: أبداً، أي: لا أفعله أبداً، فهو ظرف لاستغراق المستقبل، مثل: أبداً إلا أنه مختص
بالنفي، وهو معرب إن أضيف كقولهم: (لا أفعله عوضاً العائضين)، ومبني إن لم يضاف، وبنائه على الضم
كقبل، أو على الكسر كأمس، أو على الفتح كأين. و(قط) مشتقة من (قططت الشيء): إذا قطعته،
فمعنى: (ما فعلته قط): ما فعلته فيما انقضى من عمري؛ لأن الماضي ينقطع عن الحال والاستقبال، وهي
مبنية، وعلّة بنائها: تضمنها معنى حرفي ابتداء الغاية وانتهائها؛ إذ المعنى: ما فعلته منذ خلقتني الله عَزَّجَلَّ إلى
الآن، وبنيت على حركة فراراً من التقاء الساكنين، وكانت ضمة في بعض لغاتها حملاً على (قبل)، و(بعد).
و(عوض) مشتقة من العوض، وسمى الزمان: (عوض)؛ لأن الدهر كلما مضى منه جزء خلفه آخر، فكان
عوضاً منه، ويبني على الحركات الثالث إذا لم يكن مضافاً، كذا في (شرح التصريح) (١/٥٢٦).

ومنه: ما رُكِبَ من الظروف، كصباح مساءً، وليل ليل.

والثاني: ما يُلْزَمُ النصب على الظرفية، وما يخرج عنها إلى شبهها: والمراد بشبه الظرفية: أنه لا يخرج عن الظرفية إلا باستعماله مجروراً، نحو: (قَبْلَ، وبعْدَ، وفوقَ، وتحتَ، ولَدَى، وَلَدُنْ، وعندَ، ومتى، وأَيْنَ، وهُنَا، وَثَمَّ، وحيثَ، والآنَ) ^(١).

ثالثاً: اختصاص ظرف الزمان بالأحداث:

ظروف الزمان لا تقع أخباراً عن الأشخاص، وتختص بالأحداث؛ لأن الفائدة لا تتم إلا بها، فلو قلت: (زيد يوم الجمعة) لم تكن مخبراً بشيء، لأن الغرض في الخبر إفادة المخاطب. قال المبرد رَحِمَهُ اللهُ: "فلا معنى لهذا؛ لأن يوم الجمعة لا يخلو زيد، ولا غيره منه، ولا حي ولا ميت، فلما لم تكن فيه فائدة قال النحويون: لا تكون ظروف الزَّمان للجثث" ^(٢).

وقال أبو الفتح بن جني رَحِمَهُ اللهُ: "ولو قلت: (زيد يوم الجمعة) أو نحو ذلك لم يجر؛ لأن ظروف الزمان لا تكون أخباراً عن الجثث؛ لأنه لا فائدة في ذلك، فأما قولهم: (الليلة الهلال) فعلى معنى، فإنما تقديره: (الليلة حدوث الهلال) أو (طلوع الهلال) فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَسَّعِلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية" ^(٣).

والحاصل أن الظرف نوعان:

(١) انظر: شرح ابن عقيل (١٩٨/٢)، شرح الأشموني (٤٨٩/١)، حاشية الصبان (١٩٢/٢)، شرح التصريح

على التوضيح (٥٢٦/١)، جامع الدروس العربية (٥٠/٣)، معاني النحو (١٩٢/٢).

(٢) المقتضب (١٧٢/٤)، علل النحو (ص: ٢٦٧).

(٣) اللمع في العربية (ص: ٢٩).

ظرف زمان: وهو يختص بالأحداث، كقولك: (الصيام يوم الخميس).
 وظرف مكان: وهو يختص بالأجسام، كقولك: (الإمام أمام القوم).
 وقد يقع (ظرف المكان خبراً عن حدث)، كقولك: (الصلاة وراء الإمام).
 واسم الزمان يخبر به عن المعنى، نحو: (الرحيل غداً)، ولا يخبر به عن الجثة، فلا
 يقال: (زيد اليوم)؛ لعدم الإفادة:
 قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

ولا يكون اسم زمان خبراً عن جُثَّةٍ وإن يفد فأخبراً
 قوله: (ولا يكون اسم زمان خبراً*** عن جثة)، يعني: عن شخص.
 قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ: "ظرف المكان يقع خبراً عن الجثة، نحو: (زيد عندك)، وعن
 المعنى نحو: (القتال عندك).
 وأما ظرف الزمان فيقع خبراً عن المعنى منصوباً، أو مجروراً بـ: (في) نحو: (القتال يوم
 الجمعة)، أو (في يوم الجمعة).
 ولا يقع خبراً عن الجثة إلا إذا أفاد نحو: (الليلة الهلال)، و(الرطب شهري ربيع).
 فإن لم يفد لم يقع خبراً عن الجثة، نحو: (زيد اليوم)، وإلى هذا ذهب قوم منهم:
 المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

وذهب غير هؤلاء إلى المنع مطلقاً، فإن جاء شيء من ذلك يؤول، نحو قولهم:
 (الليلة الهلال) و(الرطب شهري ربيع) التقدير: طلوع الهلال الليلة، ووجود الرطب شهري
 ربيع، هذا مذهب جمهور البصريين. وذهب قوم منهم المصنف إلى جواز ذلك من غير
 شذوذ لكن بشرط أن يفيد، كقولك: (نحن في يوم طيب، وفي شهر كذا).

وإلى هذا أشار بقوله: (وإن يفد فأخبراً)، فإن لم يفد امتنع، نحو: (زيد يوم الجمعة) ^(١).

رابعاً: الاتساع في الظرف:

الاتساع في الظرف هو أن لا يقدر معه (في) توسعاً؛ فينصب نصب المفعول به نحو: (دخل بيتاً)، و(قام ليلاً)، و(صاد يومين)، و(صام شهراً) و(سرق الليلة)، والمعنى على ظاهر التركيب من غير تقدير (في) وإن كان أصل المعنى على الظرفية. ومن ثمة يفهم منه غالباً قيام الليلة بتمامها، وكذا في البواقي؛ ولو كان بتقدير (في) لم يفهم التمام. وإذا توسع في فعل له مفعول واحد يقال للظرف المتوسع فيه: مفعول ثان، ولا يتوسع فيما له ثلاثة مفاعيل؛ لأنه يكون حينئذ مفعولاً رابعاً، ولم يجئ في كلام العرب ماله أربعة مفاعيل ^(٢). وتفصيل ذلك في مظانه.

خامساً: ما ينوب عن الظرف:

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

وقد ينوب عن مكان مصدر وذاك في ظرف الزَّمان يكثر ^(٣)
ينوب المصدر عن ظرف المكان قليلاً، كقولك: (جلست قرب زيد) أي: مكان
قرب زيد، فحذف المضاف، وهو (مكان)، وأقيم المضاف إليه مقامه، فأعرب بإعرابه،

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/٢١٤-٢١٥).

(٢) انظر ذلك بتمامه في (الكليات) (ص: ٣٦)، وانظر: موسوعة اصطلاحات الفنون (١/٩٢).

(٣) ألفية ابن مالك (ص: ٣٠).

وهو النصب على الظرفية، ولا ينقاس ذلك؛ [لقلته]، فلا تقول: (آتيك جلوس زيد) تريد: مكان جلوسه.

ويكثر إقامة المصدر مقام ظرف الزمان، نحو: (آتيك طلوع الشمس)، و(قدوم الحاج)، و(خروج زيد)، والأصل: وقت طلوع الشمس، ووقت قدوم الحاج، ووقت خروج زيد، فحذف المضاف، وأعرب المضاف إليه بإعرابه، وهو مقيس في كل مصدر ^(١).
تقول: (كان ذلك خفوق النجم، وطلوع الثريا) أي: وقت خفوق النجم، ووقت طلوع الثريا، وكثرته تقتضي القياس عليه ^(٢).

وفي (شرح الشيخ الأشموني رَحِمَهُ اللهُ): "قوله: (ذاك في ظرف الزمان يكثر) فيقاس عليه؛ وشرطه: إفهام تعيين وقت أو مقدار، نحو: (كان ذلك خفوق النجم، وطلوع الشمس)، و(انتظرته نحر جزور، وحلب ناقة)؛ والأصل: وقت خفوق النجم، ووقت طلوع الشمس، ومقدار نحر جزور، ومقدار حلب ناقة، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

وقد يحذف أيضاً المصدر الذي كان الزمان مضافاً إليه؛ فينوب ما كان هذا المصدر مضافاً إليه، من اسم عين، نحو: (لا أكلمه القارظين)، و(لا آتية الفرقدين)، والأصل مدة: غيبة القارظين، ومدة بقاء الفرقدين.

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢/٢٠٠).

(٢) توضيح المقاصد والمسالك (١/٢١٦).



ومما ينوب عن الظرف أيضاً: صفته ^(١)، وعدده ^(٢)، وكليته أو جزئيته، نحو: جلست طويلاً من الدهر شرقي مكان)، و(سرت عشرين يوماً ثلاثين بريداً)، و(مشيت جميع اليوم جميع البريد)، أو (كل اليوم كل البريد)، و(نصف اليوم نصف البريد)، أو (بعض اليوم بعض البريد) ^(٣).

سادساً: اسم الزَّمان يقبل النصب على الظرفية:

واسم الزمان يقبل النصب على الظرفية، مبهمًا كان أو غير مبهم. والمراد بالمبهم: ما دل على زمن غير مقدر، كحين، ومدة، ووقت؛ تقول: (سرت حينًا، ومدةً، ووقتًا).

وبالمختص: ما دل على مقدر: معلومًا كان، وهو المعروف بالعلمية؛ ك: (صمت رمضان)، و(اعتكفت يوم الجمعة)، أو ب: (أل)، ك: (سرت اليوم)، و(أقمت العام)، أو بالإضافة، ك: (جئت زمان الشتاء)، و(يوم قدوم زيد). أو غير معلوم؛ وهو النكرة، نحو: (سرت يومًا، أو يومين، أو أسبوعًا، أو وقتًا طويلاً) ... ^(٤).

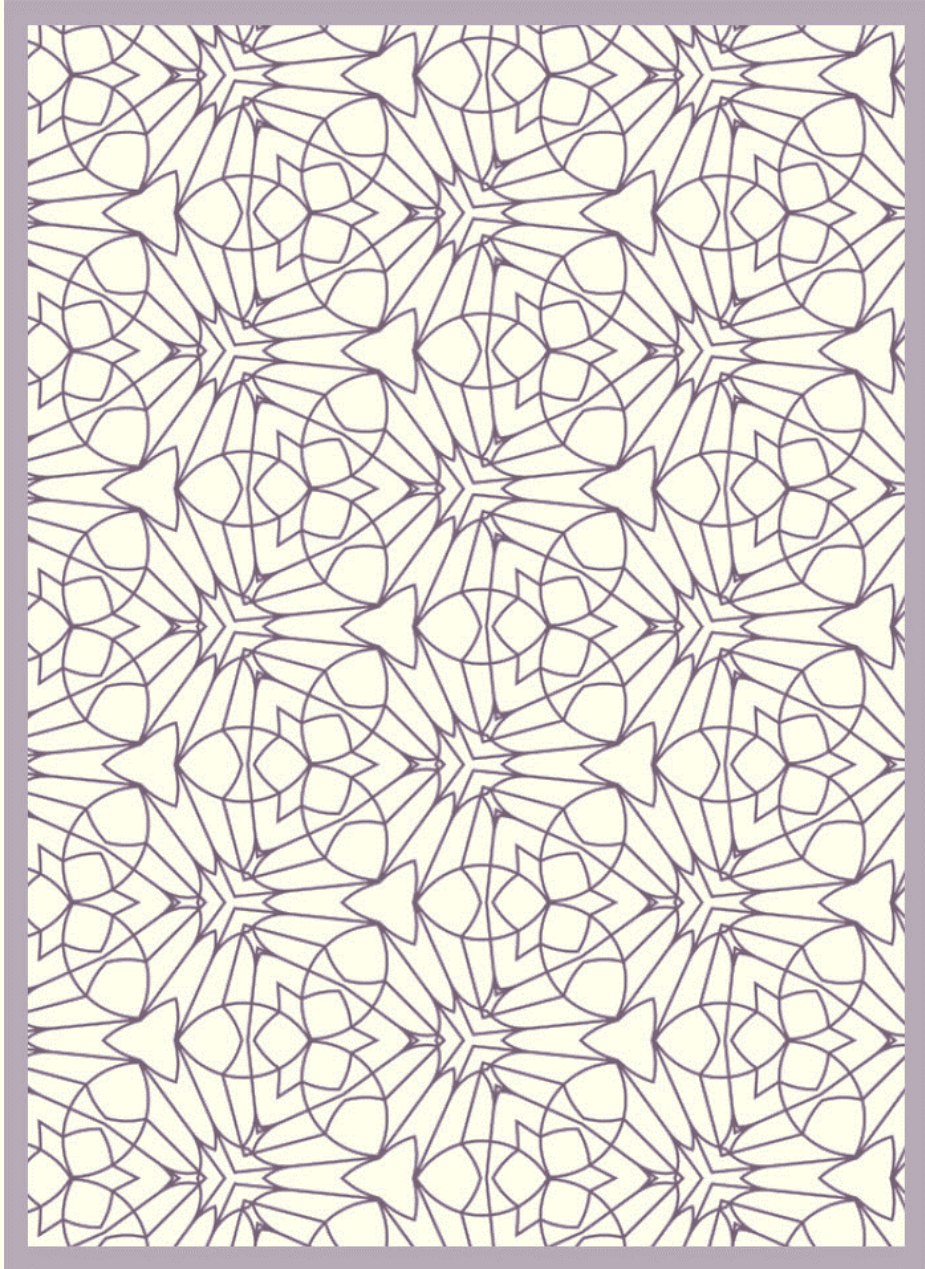


(١) وذلك نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، أي: زمنًا قليلًا، ويحتمل أن يكون المعنى: تمتيعًا قليلًا، فيكون نائبًا عن المصدر.

(٢) وذلك نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ لَّيْسَتْ بِأُمَّةٍ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

(٣) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/٤٩٠)، وانظر: شرح ابن عقيل (٢/٢٠٠)، معاني النحو (٢/١٩١).

(٤) شرح الأشموني (١/٤٨٧-٤٨٨)، وانظر: شرح المفصل، لابن يعيش (١/٤٢٦).

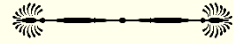


البحث العشرون

الدلالة على الزمن

باعتبار الإضافة والقطع عنها

حيث واذا واذا :



قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "حيث: كلمة تدل على المكان؛ لأنه ظرف في الأمكنة، بمنزلة: حين في الأزمنة. وهو اسم مبني، وإنما حرك آخره؛ لالتقاء الساكنين. فمن العرب من بينها على الضم؛ تشبيهاً بالغايات؛ لأنها لم تحيَّء إلا مضافة إلى جملة، كقولك: (أقوم حيث يقوم زيد)، ولا تقل: حيث زيد. وتقول: (حيث تكون أكون). ومنهم من بينها على الفتح، مثل: كيف؛ استثقلاً للضم مع الياء. وهي من الظروف التي لا يجازى بها إلا مع ما، تقول: حيثما تجلس أجلس، في معنى: (أينما)... "وقوله جَلَّوَعًا: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] في حرف ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أين أتى). والعرب تقول: (جئت من أين لا تعلم)، أي: من حيث لا تعلم" (١).

وقد استعملوا (حيث) للزَّمان، وهو قليل - كما سيأتي -.

وأما (إذ) فهي كلمة تدل على ما مضى من الزمان.

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (حيث) (٢٨٠/١).

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهو اسم مبني على السكون، وحقه أن يكون مضافاً إلى جملة، تقول: جئتكَ إذ قام زيد، وإذ زيد قائم، وإذ زيد يقوم، فإذا لم تضاف نونت. قال أبو ذؤيب:

نَهَيْتُكَ عَنْ طَلَابِكَ أُمَّ عَمْرُو بِعَاقِبَةٍ، وَأَنْتَ إِذٍ ^(١) صَحِيحُ ^(٢)
أراد حينئذ كما تقول: يومئذ وليلتئذ. وهو من حروف الجزاء إلا أنه لا يجازى به إلا مع (ما)، تقول: (إذ ما تأتي آتكَ)، وقد تكون للشيء توافقه في حال أنت فيها. ولا يليه إلا الفعل الواجب، تقول: (بينما أنا كذا إذ جاء زيد). وقد تكون (إذ) للمفاجأة، مثل: (إذا). وقد يزدان جميعاً في الكلام، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى﴾ [البقرة: ٥١]، أي: وواعدنا" ^(٣).

قال سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما (إذا) فلما يستقبل من الدهر، وفيها مجازاة، وهي ظرف، وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها، وذلك قولك: (مررت فإذا زيد قائم). وتكون (إذ) مثلها أيضاً، وذلك قولك: (بينما أنا كذلك إذ جاء زيد).. الخ" ^(٤).

(١) قال ابن جني: "لما حذف ما يضاف إليه (إذ) عوض منه التنوين بعدها" انظر: سر صناعة الإعراب (١٦٣/٢)، الخصائص (٣٧٨/٢). المخصص (٢٣٢/٤)؛ "لأن (إذ) لازم الإضافة، ولا وجه للتنوين إلا أن يكون عوضاً؛ لبعد معنى التذكير والتمكن منه" شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٧٨/٣).
(٢) هذا من مقطوعة، لأبي ذؤيب الهذلي. وأصله: وأنت إذ نهيته، فحذف الجملة، وعوض منها التنوين. ومثله: (حينئذ)، و(ساعتئذ) و(يومئذ)، والمراد: حين إذ كان كذا وكذا، وساعة إذ كان كذا وكذا، ويوم إذ كان كذا وكذا. انظر: ديوان الهذليين (٦٨/١)، مغني اللبيب (ص: ١١٩)، شرح شواهد المغني (٢٦٠/١)، التعليقة على كتاب سيبويه (٢٢-٢٣)، شرح تسهيل الفوائد (٢٠٧/٢)، شرح المفصل (٢٠١/٢).
(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (إذا) (٢٥٤٣/٦).
(٤) الكتاب، لسيبويه (٢٣٢/٤)، وانظر: الأصول في النحو (١٧٧/٣-١٧٨).



قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "(إذا) اسم يدل على زمان مستقبل، ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة، تقول: (أجئتكَ إذا احْمَرَّ البُسْرُ)، و(إذا قدم فلان). والدليل على أنها اسم: وقوعها موقع قولك: (آتيك يوم يقدم فلان)، وهي ظرف، وفيها مجازاة؛ لأن جزاء الشرط ثلاثة أشياء:

أحدها: الفعل: كقولك: (إن تأتني آتكَ).

والثاني: الفاء: كقولك: (إن تأتني فأنا محسن إليك).

والثالث: إذا، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]. وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها، نحو قولك: خرجت فإذا زيد قائم، والمعنى: خرجت ففاجأني زيد في الوقت بقيام" ^(١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ في بيان لزوم (حيث) و(إذ) للإضافة إلى الجمل:

وألزموا إضافة إلى الجمل (حيث) و(إذ)، وإن ينون يحتمل إفراد (إذ) وما ك: (إذ) معنى كإذ أضف جواراً نحو: حين جا نبذ ^(٢) حيث ظرف مكان ^(٣).

وقد استعملوها للزمان، وهو قليل ^(٤)، كقوله:

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (إذا) (٢٥٤٢/٦-٢٥٤٣).

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ٣٧).

(٣) بني (حيث)؛ للافتقار اللازم إلى جملة. قال الجوهري: "حيث: كلمة تدل على المكان؛ لأنه ظرف في الأمكنة بمنزلة: (حين) في الأزمنة. وهو اسم مبني، وإنما حرك آخره؛ لالتقاء الساكنين. فمن العرب من يبينها على الضم؛ تشبيهاً بالغايات؛ لأنها لم تحيى إلا مضافة إلى جملة" الصحاح، مادة: (حيث) (٢٨٠/١). وانظر: الأصول في النحو، لابن السراج (١٤٣/٢-١٤٤٠).

(٤) انظر: أمالي ابن الشجري (٥٩٩/٢)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٨٣/٣)، شرح المفصل، لابن يعيش (١١٥/٣)، شرح تسهيل الفوائد (٢٣٣/٢)، همع الهوامع (٢١١/٢)، شرح الأبيات المشككة =

لَلْفَتَى عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ حَيْثُ تَهْدِي سَاقَهُ قَدَمُهُ^(١)
ويصح هنا أن تكون للمكان أيضاً.

"وشبه (حيث) بالغايات من حيث ملازمتها الإضافة. ويقال: (حيث) و(حوث) بالفتح والضم فيهما، وقد حكى الكسائي رَحِمَهُ اللهُ: (حيث) بالكسر"^(٢).

من الملازم للإضافة: ما لا يضاف إلا إلى الجملة، وهو (حيث)، و(إذ)، و(إذا). فأما (حيث) فتضاف إلى الجملة الاسمية، نحو: اجلس حيث زيد جالس.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وإلى الجملة الفعلية نحو: اجلس حيث جلس زيد، أو حيث يجلس زيد.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠].

وشذ إضافتها إلى مفرد، كقوله:

أما ترى حيث سُهَيْلٌ طَالِعًا^(٣) نجما يضيء كالشهاب لامعًا^(٤)

=الإعراب، لأبي علي الفارسي (ص: ١٨٢)، اللباب في علل البناء والإعراب (٧٧/٢)، شرح ديوان الحماسة (ص: ٦٢٦).

(١) ديوان طرفة بن العبد (ص: ٧٣).

(٢) انظر: المفصل (ص: ٢١١)، شرح المفصل، لابن يعيش (١١٣/٣)، الكتاب، لسيبويه (٢٩٢/٣).

(٣) "بفتح الثاء من (حيث)، وخفض (سهيل)، و(حيث) بالضم، و(سهيل) بالرفع، أي: موجود فحذف الخبر" مغني اللبيب (ص: ١٧٨). قال الرضي: "وحذف خبر المبتدأ الذي بعد (حيث) غير قليل، ومع الإضافة إلى المفرد يعربه بعضهم؛ لزوال علة البناء، أي: الإضافة إلى الجملة، والأشهر بقاءه على البناء؛ لشذوذ الإضافة إلى المفرد، وترك إضافة (حيث) مطلقاً، لا إلى جملة ولا إلى مفرد: أندر، وظرفيتها غالبية، لا لازمة" شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٨٣/٣)، وانظر: اللباب في علل البناء والإعراب (٧٨/٢).

(٤) انظر: تهذيب اللغة (١٣٦/٥)، المفصل في صناعة الإعراب (ص: ٢١١)، شرح الكافية الشافية (٩٣٧/٢).

وأما (إذ) فتضاف أيضاً إلى الجملة الاسمية، نحو: جئتك إذ زيد قائم.

وإلى الجملة الفعلية، نحو: (جئتك إذ قام زيد).

ويجوز حذف الجملة المضاف إليها، ويؤتى التنوين عوضاً عنها، كقوله جَلَّوَعَلَا:

﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤].

وهذا معنى قوله: (وإن ينون يحتمل *** أفراد إذ..). أي: وإن ينون (إذ) يحتمل

أفرادها، أي: عدم إضافتها لفظاً؛ لوقوع التنوين عوضاً عن الجملة المضاف إليها.

وأما (إذا) فلا تضاف إلا إلى جملة فعلية، نحو: (آتيك إذا قام زيد)، ولا يجوز

إضافتها إلى جملة اسمية، فلا تقول: (آتيك إذا زيد قائم)، خلافاً لقوم.

وأشار بقوله: (وما ك: إذ معنى كإذ) إلى أن ما كان مثل (إذ) في كونه ظرفاً

ماضيّاً غير محدود يجوز إضافته إلى ما تضاف إليه (إذ) من الجملة، وهي الجمل الاسمية

والفعلية، وذلك نحو: (حين، ووقت، وزمان، ويوم) فتقول: (جئتك حين جاء زيد، ووقت

جاء عمرو، وزمان قدم بكر، ويوم خرج خالد)، وكذلك تقول: (جئتك حين زيد قائم)،

كذلك الباقي.

وإنما قال المصنف: (أضف جوازاً)؛ ليعلم أن هذا النوع، أي: ما كان مثل: (إذ)

في المعنى يضاف إلى ما يضاف إليه (إذ) وهو الجملة، جوازاً لا وجوباً.

فإن كان الظرف غير ماضٍ، أو محدوداً لم يجر مجرى (إذ)، بل يعامل غير الماضي،

وهو المستقبل معاملة (إذا) فلا يضاف إلى الجملة الاسمية، بل إلى الفعلية، فتقول: (أجيئك

حين يجيء زيد)، ولا يضاف المحدود إلى جملة، وذلك نحو: (شهر، وحول)، بل لا يضاف

إلا إلى مفرد، نحو: (شهر كذا، وحول كذا)" (١).

(١) شرح ابن عقيل (٣/٥٥-٥٨).

قال ابن النحاس رَحِمَهُ اللَّهُ في (التعليقة): "حيث ظرف مكان، وليس في ظروف المكان ما يضاف إلى الجملة غيرها، لما أبهمت لوقوعها على كل جهة احتاجت في زوال إبهامها إلى إضافتها لجملة، ك: (إذ)، و(إذا) في الزمان" (١).

أما (حيثما) فأصلها: (حيث)، ثم زيدت (ما) الحرفية الكافة لها عن الظرفية، والمهيئة لها للشرطية، فصارتا كلمة واحدة مبنية على السكون، وهي اسم شرط جازم لفعلين مضارعين: أولهما: فعل الشرط، والثاني: جواب الشرط وجزاؤه. تقول: (حيثما ينزل مطرٌ ينمُّ الزرع).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فحيثما: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف خبر كنتم المقدم. ﴿كُنْتُمْ﴾ كان واسمها، وهي في محل جزم فعل الشرط. ﴿فَوَلُّواْ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و(ولوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل جزم جواب الشرط. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ مفعول به. ﴿شَطْرَهُ﴾ مفعول فيه ظرف مكان، متعلق بالفعل قبله، والجملة في محل جزم جواب الشرط.

جاء في (المقتضب): وحيث اسم من أسماء المكان مبهم يفسره ما يضاف إليه..، لما وصلتها بـ: (ما) امتنعت من الإضافة، فصارت كـ (إذ) إذا وصلتها بـ: (ما). وتلزمها (ما) إذا استعملت للشرط (٢).

وقال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يجزم بـ: (إذا) و(حيث) إلا مقرونتين بـ: (ما)؛ لأنهما إذا تجردتا لزمتهما الإضافة إلى ما يليهما، والإضافة من خصائص الأسماء، فكانت منافية

(١) التعليقة على مقرب ابن عصفور، لابن النحاس (ص: ٣١٩)، الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (٢١٤/٢).

(٢) انظر: المقتضب، للمبرد (٥٤/٢).

للجزم، فلما قصد جعل هاتين الكلمتين جازمتين ركبتا مع (ما)؛ لتكفهما عن الإضافة، وتحيتهما لما لم يكن لهما من معنى وعمل، فصارت (ما) ملازمة لهما ما دامت المجازاة مقصودة بهما" (١).

وفي (الأشباه والنظائر): "باب الشرط مبناه على الإبهام، وباب الإضافة مبناه على التوضيح؛ ولهذا لما أريد دخول: (إذ) و(حيث) في باب الشرط لزمتهما: (ما)؛ لأنهما لا زمان للإضافة، والإضافة توضحهما، فلا يصلحان للشرط حينئذ، فاشتربنا (ما)؛ لتكفهما عن الإضافة فيبهما، فيصلح دخولهما في الشرط حينئذ" (٢).

و(إذا) أداة شرط غير جازمة لما يستقبل من الزمان، وهي تفيد الربط بين جملة الشرط وجوابه، ولا يليها إلا الفعل ظاهراً، أو مقدراً.

فمثال مجيء الفعل بعدها ظاهراً قولهم: (إذا حضر الماء بطل التيمم).

ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِنُهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ﴾ [الأعراف: ٣٨] فـ: ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير جازمة. و﴿أَذَارَكُوا﴾ فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله. و﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿أَذَارَكُوا﴾، و﴿جَمِيعًا﴾ حال، والجملة في محل جر بالإضافة.

ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧]، فـ: ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير جازمة، و﴿أُلْقُوا﴾ فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، والجملة في محل جر بالإضافة.

ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١].

(١) شرح الكافية الشافية (٣/١٦٢٠-١٦٢١).

(٢) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (١/٢١٥).



ومثال مجيئه مقدراً قول الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا^(١)

فيعرّب الاسم أو الضمير بعد (إذا) فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الظاهر، وقد استحسن النحاة هذا الوجه. ف: (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى: (الشرط)، في محل نصب على الظرفية الزمانية، وهو منصوب بجوابه. و(أنت): ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع فاعل لفعل محذوف، يفسره المذكور الذي بعده. والجمله الفعلية من الفعل المحذوف والفاعل المذكور في محل جر بالإضافة بعد (إذا).

ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أُنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] - كما سيأتيك -.

وقد أجاز سيبويه رَحِمَهُ اللهُ إعراب الاسم، أو الضمير الواقع بعد (إذا) مبتدأ إذا كان الخبر فعلاً، وأجاز الأخفش وابن مالك وقوع المبتدأ بعدها بلا شرط - كما سيأتيك -.

قال أبو حيان رَحِمَهُ اللهُ في (شرح التسهيل): "إذا استعملت (إذا) شرطاً فهل تكون مضافة للجمله بعدها أم لا؟ قولان:

قيل: تكون مضافة، وضُمِنَت الربط بين ما تضاف إليه وغيره.

وقيل: ليست مضافة، بل معموله للفعل بعدها؛ لأنها لو كانت مضافة لكان الفعل من تمامها، فلا يحصل به ربط.

قال: وينبغي على ذلك: الخلاف في العامل فيها، فمن قال: إنها مضافة أعمل الجزاء، ولا بدّ، ومن منع ذلك أعمل فيها فعل الشرط كسائر الأدوات^(٢).

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص: ٣٦١)، وانظر: شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري (١/١٦٦)، شرح شعر المتنبي، السفر الأول، لأبي القاسم بن الإفيلي (٢/٢٠١).

(٢) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (٢/٣٧٦-٣٧٧)، شرح التسهيل (٥/٩٦).

وفي (علل النحو): " (إذا) تستعمل على ضربين:

أحدهما: أن تكون للزمان المستقبل، ويدخل فيها معنى الشرط والجزاء، فهذه التي لا بدَّ أن يذكر بعدها الفعل.

والضرب الثاني: أن تكون (إذا) بمعنى: المفاجأة، وظاهرها أن تكون ظرفاً من المكان، فهذه لا تحتاج إلى الفعل؛ إذ ليس فيها معنى: الشرط والجزاء، فإذا قلت: (خرجت فإذا زيد قائم)، فـ: (زيد): رفع بالابتداء، و(إذا): في موضع خبره، ونصبت (قائماً) على الحال، والعامل في الحال فعل تقديره: خرجت فحضرني زيد في حال قيامه، أو فاجأني زيد، فتكون (إذا) في موضع نصب بهذا الفعل ^(١).

والأصل في استعمال (إذا) أنها تدخل المتيقن وقوعه أو ما رجح.

والأصل في استعمال (إن) أنها تدخل على المشكوك فيه. وقد يقع كل منهما موقع الآخر.

وفي (الكليات): "اعلم أن كلمة (إذا) عند نحوي الكوفة مشترك بين الوقت والشرط، وإذا استعملت للشرط لم يبق فيها معنى الوقت أصلاً، ويصير بمعنى: (إن) وهو قول أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، وعند البصريين أنها موضوعة للوقت، وتستعمل في الشرط مجازاً من غير سقوط معنى: الوقت عنها، مثل: (متى)؛ فإنها للوقت لا يسقط ذلك عنها بحال، وهذا قول صاحبيه رَحِمَهُمَا اللهُ.

و(إذا): بالنظر إلى كونها شرطاً تدخل على المشكوك، وبالنظر إلى كونها ظرفاً تدخل على المتيقن كسائر الظروف ^(٢).

(١) علل النحو (ص: ٢٣٣).

(٢) الكليات (ص: ٧١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ فِي بيان لزوم (إذا) للإضافة عند الجمهور:

وَالزَّمُوا (إذا) إِضافةً إِلَى جمل الأفعال، ك: (هن إذا اعتلى)^(١)

مذهب الجمهور أن (إذا) لازمة للإضافة إلى جمل الأفعال خاصة، نظرًا إلى ما تضمنته من معنى: (الشرط) غالبًا، ك: (هن إذا اعتلى)، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١]، ف: (إذا) ظرف مستقبل، متضمن معنى: (الشرط)، مضاف إلى الجملة بعده، والعامل فيه جوابه على المشهور. فهو متعلق ب: (سَبَّح) الذي هو جوابها، وجمله ﴿جَاءَ﴾ في محل جر بإضافة الظرف إليها.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ: "(إذا) تلزم الإضافة إلى الجملة الفعلية، ولا تضاف إلى الجملة الاسمية، خلافًا للأخفش والكوفيين، فلا تقول: (أجيئك إذا زيد قائم)، وأما (أجيئك إذا زيد قام) ف: (زيد) مرفوع بفعل محذوف، وليس مرفوعًا على الابتداء، هذا مذهب سيبويه، وخالفه الأخفش، فجَوَّز كونه مبتدأ خبره الفعل الذي بعده.

وزعم السيرافي أنه لا خلاف بين سيبويه والأخفش في جواز وقوع المبتدأ بعد (إذا)، وإنما الخلاف بينهما في خبره، فسيبويه يوجب أن يكون فعلًا، والأخفش يجَوِّز أن يكون اسمًا، فيجوز في (أجيئك إذا زيد قام) جعل زيد مبتدأ عند سيبويه والأخفش، ويجوز (أجيئك إذا زيد قائم) عند الأخفش فقط"^(٢).

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾ [الانشقاق: ١-٢] فإن ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمن، و﴿السَّمَاءُ﴾ فاعل بفعل محذوف يفسره ما بعده،

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٣٧). ومعنى: (هن إذا اعتلى): كن متواضعًا حينًا إذا تكبر وتعالى غيرك.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٦١/٣)، وانظر: توضيح المقاصد (٨٠٩/٢-٨١٠).

والتقدير: (إذا انشقت السماء انشقت)؛ لأن (إذا) الشرطية يختص دخولها بالجمل الفعلية. وقد قدر سيبويه رحمه الله في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أُنشَقَّتْ ۝﴾ [الانشقاق: ١] ونحوه فعلاً قبل الاسم، والأخفش لم يُقدِّره.

وقد اختلفوا في جواب ﴿إِذَا﴾، قال أبو البقاء رحمه الله جواب: ﴿إِذَا﴾ فيه أقوال:

أحدها: ﴿أَذِنَتْ﴾ [الانشقاق: ٢]، والواو زائدة.

والثاني: هو محذوف، تقديره: يقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦]. وقيل: التقدير: بعثتم، أو جوزيتهم، ونحو ذلك مما دلت عليه السورة.

والثالث: أن ﴿إِذَا﴾ مبتدأ، ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ﴾ [الانشقاق: ٣] خبره، والواو زائدة. حكي عن الأخفش.

والرابع: أنها لا جواب لها، والتقدير: اذكر إذا السماء " (١).

والحاصل أن (إذا) عند غير الأخفش والكوفيين تختص بالجملة الفعلية.

ويقع شرطها وجوابها ماضيين، نحو: ﴿وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ أَعْرَضَ﴾ [الإسراء: ٨٣]، ومضارعين، نحو: ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ﴾ [الإسراء: ١٠٧]، ومختلفين، نحو: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣]، ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا﴾ [مريم: ٥٨]، وماضياً وأمرًا، نحو: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] (٢).

(١) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري (١٢٧٨/٢)، وانظر: المحرر الوجيز (٤٥٧/٥)، شرح التصريح

على التوضيح (٧٠١/١)، شرح المفصل، لابن يعيش (٢٤٠/١)، انظر ذلك في (شرح الشيخ الأشموني

على ألفية ابن مالك) (١٥٠/٢-١٥٣)، حاشية الصبان (٣٨٨/٢).

(٢) انظر: شرح التصريح على التوضيح (٧٠١/١).

وقد تنوع استعمال (إذا) باعتبار ما وليها، في القرآن الكريم، وجاء بيان ذلك مفصلاً في كتاب: (دراسات لأسلوب القرآن الكريم)، لمحمد عبد الخالق عضيمة رَحِمَهُ اللَّهُ (١).

وتأتي (إذا) متمحضة للظرفية، لا شرطية، واجبة الإضافة إلى الجملة الفعلية، وهي قسمان:

الأول: مجيئها للمستقبل:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء: ٦٢].
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكُتُكُ يُضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [حمد: ٢٧].
ف: (كيف) في هذه الآيات إما في محل نصب على الحال، والتقدير: كيف يصنعون، وإما في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: كيف حالهم وصنيعهم، والعامل في (إذا) هو الفعل المحذوف، أو المبتدأ المحذوف.

وجاءت (إذا) متمحضة للظرفية أيضاً في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَيْجِ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والعامل في (إذا): (صيام).
وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُمْ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]. ف: ﴿إِذَا﴾ ظرف لـ: ﴿يَنْكِحْنَ﴾.

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عضيمة (١٦٩/١).



ونظائر ذلك كثيرة^(١).

الثاني: مجيئها للحال إذا وقعت بعد القسم:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١].

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر: ٣٣] في قراءة: ﴿إِذَا﴾.

﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَصْفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر: ٣٤].

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ ۝٧﴾ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٧-١٨].

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨﴾ [الانشقاق: ١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسَّرَ ۝٤﴾ [الفجر: ٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَنَّا ۝٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَنَّا ۝٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ [الشمس: ٢-٤].

[٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١-٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ٢].

ف: (إذا) بعد القسم ظرف للحال، ليس فيها معنى الشرطية، ولا تدل على

الاستقبال.

قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ: "والثاني: أن تجيء للحال، وذلك بعد القسم، نحو: ﴿وَاللَّيْلُ

إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ [الليل: ١]، ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١]"^(٢).

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم (١/١٨٨-١٩٠).

(٢) مغني اللبيب (ص: ١٣٠).

وقال الرضي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قل: ليس في (إذا) في نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١] معنى الشرط؛ إذ جواب الشرط إما بعده أو مدلول عليه بما قبله. وليس بعده ما يصلح للجواب لا ظاهراً ولا مقدراً؛ لعدم توقف معنى الكلام عليه، وليس هاهنا ما يدل على جواب الشرط قبل (إذا) إلا القسم، فلو كان (إذا) للشرط كان للتقدير: (إذا يغشى أقسم)، فلا يكون القسم منجزاً، بل معلقاً بغشيان الليل، وهو ضد المقصود؛ إذ القسم بالضرورة حاصل وقت التكلم بهذا الكلام، وإن كان نهاراً غير متوقف على دخول الليل اهـ". وقد اختلف كلمة النحويين في تقدير العامل في (إذا) بعد القسم، وقدّر الرضي رَحِمَهُ اللَّهُ العامل في (إذا) مصدرًا مضافًا محذوفًا تقديره: وعظمة الليل وعظمة النجم^(١).

وجاءت (إذا) محتملة للظرفية فقط، وللظرفية مع الشرطية في آيات كثيرة، وهذا الاحتمال إنما يكون مع حذف الجواب، فإن جعلت (إذا) شرطية قدر الجواب، وإن جعلت ظرفية استغنت عن تقدير الجواب. ومن أمثلة ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ الآية [البقرة: ١٨٠]، ف: ﴿إِذَا﴾ شرطية حذف جوابها، والتقدير: فليوص، أو ظرفية عاملها: ﴿كُتِبَ﴾.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرَضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف يدل عليه جواب الشرط الأول، أو هو متعلق بما تعلق به ﴿عَلَيْكُمْ﴾، و﴿إِذَا﴾ حينئذ متمحضة للظرفية.

(١) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٩١/٣-١٩٢)، وانظر ذلك في (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) (١٩٥-١٩٢/١).

ونظائر ذلك من القرآن الكريم كثيرة^(١)، وكل ذلك مبسوط في مظهره.

ذكر ما افترق فيه (إذ) و(إذا) و(حيث) :

قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ في (تذكرته): "اعلم أن (إذ) و(إذا) و(حيث) اشتركن في أمور، وافترقن في أمور: قاشتكن في الظرفية ولزومها، والإضافة ولزومها، وكونها للجمل، والبناء ولزومه، وأنها لمعنى، وقد تخرج عنه، فهذه ثمانية قد قيلت. وتشترك (إذ) و(إذا) في أنهما للزمان، ولا يكونان للمكان، وأنهما يكفَّان بـ: (ما) عن الإضافة مفيدتين معنى: (الشرط)، جازمين، قياسًا مطَّردًا، وأنهما يضافان للجمله الفعلية.

وانفردت (إذا) بإفادتها معنى: (الشرط) دون (ما)، وأنها لا تضاف إلا إلى الجمل الفعلية، وانفردت (حيث) بأنها تكون للمكان والزمان، والغالب كونها للمكان"^(٢).

لَدُنْ وَمَعَ :

قال في (العين): "(لَدُنْ) بمعنى: عند، وتقول: (وقفوا له من لَدُنْ كذا إلى المسجد)، ونحو ذلك: إذا اتَّصَلَ ما بين الشَّيْئَيْنِ، وكذلك في الزَّمان: من لَدُنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إلى غُرُوبِهَا"^(٣).

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن (١/١٩٠-١٩٢).

(٢) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (٢/٤٣٤).

(٣) العين، مادة: (لَدُنْ) (٨/٤٠).



قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَدُن: الموضع الذي هو الغاية، وهو ظرف غير متمكن بمنزلة: (عند)، وقد أدخلوا عليها: (من) وحدها من بين حروف الجر. قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾ [النساء: ٦٧]. وجاءت مضافة تَخْفِضُ ما بعدها. وفي (لَدُن) ثلاث لغات: لَدُنْ، وَلَدَى، وَلَدُ. وقالوا: لَدُنْ عُذُوَّةٌ. ولم يَنْصِبُوا بها إِلَّا عُذُوَّةً حَاصَّةً" (١).

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقرئ من (لَدُنِي) بتخفيف النون (٢)، ويجوز من (لَدُنِي) بتسكين الدال، وأجودها بتشديد النون؛ لأن أصل (لَدُن) الإسكان، فإذا أضفتها إلى نفسك زدت نوناً؛ ليسلم سكون النون الأولى، تقول: (من لدن زيد) فتسكن النون، ثم تضيف إلى نفسك، فتقول: (لَدُنِي)، كما تقول عن زيد: وعني، ومن حذف النون فلائِن

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (لَدُن) (٦/٢١٩٤).

(٢) "العامة على ضم الدال، وتشديد النون. وذلك أنهم أدخلوا نون الوقاية على (لَدُنْ)؛ لتَقْيِيها من الكسر؛ محافظةً على سكونها، كما حُوِّفَظَ على سكون نون (مِنْ) و(عَنْ)، فَأُلْحِقَتْ بهما نونُ الوقاية فيقولون: (مِنْ) و(عَنْ) بالتشديد. ونافع بتخفيف النون. والوجه فيه: أنه لم يُلْحَقْ نونُ الوقاية ل: (لَدُنْ). إلا أن سيبويه منع من ذلك وقال: لا يجوزُ أَنْ تَأْتِيَ ب: (لَدُنْ) مع ياء المتكلم دون نونِ وقاية اهـ. وهذه القراءة حجةٌ عليه. فإن قيل: لِمَ لا يُقال: إن هذه النونَ نونُ الوقاية، وإنما اتصلت ب: (لَدُ) لغةً في (لَدُنْ) حتى يتوافق قولُ سيبويه مع هذه القراءة؟ قيل: لا يَصِحُّ ذلك من وجهين: أحدهما: أَنَّ نونَ الوقاية إنما جِيءَ بها؛ لتَقْيِي الكلمة الكسر؛ محافظةً على سكونها. ودون النون لا يُسَكِّنُون؛ لأنَّ الدالَ مضمومة، فلا حاجة إلى النون. والثاني: أَنَّ سيبويه يمنعُ أَنْ يُقال: (لَدُنِي) بالتخفيف، وقد حُذِفَتِ النونُ مِنْ «عَنْ» و «مِنْ» في قوله: (أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْهُمْ وَعَنِّي) لستُ من قيسٍ ولا قيسٌ مِنِّي). ولكن تحتل هذه القراءة أن تكون النون فيها أصلية، وأن تكون للوقاية على أنها دخلت على (لَدُ) الساكنة الدال، لغةً في (لَدُنْ)، فالتقى ساكنان فكسرت نون الوقاية على أصلها. وإذا قلنا بأنَّ النونَ أصلية فالسكونُ تخفيف، كتسكين ضاد (عَضَد) وبابه. وقرأ أبو بكرٍ بسكون الدال وتخفيف النون أيضاً، ولكنه أَشَمَّ الدالَ الضَّمَّ؛ مِنْبَهِةً على الأصل... الخ" الدر المصون (٧/٥٣٠-٥٣٢)، وانظر: الحجة للقراء السبعة (٥/١٦٠-١٦٢).

لذن اسم غير متمكن، والدليل على أن الأسماء يجوز فيها حذف النون قولهم: قدني في معنى حسبي، ويجوز قدي بحذف النون لأن قد اسم غير متمكن^(١).

و(لدى) لغة في (لذن)، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، واتصاله بالمضمرات كاتصال (عليك).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان لزوم (لذن) للإضافة:

وألزموا إضافة (لذن) فجر ونصب غدوة بها عنهم ندر
ومع (مع) فيها قليل ونقل فتح وكسر لسكون يتصل^(٢)
من الأسماء الملازمة للإضافة (لذن) و(مع).

فأما (لذن) فلا ابتداء غاية زمان أو مكان، وهي مبنية عند أكثر العرب؛ لشبهها بالحرف في لزوم استعمال واحد، وهو الظرفية، وابتداء الغاية، وعدم جواز الإخبار بها. ولا تخرج عن الظرفية إلا بجرها بـ: (من)، وهو الكثير فيها؛ ولذلك لم ترد في القرآن إلا بـ: (من)، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]. وقيس تعربها^(٣)، ومنه: قراءة أبي بكر عن عاصم رَحِمَهُمَا اللَّهُ: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾، لكنه أسكن الدال، وأشتمها الضم^(٤).

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٣٠٣-٣٠٤)، تهذيب اللغة (١٤/٨٧)، وانظر: تفسير الطبري (١٨/٧٦)، التفسير البسيط (١٤/٩٤)، الحجة للقراء السبعة (٥/١٦٠-١٦٢)، الحجة في القراءات السبع (ص: ٢٢٨).

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ٣٧).

(٣) أي: تشبهها بـ: عند، وإعرابها عندهم مخصوص ببلغتها المشهورة، وهي كـ: (عضد)، فتحرك النون بالإعراب كما في (التسهيل) و(الهمع). حاشية الخضري على شرح ابن عقيل (٢/٥١).

(٤) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/٦٧).

وفي (التذيل والتكميل): " (لن) مبنية؛ لشبهها بالحرف في لزومها استعمالاً واحداً، وهو كونها مبدأ غاية، وامتناع الإخبار بها وعنهما، فلا يبنى عليها المبتدأ، بخلاف (عند) و(لدى)، فإنهما لا يلزمان استعمالاً واحداً، بل يكونان لابتداء الغاية وغيرها، ويبنى عليهما المبتدأ، قال الله عزَّجَل: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قال في (التسهيل): و(لن) لأول غاية زمان، أو مكان. فقوله: لأول غاية زمان مثاله: (لن غدوة)، و(ما رأيته من لن ظهر الخميس). وقوله: أو مكان مثله: ﴿ءَاتَيْنَاكَ مِنَ لَدُنَّا﴾ [طه: ٩٩]، أي: من جهتنا ونحونا. وفي (البسيط): هي بمعنى: (عند)، لكنها أشد منها إبهاماً، يدل على ذلك أنها لا تقع جواباً عن (أين) كما تقع فيه (عند)؛ ولذلك بنيت، بخلاف (عند). وقيل: إن (عند) تكون لما هو حاصل أو في تقدير الحاصل، فتقول: هذا عندي، وإن لم يكن حاصلًا، ولا كذلك لندك، إنما هي للحاصل المتصل ^(١).

ويجز ما ولي (لن) بالإضافة، إلا (غدوة)؛ فإنهم نصبوها بعد (لن)، كقوله: وما زال مُهْرِي مَزَجَرَ الْكَلْبِ مِنْهُمْ لَدُنْ غَدَوَةٌ حَتَّى دَنَتْ لِعُرُوبٍ ^(٢)

(١) التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (٧٠/٨)، وانظر: شرح تسهيل الفوائد (٢٢٩/٢).
(٢) قال البدر العيني: "لم أقف على اسم قائله" المقاصد النحوية (١٣٤٣/٣). والبيت من شواهد: (العين) (٤٠/٨)، وانظر: حروف المعاني، للزجاجي (ص: ٢٦)، شرح ابن عقيل (٦٨/٣)، شرح الأشموني (١٦١/٢)، شرح التصريح على التوضيح (٧١٣/١)، مع الهوامع (٢٢١/٢)، شرح تسهيل الفوائد (٢٣٨/٢). والبيت ينسب لأبي سفيان بن حرب كما في (الحيوان) (٢٠٩/١)، واللمحة (٢٨٢/١) - (٢٨٣)، وثمار القلوب، للثعالبي (ص: ٣٩٥)، وربيع الأبرار، للزحشري (٣٤١/٢). والشاهد فيه: قوله: (لن غدوة) حيث نصب (غدوة) على التمييز.

وهي منصوبة على التمييز، وهو اختيار المصنف؛ ولهذا قال: (***) ونصب غدوة بها عنهم ندر).

وقيل: هي خبر لكان المحذوفة، والتقدير: لدن كانت الساعة غدوة. ويجوز في (غدوة) الجر، وهو القياس، ونصبها نادر في القياس، فلو عطفت على غدوة المنصوبة بعد (لدن) جاز نصب عطفاً على اللفظ، والجر مراعاة للأصل، فتقول: (لدن غدوة وعشية وعشية)، ذكر ذلك الأخفش. وحكى الكوفيون الرفع في (غدوة) بعد (لدن) وهو مرفوع بكان المحذوفة، والتقدير: لدن كانت غدوة، وكان تامة.

وذكر ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ أن (لدن) بمعنى: (عند)، إلا أنها تختص بستة أمور: أحدها: أنها ملازمة لمبدأ الغايات، فمن ثم يتعاقبان في نحو: (جئت من عنده، ومن لدنه)، وفي التنزيل: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، بخلاف نحو: (جلست عنده)؛ فلا يجوز فيه: (جلست لدنه)؛ لعدم معنى الابتداء هنا. الثاني: أن الغالب استعمالها مجرورة بـ: (من) ^(١).

الثالث: أنها مبنية إلا في لغة قيس، وبلغتهم قرئ: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ [النساء: ٤٠] - بإسكان الدال - ^(٢).

(١) فتكون مبنية على السكون في محل جر، ولم ترد في القرآن الكريم إلا كذلك.

(٢) قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ [النساء: ٤٠] بإسكان الدال وإشمامها الضم، وكسر النون والهاء، ووصلها بياء في الوصل. وفي (شرح التصريح) (٧١٢/١): "الغالب في (لدن) استعمالها مجرورة بـ: (من)، ونصبها قليل، حتى إنها لم تأت في التنزيل منصوبة. وجر (عند) بـ: (من) دون جر (لدن) في الكثرة. و(لدن) مبنية على السكون، وعلة بنائها: شبهها بالحرف في لزوم استعمال واحد، وهو الظرفية، وعدم التصرف، إلا في لغة قيس؛ فإنها معربة عندهم؛ تشبيهاً بـ: (عند)، و"بلغتهم قرئ: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ [النساء: ٤٠] بإسكان الدال وإشمامها الضم، وكسر النون والهاء، ووصلها بياء في الوصل، وهي قراءة أبي بكر بن عاصم". في (أمالي =

الرابع: جواز إضافتها إلى الجمل؛ كقوله:

*** لدن شب حتى شاب سود الذوائب^(١).

الخامس: جواز إفرادها قبل: (غدوة)^(٢)، فتنصبها: إما على التمييز، أو على التشبيه بالمفعول به، أو على إضمار (كان) واسمها. وحكى الكوفيون رفعها على إضمار (كان) تامة. والجر القياس، والغالب في الاستعمال.

السادس: أنها لا تقع إلا فضلة، تقول: (السفر من عند البصرة)، ولا تقول: (من لدن البصرة)^(٣).

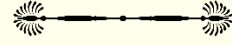
= ابن الشجري (٣٤٠/١-٣٤١): "فأما ما روي عن عاصم من قراءته: ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ [النساء: ٤٠] بكسر النون، فالكسرة فيه ليست كسرة جرٍّ، وإنما هي كسرة التقاء الساكنين، وذلك أن الدال أسكنت كما أسكنت الباء، من سبع، والنون ساكنة، فلما التقيا كسر الثاني منهما اهـ". فظهر بهذا أن (لدن) مبنية دائماً، بخلاف (عند)؛ فإنها معربة دائماً.

(١) قائله: هو القطامي، واسمه: عمير بن شسيم. وصدده: (صريعٌ عَوَانٍ رَاقِهُنَّ وَزَفْنَهُ***)، وهو في (ديوانه) (ص: ٤٤)، انظر: المقاصد النحوية (شرح الشواهد الكبرى)، للعبني (١٣٤١/٣)، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١٨١/١)، شرح شواهد المغني، للسيوطي (٤٥٥/١). أمالي ابن الشجري (٣٤٠/١). والشاهد من شواهد: مغني اللبيب (ص: ٢٠٨)، وأوضح المسالك (١٢٤/٣)، وشرح تسهيل الفوائد (٢٣٧/٢)، وشرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢٠٣/٣)، وشرح التصريح (٧١٢/١)، وشرح الأشموني (١٦٠/٢)، وجمع الهوامع (٢٢٠/٢). والشاهد: (لدن شب). حيث أضاف (لدن) إلى جملة: (شب..)، وقد دلت على بداية الغاية الزمانية. وحكم إضافتها إلى الجمل الجواز.

(٢) أي: قطعها عن الإضافة لفظاً ومعنى، من غير أن يفصل بينهما فاصل؛ ومن ذلك ما تقدم من قول أبي سفيان: (وما زال مُهْرِي مَرْجَرَ الْكَلْبِ مِنْهُمْ*** لَدُنْ غَدْوَةٍ حَتَّى دَنْتَ لِعُرُوبِ).

(٣) أوضح المسالك (١٢٢/٣-١٢٦)، وانظر: شرح الأشموني (١٦١/٢-١٦٢).

معنى (مع) وبيان حالاتها:



قال في (الصحاح): "(مع) كلمة تدل على المصاحبة، والذي يدل على أن (مع) اسم: حركة آخره مع تحرك ما قبله، وقد يسكن وينون، تقول: (جاءوا معاً)" (١). والمصاحبة: الموافقة والمشاركة في الشيء.

وقيل: (مع) حرف خفض، قال في (العين): "وأما (مع) فهو حرف يضم الشيء إلى الشيء: تقول: (هذا مع ذاك)" (٢).

وقيل: (مع) كلمة تضم الشيء إلى الشيء، وأصلها: معاً، وهو قول الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ (٣).

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما (مع) فاسم لمكان الاصطحاب، أو وقته، نحو: (جلس زيد مع عمرو)، و(جاء زيد مع بكر)، والمشهور فيها: فتح العين، وهي معربة، وفتحتها فتحة إعراب، ومن العرب من يسكنها. وزعم سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ أن تسكينها ضرورة، وليس كذلك، بل هو لغة ربيعة، وهي عندهم مبنية على السكون. وزعم بعضهم أن الساكنة العين حرف، وادعى النحاس رَحِمَهُ اللَّهُ الإجماع على ذلك، وهو فاسد؛ فإن سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ زعم أن ساكنة العين اسم. هذا حكمها إن وليها متحرك، أعني: أنها تفتح، وهو المشهور، وتسكن، وهي لغة ربيعة، فإن وليها ساكن فالذي ينصبها على الظرفية يبقى فتحها،

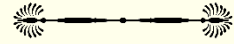
(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (مع) (١٢٨٦/٣).

(٢) العين، مادة: (مع) (٩٥/١).

(٣) انظر: تهذيب اللغة (١٥٨/٣)، وانظر: الكليات (ص: ٨٣٨).

فيقول: مع ابنك، والذي يبينها على السكون يكسر؛ لالتقاء الساكنين، فيقول: مع ابنك" (١).

عند ولدى:



(عند) ظرف مكان، ويكون ظرف زمان إذا أضيف إلى الزمان، نحو: عند الصباح، وعند طلوع الشمس، ويدخل عليه من حروف الجر (من) لا غير.

قال في (العين): "عند: حرف صفة، يكون موضعاً لغيره، ولفظه نصب، لأنه ظرف لغيره، وهو في التقريب شبه اللزق، ولا يكاد يجيء في الكلام إلا منصوباً؛ لأنه لا يكون إلا صفة معمولاً فيها، أو مضمراً فيها فعل، إلا في حرف واحد. وذلك أن يقول القائل لشيء بلا علم: (هذا عندي كذا وكذا)، فيقال: (أولك عند؟) فيرفع" (٢).

وأما (عند) فحضور الشيء ودنوه. وفيها ثلاث لغات: كسر العين، وفتحها. وضمتها. وهي ظرف في المكان والزمان، تقول: عند الليل، وعند الحائط، إلا أنها ظرف غير متمكن، لا تقول: (عندك واسع) بالرفع. وقد أدخلوا عليه من حروف الجر (من) وحدها، كما أدخلوها على (لدى). قال الله عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقال جل وعلا: ﴿مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [النساء: ٦٧]. ولا يقال: (مضيت إلى عندك)، ولا (إلى لدنك). وقد يُعْرَى بها، تقول: عندك زيداً، أي: خُذْهُ" (٣).

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٦٧/٣-٧١)، وانظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (١٢٦/٣-١٢٩).

(٢) العين، مادة: (عند) (٤٣/٢)، وانظر: تهذيب اللغة (١٣٢/٢).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (عند) (٥١٣/٢)، وانظر: المصباح المنير (٤٣١/٢).



قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن الظروف العادمة التصرف: (عند)، ولا تستعمل إلا مضافة، ولا يفارقها النصب على الظرفية إلا مجرورًا بـ: (من)، وهي لبيان كون مظهرها حاضرًا حسًّا أو معنى، وقد اجتمع الحضور الحسِّي والمعنوي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠].

ومثال القرب الحسِّي: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣-١٥].

ومثال القرب المعنوي: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧]، و﴿رَبِّ أَبْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١].

ومن القرب المعنوي قول الرجل: (عندي مائة)، يريد: أنه مالها وإن كان موضعها بعيدًا، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ [النحل: ٩٦].

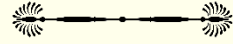
وقد يكون مظهرها معنى فيراد بها الزمان، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(١).

وكسر عينها هو المشهور، ومن العرب من يفتحها، ومنهم من يضمها. ويُرادفها: (لدى) في قول سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو الصحيح، لا قول مَنْ زعم أنها بمعنى: (لَدُنْ)؛ لأن (لَدُنْ) مخصوصة بما هو مبتدأ غاية، بخلاف: (لدى)؛ فإنها يراد بها ما يراد بـ: (عند)، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَنَّهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، فهذا موضع صالح لـ: (عند) ولـ: (لدى)، وغير صالح لـ: (لَدُنْ). و(لَدُنْ) لا تصلح من مواضعها إلا فيما هو مبتدأ غاية؛ ولذلك

(١) صحيح البخاري [١٢٨٣، ١٣٠٢]، مسلم [٩٢٦].

اجتمعت (عند) و(لَدُن) في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]...^(١).

قبل وبعد :



(قبل): نقيض: بعد. و(الْقَبْلُ) و(الْقُبْلُ) نقيض: الدُّبُرُ والدُّبُرُ.
و(أَقْبَلَ) نقيض: أَدْبَرَ. يقال: أَقْبَلَ مُقْبَلًا، مثْلُ: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠].
و(أَقْبَلَ عليه بوجهه)، و(الْمُقَابَلَةُ): الْمُوَاجَهَةُ. و(التَّقَابُلُ) مثْلُهُ. و(الاستقبالُ) نقيض: الاستدبار. و(مقابلة الكتاب): معارضته^(٢).
و(البعد): ضد القرب. وقد بَعُدَ - بالضم - بُعْدًا فهو بعيد، أي: تباعد. وأبعده غيره، وباعده، وبعده تبعيدًا^(٣).
والأصل في (قبل)، و(بعد) ملازمتهما الإضافة لما بعدهما، لكنهما قد ينقطعان عن الإضافة.

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

واضمم بناء (غيرا) أن عدمت ما له أضيف ناويًا ما عدما
قبل ك: (غير) بعد حسب أول ودون والجهات أيضًا وعمل

(١) شرح تسهيل الفوائد (٢/٢٣٤-٢٣٦)، وانظر: هع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢/١٦٥).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (قبل) (٥/١٧٩٥-١٧٩٧).

(٣) انظر: المصدر السابق، مادة: (بعد) (٢/٤٤٨).

وأعربوا نصبًا إذا ما نكرا قبلاً وما من بعده قد ذكرا^(١)
 أي: من الكلمات الملازمة للإضافة: غير، وقبل، وبعد، وحسب، وأول، ودون،
 والجهات الست، وهي: أمامك: وخلفك: وفوقك: وتحتك: وبمينك: وشمالك: وعل، لها
 أربعة أحوال تبنى في حالة منها، وتعرب في بقيتها، ومن هذه الكلمات: (قبل) و(بعد).

صور الإعراب:

و(قبل) و(بعد) يجب إعرابها في ثلاث صور:

إحداها: أن يصرح بالمضاف إليه، ك: (جئتك بعد الظهر، وقبل العصر)، و(من)
 قبله، ومن بعده). ففي المثال الأول نُصِبَا عَلَى الظَّرْفِيَةِ الزَّمَانِيَةِ، وفي الثاني جُرًّا بـ: (من).

ومن الجر بـ: (من): قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ﴾ [النور: ٥٨].

وتكون معرفة إذا أضيفت إلى معرفة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل

عمران: ٤٤]، ونكرة إذا أضيفت إلى نكرة، نحو: (جئت بعد سفر).

الثانية: أن يحذف المضاف إليه، وينوى لفظه، فيبقى الإعراب، وترك التنوين، كما

لو ذكر المضاف إليه، وهو قليل، ومن ذلك قول الشاعر:

ومن قبل نادى كل مولى قرابة *** (٢)

أي: ومن قبل ذلك.

(١) ألفية ابن مالك (ص: ٣٧).

(٢) صدر بيت، عجزه: (***فما عطف مولى عليه العواطف). لم يعرف قائله، والشاهد فيه: (ومن قبل)، حيث
 جر (قبل) بدون تنوين؛ لحذف المضاف إليه ونية لفظه، وترك التنوين؛ للإضافة المذكورة؛ لأن المنوي ثبوت
 لفظه كالثابت؛ والتقدير: من قبل ذلك؛ وحكم إعراب (قبل) في هذه الحال الوجوب.

وقرى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ﴾ [الروم: ٤] بالجر من غير تنوين؛ أي: من قبل الغلب، ومن بعده.

الثالثة: أن يحذف ما تضاف إليه، ولا ينوى شيء (لا لفظه ولا معناه)، فيبقى الإعراب، ولكن يرجع التنوين؛ لزوال ما يعارضه في اللفظ والتقدير، كقراءة بعضهم: ﴿مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ﴾ [الروم: ٤] بالجر والتنوين.
ومن ذلك قول الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً ***
وتكونان حينئذ نكرة.^(١)

(١) صدر بيت، عجزه: (***أكاد أغص بالماء الفرات)، والرواية في البيت: (بالماء الفرات)، ورواه أبو منصور الثعالبي عن أبي عمرو: (بالماء الحميم)، وهو البارد، وهو المحفوظ، انظر: (التخمير)، للقياسم بن الحسين (٢/٢٦٨)، فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي (ص: ٢٦٢)، الزاهر، لأبي بكر الأنباري (٢/٣٥٠)، تهذيب اللغة (٤/١١)، شرح الكافية الشافية (٢/٩٦٥)، شرح التصريح (١/٧١٩)، شرح تسهيل الفوائد (٣/٢٤٧)، شرح الرضي (١/٢٥٣). والبيت ليزيد بن الصعق، وقيل: هو لعبد الله بن يعرب بن معاوية. ف: (قبلاً): ظرف زمان منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، وهو متعلق بـ: (كان). والشاهد: مجيء (قبلاً) مقطوعاً عن الإضافة لفظاً ومعنى؛ ولهذا، جاء معرباً منوناً. انظر: أوضح المسالك (٣/١٣٠)، شرح الكافية الشافية (٢/٩٦٢)، المفصل في صنعة الإعراب (ص: ٢١٠)، شرح المفصل (٣/١٠٧)، شرح ابن عقيل (٣/٧١-٧٥)، شرح الأشموني (٢/١٦٤-١٧٢)، همع الهوامع (٢/١٩٦)، توضيح المقاصد (٢/٨١٧)، أمالي ابن الشجري (٣/٢٠٣)، معاني القرآن، للفراء (٢/٣٢٠)، شرح التصريح على التوضيح (١/٧١٧)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/١٦٨)، حاشية ابن التمجيد (١٥/١٠٠)، حاشية الشهاب الخفاجي (٥/١٩٩)، تهذيب اللغة (٤/١١)، وانظر أوجه الإعراب كذلك في (الدر المصون) (٩/٣١).

حالة البناء:

أن يحذف المضاف إليه وينوي معناه دون لفظه، وتكون عند ذاك مبنية على الضم، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] في قراءة الجماعة. وتكون في هذه الحالة معرفة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]، أي: من قبل ذلك، يعني: في الدنيا.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَاُنُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩]، من قبل ذلك، فبنيت ههنا؛ لقطعها عن الإضافة.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، أي: من بعد ذلك الطلاق، يعني: بعد الطلقة الثالثة.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أُعَذِّبُهُ﴾ [المائدة: ١١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ [الأنفال: ٧٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨]، ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠]، أي: ومن قبل ذلك، يعني: من قبل هذا قصرتم في شأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، ولم تحفظوا عهد أبيكم.

وتحتمل ﴿مَا﴾ وجوهاً: الأول: أن تكون زائدة. والثاني: أن تكون مصدرية ومحلها الرفع بالابتداء، تقديره: وقع من قبل تفريطكم في يوسف عَلَيْهِ السَّلَام. والثالث: أن تكون موصولة ومحلها أيضاً الرفع كذلك، والأول أظهر.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

فقبل ظرف زمان مبني على الضم في محل جر، والتقدير: من قبل نزول القرآن.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْبَسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَّلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

ف: (بعد) ظرف زمان مبني على الضم في محل جر، والتقدير: من بعد الفتح.

وهذا القسم الأخير هو الذي يسميه النحويون: (الغايات).

وقد تقدم قول الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث: «والتَّوبَةُ معروضةٌ

بَعْدُ»، حيث قال: "(بعد): ظرف مبني على الضم؛ لقطعه عن الإضافة لفظاً، وإرادة

المضاف ضمناً، ويقابلها (قبل)، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]" (١).

إيجاز الحالات في (قبل) و(بعد):

الحاصل أن الأصل في (قبل)، و(بعد) ملازمتها الإضافة لما بعدهما، وقد ينقطعان

عنها.

وهما في حالة الإضافة قسمان:

الأول: بلا حرف جر قبلهما:

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٤٨/١).



وقال جَلَّوَعًا: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا فِي تَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿قَالَ يَنَآئِيهَا أَلْمَلُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿أَيَا مُرْكُم بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢].

وقال جَلَّوَعًا: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦].

إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة. وتكون (قبل) و(بعد) في هذه الحال ظرف زمان أو مكان.

الثاني: ما كان مسبوقاً بحرف جر:

وهو كثير، ويكون (قبل) و(بعد) في هذه الحال مجروراً بحرف الجر.



الحالة الثانية: القطع عن الإضافة:

وهي قسمان:

الأول: البناء على الضم - كما تقدم -.

والثاني: النصب على الظرفية بلا إضافة:

وله حالتان: تقدير المضاف لفظاً ومعنى، كقولنا: (دخل الطلاب ثم دخل المعلم بعد)، والتقدير: بعدهم.

الثانية: تنوين الظرف، كما تقدم في قول الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً***

فهو مقطوع عن الإضافة لفظاً ومعنى؛ ولهذا، جاء معرباً منوناً.

وقال الرضي رَحِمَهُ اللهُ فِي (شرح الكافية): "اعلم أن المسموع من الظروف المقطوعة عن الإضافة: قبل، وبعد، وتحت، وفوق، وأمام، وقدام، ووراء، وخلف، وأسفل، ودون، وأول، ومن عل، ومن علو، ولا يقاس عليها ما هو بمعناها نحو: يمين وشمال وآخر وغير ذلك" (١).

وفي (الأشباه والنظائر): "ما يلزم الإضافة من الظروف: فوق، وتحت، وأمام وقدام، وخلف، ووراء، وتلقاء، وتجاه، وحذاء، وحذو، وعند، ولدن، ولدى، وبين، ووسط، وسوى، ومع، ودون، وإذ، وإذا، وحيث" (٢).
وتنفرد (من) بجر ظروف لا تتصرف، ك: (قبل، وبعد، وعند، ولدى، ولدن، ومع) (٣).

(١) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٦٧/٣).

(٢) الأشباه والنظائر في النحو (٢١٢/٢)، وانظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤٨٩/١).

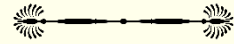
(٣) شرح تسهيل الفوائد (١٣٠/٣)، وانظر: التذييل والتكميل (١١٤/١١).



و"إذا دخلت (من) على (قبل، وبعد، ولدن، وعن) فهي زائدة؛ لأن المعنى بثبوتها أو سقوطها واحد. وإذا دخلت على (عند، ولدى، ومع، وعلى) فهي لا ابتداء الغاية" (١).

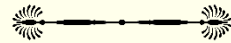
قال الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ: "الظروف التي لا يدخل عليها من حروف الجر سوى (من) خمسة: عند، ولدى، ومع، وقبل، وبعد اهـ". وكذلك: حيث (٢).

حين :



تقدم أن الحين: ظرف مبهم يتخصص بالإضافة.

ساعة :



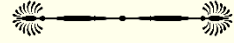
تقدم قول الإمام أبي العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ أن "الساعة في عرف اللغة: القطعة من الزمان غير محدود بمقدار؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وتقول العرب: (جئتك ساعة كذا)، فتتعين بحسب ما تضاف إليه، وليست محدودة" (٣).

(١) شرح تسهيل الفوائد (٣/١٤٠)، وانظر: التذييل والتكميل (١١/١٥١).

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٩/٦٣٣)، (٩/٦٥٣)، وانظر: الأشباه والنظائر (٢/٧٥)، الدماميني على المغني (١/٣٠٧).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٤٨٦).

بين وبيننا وبينما :



(بيننا) و(بينما) ظرفا زمان بمعنى المفاجأة، يضافان إلى الجمل الاسمية والفعلية، وخفض المفرد بهما قليل، وهما في الأصل: (بين) التي هي ظرف مكان، وتستعار للزمان، كما في حديث: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «بينما نحن عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل..» الحديث^(١). فقد استعيرت هنا للزمان، وأشبعنا فيها الحركة، فصارت: (بيننا)، وزيدت عليها الميم فصارت بينما، ولما فيهما من معنى الشرط يفتقران إلى جواب يتم به المعنى، وتصحب الجواب: (إذ) أو (إذا) الفجائيتان، وقد يتجرد الجواب عنهما، والعامل فيهما جوابهما.

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «بينما»... إلى آخره، (بين): كلمة معناه: الوسط، يقال: (جلس بين القوم)، أي: في وسطهم، وتُشَبَّع فتحة النون حتى يتوَلَّدَ منها ألفٌ، فيقال: (بيننا)، ويزاد عليه (ما)، فيقال: (بينما)، ومعنى ثلاثتها واحد، وثلاثتها ظرفٌ، فقد يكون ظرفَ مكان كقولك: (جلس بين القوم، وبين الدار)، وقد يكون ظرفَ زمان كما ها هنا. وحقيقته: بين الزمان الذي نحن كنا جالسين عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «طلع»، أي: ظهر ودخل، «علينا رجلٌ»^(٢).

(١) صحيح مسلم [٨].

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح (٣٨/١).



قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "و(بين) بمعنى: وسط، تقول: (جلست بين القوم) كما تقول: وسط القوم - بالتخفيف-. وهو ظرف، وإن جعلته اسماً أعربتة. تقول: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] برفع النون" (١).

فأصل (بين) أن تكون ظرفاً للمكان، وقد تكون للزمان، وقال الزنجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: بحسب ما تضاف إليه (٢).

فمن ورودها ظرفاً للمكان: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]. فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف منصوب، وهو متعلق بمفعول به ثانٍ لـ: ﴿أَجْعَلْ﴾، و﴿رَدْمًا﴾ مفعول به أول.

ومن ورودها للزمان: قولهم: (بين المغرب والعشاء يفعل الله ما يشاء). وقال الرضي رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرح الكافية): "أصل (بين) أن يكون مصدرًا بمعنى: الفراق، فتقدير: (جلست بينكما)، أي: مكان فراقكما. وتقدير: (فعلت بين خروجك ودخولك) أي: زمان فراق خروجك ودخولك، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فـ: (بين)، كما تبين، مستعمل في الزمان، والمكان.

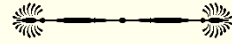
وأما إذا كف بـ: (ما)، أو (الألف) وأضيف إلى الجمل، فلا يكون إلا للزمان، لما تقدم من أنه لا يضاف من المكان إلى الجمل إلا (حيث). و(بين) في الحقيقة، مضاف إلى زمان مضاف إلى الجملة، فحذف الزمان المضاف، والتقدير: (بين أوقات زيد قائم)، أي: بين أوقات قيام زيد، فحذف الوقت؛ لقيام القرينة عليه، وهي غلبة إضافة الأزمنة إلى الجمل، دون الأمكنة وغيرها، فيتبادر الفهم في كل مضاف إليها، إلى الزمان، فصار (بين) المضاف إلى الزمان زمانًا؛ لأن (بين) إن أضيف إلى الأمكنة أو جثث غيرها، فهو

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (بين) (٢٠٨٤/٥).

(٢) انظر: همع الهوامع (٢٠٣/٢-٢٠٨).

للمكان، نحو: (بين الدار، وبين زيد وعمرو)، وإن أضيف إلى الأزمنة فهو للزمان، نحو: (بين يومي الجمعة والأحد)، وكذا إن أضيف إلى الأحداث، نحو: (بين قيام زيد وقعوده)، إلا أن يراد به مجازاً: المكان، نحو قولك: (زيد بين الخوف والرجاء)، استعرت لما بين الحدثين مكاناً؛ فلهذا وقع (بين) خبراً عن الجثة. فبينما المضاف تقديرًا إلى زمان محذوف، وظاهرًا إلى جملة مقدرة بحدث، لا بد أن يكون بمعنى: الزَّمان؛ فلهذا جاز إضافته إلى الجمل" (١).

بضع :



من الأسماء التي لا دلالة لها على الزمن إلا باعتبار ما أضيف إليها مما يدل عليه: (بضع). تقول: بَضَعُ في العدد - بكسر الباء -، وبعض العرب يفتحها، وهو ما بين الثلاث إلى التسع. تقول: بضع سنين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]. فقوله: ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ منصوبٌ على الظرف الزماني. قال الجوهري رَحِمَهُ اللهُ: "تقول بضع سنين، وبضعة عشر رجلًا، فإذا جاوزت لفظ العشر لا تقول: بضع وعشرون" (٢).

وقوله: "فإذا جاوزت لفظ العشر لا تقول: بضع وعشرون" يخالف ما جاء في الحديث من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةِ الْوَاحِدِ بِبُضْعٍ وَعَشْرِينَ

(١) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/١٩٦-١٩٧)، وانظر: همع الهوامع (٢/٢٠٣-٢٠٨)، حاشية

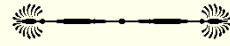
الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك (٢/٣٨٢).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (بضع) (٣/١١٨٦).



درجة» قاله ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ ^(١). وقال: "البضع في العدد - بالكسر -، وقد يفتح، ما بين الثلاث إلى التسع. وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة؛ لأنه قطعة من العدد اهـ"، ولأهل اللغة أقوال في (البضع): فقيل: ما بين الثلاث إلى التسع، أو إلى الخمس، أو ما لم يبلغ العقد ولا نصفه، يعني: ما بين الواحد إلى الأربعة. وقيل: غير ذلك ^(٢).

كل وبعض :



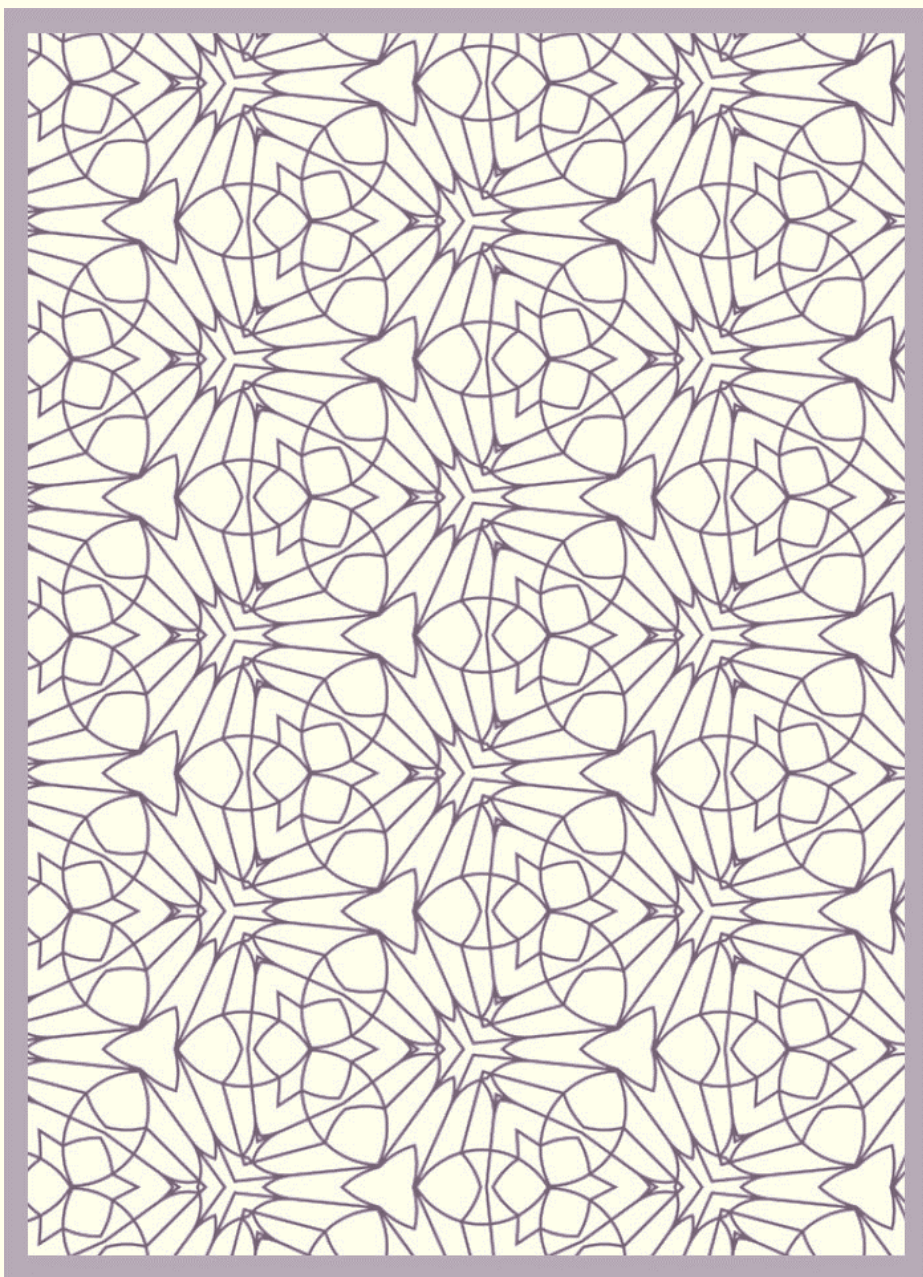
من الأسماء التي لا دلالة لها على الزمن إلا باعتبار ما أضيف إليها مما يدل عليه: (كل) و(بعض). تقول: (مشيت كل النهار، وبعض الليل). فلفظ: (كل) دل على كلية الظرف، و(بعض) على جزئيته.

و(كل) لفظه واحد ومعناه جمع. فعلى هذا تقول: كُلُّ حضر، وكُلُّ حضروا، على اللفظ مرة، وعلى المعنى أخرى. و(كل) و(بعض) معرفتان، ولم يَجِئْ عن العرب بالألف واللام، وهو جائز؛ لأن فيهما معنى: (الإضافة) أَضَفْتُ أو لم تُضِفْ ^(٣).

(١) أخرجه مسلم [٦٥٠]: عن ابن عمر. وابن خزيمة [١٤٧٢، ١٤٩٠]: عن أبي هريرة. وقال ابن خزيمة: "«بضع» كلمة مجملة؛ إذ البضع يقع على ما بين الثلاث إلى العشر من العدد، وبين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في خبر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهَا تَفْضُلُ بِخَمْسٍ وَعَشْرِينَ، ولم يقل: لا تفضل إلا بخمس وعشرين، وأعلم في خبر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا تَفْضُلُ بِسَبْعٍ وَعَشْرِينَ درجة".

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (بضع) (١٣٣/١-١٣٤)، وانظر ما قيل في (البضع) في (مجاز القرآن)، لأبي عبيدة (١١٩/٢)، معاني القرآن، للفراء (٤٦/٢)، تهذيب اللغة (٣٠٩/١)، غريب القرآن، لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، الدر المصون (٥٠٠/٦).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (كلل) (١٨١٢/٥)، معجم ديوان الأدب (٢٢/٣).



البحث الحادي والعشرون الدلالة على الزمان باعتبار الشرط والاستفهام

متى وأيان :

جاء في (شرح المفصل): "وأما (متى)، فسؤال عن زمان مبهم، يتضمن جميع الأزمنة، فإذا قيل: (متى الخروج؟)، فتقول: (اليوم، أو الساعة، أو غداً). والمراد بها الاختصار، وذلك أنك لو سألت إنساناً عن زمن خروجه، لكان القياس: (اليوم تخرج، أم غداً، أم الساعة؟)، والأزمنة أكثر من أن يحاط بها، فإذا قلت: (متى) أغنى عن ذكر ذلك كله. وهي مبنية على السكون؛ لأنها وقعت موقع حرف الاستفهام، وهو الألف، وأصل الاستفهام بحروف المعاني^(١)، وبنيت على السكون على أصل البناء، ولم يلتق في آخرها ساكنان، فيجب التحريك لذلك"^(٢).

ولم ترد (متى) في القرآن إلا للمستقبل، ولم تأت إلا خبراً للمبتدأ. قال الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

(١) "أصل الاستفهام بحروف المعاني؛ لأنها آلة، إذا دخلت في الكلام أعلمت أن الخبر استخبار.." الأصول في

النحو، لابن السراج (١٣٥/٢).

(٢) شرح المفصل، لابن يعيش (١٣٣/٣).



وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ؟﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال أبو العباس المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ: " (متى) سؤال عن زمان" ^(١). قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ:

(متى) ظرف غير متمكن، وهو سؤال عن زمان، ويجازى به.

الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (متى) في لغة هذيل قد تكون بمعنى: (من).

وأنشد لأبي ذؤيب:

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ متى لُجَجٍ خُضِرٍ لَهْنٍ نَثِيجٍ ^(٢)

أي: من لجج. وقد تكون بمعنى: وسط. وسمع أبو عبيد بعضهم يقول: وضعته متى

كمي، أي: وسط كمي ^(٣)، أي: وسط كمي، أو في كمي. وإذا كانت بمعنى: (وسط)

فهي اسم، أو (من) فحرف، جزم به ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره. ولا يجوز: متى زيد؛ لأن الزمان لا يكون خبراً عن الجثة ^(٤).

(١) المقتضب (٢٨٩/٣)، وانظر: اللمع في العربية (ص: ٢٢٨)، الإنصاف في مسائل الخلاف (٥٢٩/٢).

(٢) أي: من لجج في لغة هذيل، و(اللجج): جمع لجة -بضم اللام-، وهي معظم الماء، و(النثيج) -بفتح النون وكسر الهمزة وسكون الباء آخر الحروف وبالجيم-: المر السريع مع الصوت. يقال: إن السحاب في بعض الأماكن يدنو من البحر الملح، فيمتد منها خراطيم عظيمة تشرب من مائه، فيكون لها صوت عظيم مزعج، ثم تذهب صاعدة إلى الجو، فيلطف ذلك الماء ويعذب بإذن الله عَزَّوَجَلَّ في زمن صعودها وترفعها، ثم يمطر حيث يشاء الله جَلَّوَعَلَا" شرح التصريح (١/٦٣٠-٦٣١). والشاهد فيه قوله: (بماء) فالباء زائدة، وقيل: هي بمعنى: (من) أي: شربن من ماء البحر. انظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية (ص: ١٢٨)، تهذيب اللغة (٢٤٥/١٤)، مقاييس اللغة (٥/٢٩٦)، المخصص (٤/٢٤٢)، شرح الكافية الشافية (٢/٧٨٤)، أوضح المسالك (٣/٥)، شرح ابن عقيل (٣/٦)، شرح الأشموني (٢/٦٢)، همع الهوامع (٢/٤٦٠)، شرح تسهيل الفوائد (٣/١٨٦)، أدب الكاتب (ص: ٥١٥).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (متى) (٦/٢٥٥٦).

(٤) انظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/٢٠٤)، مغني اللبيب (ص: ٤٤١)، المخصص (٤/٢٤٠).

همع الهوامع (٢/٤٦٠).



قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: " (مَتَى) سؤالٌ عن وقت، تقول: (متى يخرج زيد).
و(متى) يكون شرطاً يقتضي التكرار. تقول: (متى كلمتُ زيداً فعلى كذا) سمعت
عليّاً يقول: سمعت ثعلباً يقول ذلك.
فأما (متى) التي في لغة هُذَيْل فليست من هذا؛ لأنهم يقولون: (وضعتُه متى كُفِّي)،
يريدون: الوَسَط " (١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "و(متى) و(أين) يتضمنان معنى الاستفهام ومعنى الشرط،
تقول: متى كان ذاك؟ ومتى يكون؟ ومتى تأتني أكرمك؟ وأين كنت؟ وأين تجلس أجلس؟
ويتصل بهما (ما) المزیدة، فتزیدهما إبهاماً. والفصل بين (متى) و(إذا): أن (متى) للوقت
المبهم، و(إذا) للمعين " (٢).

و(أيان) بمعنى: (متى) إذا استفهم بها.
و(أيان) معناه: أيُّ حينٍ، وهو سؤال عن زمان، مثل: (متى). قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيَّانَ
مُرْسَلَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]. و(إيان)، بكسر الهمزة: لغة سليم، حكاها الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ (٣). وبه
قرأ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١] (٤). و﴿أَيَّانَ مُرْسَلَهَا﴾ أي: متى إرساؤها،
يعني: إقامتها وإثباتها، أو منتهاها، ومستقرها (٥).

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية (ص: ١٢٨).

(٢) المفصل في صنعة الإعراب (ص: ٢١٦).

(٣) انظر: معاني القرآن، للفراء (٩٩/٢)، المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني
(٢٦٨/١)، إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس (٢٤٩/٢)، البحر المحیط في التفسير (٥١٨/٦)، غريب

القرآن، للسجستاني (ص: ٦٠)، روح المعاني (٣٦٢/٧).

(٤) الصحاح، للجوهري، مادة: (أين) (٢٠٧٦/٥).

(٥) انظر: تفسير البضاوي (٢٨٥/٥)، الكليات (ص: ٢٢٥).

و(أيان): اسم استفهام للزمان المستقبل، أو يقال: هو اسم زمان مبني على الفتح، وهو بفتح الهمزة، و(سليم) تكسرهما.

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: " (أَيَّانَ) بمعنى: (متى) و(أي حين). قال بعض العلماء: تُرى أصلها: (أَيَّ أوان)، فحذفت الهمزة، وجعلت الكلمتان واحدة" (١).

قال الرضي رَحِمَهُ اللَّهُ: "و(أيان) للزمان، استفهاما ك: (متى) الاستفهامية، إلا أن (متى) أكثر استعمالاً.

وأيضاً (أيان) مختص بالأمر العظام، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَّانَ مُرْسَلَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، و﴿أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]، ولا يقال: (أيان نمت).

وتختص (أيان) في الاستفهام بالمستقبل،

بخلاف (متى)؛ فإنه يستعمل في الماضي والمستقبل.

ولفظها يوحى بالاستبطاء، فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَّانَ مُرْسَلَهَا﴾ يوحى أنهم يستبطئون

يومها، ونحوه: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ٦] " (٢).

وفي (التخمير): "الفرق بين (متى) و(أيان) من وجهين:

أحدهما: كثرة استعمال (متى)؛ لخفته، حتى صار أظهر من (أيان)، فصلح أن

يفسر (أيان) ب: (متى)، ولا ينعكس.

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية (ص: ١٠١)، وانظر: شرح المفصل في صناعة الإعراب الموسوم بالتخمير، للقاسم

بن الحسين (٢/ ٢٨٥)، فقه اللغة، للثعالبي (ص: ٢٥٠).

(٢) انظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/ ٢٠٤ - ٢٠٥).

والآخر: أن في (أيان) تفخيم الشأن؛ لأنها تستعمل في مواطن التفخيم، كقوله
جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ٦] ^(١).

وفي (الهمع): " (متى) و(أيان) ظرفا زمان للعموم، نحو: متى تقم أقم، وأيان تقم
أقم.. " ^(٢).

و(أيان) اسم زمان يستفهم به عن المستقبل.

* - وقد جاءت خبراً للمبتدأ، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ
مُرْسَلُهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فقوله: ﴿مُرْسَلُهَا﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿أَيَّانَ﴾ الخبر، وهو ظرف مبني على الفتح بمعنى:
(متى) متعلق بمحذوف خبر مقدم، وإنما بني؛ لتضمنه معنى: الاستفهام الذي هو للحرف،
فلما قام مقام الحرف، واستفهم به بني كما يبني الحرف، وبني على حركة؛ لسكون ما قبل
الآخر ^(٣).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢].

ف: ﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام في محل نصب ظرف زمان، وهو متعلق بمحذوف خبر
مقدم. و﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب مفعول ﴿يَسْأَلُونَ﴾.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ٦]. ف: ﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام في محل
نصب على الظرفية الزمانية، وهو متعلق بمحذوف في محل رفع خبر مقدم، و﴿يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾
﴿٦﴾ مبتدأ مؤخر.

(١) شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، للقاسم بن الحسين (٢/٢٨٥)، وانظر: شرح المفصل،

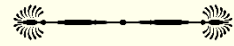
لابن يعيش (٣/١٣٥-١٣٦).

(٢) انظر: همع الهوامع (٢/٥٤٦).

(٣) انظر: مشكل إعراب القرآن، لمكي (١/٣٠٦)، (٢/٧٩٩-٨٠٠).

*- ويأتي (أيان) في محل نصب على الظرفية، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. ف: ﴿أَيَّانَ﴾ ل: ﴿يُبْعَثُونَ﴾ فهو متعلق به.
قال أبو البقاء رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿أَيَّانَ﴾: منصوب بـ: ﴿يُبْعَثُونَ﴾، لا بـ: ﴿يَشْعُرُونَ﴾" (١).

لم ولما والأدوات الجازمة:



حروف الجزم خمسة: (لم، ولما، ولام الأمر، ولا في النهي، وحرف الشرط)، تقول:
لم يقم زيد، ولما يقم زيد، وفي الأمر: (ليقم زيد)، وفي النهي: (لا يقم عمرو) (٢).
قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

بـ: (لا) و(لام) طالباً ضع جزماً	في الفعل هكذا بـ: (لم) و(لما)
واجزم بـ: (إن) و(من) و(ما) و(مهما)	(أي) (متى) (أيان) (أين) (إذما)
و(حيثما) (أنى) وحرف (إذما)	كـ: (إن) وباقي الأدوات أسما (٣)

الأدوات الجازمة للمضارع على قسمين:

أحدهما: ما يجزم فعلاً واحداً:

وهو (اللام) الدالة على الأمر، نحو: ليقم زيد، أو على الدعاء، نحو: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

(١) التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٧٩٢).

(٢) انظر: اللمع في العربية (ص: ١٣٢).

(٣) ألفية ابن مالك (ص: ٨٥).

و(لا) الدالة على النهي، نحو: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، أو على الدعاء، نحو: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
و(لم) و(لما)، وهما للنفي، ويختصان بالمضارع، ويقبلان معناه إلى الماضي، نحو: (لم) يقيم زيد، و(لما يقيم عمرو)، ولا يكون النفي بـ: (لما) إلا متصلاً بالحال.

والثاني: ما يجزم فعلين:

وهو (إن)، و(من)، و(ما)، و(مهما)، و(أي)، و(متى)، و(أيان)، و(أينما)، و(إذ ما)، و(حيثما)، و(أنى).
وهذه الأدوات التي تجزم فعلين كلها أسماء إلا (إن) و(إذ ما)؛ فإنهما حرفان، وكذلك الأدوات التي تجزم فعلاً واحداً كلها حروف^(١).
قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "و(لم) حرف نفي لما مضى. تقول: لم يفعل ذاك، تريد: أنه لم يكن ذلك الفعل منه فيما مضى من الزمان. وهي جازمة. وحروف الجزم: (لَمْ، وَلَمْأَ، وَأَلَمْ، وَأَلَمْأَ)..."^(٢).

وفي (شرح المفصل)، لابن يعيش رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما (لما) فظرف زمان إذا وقع بعده الماضي، نحو قولك: (جئت لما جئت). ومعناه معنى: (حين)، وهو الزمان المبهم. وهو مبني؛ لإبهامه، واحتياجه إلى جملة بعده، كبناء (إذ) و(إذا). وهو مركب من (لم) النافية، و(ما)، فحصل فيها بالتركيب معنى لم يكن لها، وهو الظرفية. وخرجت بذلك إلى حيز

(١) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٤/٢٦-٣١)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٣/١٢٦٥-١٢٦٧).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (لم) (٥/٢٠٣٣).

الأسماء، فاستحالت بالتركيب من الحرفية إلى الاسمية، كما استحالت (إذ) بدخول (ما) عليها من الاسمية إلى الحرفية، وتغير معناها بالتركيب من الماضي إلى الاستقبال" (١).

وأدوات الجزم ثلاثة أقسام:

الأول: ما يقلب زمن المضارع إلى ماضٍ، وهي: (لم) و(لما).

الثاني: ما يقلبه إلى الأمر، وهي (لام الأمر)، و(لا الناهية)؛ إذ إن لا الناهية أمر بالترك.

الثالث: أدوات الشرط، وهي أدوات تقوم بربط الجمل، لغرض تعليق حصول شيء بحصول شيء آخر.

قال أبو العباس المبرد رَحِمَهُ اللهُ: "ومعنى الشرط وقوع الشيء؛ لوقوع غيره، فمن عواملها من الظروف: (أين، ومتى، وأنى، وحيثما).

ومن الأسماء: (من، وما، وأي، ومهما).

ومن الحروف التي جاءت لمعنى: (إن، وإذما).

وإنما اشتركت فيها الحروف والظروف والأسماء؛ لاشتغال هذا المعنى على جميعها فحرفها في الأصل (إن)، وهذه كلها دواخل عليها؛ لاجتماعها، وكل باب فاصله شيء واحد، ثم تدخل عليه دواخل؛ لاجتماعها في المعنى.. " (٢).

قال أبو الفتح ابن جني رَحِمَهُ اللهُ: "وحرف الشرط المستولي عليه: (إن)، وتشبه به أسماء وظروف، فالأسماء: (من، وما، وأي، ومهما)، والظروف: (أين، ومتى، وأي حين، وأنى، وحيثما، وإذما)" (٣).

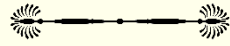
(١) شرح المفصل، لابن يعيش (١٣٥/٣-١٣٦).

(٢) المقتضب (٤٦/٢).

(٣) اللمع في العربية (ص: ١٣٣).

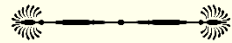
وفي (علل النحو): "اعلم أن أصل حروف المجازة (إن) ، وإنما وجب أن تكون الأصل، لأنها لا تخرج عن الجزاء، ولا تختص بالاستعمال في بعض الاشياء دون بعض، وسائر ما يجازى به سواها قد يخرج من باب الجزاء إلى غيره" (١).

إذا :



ظرف لما يستقبل من الزمان متضمن معنى الشرط مبني على السكون، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية - كما تقدم-.
وتأتي ظرفية محضصة غير متمخضة معنى الشرط، ويتنوع استعمالها في القرآن الكريم باعتبار ما وليها، وقد تقدم بيان ذلك.

كلما :



(كلما) أداة شرط غير جازمة، وهي تفيد التكرار، وتستخدم للدلالة على ظرف زمان، وهي مركبة من (كل)، و(ما) المصدرية، أو النكرة التي بمعنى: (وقت)، ومن هنا جاءتها الظرفية، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فإما أن يكون الأصل: كل رزق، ثم عبر عن معنى المصدر بـ: (ما) والفعل، ثم أنبأ عن الزمان، أي: كل وقت رزق، كما أنيب عنه المصدر الصريح في (جئتكَ

(١) انظر: علل النحو، لابن الوراق (ص: ٤٣٥).

خفوق النجم)^(١)، أو يكون التقدير: كل وقت رزقوا فيه، فحذف العائد، ولا يحتاج في هذا إلى تقدير: (وقت). (وناصبة) الفعل الذي هو جوابه في المعنى، مثل: ﴿قَالُوا﴾ في الآية. قال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا يكون تاليه وجوابه إلا فعلاً ماضياً^(٢).

وفي (المغني): "﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا﴾ منصوبة على الظرفية باتفاق، وناصبها الفعل الذي هو جواب في المعنى، مثل: ﴿قَالُوا﴾ في الآية وجاءتها الظرفية من جهة (ما).."^(٣).

و(ما) اسم بمعنى: الحين عند ابن الشجري رَحِمَهُ اللَّهُ، كقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [٩٧] ﴿[الإسراء: ٩٧]، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]، أي: في كل حين خبت، وفي كل حين نضجت جلودهم، وفي كل حين أضاء لهم..^(٤)

وفي (شرح الرضي رَحِمَهُ اللَّهُ): "وكل ما قلناه في (بينما) يطرد في (كلما)، من مجيء (ما) الكافة؛ لتكفه عن طلب مضاف إليه مفرد، ومن تقدير زمان مضاف إلى الجمل،

(١) تقول: (كان ذلك خفوق النجم، وطلوع الثريا)، أي: وقت خفوق النجم، ووقت طلوع الثريا، وكثرته تقتضي القياس عليه، وقد تقدم بيانه.

(٢) هم الهوامع (٢/٦٠٠-٦٠١)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (١/١٨٤).

(٣) انظر ذلك في (مغني اللبيب)، لابن هشام (ص: ٢٦٦).

(٤) قال الشيخ شهاب الدين: "(كل) نصب على الظرفية؛ لأنها أضيفت إلى (ما) الظرفية، والعامل فيها جوابها، وهو ﴿مَشَوْا﴾. وقيل: (ما) نكرة موصوفة، ومعناها: الوقت أيضاً، والعائد محذوف، تقديره: كل وقت أضاء لهم فيه، فأضاء على الأول لا محل له؛ لكونه صلة، ومحله الجر على الثاني. قال: واعلم أن (كلًا) من ألفاظ العموم، وهو اسم جمع لازم للإضافة، وقد يحذف ما يضاف إليه" انظر ذلك في (الدر المصون) (١/١٧٩-١٨٠).

(٥) أمالي ابن الشجري (٢/٥٥٤-٥٥٥).

ف: (كلما) إذن زمان مضاف إلى الجملة؛ لأن كلاً وبعضاً، من جنس ما يضافان إليه، زماناً كان أو مكاناً، أو غيرهما؛ ولما في (كلما) من معنى العموم والاستغراق، الذي يكون في كلمات الشرط، نحو: (من، وما، ومتى)، شابهها أكثر من مشابهة (بينما)، فلم يدخل إلا على الفعلية بخلاف: (بينما، وبينما)..^(١)

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ

نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلَّمَا﴾ أداة شرط غير جازمة، و﴿أَلْقَى﴾ ماض مبني للمجهول، و﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل. و﴿فَوْجٌ﴾ نائب فاعل، والجملة في محل جر بالإضافة، و﴿سَأَلَهُمْ﴾ ماض ومفعوله، و﴿خَزَنَتُهَا﴾ فاعله، والجملة جواب الشرط لا محل لها، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي، ومضارع مجزوم ب: (لم)، والكاف مفعول به، و﴿نَذِيرٌ﴾ فاعل، والجملة مفعول به ثان ل: (سأل).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ

وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

فقوله: ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أداة شرط غير جازمة، وماض وفاعله ومفعوله، والجملة في محل جر بالإضافة. ﴿لِتَغْفِرَ﴾ مضارع منصوب ب: (أن) مضمرة بعد لام التعليل، والمصدر المؤول من (أن) المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿لَهُمْ﴾ متعلقان بالفعل (تغفر). و﴿جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ﴾ ماض وفاعله ومفعوله، و﴿فِي﴾

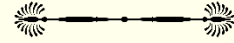
(١) انظر ذلك في (شرح الرضي على كافية ابن الحاجب) (١٩٧/٣)، وانظر: دراسة (كلما) في القرآن الكريم،

في (دراسات لأسلوب القرآن الكريم)، للشيخ محمد عبد الخالق عزيمة (٣٧٦-٣٧٩).

ءَاذَانِهِمْ ﴿ متعلقان بالفعل، وهما في موضع المفعول الثاني، والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها، ونظائر ذلك في القرآن الكريم كثيرة.



خاتمة :



قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: يا ابن آدم إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك^(١). وإنك تستشعر هذه الحقيقة منذ أن خرجت إلى الدنيا وأنت في نقصان، يوم يهدم يومًا، وشهر يهدم شهرًا، وسنة تهدم سنوات، وأنت إلى الأجل تسير. ترحل عن الدنيا بزادٍ من التُّقى فعمرك أيام وهنٌ قلائل وقال آخر: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ابن آدم طأ الأرض بقدمك؛ فإنها عن قليل تكون قبرك، ابن آدم إنما أنت أيام فكلما ذهب يوم ذهب بعضك، ابن آدم إنك لم تنزل في هرم عمرك منذ يوم ولدتك أمك»^(٢).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "ويحك يا نفس، لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرنك بالله الغرور، فلا تضعي أوقاتك؛ فالأنفاس معدودة، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب

(١) الزهد، لأحمد [١٥٨٦]، حلية الأولياء (١٤٨/٢).

(٢) كلام اللبائي والأيام، لابن أبي الدنيا [٢٤]، الزهد، لابن أبي الدنيا [٤٢٦]، شعب الإيمان [١٠١٨٠]،

الزهد الكبير، للبيهقي [٥١١]، صفة الصفوة (٢٤٤/١).

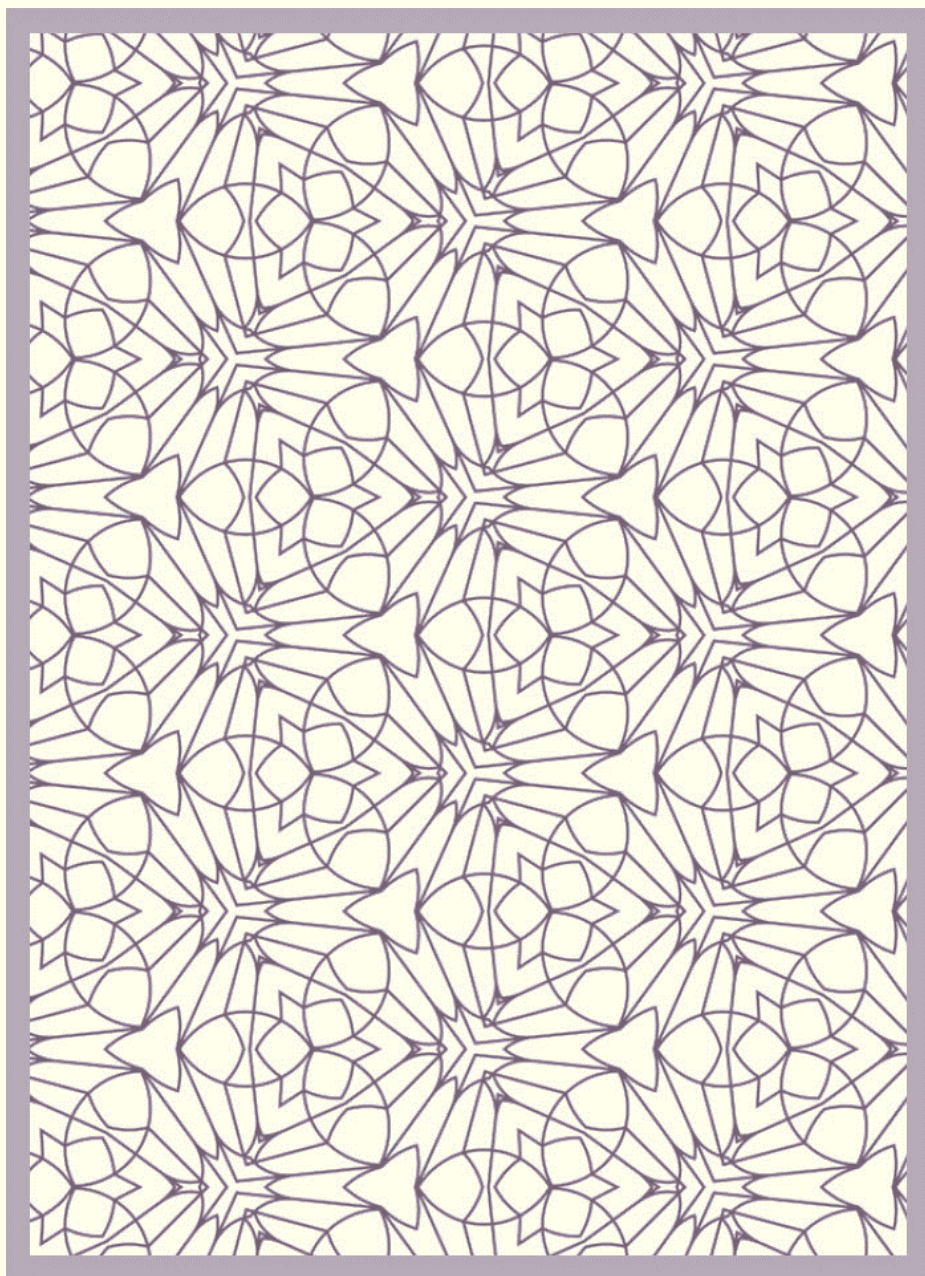


بعضك، فاغتني الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها^(١).
 الليل والنهار خزانتان، فما أودعتهما ادتاه، وإنهما يعملان فيك، فاعمل فيهما، جعلني الله عزَّجَلَّ وإياكم من المراقبين للأوقات، وصلى الله وسلم وبارك على أشرف المخلوقات، والحمد لله أولاً وآخرًا.
 وأكتفي بهذا القدر الذي يوضح لكل باحث في هذا الباب: طرق ومناهج البحث، فليُقَسَّ ما لم أذكره على ما ذكرته، وفيما ذكر مقنع وإرشاد لمن تدبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(١) إحياء علوم الدين (٤/٤١٩).

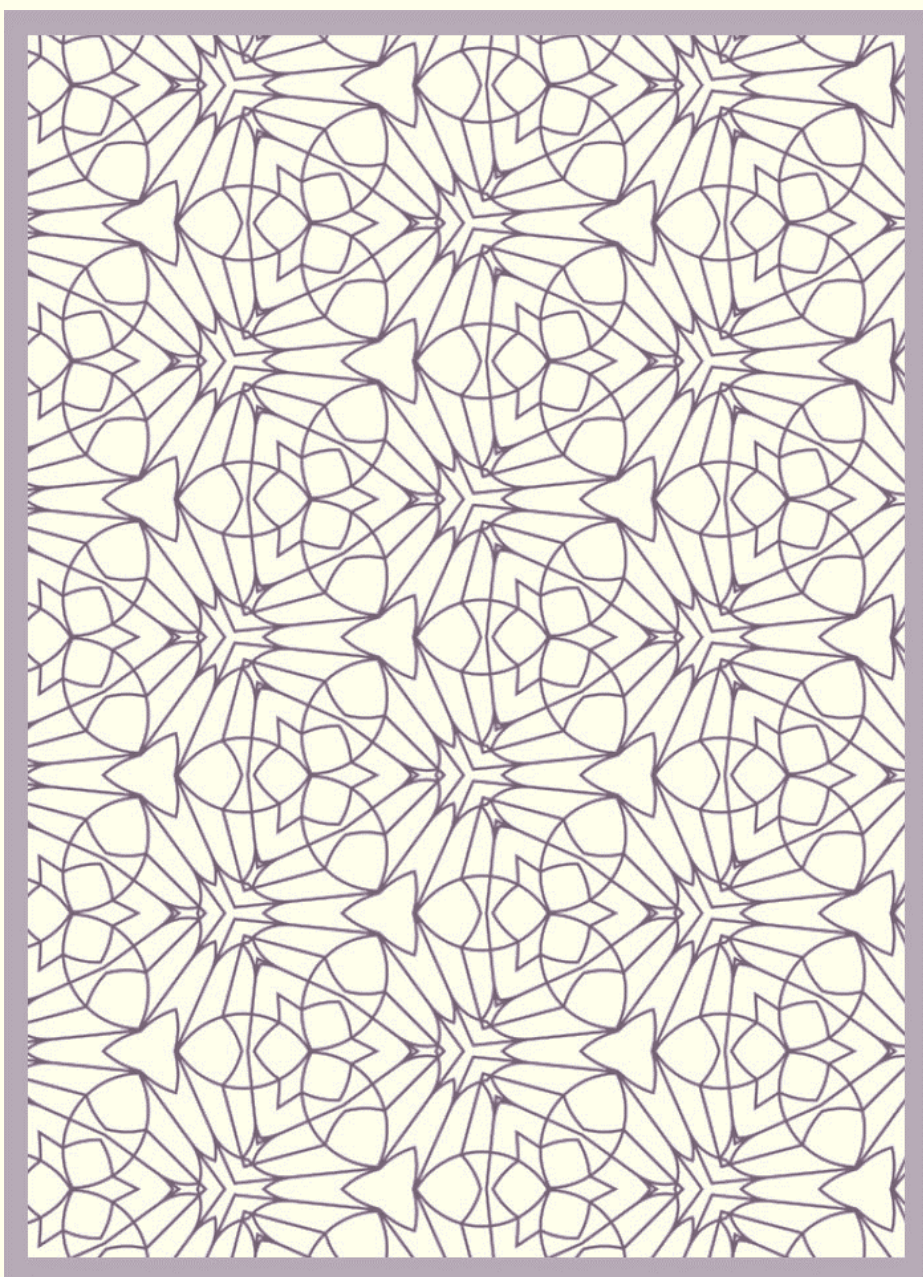


جدول توضيحي لألفاظ الزمن الأكثر تداولاً في مصادر التشريع (على الترتيب المثبت في الكتاب):

الزَّمانُ الممتد والمحدود والمبهم وغير المبهم								
أبد	أجل	أزل	إقامة	أمة	أمد	تاريخ	تربص	ثوى
حقبة	حَوْل	حياة	حين	خلد وأُخلد	دأب	دهر	سرمد	سكن
سِنٌّ وَسَنَةٌ	شهر	طبقة	عام	عدة	عكف	عمر	عَيش	فترة
قرن	لبث	ليل ونهار	مدة وبرهة	مكث	وعد وموعد وميعاد	وقت وميقات	-	-
اليوم وأجزاء الوقت فيه								
اليوم (مقداره وبيان المراد منه)								
أجزاء الوقت فى اليوم								
ساعة			دقيقة		لحظة		ثانية	
أسماء اليوم باعتبار الماضى والحاضر والمستقبل								
أمس			يوم		غد			
أجزاء اليوم وساعات الليل والنهار								
ألفاظ يحتاجها المفسر والفقيه								
مع بيان دلالاتها وما يتصل بها من أعمال								
إبكار وبكرة وتبكير	إسفار	آصال	آناء الليل	رواح وإدلاج	زلفة	سجو	السَّخَرُ وثَلث الليل الآخر	سرح وأراح
سرى	شروق وغروب	شفق ووسق	صبح	صريم	ضحى	ظهر وبيان	عشاء وعشي	عصر

		المراد من الإبراد					وإشراق وَبُلُوج	
هجد	ناشئة الليل	مساء	مبيت وتببيت	فلق	فجر	غَلَس	غسق ووقب	غدو وغدوة
هَجِيرٌ وَهَاجِرَةٌ					هجع			
أسماء وأفعال الزمن الحال والمقارب								
لمح البصر		أوان وآن			آنفاً		ارتداد الطرف	
دلالة أفعال المقاربة والشروع على الزمن المقارب								
أسماء الزمن المتجدد أو ما يغلب استعماله في التجدد								
الْمَرْ وَالْمَرَّة		فين			طُورَ وَأَطوارَ وأخياف		تارة	
الزمن الخاص بالمرأة								
قرء								
ما يغلب إطلاقه في الاصطلاح الشرعي على ما يخص المرأة								
تربص				عدة				
أسماء السنة وبيان أجزائها								
أسماء السنة								
عام		حول			سنة			
أجزاء السنة								
شهر		أسبوع			يوم			
فصول السنة								
الشتاء		الخريف			الصيف		الربيع	
أيام الأسبوع								
الجمعة		الخميس		الأربعاء		الثلاثاء		الاثنين
تخصيص يوم الجمعة بالفضل					ما جاء في الخميس والاثنين			
دلالة الفعل وأقسامه								
دلالاته على معنى مقترن بحدث وزمن								
أقسام الفعل ودلالة كل منها على الزمن								

الأمر			المضارع		الماضي		
- الأمر مستقبَلٌ أبداً - قد يراد به دوام ما حصل - يتوسع في دلالته على الزمن إلى معانٍ أخرى			- التعريف -حروف المضارعة - معنى المضارعة		القريب	المنقطع	المطلق
الحاصل في الماضي	الحال	الاستقبال المطلق					
- التعريف - الحكم - الصيغ - الخروج عن المعنى الأصلي	غير مقيد بزمن	المستمر	الدلالة على الزمن: (الحال أو الاستقبال)		الاستمرار	احتمال المضي والاستقبال	الاستقبال
			خروجه إلى الإنشاء (الدعاء- الأمر -النهي)				
			إرادة الفعل	مشاركة وقوع الفعل			
دلالة النواسخ الفعلية على الزمان							
دلالة الحال في اللغة على الزمان							
أقسام الحال							
غير مؤكده				مؤكده			
أقسام الحال بالنسبة للزمان							
المحكية		المقدرة			المقارنة		
دلالة اسم الزمان والظرف في اللغة							
الدلالة على الزمن باعتبار الإضافة والقطع عنها							
كل وبعض	بضع	بين وبيننا وبينما	ساعة	حين	قبل وبعد	عند ولدى	حيث وإذ لدن ومع وإذا
الدلالة على الزمان باعتبار الشرط والاستفهام							
كلما		إذا			لم ولما والأدوات الجازمة		متى وأيان



فَهْرَسْتَنُ الْمَوْضُوعَاتِ

مُقَدِّمَةٌ.....	٥
المبحث الأول: مصطلحات البحث والألفاظ ذات الصلة	١٧
أولاً: بيان معنى القصة في اللغة والاصطلاح.....	١٧
١ - تحرير معنى القصة في اللغة وما يتصل بمادة اللفظ من المعاني.....	١٧
٢ - تحرير معنى القصة في الاصطلاح.....	٢٢
ثانياً: بيان معنى الخبر في اللغة والاصطلاح.....	٢٤
ثالثاً: بيان معنى الحديث في اللغة والاصطلاح.....	٣٢
١ - تعريف الحديث في اللغة.....	٣٢
٢ - تعريف الحديث في الاصطلاح.....	٣٤
رابعاً: الكلام.....	٣٦
١ - تعريف الكلام لغة.....	٣٦
٢ - الكلام في الاصطلاح.....	٣٦
أ. الكلام في اصطلاح النحويين.....	٣٦
ب. الكلام عند أهل الكلام.....	٤٠
ج. الكلام عند أهل العروض.....	٤١
د. القرآن الكريم كلام الله عَزَّوَجَلَّ.....	٤١
خامساً: فروق مميّزة بين الاصطلاحات.....	٤٣
١ - الفرق بين المثل والقصة.....	٤٣



- ٢ - الفرق بين القصة والحديث..... ٤٣
- البحث الثاني: الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع**..... ٤٧
- أولاً: الزمان من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ..... ٤٧
- ثانياً: توقف الزمن وعمله بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته..... ٥٦
- ثالثاً: القوانين المطردة في هذا الكون..... ٦٠
- رابعاً: النهي عن سبِّ الزمن..... ٧٩
- خامساً: القرآن لا يعنى غالباً بتحديد الزمن..... ٨١
- سادساً: الزَّمان في الحياة الدنيا لا يثبت على حال..... ٨٢
- سابعاً: قيمة الزمن في الكتاب والسنة..... ٨٧
- ثامناً: التوبة واجبة على الفور..... ١١٣
- تاسعاً: بيان زمن التوبة..... ١١٧
- عاشراً: ألفاظ المسارعة والمسابقة والمنافسة والمبادرة والسعي..... ١٤٠
- ١ - المسارعة..... ١٤٠
- ٢ - المسابقة..... ١٤١
- ٣ - المنافسة..... ١٤٦
- ٤ - المبادرة..... ١٥٦
- ٥ - السعي..... ١٥٧
- البحث الثالث: التجوز في الأفعال في قصص القرآن وكلام الله عَزَّوَجَلَّ**..... ١٦١
- أولاً: وقوع الماضي موقع المستقبل في كلام الله عَزَّوَجَلَّ..... ١٦١
- ثانياً: أوجه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه..... ١٦٥



- ثالثًا: التعبير عن المستقبل باسم الفاعل واسم المفعول..... ١٦٨
- رابعًا: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع..... ١٦٩
- خامسًا: التعبير عن الحاضر بالمستقبل..... ١٧١
- سادسًا: اعتبار مجيء التجوز بالأفعال مقيدًا بالشرط، أو غير مقيد..... ١٧٣
- البحث الرابع: القسم بالزمن**..... ١٧٧
- أولًا: دلالات القسم بالزمن..... ١٧٧
- ذكر المنجيات من الخسران..... ١٨٠
- بيان القصد من القسم..... ١٩٣
- ثانيًا: قسم الله عَزَّوَجَلَّ بالخلق مع نهي العباد عن القسم بغير الله عَزَّوَجَلَّ..... ١٩٦
- ثالثًا: مواضع ودلالات القسم بالزمن في القرآن الكريم..... ٢٠٣
- ١ - القسم بالعصر..... ٢٠٣
 - ٢ - القسم بالعمر..... ٢٠٣
 - ٣ - القسم بيوم القيامة..... ٢٠٦
 - أ. دلالة القسم بيوم القيامة..... ٢٠٦
 - ب. مواضع القسم بيوم القيامة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ..... ٢٠٧
 - ٤ - القسم بالصبح..... ٢١١
 - ٥ - القسم بالفجر..... ٢١١
 - حاصل ما قيل في الجواب، والتعقيب على أورده ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ..... ٢١٦
 - ٦ - القسم بالليالي العشر..... ٢١٨
 - ٧ - القسم بالشفع والوتر..... ٢٢٠
 - ٨ - القسم بالليل إذا يسر..... ٢٢٢

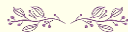


- وجه الحكمة من القسم بهذه الأزمان..... ٢٢٥
- ٩ - تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝﴾..... ٢٢٥
- ١٠ - الْقَسَمُ بالشفق..... ٢٢٧
- ١١ - الْقَسَمُ بالضحى..... ٢٢٧
- ١٢ - القسم بالليل والنهار..... ٢٢٩
- أ. القسم بالليل..... ٢٢٩
- ب. القسم بالنهار..... ٢٣٦
- ١٣ - مسألة: تكرار الواو في القسم..... ٢٣٩
- ١٤ - العطف يقتضي التغاير في الذوات، والاشتراك في الحكم..... ٢٤١

البحث الخامس: مقاصد ودلالات القصص في كلام الله عَزَّوَجَلَّ

- وكلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... ٢٤٥
- ١ - ربانية المصدر والغاية..... ٢٤٥
- ٢ - إثبات الوجدانية لله عَزَّوَجَلَّ، والتحرر من العبودية لغيره..... ٢٥٠
- ٣ - إثبات الوحي والرسالة وقيام الدلائل والشواهد على صدق الأخبار..... ٢٥٥
- ٤ - إثبات البعث والجزاء..... ٢٦٢
- ٥ - تثبيت فؤاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمته..... ٢٦٤
- ٦ - الاقتداء بأئمة الهدى والاعتبار بحال أهل الضلال ومآلهم..... ٢٦٥
- ٧ - بيان أن ما جاء به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يخرج من مشكاة واحدة..... ٢٧١
- ٨ - معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون..... ٢٧٢
- ٩ - القرآن الكريم إنما يعنى بالمهمات..... ٢٨٢
- ١٠ - إبراز كثير مما أخفاه أهل الكتاب..... ٢٨٣

- ١١ - تنبيه الإنسان من الغفلة..... ٢٨٥
- ١٢ - الإرشاد إلى آداب المناظرة والحوار، وإقامة الحجة على المخالف..... ٢٨٨
- ١٣ - القصة تكشف خفاء تلك الواقعة ذات الحلقات المتتابعة..... ٢٩٢
- ١٤ - صحة النقل..... ٢٩٣
- ١٥ - الأهداف التربوية للقصة (قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أنموذجًا)..... ٢٩٧
- ١٦ - الأسلوب التأثيري للقصة..... ٣١٧
- ١٧ - الدَّعوة إلى الخير والإصلاح، والنهي عن الفساد في الأرض..... ٣٢٥
- ١٨ - محاربة اليأس القنوط..... ٣٢٥
- ١٩ - بيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وإحاطته بكل شيء علمًا..... ٣٣٣
- ٢٠ - التحذير من المهلكات..... ٣٣٤
- ٢١ - التنويه بجوانب الإعجاز في قصص القرآن الكريم..... ٣٣٧
- الإعجاز الغيبي ثلاثة أقسام..... ٣٣٩
- أ. غيب الماضي..... ٣٣٩
- ب. غيب الحاضر..... ٣٤٢
- ج. غيب المستقبل..... ٣٤٣
- ٢٢ - فوائد أخرى متفرقة وبيان بلاغة التكرار..... ٣٥٠
- البحث السادس: الأزمنة الفاضلة..... ٣٦٣**
- البحث السابع: دلالات بعض ألفاظ الزمان الأهمية والاعتبارات..... ٣٧٧**
- أولاً: أهمية العلم بدلالات ألفاظ الزمن..... ٣٧٧
- ثانياً: الاعتبارات في النظر إلى ألفاظ الزمن..... ٣٧٧
- البحث الثامن: دلالات ألفاظ الزمان الممتد والمحدود والمبهم وغير المبهم .. ٣٨١**



- أبد..... ٣٨١
- أجل..... ٣٨٢
- الفرق بين المدة والأجل..... ٣٨٤
- أزل..... ٣٨٥
- إقامة..... ٣٨٦
- أمة..... ٣٨٨
- أمد..... ٣٩٢
- الفرق بين الأمد والغاية..... ٣٩٣
- الفرق بين الأمد والأبد..... ٣٩٤
- تاريخ..... ٣٩٤
- تربص..... ٣٩٦
- ثوى..... ٣٩٧
- حقبة..... ٤٠١
- الفرق بين الزمان والحقبة والبرهة..... ٤٠٥
- حول..... ٤٠٥
- حياة..... ٤٠٨
- حين..... ٤١٥
- خلد وأخلد..... ٤٢٠
- دأب..... ٤٢٤
- دهر..... ٤٢٥
- سرمد..... ٤٢٦



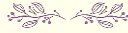
٤٢٨.....	سكن
٤٣٠.....	سَنٌّ وَسَنَّةٌ
٤٣٤.....	الفرق بين السَّنة والحِجَّة
٤٣٥.....	شهر
٤٣٨.....	طبقة
٤٤٤.....	عام
٤٤٦.....	عدة
٤٥٦.....	عكف
٤٦١.....	عمر
٤٦٣.....	عيش
٤٦٨.....	فترة
٤٧٠.....	قرن
٤٧٦.....	لبث
٤٧٩.....	ليل ونهار
٤٨٥.....	مدة وبرهة
٤٨٧.....	مكث
٤٩٠.....	وعد وموعد وميعاد
٤٩٣.....	الوعد بالخير
٤٩٣.....	الوعد بالشر
٤٩٤.....	ما يتضمن الخير والشر
٤٩٤.....	المواعدة



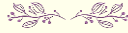
الإيعاد.....	٤٩٤
بين الوعد والوعيد.....	٤٩٥
وقت وميقات.....	٥٠٤
البحث التاسع: اليوم وأجزاء الوقت فيه.....	٥٠٩
أولاً: اليوم (مقداره وبيان المراد منه).....	٥٠٩
ثانياً: أجزاء الوقت في اليوم.....	٥١٣
ساعة وبيان ما يراد منها في القرآن الكريم.....	٥١٣
الفرق بين الوقت والساعة.....	٥١٨
دقيقة.....	٥١٨
لحظة.....	٥١٩
ثانية.....	٥٢٠
ثالثاً: أسماء اليوم باعتبار الماضي والحاضر والمستقبل.....	٥٢١
أمس.....	٥٢١
يوم.....	٥٢٤
غد.....	٥٢٤
رابعاً: أجزاء اليوم وساعات الليل والنهار.....	٥٢٨
البحث العاشر: ألفاظ يحتاجها المفسر والفقيه مع بيان دلالاتها وما	
يتصل بها من أعمال.....	٥٢٩
إبكار وبكرة وتبكير.....	٥٢٩
إسفار.....	٥٣٨
آصال.....	٥٤٠



- ٥٤٣.....آناء الليل
- ٥٤٥.....رواح وإدلاج
- ٥٥٤.....زلفة
- ٥٥٩.....سجو
- ٥٦١.....السَّحَرُ وثلاث الليل الآخر
- ٥٦٧.....سرح وأراح
- ٥٦٨.....سرى
- ٥٧٣.....شروق وغروب وإشراق وبُلُوج
- ٥٧٨.....شفق ووسق
- ٥٨٢.....صبح
- ٥٨٣.....تنفُّسُ الصُّبْحِ
- ٥٨٤.....صريم
- ٥٨٦.....ضحى
- ٥٩١.....ظهر وبيان المراد من الإبراد
- ٥٩٣.....الإبراد
- ٥٩٧.....عشاء وعشي
- ٦٠٤.....إطلاق العشاءين على المغرب والعشاء
- ٦٠٥.....إحياء ما بين العشاءين
- ٦٠٦.....عشي في القرآن الكريم
- ٦٠٧.....عصر
- ٦١٤.....غدو وغدوة



- ٦١٦..... غسق ووقب.
- ٦٢١..... غَلَسَ.
- ٦٢٤..... فجر.
- ٦٢٩..... فلق.
- ٦٢٩..... مبيت وتبييت.
- ٦٣٢..... مساء.
- ٦٣٤..... ناشئة الليل.
- ٦٣٦..... هجد.
- ٦٣٧..... هجع.
- ٦٣٨..... هَجِرُ وهَجِرَة.
- ٦٤٣..... **الهبث الحادي عشر: أسماء وأفعال الزمن الحال والمقارب.**
- ٦٤٣..... ارتداد الطرف.
- ٦٤٧..... آنفًا.
- ٦٤٩..... أوان وآن.
- ٦٥٣..... لمح البصر.
- ٦٥٧..... **الهبث الثاني عشر: أفعال المقاربة والشروع.**
- ٦٧١..... **الهبث الثالث عشر: أسماء الزمن المتجدد أو ما يغلب استعماله في التجدد...**
- ٦٧١..... تارة.
- ٦٧٢..... طُور وأطوار وأخياف.
- ٦٧٣..... فين.
- ٦٧٤..... المَرَّة والمَرَّة.



أ. الْمَرْءُ..... ٦٧٤

ب. الْمَرْءُ..... ٦٧٦

البحث الرابع عشر: الزمن الخاص بالمرأة..... ٦٧٧

أولاً: قرء..... ٦٧٧

ثانياً: ما يغلب إطلاقه في الاصطلاح الشرعي على ما يخص المرأة..... ٦٧٩

١ - عدة..... ٦٧٩

٢ - تربص..... ٦٧٩

البحث الخامس عشر: أسماء السنة وبيان أجزائها..... ٦٨١

أولاً: أسماء السنة..... ٦٨١

سنة..... ٦٨١

حول..... ٦٨١

عام..... ٦٨١

ثانياً: أجزاء السنة..... ٦٨٢

يوم..... ٦٨٢

أسبوع..... ٦٨٢

شهر..... ٦٨٢

ثالثاً: فصول السنة..... ٦٨٣

رابعاً: أيام الأسبوع..... ٦٩٣

ما جاء في الخميس والاثنتين..... ٦٩٨

تخصيص يوم الجمعة من بين أيام الأسبوع بالفضل..... ٦٩٨

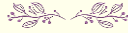
البحث السادس عشر: دلالة الفعل وأقسامه على الزمن..... ٧١٣



- أولاً: دلالة الفعل على معنى مقترن بحدث وزمن..... ٧١٣
- ثانياً: أقسام الفعل ودلالة كل منها على الزمن..... ٧١٤
- الفعل ثلاثة أقسام..... ٧١٤
- القسم الأول: الماضي..... ٧١٤
- ١ - الماضي المطلق..... ٧١٤
- ٢ - الماضي المنقطع..... ٧١٥
- ٣ - الماضي القريب..... ٧١٥
- ٤ - الدلالة على الاستقبال..... ٧١٨
- أ. الإنشاء المقصود به الطلب..... ٧١٨
- ب. الوعد أو الوعيد..... ٧١٩
- ج. دخول أداة الشرط عليه..... ٧١٩
- د. دخول (ما) الظرفية..... ٧١٩
- هـ. إذا كان منفيًا بـ: (لا) أو (إن) في جواب القسم..... ٧٢٠
- ٥ - احتمال المضي والاستقبال..... ٧٢٠
- أ. بعد همزة التسوية..... ٧٢٠
- ب. بعد حرف التحضيض..... ٧٢٠
- ج. في الأحكام..... ٧٢٠
- د. بعد (حيث)..... ٧٢١
- هـ. بعد (كلما)..... ٧٢١
- و. إذا وقع صلة..... ٧٢١
- ز. إذا وقع صفة لنكرة عامة..... ٧٢١



- ٦ - الماضي المستمر..... ٧٢٢
- علامة الفعل الماضي..... ٧٢٢
- حكمه..... ٧٢٢
- القسم الثاني: المضارع..... ٧٢٣
- أولاً: تعريف الفعل المضارع..... ٧٢٣
- ثانياً: الدلالة على الزمن في الفعل المضارع..... ٧٢٥
- ١ - الحال أو الاستقبال..... ٧٢٥
- ٢ - خروجه إلى الإنشاء..... ٧٢٦
- ٣ - مشاركة وقوع الفعل..... ٧٢٩
- ٤ - إرادة الفعل..... ٧٢٩
- علامة الفعل المضارع..... ٧٢٩
- حكمه..... ٧٢٩
- القسم الثالث: الأمر..... ٧٣٠
- أولاً: الأصل في دلالة فعل الأمر على الزمن..... ٧٣٠
- ثانياً: أزمنة فعل الأمر..... ٧٣١
- ١ - الاستقبال المطلق..... ٧٣١
- ٢ - الدلالة على الحال..... ٧٣١
- ٣ - الأمر الحاصل في الماضي..... ٧٣١
- ٤ - الأمر المستمر..... ٧٣٢
- ٥ - ما كان غير مقيد بزمن..... ٧٣٢
- علامة فعل الأمر..... ٧٣٤



- ٧٣٤..... حكمه
- ٧٣٤..... ثالثًا: الأمر من أنواع الإنشاء الطلبي
- ٧٣٨..... رابعًا: صيغ الأمر
- ٧٤٣..... **البحث السابع عشر: دلالة النواسخ الفعلية على الزمان**
- ٧٥٧..... **البحث الثامن عشر: دلالة الحال في اللغة على الزمان**
- ٧٥٧..... أولاً: تعريف الحال
- ٧٦٠..... ثانيًا: تعدد الحال وصاحبها مفرد أو متعدد
- ٧٦٢..... ثالثًا: الحال المؤكده، وغير المؤكده
- ٧٦٥..... رابعًا: أقسام الحال بالنسبة للزمان
- ٧٦٥..... ١ - الحال المقارنة
- ٧٦٥..... ٢ - الحال المقدرة
- ٧٦٩..... ٣ - الحال المحكية
- ٧٧١..... **البحث التاسع عشر: دلالة اسم الزمان والظرف في اللغة**
- ٧٧١..... أولاً: بيان المراد من اسم الزمان والظرف
- ٧٧٤..... اسم الزمان يكون مبهمًا، ومختصًا، ومعدودًا، ومشتقًا
- ٧٧٥..... ثانيًا: الظرف المتصرف وغير المتصرف
- ٧٧٧..... ثالثًا: اختصاص ظرف الزمان بالأحداث
- ٧٧٩..... رابعًا: الاتساع في الظرف
- ٧٧٩..... خامسًا: ما ينوب عن الظرف
- ٧٨١..... سادسًا: اسم الزمان يقبل النصب على الظرفية



المبحث العشرون: الدلالة على الزمن باعتبار الإضافة والقطع عنها... ٧٨٣

٧٨٣.....	حيث وإذ وإذا.....
٧٩٧.....	ذكر ما افترق فيه (إذ) و(إذا) و(حيث).....
٧٩٧.....	لدن ومع.....
٨٠٣.....	معنى (مع) وبيان حالاتها.....
٨٠٤.....	عند ولدى.....
٨٠٦.....	قبل وبعد.....
٨٠٧.....	صور الإعراب.....
٨٠٩.....	حالة البناء.....
٨١٠.....	إيجاز الحالات في (قبل) و(بعد).....
٨١٣.....	حين.....
٨١٣.....	ساعة.....
٨١٤.....	بين وبيننا وبينما.....
٨١٦.....	بضع.....
٨١٧.....	كل وبعض.....

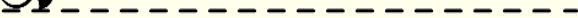
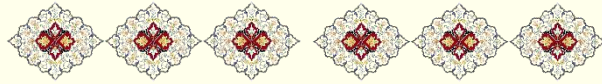
المبحث الحادي والعشرون: الدلالة على الزمان باعتبار الشرط والاستفهام... ٨١٩

٨١٩.....	متى وأيان.....
٨٢٤.....	لم ولما والأدوات الجازمة.....
٨٢٤.....	ما يجزم فعلاً واحداً.....
٨٢٥.....	ما يجزم فعلين.....
٨٢٧.....	إذا.....

٨٢٧.....كلما

٨٣٠.....**خاتمة**

٨٣٣.....جدول توضيحي لألفاظ الزمن الأكثر تداولاً في مصادر التشريع



فَهْرَسْتُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ

- (١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة [١٣٩٤هـ].
- (٢) إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي، تحقيق: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، د. عبد الرقيب صالح الشامسي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ، دار الضياء، الكويت [١٤٣٧هـ].
- (٣) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية، بدون تاريخ.
- (٤) الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط عبد الحق الإشبيلي، ط: ١، دار الرشد، الرياض [١٤٢٢هـ].
- (٥) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
- (٦) أحكام القرآن، للإمام الشافعي، جمع البيهقي، ط: ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١٤هـ].
- (٧) أحكام القرآن، للكنيا الهراسي الشافعي، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
- (٨) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- (٩) الاختيارين، للأخفش الأصغر، دار الفكر المعاصر، بيروت [١٤٢٠هـ].
- (١٠) أدب الكاتب، لابن قتيبة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (١١) الأذكار، للإمام النووي، دار الفكر، بيروت [١٤١٤هـ].



- (١٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد القسطلاني، المطبعة الأميرية، مصر [١٣٢٣هـ].
- (١٣) إرشاد الفحول، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب العربي [١٤١٩هـ].
- (١٤) الإرشاد إلى أسباب النجاة، والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ].
- (١٥) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين الجويني، دار السعادة، مصر [١٣٦٩هـ].
- (١٦) الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
- (١٧) الأزمنة والأمكنة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
- (١٨) الأزمنة وتلبية الجاهلية، لأبي علي محمد بن المستنير، الشهير بقطرب، ط: ٢، مؤسسة الرسالة [١٤٠٥هـ].
- (١٩) أساس البلاغة، لمحمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان [١٤١٩هـ].
- (٢٠) أساليب الخطاب في القرآن الكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، وزارة الأوقاف، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].
- (٢١) أساليب النداء في القرآن الكريم، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادى، والمنادى، وما ولي الأداة والمنادى)، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
- (٢٢) الاستدكار، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].



- (٢٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ط: ١، دار الجيل، بيروت [١٤١٢هـ].
- (٢٤) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
- (٢٥) أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، من غير تاريخ.
- (٢٦) أسرار العربية، لأبي البركات الأنباري، دار الجيل، بيروت [١٩٩٥م].
- (٢٧) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، لعلي بن سلطان الملا الهروي القاري، دار الأمانة/مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٢٨) إسفار الفصيح، لأبي سهل محمد بن الهروي، ط: ١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة [١٤٢٠هـ].
- (٢٩) أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لتركيا الأنصاري، دار الكتاب الإسلامي، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- (٣٠) الإشارة والإيجاز في بعض أنواع الحجاز، لعز الدين بن عبد السلام، دار الطباعة العامرة، القاهرة [١٣١٢هـ].
- (٣١) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٣٢) الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، ط: ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- (٣٣) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
- (٣٤) الأصل المعروف بالمبسوط، لمحمد بن الحسن الشيباني، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي.
- (٣٥) إصلاح المنطق، لابن السكّيت، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٣هـ].

- (٣٦) أصول البزدوي (كنز الوصول إلى معرفة الأصول)، لعلي بن محمد البزدوي الحنفي، مطبعة جاويد بريس، كراتشي.
- (٣٧) أصول السرخسي، لمحمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر، دار المعرفة، بيروت [١٣٧٢].
- (٣٨) أصول الشاشي، لأحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٢].
- (٣٩) الأصول في النحو، لابن السراج النحوي البغدادي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٩٨٨].
- (٤٠) الأضداد، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٠٧هـ].
- (٤١) أضواء البيان، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت [١٤١٥هـ].
- (٤٢) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، لإبراهيم بن محمد بن عريشاه عصام الدين الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٤٣) إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، للدمياطي، دار الفكر [١٤١٨هـ].
- (٤٤) اعتراض الشرط على الشرط، لابن هشام، ط:، دار عمار، الأردن [١٤٠٦هـ].
- (٤٥) الاعتقاد، للبيهقي، ط: ١، دار الآفاق الجديدة، بيروت [١٤٠١هـ].
- (٤٦) إعجاز القرآن، للباقلاني، دار المعارف، القاهرة.
- (٤٧) إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، طبع عالم الكتب، بيروت [١٤٠٩هـ].
- (٤٨) أعلام الحديث، لأبي سليمان الخطابي، ط: ١، جامعة أم القرى، مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي [١٤٠٩هـ].
- (٤٩) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم الجوزية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١١هـ].
- (٥٠) أعلام النبوة، لأبي الحسن الماوردي، دار ومكتبة الهلال، بيروت [١٤٠٩هـ].

- (٥١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملحق، ط: ١، دار العاصمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية [١٤١٧هـ].
- (٥٢) الإعلام، للزركلي، دار العلم للملايين [٢٠٠٢م].
- (٥٣) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، للأستاذ الدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة [١٩٦٨م].
- (٥٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- (٥٥) الإفساد في الأرض، (صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة)، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
- (٥٦) الاقتصاد في الاعتقاد، للإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
- (٥٧) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، من غير تاريخ.
- (٥٨) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لموسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم الحجراوي المقدسي، ثم الصالح، شرف الدين، أبو النجاء، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- (٥٩) الإكسير في علم التفسير، للطوفي سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، مكتبة الآداب، القاهرة [١٣٩٧هـ].
- (٦٠) الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لمحمد عبد الحق بن شاه الهندي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٣٣هـ].
- (٦١) الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠١هـ].
- (٦٢) إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض، طبع دار الوفاء، المنصورة، مصر [١٤١٩هـ].



- (٦٣) ألفية ابن مالك في النحو والصرف، محمد بن عبد الله بن مالك، طبع دار القلم، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.
- (٦٤) ألفية العراقي، ط: ٢، دار المنهاج، الرياض [١٤٢٨هـ].
- (٦٥) الأم، للإمام الشافعي، دار المعرفة، بيروت [١٤١٠هـ].
- (٦٦) أمالي ابن الشجري، لأبي السعادات المعروف بابن الشجري، ط: ١، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١٣هـ].
- (٦٧) أمالي القاضي، لإسماعيل بن القاسم القاضي، ط: ٢، دار الكتب المصرية [١٣٤٤هـ].
- (٦٨) الأمثال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط: ١، دار المأمون للتراث [١٤٠٠هـ].
- (٦٩) الأمثال، للهاشمي، ط: ١، دار سعد الدين، دمشق [١٤٢٣هـ].
- (٧٠) الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجب اختلاف بين المسلمين في آرائهم، لابن السيد البطليوسي، ط: ٣، دار الفكر، دمشق [١٤٠٧هـ].
- (٧١) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين (البصريين والكوفيين)، لأبي البركات كمال الدين الأنباري، ط: ١، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٢٤هـ].
- (٧٢) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، لعلاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالح الحنبلي، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- (٧٣) أنوار البروق في أنواء الفروق، لأبي العباس شهاب الدين القرافي المالكي، عالم الكتب، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- (٧٤) أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم، ط: ١، مطبعة النعمان، النجف [١٣٨٨هـ].
- (٧٥) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، لقاسم بن عبد الله القونوي الرومي الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

- (٧٦) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري، دار الجيل، بيروت [١٩٧٩].
- (٧٧) إيضاح المبهم من معاني السلم، للشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمهوري، الطبعة الثالثة، دار البصائر، القاهرة [١٤٣٤هـ].
- (٧٨) إيضاح المحصول من برهان الأصول، لأبي عبد الله محمد بن علي المازري ط: ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- (٧٩) الإيضاح شرح المفصل، لابن الحاجب، طبع وزارة الأوقاف العراقية [١٩٨٢م].
- (٨٠) إيضاح شواهد الإيضاح، لأبي علي الحسن القيسي، ط: ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٠٨هـ].
- (٨١) الإيضاح في علوم البلاغة، لأبي المعالي، محمد بن عبد الرحمن القزويني، المعروف بخطيب دمشق، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ]. وطبعة دار الجيل، ط: ٣، بيروت.
- (٨٢) البارع في اللغة، لأبي علي القالي، ط: ١، مكتبة النهضة، بغداد، ودار الحضارة العربية، بيروت [١٩٧٥م].
- (٨٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم، ط: ٢، دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ.
- (٨٤) بحر الكلام، لميمون بن محمد النسفي، ط: ٢، مكتبة دار الفرفور، دمشق [١٤٢١هـ].
- (٨٥) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤١٣هـ].
- (٨٦) البداية والنهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي [١٤٠٨هـ].
- (٨٧) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر بعلاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].



- (٨٨) بدائع الفوائد، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.
- (٨٩) البدر المنير، لابن الملقن، ط: ١، دار الهجرة، الرياض [١٤٢٥هـ].
- (٩٠) البديع في البديع، لأبي العباس عبد الله بن محمد المعتز، ط: ١، دار الجيل [١٤١٠هـ].
- (٩١) البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله الزركشي، ط: ١، عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة [١٣٧٦هـ].
- (٩٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة [١٣٩٣هـ].
- (٩٣) البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ط: ١، دار صادر، بيروت [١٤٠٨هـ].
- (٩٤) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي، ط: ١٧، مكتبة الآداب، القاهرة [١٤٢٦هـ].
- (٩٥) البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع، لحسن بن إسماعيل بن حسن بن عبد الرازق الجناحي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة [٢٠٠٦م].
- (٩٦) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى، ط: ٢، مكتبة وهبة، القاهرة [١٤٠٨هـ].
- (٩٧) البناية شرح الهداية، لبدر الدين العيني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان [١٤٢٠هـ].
- (٩٨) البهجة في شرح التُّحفة، لأبي الحسن التُّسولي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
- (٩٩) البيان في مباحث من علوم القرآن، للأستاذ الدكتور عبد الوهاب غزلان، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب بالمالية.
- (١٠٠) البيان في مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني اليمني، ط: ١، دار المنهاج، جدة [١٤٢١هـ].



- (١٠١) البيان والتبيين، للجاحظ، ط: ١، دار صعب، بيروت [١٩٦٨م].
- (١٠٢) التاج والإكليل لمختصر خليل، لمحمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدي الغرناطي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].
- (١٠٣) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، مجمع اللغة العربية، دمشق.
- (١٠٤) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، ط: ٢، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤١٣هـ]..
- (١٠٥) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٢٢هـ].
- (١٠٦) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ط: ١، دار الفكر [١٤١٥هـ].
- (١٠٧) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان [١٤٠١هـ].
- (١٠٨) التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].
- (١٠٩) التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي، ط: ٣، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٤هـ].
- (١١٠) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.
- (١١١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، طبعة دار المعرفة، بيروت.
- (١١٢) التبيان في المعاني والبيان، لشرف الدين، حسين بن محمد الطيبي، رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر)، إعداد: عبد الستار حسين مبروك زموط [١٣٩٧هـ].
- (١١٣) التبيان في أيمان القرآن، لابن القيم، ط: ١، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة [١٤٢٩هـ].
- (١١٤) التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، لابن الزملكاني، ط: ١، مطبعة العاني، بغداد [١٣٨٣هـ].
- (١١٥) تبين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي الحنفي، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية بولاق، القاهرة [١٣١٣هـ].

- (١١٦) التعبير شرح التحرير في أصول الفقه، للمرداوي الحنبلي، ط: ١، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢١هـ].
- (١١٧) تحرير التعبير، لابن أبي الإصبع، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- (١١٨) تحرير ألفاظ التنبيه، للإمام النووي، ط: ١، دار القلم، دمشق [١٤٠٨هـ].
- (١١٩) التحرير في أصول الفقه، لابن الهمام، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٥١هـ].
- (١٢٠) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية [١٩٨٤هـ].
- (١٢١) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر [١٣٥٧هـ].
- (١٢٢) تحقيق الفوائد الغيائية، لمحمد بن يوسف شمس الدين الكرمانى، ط: ١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة [١٤٢٤هـ].
- (١٢٣) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار طيبة، الرياض [١٤٢٧هـ].
- (١٢٤) التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن حمدون، ط: ١، دار صادر، بيروت [١٤١٧هـ].
- (١٢٥) التذكرة الفخرية، للصاحب بهاء الدين الإربلي، ط: ١، دار البشائر، دمشق [١٤٢٥هـ].
- (١٢٦) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي، ط: ١، دار المنهاج، الرياض [١٤٢٥هـ].
- (١٢٧) التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، ط: ١، دار القلم، دمشق، ودار كنوز إشبيلية.
- (١٢٨) تراث أبي الحسن الحرّائى المراكشي في التفسير، ط: ١، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط [١٤١٨هـ].

- ١٢٩) الترغيب والترهيب، للمنذري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
- ١٣٠) التسهيل، لابن مالك، لمحمد بن عبد الله بن عبد الله الطائي الجياني الأندلسي، دار هجر [١٩٩٠م].
- ١٣١) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ط: ١، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، توزيع المكتبة المكية [١٤١٨هـ].
- ١٣٢) تصحيح التصحيح، للصفدي، ط: ١، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤٠٧هـ].
- ١٣٣) التصريح بمضمون التوضيح، لخالد الأزهرى، طبعة عيسى البايي الحلبي، القاهرة، وط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].
- ١٣٤) التعريف والإعلام بما أجم في القرآن من الأسماء والأعلام، لعبد الرحمن السهيلي، ط: ١، مكتبة الأزهر الكبرى، القاهرة، الدراسة [١٣٥٦هـ].
- ١٣٥) التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
- ١٣٦) التعليقة على كتاب سيوييه، لأبي علي الفارسي، ط: ١، مطبعة الأمانة، مصر [١٤١٠هـ].
- ١٣٧) التعليقة على مقرب ابن عصفور في علم النحو، لابن النحاس، ط: ١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان [٢٠٠٤].
- ١٣٨) تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].
- ١٣٩) تفسير ابن فورك، من أول سورة المؤمنون آخر سورة السجدة، ومن أول سورة الأحزاب آخر سورة غافر، ومن من أول سورة نوح إلى آخر سورة الناس، ط: ١، رسائل جامعية في (جامعة أم القرى)، مكة المكرمة [١٤٣٠هـ].
- ١٤٠) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، ط: ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.



- (١٤١) تفسير الإمام ابن عرفة، ط: ١، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس [١٩٨٦م].
- (١٤٢) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، ط: ١، دار الفكر، بيروت [١٤٢٠هـ].
- (١٤٣) التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي، النيسابوري، الشافعي، ط: ١، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية [١٤٣٠هـ].
- (١٤٤) تفسير البقاعي (نظم الدرر)، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
- (١٤٥) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، ط: ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤١٨هـ].
- (١٤٦) التفسير التحليلي لسورة النساء، الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر بالقاهرة، مطبعة الفجر الجديد [٤٤] شارع الكبارى منشية ناصر بالدراسة، القاهرة [١٤١٤هـ].
- (١٤٧) تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- (١٤٨) تفسير الراغب الأصفهاني، ط: ١، كلية الآداب، جامعة طنطا [١٤٢٠هـ].
- (١٤٩) تفسير الزمخشري (الكشاف)، ط: ٣، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٧هـ].
- (١٥٠) تفسير السمعاني، دار الوطن، الرياض [١٤١٨هـ].
- (١٥١) تفسير السيوطي (الدر المنثور)، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت [١٩٩٣].
- (١٥٢) تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، لمحمد بن جرير الطبري، ط: ١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٠هـ].
- (١٥٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ط: ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع [١٤٢٠هـ].
- (١٥٤) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الشعب، القاهرة [١٣٧٢].
- (١٥٥) تفسير القشيري (لطائف الإشارات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.



- (١٥٦) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، لفخر الدين الرازي، ط: ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن النسخة الأصلية من المطبعة البهية المصرية [١٣٠٢هـ].
- (١٥٧) تفسير الماوردي (النكت والعيون)، لأبي الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١٥٨) تفسير النسفي، لأبي البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي، ط: ١، دار الكلم الطيب، بيروت [١٤١٩هـ].
- (١٥٩) تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].
- (١٦٠) تفسير سفيان الثوري، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
- (١٦١) تفسير عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الحميري اليماني الصنعاني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
- (١٦٢) تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحميدي، ط: ١، مكتبة السنة، القاهرة [١٤١٥هـ].
- (١٦٣) تفسير مقاتل بن سليمان، ط: ١، دار إحياء التراث، بيروت [١٤٢٣هـ].
- (١٦٤) التفسير من سنن سعيد بن منصور، لأبي عثمان سعيد بن منصور الخراساني الجوزجاني، ط: ١، دار الصميعي، الرياض [١٤١٧هـ].
- (١٦٥) تفسير يحيى بن سلام، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٥هـ].
- (١٦٦) التفكير فريضة إسلامية، لعباس العقاد، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة [٢٠٠٧م].
- (١٦٧) تقريب التهذيب، لابن حجر، ط: ١، دار الرشيد، سوريا [١٤٠٦هـ].
- (١٦٨) التقرير والتحبير، لأبي عبد الله، المعروف بابن أمير حاج، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].

(١٦٩) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضى، دار الأضواء، بيروت [١٩٨٦م].

(١٧٠) التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير؛ لابن حجر، الطبعة الأولى، مؤسسة قرطبة، مصر [١٤١٦هـ].

(١٧١) تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني، ط: ١، دار الفكر العربي، القاهرة [١٩٠٤].

(١٧٢) التلخيص في أصول الفقه، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤١٧هـ].

(١٧٣) التلويح على التوضيح، لسعد الدين بن عمر التفتازاني، ط: ١، المطبعة الخيرية للخشاب بمصر [١٣٢٢هـ]، وطبعة محمد علي صبيح، القاهرة [١٣٧٧هـ].

(١٧٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب [١٣٨٧هـ].

(١٧٥) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، لابن عراق الكناي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٩هـ].

(١٧٦) تهذيب الأسماء، للنووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٧٧) تهذيب التهذيب، لابن حجر، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤].

(١٧٨) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٠هـ].

(١٧٩) تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، ط: ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت [٢٠٠١م].

(١٨٠) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لبدر الدين حسن بن قاسم المرادي المصري المالكي، ط: ١، دار الفكر العربي، القاهرة [١٤٢٨هـ].

(١٨١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، ط: ١، دار الفلاح ودار النوادر، دمشق [١٤٢٩هـ].

١٨٢) التوقيف على مهمات التعاريف، للعلامة المناوي، عالم الكتب، القاهرة [١٤١٠هـ].

١٨٣) تيسير التحرير، لمحمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمر بادلشاه الحنفي، دار الفكر، بيروت.

١٨٤) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض [١٤٠٨هـ].

١٨٥) جامع الدروس العربية، لمصطفى الغلاييني، ط: ٢٨، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت [١٤١٤هـ].

١٨٦) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٢هـ].

١٨٧) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، لضياء الدين ابن الأثير، مطبعة المجمع العلمي [١٣٧٥هـ].

١٨٨) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية [١٤١٤هـ].

١٨٩) الجليس الصالح، لأبي الفرج النهرواني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٦هـ].

١٩٠) الجمل في النحو، ينسب للخليل بن أحمد الفراهيدي، ط: ٥، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٦هـ].

١٩١) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، نخضة مصر، القاهرة.

١٩٢) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، دار الفكر، بيروت.

١٩٣) جمهرة اللغة، لابن دريد، ط: ١، دار العلم للملايين، بيروت [١٩٨٧م].

١٩٤) الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].

١٩٥) الجواب الكافي، لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب [١٤١٨هـ].



- (١٩٦) جواهر الألفاظ، لقدامة بن جعفر، مطبعة السعادة بمصر [١٩٣٢].
- (١٩٧) جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت [١٤٠٦هـ].
- (١٩٨) الجوهرة النيرة، لأبي بكر بن علي الحدادي العبادي الزَّيْدِي، ط: ١، المطبعة الخيرية [١٣٢٢هـ].
- (١٩٩) حاشية ابن كمال باشا على التلويح، مخطوط من وقف شيخ الإسلام فيض الله أفندي بالقسطنطينية، السلطنة العثمانية.
- (٢٠٠) حاشية البجيرمي على الخطيب، لسليمان بن محمد بن عمر البجيرمي المصري الشافعي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
- (٢٠١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، لمحمد بن عرفة الدسوقي، المكتبة العصرية، بيروت.
- (٢٠٢) حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، لمصطفى محمد عرفة الدسوقي، مكتبة لسان العرب، ودار الكتب العلمية، من غير تاريخ.
- (٢٠٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه، دار الجيل، بيروت، بدون طبعة.
- (٢٠٤) حاشية السندي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب [١٤٠٦هـ].
- (٢٠٥) حاشية السيالكوتي على كتاب المطول، لعبد الحكيم السيالكوتي، الشركة الصحافية العثمانية، إستانبول [١٣١١هـ].
- (٢٠٦) حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (نواهد الأبرار وشوارد الأفكار)، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية [١٤٢٤هـ].
- (٢٠٧) حاشية الشمني على مغني ابن هشام، الطبعة القديمة، بمطبعة محمد أفندي مصطفى.
- (٢٠٨) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، من غير تاريخ.



(٢٠٩) حاشية الشيخ ياسين بن زين الدين العليمي الحمصي على التصريح، على هامش التصريح على التوضيح، دار الفكر للطباعة والنشر، مصورة عن الطبعة القديمة.

(٢١٠) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، لأحمد بن محمد الصاوي المالكي، دار الجيل، بيروت.

(٢١١) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، لأبي العرفان محمد بن علي الصبان، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].

(٢١٢) حاشية الطحطاوي على مراقبي الفلاح شرح نور الإيضاح، ط: ١، دار الكتب العلمية بيروت [١٤١٨هـ].

(٢١٣) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، بدون طبعة وبدون تاريخ.

(٢١٤) حاشية العلامة السعد وحاشية المحقق السيد الشريف الجرجاني على شرح القاضي عضد الملة والدين لمختصر المنتهى الأصولي، لابن الحاجب، مع حاشية المحقق الهروي على حاشية السيد الجرجاني، ط: ١، المطبعة الأميرية الكبرى، ببولاق مصر [١٣١٦هـ].

(٢١٥) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٢هـ].

(٢١٦) حاشيتا قليوبي وعميرة، دار الفكر، بيروت [١٤١٥هـ].

(٢١٧) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، وهو شرح مختصر المزني، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].

(٢١٨) الحاوي للفتاوي، للسيوطي، دار الفكر، بيروت [١٤٢٤هـ].

(٢١٩) حجة القراءات، لأبي زرعة ابن زنجلة، ط: ٢، دار الرسالة، بيروت [١٤٠٢هـ].

(٢٢٠) الحجة على أهل المدينة، لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، ط: ٣، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٣هـ].



- (٢٢١) الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، ط: ٤، دار الشروق، بيروت [١٤٠١هـ].
- (٢٢٢) الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي، ط: ٢، دمشق، بيروت [١٤١٣هـ].
- (٢٢٣) الحدود في علم النحو، لشهاب الدين الأندلسي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد: [١١٢]، [١٤٢١هـ].
- (٢٢٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة، مصر [١٣٩٤هـ].
- (٢٢٥) الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج، عالم الكتب، بيروت.
- (٢٢٦) الحوادث والبدع، لأبي شامة، مطبعة النهضة الحديثة بمكة [١٤٠١هـ].
- (٢٢٧) الحور العين، لنشوان بن سعيد الحميري اليمني، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٩٤٨م].
- (٢٢٨) حياة الحيوان الكبرى، للدميري، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
- (٢٢٩) الحيوان، للجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
- (٢٣٠) خزانة الأدب، لعبد القادر بن عمر البغدادي، ط: ٤، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١٨هـ].
- (٢٣١) الخصائص، لأبي الفتح ابن جني، ط: ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- (٢٣٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، دار القلم، دمشق، من غير تاريخ.
- (٢٣٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٥هـ].
- (٢٣٤) الدراية في تخريج أحاديث الهداية، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
- (٢٣٥) الدرة الألفية في علم العربية (ألفية ابن معطي)، ليحيى بن عبد المعطي الزواوي المغربي، ط: ١، دار الفضيلة، القاهرة [٢٠١٠].
- (٢٣٦) درر الحكام شرح غرر الأحكام، لملا خسرو، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، بدون طبعة، وبدون تاريخ.

- (٢٣٧) الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع، لأحمد بن إسماعيل الكوراني، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية [١٤٢٩هـ].
- (٢٣٨) درر المعرفة من تفسير الإمام ابن عرفة، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ودار الضياء في الكويت [١٤٣٤هـ].
- (٢٣٩) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، لمحمد الأمين الشنقيطي، ط: ١، مكتبة ابن تيمية، القاهرة [١٤١٧هـ].
- (٢٤٠) دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات، لمنصور بن يونس البهوتي، ط: ١، عالم الكتب، بيروت [١٤١٤هـ].
- (٢٤١) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، ط: ٣، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة [١٤١٣هـ].
- (٢٤٢) دلائل النبوة، للبيهقي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
- (٢٤٣) الدلائل في غريب الحديث، لقاسم بن ثابت العوفي السرقسطي، ط: ١، مكتبة العبيكان، الرياض [١٤٢٢هـ].
- (٢٤٤) ديوان أبي الطيب المتنبي مع العرف الطيب، لليازجي، دار الأرقم، بيروت.
- (٢٤٥) ديوان أبي العلاء المعري (سقط الزند)، ط: ١، دار بيروت، ودار صادر [١٣٧٦هـ].
- (٢٤٦) ديوان أبي النجم العجلي (الفضل بن قدامة)، ط: ١، مجمع اللغة العربية، دمشق [١٤٢٧هـ].
- (٢٤٧) ديوان أبي تمام الطائي، الطبعة القديمة، طبع بمناظرة والتزام محمد جمال، مرخصا من نظارة المعارف العمومية الجلييلة [٤١٣].
- (٢٤٨) ديوان أبي ذؤيب الهذلي، ط: ١، دار صادر بيروت [١٤٢٤هـ].
- (٢٤٩) ديوان أحمد شوقي، دار صادر، بيروت.
- (٢٥٠) ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية بالحلمية الجديدة، القاهرة، من غير تاريخ.



- (٢٥١) ديوان الطرماح بن حكيم الطائي، ط: ٢، دار الشرق العربي، حلب [١٤١٤هـ].
- (٢٥٢) ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه، ط: ١، دار الشرق العربي، بيروت [١٤١٦هـ].
- (٢٥٣) ديوان المتنبي، ط: ١، دار بيروت للطباعة [١٤٠٣هـ].
- (٢٥٤) ديوان النابغة الذبياني، دار المعارف، القاهرة.
- (٢٥٥) ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة، القاهرة [١٣٨٥هـ].
- (٢٥٦) ديوان امرئ القيس، ط: ٢، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].
- (٢٥٧) ديوان أمية بن أبي الصلت، بتحقيق: عبد الحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية بدمشق [١٩٧٤م].
- (٢٥٨) ديوان أمية بن أبي الصلت، ط: ١، دار صادر، بيروت [١٩٩٨هـ].
- (٢٥٩) ديوان تميم بن مقبل، وزارة الثقافة، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق [١٣٨١هـ].
- (٢٦٠) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، ط: ٣، دار المعارف، القاهرة.
- (٢٦١) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ط: ١، دار الكتب المصرية [١٣٧١هـ].
- (٢٦٢) ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب، لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي، ط: ١، مؤسسة الإيمان، جدة [١٤٠٢هـ].
- (٢٦٣) ديوان رؤية بن العجاج، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، طبع ليسج، ودار ابن قتيبة للطباعة والنشر، الكويت.
- (٢٦٤) ديوان عامر بن الطفيل، برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ط: ١، دار صادر، بيروت [١٣٩٩هـ].
- (٢٦٥) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ط: ١، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].
- (٢٦٦) الذخيرة، للقرافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٤م].

(٢٦٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة [١٤٢٨هـ].

(٢٦٨) ذم الهوى، لابن الجوزي، نسخة مصطفى عبد الواحد.

(٢٦٩) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري، مؤسسة الأعلمي، بيروت [١٤١٢هـ].

(٢٧٠) رجال صحيح مسلم، لأحمد بن علي بن منجويه، ط: ١، دار المعرفة، بيروت [١٤٠٧هـ].

(٢٧١) رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت [١٤١٢هـ].

(٢٧٢) الرد على قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس، جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن [١٤١٠هـ].

(٢٧٣) الرسالة، للإمام الشافعي، مكتبة الحلبي، القاهرة [١٣٥٨هـ].

(٢٧٤) رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق [١٣٩٤].

(٢٧٥) رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، لتاج الدين السبكي، عالم الكتب، بيروت [١٤١٩هـ].

(٢٧٦) روح المعاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

(٢٧٧) الروض الأنف، لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢١هـ].

(٢٧٨) روضة الطالبين وعمدة المفتين، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط: ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان [١٤١٢هـ].

(٢٧٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، ط: ٢٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت [١٤١٥هـ].



(٢٨٠) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، لأبي منصور الأزهري الهروي، أبو منصور، دار الطلائع، القاهرة.

(٢٨١) الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري، ط: ١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٢هـ].

(٢٨٢) الزهد والرقائق، لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢٨٣) الزهد، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٠هـ].

(٢٨٤) زهر الأكمل في الأمثال والحكم، لليوسي الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب [١٤٠١هـ].

(٢٨٥) سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالح، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٤هـ].

(٢٨٦) سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ومصطفى محمود سليخ، ط: ١، دار الضياء، الكويت [١٤٣٦هـ].

(٢٨٧) السجلмасي ونظرة جديدة إلى بلاغة التكرير، د. عبد الله علي محمد حسن، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، مركز فجر لخدمات الطباعة، القاهرة.

(٢٨٨) سحر البلاغة وسر البراعة، لأبي منصور الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢٨٩) سر الفصاحة، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٢هـ].

(٢٩٠) سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح ابن جني، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].

(٢٩١) السلم المنورق، لعبد الرحمن الأخضر، ط: ٢، المكتبة الهاشمية، إستنبول [٢٠١٤].

(٢٩٢) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، لأبي عبيد البكري، دار الكتب العلمية، بيروت.



(٢٩٣) سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ط: ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٥هـ].

(٢٩٤) سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني، دار الراجية للنشر والتوزيع، الرياض.

(٢٩٥) شرح ابن عباد على الحكم، مركز الأهرام، القاهرة [١٤٠٨هـ].

(٢٩٦) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، ط: ٢٠، دار التراث، القاهرة، ودار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه [١٤٠٠هـ].

(٢٩٧) شرح أدب الكاتب، لأبي منصور ابن الجواليقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢٩٨) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].

(٢٩٩) شرح البوري على منظومة ابن كيران، ط: أفريقيا الشرق، المغرب.

(٣٠٠) شرح التبصرة والتذكرة (ألفية العراقي)، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٣هـ].

(٣٠١) شرح الترمذي (النفح الشذي)، لابن سيد الناس اليعمري، ط: ١، دار العاصمة، الرياض [١٤٠٩هـ].

(٣٠٢) شرح التسهيل، لابن مالك، ط: ١، هجر للطباعة والنشر، القاهرة [١٤١٠هـ].

(٣٠٣) شرح التصريح على التوضيح، لخالد الأزهري، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].

(٣٠٤) شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى، لأبي شامة، ط: ١، مكتبة العميرين العلمية، الشارقة، الإمارات [١٤٢٠هـ].

(٣٠٥) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي، جامعة قاريونس [١٣٩٨هـ].

٣٠٦ شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي الزرقاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة [١٤٢٤هـ].

٣٠٧ شرح السلم مع شرحه (إيضاح المبهم) للأخضري عبد الرحمن بن محمد النيطوسي المغربي المالكي، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٦٧هـ].

٣٠٨ شرح السنة، للبغوي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت [١٤٠٣هـ].

٣٠٩ شرح الشيخ درويش القويسني على متن السلم في علم المنطق، للشيخ عبد الرحمن الأخضري، وعليها بعض تقارير لحضرة الشيخ عمر الدوري الشافعي، النسخة الأصلية، وقد بيع الكتاب في مكتبة دار الأمان [٤] زنقة المامونية، الرباط، المغرب.

٣١٠ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار المعرفة، بيروت [١٤١٧هـ].

٣١١ شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة، الرياض) [١٤١٧هـ].

٣١٢ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ط: ٥، دار القاهرة.

٣١٣ شرح الكافية الشافية، لابن مالك الطائي الجبلي، ط: ١، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة.

٣١٤ الشرح الكبير على متن المقنع، لابن قدامة، دار الكتاب العربي.

٣١٥ شرح المختصر، لسعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني في المعاني والبديع والبيان، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر، مع تعليق الشيخ عبد المتعال الصعيدي، طبع سنة [١٣٥٦هـ].

٣١٦ شرح المعلقات السبع، للزوزني، مكتبة المتني، القاهرة.

- (٣١٧) شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، لصدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي، ط: ١، دار الغرب الإسلامي، لبنان، بيروت [١٩٩٠].
- (٣١٨) شرح المفصل، لابن يعيش، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٢هـ].
- (٣١٩) شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٣٩٢هـ].
- (٣٢٠) شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك، ط: ١، هجر للطباعة والنشر، القاهرة [١٤١٠هـ].
- (٣٢١) شرح ديوان الحماسة، ليحيى بن علي التبريزي، دار القلم، بيروت.
- (٣٢٢) شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت.
- (٣٢٣) شرح شافية ابن الحاجب مع شرح شواهد، لعبد القادر البغدادي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٥هـ].
- (٣٢٤) شرح شذور الذهب، لابن هشام، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا.
- (٣٢٥) شرح شذور الذهب، لشمس الدين محمد بن عبد المنعم الجوجري، ط: ١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية [١٤٢٣هـ].
- (٣٢٦) شرح شعر المتنبي، لابن الإفليلي، ط: ١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٢هـ].
- (٣٢٧) شرح شواهد المغني، للسيوطي، منشورات دار الحياة، بيروت، بلا تاريخ..
- (٣٢٨) شرح صحيح البخاري، لابن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢٣هـ].
- (٣٢٩) شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام الأنصاري، ط: ١١، المكتبة التجارية، القاهرة [١٣٨٣].
- (٣٣٠) شرح مختصر خليل، للخرشي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- (٣٣١) شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، لعلي بن سلطان القاري، دار الأرقم، بيروت، بدون تاريخ.

(٣٣٢) شروح تلخيص المفتاح، وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، طبع دار السرور، بيروت، مصورة عن الطبعة القديمة.

(٣٣٣) الشريعة، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، دار الوطن، الرياض [١٤٢٠هـ].

(٣٣٤) الشعر والشعراء، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٣هـ].

(٣٣٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، دار الفيحاء، عمان [١٤٠٧هـ].

(٣٣٦) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، لابن فارس، ط: ١، إحياء الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

(٣٣٧) الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهري، ط: ٤، دار العلم للملايين، بيروت [١٤٠٧هـ].

(٣٣٨) صفة الصفوة، لابن الجوزي، دار الحديث، القاهرة [١٤٢١هـ].

(٣٣٩) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، لابن بشكوال، ط: ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٣٧٤هـ].

(٣٤٠) الصمة بن عبد الله القشيري، حياته وشعره، جمع وتحقيق د. خالد الجبر، جامعة البترا الأردنية، عمان، دار المناهج [٢٠٠٣م]

(٣٤١) الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، المكتبة العنصرية، بيروت [١٤١٩هـ].

(٣٤٢) صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار القلم، دمشق [١٤٢٥هـ].

(٣٤٣) ضرائر الشعر، لابن عصفور، ط: ١، دار الأندلس، القاهرة [١٩٨٠م].



- (٣٤٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٠هـ].
- (٣٤٥) طراز المجالس، لأحمد بن محمد الخفاجي شهاب الدين، المطبعة الوهيبية، القاهرة [١٢٨٤هـ].
- (٣٤٦) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة، ط: ١، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٢٣هـ].
- (٣٤٧) طرح التثريب في شرح التقريب، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، وأكملة ابنه، الطبعة المصرية القديمة.
- (٣٤٨) طريق المهجرتين، لابن القيم، ط: ٢، دار السلفية، القاهرة [١٣٩٤هـ].
- (٣٤٩) طلبة الطلبة، لأبي حفص، نجم الدين النسفي، المطبعة العامرة، القاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد [١٣١١هـ].
- (٣٥٠) عارضة الأحوزي بشرح صحيح الترمذي، لابن العربي المالكي، ودار الكتب العلمية، بيروت، من غير تاريخ.
- (٣٥١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق [١٤٠٩هـ].
- (٣٥٢) العدة شرح العمدة، لبهاء الدين المقدسي، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٤هـ].
- (٣٥٣) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، لناصيف اليازجي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، من غير تاريخ.
- (٣٥٤) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، ط: ١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت [١٤٢٣هـ].
- (٣٥٥) العقد الفريد، لأبي عمر، لابن عبد ربه الأندلسي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٤هـ].
- (٣٥٦) علل النحو، لابن الوراق، ط: ١، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢٠هـ].
- (٣٥٧) علوم القرآن الكريم، لنور الدين العتر، مطبعة الصباح، دمشق [١٤١٤هـ].



٣٥٨ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٥٩ عمدة الكتاب، لأبي جعفر النحاس، ط: ١، دار ابن حزم [١٤٢٥هـ].

٣٦٠ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، ط: ٥، دار الجيل، بيروت [١٤٠١هـ].

٣٦١ العناية شرح الهداية، لأكمل الدين الباري، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٨هـ]، ودار الفكر، من غير تاريخ.

٣٦٢ غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة الكرمانى دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٣٦٣ الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، لتركيا الأنصاري، المطبعة الميمنية، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٦٤ غرر الخصائص الواضحة، وعمر النقائص الفاضحة، لأبي إسحق المعروف بالوطواط، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٩هـ].

٣٦٥ غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحري جامعة أم القرى، ط: ١، مكة المكرمة [١٤٠٥هـ].

٣٦٦ غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي، دار الفكر [١٤٠٢هـ].

٣٦٧ غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط: ١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن [١٣٨٤هـ].

٣٦٨ غريب القرآن، لابن قتيبة دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٨هـ].

٣٦٩ غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، لشهاب الدين أحمد بن محمد الحنفي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

٣٧٠ الفاضل، للمبرد، ط: ٣، دار الكتب المصرية، القاهرة [١٤٢١هـ].

٣٧١ الفائق في غريب الحديث والأثر، لجار الله الزمخشري، ط: ٢، دار المعرفة، لبنان.



- ٣٧٢ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت [١٣٧٩هـ].
- ٣٧٣ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب، ط: ١، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية [١٤١٧هـ].
- ٣٧٤ فتح القدير، لكمال الدين بن الهمام، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- ٣٧٥ فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، ط: ١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت [١٤١٤هـ].
- ٣٧٦ فتح المغيـث بشرح الفية الحديث للعراقي، لشمس الدين السخاوي، ط: ١، مكتبة السنة، مصر [١٤٢٤هـ].
- ٣٧٧ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشف)، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم [١٤٣٤هـ].
- ٣٧٨ الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، لابن علان، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
- ٣٧٩ فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل، دار الفكر، بدون تاريخ.
- ٣٨٠ الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، طبعة دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- ٣٨١ الفريد في إعراب القرآن المجيد، للمنتجب حسين بن أبي العز الهمداني، طبع دار الثقافة، الدوحة، قطر [١٤١١هـ].
- ٣٨٢ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، ط: ١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٩٧١م].
- ٣٨٣ الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٣٨٤) فضائل القرآن، للقاسم بن سلام، ط: ١، دار ابن كثير، (دمشق/بيروت) [١٤١٥هـ].

(٣٨٥) فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، ط: ١، إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].

(٣٨٦) فوائح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، لعبد العلي بن محمد بن نظام الدين، السهالوي الأنصاري اللكنوي الهندي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٣هـ].

(٣٨٧) الفوائد السنية في شرح الألفية، للبرماوي شمس الدين محمد بن عبد الدايم، ط: ١، مكتبة دار النصيحة، المملكة العربية السعودية، أمام الباب الجنوبي للجامعة الإسلامية [١٤٣٦هـ].

(٣٨٨) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣٨٩) فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر [١٣٥٦].

(٣٩٠) القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط: ٨، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٦هـ].

(٣٩١) قانون التّأويل، لأبي بكر بن العربي، ط: ١، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت [١٤٠٦هـ].

(٣٩٢) قُس بن ساعدة الإيادي، (حياته، خطبه، شعره)، لأحمد الربيعي، مطبعة البيان، بغداد، مطبعة النعمان، النجف، [١٣٩٤هـ].

(٣٩٣) قصر الأمل، لابن أبي الدنيا، ط: ٢، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٧هـ].

(٣٩٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣٩٥) قوت المعتزدي على جامع الترمذي، لجلال الدين السيوطي، رسالة الدكتوراة في جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة [١٤٢٤هـ].

(٣٩٦) القول بالتضمنين وأثره في الفروع الفقهية، بحث للدكتور عمر عبد الفتاح محمد إبراهيم، مدرس أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون، دقهلية.

(٣٩٧) الكافي شرح البزدوي، لحسين بن علي بن حجاج السغناقي، ط: ١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٢هـ].

(٣٩٨) الكافي في شرح الوافي، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق.

(٣٩٩) الكافي في فقه الإمام أحمد، لابن قدامة، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٤هـ].

(٤٠٠) الكافية في علم النحو، لابن الحاجب، ط: ١، مكتبة الآداب، القاهرة [٢٠١٠م].

(٤٠١) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ط: ٣، دار الفكر العربي، القاهرة [١٤١٧هـ].

(٤٠٢) كتاب أحكمت آياته، لأحمد محمد جمال، إدارة الصحافة والنشر، مكة المكرمة.

(٤٠٣) كتاب الأفعال، لابن القطاع، ط: ١، عالم الكتب [١٤٠٣هـ].

(٤٠٤) كتاب العين، ينسب لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، دار ومكتبة الهلال، من غير تاريخ.

(٤٠٥) الكتاب، لسيبويه، ط: ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤٠٨هـ].

(٤٠٦) كشف القناع عن متن الإقناع، لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤٠٧) الكشف مع حاشية الجرجاني والإنصاف لابن المنير، ط: ١، دار الفكر [١٣٩٧هـ].

- ٤٠٨) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، لعبد العزيز بن أحمد البخاري الحنفي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- ٤٠٩) كشف الخفاء ومزيل الإلباس، لإسماعيل العجلوني، ط: ١، المكتبة العصرية [١٤٢٠هـ].
- ٤١٠) كشف الظنون، لحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد [١٩٤١م].
- ٤١١) كشف المخدرات والرياض المزهرات لشرح أخصر المختصرات، لعبد الرحمن الخلوئي الحنبلي، دار البشائر الإسلامية، لبنان [١٤٢٣هـ].
- ٤١٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي دار الوطن، الرياض.
- ٤١٣) كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، لأبي بكر بن محمد الحسيني الحصري، تقي الدين الشافعي، ط: ١، دار الخير، دمشق [١٩٩٤م].
- ٤١٤) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٤١٥) كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، لأبي العباس الجرجاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب [٢٠٠٣].
- ٤١٦) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، لمحمد بن يوسف الكرمان، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٠١هـ].
- ٤١٧) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
- ٤١٨) لباب الآداب، لأبي منصور الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
- ٤١٩) اللباب في شرح الكتاب، لعبد الغني الغنيمي الدمشقي الميداني، المكتبة العلمية، بيروت.
- ٤٢٠) لسان الحكام في معرفة الأحكام، لأبي الوليد، لسان الدين بن الشَّخْنَة، ط: ٢، الباي الحلبي، القاهرة [١٣٩٣].
- ٤٢١) لطائف المعارف، لابن رجب، ط: ١، دار ابن حزم، بيروت [١٤٢٤هـ].

(٤٢٢) اللوحة في شرح الملح، لابن الصائغ، ط: ١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية [١٤٢٤هـ].

(٤٢٣) اللمع في العربية، لأبي الفتح بن جني دار الكتب الثقافية، الكويت [١٩٧٢].

(٤٢٤) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، لعبد الحق الدهلوي، دار النوادر، دمشق [١٤٣٥هـ].

(٤٢٥) اللوحة في خصائص الجمعة، للسيوطي، ط: ٢، دار الكتب العلمية [١٤٠٧هـ].

(٤٢٦) المبدع في شرح المقنع، لابن مفلح، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

(٤٢٧) المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة، بيروت [١٤١٤هـ].

(٤٢٨) متن الشاطبية (حزب الأمان ووجه التهاني في القراءات السبع)، للقاسم بن فيره الشاطبي، ط: ٤، مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات القرآنية [١٤٢٦هـ].

(٤٢٩) متن الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي الحنفي، ط: ١، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٦هـ].

(٤٣٠) متن القصيدة النونية، لابن القيم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة [١٤١٧هـ].

(٤٣١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير، دار نخضة مصر، الفجالة، القاهرة.

(٤٣٢) مجازي الكناية في اللغة وعلم البيان والتفسير والفقه وأصوله، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ].

(٤٣٣) مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٣٨١هـ].

(٤٣٤) مجاز القرآن، لعز الدين بن عبد السلام، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن [١٤١٩هـ].

(٤٣٥) المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع، عرض وتحليل ونقد، للدكتور عبد العظيم المطعني، ط: ٢، مكتبة وهبة، القاهرة [١٤١٤هـ].

(٤٣٦) مجالس ثعلب، لأبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، دار المعارف بمصر،
النشرة الثانية، بتحقيق: عبد السلام هارون.

(٤٣٧) المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، دار ابن حزم،
بيروت [١٤١٩هـ].

(٤٣٨) مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، ط: ١، دار المعرفة،
بيروت، من غير تاريخ.

(٤٣٩) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون طبعة
وبدون تاريخ، وطبعة دار الكتب العلمية، ومعه الدر المنتقى في شرح الملتقى، للعلاء
الحصكفي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].

(٤٤٠) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مكتبة
القدس، القاهرة [١٤١٤هـ].

(٤٤١) مجمل اللغة، لابن فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٦هـ].

(٤٤٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر [١٤٢٥هـ].

(٤٤٣) المجموع شرح المذهب، للإمام النووي، دار الفكر.

(٤٤٤) محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني، دار الأرقم، بيروت [١٤٢٠هـ].

(٤٤٥) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح بن جني، وزارة
الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة [١٤٢٠هـ].

(٤٤٦) المحصول، لفخر الدين الرازي، ط: ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٨هـ].

(٤٤٧) المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن بن سيده المرسى، ط: ١، دار الكتب العلمية،
بيروت [١٤٢١هـ].

(٤٤٨) المحلى بالآثار، لابن حزم، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.

(٤٤٩) المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة، لأبي المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مازة البخاري الحنفي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

(٤٥٠) المحيط في اللغة، للصاحب ابن عباد، ط: ١، عالم الكتب، بيروت [١٤١٤هـ].

(٤٥١) مختارات شعراء العرب، لابن الشجري، ط: ١، مطبعة الاعتماد، مصر [١٣٤٤هـ].

(٤٥٢) مختصر ابن الحاجب، ط: ١، دار ابن حزم، بيروت [١٤٢٧هـ].

(٤٥٣) مختصر العلامة خليل، لخليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين الجندي المالكي المصري، ط: ١، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٦هـ].

(٤٥٤) مختصر المعاني (مختصر لشرح تلخيص المفتاح)، لسعد الدين التفتازاني، ط: ١، دار الفكر، قم [١٤١١هـ].

(٤٥٥) مختصر قيام الليل، لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي، ط: ١، حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان [١٤٠٨هـ].

(٤٥٦) المخصص، لابن سيده، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤١٧هـ].

(٤٥٧) مدارج السالكين، لابن القيم، ط: ٣، دار الكتاب العربي [١٤١٦هـ].

(٤٥٨) المدهش، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

(٤٥٩) المدونة، للإمام مالك بن أنس، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

(٤٦٠) مراتب الإجماع، لابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤٦١) مراتب الدلالة، لمحمد الحسن بن الددو الشنقيطي، ط: ١، إصدار مكتب الشؤون الفنية، الكويت [١٤٣٢هـ].

(٤٦٢) مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود، لعبد الله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي، ط: ١، دار المنارة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية [١٤١٦هـ].

(٤٦٣) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة، دار صادر، بيروت [١٣٩٥هـ].

(٤٦٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن سلطان القاري، دار الفكر، بيروت [١٤٢٢هـ].

(٤٦٥) المزهري في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

(٤٦٦) المسالك في شرح موطأ مالك، لأبي بكر بن العربي، ط: ١، دار الغرب الإسلامي [١٤٢٨هـ].

(٤٦٧) المستصفى، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية [١٤١٣هـ].

(٤٦٨) المستطرف في كل فن مستطرف، لشهاب الدين الأبهسي، عالم الكتب، بيروت [١٤١٩هـ].

(٤٦٩) المستقصى في أمثال العرب، لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جاز الله، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٩٨٧م].

(٤٧٠) مسلم الثبوت، لمحبة الله بن عبد الشكور البهاري مع منهواته، المطبعة الحسينية المصرية.

(٤٧١) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض، الطبعة القديمة، المكتبة العتيقة ودار التراث، تونس، القاهرة [١٣٣٣هـ].

(٤٧٢) مشاهير علماء الأمصار لأبي حاتم الدارمي البستي، ط: ١، دار الوفاء، المنصورة [١٤١١هـ].

(٤٧٣) مصابيح الجامع، لمحمد بن أبي بكر، بدر الدين الدماميني، ط: ١، دار النوادر، دمشق [١٤٣٠هـ].

(٤٧٤) مصابيح المعاني، لابن نور الدين الموزعي، ط: ١، دار المنار، القاهرة [١٤١٤هـ].

(٤٧٥) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.



(٤٧٦) المصباح في المعاني والبيان والبديع، لبدر الدين بن مالك، الشهير بابن الناظم، مكتبة الآداب بالحلمية الجديدة.

(٤٧٧) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحيباني مولدا، المكتب الإسلامي [١٤١٥هـ].

(٤٧٨) المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني، وبهامشه حاشية المير سيد شريف، ط١، المكتبة الأزهرية للتراث [١٣٣٠هـ].

(٤٧٩) معالم السنن، لأبي سليمان الخطابي، المطبعة العلمية، حلب [١٣٥١هـ].

(٤٨٠) معاني القراءات، لأبي منصور الأزهري الهروي، ط:١، مركز البحوث في كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية [١٤١٢هـ].

(٤٨١) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج، ط:١، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٨هـ].

(٤٨٢) معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس، ط:١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة [١٤٠٩هـ].

(٤٨٣) معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، ط:١، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

(٤٨٤) معاني القرآن، للأخفش، ط:١، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١١هـ].

(٤٨٥) المعاني الكبير في أبيات المعاني، لابن قتيبة، ط:١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن [١٣٦٨هـ].

(٤٨٦) معاني النحو، للدكتور فاضل صالح السامرائي، ط:١، دار الفكر للطباعة، الأردن [١٤٢٠هـ].

(٤٨٧) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لعبد الرحيم بن أحمد العباسي، ط١، عالم الكتب، بيروت [١٣٦٧هـ].

(٤٨٨) معترك الأقران، لجلال الدين السيوطي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٨هـ].

(٤٨٩) معجم ديوان الأدب، لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي، مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة [١٤٢٤هـ].

(٤٩٠) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، مكتبة الآداب، القاهرة [١٤٢٤هـ].

(٤٩١) معرفة الصحابة، لأبي نعيم مطبوعات، ط: ١، جامعة الإمارات العربية المتحدة [١٤٢٦هـ].

(٤٩٢) معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٧هـ].

(٤٩٣) المعلم بفوائد مسلم، لأبي عبد الله المازري، ط: ٢، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، [١٩٩١م].

(٤٩٤) المغرب في ترتيب المعرب، لأبي الفتح ناصر الدين المطرزي الحنفي، مكتبة أسامة بن زيد، حلب [١٩٧٩].

(٤٩٥) مغني الطلاب، لمحمود حسن المغنيسي شرح متن إيساغوجي، لأثير الدين الأبهري، ط: ١، دار البيروتي، دمشق [١٤٣٠هـ].

(٤٩٦) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، بتحقيق د. مازن المبارك، ط: ٦، دار الفكر، دمشق [١٩٨٥م].

(٤٩٧) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، بتحقيق وشرح: الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، ط: ١، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت [١٤٢١هـ].

(٤٩٨) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

(٤٩٩) المغني، لابن قدامة، لأبي محمد موفق الدين ابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، بدون طبعة [١٣٨٨هـ]، والطبعة الثالثة من عالم الكتب، الرياض، [١٤١٧هـ].



- ٥٠٠) المفاتيح في شرح المصاييح، للحسين بن محمود مظهر الدين بالمظهري، ط: ١، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف الكويتية [١٤٣٣هـ].
- ٥٠١) مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
- ٥٠٢) مفتاح العلوم، ليوسف السكاكي، ط: ٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٧هـ].
- ٥٠٣) المفتاح في الصرف، لعبد القاهر المجراني، ط: ١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٧هـ].
- ٥٠٤) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت [١٤١٢هـ].
- ٥٠٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت [١٤١٧هـ].
- ٥٠٦) المقاصد الحسنة، للسخاوي، ط: ١، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٥هـ].
- ٥٠٧) المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية (شرح الشواهد الكبرى)، لبدر الدين العيني، ط: ١، دار السلام، القاهرة [١٤٣١هـ].
- ٥٠٨) مقاييس اللغة، لابن فارس، طبع دار الفكر، [١٣٩٩هـ].
- ٥٠٩) المقتضب، للمبرد، عالم الكتب، بيروت [١٩٣٦].
- ٥١٠) مقدمة ابن الصلاح (معرفة أنواع علوم الحديث)، دار الفكر، سوريا، دار الفكر المعاصر، بيروت [١٤٠٦هـ].
- ٥١١) المقدمة الجزولية في النحو، لأبي موسى الجزولي المراكشي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥١٢) مقدمة تفسير ابن النقيب، ط: ١، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١٥هـ].
- ٥١٣) المكتفى في الوقف والابتداء، لأبي عمرو الداني، ط: ١، دار عمار، عمان، الأردن [١٤٢٢هـ].



- (٥١٤) مكفرات الذنوب وموجبات الجنة، لعبد الرحمن بن علي الشيباني المعروف بابن الديبع، دار الاعتصام.
- (٥١٥) الملل والنحل، لأبي الفتح الشهرستاني، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة [١٣٨٧هـ].
- (٥١٦) الممتع الكبير في التصريف، لابن عصفور، ط: ١، مكتبة لبنان [١٩٩٦م].
- (٥١٧) منار السبيل منار السبيل في شرح الدليل، لابن ضويان، إبراهيم بن محمد بن سالم، ط: ٧، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤٠٩هـ].
- (٥١٨) مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ط: ٣، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.
- (٥١٩) منة المنان في علوم القرآن، للأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، ط: ١، مطبعة الفجر الجديد، ٤٤ شارع الكباري بمنشية ناصر، الدراسة [١٤١٥هـ]، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة [١٤١٩هـ].
- (٥٢٠) منحة الباري بشرح صحيح البخاري، المسمى، (تحفة الباري)، لتركيا الأنصاري، ط: ١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٦هـ].
- (٥٢١) المنصف، لابن جني، ط: ١، دار إحياء التراث القديم، القاهرة [١٣٧٣هـ].
- (٥٢٢) منهاج العابدين، لأبي حامد الغزالي، دار الطباعة الباهرة، القاهرة.
- (٥٢٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٣٩٢هـ].
- (٥٢٤) الموافقات، لإبراهيم بن موسى الشاطبي، ط: ١، دار ابن عفان، السعودية [١٤١٧هـ].
- (٥٢٥) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لشمس الدين الخطاب الرُّعيني المالكي، دار الفكر [١٤١٢هـ].
- (٥٢٦) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لأبي العباس أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٥٢٧) الموجز في أصول الفقه، لنخبة من علماء كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر في القاهرة، عبد الجليل القرنشاوي، ومحمد فرج سليم، ومحمود شوكت العدوي، والحسيني يوسف الشيخ، الأخوة الأشقاء في القاهرة [١٩٦٥م].

٥٢٨) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤٢٧هـ].

٥٢٩) الموضوعات، لابن الجوزي، ط: ١، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة [١٣٨٦هـ].
٥٣٠) الميسر في شرح مصابيح السنة، لشهاب الدين التُّورِيشِي، ط: ٢، مكتبة نزار مصطفى الباز [١٤٢٩هـ].

٥٣١) النبأ العظيم، لمحمد بن عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع [١٤٢٦هـ].
٥٣٢) نتائج الفكر في النحو، للسُّهَيْلي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٢هـ].
٥٣٣) نثر الورود على مراقبي السعود، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق وإكمال تلميذه: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي، ط: ١، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية [١٤١٥هـ].

٥٣٤) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، لابن حجر العسقلاني، ط: ٣، مطبعة الصباح، دمشق [١٤٢١هـ].

٥٣٥) نشر البنود على مراقبي السعود، لعبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية، وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة. بلا تاريخ.

٥٣٦) نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الأملعي في تخريج الزيلعي، لجمال الدين الزيلعي، ط: ١، مؤسسة الريان، بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة [١٤١٨هـ].

٥٣٧) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، للرملي، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤هـ].



- ٥٣٨) نهاية الوصول في دراية الأصول، لصفي الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموي الهندي، رسالتنا دكتوراة بجامعة الإمام بالرياض، ط: ١، المكتبة التجارية بمكة المكرمة [١٤١٦هـ].
- ٥٣٩) النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير، دار الجيل، بيروت [١٤٠٨هـ].
- ٥٤٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين ابن الأثير الجزري، ط: ١، المكتبة العلمية، بيروت [١٣٩٩هـ].
- ٥٤١) نهج الأبرار في اجتناب ما توعده عليه بالنار، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط: ١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
- ٥٤٢) نوارد الأصول في أحاديث الرسول، لأبي عبد الله، الحكيم الترمذي، دار الجيل، بيروت.
- ٥٤٣) نيل الأوطار، للشوكاني، ط: ١، دار الحديث، القاهرة [١٤١٣هـ].
- ٥٤٤) الهداية في شرح بداية المبتدي، لبرهان الدين المرغيناني، دار احياء التراث العربي، لبنان، بيروت، من غير تاريخ.
- ٥٤٥) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي، المكتبة التوفيقية، مصر.
- ٥٤٦) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن الواحدي، ط: ١، دار القلم، والدار الشامية، دمشق، بيروت [١٤١٥هـ].
- ٥٤٧) الوساطة بين المتنبي وخصومه، لأبي الحسن الجرجاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، من غير تاريخ.
- ٥٤٨) الوسيط في المذهب، للإمام الغزالي، ط: ١، دار السلام، القاهرة [١٤١٧هـ].
- ٥٤٩) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
- ٥٥٠) اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر، لعبد الرؤوف المناوي، مكتبة الرشد بالرياض [١٩٩٩م].



المؤلف في سطور:

الاسم: عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

الميلاد: من مواليد مدينة حمص في سوريا.

محل الإقامة: الكويت، محافظة الفروانية، ضاحية عبد الله المبارك الصباح.

المؤهل والخبرات:

١ - حاصل على شهادة المعهد العلمي الشرعي التابع لجمعية العلماء في مدينة (حمص) بتاريخ (١٥/١٢/١٤١٣هـ)، بتقدير: (امتياز). وعلى شهادة الثانوية الأزهرية (القسم الأدبي) من (القاهرة).

٢ - حاصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر في (القاهرة)، بتاريخ (٢) من ربيع الآخر [١٤١٨هـ]، (٦/أغسطس/١٩٩٧م) بتقدير: جيد جداً، قسم التفسير وعلوم القرآن.

٣ - حاصل على درجة دبلوم الدراسات العليا (الماجستير) في التفسير وعلوم القرآن، وذلك بعد مناقشة رسالة بعنوان: (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسر)، وذلك يوم الأربعاء الواقع في (٧/ذي الحجة/١٤٢٤هـ)، الموافق (٢٩/١/٢٠٠٤م). وقد طبعت رسالة الماجستير مع تحقیقات وزيادات وتعديلات جديدة بعنوان (وسائل الإقناع في القرآن) في دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٤ - حاصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، بعد مناقشة رسالة بعنوان: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم). دراسة تحليلية شاملة لأساليب الخطاب والطلب في القرآن

الكریم. وذلك يوم السبت الواقع في (٢٠١١/٧/٣٠)، الموافق (٢٩/شعبان/١٤٣٢هـ). وقد طبعت رسالة الدكتوراه في مجلدين مع تحقیقات وزيادات وتعديلات جديدة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

عمل إمامًا وخطيبًا ومدرّسًا في (سوريا)، وكذلك في (الكويت) ولا يزال. وعمل مُؤجَّهًا فنيًا في المراقبة الثقافية في وزارة الأوقاف إدارة مساجد محافظة (الفروانية)، ثمَّ باحثًا شرعيًا ومُؤجَّهًا [٢١] عامًا في (المراقبة الثقافية في إدارة مساجد محافظة الفروانية)، وإمامًا وخطيبًا في محافظة (الفروانية) [٢٢] عامًا، ولا يزال.

ومدرّسًا في كلية التربية الأساسية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية (الكويت - العارضية).

بعض المشايخ الذين عاصرهم وانتفع بهم:

في مدينة حمص:

- ١ - الشيخ محمود جنيد كعكة رَحْمَةُ اللَّهِ.
- ٢ - الشيخ أبو السعود بسمار رَحْمَةُ اللَّهِ.
- ٣ - الشيخ أحمد الكعكة رَحْمَةُ اللَّهِ.
- ٤ - الشيخ محمد جندل الرفاعي رَحْمَةُ اللَّهِ.
- ٥ - الشيخ عزت عبيد الدعاس رَحْمَةُ اللَّهِ.
- ٦ - الشيخ عبد الوكيل صافي رَحْمَةُ اللَّهِ.
- ٧ - الشيخ إسماعيل المجذوب حفظه الله.
- ٨ - الشيخ وحيد بحلاق رَحْمَةُ اللَّهِ.

في مصر:

- ١ - الأستاذ الدكتور العلامة إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحْمَةُ اللَّهِ شيخ المفسرين في (عصره).
- ٢ - الأستاذ الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر رَحْمَةُ اللَّهِ.

٣ - الأستاذ الدكتور عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي رَحِمَهُ اللهُ.

٤ - الأستاذ الدكتور سعد رزق جاويش رَحِمَهُ اللهُ.

٥ - الأستاذ الدكتور إسماعيل الدفتار رَحِمَهُ اللهُ.

٦ - الأستاذ الدكتور محمد محمد الشريف حفظه الله.

٧ - الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق رَحِمَهُ اللهُ.

٨ - الأستاذ الدكتور عبد المعطي بيومي رَحِمَهُ اللهُ.

٩ - الأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي حفظه الله.

الكتب والمؤلفات:

١ - الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى: [١٤٤٣هـ، ٢٠٢١م].

٢ - (مَجَارِي الكِنَايَةِ فِي اللُّغَةِ وَعِلْمِ البَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ وَالفِقْهِ وَأُصُولِهِ).

جاء في مقدمة الكتاب: "وقد كنتُ قد بحثُ من مقاصدِ علم البيان كلاً من: (التشبيه، والاستعارة، والمجاز المرسل)، في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، ووعدتُ بأن يكون مبحث الكناية في صدر الجزء الثاني من كتابي: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

ولما رأيت ما للكناية من تشعبات في علوم متنوعة رأيتُ إفرادها البحث؛ لحاجة طالب العلم، والباحث في علوم: (اللغة، والبلاغة، والتفسير، والفقه، وأصوله) لمعرفة مجاري الكناية في هذه العلوم".

الطبعة الأولى، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ]، الموافق [٢٠٢٣م].

٣ - (الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية) (إضاءات على تعريف التفسير

العلمي وضوابطه، ومبادئه العشرة)، العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

وقد طبع قسم منه في (جامعة النيلين)، السودان. بعنوان: (مبادئ التفسير العلمي لنصوص القرآن الكريم وضوابط التعريف)، كبحث (محكم).

٤ - (وسائل الإقناع في القرآن الكريم)، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٥ - (أساليب الخطاب في القرآن الكريم)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

٦ - (التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري)، وقد كان طبع في وزارة الأوقاف، في إدارة مساجد محافظة الفروانية، في دولة الكويت سنة [١٤٣٥هـ]، الموافق [٢٠١٤م]، رقم الإيداع ٢٠١٤/٤١. WWW.islam.gov.kw. بعنوان: (أخطار تهدد الأسرة). وأعيد طبعه في (دار اللؤلؤة)، مع إضافات وبعض التعديلات.

وقد اعتمد جزء منه كبحت محكم، في كلية الدراسات الإسلامية، مدينة: (نوفي بازار)، جمهورياً صربياً، وطبع في كتاب: (المؤتمر العالمي: العلوم الإنسانية والشرعية قضايا ومناهج وآفاق) في (٢٨-٢٩ يوليو/تموز ٢٠٢١م، كلية الدراسات الإسلامية، مدينة نوفي بازار، جمهورياً صربياً، (ص: ٥٤٤-٥٦٦).

٧ - (الحبة صورها وأحكامها، وزارة الأوقاف)، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ]. أعيد طبع الكتاب بإصلاحات وإضافات وتحقيقات جديدة في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثالث بإصلاحات جديدة، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٨ - (عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها)، والكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعاً من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. طبع في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

- ٩ - (دروس وعبر من رحلة سيد البشر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). كتيب. وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الطبعة الأولى [١٤٣٩هـ]، [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].
- ١٠ - (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار). والكتاب يتناول موضوعات كثيرة من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].
- ١١ - (سبيل الوصول إلى عنوان الأصول) (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].
- ١٢ - (الإرشاد إلى أسباب النجاة، والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة)، الطبعة الأولى، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ]، الموافق [٢٠٢٣م].
- ١٣ - (أساليب النداء في القرآن الكريم)، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادى، والمنادى، وما ولي الأداة والمنادى)، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].
- ١٤ - (تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز)، شرح وتحقيق كتاب الجنائز للفقير إلى رحمة ربه العلي إبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنة [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].
- ١٥ - (آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م]، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].
- ١٦ - (كتب عليكم الصيام)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م].
- ١٧ - (ثلاث رسائل في الفقه)، للعلامة حسن الشرنبلالي المتوفى سنة [١٠٦٩هـ]، وهي على النحو التالي:

- أ. (دُرُّ الْكُنُوزِ فَمَنْ عَمِلَ بِهَا بِالسَّعَادَةِ يَفُوزُ). وهي منظومة في أحكام الصلاة.
- ب. (سعادة الماجد بعمارة المساجد).
- ج. (إتحاف ذوي الإتيان بحكم الرهان). مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].
- ١٨ - (عنوان الأصول)، لأبي حامد المطرزي. مع شرحنا له، مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].
- ١٩ - (أحكام الجنائز)، لإبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنة [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].
- ٢٠ - (إتحاف المهتدين بمناب أئمة الدين) مختصر (تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين) للشيخ مرعي الحنبلي، اختصار الشيخ أحمد الدمنهوري المتوفى سنة [١١٠١هـ]، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].
- ٢١ - تحقيق ودراسة وشرح منظومتي الشهداء:
- أ. (داعي الهدى بشرح منظومة الشهداء)، للإمام أحمد بن عبد الرزاق المغربي الرشيدي.
- ب. (شرح منظومة الشهداء)، للإمام علي بن محمد الأجهوري، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].
- ٢٢ - (تحقيق ودراسة رسالتان في الأصول)، لإسماعيل بن غنيم الجوهري المتوفى سنة [١١٦٥هـ]:
- أ. (رسالة في جواز النسخ).
- ب. (الكلم الجوامع في مسألة الأصولي لجمع الجوامع)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].
- ٢٣ - دراسة وتحقيق (سورة الفاتحة) من التيسير في التفسير المسمى ببحر علوم التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد النسفي [٥٣٧هـ]، لم يطبع.

٢٤ - تحقيق ودراسة وشرح لكتاب: (إتمام الدراية شرح نقاية العلوم)، وهي خلاصة مختارة من أربعة عشر علمًا، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة [٩١١هـ]، دار الضياء، الكويت، طبع في مجلدين، وقد شارك في تحقيق (إتمام الدراية) الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ.

٢٥ - (الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة)، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٦ - (الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة)، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٧ - تحقيق ودراسة لكتاب: (تبيين المحارم)، للإمام سنان الدين يوسف بن عبد الله الأماسي الحنفي، نزيل مكة، والمتوفى بها في حدود سنة ألف للهجرة، مقابل على سبع مخطوطات، بالاشتراك مع الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وأ.د إقبال عبد العزيز المطوع، لم يطبع بعد. وفي الكتاب ما يقرب من مائة باب من المحرمات، مرتبة على ترتيب ما وقع في القرآن من الآيات، والكتاب في طور الإعداد للطبع.

٢٨ - (مختارات من خطب الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان)، لم يطبع.

٢٩ - الجزء الثاني من (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، لم يطبع.

٣٠ - الزَّمان والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار:

وقد جاء فيه: بيان مفهوم الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع، والألفاظ ذات الصلة، ثم التجوز في الأفعال في قصص القرآن، ثم بيان دلالات ومقاصد القسم بالزمن في القرآن الكريم، ثم بيان مقاصد القصص والأخبار، ثم بيان الأزمنة الفاضلة، ثم ذكر الألفاظ يحتاجها المفسر والفقهاء مع بيان دلالاتها وما يتصل بها من أعمال، وذكر أسماء وأفعال الزمن الحال والمقارب، وأفعال المقاربة والشروع، وأسماء الزمن المتجدد أو ما يغلب استعماله في التجدد، والزمن الخاص بالمرأة، وما يغلب إطلاقه في الاصطلاح الشرعي على ما يخص المرأة، وأسماء السنة وبيان أجزائها، ودلالة الفعل وأقسامه على

الزمن، دلالة النواسخ الفعلية على الزمان، ودلالة الحال، ودلالة اسم الزمان والظرف في اللغة، والدلالة على الزمن باعتبار الإضافة والقطع عنها، والدلالة على الزمان باعتبار الشرط والاستفهام، وغير ذلك.



إنَّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المنزل على خير خلقه صلى الله عليه وسلم، فهو الهادي إلى صراط مستقيم، وهو جبل الله عز وجل المتين، وإن القصص فيه هي أصدق القصص، وأنفعها للمكلف، وهي من أعظم أسباب الهداية، وقد وقع الإخبار فيها عن أحوال الأمم، والنبؤات السَّالِفَة، بأسلوب مشوق، باعث على التأمل والتفكير فيما تتضمَّنه من حقائق وعبر؛ يقصد منها: الهداية والإرشاد إلى طريق الحقِّ، والاعتبار بالعواقب لكلِّ عمل يقدم عليه الإنسان في حياته الدنيا، فهو ينظر بعين البصيرة إلى عاقبة من عمل صالحًا فأثمر ذلك العمل استقامة وصلاحًا، وراحة واطمئنانًا، وحياة طيبة، وحسن جزاء في الآخرة، وإلى مآل من ضلَّ وانحرف، فبغى وظلم، فنزل به عقاب الله عز وجل، وهو في الآخرة من الخاسرين. وذكرت في العنوان: ركيزتي القصد من القصص والأحاديث والأخبار في الكتاب والسنة، وهما: الهداية والاعتبار، فهما المقصد الأساس الذي ينبغي أن يلتفت إليه، دون التفات في الغالب إلى الزمان والأشخاص والمسافات. وإن كان في النصوص اعتبار للزمن فلنكتة ظاهرة، لا تخفى على متأمل من أولى البصائر. وقد مهدت لذلك بذكر مصطلحات البحث، والألفاظ ذات الصلة والمقاصد والدلالات. ثم بسطت القول في بيان مفهوم الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع، ثم التجوز في الأفعال في قصص القرآن، ثم بيان دلالات ومقاصد القسم بالزمن في القرآن الكريم، ثم بيان مقاصد القصص والأخبار، ثم بيان الأزمنة الفاضلة، وقد ذكرت في خاتمة الكتاب بعض ألفاظ الزمان الأكثر تداولًا في الكتاب والسنة ودلالاتها في اللغة والتفسير والفقه.

و بحمد الله ونعم الوكيل

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بحوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979